مصر في الحرب العالمية الأولى

د. لطيفة محمد سالم



مصر فى الحرب العالمية الأولى

١٩١٤ - ١٩١٨

د . لطيفة محمد سالم

كلية الآداب - بنها



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٤

الاخراج الفنى	تصميم الغلاف
راجيـة حسين	سعد الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

« مصر فى الحرب العالمية الأولى » معنى له مغزاه الواسع والمتشعب ، وهو موضوع لم يدرس من قبل دراسة علمية صحيحة ، ولم يقتصر على التاريخ السياسى الذى لجأ اليه الكثيرون من أصحاب هذا الاتجاه بتناول فترة طويلة من الزمن ، يؤرخون لها ، ويتتبعون أحداثها ، ويعرضون لأبرز الشخصيات فيها • انما هو مزيج مختلط له طابعه الخاص جمع بين السياسة والاقتصاد والاجتماع فى اطار موحد وشامل ليخرج شكلا له طابعه الأصيل • ولهذا فان هذه الدراسة تخدم المذهب الجديد للمؤرخين لأنها انصبت فى كنه متطور للأسس الأكاديمية لكتابة التاريخ •

طرقت كل الأبواب لهذا الموضوع الحى حتى تمكنت من اخراجه الى حيز الوجود ، حيث أننا فى هذه الآونة فى حاجة ملحة وضرورية الى الكشف عن الجانب المغفل من تاريخنا القومى وخاصة أوضاع مصر فى هذه الفترة الحرجة والتى كان لها دور فى تاريخ مصر النضالى •

وصادفت الدراسة صعوبات جمة يتعلق بعضها بصعوبة الحصول على الوثائق والمصادر الأصلية ، وحتى عند العثور على بعضها كان الأمر صعبا لتداخل التواريخ والموضوعات وعدم التنظيم والترتيب داخل دور المحفوظات والوزارات والمصالح الحكومية • هذا بالاضافة الى ندرة المراجع التى ركزت أحداثها على هذه الفترة ، ثم مشقة الدوريات التى كانت معاصرة لفترة الحرب ، فهناك مشكلة عدم اكتمال أعدادها اذ عمل فيها الزمن الشىء الكثير ، فمنها الممزق ، ومنها المتآكل ، ومنها المفقود • وهذا يحتاج من الباحث الى معايشة كاملة لها حتى يستطيع أن يقارن بينها من ناحية ، وأن يتحقق مما ورد فيها من أخبار ووقائع وأحداث من

ناحية أخرى • هذا فضلا عن الاستعانة بالمذكرات الشخصية ومقارنة بعضها بالبعض وادراك اتجاهات أصحابها ، علاوة على الرجوع للمصادر الحية أى الأشخاص الذين عاصروا أحداث الدراسة أو اشتركوا فيها والتأكد من سلامة أوراقهم • وكان لا بد من ربط الحقائق برباط دقيق يقوم على المقارنة والوصول الى النتائج المرضية • وأخيرا أضع بين أيديكم هذا المجهود عله ينال رضاكم ، وأكون قد قدمت لمصر صفحة نقية من تاريخها المجيد •

وتحتوى الدراسة على خمسة فصول بالاضافة الى المدخل والختام • والبداية مع المدخل الذى يشير لأساسيات السياسة الانجليزية فى مصر منذ عهد الاحتلال وحتى اعلان الحرب العالمية الأولى •

ويشمل الفصل الأول « الحالة السياسية » اعلان الحرب وأثره فى الموقف السياسى داخل مصر ، وخطوات بريطانيا بشأن تغيير حالة مصر السياسية وترنحها ما بين الضم والحماية ، وعزل خديويها عباس حلمى الثانى وتولية الأمير حسين كامل سلطانا عليها ، وتفضيل اعلان الحماية البريطانية على مصر ، والظروف التى مرت بها فى ظل الحماية ، واعتلاء الأمير أحمد فؤاد عرش السلطنة المصرية ، ونهاية الحرب وتاليف الوفد المصرى ، ثم الاعتراف الدولى بالحماية •

ويتناول الفصل الثانى « الحياة الاقتصادية » فيتتبع خطوات الوضع المالى ، ويلقى الضوء على الميدان الزراعى من قطن وباقى المحصولات وانتاج حيوانى ثم يوضح حالة الصناعة ، كما يتعرض للتجارة •

ويبين الفصل الثالث « الأوضاع الاجتماعية والمظاهر الثقافية » عناصر الخريطة الاجتماعية لمصر : الأجانب ، كبار ملاك الأراضى ، المثقفون ، التجار ، العمال ، الفلاحون • ويتعرض لأمراض المجتمع المصرى فى هذه الفترة من فقر وجرائم وافعال وسلوك جنود الامبراطورية البريطانية ، ثم يعرج على التيارات الثقافية وما ينطوى تحتها : التعليم ، الصحافة ، الفكر ، المسرح •

ويشكل الفصل الرابع « المجهود الحربى » وفيه يتحدد ما سعى اليه أعداء بريطانيا ورد الفعل الانجليزى فى مصر ، ودور كل من الجيش المصرى والرديف ، وفيلق العمال ، وفيلق الجمالة ، والعمل الميدانى وجمع الدواب ، ومصادرة الأقسوات ، والخدمات

الصحية ، وتحصيل الأموال ، والاستحواذ على المبانى والأراضى ، وما ألزمت به المصالح والهيئات ٠

وأخيرا يأتى الفصل الخامس « الحركة الوطنية » ليصور ردود فعل الأحداث السابقة على الشعب وتصرفات الانجليز ازاء الموقف واجراءات القمع والترجمة العملية للمصريين تجاه ذلك ، واستمرارية سياسة العنف الانجليزية ثم الحركة الوطنية خارج مصر ٠

والنهاية الختام الذى يعطى حصرا لما عاشته مصر أثناء الحرب العالمية الأولى ٠

والله ولى التوفيق ٠

دكتورة لطيفة سالم

مدخل

عرض سريع للسـياسة الانجليزية فى مصر ابان عهـد الاحتلال ١٨٨٢ ـ ١٩١٤

بعد انكسار الثورة العرابية احتل الانجليز مصر فى الوقت الذى كانت فيه من الناحية الرسمية لها استقلالها الذاتى بمقتضى معاهدة لندن والفرمانات التى منحتها الدولة العثمانية لها ، ومالأت انجلترا الرأى العام العالمى ، وأعلنت أن مهمتها فى مصر موقوتة ، وتعددت تصريحات مسئوليها بأن الجلاء عن أرضها آجله قريب ، ولكن ما أعلنه ساستها شىء والواقع شىء آخر ٠

سارت سياسة انجلترا ابان الاحتلال فى أربع اتجاهات تمكنت من خلالها السيطرة على الموقف فى مصر ٠

الأول : محاولة اقناع الدول بأن مصر لانجلترا والسعى للاعتراف بالوضع القائم فيها ٠

الثانى : تخطيط علاقاتها مع الدولة العثمانية صاحبة السيادة الشرعية على مصر ٠

الثالث : الارتباط بينها وبين الخديوى الحاكم المستمد سلطته من خليفة المسلمين فى تركيا ٠

الرابع : موقفها تجاه الحركة الوطنية ٠

وامتزجت هذه الاتجاهات فى تركيبة خاصة ، تمكنت انجلترا بها من أن تحقق أغراضها ٠

الاتجاه الأول :

منذ البداية راحت انجلترا تعمل على تهيئة المناخ الدولى ، وكانت فرنسا أولى الدول التى هنأت انجلترا بانتصارها فى التل الكبير واعتبرته انتصارا لها فى الجزائر وتونس ، ورغم ذلك فمنذ اللحظة الأولى لاحتلال انجلترا مصر رأت

ضرورة ابعاد النفوذ الفرنسى منها ، وكانت المراقبة الثنائية أولى تلك الخطوات . فألغتها فى ١٨ يناير ١٨٨٣ حيث عقدت عزمها على الانفراد بالمراقبة المالية ، ولم تعبأ بالمعارضة الفرنسية ، ومضت تعمل على الحد من الدولية التى نفشت فى الادارة المصرية واحلال الانجليزية محلها ، فأصبح الانجليز يسيطرون على الجيش والبوليس والمالية والأشغال والحقانية والمعارف .

وتأزم الموقف بين الدولتين ، وكانت حادثة فاشودة التى أرادت منها فرنسا مناوأة النفوذ الانجليزى فى مصر ، لكن سرعان ما صفيت الأمور أمام الخطر الألمانى الذى يهددهما ، وكان للملك ادوارد السابع ملك انجلترا وللورد كرومر المعتمد البريطانى فى مصر دور فى سياسة التعاون بينهما الذى انتهى بالاتفاق الودى عام ١٩٠٤ ، ووضح فيه تبادل المصالح بين الدولتين بشأن الأوضاع فى مصر ومراكش ، ووافقت الدول عليه ، وبذلك أصبح لانجلترا وضع شرعى فى مصر ، ولم تعد نقطة ضعف فى الدبلوماسية الانجليزية .

ولما كانت روسيا حليفة لفرنسا فى ذلك الوقت ، فرأت انجلترا أن تعقد معها عام ١٩٠٧ اتفاقا هادفة الاستئثار بالمسألة المصرية .

أما ألمانيا ، فحسنت انجلترا علاقتها بها وتراجعت عن موقفها بشـــأن المشروعات الاستعمارية الألمانية فى غرب أفريقيا حتى لا تعارضها فى مصر .

وأيدت الولايات المتحدة موقف انجلترا فى مصر ، فمجد روزفلت بالاحتلال الانجليزى ، وقد اعترف جراى أن حكومته كانت على تفاهم مع حكومة الولايات المتحدة فى هذا الشأن .

الاتجـاه الثـانى :

غمضت سياسة انجلترا تجاه الدولة صاحبة السيادة على مصر ، فكثيرا ما كانت تعلن لها عن نيتها فى سحب جيوشها منها ، وكثيرا ما حددت الميعاد . وقلقت الدولة العثمانية لهذا الوضع ، فاستعانت بجمال الدين الأفغانى صاحب صيحة وحدة العالم الاسلامى التى هى قبلته ، وعندما أرادت تعيين الحدود بين مصر وممتلكاتها رأت أن تضم العقبة وملحقاتها وشبه جزيرة سيناء الى ولايـة الحجاز ، وأرسلت الفرمان الجديد لعباس الثانى فى ١٧ يناير ١٨٩٢ حاملا هذا المعنى .

اعتبرت انجلترا أن ذلك تهديدا للمصـالح الانجليزية فى مصر ، وأمر كرومر بعدم قراءة الفرمان ، ومضى ضغط انجلترا عليها حتى تراجعت فى الأمر ، وتبع ذلك أن طلب كرومر من وزير الخارجية المصرية عدم احداث أى تغيير فى العلاقات بين مصر والدولة العثمانية الا بموافقة انجلترا .

وعادت الدولة العثمانية مرة أخرى فى أوائل عام ١٩٠٥ لعرقلة مسار انجلترا فى مصر بعد أن تحسنت ظروفها الداخلية والخارجية ، فنضجت مسألة الجامعة الاسلامية ، وأصبح الشعور الوطنى فى مصر قريبا منها بفضل مجهودات الحزب الوطنى ، وظهور ألمانيا كدولة قوية يمكن للدولة العثمانية الاعتماد عليها فأثارت مسألة الحدود ، وعندما أحست انجلترا بالموقف أعدت سيناء للأعمال الحربية ، واعتدى الأتراك على سيناء ، واحتلوا طابة لمد السكة الحديد من معان إلى العقبة ، وطالبت انجلترا الدولة العثمانية باسم مصر أن تجلو عن طابة ، هذا فى الوقت الذى توقعت فيه تركيا تأييد الدول لها ، فخاب أملها فى ذلك ، ففرنسا وروسيا كانت ميولهما لانجلترا ، وألمانيا فضلت الحياد . لهذا تراجعت وانسحبت فى مايو ١٩٠٦ بالرغم من أنها الدولة صاحبة الحق فى استرداد وديعتها ، لكن وقوف انجلترا لها بالمرصاد وعدم موافقتها على نقل شبر من الأرض المصرية لها بدا وكأن انجلترا أصبحت صاحبة السيادة الرسمية على مصر .

وجاءت الحرب الطرابلسية فى صيف عام ١٩١١ اذ أعلنت ايطاليا الحرب على الدولة العثمانية فى برقة وطرابلس الغرب ، ووقفت مصر منها موقف الحياد ، وهذا ما أملته عليها سلطات الاحتلال ، وكان باكورة أعمال كتشنر بالرغم من مخالفته لمعاهدة لندن ، ولكن انجلترا لم تستطع أن تحول بين المصريين واخوانهم ، فقدموا الذخيرة والأموال والمؤن والمعونات الطبية .

وتكرر حياد مصر فى حرب البلقان عام ١٩١٣ ، وبذلك أصبح ما يربط مصر بالدولة العثمانية لا يقره ولا يعترف به أحد ، ونجحت انجلترا في الاستحواذ على مصر ، وما لبث الأمر أن قامت الحرب العالمية الأولى لينقطع كل رباط بين مصر والدولة العثمانية .

الاتجاه الثالث :

رأت انجلترا أن تحدد الشكل الذى تتخذه العلاقة بين كل من الخديوى وحكومته وبين سلطات الاحتلال تلك التى كان عليها أن تكون سيدة الموقف . وكان توفيق أول حاكم لمصر فى ظل الاحتلال ، علمته ثورة قوى مصر جميعها بأنه لابد وأن يرتمى فى أحضان انجلترا ، فهو مدرك أنه مدين بعرشه للانجليز، ومن هنا أصبح طوع أمرهم .

وجاء عباس حلمى الثانى ، فأشعره الانجليز أنه تولى العرش بفضلهم اذ تم حساب سنه بالتقويم الهجرى ولم يتعين له مجلس وصاية . ورغم محاولات كرومر لكسبه الا أنه أراد أن تكون له شخصيته ، فكون حاشية جديدة ، وأعطى العفو لرجال الثورة العرابية ، وراح يرسل أوامره رأسا الى المديريات ، وأقال رئيس الوزراء مصطفى فهمى الموالى للانجليز وعين حسين فخرى بدلا منه فى

١٥ يناير ١٨٩٣ ، فكان لهذا دوى كبير داخل مصر وخارجهـا ، واندهشت انجلترا ورفضت الوزير الجديد وأصر عباس على موقفه ولكن انتهى الأمر بتكوين وزارة رياض بعد أن هددته الحكومة الانجليزية بالعزل ٠

منذ البداية رأى عباس توثيق صلته بالجيش وتقويض سلطة كتشنر سردار الجيش المصرى وبذلك يصبح له النفوذ على الجيش ، وكانت حادثة أزمة الحدود عام ١٨٩٤ حين سافر عباس الى مديرية الحدود وأبدى انتقاداته لنظام الجنود وتدريبهم أمام السردار الذى غضب وأبلغ لندن فأمرت بعزل وزير الحربية وكان عبـاس قد عينه ، وطلبت من الخديوى أن يقـدم الاعتـذار وآلا عزل ٠ ورضخ عباس للأمر خاصة بعد أن صرحت انجلترا بوجوب احلال الأمير محمد على على عرش مصر مكانه ٠

وراح عباس يسلك طريق الود والصداقة مع كرومـر فى الوقت الذى يقوم بمجهودات سرية ضد الانجليز ، ففى عام ١٨٩٥ ألف بالاتفاق مع مصطفى كامل لجنة سرية للدفاع عن مصر ضد الانجليز بالكتابة فى الصحافة فى مصر وباريس بأسماء مستعارة ، ولم يكن ذلك يتم عن وطنية عباس اذ أنه لجأ الى ذلك لصرامة رقابة كرومر وطغيانه وسيطرته ، فلم يترك له شيئا الا الشكل الرسمى والعنوان الظاهرى ٠ هذا بالاضافة الى سوء العلاقة التى كانت السمة بين عباس والدولة العثمانية ٠ اذن فلا بد له من الاعتماد على الحركة الوطنية التى كانت تعطيه ولا تسلبه ٠

أرادت انجلترا احباط مساعى عباس ورأت أنه من المصلحة أن تغير كرومر بآخر يمكن له أن يهادن الحركة الوطنية من جهة خاصة بعد دنشواى ، والخديوى من جهة أخرى ٠ ووقع الاختيار على جورست صاحب الخبرة فى الادارة المصرية والعلاقات الطيبة مع عباس فأراد أن يستخدمه للقضاء على الحركة الوطنية ٠

ونجحت سياسة الوفاق بعد العداء ، وأطلقت يد عباس فى بعض الشئون العامة والأوقاف وأعطى بعض الحقوق فى منح الرتب والنياشين ، بل انه عنـد تأليف وزارة بطرس غالى فى نوفمبر ١٩٠٨ سمح له بترشيح بعض أنصاره ، وتخلى عباس عن الحزب الوطنى وحاربه عن طريق حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية ، ووصل جورست الى ما كان يصبو اليه ٠

لم يستمر الأمر على هذا الحال اذ أرادت انجلترا أن يعود العهد الكرومرى لمصر عقب وفاة جورست بعد أن أيقنت أنه لا بد من تركيز كل السلطة فى يد رجلها وحده خاصة بعد مقتل بطرس غالى فأصبح من الخطأ عزو الحركة الوطنية الى عباس ٠

واختارت لندن كتشنر ليحكم مصر ، ذلك العسكرى الصارم والذى كانت تربطه بعباس ذكريات تركت بصماتها السيئة فى نفسيته ، فكان لا بد له من الانتقام ، فأصبح الحاكم بأمره حتى فيما يمتلكه عباس ، وسحبت منه السلطة

الخاصة بادارة الأوقاف وأصبح لها وزارة مستقلة تحت الرقابة الانجليزيـة ، ووافقت الدولة العثمانية على ذلك ، وعندما اعترض عباس هدد بالعزل ، وأشيع أن كتشنر يريد أن يكون له مقام فى سراى عابدين ٠ ولم يصبح للخديوى عمل غير زيارة مزارعه وانزوى بعيدا لدرجة أنه فكر أن يتخلص مما هو فيه بالتنازل عن العرش لولى عهده ٠ هذا فى الوقت الذى صمم فيه كتشنر على ضرورة خلعه ، فعندما سافر الى لندن فى يونيو ١٩١٤ كان عاقدا النية على تنفيذ ذلك ، وسرعان ما قامت الحرب العالمية الأولى وتولى وزارة الحربية الانجليزية وتم له ما أراد ٠

الاتجاه الرابع :

كان لا بد لانجلترا من وأد الحركة الوطنية ، فمنذ اللحظة الأولى لاحتلالها اعتقدت أنه بتلك الاجراءات التى اتخذتها عقب تصفيتهـا للثورة العرابية قد استأصلت جميع الاتجاهات الثورية لكنها لم تتمكن ، فالنزعة الوطنية استمرت مسيطرة على المصريين الذين أرادوا الانتقام منها فتكونت جمعيـة الانتقام ، وواضح من اسمها مهامها ، ولكن لم تكمل برنامجها بعد أن أجهـز الانجليز عليها ، ومضى طريق المقاومة عن طريق الصحـافة ، فكانت « الأستاذ » التى أنشأها النديم فى ٢٣ أغسطس ١٨٩٢ وجهة المثقفين الذين أخذوا على عاتقهم زعامة الحركة الوطنية ، وقد ساعدهم على ازدياد نشاطهم ، الخديوى الذى تقرب منهم وسمح لهم بعقد الجلسات فى قصره ، وبذلك تأسس الحزب الوطنى سرا عام ١٨٩٦ الذى برز فيه مصطفى كامل ومحمد فريد ٠

كان كرومر بالمرصاد للحركة الوطنية فأراد احتواءها حتى يمكنه قذفها والتفريق بين عباس وبينها لكنه لم يستطع أمام تيار الحركـة ، فنفى النديم المتقد حماسة لكن مصطفى كامل حمل لواء المحاربة عن طريق الصحف سـواء القائمة أو التى أنشأها داخل مصر وخارجها ، وأراد تأليب الرأى العام الدولى ضد انجلترا ، واعتمد على فرنسا التى ما لبث الأمر أن خيبت آماله عقب الاتفاق الودى عام ١٩٠٤ فاتجه الى ألمانيا ليضمها للقضية المصرية ، لكن مجهوداته لم تلق النجاح الذى كان ينتظره حتى الدولة العثمانية التى رأى أنهـا الجديرة بزعامة العالم الاسلامى وآمن بتبعيتها لم تستطع أن تقدم له المساعدة ٠

وجاءت حادثة دانشواى والأحكام الجائرة التى صدرت ضد الفلاحين نقطة تحول فى تاريخ الحركة الوطنية ، واستغل مصطفى كامل هذه الحادثة لاعلان الحرب على انجلترا لما اتخذته من اجراءات قاسية ، وكانت النتيجـة أن رأت الحكومة الانجليزية تقويض السياسة الكرومرية فى الحكم المطلق ، فأقصت كرومر عن منصبه ، فاعتبر ذلك نصرا قويا للحركة الوطنية ٠

وأعلن رسميا عن تأليف الحزب الوطنى عام ١٩٠٧ وحددت مبادئه ، الجلاء ، واستقلال مصر كما أقرته معاهدة لندن ، وايجاد حكومة دستورية بالبلاد ، ونشر

التعليم ، وترقية الاقتصاد ، وتحسين الحالة الصحية ، وبث الشعور الوطني في الشعب .

وتألف حزب الأمة من الباشوات وكبار ملاك الأراضي الذين ساءتهم مبادىء الحزب الوطني ، وكان حزب الأمة يلقى التشجيع من الانجليز ليضربوا به الحزب الوطني فكسبوا بذلك رضاء الطبقة الارستقراطية عن احتلالهم لمصر التي كان كل ما تتمناه مجلسا نيابيا . ومن هنا انحصر مؤيدو الحزب ، بينما كان الحزب الوطني ينضم تحت لوائه الناس جميعهم .

كان على جورست أن يتخذ سياسة جديدة تجاه الحركة الوطنية بأن يخفف من وطأة الحكم الاستبدادي في الوقت الذي يسعى فيه للقضاء عليها باتباع المسالمة ، فأراد توسيع اختصاصات مجالس المديريات ، وخول لمجلس شورى القوانين جعل جلساته علنية وحق سؤال الوزراء ، ولكن ذلك لم يثن الشعب عن الوقوف أمام الاحتلال . وأثرت الثورة التركية في مصر وصمم المصريون على الدستور والحرية .

واتسع نطاق الحركة الوطنية وعبرت عن نفسها في شكل اجتماعات ومظاهرات ومقالات صحفية عنيفة لعب فيها المثقفون دورا بارزا ، وكان من جراء ذلك حملة من الاعتقالات الواسعة لكل من تسول له نفسه طلب الدستور لكن ذلك لم يوقف المسيرة الوطنية .

رأت انجلترا تغيير وزارة مصطفى فهمي بأخرى يسخط عليها الشعب حتى توزع الكراهية والمسئولية بين سلطات الاحتلال وبينها ، فتألفت وزارة بطرس غالي في ١٢ نوفمبر ١٩٠٨ ، وأعقب ذلك وضع قانون باحالة تهم الصحافة الى محاكم الجنايات بعد أن كانت من اختصاصات محاكم الجنح حتى ترهب الصحفيين الذين ـ كما ادعت ـ يسممون أذهان الشعب ، وعدلت بعض نصوص قانون العقوبات ، فلفقت التهم للأبرياء ، وحوكم محمد فريد بناء على ذلك ، ثم تقرر العودة الى قانون المطبوعات لعام ١٨٨١ في ٢٥ مارس ١٩٠٩ ، وهو يعطى السلطات الادارية حق فرض الغرامات على الصحف أو انذارها أو تعطيلها أو اغلاقها ، واحتج الحزب الوطني وصحيفته على ذلك محاولين اثارة الرأي العام ، وقامت المظاهرات لتعلن رفضها لكن كانت دائما القوة المسيطرة على كل شيء .

وجاء مشروع مد امتياز قناة السويس أربعين سنة من ١٩٦٨ الى ٢٠٠٨ في نظير أربعة ملايين جنيه تدفع على أربعة أقساط انتصارا للحركة الوطنية التي رفضت وباصرار على تنفيذ ذلك اذ تمكن محمد فريد من الحصول على نسخة من المشروع في اكتوبر ١٩٠٩ ونشرها في اللواء وطالبت اللجنة الادارية

للحزب الوطني بعرض المشروع على الجمعية العمومية ، فاضطر المسئولون تحت الضغط الى دعوة الجمعية التي رفضت المشروع ٠

وبازدياد الغضب الذي امتلأت به النفوس اغتيل بطرس غالي الذي تمت على يديه أحداث القمع ، اذ كان آلة في يد الانجليز ، أقر معاهدة الحكم الثنائي للسودان . ورأس اللجنة في قضية دنشواي ، وأعاد قانون المطبوعات ، ووافق على مد امتياز قناة السويس ٠ اغتاله ابراهيم الورداني من أتباع الحزب الوطني وأحد أعضاء الجمعية السرية ـ جمعية اليد السوداء ـ التي شكلت للانتقام من الخونة ، وحكم عليه بالاعدام وقبض على كثير من أعضاء الجمعية ، وكلف « برونيات » بوضع مشروع قانون العقوبات ، فجعل التعدي على الخديوي جناية لا جنحة ومعاقبة من يتعدى بالطعن على الاحتلال ٠

وراحت اليد العليا تبطش يمينا وشمالا ، تقبض على الناس وترميهم في السجون ، وتفتش البيوت ، وتضطهد الحركة الوطنية ، فوضع نظام خاص في المدارس هدف منه منع الطلبة من الاشتراك في المظاهرات ، والمعاقبة بالسجن لكل من يشترك في اتفاق جنائي لارتكاب الجنايات حتى ولو لم يشترك في ارتكابها ٠ وبنـــاء على ذلك قدم عبد العزيز جاويش للمحاكمة أمام المحاكم الجنائية اذ رأت سلطات الاحتلال أنه يحرض على كراهية الحكومة والعيب في حق ذات ولي الأمر عندما كتب مقدمة كتاب « وطنيتي » للشيخ علي الغاياتي الذي حكم عليه هو الآخر بالسجن وعلى محمد فريد الذي كتب تقريظا لنفس الكتاب ، وأمام هــذه الظــروف غادر هؤلاء الوطنيون الأرض المصرية علهم يستطيعون خدمة الحركة الوطنية خارج مصر بعيدا عن بطش الانجليز ٠

تبع جورست على عرش العمادة في مصر كتشنر الذي أخذ يعمل منــذ اللحظة الأولى على تصفية الحركة الوطنية وخاصة أتباع الحزب الوطني ، فاتسعت حركة الاعتقالات ، وجرت التحريات حتى على من كان خارج مصر من المصريين ، وقويت سلطة كتشنر وأصبح وكأنه ملك شرقي مطلق الارادة لا ترد له كلمة ولا يداينه أحد ، وتخيل أنه بالعنف والضغط على المصريين سيقضي على الحركة الوطنية ، لكن ذلك لم يتحقق فازدادت وارتفعت الأصوات تطالب بالاستقلال والدستور والبرلمان ، فرأى أنه لابد من التمويه بايجاد شكل نيابي يحل محل مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية ويكون أوســع اختصاصا ، فانشئت الجمعية التشريعية في أول يوليو ١٩١٣ ، ووضــع شروطا لأعضائها تجعلها هيئة أرستقراطية تعمل لمصلحتها ولمصلحة انجلترا، لكن هذا لم يمنع أن تواجدت فيها عناصر وطنية أصبح لها دور في تاريخ مصر النضالي ٠

وهكذا تبلورت سياسة انجلترا تجاه مصر طوال فترة الاحتلال لتبــدأ مرحلة جديدة مع قيام الحرب العالمية الأولى ٠

الفصل الأول

الحالة السياسية

اعلان الحرب وأثره فى الموقف السياسى داخل مصر ـ خطوات تغيير وضع مصر السياسى ـ مصر ما بين الضم والحماية ـ عزل الخديوى عباس حلمى الثانى ـ الأمير حسين كامل سلطانا لمصر تحت الحماية ـ مصر فى ظل الحماية ـ الأمير فؤاد يتولى السلطنة ـ نهاية الحرب وتاليف الوفد المصرى ـ الاعتراف الدولى بالحماية •

اعلان الحرب وأثره فى الموقف السياسى داخل مصر

فى أواخر القرن التاسع عشر ظهرت ألمانيا كدولة موحدة أرادت أن تفرض مطالبها على دول أوربا بأن يكون لها مثل ما لهم ، وبدأت تسعى لتحقيق ذلك ، وكان أول عمل تقوم به هو اثارة المسألة المراكشية ١٩٠٤/١٩٠٥ وذلك على أثر عقد الاتفاق الودى بين انجلترا وفرنسا عام ١٩٠٤ ولكنها فشلت وكان من نتائج ذلك انضمام روسيا الى دول الاتفاق الثنائى عام ١٩٠٧ ، وعادت ألمانيا مرة أخرى وأثارت هذه المسألة عام ١٩١١ وقد عرفت باسم « أزمة أغادير » فرأت فرنسا أن تشترى سكوتها بمنحها القسم الداخلى من الكنغو الفرنسية ٠

وعلى الفور راحت ألمانيا تستعد لتقوية أسطولها الحربى لكى تستطيع الوقوف أمام انجلترا ، وبزيادة عدد قواتها المسلحة ، ثم بالتقرب من الدولة العثمانية فى الوقت الذى كانت فيه آخذة فى الضعف والتدهور ، فمنذ اعلان الدستور العثمانى الذى كان بادرة تقسيم جديد للدولة حدثت عدة حوادث أثبتت ذلك ، ففى عامى ١٩٠٨ ، ١٩٠٩ قامت النمسا بضم ولايتى « البوسنة والهرسك » التى كانت تديرهما بمقتضى معاهدة برلين عام ١٨٧٨ والتى كانت تحتلهما عسكريا ما يقرب من ثلاثين عاما ، واستقلال كل من بلغاريا والجبل الأسود ، والحربين البلقانيتين الأولى والثانية ، وارتداد الراية العثمانية نحو القسطنطينية ، وأخيرا غزو ايطاليا لطرابلس الغرب وبرقة واجلاء العثمانيين عنها ، وعن بعض جزر الأرخبيل والبحر المتوسط ٠

لذا كان يبدو أنه لا سبيل على ابقاء الدولة العثمانية ، فسارعت ألمانيا اليها اذ رأت فيها خير حليف للوقوف أمام الدول الأوربية وخاصة انجلترا ، وكان الامبراطور وليم الثانى امبراطور ألمانيا قد أظهر ميله الشديد للدولة العثمانية اذ كان من سياسته مد سكة حديد « برلين ـ بغداد ـ البصرة » ، وزار الأراضى المقدسة بفلسطين وظهر بمظهر الحامى للاسلام حتى لقد أطلق على نفسه اسم « الحاج وليم » ٠

بدأت العلاقات بين الدولة العثمانية وألمانيا تتحول الى مفاوضات خاصة من الناحيتين الاقتصادية والحربية ، وفى ٢٢ يوليو ١٩١٤ اقترح أنور باشا وزير الحربية فى الدولة العثمانية على السفير الألمانى عقد محالفة دفاع ضد

روســـيا وفعلا عقدت هذه المحالفة فى ٢ أغسطس ١٩١٤ بين كل من الدولة العثمانية من جهـــة وألمانيا والنمسا من جهة أخرى ، وتضمنت هذه المعـــاهدة السرية تقديم المساعدات الحربية للدولة العثمانية من ألمانيا فى حالة نشـــوب حرب ، وبأن تتولى ألمانيـــا الدفاع عنها اذا ما هددت بحرب ، وعلى أثر ذلك انضمت البعثة الحربية الألمانية تحت قيادة « فون ساندرز » Von Sandars للجيش العثمانى (١) ٠

وفى ١٠ أغسطس وصلت سفينتان ألمانيتـــان هاربتـــان من الأســـطول الفرنسى ودخلتا خليج « جناق » ، وكان على الدولة العثمانية كبلد محايد عدم السماح لهما بالدخول ، واحتجت انجلترا لدى الدولة وطالبت باعادة السفينتين ولكنها لم تأبه فى الوقت الذى راحت تدلل على حسن نيتها بأنها تريد فقط أن تحتفظ ببعض الخبراء الألمان للتدريب الحربى ٠ وفى الخفاء بدأت تعمل على التعبئة العامة للجيش واقامة الاستعدادات ٠

وأمام هذا الموقف هددت انجلترا بتغيير الوضع السياسى فى مصر ، ففى ١٧ أغسطس أعلمت سفيرها بالقسطنطينية بتبليغ الدولة « ان حـــكومة جلالة الملك لا تقصد تغيير الحالة الحاضرة بمصر اذا وقفت الدولة العثمانية على الحياد » (٢) ٠ وبناء على ذلك رددت الدولة أقوالها فى مسألة الحياد هذه ، ولكن كان ذلك مجرد ايهام حيث ان الشواهد دلت على اشتراكها الفعلى فى الحرب ٠

وتغلغل النفوذ الألمـــانى داخل الدولة العثمانية حتى الصحافة اصطبغت بالألمانية اذ رأى الساسة أنه بانضمامهم لألمانيا سيتخلصون من الامتيازات ، وسيستردون ولاياتهم ، ويقفون أمام عدوتهم الكبرى روسيا ، بل وتعود مصر والهند والبلاد الاسلامية الى حظيرة الخلافة الاسلامية وتصبح الدولة العثمانية سيدة الشرق بعد انهزام انجلترا وحلفائها ٠

ومضت الدولة فى سياستها هذه ، فتعرضت للسفن البريطانية وهى تحمل بضائع من روسيا الى البحر المتوسط تفتشها وتؤخر ابحارها فى مياه الدردنيل وراحت تعد حملة لغزو مصر ٠

وفى النصف الأول من سبتمبر ١٩١٤ كان الجيش العثمانى آخذا فى التجمع على حدود مصر ، وجمعت الجمال الكافية للحملة لاختراق سيناء والوصـــول لمصر ، وفى نفس الوقت قرر مجلس الوكلاء بأن الحكومة العثمانية تبلغ الحكومة المصرية الارادة السنية القاضية بالغاء الامتيازات وتطلب منها تنفيذها فى مصر

---

(١) Hurewitz : Diplomacy in the near and middle east, vol. II, pp. 1-3.

(٢) The Near East, Nov. 20, 1914, p. 71. ، الكتاب الأبيض ، الشعب ، ٢٥ نوفمبر ١٩١٤ ٠

بصفتها ولاية عثمانيه ، وقرر المجلس أيضا ارسال احتجاج لانجلترا على طرد قنصلى ألمانيا والنمسا من مصر بصفة غير قانونية ، وعلى أثر ذلك قدم السفير الانجليزى بالقسطنطينيه احتجاجا للباب العالى على جمع الجيوش العثمانية بالقرب من الحدود المصرية ، وحذر الباب العالى من عواقب هذه السياسة التى ترمى الى مهاجمة مصر فجأة واغلاق قناة السويس ، فأجابه الصدر الأعظم بأنه لا غرابة فى هذا الأمر فالاستعداد قائم بالفعل فى جميع أنحاء البلاد ، وأن للدولة العثمانية الحق فى ذلك ، لأن مصر أعلنت حالة الحرب على المانيا والنمسا وهما غير محاربتين للدولة العلية صاحبة السيادة على مصر ، وطردت قنصليهما من مصر بغير وجه حق (١) ·

واستمرت الدولة فى سياستها ودلت أعمالها على أنها أصبحت فى حالة حرب مع انجلترا ، فقد تم ارسال فيلقى الموصل ودمشق للجنوب وذلك بقصد اعداد هجوم على مصر عبر قناة السويس عن طريق غزة والعقبة ، وتسليح فلق كبير من العرب الرحالة لمساعدة هذه الحملة ، وجمعت النقالات ومهدت السبل حتى الحدود المصرية ، وأرسلت الألغام الى العقبة وألقيت فى خليجها لحماية الجيش ضد أى هجوم بحرى · وفى ٢٦ سبتمبر أوقفت مدمرة انجليزية خارج الدردنيل ، واجبرت على العودة ، وأعطى قائد الدردنيل الأوامر باغلاق المضايق ·

وتوتر الجو بين الدولة وانجلترا ، وكانت الاولى تحس أن الثانية تعد لها عملا عدائيا فى مصر ، فهى تخشى أن تضمها اليها ، وراحت تذيع فى الدول الصديقة أن انجلترا نقضت اتفاق ١٨٨٨ ليس فقط باحتلالها قناة السويس وانما أيضا بتسليحها للوقوف أمامها ، وقد كان من الطبيعى أن يخلق موقف انجلترا نوعا من القلق والريبة للحكومة العثمانية بالنسبة للحالة فى مصر ومن تلك الاجراءات التى اتخذت حتى أن مصر اعتبرت بأنها غدت جزءا من الامبراطورية البريطانية ، فالأحداث تؤيد ذلك اذ أصبح كل شىء فى مصر يبدو كأنه فى صف انجلترا ·

وفى ١٢ أكتوبر ١٩١٤ كتب ماليت الى ادوارد جراى يقول له : « لقد أكدت للصدر الأعظم فى مناسبات عدة بأن حكومة جلالة الملك لن تغير الحالة فى مصر ومع ذلك فان التصريح بأن مصر كدولة فى حالة حرب وطرد وكلاء ألمانيا والنمسا الذين تسلموا أوراق اعتمادهما من الباب العالى ، ووصول كتائب عسكرية من الهند · هذا كله خلق جوا من القلق فى تركيا » (٢) ، ومضت الحكومة العثمانية تندد بأعمال انجلترا فى مصر ، ففى أول نوفمبر ١٩١٤

---

(١) محمد فريد ، مذكرات ، الكراسة الثالثة ، ص ص ٨٨ ــ ٩٠ ·

(٢) Fahmy : The legal principles governing the internatioalnal status of Egypt, p. 162.

أرسل السلطان منشورا الى الدول العظمى « ليلفت نظرها الى أن وجود الجنود الانجليزيه فى مصر لا يسمح بممارسة حقوق سيادته » (١) ٠

وباعلان انجلترا الحرب على الدولة العثمانية رأت ضرورة السيطرة التامة على مصر والقضاء على التبعية الاسمية لها خاصة وقد كانت تعلم جيدا ان مصر هى الهدف المقصود ٠ فعملت منذ اليوم الأول لنشوب الحرب معها على جعل مصر أشبه بمستعمرة انجليزية « فمنذ الأول من أغسطس أخذت الحاميات الانجليزية ترسل الى الاسكندرية وضواحيها لحفر الخنادق واقامة الاستحكامات » (٢) وقد أقيمت معظم هذه الاستحكامات على السواحل المصريه ، ووقفت السفن الحربية البريطانية فى عرض البحر المتوسط على مسافات قريبة من السواحل المصرية ، ونصبت المدافع فى حصن كوم الدكة والمكس وحصنت المدرعات ميناء الاسكندرية ووزعت الجنود الانجليزية لمراقبة حدود مصر وبالذات الحدود الشرقية (٣) ٠

ورغم ذلك ، فقد أعلنت مصر حيادها ، فعندما قامت الحرب ، وقبل اعلان انجلترا الحرب على ألمانيا بيوم اجتمع مجلس الوزراء برئاسة حسين رشدى ـ رئيس الوزراء والقائمقام الخديوى الذى كان بالآستانة ـ فى ٣ أغسطس ١٩١٤ وأوصى بتعليمات يجب مراعاتها فى الموانى المصرية بخصوص سفن المتحاربين فى أثناء تلك الحرب بين امبراطور ألمانيا وامبراطور روسيا والحرب بين امبراطورية النمسا والمجر ومملكة الصرب لضمان حياد قناة السويس ، وبذلك تقرر سريان قواعد الحياد بمصر (٤) ٠

ولم يكن غريبا على مصر أن تسلك هذا المسلك خصوصا وأن الدولة صاحبة السيادة الاسمية عليها لم تشترك فى الحرب هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد وقفت مصر قبل ذلك على الحياد فى الحرب الطرابلسية التركية والحرب البلقانية فى وقت كان عليها الاشتراك فيهما بجانب الدولة صاحبة الحق الشرعى فى مصر ٠

ولم يرق ألمانيا حياد مصر ، فعقب اعلان ذلك الحياد توجه قنصل ألمانيا الى حسين رشدى بسراى بولكلى بالاسكندرية وسأله عن معنى ذلك الحياد والحامية الانجليزية موجودة على أرض مصر ، فلم يجبه رشدى فى الحال ووعده بالاجابة عقب معرفة الرد ، وعلى أثر ذلك اجتمع الوزراء وتناقشوا فى الأمر ولكنهم لم يتوصلوا الى حل فرفعوا الأمر للوكالة البريطانية التى بدورها رفعته

(١) Chafik : Status juridique international de l'Egypte, p. 46.

(٢) محمد بهى الدين بركات ٠ مذكرات ، ١٨ أغسطس ١٩١٤ ، ص ٥ ٠

(٣) الاهرام ٣ أغسطس سنة ١٩١٤ ٠

(٤) Récueil des documents relatif de la Guerre, 4 Août 1914, p. 4.

للندن (١) • وكان ذلك يعنى أن اعلان الحياد كان صوريا حيث أشارت كل الأمور أن مصر غدت جزءا من الامبراطورية البريطانية •

وفى حقيقة الأمر فقد كان رشدى يرغب فى استمرار حياد مصر ويحلل « الجود Elgood » سبب تراجعه عن ذلك بأنه كان يلتمس من يؤيده فى ذلك فلم يجد أحدا لأن الخديوى كان اذ ذاك بالآستانة ، وأعضاء الجمعية التشريعية متفرقين فى الأقاليم (٢) ، والواقع أن رشدى منذ بادىء الأمر كان ضعيفا أمام الانجليز الذين كانوا يحيطون به من كل جانب وعلى رأسهم قائد جيش الاحتلال « باينج Byng ، شيتهام Cheetham » نائب المعتمد الانجليزى فى مصر ، لذا كان عليه أن يذعن لرغبات انجلترا وأولى تلك الرغبات دخول مصر الحرب بجانبها •

وجندت انجلترا بعض الصحف المصرية لتقوم بحملة ضد حياد مصر وبضرورة دخولها الحرب الى جانب الحلفاء ، ومارست ضغوطها وانتهى الأمر بخضوع رشدى واستسلامه فأمضى قرار الخامس من أغسطس (٣) الذى زج بمصر فى الميدان الحربى وجعلها خاضعة للأوامر البريطانية ، وأقحمها فى تلك الحرب التى قدمت لها وضحت من أجلها ، وخرجت مصر عن حيدتها وأصبحت رهن اشارة انجلترا وغدت جزءا من امبراطوريتها •

ويتضح لنا من ديباجة القرار بأنه « أشير على الحكومة المصرية » وكان معنى هذا أنه أملى على مصر ويؤيد ذلك لورد لويد بقوله : « انه لا يمكن الادعاء بأن التصريح قد أوصت به موجة من الحماس التلقائى من جانب الحكومة المصرية للقضية الانجليزية ، وعدا هذا فرئيس الوزراء كان بطبيعته ذا دهاء وحذر وكان يعمل فى تلك الآونة آخذا على عاتقه المسئولية الجسيمة المترتبة على قيامه بالحكم بالنيابة عن الخديوى فى أحوال لم يسبق لها مثيل من قبل لدرجة أنه لا يكاد يكون محتملا أن يصدر تصريحا محددا بمحض ارادته» (٤) •

من هذا نرى أن رشدى قد أخرج مصر عن حيدتها ، وكان فى استطاعته أن يخلق حالة تضطر انجلترا لتقديم نوع من الحكم الذاتى على الأقل • فهى فى موقف عصيب ، وكان قرار الوزارة الرشدية هو الذى سيحدد الطريق الذى ستسلكه انجلترا ، ويعلق أحد شهود العيان بقوله : « لقد كانت لحظة محيرة لرشدى باشا رئيس الوزراء ، فالخديوى فى الآستانة وكان زملاؤه متفرقين وليس أمامه ملجأ للاستشارة ، ومصلحة مصر تقتضى الحياد ، ومصلحة بريطانيا

---

(١) الأهالى ٧ أغسطس سنة ١٩١٤ •

(٢) Elgood : The transit of Egypt, p. 208.

(٣) نص القرار Récueil des documents relatif de la guerre, 5 Août, 1914, pp. 11-15.

(٤) Lloyd : Egypt since Cromer, vol. I, pp. 187, 188.

نقضى بالاشتراك في الحرب ، فانطوى رشدى أمام تهديد المندوب البريطانى الى الثانية لا الى الاولى ، وانه لو كان على رأس الوزارة رجل أشد صلابة لاسغل الفرصة للمساومة ، ولكنه لم يشترط شيئا ولم يطلب تعويضا ، وحاقت العاقبه بمصر من جراء هذا الاهمال ، وليس في وسع رشدى أن يقول كلمة تخفف من وقع تسليمه ، فقد كان من الممكن له أن يساوم ولكنه لم يفعل ذلك الشيء ، الذى جعل مصر تعانى من ذلك » (١) • وربما كان رشدى يظن أن عدم اصداره قرار الخامس من أغسطس والتمسك بحياد مصر قد يقضيان الى ضم مصر الى الممتلكات البريطانية ، اذ قال فى خطاب له فى ١٧ أغسطس ١٩١٤ الى الخديوى عباس الذى كان بالآستانة : « انه غدا واثقا عن طريق المستشارين العائدين من انجلترا أنه لولا ذلك القرار لكان قد أعلن ضم مصرالى الامبراطورية نهائيا (٢) •

هكذا صدر هذا القرار رغم عدم سلامته قانونيا باعتبار أن مصر لم تكن اذ ذاك تملك توقيع أى اتفاق سياسى على هذه الدرجة من الخطورة بغير موافقة الباب العالى صاحب الحق الشرعى فيها ، فهو اذن يتعارض مع الفرمانات التى تنص على أن اجراءات الحرب يجب أن يصدر بها أمر من السلطان وحده ، وكانت الدولة العثمانية حتى ذلك الوقت على الحياد ، ومع ذلك فقد كانت مصر بمقتضى قرار مجلس الوزراء هذا قد « سحبت نفسها من سيادة الباب العالى » (٣) •

ودخلت مصر الحرب مجانا ، وقد حاول رشدى أن يبرر مسلكه هذا بتلك المحاولات التى أذيعت في ذلك الوقت والتى جاءت بناء على طلب بعض الشخصيات المصرية بشأن اعطاء مصر تعويض بناء على موقفها من الحلفاء • ويذكر بهى الدين بركات فى مذكراته بأنه جاء على لسان « نائب من نوابنا المعروفين ـ المكباتى بك ـ ومستشار من مستشارينا المشهورين بالذمة والضمير ويظهر أنها على أفواه الناس يقولون : ان رشدى باشا ينتظر قدوم ونجت باشا سردار الجيش المصرى وهو الذى سيقوم بالأعمال فى مصر ليطلب منه مكافأة الأمة المصرية فى خطتها فى الحرب الحاضرة ، ولقد كاشف عمال الوكالة البريطانية بذلك ، وقد اختلفت ماهية تلك المكافأة ، فمن قائل انها الجلاء عن مصر وعقد معاهدة هجومية دفاعية معها ، فمن قال بل ان ما تطلبه أكثر تواضعا من ذلك وهو منحها المجلس النيابى المنشود » (٤) •

ويؤيد لطفى السيد بأن رشدى قد فاتح ونجت بشأن هذا الأمر وبين له بأن « مصر مستعدة لمناصرة بريطانيا بشرط أن تعترف باستقلال مصر ، فارتاع ونجت لهذه الفكرة ووعده بأن يعرض الأمر على حكومته » وبدأت تلك

(١) Elgood : Egypt and the army pp. 109, 110.

(٢) عباس حلمى الثانى ، مذكرات ، المصرى ١٥ يولية ١٩٥١ •

(٣) O'Rourke, A : The Juristic Status of Egypt and Sudan, p. 39.

(٤) محمد بهى الدين بركات ، مذكرات ، ١٨ أغسطس سنة ١٩١٤ ، ص ص ٨ ، ٩ •

المحاولات فى الاتساع ، فطلب لطفى السيد من «جراهام» مستشار الداخلية اعلان استقلال مصر وتنصيب الخديوى ملكا عليها ، وفى حديث جمع رشدى مع لطفى السيد ومحمد محمود أبان الأول ما دار بينه وبين «سورز» — السكرتير السرقى للوكالة البريطانية — بشأن ذلك الموضوع وبأن الأخير يؤيد فكرة الاستقلال وسيخابر أباه العضو فى البرلمان لاثارة هذه المسألة ·
وفى لقاء بين لطفى السيد وعدلى يكن وسنورز طرحت المسألة المصرية ، ووضع فى بيت نجيب باشا صورة المعاهدة بين مصر وانجلترا التى تضمنت اعترافها باستقلال مصر ، واعتراف مصر بمصالح انجلترا فى قناة السويس (١) · لكن كل ذلك كان للايهام بأن الحكومة تعد شيئا جديدا . ولم يخرج الأمر عن حيز الاجتماعات ، وانتشرت تلك الاشاعات وأصبحت خير مخدر لأعصاب المصريين ·

كانت الخطوة التالية بعد قرار الخامس من أغسطس تنفيذ ما جاء فيه، ومن أهم بنوده قطع علاقات مصر مع أعداء انجلترا ، وأخضع الرعايا الألمان والنمساويين الى مراقبة شديدة وسيطر الانجليز على المواصلات السلكية واللاسلكية فمنع شيتهام ممثل انجلترا فى مصر ارسال برقيات الشفرة الصادرة من ممثلى دول الأعداء (٢) ·

وراحت انجلترا تطبق اجراءاتها على السفن الألمانية والنمساوية ، ففى ٧ أغسطس أمرت سلطة ميناء الاسكندرية انزال شحنة ثلاث سفن ألمانية : Achaira, Hidar, paros وأرسى هلبهم ، وطلبوا من ربانها رفع آلاتها بدون الحصول على اذن من قواد السفن الألمانية ، ومضت البحرية البريطانية تنقب عن تلك السفن المعادية فى البحر المتوسط منذ أوائل أغسطس ، فقد حدث فى السادس عشر منه أن طرادا انجليزيا أخذ يستولى على السفن النمساوية وأحضرها الى الاسكندرية اذ اعتبرتها السلطة غنيمة من الغنائم ، أما عن بقية السفن التجارية الالمانية التى كانت بميناء الاسكندرية فاعتبرت من الغنائم ونزل اليها موظفو مصلحة الموانى والفنارات ونزعوا منها الآلات التى تسيرها حتى لا تتحرك من مكانها (٣) ·

وفى بورسعيد منعت السفينة الألمانية « « Derfflinger » » من الرحيل، وحجزت السفينة Andros وقد أرسلت المانيا تشكو من تصرفات الجيش الانجليزى مع سفنها وبحارتها واحتجت أيضا على القرار السابق بجملته وخاصة

---

(١) أحمد لطفى السيد : قصة حياتى ، صص ١٦٢ — ١٦٦ ·

(٢) Ministère des Affaires Etrangeres, copies des lettres reçues, 26 Août, 1914, no. 1983, p. 319. Autriche-Hongrie.
محفوظات وزارة الخارجية

(٣) الاهرام ١٦ اغسطس سنة ١٩١٤ ·

على المادة التى تعطى لانجلترا حقا لعوانها البحرية والحربيه بممارسة الحرب فى الاقليم المصرى ، قد بينت ألمانيا أن بلدا كمصر يطبق فيه نظام الامتيازات الأجنبية يتنافى معها تلك الحقوق التى أعطيت لانجلترا بمقتضى ذلك القرار وأن هذا يحرج ألمانيا كقوة لها امتيازات فى مصر وأنه من المفروض أن يكون الأمر للحكومة المصرية اذ هى الملزمة بالمحافظة على تلك الامتيازات (١) ٠

لم يهم انجلترا اعتراضات ألمانيا واتجهت الى تعطيل الصحيفة الألمانية فى مصر Aegyptische Nahrichten فقد كان مجهود جراهام ـ مستشار الداخلية ـ القضاء على أى نفوذ يمكن له أن يؤثر على المصريين ويكون ضد انجلترا ٠

أما بالنسبة للنمسا والمجر ، فقد احتجتا أيضا على قرار الحكومة المصرية الصادر فى ١٣ أغسطس الذى ينص على سريان جميع أحكام قرار الخامس من أغسطس وتطبيقه على النمسا والمجر ، وطلبتا استفسارا قانونيا لذلك القرار وأوضحتا أن الامبراطورية العثمانية لم تعلن الحرب عليهما فكيف اذن تكون مصر تلك الدولة التابعة قانونيا لها أن تقطع علاقاتها وتصبح فى حالة حرب معهما (٢) ٠

جاءت بعد ذلك الخطوة التالية لخروج رجال الوكالة الألمانية من مصر ٠ ففى أوائل سبتمبر سنة ١٩١٤ قصد سان استفانو الجنرال « بنج » Beng ضابط من ضباط أركان حرب جيش الاحتلال الانجليزى ، وقابل ممثل أعمال وكالة ألمانيا السياسية فى دار الوكالة وأبلغه بضرورة خروج الوكالة وقناصلها من مصر فى ظرف ثلاثة أيام ، وقدم له بلاغا بذلك ، فرفضه القنصل ، فكان رد الانجليزى بأنه اذا حل الميعاد سيخرجهم بالقوة ، فأبلغ الألمانى وزارة الخارجية وطلب حمايته ولكن الوزير ـ عدلى يكن ـ قابله وقال له : « أصرح فيما يختص بالقرار الذى قرره قائد جيش الاحتلال بشأنك أن هذا العمل لم يصدر عن الحكومة المصرية بل هو نتيجة قرار قررته السلطات الانجليزية وليس فى وسع الحكومة المصرية منع تنفيذه » (٣) ٠

وتحت تهديد قائد جيش الاحتلال الانجليزى ترك البلاد قناصل كل من ألمانيا والنمسا والمجر ورحلوا لبلادهم بضغط من « مكسويل Maxwell » ، ولم تستطع الحكومة المصرية ولا رئيسها أن تحمى ممثلى هذه الدول ٠ وتبعا لذلك أقفلت أبواب القنصليات الألمانية والنمساوية فى القاهرة والاسكندرية

---

(١) M. des Aff. Etr. no. 1777, 1778, 1781, 6, 7, 22 Août, 1914, Allemagne, pp. 315-317.

(٢) Ibid, 20 Août 1914, Autriche Hongrie, p. 323.

(٣) المحروسة ، ٦ سبتمبر ١٩١٤ ٠

وبورسعيد وسافر المعتمدان بعد أن وكلا الى معتمدى أمريكا وايطاليا حماية رعايا دولتيهما فى مصر • ورأت انجلترا ضرورة القضاء على أى حركة نشاط ألمانى فى مصر يمثل فى الرعايا الألمان والنمساويين •

ومضى شهر اغسطس ولم تتخذ تدابير لتســـجيل الألمان والنمساويين المقيمين فى مصر أو لمنع الاحتياطيين منهم فى الجيش من السفر ، وفى سبتمبر منع الاحتياطيون العزاب من السفر ثم المتزوجون ، وفى أكتوبر صدر أمر بتسجيل الأسماء بالنسبة للذين جاوزوا الثمانى والأربعين سنة فقد كانت لهم رخصة بالاقامة فى البلاد وممارسة أعمالهم ، تبعهم الاحتياطيون العزاب فقد ارسلوا الى الاسكندرية ثم الى مالطة ، وفحصت أوراق الذين كانت أعمارهم ما بين الثامنة عشرة والخامسة والاربعين ، ومن لم يستطع تقديم دليل على أنه معفى من الخدمة العسكرية أرسل الى مالطة فبلغ عدد الذين أبعدوا اليها ألفا وستمائة وواحدا وخمسين شخصا حتى أواسط ديسمبر ١٩١٤ ، أما بقية الرعايا فقد خضعوا لمراقبة شديدة ، وقد صدر اعلان من مكسويل أمر استدعاء للرعايا الألمان فى منطقة القناة لتقديمهم الى الحكومة لعمل اللازم اما لترحيلهم أو للضغط عليهم (١) •

هكذا راحت السلطة فى مصر تنكل برعايا ألمانيا وحلفائها ، وعلا صوت ألمـانيا بالاحتجاج على التصرفات الوحشية لعساكر الانجليز تجاه رعاياها وعلى سبيل المثال فقد كان مستر « هانزجيجوت Hans Gigotte » ــ وهـو أحد الرعايا الألمان ــ يملك عزبة بالقرب من السويس ، فأوقف عن مزاولة عمله بواسطة الجنود الانجليز وسجن فى سجن السويس ثم نقل للقاهرة ووضع تحت المراقبة (٢) •

وبعد اعلان الحماية على مصر وتقدم الأعمال العسكرية فى سوريا ، رأت السلطة العسكرية أنه لا غنى عن اتخاذ تدابير أشمل من الأولى ضـد الألمان والنمساويين لا سيما بعد أن عرفت أن كثيرين منهم يبثون فى صدور المصريين الاعتقاد بقوة ألمانيا ونصرتها فى هذه الحرب •

وفى أوائل ١٩١٥ طلب من جميع الألمان والنمساويين على اختلاف أعمارهم أن يغادروا البلاد وذلك رغم احتجاجات كل من ألمانيا والنمسا والدولة العثمانية والتنديد بأنه ليس من وجه الحق أن تأمر السلطة الانجليزية التى لم يعترف

---

(١) دفتر كوبيا ، عملية الضبط الأفرنجى ، ج ١٠ ، ١٩١٤ •

(٢) M. des Aff. Etr. copies des lett, reçues, p. 316, no. 1779, 12 Août 1914, Allemagne.

الباب العالى باحتلالها لمصر معتمدى المانيا والنمسا بالمغادرة رغم أنهما أخذا أوراق تعيينهما من الحكومة العثمانية . لكن كل هذا لم يزعزع انجلترا عن أى تصرف فرضته على مصر ومضت فى البرنامج الذى رسمته لنفسها للسيطرة على مصر وابعاد ما يمكن ابعاده من أى خطر يهدد أمنها فيها .

ومضى قائد الاحتلال فى مصر بناء على تلك السلطة المخوله له من لندن فى تنفيذ بقية اجراءاته اذ أصبح هو الآمر الناهى والمتصرف الوحيد فى الشئون المصرية جمعاء ، فهو يقوم بكل عمل دون استشارة ، يصدر كل الأوامر وننفذ دون أن يعلم حتى رئيس الوزراء القائمقام الخديوى الحاكم الشرعى للبلاد ، وحتى الجمعية التشريعية – وهى الهيئة النيابية الوحيدة فى مصر – خاف الانجليز من صدور أى صوت معارضة منها تجاه تصرفاتهم فرأوا اسكاتها اذ يعلمون أن كثيرا من أعضائها لهم سابقة فى الاعتراض وكان قد انتهى الفصل التشريعى الأول والوحيد فى يونية ١٩١٤ ، وموعد انعقادها العادى فى ١٧ نوفمبر فرأت أن تعطلها نهائيا حتى نهاية الحرب ولكن للتمويه عملت على تأجيلها فى بادىء الأمر الى أول يناير ١٩١٥ (*) .

هذا فى الوقت الذى اخضعت البلاد فيه طولا وعرضا وفرضت الرقابة على الصحف والبرقيات والرسائل وكممت الأفواه حتى لا يخرج أحد يعارضها . وفى نفس الوقت وصل لمصر أعداد هائلة من الجنود الهندية ، وأصبحت مصر معسكرا لجيوش انجلترا وحلفائها وبذلك تمكن الانجليز من السيطرة عليها سيطرة تامة .

وأعقب ذلك اصدار قانون التجمهر فى ١٨ اكتوبر ١٩١٤ واعتبار كل اجتماع من خمسة أشخاص على الأقل فى طريق أو محل عمومى ولو لم يكن له قصد جنائى يخول لرجال السلطة أن يأمروا المتجمهرين بالتفرق ، ومن لم يطع هذا الأمر يخضع للعقاب ، والقصد من ذلك القانون هو منع ما يكدر أو ما يجعل الحالة خطرة ، وكان على رجال البوليس تنفيذ ذلك وتشتيت أى تجمهر ولكن رجال البوليس لم تكن لديهم المقدرة على معرفة اذا كان هذا الاجتماع ليكدر السلام أو لشىء آخر ، فأخذوا يمنعون أى اجتماع ويؤرقون الناس فى حياتهم ، وللأسف فان هذا القانون طبق فقط على المصريين ولم يطبق على الأجانب الأوربيين ذلك لأن جمعية محكمة الاستئناف المختلطة سلطتها مقصورة على المسائل المدنية والمخالفات ، أما قانون التجمهر فمن قوانين الجنح ، لان العقوبة المنصوص عليها فيه عند مخالفة أمر رجال البوليس أكثر من حبس أسبوع وقد تبلغ ثلاث سنوات كما أن الغرامة تزيد على مائة جنيه وقد تصل

(*) Récueil des doc, Anneé 1914, pp. 118, 119.

الى خمسين ، وارتفعت الشكوى من اختلاف معاملة المصريين عن الأوربيين ، بأن يكون القانون الاستثنائي نافذا على الجميع لأن الأوربيين لا يريدون أن يخصوا بمعاملة أحسن من التي يعامل بها أهل مصر ، ويطلبون ألا يعاملوا بطريقة أسوأ من التي يعامل بها غالبا الوطنيون (١) .

وراحت أيدى السلطة تبطش بالآمنين وتمنع أى اجتماع سواء أكان في مقهى أم ناد أم في طرقات ، ولكن رغم ذلك لم تستطع أن تمد يدها الى تلك الاجتماعات السرية التى كانت تعقد والتى أخذت على عاتقها قيادة الحركة الوطنية في أثناء الحرب .

ثم امتدت اليد الى الصحافة ، ففرضت الرقابة الصارمة عليها وعطل بعضها وظهر البعض الآخر وبه أماكن المقالات بيضاء تعنى حذف الرقابة لها ، فقد كانت الرقابة تقوم بمراجعة كل ما يكتب عن الحرب وبالذات عن تحركات الجيش الألماني قبل طبعها وتم ذلك في أول نوفمبر قبل أن تعلن الأحكام العرفية على البلاد تلك الأحكام التى تخول السلطة العسكرية الرقابة على الصحافة .

خطوات تغيير وضع مصر السياسى :

بعد قرار الخامس من أغسطس رأت انجلترا ضرورة عمل شيء آخر ، فلم يكفها اقحام مصر في هذه الحرب بل لابد من تغيير الوضع السياسى في مصر وذلك لتوقعها دخول الدولة العثمانية الحرب رغم تأكيد الأخيرة في استمرار حيادها ، وقد كانت على يقين من دخول الدولة العثمانية الحرب لذا تقرر تغيير الحالة السياسية في مصر ، بعد أن رأت أن الفرصة قد حانت لانهاء السيادة العثمانية واحلال السيادة الانجليزية على مصر قانونيا ، لذا أرسل جراى الى شيتهام بمصر في ٢٧ سبتمبر ١٩١٤ برقية يبلغه فيها بانهاء السيادة العثمانية على مصر ووضعها تحت الحماية البريطانية اذا ثبت ما يشير الى هجوم تركيا على مصر ، وضرورة عزل الخديوى عباس وتعيين الأمير حسين كامل مكانه وأنه في امكانه اعلان الاحكام العرفية بمصر ، أما بالنسبة للامتيازات الاجنبية والمحاكم المختلطة فبلغه بالنظر فيها فيما بعد (٢) .

من هذا نرى أن انجلترا منذ بادىء الأمر فكرت في عزل عباس ، وهذا فعلا ما كانت تنويه حتى قبل الحرب ، فقد سافر كتشنر لبحث هذا الموضوع وبمجىء الحرب أتيحت هذه الفرصة بل ولتغيير الوضع السياسى في مصر .

---

(١) الأفكار ٢٣ ، ٢٥ أكتوبر ١٩١٤ .

(٢) F.O. Sir Grey to Mr. Cheetham No. 231, 27 Sept., 1914.

كان على انجلترا فى ذلك الوقت وهى حليفة كل من روسيا وفرنسا أن تعلمهما بهذه الخطوة حتى لا تلقى أى معارضة ، فاستدعى جراى كل من ممثلى فرنسا وروسيا فى لندن وأبلغهما بذلك ــ أنه اذا دخلت الدولة العثمانيه الحرب فستعلن الحماية البريطانية على مصر ــ وعندما رأى منهما عدم المعارضة، أسرعت وزارة الخارجية البريطانية بتبليغ القرار رسميا ببرقية مرسلة الى كل من سير « برتى » Berty سفيرها بفرنسا وسير « بوكانان » Bucanan سفيرها فى روسيا ليبلغ الأمر رسميا الى كل من الحكومتين وأبانت لهما أنه سيستمر العمل بنظام الامتيازات والمحاكم المختلطة ، وقد أرسلت صور من هذه المذكرة الى كل من شيتهام بمصر ومالبت بالآستانة (١) ٠

عندما وصلت هذه المذكرة الى شيتهام وكان على دراية كافية ويعلم جيدا شعور المصريين فى ذلك الوقت تخوف من اعلان الحمـاية على البلاد ، وعلى الفور كثرت اجتماعاته بحسين رشدى الذى تخوف هو الآخر من اعلان الحماية وأكد له أن ذلك الاجراء قد يفضى الى قيام الثورة فى البلاد ونحى نفسه عن مسئولية ذلك بل وهدد باستقالته لأنه كان يأمل نوال شىء لصالح مصر من انجلترا بعد توقيعه على قرار الحرب ، وعندما أحس شيتهام بهذا الموقف المعقد رأى أن يرسل لحكومته يطلب التريث فى اعلان الحماية والاكتفاء باعلان الأحكام العرفية بعد أن اتفق مع قائد القوات البريطانية ، وأبان أن ذلك سوف يهدىء الحالة وأشار ببقاء رشدى فى منصبه وبجانبه رجال الدين لأن الحصول على تأييدهم أمر له أهمية كبرى لما لهم من تأثير على الشعب خصوصا بعد أن يعلن الحرب على تركيا صاحبة الخلافة الاســلامية ، كذلك أوضح أنه يمكن اتخاذ الاجراءات تدريجيا للوصول الى اعلان الحماية وأخيرا ألح فى ضرورة فرض الأحكام العرفية على البلاد ٠ (٢)

جاءت بعد ذلك الخطوة المتوقع حدوثها وهى اعلان الاحكام العرفية ، فعلى أثر نشوب الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا فى الأول من نوفمبر ، أصبح من المتوقع حدوثه أن تعلن الحرب بينها وبين انجلترا لذا سارعت انجترا باعلان الأحكام العرفية على مصر ، وعندما أراد مكسويل اعلانها لقى معارضة من جانب حســين رشدى فى بادىء الأمر لدرجة أنه هدد بالاستقالة (٣) ، لكن رشــدى كعادته دائما يتمنع فى أول الأمر ثم ما يلبث أن يخضع لليد العليا المتحكمة فى كل شىء ، وفى ٢ نوفمبر أعلن مكسويل أنه أمر من قبل الحكومة الانجليزية أن يأخذ على عاتقه مراقبة القطر المصرى لكى يضمن حمايته ، وبناء على ذلك

(١) F.O. Sir Grey to Sir Berty, Bucanan, No. 771, 878, 15 Octobre 1914.

(٢) F. O. Cheetham to F.O. no. 237, Nov. 1st, 1914.

(٣) Marlowe : Anglo Egyptian Relation 1800-1953, p. 215, Elgood : Egypt and the army, p. 111.

أصبحت مصر تحت الحكم العسكرى وهذا فى حد ذاته يدل على أن انجلترا قد عقدت العزم لفرض سلطانها على مصر والقضاء على سيادة الدولة العثمانية ، وفى الوقت نفسه أصدر مكسويل اعلانا آخر حذر فيه الأهالى من تكدير السلام العام ومساعدة أعداء انجلترا ودعاهم الى اتباع جميع الأوامر التى تصدرها السلطة العسكرية (١) . وقد أبلغ شيتهام هــذا المنشور الى رشــدى فأدخل عليه بعض التعديل بخصوص السلطة فيما يتعلق بالوسائل الحربية التى أصبحت منحصرة فى يد القائد العسكرى .

وفى ٧ نوفمبر أعلن مكسويل بأنه من يوم ٥ نوفمبر أصبحت بريطانيا العظمى وتركيا فى حالة حرب وبين أن دولته تحارب لغرضين وهما : « الدفاع عن حقوق مصر وحريتها التى كسبها محمد على فى الأصل فى ميدان القتال واستمرار هذا القطر فى التمتع بالسلم والرخاء اللذين تحققت بهما مدة الاحتلال البريطانى ، ولعلم بريطانيا بما للسلطان بصفته الدينية من الاحترام والاعتبار عند مسلمى القطر المصرى فقد أخذت على عاتقها جميع أعباء هذه الحرب بدون أن تطلب من الشعب المصرى أية مساعدة ولكنها مقابل ذلك تنتظر من الأهالى وتطلب اليهم الامتناع عن أى عمل من شأنه عرقلة حركاتها أو آداء أى مساعدة لأعدائها » (٢) .

وهذا اعتراف صريح من انجلترا على لسان قائد جيوشها بمصر بأن لمصر حرية معترفا بها كسبتها على يد محمد على فى ميدان القتال . ومنذ ذلك الحين خول للقائد العام للجيوش البريطانية فى مصر السلطة والسيطرة ، وعلى الفور طبق قرار مجلس الوزراء الصادر فى الخامس من أغسطس على الدولة العثمانية واعتبرت مصر منذ ذلك الوقت فى حالة حرب معها .

وقد اتفق رشدى مع شيتهام على أن يبقى فى منصبه عندما يتلقى منه مذكرة رسمية تنقل اليه نسخة من المنشور القصير الذى كتبه مكسويل يعلن فيه حالة الحرب مع الدولة العثمانية متكفلا بالمسئولية التامة فى الدفاع عن البلاد. كذلك طلب من الشعب بألا يساعد العدو وبأن يكون كل وزير له سلطته فى الأمور الملكية الخاصة به (٣) .

هكذا أعلنت الأحكام العرفية ووضعت مصر تحت الحكم العسكرى الذى أنزلها الى مرتبة الاغلال وأصبحت تلك الأحكام وصمة فى جبينها ، تلك الاحكام التى صدرت بموافقة رئيس الوزراء ووزارته ، فقد كان من الممكن أن ينشدد

---

(١) Récueil des documents relatif de la guerre, p. 157, 6 Nov. 1914.

(٢) Ibid, p. 158.

(٣) Ibid, pp. 157-159.

في الموقف ولكن كبقية الاجراءات التي اتخذتها انجلترا منذ بادىء الحرب خضعوا لها مستسلمين • وبذلك أصبح الجيش البريطاني وسلطته فوق كل شيء فهما السلطة التشريعية والتنفيذية للبلاد ، حيث امتدت الأحكام العرفيه على كل مظهر من مظاهر الحياة المصريه •

وفي ٦ نوفمبر سلم مكسويل مذكرة الى لندن يبلغها أنه اتخذ كل الاجراءات لمنع المصريين من تقديم أية مساعدة للعدو وخاصة تركيا ، بعد ذلك البلاغ الذي أصدره يحذر فيه من توزيع المنشورات التي تعادي انجلترا والتهديد بالمحاكمة أمام مجلس عسكري (١) •

وانتهى الأمر بأن أصبحت مصر في حالة حرب مع الدولة صاحبة السياده عليها من الناحية القانونية • وبذلك نجد أن انجلترا التي سبق أن توسلت بالسيادة العثمانية للتخلص من الخديوي اسماعيل وعزله تعمل على هدم هذه السيادة متعللة بأنها انما تريد أن تغدق هذه السيادة على المصريين أنفسهم في سبيل تطويرهم نحو الحكم الذاتي (٢) •

وكثرت الاجتماعات بين شيتهام ورشدى بشأن الحاله السياسية في مصر وكان من خطة الأول تنفيذ الأمور تدريجيا فهو على يقين من أن لندن تنوي تغيير الحالة السياسية في مصر لذا أجرى محاولات كثيرة لاقناع رشدى بتقبل اعلان الحماية على مصر ، وقد أيقن أنه ممكن لرشدى الموافقة على الحماية في مقابل اعطاء مصر نوعا من التعويض مقابل انفصالها عن الدولة العثمانية(٣) •

وأخيرا رأى رشدى أن يعمل شيئا ــ في نظره ــ لصالح مصر بأن يحصل على بعض الامتيازات من انجلترا فأعد مذكرة شفوية لشيتهام تحدد العلاقه بين الدولتين ، وقد أوضح سعد زغلول في مذكراته محتوياتها فيقول : «كان رشدى قد قدم قبيل هذا التاريخ ــ ١٨ ديسمبر ١٩١٤ ــ مذكرة الى شيتهام قال فيها : أما قرار الحكومة البريطانية بتعديل حالة مصر السياسية ، ينبغي وضع نظام سياسي اداري لهذا القطر يوفق بين حماية مصالح انجلترا السياسية ، وفوائد الأوربيين المالية والتجارية ويكون من شأنه أن يحقق بقدر الامكان آمال الأمة حتى ترضى عن الحالة الجديدة واليك ما يمكن عمله : اعلان أن مصر دولة ملكية دستورية مستقلة بالقيود الآتية :

أولا : أن يكون لانجلترا حق حماية قناة السويس والمحافظة بوجه الاجمال على سلام القطر المصري •

(١) Ibid, p. 175.

(٢) Wingate : wingate of the Sudan, p. 212.

(٣) F.O. Cheetham to Grey, No. 235, Nov. 1st, 1914.

ثانيا : أن يكون لانجلترا حق المراقبة المالية مراقبة تؤدى الى الغاء صندوق الدين واستبداله بهيئة انجليزية ٠

ثالثا : ضرورة موافقة الحكومة الانجليزية على القوانين المختصة بالأجانب ٠

رابعا : ضرورة موافقتها على عقد أية معاهدة مع أى دولة أجنبية ٠ وبأن يكون للحكومة المصرية حاكم وراثى بشارات الملك المعتادة كالعلم الوطنى والجيش الوطنى والسكة الوطنية وامتيازات الشرف الوطنية ٠

وتستلزم الطريقة الجديدة للدولة تعديل القانون النظامى المالى بجعل رأى الجمعية التشريعية قطعيا فى بعض المسائل لا سيما المسائل الآتية :

أولا : الحقوق والواجبات المترتبة على الصفة المصرية كحق الانتخاب والخدمة العسكرية ٠

ثانيا : المحاكم الشرعية ٠

ثالثا : الأوقاف ٠

رابعا : المجالس الحسبية ٠

خامسا : التعليم المدنى والدينى ٠

سادسا : فرض الضرائب الجديدة وكل تعديل فى الضرائب الموجودة أو الغاؤها ٠

سابعا : اعطاء امتيازات تتعلق بأكثر من مديرية » ٠ ويعقب على ذلك « عرض على رشدى باشا هذه المذكرة ورغبت أن تضاف اليها القوانين المدنية والجنائية الخاصة بالوطنيين فلم يعارض ولكنه أشار الى تشدد الانجليز، ومن الغريب أن يعد الآن فى عرفه وفى عرف زملائه من لم يرض عن الحالة الجديدة من غير فائدة للجمعية أو بفائدة لا تذكر طائشا متهورا فى الرأى » (*)

كان هذا هو نص المذكرة التى أعدها رشدى لشيتهام ، ومن يتمعن فيها يجد أنها مجحفة بحق مصر ، فهى فى حد ذاتها حماية قبل أن تصدر الحماية ، وانجلترا فيها هى سيدة الموقف ، فمصالحها السياسية تفيض بها المذكرة وليست انجلترا فحسب ، ولكن الأجانب أيضا فهى تعضد مصلحتهم ، فكيف

(*) سعد زغلول : مذكرات ، كراسة ٥٣ ، غير مرقمة ، ص ٢ ، ٣ ، كراسة ٢٥ ، ١٠ مارس ١٩١٥ ، صص ١٣٢٠ ، ١٣٢١ ، ١٣٢٢ ٠

أمكن لرشدى أن يطالب بأن تكون مصر دولة مستقلة ملكية دستورية ، وانجلترا واضعة يدها عليها بهذا الشكل ، اذ أعطاها الحقوق الكثيرة : أعطاها حق احتلال البلاد بحجة المحافظة على سلامتها كما فعل من قبل فى قرار الخامس من أغسطس حينما قال « نظرا لأن وجود جيش الاحتلال فى القطر » وهذا اعتراف صريح من رئيس الوزراء باحتلال انجلترا لمصر ، وقد كررها مرة ثانية فى المذكرة ، كذلك الحق فى السيطرة على قناة السويس • ولم يكتف رشدى بالسيطرة السياسية اذ أطلق يدها فى السيطرة المالية فجعل لها حق المراقبة المالية بعد الغاء صندوق الدين وأعطاها الاشراف على قوانين الأجانب بل والسيطرة على العلاقات الخارجية •

اذن ماذا يبقى لمصر بعد ذلك ؟ انه من عليها بأشياء بسيطة ، ليست لها أهمية اطلاقا • لقد كان فى امكان رشدى وهو يعلم تمام العلم أن انجلترا فى ذلك الوقت كان يمكنها أن تضحى بأى شىء يقرب مصر الى الاستقلال السياسى نتيجة لظروف الحرب وتقدم ألمانيا فيها ، وكانت مواقفه ضعيفة رغم أنه هدد بالاستقالة فى أكثر من مرة لكنها اقتصرت على الناحية الشكلية فقط • ورغم الضعف الظاهر فى المذكرة فان رشدى ما لبث أن تراجع حتى عما جاء فيها وقبل أن تكون مصر تحت الحماية البريطانية دون قيد أو شرط أو حتى دون التمسك بما جاء فيها من طلبات لا قيمة لها •

من هذا نرى أن مسلك الوزارة قد خلا من الحنكة والاقدام وهذا فى حد ذاته شجع الانجليز على سوق المصريين للحرب عنوة ، ولم يقنع كل من رشدى وعدلى بهذا بل جاوزاه الى حد التطوع بالأحاديث والتصريحات هللوا فيها للسياسة الانجليزية وبتلك الحماية التى احتضنوها واعتبروها أمنية من الأمانى الوطنية التى تتوق مصر اليها •

مصر ما بين الضم والحماية :

على أثر دخول الدولة العثمانية الحرب ضد الحلفاء رأت انجلترا حتمية تغيير الوضع الراهن فى مصر ، وكان عليها أن تسلك أحد طرق أربعة لتغيير تلك الحالة ، فاما أن تضمها اليها ، واما أن تدمجها فى امبراطوريتها مع اعطائها حكما ذاتيا ، واما أن تستكمل السيطرة عليها بأن تحل محل الدولة العثمانية وذلك باعلان الحماية عليها ، واما أن تعطيها الاستقلال التام مع عقد معاهدة تصبح بها مصر دولة محالفة لانجلترا •

وفى حقيقة الأمر فان دخول الدولة العثمانية الحرب قد عجل باتخاذ أى من هذه الخطوات ، لكن ليس معنى ذلك أن انجلترا لم تفكر فى تغيير الحالة

الا عندما دخلت الحرب مع الدولة العثمانية • ففى شهر سبتمبر سنة ١٩١٤ قررت وزارة خارجية انجلترا تغيير الحالة السياسية فى مصر باعلان الحماية عليها بعد أن تأكدت من تحالف ألمانيا مع الدولة العثمانيه ، ومن تلك الاجراءات الحربية التى تقوم بها الأخيرة هادفة قناة السويس الطريق الموصل للقوات الهندية الى فرنسا هذا من ناحية ، ولاهميتها الاستراتيجية وحاجة انجلترا فى السيطرة عليها من ناحية أخرى •

وكان من دواعى قلق انجلترا أيضا أنه اذا انتصرت ألمانيا فستكون سيدة الشرق وبالتالى ستغير الوضع فى مصر بارغام انجلترا بالجلاء عنها والسيطرة عليها • وأخيرا عقدت انجلترا عزمها على ضم مصر للامبراطورية البريطانية ، فقد أرادت أن تشدد قبضتها عليها ، وأن تعزز مركزها فيها ابان فترة الحرب وذلك بجعل مركزها فيها قانونيا •

فمنذ بداية الحرب واجهت انجلترا مشكلتين : الأولى هى الوضع الدولى لمصر ، والثانية هى الاحتواء على طبقة رجال السراى تلك الطبقة العليا التى تنتمى للأتراك ، وتغلبت انجلترا على المشكلة الثانية وأصبح رجال السراى والوزراء موالين لها • أما بالنسبة للمشكلة الأولى فكان لزاما عليها أن تغير الوضع فى مصر وبأن تجعل صفتها شرعية فيهـــا ، فهى تشعر أن مركزها ـ بالرغم من أنه كان قويا فعلا بفضل وجود جيش الاحتلال الذى عزز باضافة جيوش الامبراطورية لمواجهة أعبـاء الحرب ـ ضعيفا من الوجهـة القانونية : « فقد كان حاكم مصر هو الخديوى ، وكان مجلس الوزراء هو مستشاره ، ولم يكن للقنصل البريطانى موضع ما فى الدستور ولم يحتفظ له بسلطات ما فى أى معاهدة أو اتفاق أبرم بين طرفين ، ولم يكن الموظفون الانجليز قانونيا غير خدام الخديوى ، ومع ذلك كان ثم قيد واحد بسلطة الخديوى اعترف به القانون وهو سلطة تركيا » • (*)

وفى لنـدن كانت أغلبية الوزارة ترى ضم مصر الى الامبراطورية حتى يمكن لانجلترا حل مسألة الامتيازات الأجنبية بحزم وبسرعة لأنها أصبحت عقبة فى الأعمال التشريعية والتنفيذية ، لهذا صرح «جراى» بضم مصر الى بريطانيا • وكان مما يبرر خطوة الضم وجود انجلترا فى حالة حرب مع الدولة العثمانية مما يترتب عليه أن تصبح مصر جزءا من الامبراطورية البريطانية بحق الفتح •

كذلك اعتقـدت انجلترا أنه بعـدم الضم ستنتصر الدعاية العثمانية فى مصر وستنشأ عن ذلك القلاقل والاضطرابات واختلال الأمن وسينضم المصريون الى أعداء انجلترا عن طريق الجهاد ومن هنا سيقاوموا الحكم الأجنبى فى بلادهم،

(*) Lloyd : op. cit., pp. 192, 193.

لذا رأت ضرورة تحديد مركزها فى مصر خصوصا وهى تعلم أن أكثر المصريين من أتباع الحزب الوطنى ، ذلك الحزب نصير الدولة صاحبة الخلافة والحق الشرعى فى البلاد ٠

لكن جاءت الأخبار من مصر ترفض الضم وتفضل عليه اعلان الحماية بعد أن أيقنت أن الحالة العامة فى مصر لا تسمح بتنفيذ فكرة الضم ، بينما كانت ترى أن الحماية هى « النتيجة الطبيعية والمنطقية الى حد لا يمكن مهاجمتها لسياسة كرومر التى كانت تهدف دائما الى ابقاء الحكم فى أيدى المصريين ومن ورائهم الانجليز ، وأنها التطور الطبيعى الذى لا ينطوى على أى تغيير فى السياسة الانجليزية والذى يفهمه المصريون بدون صعوبة ، وفوق ذلك فان من مزاياها أنها لا تجرح العزة الوطنية ، فقد كانوا يزهون أشد الزهو بوجود حاكم مستقل » (١) ٠

والقانون الدولى يفسر الحماية بوجه عام بأنها علاقة بين دولتين احداهما قوية والأخرى ضعيفة وتقوم الأولى بموجبها بحماية الثانية من أى غزو أو اعتداء يقع عليها ، فهى عقد بين اثنين تطلب احداهما أن تكون تحت رعاية الأخرى ، وتقبل الأخرى تحمل أعباء هذه الحماية ٠ اذن فمن الضرورى أن تطلب الدولة الصغرى أن تكون تحت حماية الكبرى ٠

وبعبارة أوضح فان نظام الحماية يمتاز بتلك المرونة التى يحافظ فيها على الشكل الظاهرى لنظام الحكم فى مصر وان كان فى حقيقته يجعل لانجلترا السيادة التامة عليها خاصة بعد أن أنكرت جميع أسس الحماية وأغفلت نصوصها القانونية حيث مضت تتصرف بمفردها دون أى أعتبار للطرف الآخر فى ذلك العقد ذى الطرفين الموجب والسالب ٠

وفى ١٠ سبتمبر نصح شيتهام وزير الخارجية الانجليزية باعلان الحماية على مصر بعد أن رأى أنه يجب أن تظهر انجلترا بمظهر من لا يريد من وراء الحرب توسعا اقليميا ، وبخاصة فان مركزها فى مصر كان مركز المستعمر بالفعل ان لم يكن بالقانون ٠ وقد بين أحد المسئولين البريطانيين فى مجلس العموم البريطانى سبب تفضيل الحماية بقوله : « لقد فضلت الحماية على الضم لأن الضم يجعل الشعب المصرى من رعايا التاج البريطانى ، أما الحماية فهم رعايا لحاكمهم » (٢) ٠

خافت انجلترا من ضم مصر أن يثور المسلمون ، فكيف يمكن أن يرفرف علم الانجليز فوق أرض مصر ، فان ذلك لن يرضى علماء الدين ولا الشعب المصرى ٠ هذا بالاضافة الى أن الضم يحتاج الى أعداد كبيرة من الانجليز تضاف

(١) Lloyd : op. cit., p. 194.

(٢) House of Commons, vol 114, April 8, 1919, p. 1824.

للوظائف ، والى حامية أكبر تكون تحت الامر لأن مصر لن تكون هادئة أبدا لو أعلن ضمها وأصبحت تابعه مباشرة للتاج البريطانى لا للخلافة الاسلامية ٠

من أجل ذلك فضل رجال الانجليز في مصر اعلان الحماية عليها بحيث تصبح مصر من اختصاص وزارة الخارجية ، ورأوا أن الحماية تعد خطوة في سبيل الحكم الذاتى كتمهيد لتعاون المصريين مع انجلترا ٠

وأخيرا وفى ١١ سبتمبر ١٩١٤ قبل جراى اعلان الحماية البريطانية على مصر ٠ وعلى أثر قبوله جرت المراسلات مع شيتهام حول ايجاد صيغة ملائمة يصدر بها منشور الحماية ، اذ كان رجال الوكالة البريطانية يخشون ظهور شعور دينى معاد لبريطانيا ٠

وتراجعت لندن عن رأيها على آثر نشوب الحرب مع الدولة العثمانيه اذ رأت ضرورة ضم مصر نهائيا الى الامبراطورية البريطانية ورفض فكرة الحمايه واعتبار مصر كنيوزلندا واستراليا يحكمها مباشرة حاكم عام بريطانى ، وبلعب مرحلة الاقتناع بالفكرة أنهـا أعدت للتنفيذ ، وطلب من كتشنر لما له من خبرة سابقة فى مصر ، بأن يتعاون فى ترشيح الحاكم الجديد من كبار رجال الانجليز ليكون حاكما مباشرا لمصر ٠

وفى ١٣ نوفمبر ١٩١٤ صـــدر قرار بضم مصر الى ممتلكات التـــاج البريطانى والغاء جنسيتها ، ومنح المصريين الرعوية البريطانية ، وأرجأت انجلترا بحث مسألة الامتيازات الأجنبية والمحاكم المختلطة للمستقبل لطمأنة الدول الأجنبية وعلى حد قولها « لمراعاة شعور الفرنسيين بصفة خاصة » ، وبأن يعلن الضم فى ١٩ نوفمبر اليوم الذى تصل فيه القوات الهندية الى مصر (١) ٠

ومضى جراى فى تنفيذ القرار فكانت أولى خطواته هى الموافقة الدولية حتى يصبح الوضع قانونيا ، لذا أرسل الى حكومتى فرنسا وروسيا بمذكرة تفصيلية عن الأسباب التى دفعت حكومته لاتخاذ هذا القرار ، وأعرب لفرنسا عن استعداد انجلترا للتنازل عما لها فى مراكش مقابل تنازل فرنسا عما لها فى مصر ٠ وعلى الفور جـاء رد روسيا معلنـا موافقتها على قرار الضم ، وبينت أنهـا تعتبر مصر من الممتلكات البريطـانية حتى من قبل أن تصبح روسـيا وبريطانيا حليفتين وعرضت على روسيا مقابل ذلك تسوية مسألة القسطنطينية والبواغيز لصالحها (٢) ٠

وعلى أثر ذلك أعدت المسودات فى الحال الأمر الملكى الذى سـيصدره الملك جورج الخامس يعلن فيه للجميع بأن مصر أصـــبحت تحت التـــاج البريطانى ٠

---

(١) F. O. Grey to Cheetham No. 344, Nov. 13, 1914.

(٢) F. O. Buchanan to Grey No. 611, Nov. 19, 1914, Petrograd.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبعد أن أنتهت الاجراءات اللازمة لضم مصر فوجئت لندن برفض فرنسا الموافقة على الضم اذ وصلت برقية من السفير البريطاني في فرنسا تعني هذا ومتضمنة بأن انجلترا قد ضمت قبرص اليها فاذا تكرر ذلك مع مصر ، فان هـذا سيسبب صدمة للرأى العـام وبين لجراى أن وزير الخارجية الفرنسي يكتفى بوضع بديل للخديوى عباس ، وبأنه يفضل اعلان الحماية على مصر بدلا من الضم حتى لا يقال بأن انجلترا ستجنى فوائد من وراء الحرب ، وحتى لا تظهر فرنسا أمام شعبها بأنها مخلب قط للنار التى تشعلها انجلترا ، وأن هذا ــ ضم مصر ــ سيتخذه الألمان ذريعة ضد انجلترا ويكفى جدا ما قامت به من ضرب منطقة الشيخ سعيد والاستيلاء عليها ، وأنه اذا كانت انجلترا ترى أن الضم ضرورة فانه يقترح وجوب اصدار اعلان أو تبادل للمذكرات بين الحكومتين البريطانية والفرنسية حتى يدرك الشعب أنه كان هناك اتفاق بين الحكومتين، وأعرب الوزير أيضا عن عدم رغبته في ضم مراكش وتأجيل هذه المسائل لما بعد الحرب ، كذلك أبان السفير ــ سفير انجلترا فى فرنسا ــ بأن سفير روسيا فى باريس يفرك يديه فرحا لأن عملية ضم مصر لممتلكات بريطانيا سيتيح الفرصة لتسوية مسألة البحر الأسود (١) ٠

وفى ١٩ نوفمبر أبلغت لندن سفيرها فى فرنسا بأن سلامة الموقف الداخلي في مصر هو أهم هدف لها في الوقت الحاضر ، وأبلغت أيضا « بتروجراد » بأنها لا ترغب فى احداث تغيير كبير فى النظام القائم فى مصر تفاديا لحدوث اضطرابات داخلية ، وأنه من الخير تأجيل البحث فى جميع التعديلات الاقليمية حتى يتفق عليها بين الحلفاء بعد أن تضع الحرب أوزارها ٠ هذا فى الوقت الذى جاءت البرقيات من مصر ترفض فكرة الضم ، ففى ١٤ نوفمبر كتب شيتهام للخارجية يرفض بشدة الفكرة ، وذكر أنه أخذ رأى المستشارين الانجليز بمصر ، وبين أن ما يحدثه قرار ضم مصر واحلال حاكم بريطاني عام مكان الحكومة المصرية « تغير أكبر بكثير مما قدرناه ، وستتطلب الآثار التى ستترتب عليه ان تكون موضع اعتبار دقيق » (٢) ٠

هذا وسبق أن اللورد كرومر أصر ، وجورست أعلن ، وكتشنر صرح بأن احتلال مصر اجراء مؤقت ، فكيف يمكن التراجع ، يقول ستورس فى مذكراته « كيف تنتزع من دولة صغيرة آخر مظهر للكيان الفردى ، وبدا لنا أن قرار ضم مصر سيكون نهاية لصدق كلمتنا فلن يعود أحد يصدقنا ٠٠٠ ان الوزراء المصريين قبلوا المسئولية الخطيرة فى مصر محمية ولو أن بريطانيا ضمت مصر اليها فسوف يستقيل جميع هؤلاء كرجل واحد وسيكون لهذا عواقب لا يمكن التنبؤ بها ، وقد بعث شيتهام ببرقية احتجاج الى لندن وصاغ الاحتجاج كل من

(١) F.O., Bertie to Grey No. 491, Nov. 19, 1914, Bardaux.

(٢) F.O. Cheetham to Grey, No. 344, Nov. 14, 1914.

جراهام وبرونيات وشيتهام وأنا ، وكانت البرقية التماسا بتخفيف حكم الاعدام بضم مصر الى الامبراطورية بوضع مصر تحت الحماية ، وذلك بمجرد الغـاء السيادة التركية عليها وسجيل الاحتلال البريطاني لمصر ، واكسابه مظهرا شرعيا باعتبار الاحتلال قانونا الى جانب كونه أمرا واقعا ، والمحافظة على عرش أسرة محمد على سليما مع استمرار الوضع الذى كانت مصر تتمتع به قبـل الاحتلال وبعده ... وقد كنت من أعداء الضم وأنصار الحماية ، فلقد فات الوقت ولم يعد ممكنا فى القرن العشرين أن نقضى على قوميـة الأجنـاس أو نحاول ابتلاعها وحتى ولو كان ذلك ممكنا عمليا فى أى مكان آخر فانه ليس ممكنا فى مصر ، إن طمى النيل الذى امتصـه العبريون والفرس واليونانيون والرومان والأتراك امتصاصـا كاملا بحيث محا كل أثر لهم ، هـذا الطمى ليس بالبيئة المناسبة لأية تجربة جديدة » (١) .

هكذا كان الخلاف . أما الحكم على مصر بالاعدام بضمها الى الامبراطورية أم الحكم عليها بالأشغال الشاقة المؤبدة بوضعها تحت الحماية ... أما استقلال مصر أو الحكم عليها بالبراءة فلم يكن موضـع تفكير اطـلاقا لا من الوكالة البريطانية فى مصر ، ولا من رجال لندن ، ولا ممن يهمهم الأمر من الوزراء المصريين وعلى رأسهم رشدى .

وللمرة الثانية وقف رجال الوكالة البريطانية ضد فكرة الضم بعد مشاورات عدة ، وقدموا الحجج والبراهين على عدم صلاحيتها وبينوا أنه من المستحسن أن تصدر وسائل الرقابة المختلفة التى تتطلبها الحرب من الحكومة المصرية عن أن تصدر باسم الحاكم الانجليزى للامبراطورية .

وكتب شيتهام لجراى فى ١٨ نوفمبر ١٩١٤ يقول : « وقد أضيف الى هذه الاعتبارات المباشرة أن النظام الراهن للحكم عن طريق أهل البلاد ليس أعظم أشكال الحكم كفاية غير أنه يفهم هنا كما أنه يعوض العيوب الادارية التى تنجم عن الضم ، فالضم يجب أن ينطوى على أن تكون بريطانيا العظمى مسئولة مباشرة وبدرجة أكثر على وجود مستوى أعلى من الحكم والقيام بحماية أدق للمصالح الانجليزية وقد يتم هذا فى النهاية الا أنه لا يحدث ذلك الا اذا أبعد الموظفون المصريون على نطاق واسع وعلى الرغم من أن الكفايات ستزيد زيادة كبيرة يكون لها اعتبارها فانه سوف توجد طبقة لها أثرها من المتذمرين » (٢) .

كذلك أوضح شيتهام أن وجود نظام الامتيازات الأجنبية فى مصر يزيد مركز إنجلترا فى مصر صلابة وتعقيدا اذا انضمت للامبراطورية ، هذا فى الوقت الذى كان يخشى من أثر القرار فى البلاد العربية التى بدأت فيها حركات

---

(١) Storrs : orientation, pp. 136, 137.

(٢) Lloyd : op. cit., p. 197.

التحرر والوقوف أمام دولة الخلافه ، وعملاء الانجليز فيها يثيرون شعور الكراهية ضد الأتراك ، فاذا جاءت بريطانيا وضمت مصر فسيتحول الشعور ضدها ٠

ونتيجة لذلك دعا جراى مجلس الوزراء وعرض عليه الموقف فقرر أن يلغى القرار الأول الصادر فى ١٣ نوفمبر والقاضى بضم مصر وأن تعلن الحماية البريطانية عليها ، وكان ذلك فى ١٩ نوفمبر ١٩١٤ غير أنها لم تعلن الا فى ١٨ ديسمبر والسبب أن المفاوضات طالت بين حسين كامل المرشح لعرش مصر وبين السلطات البريطانية فى مصر حول قبوله العرش ٠

وكان بلندن حزب يؤيد الحماية ويفضلها على الضم يتزعمه لورد كرومر اذ يقول : « لا نستطيع أن ننكر أن هناك بعض الخلل فى التوازن والأفضلية لو قورنت الحماية بالضم البسيط العادى ٠٠ ولا شك عندى مطلقا فى أن الحكومة البريطانية قد سلكت سبيل الحكمة والصواب فى مجاراتها للرأى العام وتفضيلها الحماية على بسط السيادة التامة » (١) ٠

وأخيرا فضلت انجلترا نظام الحماية على الضم ، وأبلغ الى الممثلين فى مصر ، ذلك لأنه كان نظام يتفق مع سير الاحتلال لمرونته وتفاوت معناه ، فهو اذن يحمل معنى السيطرة ٠٠٠ لا يختلف كثيرا عن منطقة النفوذ السياسى وينتهى فى حالة الوسط دفاعا عن البلاد المحمية ، كما أن تعرضه لشئون البلاد المحمية أمر قابل للشد والجذب ٠ فالدول الحليفة لانجلترا مثلا والمشتركة معها فى الحرب تستطيع بذلك النظام أن تقبله لأنه يمكنها من القيام بكل شئون الحرب فى مصر بدون تقييد بالمستقبل وتستطيع مصر الرضوخ له كحكم القوة مع أمل فى المستقبل ، وبقبول شركاء انجلترا للحماية ورضوخ مصر لهم تستطيع انجلترا من هذا وذاك أن تقضى أغراضها فى مصر (٢) ٠

وراحت انجلترا تدعى وتؤيدها فى ذلك صحافتها بأنها أعلنت الحماية على مصر نتيجة لدخول الدولة العثمانية الحرب ، وانفصام العلاقة بينها وبين مصر ، وبانها بذلك أعطتها الاستقلال تحت ظل الحماية ٠ وهكذا تحولت الحماية المقنعة التى مارستها انجلترا على مصر طوال فترة احتلالها لها الى حماية سافرة ٠

عزل الخديوى عباس حلمى الثانى :

فى صيف ١٩١٤ سافر كتشنر عاقدا العزم على السعى لدى حكومته لاقناعها بخلع الخديوى عباس الثانى عدوه اللدود ، وعلة هذه النقمة هى بقايا تلك الحفيظة القديمة التى تركت الرجلين عدوين لا يتصافيان بعد أزمة الحدود ،

(١) الوطن ٢٦ فبراير ١٩١٥ ٠
(٢) عبد الرحمن الرافعى : ثورة ١٩ ، جـ ١ ، ص ٤٣ ٠

وشعر الخديوى بما اعتزمه كتشنر فى سفرته تلك السنة ، فاستحسن أن يجعل رحلته الصيفية الى الآستانة لا الى أوربا حتى اذا سعت الحكومة البريطانية عند الباب العالى فى مسألة خلعه اذا اقتنعت برأى مندوبها فيكون على مقربة ليستطلع الخبر ، وليحسن العلاقة بينه وبين رجال الحكومة التركية ، وليبذل ما فى وسعه لاحباط سعى الانجليز وهو لا يجهل أنهم لاقون من الصدر الاعظم سعيد حليم أذنا صاغية فى تلك الآونة لأنه كان يطمع فى خديرية مصر (١) ٠

وفى ٢٣ يوليو ١٩١٤ سافر عباس الى الآستانة بعد أن أمضى بعض الوقت فى باريس ، وعند نشوب الحرب قرر العودة الى مصر غير أن الحكومة الانجليزية رفضت عودته وأبلغت شيتهام قرارها ، ومع ذلك فان حسين رشدى لم يكف عن مطالبة الخديوى بالعودة الى مصر ، حتى أنه أرسل اليه فى ٣٠ أغسطس يبلغه بأنه « متى وصلت الجنود الهندية الى مصر فانى سأطلب من الوكالة البريطانية عودة سمو الخديوى فى الحال وأهدد بالاستقالة فى حالة معارضتها » (٢) وفى حقيقة الأمر لم يحدث هذا وكان ذلك فى حد ذاته تخديرا لاعصاب الخديوى وهو بعيد عن عرشه ٠

وفى ٣ سبتمبر ١٩١٤ زار سفير انجلترا ماليت عباس وطلب منه السفر لايطاليا وترك الآستانه . ولكن الخديوى رفض لأنه اعتقد أنه سيرسل منفيا الى مالطة ، ثم تقابل ترجمان انجلترا مع عباس وأخبره بأن وجوده فى الآستانة يشجع الأتراك على تأليف مائة ألف عسكرى لاخراج الانجليز من مصر ، وقد أخبره بأن دورية خيالة عددها عشرون شخصا من العرب وصلت رفح فحيتها النقطة المصرية على الحدود ، وبعد أن مكثت الدورية يومين فى الأراضى المصرية رجعت وقد أرسلت انجلترا مذكرة للصدر الأعظم فى ٢٣ سبتمبر للفت نظره لهذه الحادثة (٣) ٠ وأفهمه بأن البرقيات التى أرسلها الى مصر كانت ذات معنى سياسى فالبرقية التى أرسلها فى العيد الصغير لرشدى يخبره فيها بأنه يود أن يكون بين المصريين ، والثانية الى سعد زغلول يعزيه فى وفاة حميه مصطفى فهمى ويرجو له طول البقاء « ليخدم أميره وبلاده زمنا طويلا ، ثم الثالثة التى تبشر بشفائه ٠ وفى ٢٧ سبتمبر أفهمه بأن عليه الذهاب الى نابولى فى الحال ، فلما ذكر له أنه ليست لديه آية نية فى الاقامة بها رد عليه السفير بلهجة التأكيد « انك لن تعود لمصر مرة أخرى » (٤) وقد أبان محمد فريد فى مذكراته هذه الحادثة اذ قال : « ان سفير انجلترا قصد

(١) عباس محمود العقاد : سعد زغلول ، ص ١٧٥ ٠
(٢) الاهرام ٢٦ مارس سنة ١٩٢٧ ٠
(٣) أحمد شفيق : حوليات مصر السياسية ، الحولية الأولى ، ص ص ٣٥١ ، ٣٥٢ ٠
(٤) Beaman : The dethromement of the Khedive, p. 65.

الخديوى فى قصره وطلب منه أن يغادر الآستانة الى غير مصر .. الى ايطاليا مثلا أو سويسرا لأنه يشاع بأنه ينفق مع الأتراك على ارسال جيش لطردهم ـ الانجليز ـ من مصر فأجابه الخديوى بالرفض رغما عن تهديد السفير له بأن هذا المنع يؤثر على مصالحه المادية والأدبية أيضا » (١) .

ورفض الخديوى لاعتقاده بأنهم يودون القبض عليه بنفيه الى مالطة أو غيرها حتى لقد أظهر خوفه فى حالة ما اذا طلبوا منه العودة لمصر نفسها ، وطلب من محمد فريد مقابلة أنور باشا وطلعت بك ليتفق معهما على الجواب الذى يعرض على السفير الانجليزى اذا طلب منه ذلك ، فكان الجواب أن يدعى المرض (٢) .

ووضع الخط التلغرافى المباشر بين رشـــدى والخديوى تحت رقابة « رسل بك » الحكمدار الانجليزى للجيش المصرى (٣) .

وازدادت رغبة الخديوى فى استمرار حكمه لمصر فى الوقت الذى تأكد فيه من أن الانجليز لا يريدونه أن يعود الى مصر ، فحاولوا أن يهددوه بنسف المحروسة ثم راحوا يحدثونه عن حرارة الجو فى مصر ، وانتهى الأمر باقناعه باستحالة تحقيق رغبته بالعودة الى عرشه ، فبدأ نشاطه فى الآستانة وكان أول عمل يقوم به حتى يضمن ولاء المصريين له هو تقربه الى محمد فريد ، ففى ذلك الوقت كان بسويسرا وعندما عرف كل ما حدث هذا ترك سويسرا الى الآستانة بعد أن تأكد هو الآخر أن الفرصة قد حانت لتحسين علاقته بالخديوى حتى يستطيع أن يكون له سند للوقوف أمام الانجليز ، ولعله كان يطمع فى دخول مصر مع الخديوى لأنه كان على ثقة كبيرة من انتصار ألمانيا ، وعلى علم بتغلغل النفوذ الألمانى فى تركيا وأنه بانتصار كل من تركيا والمـانيا ستتخلص مصر من انجلترا .. لذلك انتقل للآستانة ليكون أولا على مقربة من الخديوى الذى منع من العودة الى مصر ، وثانيا ليكون على يقين من تصرفات الدولة العثمانية حيال مصر .

ويحدد محمد فريد موقف الخديوى بعد أن رفضت انجلترا عودته الى مصر يقول : « تقابلت مع يوسف باشا فشرح لى الحالة وقال ان الخديو ممنوع من السفر لمصر ، وان الانجليز يخشون من أن يقوم بحركة ضدهم هناك ، وان هناك رأيين متنازعان : الأول الاتفاق مع الانجليز على منح مصر الدستور، وانفصالها عن الدولة العلية ، وقبول الاحتلال بشروط معينة والثانى : الاتفاق مع الترك على استرداد استقلال مصر بالقوة بمساعدتهم وعودة الحالة الى ما

---

(١) محمد فريد : السابق ، ص ٩٠ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٩١ .

(٣) عباس حلمى ، مذكرات ، المصرى ، ١٥ يوليو ١٩٥١ .

كانت عليه قبل الاحتلال ، وأن الخديوى يميل الى الشق الثانى ، واتفق فعلا مع أنور باشا على تنفيذ هذا الرأى » (١) لقد فكر عباس فى القيام بثورة يكون هو محركها ورئيسها وأن يكون القائد ويفتح مصر بمساعدة الأتراك ٠

بهذا نرى أن عباس فضل الاتجاه الى المناوئين لانجلترا حتى يستطيع تنفيذ أغراضه ٠ لقد غير سياسته وأخذ يدلى بتصريحات ، ففى حديث له مع مستر « كارل فون » Karl Von يصرح « بانه من الطبيعى أن أتمسك بتركيا فى هذه الحرب فمصر جزء من الامبراطورية العثمانية » (٢) ، وفى الحال طلب الخديوى من فريد أن يتوسط له لدى رجال الحكومة التركية وبأن يقنعهم باخلاصه فى العمل لأن العلاقة بينهما كانت قد ساءت بسبب موقفه من الحرب الطرابلسية حيث أطلع الانجليز على خطط تهريب الأسلحة والضباط ، وقد تم فعلا اللقاء بين فريد وطلعت وعرف منه : « أنهم مفتكرون فيها ــ مصر ــ ومتفقون على تخليصها ، وأنهم يستعدون لذلك انتظارا للفرصة ، وأن الخديوى غير مخلص ، ولكن ممكن استعماله كآلة لما له من النفوذ عند العمد والأعيان على شرط عدم اطلاعه على تفصيل الخطط » (٣) ٠

ووضعت الخطة على أساس اثارة حماس المصريين الى جانب الدولة صاحبة الخلافة الاسلامية ، وأعد عباس منشورا لارساله الى مصر يتضمن الهجوم على السياسة الانجليزية فى مصر ، وما أعدته الدولة من عتاد وعدة لاسترجاع مصر واعادة العرش للخديوى الشرعى ، وتلك السياسة الجديدة التى تمنح الدستور الكامل وتطلق الحرية والاستقلال والتقدم ٠ (٤)

وكان على عباس أن يرضى ألمانيا حيث ان انتصارها يثبت دعائم حكمه فى مصر ، فأرسل فى أوائل سبتمبر الى امبراطورها برقية تهنئة يهنئه فيها على سلامة ابنه ونجاته فرد عليها الامبراطور بأخرى يتمنى فيها سعادة مصر ، واعقب ذلك أن ذهب عباس الى سفارة ألمانيا بالآستانة وأظهر استعداده لتقديم المساعدة وفعلا تم الاتفاق على أن تقوم تركيا بارسال حملة الى مصر يكون الخديوى على رأسها مع القائد الألمانى بشرط ألا يترتب على هذه الحملة جعل مصر ايالة عثمانية ، بل لها أن تحتفظ بامتيازاتها بمقتضى الفرمانات ، وأن تبقى مصر للمصريين ، وأن يعود الخديوى للعرش ، وقد أيد امبراطور ألمانيا خطة الخديوى هذه لدى الحكومة العثمانية عن طريق سفيره فى الآستانة ٠

غير أن هذه الخطة ما لبثت أن أحبطت اذ أعد الأتراك حملتهم بقيادة جمال

---

(١) محمد فريد : السابق ، ص ص ٨٤ ، ٨٦ ٠

(٢) The Times, May 3, 1915, p. 7.

(٣) محمد فريد : نفس المصدر ٠

(٤) نفس المصدر ، ص ٩٨ ٠

باشا وبدون علم عباس ورفضوا حتى أن يصاحبها اذ كان أنور باشا يخشى بداخله في القيادة لعدم استعداده العسكرى وكان يرى أنه لا يسافر من الآستانة الا بعد أن يتم النصر للجيش التركى على قناة السويس » • (١)

وهذا هو تفسير الحيرة التى اعترت بعض الكتاب الانجليز المعاصرين لتلك الفترة أمثال Elgood بصدد سلوك الخديوى فى خلال الحرب حيث يقول : « انه مما يثير الدهشة فعلا أنه أى الخديوى لم يزر سوريا وفلسطين ليشجع جنود الحملة التى ألفت لغزو مصر • وقد يبدو بوصفه خديويا شرعيا أن يكون مشتركا مع الجيش ، والا فانه من المحتمل جدا أن القسطنطينية كانت تتوجس خيفة من صدق النية » • (٢)

ولما رأى الخديوى أن الأمر تعقد بالنسبة لقيادة الحملة له رغب فى تعيين عمه البرنس ابراهيم حلمى قائمقاما له يرافق جمال باشا قائد الحملة ويدخل معه مصر نائبا عنه حتى يعود هو ، وتكلم فى ذلك مع الصدر وكان سفير ألمانيا قد وافق عندما عرض الخديوى عليه ذلك ولكن الصدر لم يعطه ردا صريحا بحجة أخذ رأى أنور باشا ثم وصلته برقية من قومندان الحملة بمنعه من السفر الا بعد أن يجتاز الجيش العثمانى قناة السويس ، وأرجع جمال باشا رجال الخديوى للآستانة ، وهذا دليل على أن جمال باشا لا يريد الخديوى ولا رجاله عند دخوله مصر لأنهم سيغيرون ادارة الحكم فى مصر فقد أدلى طلعت بحديث لألمانى يدعى « بودل Budle » بأن مجلس النظار سيجتمع قبيل دخول الجيش العثمانى مصر ليقرر ما يتبع فى ادارتها وأنه سيدعو الخديوى للمجلس ليبدى ملاحظاته (٣) •

ولما تعقد الموقف الى هذا الحد أدرك عباس أن وجوده فى الآستانة سيكون خطرا على حياته فغادرها الى فينا فى ١٥ ديسمبر ١٩١٤ • ولم تمض سوى أيام قليلة حتى عزلت انجلترا عباس من حكم مصر •

الأمير حسين كامل سلطانا لمصر تحت الحماية :

منذ أن أعلنت الحرب وانجلترا تفرض سلطتها الفعلية على مصر حيث أصبحت الحاكمة الحقيقية للبلاد • وجاءت هذه الحرب فرصة لعزل من يناوئها فى سياستها ، فقررت عزل عباس ووضع مصر تحت الحماية البريطانية وانهاء السيادة العثمانية ، وكانت على يقين من تحالف تركيا مع ألمانيا ومجهوداتهما تجاه مصر • لذا رأت تغيير الأوضاع كلية فى مصر •

---

(١) نفس المصدر ، ص ٩٧ •

(٢) Elgood : Egypt and the army, p. 98.

(٣) محمد فريد : نفس المصدر ، الكراسة الرابعة ، ص ١٠٥ •

ووقع اختيار لندن على الأمير حسين كامل لتعيينه على عرش مصر بعد عزل الخديوى ففى ٢٧ سبتمبر ١٩١٤ أرسل جراى الى شيتهام يبلغه بأنه فى حالة حدوث أى هجوم تركى على مصر تعلن الحماية البريطانية ويتولى خديوية مصر الأمير حسين كامل (١) ٠

اختارت حسين كامل ليمثل الصورة المزيفة لحاكم مصر ٠ فلم يبد فيه الشعب أو الوزراء رأيا ، ككل اجراء اتخذته انجلترا منذ نشوب الحرب بحكم سيطرتها على شئون البلاد كلية ٠

ويبين ستورس سبب اختيار حسين فيقول : « انه لم يكن هناك شك فيما يتعلق باختيار الحاكم الجديد ، لقد كان حسين معروفا ومحترما لدى المصريين باعتباره مزارعا عمليا ، ومحترما أيضا لدى الأجانب والسلك الدبلوماسى باعتباره سيدا ربى فى بلاط التويلرى العظيم ، وباعتباره أيضا شقيق توفيق وابن اسماعيل » (٢) ٠

وبدأت الاتصالات بين شيتهام والأمير حسين ، ففى بادىء الأمر ذهب شيتهام سرا لمقابلة حسين ليفاتحه فى قبول منصب الخديوية وطالت المقابلة الأولى بينهما نظرا لخطورة وسرية الموضوع فتواعدا على لقاء ثان ، فكان أيضا طويلا وسريا وعقب انتهائه أرسل شيتهام للخارجية يبلغه بأن حسين لا يستطيع أن يقبل الخديوية فى الوقت الذى ستثور فيه مشاعر المصريين بدخول الحرب ضد الخليفة بدون منح مصر أى وعد بمنحها الاستقلال الذاتى تحت السيادة البريطانية (٣) ٠

اذن فالأمير لم يرفض العرش من حيث المبدأ ولكنه كان يخاف من النتيجة اذا لم تنتصر انجلترا فى الحرب ، ومن صدى هذا التعيين فى العالم الاسلامى ، ماذا سيقولون عندما تعين دولة مسيحية حاكما لمصر خلفا للخديوى الذى خلعته لانضمامه لخليفة المسلمين ٠

وأعيد جس نبض الأمير ، ولكن حسين رفض أيضا ، ويقول ستورس : « وكانت الحوادث تلح علينا ، وسئمت الحكومة البريطانية التأخير ، فقررت أن تحل هذه العقدة بضم مصر الى الامبراطورية البريطانية ، ولكن بعد أن رفضت فكرة الضم عاد شيتهام مرة أخرى يبحث مع حسين الأمر ليقنعه بتولى عرش مصر ، فوجده خائفا من قبول ذلك المنصب فقد كان أمراء البيت المالك يقولون ان تركيا هى التى ستكسب الحرب ، وانها ستقبض عليه ، وتقضى على حياته ، وكانت زوجته الأميرة « ملك هانم » احدى جاريات والدة

---

(١) F. O. Grey to Cheetham no. 231, Sept. 27, 1914.

(٢) Storrs : op. cit., p. 136.

(٣) F.O. Cheetham to Grey no. 235, Ist Nov. 1914.

عباس ، وهي تشعر بولاء نحو أم الخديوى وترى في تولى زوجها العرش خيانة له . وكان حسين ضعيفا أمامها ، هذا بالاضافة الى أن الأمير كمال الدين الابن الوحيد له متزوج من ابنة الخديوى ، وكانت زوجته تهدده بالطلاق اذا قبل أبوه الجلوس على العرش مكان أبيها ... لكن رغم ذلك فقد كانت داخلية حسين تدفعه الى أن يكون حاكما لمصر مكان عباس الذى يكرهه ويسميه الشاب المعتوه ويعتبر نفسه أحق بالعرش منه . ولكنه ظل يماطل على أمل الحصول على شروط أفضل في الوقت الذى كان هناك ضغط تركي يمارس سرا عن طريق مبعوثين من الآستانة لاطالة المباحثات حتى منتصف يناير وهو الموعد الذى سيكون فيه الأتراك على استعداد للهجوم على مصر . ولا أعتقد أن الأمير تأثر تأثرا كبيرا بهذا الضغط على الرغم من أن الحريم في تلك الأيام كان مقصورا على الأتراك . وكان الضغط العائلى كالطواحين التى تطحن ببطء ولكنها تطحن أجزاء متناهية في الصغر . وكان الأمير حسين يعتقد أنه يقدم لبريطانيا معروفا بقبول العرش ولهذا فهو يطالب بتحقيق رغباته ، ويطالب بتحويل مصر الى مملكة يحكمها ملك مصرى ، ولكن كان من المستحيل أن يحمل أمير تابع ـ لملك بريطانيا ـ نفس اللقب الذى يحمله مولاه .. لهذا جرؤت أن أقترح ابدال لقب ملك بلقب سلطان وهو لقب عربى معناه (حامل سلطة الحكم) وقد قبل الطرفان (الأمير والحكومة الانجليزية) اقتراحى ، ولما كان لقب (صاحب الجلالة) مستحيلا أيضا لأن ملك انجلترا يحمل لقب صاحب الجلالة ، فلقد اقترحت أن نسميه (صاحب العظمة) وهى مرادفة لصاحب السمو القديمة المبجلة . وكان أى تقهقر فى الحرب للحلفاء فى أى جبهة قد يلقى بنا فى أزمة شنيعة تجعلنا ندلل لبيع تاج تقل الرغبة فيه ونضطر الى أن نعرض مزيدا من المغريات المقبولة » (*) .

وأخيرا عرضت الحكومة البريطانية على حسين كامل عرش مصر مع لقب سلطان ولا شيء غير ذلك ، ولكن حسين اعترض ، وأشار الى أن الوثيقة لا تحوى ذكرا للوراثة فى أسرته أو من بين سلالة محمد على ، وأنه لم يسمح له باختيار علم لمصر ، وما اذا كان المصريون سيكونون رعايا بريطانيين أم يحتفظون بكيانهم وجنسيتهم فى ظل حماية بريطانية ؟ ويمضى ستورس : « وكنت أرى أن الأمير حسين على حق تماما فى هذه النقط الثلاث . ولكن لدينا تعليمات من لندن ، وبدا أنه من المستحيل اقناعه بالقبول . وكان الحل البديل لذلك هو اعلان الحماية البريطانية على مصر دون أى سلطان ، وكنت أعلم أن فرض العلم البريطاني على مصر وهو يحوى الصليب على ثلاثة أشكال سيكون له أثر سيىء فيها ، بل سيكون له أثر أسوء فى جميع أنحاء بلاد العرب . وسوف يؤدى هذا الى تقوية الحزب الخديوى التركي عندما يعرف

(*) Storrs : op. cit., p. 137.

الناس أن الأمير حسين رفض أن يتولى العرش لأن كرامته لا تقبله ... وجهزنا برقية الى لندن تحوى رفض الأمير العرش .. ولجأت الى محاولة أخرى فأوفدت على شعراوى باشا وهو من أصحاب الاراضى الاثرياء ـ وكان على علاقة وثيقة بالأمير طول حياته ـ لمقابلته واقناعه بقبول العرش ، وأوفدت أيضا « امبراوز سينادينو » وهو يونانى على صلة بالوكالة طوال الخمس والثلاثين سنة الماضية لمقابلة حسين كامل واقناعه بقبول العرش ، واتفقت معهما على أن يذهب كل واحد منهما على حدة للأمير » (١) .

وبدأ كلاهما يبذل المحاولات لاقناع حسين كامل ، وكانت محاولة سينادينو أقوى من على شعراوى ، لذا طلب ستورس من شيتهام تأجيل البرقية ـ التى تحوى رفض حسين للعرش ـ المرسلة الى لندن ، وقابل ستورس حسين بناء على ميعاد استطاع سينادينو أن يحدده معه « استقبلنى بقصره بهلبوبوليس وجلست معه من العاشرة مساء حتى منتصف الليل ، فبدأ يذكر لى الأمثلة على اخلاصه لانجلترا ، وتحدث دون تحفظ على الاطلاق فقال انه يقبل العرش ولكنه لا يستطيع أن يقبله بالصورة التى تعرضها عليه حكومة صاحب الجلالة وتوسلت اليه من أجل مصلحته ومصلحة البلاد أن يثق بالحكومة البريطانية التى استدعته من المنفى والتى لم تخدعه حتى الآن ، ومع ذلك فقد ظل الأمير رافضا . وفى الساعة الحادية عشرة والنصف مساء قلت للأمير اننى أخشى أن أكون متطفلا على وقت فراغه ، فسألنى عما اذا كنت سأنصرف متأثرا بصورته كرجل عنيد ؟ قلت كلا : ولكنى متأثر بصورة أمير لائقة له فى لورد كتشنر أو فى الحكومة البريطانية ، وعندئذ بدا على الأمير بعض التردد وقال لا يمكن أن أتركك ترحل ولديك مثل هذا الانطباع عنى ، فماذا تعتقد أنه من الأفضل أن أفعله ؟ قلت له : اسمحلنا أن نضع نصا قويا للوراثة وأن نترك مسألة العلم والجنسية لحكم المندوب السامى البريطانى الذى سيأتى ، وأشرت الى أن سلطانا على العرش يكون فى موقف أفضل كثيرا للمساومة من مطالب بالعرش مهما كان جليل الشأن ، وقلت له أيضا انه بعد ما تواجه وزارة الخارجية البريطانية هذا البرهان الواضح على حسن نيته فليس من المستحيل أن تمنحه قدرا أكبر من الثقة ، وفكر الأمير برهة وقال : اذا ضمنت لى أن المندوب السامى البريطانى سوف يبت فى المسألتين الأخرتين لصلحتى ، وتحقق لى الوراثة فى العرش فانى أقبل . قلت ان هذا ليس قبولا على الاطلاق بل مجرد تأجيل لموعد المطالب واننى آسف لأن مثل هذا الشىء الصغير يحول بينك وبين عمل كل الخير الذى أعرف أنك تكون قادرا على عمله ، وانه لم يعد أمامنا الآن الا ارسال البرقية التى تتضمن رفضك » (٢) .

---

(١) Ibid, p. 138.

(٢) Ibid.

وبعد انصراف ستورس دخل سينادينو للأمير وسأله عما حدث فأبلغه . فسأله سينادينو لماذا لم تجب اجابة صريحة بأنك قبلت العرش ، فقال حسين : « لقد تركته يفهم على طريقة الخواجات » فرد عليه قائلا بأن هـــذه المسألة تقتضى اجابة صريحة واضحة وراح سينادينو يؤكد للأمير حسين أن لديــه معلومات مؤكدة بأن الانجليز سيكسبون الحرب . فرد عليه حسين بأنه قرر قبول العرش بدون شروط .

وفى اليوم التالى استدعى حســين رئيس الوزراء وأبلغه ما حدث وبأنه قرر قبـول العرش ثم أمسك بالهــاتف وطلب ستورس وأبلغه أنه على أتم استعداد لقبول اقتراحه الذى قدمه فى الليلة السابقة ، فرد عليه ستورس بأن هذه المسألة أخطر من أن يتلقى فيها ردا بالهــاتف وأنه من واجب الأمير أن يحضر بنفسه الى قصر الدوبارة ليبلغ شيتهام أنه قرر قبول العرش بدون قيد أو شرط (١) .

قبل حسين هذا الازدراء ، وذهب الى قصر الدوبارة وأبلغ شيتهام بأنه سحب رفضـــه السابق للعرش . وقبل شيتهام أوراق الموظف الجـديد الذى حضر اليه خاضعا . وعلى الفور أرســل شيتهام برقيــة للندن بذلك النبأ ، وصيغت المعـلومات ، وأصـــدرت الأوامر الى السلطان الجديد بالا يبت فى أمر كبير أو صغير بغير موافقة دار الحماية ، ورفع مرتبه من مائة ألف جنيه مرتب الخديوية الى مائة وخمسين ألف جنيه فى السنة (٢) .

من هنا نرى أن حسين لم يفـكر الا فى نفســـه ، فى لقبه ، فى وراثة أبنائه ، أشياء كلها عديمة القيمة . لكنــه كان كاسماعيل وتوفيق مهتمـــا بمصالحه الشخصية حتى تمسكه فى بادىء الأمــر بتعويض مصر باعطائهـــا الاستقلال الذاتى ما لبث أن تنازل عنه .

وعقب قبول السلطان الجديد العرش سمحت السلطــة العســكرية للصحافة المصرية بنشر ما يهيىء الأذهان للتغيير السياسى الذى كانت انجلترا تنوى اجراءه (٣) .

وجاء يوم ١٩ ديسمبر ١٩١٤ فخرج الأمير من قصره متجها الى عابدين وفى فناء القصر اكتظ المدعوون بالسرادق المقام فيه ، ويذكر الهلباوى ــ الذى كان من بين المدعوين ــ تأثير الحفلة على الحاضرين اذ يقول : « ... جاءنا الأمير عند دخوله فحييناه بدموع لم نستطع اخفاءها ، لأنه خيل الينا فى ذلك الوقت اننا نشيع جنازة البقية الباقية من استقلال مصر ، وان انجلترا قــد

(١) Ibid.

(٢) ابراهيم الهباوى : مذكرات ، الملف الثالث ، ص ١٠٢ .

(٣) الوطن ٣ نوفمبر ١٩١٤ ، الشعب ٦ نوفمبر ١٩١٤ .

استبدلت هذه الجنازة بمهزلة من المهازل استخفافا بعقولنا واحتقارا لكرامتنا. وما انسكب من دمع صديقي لطفي بك من العبرات في ذلك الموقف أفقدنا شطرا عظيما من صداقة السلطان لأنه عدها منا سوء معاملة أو قلة وفاء »(١) .

وقد أشاع حسين كامل أنه قبل العرش لخوفه من أن تجيء انجلترا بحاكم أجنبي الى مصر ، فمن أقواله « انما قبلت العرش لاحتفظ به لابن أخي ، ولو لم أقبله لجاء الانجليز بأجنبي يحكم البلاد » ، وقد صرح حسين رشدي أيضا بأن انجلترا قد أحضرت أغاخان زعيم الطائفة الاسماعيلية من الهند لكي يتولى حكم مصر ، وكثير من المراجع والكتب التي تناولت هذا الموضوع تزعم هذا الزعم (٢) .

ولكن بالرجوع الى مذكرات أغاخان نجد أن انجلترا قد أحضرته لمصر ولكن ليس ليحكمها انما ليهدىء من روح المصريين المتذمرة ، يقول في مذكراته : « كان كتشنر متيقظا لكل طارىء في الشرق ــ وبالذات في مصر ــ فقد أرسل الى مهمة دبلوماسية أو شبه دبلوماسية كانت الوزارة تؤيدها ، وكان الملك جورج الخامس موافقا عليها ومهتما بها ، كانت تلك المهمة تتعلق بمصر حيث كان الوضع السياسي مضطربا ودقيقا ، كان عباس بالآستانة ومصر بدون حاكم وكانت النتيجة في مصر شيئا يقارب الفوضى ، وكان الشك أعمق ما يكون في الرأي العام الاسلامي . لهذه الأسباب كان من الضروري المحافظة على الأمن الداخلي في مصر . اذن فقد كانت مهمتي أن أوضح هذا الرأي وأعمل على استقراره ، لقد طلب مني أن أصطحب معي زميلا لي ، ولذا لجأت الى صديق قديم وعزيز لي هو سير عباس علي بك الذي كان عندئذ العضو الهندي في المجلس الدائم . وهكذا سافرنا الى القاهرة بأسرع ما استطعت ، وهناك استقبلنا استقبالا لا يكاد يكون ملوكيا ، كنا هناك ضيفين رسميين على القائد العام البريطاني ، وانصرفنا فورا الى أداء مهمتنا الدقيقة الشاقة المتشعبة الى طبقات كثيرة من المجتمع المصري ، فكان علينا أولا أن نكسب القصر أو بالأحرى الشخصيات الرئيسية في العائلة المصرية الحاكمة ، كان هناك حسين كامل وأخوه أحمد فؤاد ، وكمال الدين حسين المتزوج من ابنة الخديوي عباس ، والعلماء رؤساء جامعة الأزهر ، كما كان هناك عامة الشعب المصري منهم المتعلمون الذين يجلسون في مقاهيهم يطالعون ويناقشون الى ما لا نهاية وشوق كل عدد من كل صحيفة يتتبعون أخبار الحرب ، والفلاحون الذين كانوا وما يزالون المصدر الحقيقي لقوة مصر ، كان علينا أن نقنع هؤلاء أن يؤيدوا أو يؤازروا قضية الحلفاء » (٣) . وجعل الانجليز وظيفة أغا خان في

---

(١) ابراهيم الهلباوي : السابق .

(٢) محمد حسين هيكل : مذكرات في السياسة المصرية ، جـ ١ ، ص ٧٤ .

(٣) محمد أغا خان : مذكرات ، ترجمة دار العلم للملايين ، ص‌ص ١٩٩ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

مصر سرية للغاية حتى يمكن لهم أن يهددوا المصريين باحضاره كاحتمال تنصيبه حاكما عليهم ، ويذكر المنار : « زار مصر محمد سلطان أغاخان زعيم طائفة الاسماعيلية أقدم الطوائف الباطنية جاءها عائدا من لندره •• وقد نزل ضيفا على مكسويل بمصر فلقى من الحفاوة والتكريم من الحكومة المصرية وكبراء الانجليز ، وقد تم حديث بين محرر المنار وأغاخان بشأن تقدم المسلمين •• أما حديثنا عن حالة مصر ومسألة الحماية الانجليزية عليها فلا يجوز نشره » (١) •

وكما هيأت انجلترا أذهان المصريين الى عزل عباس وتنصيب حسين كامل على العرش عملت على الاعداد لقبول نظام الحماية ، وألقى هذا على الصحافة أولا ثم على تصريحات المسئولين ثانيا ، ففتحت الأبواب للترحيب بالحماية بل والمطالبة بسرعة تنفيذها (٢) ، ولعب رشدى دورا ايجابيا فى ذلك ، وانتهى الأمر باعلان الحماية البريطانية على مصر فى ١٨ ديسمبر ١٩١٤ وأعقبه عزل عباس حلمى وتعيين حسين كامل حاكما لمصر • وأنكرت انجلترا جميع أسس الحماية واغفلت نصوصها القانونية وخالفت تصريحاتها بشأن عدم تغيير الوضع الراهن حتى الوريث الشرعى لعباس حلمى لم تعينه مكان أبيه ، وجدير بالذكر أنه عندما ألغت انجلترا الحماية قالت عنها « كانت عملا غير مرض » (٣) •

وجاء بلاغ انجلترا للسلطان الجديد ليسجل صفحة من الهوان فى تاريخ مصر الذى عاشته طيلة سنوات الحماية ، ففيه أعلم الحاكم الجديد بأن الحقوق التى كانت لسلطان تركيا وللخديو السابق على مصر قد سقطت عنهما وآلت الى جلاله ملك بريطانيا العظمى ، وان أفضل وسيلة للقيام بالمسئولية الخاصة بالدفاع عن مصر هى اعلان الحماية البريطانية اعلانا صريحا ، وأن تكون الاتصالات بين حكومة مصر والدول الأجنبية بواسطة وكيل جلالته فى مصر (٤)

هذا هو دستور الحماية الذى وصفته « المانشيستر جارديان » بأنه بمثابة ضم مصر الى انجلترا ، أما « التيمز » فقد علقت عليه فى الافتتاحية تحت عنوان « مصر تحت العلم البريطانى » (٥) •

كان ذلك كافيا لترجمة الوضع الذى غدت فيه مصر ، والذى أصبح

---

(١) المنار ، المجلد الثامن عشر ، مارس ١٩١٥ ، ص ص ١٥٩ ، ١٩٠ •
(٢) الوطن ، ١٦ ديسمبر ١٩١٤ ، المحروسة ١٧ ديسمبر ١٩١٤ •
(٣) عبد الرحمن فهمى ، مذكرات ، الملف الاول ، ص ٤ •
(٤) Récueil des doc. relatif, pp. 191, 2, 3, 4, 5, 18, 19 Dec., 1914.
(٥) The Times, Dec. 19, 1914.

فيه السير هنرى مكماهون يتصرف فى كل شىء حتى أصبحت مصر أشبه بمستعمرة انجليزية بعد أن قضى على الاستقلال الداخلى والحقوق التى كانت لمصر ولخديويها بمقتضى الفرمانات • هكذا أرادت انجلترا ، ونجحت فى أن يكون لها ما أرادت ، وقد صرح لويد جورج بأن ما تم كان نية مبيتة ، ففى ١٨ نوفمبر كتب شيتهام الى جراى يقول « ان الفكرة التى تنطوى عليها الحماية هى الاندماج فى الامبراطورية البريطانية دون أن تفقد مصر شخصيتها » (١) ، وكتب كرومر « بعد أن بقى مصير مصر السياسى معلقا مدة ثلاث وثلاثين سنة سوى بصورة نهائية ، لقد أدمجت البلاد فى الامبراطورية البريطانية ، ولم يكن هناك أى حل آخر ممكن » (٢) •

كلف السلطان حسين عقب جلوسه على عرش مصر رشدى بتكليف أول وزارة فى ظل الحماية تلك التى كان راضيا عنها والتى بفضلها وصل الى ذلك العرش واعتبرها مزيلة للخلافات الداخلية وموحدة للعناصر بما ينطوى عليها من مزايا كان يتوهمها متجاهلا ما تنطوى عليه من سلطة وسيادة استعماريه ، ويعلق « الجود » على ذلك بقوله « وتلك نبوءة كانت تنطوى على تفاؤل أكثر من أن تكون صداقة » (٣) •

وشكلت الوزارة ورأسها حسين رشدى وأمسك بزمام الداخلية ، واسماعيل سرى تولى الاشغال العمومية والحربية والبحرية وأحمد حلمى الزراعة ويوسف وهبة المالية وعدلى يكن المعارف بعد أن ألغيت الخارجية وعبد الخالق ثروت الحقانية واسماعيل صدقى الأوقاف (٤) ، وجرت تغييرات كبيرة داخل الديوان الخديوى فأصبح ديوانا سلطانيا بعد أن أبعد كل من كانت له علاقة شخصية بعباس حلمى فعزل أنصاره ورجال حاشيته بعد أن الصقت بهم التهم •

ورحب المسئولون بالمناصب الجديدة فى ظل الحماية واعتبروها نظاما دائما لمصر الى الحد الذى أقر فيه ثروت اعجابه بها وتبعه باقى أعضاء الوزارة (٥) ، وبذلك لم يقدر الموقف تقديرا صحيحا ، فقد كانت انجلترا فى حاجة ملحة لمساعدة مصر ، وكان يمكن لهم لا اقول املاء الشروط ولكن على الأقل نيل عهد مكتوب بأن الحماية اجراء وقتى تقضيه الحرب تحصل مصر بعده على استقلال سياسى • لكن مضت تصريحاتهم على صفحات الصحف وترديدهم لأفضال النظام الجديد الذى خضعت له مصر بل والتغنى بضعف

---

(١) Lloyd : op. cit., p. 206.

(٢) Cromer : Abbas II, p. 13.

(٣) Elgood : The transit of Egypt, p. 218.

(٤) Récueil des doc. relatif de la guerre, p. 202.

(٥) Storrs : op. cit., p. 142.

مصر وأنها ان لم تكن انجلترا أعلنت الحماية عليها فستفتش لها عن دولة قوية تحميها (١) ، وحتى أثناء الحرب لم تستغل الصعوبات التى كانت تخطوها انجلترا بطلب شىء لصالح مصر وقت أن كانت الجيوش التركية تهدد قناة السويس • وهكذا وضع دستور الحماية وأيده أصحاب المصالح الحقيقية ، وانتقلت البلاد الى دور تاريخى جديد ومرحلة قاسية من مراحل النضال الوطنى •

وفى ٢١ ديسمبر ١٩١٤ اجتمع مجلس الوزراء أول اجتماع له فى عهد الحماية تحت رئاسة الحاكم الصورى الجديد ، وفيه تقرر : أولا : الغاء وظيفة قاضى مصر ، الذى كان يعين من قبل تركيا دليل على العلاقة الدينية بين مصر ودولة الخلافة ، وبذلك انقطع آخر رباط كان يربط مصر بتركيا ، وقد اعترض هذا القاضى عند اعلان الحماية لمخالفة ذلك للفرمانات العثمانية ، وفى ٣٠ ديسمبر ١٩١٤ سافر محمد فوزى افندى آخر قضاة مصر متجها الى الآستانة •

ثانيا : اصدار مرسوم بتعيين رئيس ونائب مصريين للمحكمة الشرعية العليا وكانا قبل ذلك تركيين ، ورئيس ونائب مصريين أيضا لمحكمة مصر الشرعية الابتدائية •

ثالثا : اصدار قانون معدل لبعض مواد لائحة ترتيب المحاكم الشرعية ، وتقرر أن يكون تعيين رؤساء المحاكم الشرعية ونوابها وقضاتها بأمر من السلطان بناء على طلب وزير الحقانية ومسئولية مجلس الوزراء (٢) •

وتبعا للتغيير الجديد سرى الأمر أيضا على خطبة الجمعة ، فأصبح يدعى فيها للسلطان حسين بدلا من السلطان العثمانى مع ابقاء الدعاء للخليفة دون ذكر اسم شخص معين لعدم اثارة الرأى العام ومارست انجلترا السلطة الفعلية والرقابة الكلية حتى على اختصاصات مجلس الوزراء ، وأخذ كل من شيتهام ومكسويل وجراهام على عاتقهم ومنذ البداية الضغط على المصريين بمختلف الطرق ، وعندما جاء أول يناير ١٩١٥ موعد انعقاد الجمعية التشريعية رأى الانجليز أن الوقت لم يعد مناسبا لعقدها وذلك تتمة للضغط وكبت الحريات وتكميم الأفواه ، فأجلت الى ١٥ أبريل ١٩١٥ وفى ١١ أبريل أجلت الى أول نوفمبر سنة ١٩١٥ وأخيرا وفى ٢٨ أكتوبر صدر مرسوم بتأجيلها بدون تحديد لميعاد آخر وبايقاف العمل بأحكام القانون النظامى الأساسى القاضى بتجديد انتخاب أعضاء الجمعية التشريعية ومجالس المديريات بدل

---

(١) La phare d'Alex., 23 Doc. 1914, Le Journal du Caire, 12 Dec. 1914, The Times, Jan. 8, 1915.

(٢) أحمد شفيق : المرجع السابق ، ص‌ص ٥٦ ، ٥٧ •

الأعضاء الذين انتهت مدة عضويتهم بحكم القانون ، أو الذين يكونون توفوا أو شطب اسمهم منعا لأى سبب كان (١) • وقد وافق رشدى أيضا على ذلك الايقاف لأنه رأى أنه باستمرار اجتماعات الجمعية امكانية خروج أصوات المعارضة وخصوصا وأنه كان يعلم أن سعد زغلول متزعم لحزب المعارضة فى الجمعية وأنه لن يسكت على كل هذه الاجراءات التى تحدث •

ويذكر سعد زغلول بصدد هذا : « فاستطردت الكلام ــ مع ستورس ــ الى الجمعية التشريعية فقال انها الآن نائمة بسبب الحرب ، فقلت : ان نومها قد طال وثقل فهل ستستمر نائمة ، فقال الى أن تنتهى الحرب ، قلت ان المجالس الشورية فى بلاد الحرب تنعقد ، قال ولكنها لا تبحث الأشياء الا ظاهرا فقط ، فقلت ان هذا الظاهر حرمت منه أيضا الجمعية التشريعية لأنها أهملت أخذ رأى أعضائها فى مهام الأمور ولو بصفة غير رسمية ، فقد تقررت الميزانية وهى من أهم الأمور بدون أن يستشار أحد من الأعضاء فيها ، وفى ظنى ان الجمعية تعاون الحكومة على أعمالها وتخفف من المسئولية عنها ، فقال ان عدم عقدها لم يكن لقلة الثقة فيها بل لكثرة اشتغال الوزراء بمهام الأعمال وعدم وجود وقت عندهم يتفرغون فيه لمشاركة الجمعية فى أعمالها ، فقلت مبتسما انى منعت الوزراء كثرة الأعمال من الاشتغال من الجمعية فلا أظن أن هذه الكثرة تمنعهم من مشاورة أعضائها ، فقال انني أؤكد لك بأن الحكومة واثقة بالجمعية وأنها تشتغل بتوسيع اختصاصها ، فقلت ان كان توسيع الاختصاص بالمعنى الذى قرأناه فى الجرائد ، أن يكون رأى الجمعية نافذا فى مسائل الأوقاف والمحاكم الشرعية والمجالس الحسبية فهو قليل الأهمية بالنسبة لما كنا نأمله ومع ذلك فقد قيدوه بقيود قللت من فائدته ، وما دامت نية الحكومة نحو الجمعية حسنة ، فمن اللازم اظهار هذه النية لا اخفاؤها • وتقيد الجمعية بتلك القيود من شأنه أن يوهم قلة ثقة الحكومة بالجمعية وأن الأوفق أن يبدأ بالاطلاق لا بالتقييد لانك اذا دعوتنى للتنزه فى هذه الحديقة بشرط ألا أجول فى مكان معين فيها ولا أتعداه الى سواه شعرت من الضيق وقلة الثقة بخلاف ما اذا أذنتنى بالتجول فيها بلا شرط فانى أكون كثير المنة والشكر لك ولا أشعر بشىء من الضيق ، فقال ولكننى أخشى اذا أطلقت الأمر لك أن تفسد الزهر والثمر فالتزم بدعوة البوليس لاخراجك وهناك يكثر صياحك وتعلو الضجة منك » (٢) •

ومن ذلك يتبين أن سعد زغلول لم يكن راضيا عما حل بالجمعية ، ولم يكن بمفرده ، فهناك آخرون ، فحسين بك هلال اعترض على دخول مصر الحرب

(١) Goovernment Egyptien Conseil des ministres, No. 11, 8, Nov. 1915.

(٢) سعد زغلول : السابق ، كراسه ٢٥ ، ٨ ، ١٠ مارس ١٩١٥ ، ص‌ص ١٣١٣ ، ١٣٢٢، ١٣ ابريل ١٩١٥ ، ص ١٣٣٨ ، كراسة ٥٣ ، ص‌ص ٤ ، ٥ •

وخروجها عن الحياد ، وقدم مذكرة لرشدى بهذا المعنى ، وأحمد عبد اللطيف المحامى لما وصلته الدعوة للشخوص الى القصر مع زملائه رفض وأعلن الى كبير الأمناء انه يعد النظام الجديد باطلا والذلك فهو لا يشترك فى أية حفلة من حفلاته (١) ٠

وهكذا قضى على آخر مظهر للحياة النيابية فى مصر بقيام الحرب وبالسلطة التى فرضتها انجلترا عليها وبالموقف المخزل الذى وقفه كل من السلطان ووزرائه بصدد هذه الجمعية ، فقللوا من شأنها وصرحوا بعدم صلاحيتها ٠

مصر فى ظل الحماية :

ترتب على اعلان الحماية أن رفعت انجلترا وظيفة المعتمد والقنصل العام البريطانى الى وظيفة المندوب السامى ، وقد اختير لهذا المنصب السير هنرى مكماهون . وأخطأت انجلترا عندما عينته فهو غير ملم بأحوال مصر ، وليست له أية خبرة سابقة بشئونها على غرار من كانوا قبله ، ولم يكن فى وضع يجعله يؤثر على المصريين كرجل له شهرة عالية واسعة النطاق بنفس الطريقة التى كان يتبعها كتشنر من قبله ٠

وصل مكماهون الى مصر فى ٩ يناير ١٩١٥ ليتولى مهام المنصب الجديد ، فكان أول عمل يقوم به هو اطلاق أيدى المستشارين الانجليز فى البلاد حتى أصبح هؤلاء هم الحكام الحقيقيون : « حتى كان منصب المستشار المالى فى عهد الحماية أهم منصب فى مصر ، لأن المستشار كان رئيس الوزراء الفعلى ، أما رئيس الوزراء فقد كان عبارة عن انسان ميكانيكى يبصم القرارات ، وتقتصر واجباته على تلقى الزهور والرياحين أو الاحجار والرصاص حسب مقتضيات الحال » (٢) ٠

ومنذ بادىء الأمر رسم مكماهون لنفسه سياسة معينة وهى الاستئثار بالسلطة واهمال السلطان حسين ، وتحقير رشدى فقبل اعلان الحماية كان العميد البريطانى لا يستطيع تنفيذ مشروع أو اصدار مرسوم قبل الحصول على موافقة الوزراء المفوضين ، وعلى ذلك فقد كان العميد البريطانى وموظفو قصر الدوبارة يترددون على جميع الحفلات التى يقيمها رجال السلك السياسى حتى وطدوا صداقتهم بممثلى الدول وبذلك تزول العقبات وحل الوئام محل الخصام ، ولكن بعد اعلان الحماية أصبح عميد قصر الدوبارة هو الحاكم

---

(١) الاهرام ، ٢٢ مارس ١٩٢٧ ٠

(٢) آخر ساعة المصورة ، ١٥ يناير ١٩٣٩ ، ص ٣٧ ٠

بأمره حتى لقد انقطع الموظفون الانجليز تدريجيا عن زيارة المفوضيات الأخرى والاختلاط بالأجانب فى مصر (١) .

ترتب على ذلك أن أصبح السلطان وحكومته كمية مهملة ممـا أدى الى تزمر السلطان وانطوائه على نفسه ، وعلى مرور الأيام اشتدت الجفوة بينه وبين مكماهون حتى صار كل منهما لا يرى الآخر ، وأخذت السلطات تتركز كلهـا فى أيدى المستشارين بعد أن اعتبرهم مكماهون مسئولين رأسا أمامه وعليهم أن يوجهوا مكاتباتهم له مباشرة للرجوع الى لندن بشـأن أية تعليمـات أو توجيهات ، وقد نعجب حينما نعلم أن هؤلاء المستشارين كانوا يعتبرون موظفين لدى السلطان نفسه .

وعمل مكماهون منذ اللحظة الأولى لوصوله على جعل السلطان يشعر بان درجة نائب جلالة ملك انجلترا فوق مستوى درجة سلطـان مصر .. اليس صاحب الجلالة هو الذى اختار حسين وعينه ، اذن فحسين مدين لجلالته بتعيينه حاكما لمصر .. هو الخاضع الذليل لسيده وبالتالى لنائب سيده .

صدرت الأوامر الى السلطان الجديد بألا يبت فى أمر كبير أو صغير بغير موافقة دار الحماية ولتسهيل هذه المهمة أنشىء خط هاتفى مباشر بين مكتبه فى قصر عابدين وبين مكتب المندوب السامى ، وحتى ذلك استكثره النائب لكثرة مشغولياته ، لذا أصبح الخط مباشر مع مسـتر ستورس السكرتير الشرقى لدار الحماية فتضايق السلطـان لذلك وطلب أن يكون الخط المبـاشر بين ستورس وبين السكرتير السلطانى الخاص وكـاد يجن ستورس من الهاتف المباشر فمثـلا سكرتير السلطان يسأل :

ان صـاحب العظمـة يريد أن يقيـم مأدبة غذاء فى القصر للعلمـاء فهل يدعوهم أو لا يدعوهم ؟

وبعد خمس دقائق يسأله : ان رئيس الوزراء يطلب مقابلة السلطـان هل يقابله أم لا ؟ وتمر خمسة دقائق أخرى فيسأله السكرتير : ان أحد الامراء يطلب سلفة من السلطان فهل يدفع له السلطان المبلغ المطلوب أم أن اخلاص هذا الأمير للانجليز موضع شك ؟ .

هذا الوضع كان ينير ستورس اذ يقول : « بدأت آسف لتركيب الهاتف المباشر الخـاص الذى يربط مكتبى فى قصر الدوبارة بالقصر فى عابدين .. لقد وافقت على هذا بفكرة أنه أوفر على نفسى استدعاءات السلطان الدائم ، لكن اراكيل نوبار بك سكرتير السلطان الخاص أصبح يستعمل الهاتف كالنفير ، ينفخ فيه باستمرار يدمر به روحى وأسفاه » (٢) .

---

(١) نفس المصدر ، ٥ فبراير ١٩٣٩ ، ص ٢٥ .

(٢) Storrs : op. cit., p. 146.

وقد ذكر سعد في مذكراته عن ضعف مركز السلطان أمام قوة الانجليز يقول : « حادث السلطان مكاتب جريدة ايطالية محادثة نشرتها جريدته ، ولكن فلم المطبوعات هنا حذف منها بعض الجمل واقتضى لنشرها بتمامها فى بعض الصحف العربيه تحت عنوان (مخابرات بين الوزاراة ومكماهون) وبلغنى أن السير مكماهون استاء لهذا الحديث ونشره وأرسل يعنف السلطان على محادثته لرجال الصحافة حتى قيل انه منع السلطان من الاجتماع بهم ومحادثتهم فى الشئون العامة » (١) ·

وهكذا اعتبر المندوب السامي البريطاني حاكم مصر موظفا صغيرا عنده ، وما عليه الا أن يذهب اليه ويعرض عليه ما يريد ويطلب منه ما يشاء . أما مكماهون نائب جلالته لا يذهب الى قصر عابدين اذ أصبح هو الملك الحقيقى الغير منوج ، لقد وضعت انجلترا هذه السياسة لاذلال السلطان وتحقيره حتى يشعروه أنهم كل شيء وأنه بفضلهم جاء على العرش ·

ولم يكتف الانجليز بهذا بل ذهبوا الى أكثر من ذلك ، فعندما عينوه سلطانا على مصر أنعم ملك انجلترا عليه بوسام الحمام · وانتظر السلطان أن يذهب اليه مكماهون ـ كالعادة المتبعة في مثل هذه الأحوال ـ ويسلمه الوسام في قصره، واذا بنائب الملك يقول للسلطان انه لا يذهب لقصر عابدين وانما على السلطان أن ينتقل الى دار الحماية فى قصر الدوبارة ليتسلم الوسام · وساءت العلاقات حتى أن سعدا يقول : « علمت أن الخلاف المشار اليه سابقا حصل منذ زمان طويل عقب اهداء نيشان عظيم الشأن الى السلطان من جلالة ملك انجلترا حيث أراد مكماهون نائب الملك أن يسلم هذا النيشان الى المهدى اليه فى حفلة رسمية تنعقد بدار الحماية الانجليزية ، فكبر ذلك على السلطان وتخابر مع مكماهون فى هذا الشأن ، ونتج عن هذه المخابرة أن عدل عن هذه الحفلة الرسمية الى وليمة بسيطة حضرها السلطان ووزراؤه وبعض كبار الانجليز وغيرهم ، ولما أقبل السلطان على دار الحماية دخل من باب خاص وأدخل فى غرفة خاصة على غير شعور المدعوين ، وهناك سلم اليه السيد مكماهون ذلك النيشان وتنبه بحفظ هذا الأمر وصار مكتوما عن الجرائد وعن سائر الناس » (٢) ·

وكنتيجة لموقف مكماهون راح السلطان يتصرف بأسلوب يقضى بتسديد الضربات له فكثيرا ما اتخذ من مرضه وسيلة للتنصل من لقائه ، وعلى أثر هذا الجفاء حاول السلطان التقرب من الشعب وبالذات من الفئة المتعلمة ـ وخاصة

(١) سعد زغلول : السابق ، كراسة ٢٥ ، ١٧ مارس ١٩١٥ ، ص ١٣٢٤ ·
(٢) نفس المصدر ، ٢٦ مارس ١٩١٥ ، ص ١٣٢٦ ·

بعد الاعتداء عليه واحتقار الطلبة له ـ فزار مدرسة الحقوق للمرة الثـــانية في ١٠ أبريل ١٩١٦ وخاطب الطلبـــة (١) · وأعقب ذلك أن أفرج عن بعض المعتقلين كخطوة له للتقرب من المصريين ضــــد الانجليز فقد كانت السلطات قد اعتقلت أمين الرافعي وعبد الرحمن الرافعي وعبد الله طلعت وهم من رجال الحرب الوطني ، فدعاهم السلطان من معتقلهم لمقابلته وشملهم بعطفه ورضاه وأمر باطلاق سراحهم (٢) ·

وكانت الخطوة التي تلت ذلك هي تفكير السلطان في تكوين حــزب من الأمة ضد انجلترا ، يذكر سعد بهذا الصدد : « أخبرني عاطف أن عظمـــة السلطان قال في حديث له أن وقتي قد جاء ، وأفاد عاطف أنه يريد أن يكون حزبا من الأمة فانه قد تقبل الرأى وتركه بالبشاشة وقال لهم أنتم أولادى وأنا أبوكم » (٣) ·

من هذا نرى أن العلاقة قد ساءت بين مكماهون والسلطان حسين لدرجة أن الأخير امتنع عن مزاولة أعماله الرسمية وتنقل في أملاكه بالريف تفاديا لاحتكاكه بمكماهون وكان دائم الشكوى من ازدياد قوة الموظفين الانجليز · ولقد وصلت الدرجة الى أنه كان يشكو لبعض الانجليـــز من أنه لم يلق من المندوب السامي مكماهون الرعاية الواجبة وبالتالي بينه وبين المستشارين وعلى رأسهم سيسل وهذا مما أدى الى قيام الجفاء بينه وبينهم (٤) ·

وازداد الأمـــر سوءا ففي أواخر ١٩١٦ عين « هنس Hens » مستشارا للداخلية الذى عمل بدوره هو الآخر على عزل السلطان « وكان أول عمل يعمله بالداخلية هو منع اتصال موظفي الادارة بالسلطان » (٥) ·

وكان من نتيجة هذا الخلاف أن أدلى السلطـــان بتصريحات الى بعض مراسلي الصحف الأجنبية لمح فيها الى زهده في العرش ورغبته في اعتزال الحكم وعلى أثر هذا عالجت انجلترا الأمر بأن سحبت مكماهون وعينت ونجت بدلا منه كاستمرار لسياستها وهي ألا تعين في مصر معتمدا بريطانيا الا اذا كانت لديه دراية واسعة وخبرة فائقة في مصر مثل كرومر وجورست وأخيرا كتشنر ، لهذا اختارت ونجت أولا لدرايته الواسعة بشئون مصر وأحوالها ، فقد احتك بالمصريين كنتيجة لاشتغاله بالجيش المصرى فترة طويلة ، اذن فهو أقدر من مكماهون على تدعيم الحماية وامتلاك زمام الأمور · ولتلك الصداقة الشخصية

---

(١) الوطن ١٢ ابريل ١٩١٦ ·
(٢) وادى النيل ٢٧ يونية ١٩١٦ ·
(٣) سعد زغلول : السابق ، كراسة ٢٦ ، ٢٩ يونية ١٩١٦ ، ص ١٤٠٠ ·
(٤) Chirol : The Egyptian problem, p. 132.
(٥) سعد زغلول : السابق ، كراسة ٢٩ ، ٢٩ أكتوبر ١٩١٦ ، ص ١٥٩٢ ·

التى كانت تربط ونجت بحسين منذ ثلاثين عاما ، حقيقة أن الحكومة الانجليزية لم تكن تحرص على صداقة حسين ولكنها خافت من أن يتقرب حسين للأمة ويشترك الاثنان ضد انجلترا وبذلك يزداد الخطر عليهما فى ذلك الوقت العصيب الذى كان دوى انتصار ألمانيا عظيما • هذا بالاضافة الى أن ونجت أكفأ الناس للعمل فى مصر خاصة فى مثل هذه الظروف بعد غرق اللورد كتشنر • وقد كان أيضا للغزو التركى لقناة السويس الشغل الشاغل لانجلترا ، ولأهمية مصر الحربية كان لابد من وضع نظام جديد خصوصا بعد أن ثبت أن هناك صدى لدسائس ألمانيا وتركيا • لذا كان من الضرورى أن يعين مكان مكماهون رجل عسكرى صارم كمندوب سامى وكنائب للملك لتكون له السلطة المطلقة لكبح جماح أى دسيسه تقوم ، وهذا ينطبق على ونجت ذلك الرجل العسكرى الذى يمكن له بسهولة السيطرة على الموقف • وأخيرا رأت انجلترا ضرورة زيادة الضغط على المصريين والقضاء على أى حركة وطنية بعد أن ظهرت تلك الحركات التى هدفت اغتيال السلطان ووزرائه ، وبتعيين ونجت اشتدت الأحكام العرفية وازداد الضغط لجعل مصر تساهم بأكبر قدر ممكن من المجهود الحربى أثناء الحرب •

وفى ١٢ أكتوبر ١٩١٦ كان ونجت بالخرطوم عندما وصلته برقية التعيين الجديد ، ولما كان السلطان حسين فى ذلك الوقت موجودا بأسوان حيث كان يقوم برحلة نيلية فسر جدا لتعينه وأرسل اليه رسالة عاجلة يدعوه لمقابلته بأسوان وهو فى طريقه الى القاهرة للتفاهم فى علاقتهما المستقبلة ، وتمت فعلا المقابلة وضاعت مرة أخرى من السلطان حسين فرصة لا تعوض من حيث أنه فى استطاعته بعد أن وضحت له نوايا انجلترا بأن يطالب ونجت بوعد موثق صريح يحدد موقف مصر السياسى عقب الحرب ، بعد تلك التضحيات التى قدمتها لانجلترا حتى ذلك الوقت ، ولكن لم يكن حسين كما عاهدناه غير شخص أنانى لا يطلب الا ما يكون فيه مصلحة له ، وتمت المقابلة وكانت كلها شكوى حسين من مكماهون وتصرفاته وازدرائه له •

وصل ونجت فى أواخر ديسمبر ١٩١٦ القاهرة ليشغل منصبه الجديد ، وليلقى على عاتقه سياسة جديدة وقد أحيط بمظاهر العظمة والأبهة اذ كانت له صلات بضباط الجيش المصرى وله علاقات بكبار الشخصيات ، كل هذا ساعده على فرض نفوذه دون معارض له أو رقيب عليه بعد أن أصبح الحاكم بأمره فى طول البلاد وعرضها تسانده السلطة فى تنفيذ أوامره ، تلك السلطة التى طغت على كل شىء بمصر واستأثرت بكافة الأمور فيها •

وما على السلطان الا الطاعة وما على الوزراء ورئيسهم الا الاستجابة وما على المصريين الا التضحية •

أخذ ونجت يعمل منذ وصوله على معالجة مسألتين حيويين :

أولا : علاقة مصر ببريطانيا ، تلك العلاقة التى ترتبت على اعلان الحماية .

ثانيا : الدور الذى يجب على مصر أن تقوم به لمساعدة انجلترا أثناء الحرب وتقديم المزيد من المجهود الحربى (١) .

كان أول نشاط جاء به الى مصر هو نقل ادوارد سيسل المستشار المالى المؤيد لسياسة مكماهون ففى ٣١ يناير ١٩١٧ حرر برقية الى لورد هاردنج وزير الخارجية الجديد فى وزارة لويد جورج تقول : « لايوجد عدم وفاق بينى وبين سيسل غير أن علاقاته مع السلطان والوزراء ليست على مايرام وانى أعتقد ازاء هذه الحقيقة اننى لا أريد أن ألاقى أية عراقيل فى سبيل تعاملى مع الوزراء المصريين (٢) . وعلى الفور ودون انتظار رد لندن نحى سيسل وأحل محله سير برونيات .

بعد ذلك شرع فى تنفيذ سياسته ، ووضع نصب عينيه أولا وقبل كل شىء السعى لدى الحكومة المصرية لزيادة مجهودها الحربى فى سبيل خدمة انجلترا رغم علو سهمها فى هذا المجال ، فقد اشتركت فى حرب القناة ضد الاتراك وقدمت الرجال والجمال والاموال والمحصولات والمستشفيات .

وجاء دور تحديد العلاقة السياسية بين مصر وانجلترا ، فبعد مرور سنين من الحرب أحست انجلترا أن تيار الحرب رفع كثيرا من أهمية مصر كحلقة اتصال فى النظام الامبراطورى ، وخافت من شبح الجامعة الاسلامية فقد كان يزعج كثيرين فى وزارة الخارجية عندما كانت تفكر في أن هذه الجامعة تنتقل زعامتها وتؤول لمصر بعد انهيار الدولة العثمانية ، وكذلك كانت ترى أن الاشراف على مصر سيكون عاملا جوهريا وفعالا لاحكام الاشراف على ميراث الامبراطورية العثمانية .

لهذا فكرت انجلترا فى تغيير النظام السياسى فى مصر واعلان ضمها الى الامبراطورية وكان جراى قد أعلن فى عام ١٩١٦ بأن انجلترا هى صاحبة السيادة على مصر وأنها عازمة على استبقائها حتى أن لورد « كيرزن » اعتبر أن مصر قد غدت جزءا من الامبراطورية البريطانية وانها تعتبر بمثابة هند صغيرة بالنسبة لانجلترا فى حين كانت وجهة نظر « لويد » الارتباط الدائم بين مصر والامبراطورية وذلك بالسيطرة التامة على مصر . وفى لندن ارتفعت أصوات من يؤمنون بفكرة ضم مصر الى الامبراطورية كما ضمت قبرص اليها . وقد نصح بفكرة الضم النهائى الجنرال « كليتون Clyton » مدير المكتب

(١) Wingate : op. cit., p. 215.

(٢) Ibid.

العربى للمخابرات بالقاهرة ، والذى كان يشرف على الشئون السياسية فى دار الحماية فقد قدم تقريرا فى ٢٢ يوليو ١٩١٧ أوضح فيه ماكشفته الحرب من أهمية خطرة لمصر . وما لقناة السويس من أهمية حيوية للامبراطورية وأن هذا الأمر ضرورى لكى تضمن انجلترا مركزها فى خط برلين بغداد ، هذا فى الوقت الذى عدد فيه مخاطر ذلك الأمر كالخوف من استقالة الوزراء والموظفين مما يتعذر ادارة الحكم وتخلخل الأوضاع الداخلية ورد الفعل فى أوساط المسلمين عامة وفى البلاد العربية خاصة لكنه انتهى باصراره على الضم والتخلص من أسرة محمد على كلية (١) ٠

كان اذن على ونجت أن يعمل لجس نبض السلطان ووزرائه نحو تغيير نظام الحكم ، فعكف على مفاوضتهما فى أمر العلاقات بين انجلترا ومصر ليعلم مدى استعداد السلطان ووزرائه لذلك ٠

ومرة أخرى ضاعت فرصة تحديد علاقة مصر بانجلترا وقد كان فى امكان السلطان ورشدى التفاوض مع ونجت على منح مصر الاستقلال ، فى ذلك الوقت الحرج الذى تجرى فيه انتصارات ألمانيا فى أوربا ، أو ارتباطها معها بمعاهدة دفاعية ولكن لم يحدث هذا اذ سرعان ما لمس ونجت أنه لا توجد أية معارضة من قبل السلطان وحكومته لنظام الحماية حيث دارت المفاوضات وقصرت المطالب على مجرد اطلاق أيديهما بدرجة أكبر فى نظام الحكم الداخلى٠

وفى ٢٤ مارس ١٩١٧ أرسل ونجت تقريرا الى لورد « هاردنج Harding » بشأن المقابلة الطويلة التى تمت بينه وبين السلطان وحكومته حيث قال : « ليس لدى أى نوع من الشك فى أن السلطان ووزرائه يرحبون بأن يمنح المصريون درجة أكبر من نظام الحكم الداخلى فى بلادهم أوسع من تلك الدرجة التى يتمتعون بها حاليا » (٢) ٠

وبعد مشاورات بين ونجت والسلطان حسين الذى كان مقتنعا بالمزايا التى تعود على مصر من ضمها الى الامبراطورية ، كتب ونجت لسكرتير الدولة بلندن فى ٢٧ يوليو ١٩١٧ عن السياسة الواجب اتخاذها فى مصر لاستمرار مركز الانجليز فى مصر ولضمان تعاون المصريين ، وذلك لن يتم الا بالغاء السلطنة وضم مصر ، وان هذا الوضع سيؤثر على الشعب ولذلك فمن الضرورى أن يكون الضم بتكتيك معين حتى يقابل بسلبية من المصريين ٠

كان بلندن فريق آخر – غير فريق الضم – ينادى بالتمسك باستمرار

---

(١) Lloyd : op. cit., pp. 248, 251, 262, 267. Wingate : op. cit., p. 236.

(٢) Wingate : op. cit., p. 220.

نظام الحماية ويعمد رأيه على أن تصريح الحماية على مصر كان مصحوبا بعبارة صريحة تعبر عن عزم بريطانيا على التعجيل فى طريق التقدم نحو مسح مصر الحكم الذاتى ، وتبعا لذلك فمن رأيهم أنه لدى بريطانيا أحد أمرين اما أن تعود بسياستها الى الوراء أى التمسك بنظام الحماية أو التقدم فى سبيل التحرر التدريجى . وهى لاتريد أن ترخى قبضتها عن مصر كما أنها ليست على استعداد لايلام هؤلاء المصريين الذين تعاونوا معها طوال فترة الحرب (١) . هذا وقد وضعت بعض الاعتبارات الأخرى التى حولت من مسار الاقدام على ضم مصر ، فالخوف من معاداة الوزارة المصرية التى تعاونت معها من جهة ثم للتذمر السائد بين الفلاحين الذين أصبحوا للمرة الأولى قابلين للهياج من جهة أخرى ، حتى ان اللورد كيرزن ـ الذى أصبح زعيم المعارضة فى مجلس اللوردات وقد لعب دورا مهما فى السياسة البريطانية ـ رفض فكرة ادماج مصر فى الامبراطورية البريطانية ، وصرح بأن ذلك أمر غاية فى الصعوبة ويجب أن يؤخذ بشىء من التروى (٢) .

هكذا بترت فكرة الضم ورفضت مقصودة وعن عمد ، خاصة بعد أن اقتنع الانجليز وتصوروا أن دستور الحماية يمنح الحرية السياسية الواسعة ويظهر مقدرة الشعب المصرى فى حكم نفسه (٣) .

وأخيرا وللمرة الثالثة قررت بريطانيا التمسك بنظام الحماية . وبذلك أصبحت مصر الشاغل الوحيد لدى انجلترا ، فتارة تنوى ضمها اليها لتصبح احدى مستعمراتها وتارة أخرى تجعل الأوضاع كما هى عليه . وبعد الاتفاق على استمرار نظام الحماية رأت انجلترا أن الوقت قد حان لالغاء الامتيازات الأجنبية ووضع اجراءات أخرى لاحتياجات الوضع الجديد . ففى دستور الحماية يصرح وكيل نائب الملك بأن الامتيازات الأجنبية لم تعد ملائمة لتقدم البلاد . وذلك لرغبتها فى السيطرة التامة على مصر ، وكانت فى الأعوام السابقة للحرب ترغب فى تسوية هذه المسألة بنيل موافقة فرنسا وايطاليا وبقية الدول على الغائها ، فحمل وزير الخارجية ادوار جراى اللورد كتشنر على تأليف لجنة لبحث مسألة المحاكم القضائية برمتها وقد وضعت اللجنة تقريرا فى عام ١٩١٤ واقترحت فيه ادماج المحاكم فى المحاكم المختلطة وتوحد اختصاصها ، غير أن وزية الخارجبة لم يوافق على ذلك (٤) .

وقد شغل هذا الموضوع لندن فقدمت المذكرات الى وزارة الخارجية من رجال القانون الانجليز يطلبون فيها من الوزارة تأليف لجنة تهتم بهذا الموضوع هذا فى

---

(١) Marlowe : op. cit, p. 226.

(٢) Chirol : op. cit., p. 125.

(٣) House of Lords, Vol. XXXVII, Nov. 25, 1919, p. 324.

(٤) Lloyd : op. cit., p. 269.

الوقت الذى كان يفد الى وزارة الخارجيـــة المذكرات من المقننين الانجليز بمصر الخاصة بموضوع الاصلاح القانونى الذى سيدخل مصر كنتيجة لالغاء الامتيازات الأجنبيـــة ٠

وفى ٢٤ مارس ١٩١٧ بناء على صدور أمر من انجلترا تمت الموافقــه على تأليف لجنة من أربعة أعضاء اشترط أن يكون منهم انجليزى ذو شخصية قانونية فى مصر (١) للنظر فى أمر اصلاح القضاء فى حالة الغـاء الامتيازات الأجنبيه ، ولوضع التعديلات التى يستدعى ادخالها فى القوانين والنظم القضائيه والاداريه فى البلاد التى يتطلبها الغاء الامتيازات فى ظل نظام الحماية ، وقد رأس هذه اللجنة يوسف وهبة وزير المالية ٠ وكان السير برونيات المستشار المالى بالنيابة العنصر الفعال فيها بصفته مستشارا للمالية ومستشارا للقضاء، والسير بريسفال وكيل محكمة الاستئناف ٠

كمـا كان الغرض من تأليف هذه اللجنـــة وضع القوانين والنظم التى تنسجم مع الحماية ، وسميت « لجنة الامتيازات » ، وكان روح هذه اللجنة ومقررها سير برونيـات ، وقد وضعت عدة مشروعات قوانين كقانون العقوبات وقانون تحقيق الجنايات وقانون المرافعات ، وبعض فصـــول من القانون المدنى والتجارى ، وقطعت شوطا بعيدا فى وضع النظام القضائى الذى كان مزمعا وضعه على أساس ادماج القضاء الأهلى والقضاء المختلط وجعلهما نظاما موحدا مختلطا فى قواعده وهيكله مع تغليب العنصر الانجليزى ، ومما تقرر فيه جعـل النائب العام انجليزيا (٢) ٠

تقدم الى هذه اللجنة عشرة من المحامين الانجليز ، وطالبوا باعتبـار اللغـة الانجليزية لغة رسمية للمحاكم توضع بها القوانين وتترجم منها الى اللغة العربية أو الفرنسية اذا دعا الأمر الى ذلك ، واستلزموا أن يسن القانون الأهلى وفقـا للأصول الانجليزية والقانون الجنائى بصفة خاصة ، وأن يجلس قاض انجليزى الى جانب القاضى المصرى للنظر فى المسائل الأهلية (٣) ٠

وفوق ذلك فانهم زعموا أن المصريين يقبلون هذه المطالب عن طيب خاطر وأنها لازمة لضمان المصالح الانجليزية فى مصر ، وقد أعد سـعد زغلول ردا على المشروع وأرسله الى الاهرام والمقطم ومصر لينشروه فمنع الرقيب نشره ، وفيـه يستنكر سعد هذا الاجراء الغير قانونى ويبين أن مصر لن تقبل وأن هدف انجلترا من ذلك جعل المصريين غرباء فى بيوتهم (٤) ٠

---

(١) House of Commons, vol. 113, March 30, 1919, p. 2373.

(٢) Le groupe d'etude d'Islam : L'Egypte independent, pp. 40, 41.

(٣) القضيه المصرية ، ص ٥٠ ٠

(٤) ما كتبه سعد زغلول ردا على مطالب المحامون الانجليز العشر ، محفوظ لدى ابراهيم فرج٠

وقد استمرت اجتماعات هذه اللجنة الى شهر نوفمبر ١٩١٨ حتى لقد بلغت جلساتها ١٢٨ جلسة ووضعت نظاما لمصر ــ الذى عرف باسم مشروع برونيات ــ كذلك وضعت قانونا للعقوبات مأخوذ من القانون الانجلوساكسونى ٠

وارسلت نسخ المشروع الى نقابة المحامين المصريين فرفضوه واحتجوا عليه « لأنه مبنى على أساس القضاء على كل اســتقلال بل وعلى كل وجود للقضاء المصرى » (١) ٠

ومن أواخر عام ١٩١٧ اقترح عدلى يكن وزير المعارف وثروت وزير الحقانية مسألة بحث الاصلاح التشريعى لا التعديلات التى تترتب على الغاء امتيازات الأجانب فحسب ، وألفت لجنة لهذا الغرض (٢) ضمت انجليز ومصريين ، ومضت اجتماعاتها وتمخضت عن فكرتين متعارضتين الأولى انجليزية تنطوى على اعادة اقتراحات كرومر التى وضعها عامى ١٩٠٤ ، ١٩٠٦ الخاصــة بأن تترك الدول لانجلترا أمر المصادقة على تغيير الأحكام الموجودة وأن تكون مسئولة عن كل مايرتبط بالاجانب الذين يمكن لهم أن يشتركوا فى سن القوانين ٠ أما الثانية فهى مصرية وترمى الى أن يمارس المصريون حقوقهم مع بعض التحفظات ٠

ورأت انجلترا ضرورة اشراك الأجـانب فى مجالس المديريـات والمجالس المحلية والقروية وتألفت لجنة من أجل ذلك الغرض ، وطلب من محمد على علوبة الاشتراك فيها ، فتردد فى البداية لكنه وافق حتى يسهم فى معارضة أى نص يضر بمصر خاصة بعد أن ظهرت بوادر انتصار ألمانيا وحلفائها ، وقد اتضح ذلك فى احدى جلساتها ، عندما أبدى رئيس قلم قضايا الحكومة وهو أجنبى ضرورة اشراك الأجانب فى المجالس فرد عليه علوبه بقوله « انت تريد اشراك الأجانب من القرى وليس فى قرانا ما أعلم سوى بقال رومى وهو مسيطر فعلا على كثير من أهلها ويتحكم فى شئونهم لأنه ليس بقالا فحسب وانما هو مراب وبائع خمور ، وكيف تغلغل هذا النفوذ من قرانا ونحن نسعى الى استقلال بلادنا ببرلمان مصرى ومحاكم مصرية » (٣) ٠

ورغم تعدد تلك اللجان وتشعبها الا أن الأمر أسفر فى النهاية على مشروع « برونيـات » الخاص بمنح الأجانب حق التشريع ، ولعـل ذلك يغرى الدول بالتنازل عما يحق لها بموجب الامتيازات الأجنبية ٠ وفى أوائل نوفمبر ١٩١٨ كان برونيات قد انتهى من العمل الذى أوكلته اليه لجنـة الامتيـازات الأجنبيـة الخاص بالدستور ٠

---

(١) ابراهيم الهلباوى : السابق ، الملف الثالث ، ص ١٣١ ٠

(٢) Lloyd : op. cit., p. 273.

(٣) محمد على علوبة : مذكرات ، ص ص ١٢٤ ــ ١٢٦ ٠

وقد قضى مشروع برونيات بانشاء مجلسين أحدهما يسمى مجلس الأعيان أو الشيوخ وهو يتألف من الوزراء ، والمستشارين الانجليز ، وبعض الموظفين الانجليز يساويهم فى الرتبة . هؤلاء معينون ، ويتكون أيضا من أعضاء منتخبين ينتخبون بطريقة كثيرة القيود والشروط منهم خمسة عشر أجنبيا ينتخبهم الأجانب وثلاثون مصريا يجرى انتخابهم على قواعد محدودة بحيث تكون الأغلبية لهذا المجلس للأجانب اذا ضم اليهم الوزراء والمستشارون الانجليز . وهذا المجلس يملك وحده السلطة التشريعية . أما المجلس الآخر وهو مجلس النواب مؤلف من المصريين وسلطته استشارية (١) . وليس له رأى قاطع فى عظيم ولاضئيل من مصالح البلاد وللحكومة أن تتخطاه بارسال القوانين مباشرة الى مجلس الأعيان ، ثم بالاضافة الى ذلك فالقوانين التى تصدر من هذا المجلس أو من ذاك لا تعتمد الا بعد اقرارها فى وزارة الخارجية البريطانية (٢) . ولقد كان من أهداف هذه التعديلات أيضا استدراج الأجانب الى الرضا بالغاء امتيازاتهم ريثما تنحصر السلطة كلها فى يد المندوب السامى البريطانى . وبذلك تتحول مصر الى مستعمرة بريطانية . وعرض المشروع على رشدى لكنه رفضه عندما تنبه لخطورة نتائجه وأعد مذكرة هاجمه فيها وعدد التضحيات التى قدمتها مصر من أجل انجلترا وحلفائها طوال الحرب وأعطى صورة للنظام الدستورى الذى يجب منحه لمصر ويتكون من مجلس نيابى ومجلس للاعيان يؤلف كلاهما من المصريين ويختار أعضاء مجلس النواب بطريق الانتخاب أما مجلس الأعيان فبالتعيين لمدى الحياة ولا يصدر قانون الا بعد تصديق المجلسين عليه واعتماد السلطان له ، أما القوانين التى كان تنفيذها على الأجانب فى عهد الامتيازات يقتضى مصادقة الدول عليها ، فهذه القوانين لا يسرى أحدها عليهم الا بعد قبول بريطانيا ، وفى كلا المجلسين لايجوز البحث فى شئون الدين العمومى وبصفة عامة فى جميع التعهدات والالتزامات الناشئة عن اتفاقات دولية . وأن يكون الوزراء مسئولين بطريق التضامن أمام مجلس النواب . وختم رشدى مذكرته بانفعال شديد للدرجة أنه هدد بتقديم استقالته اذا خرج مشروع برونيات الى حيز الوجود (٣) .

هكذا رفض المشروع ورغم سرية مذكرة رشدى الا أنها عرفت لدى المصريين واثارت عاصفة من الاحتجاجات لدى طبقات الأمة التى وجدت فيه تجاهلا للشعور الوطنى الذى ألهبته حوادث الحرب وأشعلته نمو الديمقراطية . وانتهى الأمر بتسليم أوراق المشروع ومن هنا نرى أن رشدى لاول مرة يتحرك وبعنف أمام مطلب انجلترا فقد عاهدناه مستسلما الى حد كبير لكنه هذه المرة تشدد ونجح فى تشدده .

---

(١) Lloyd : op. cit., pp. 277, 278.

(٢) عباس محمود العقاد : سعد زغلول ، ص ٢٠٠ .

(٣) Marlowe : op. cit., p. 228.

علمنا أنه بمجيء ونجت الى مصر كان عليه أن يضمها للامبراطورية ودخل في مناقشات مع السلطان ورئيس وزرائه عرف منها أنه لا مانع لديهم في سبيل أشياء ظاهرية نعود عليهم ولكن بعد أن رفضت فكرة الضم هذه وعمل على الاستمرار في نظام الحماية القائم رأى السلطان حسين أن نصريح الحماية الذى ناله من انجلترا لم يحدد شكلا للوراثة بل تركها لوقت آخر وعندما أحس السلطان حسين بقرب نهاية حياته رأى أن تكون ذريته وارثة عرش مصر لذا سعى في عقد مشروع اتفاق مع انجلترا هادفا معالجة أمر الوراثة ٠

ومذكرات سعد زغلول تعطى ضوءا على هذا المشروع الذى فتح الباب لمشاريع أخرى قامت عليه اذ يقول :« اطلعني ـ رشدى ـ على مذكرة ومشروع اتفاق بين السلطان والحكومة الانجليزية يتضمن بأن تكون حكومة مصر حكومة ملكية مقيدة تحت رئاسة سلطان وراثى ووزراء ينتخبهم هو ، ويكون من حقه أن يعطى حق الحكم الذاتى بالتدريج وألا يكون له وكلاء في الخارج ، ولكنه يقبل وكلاء الدول الأجنبية ، وأن يكون للدولة الحامية الحق في أن تحتل أى نقطة من الديار المصرية على مصاريف من طرف الحكومة المصرية لاتزيد على مبلغ معين ، وأن يكون فيها سردار الجيش والمستشار المالى الذى يكون له حق الحضور في مجلس الوزراء ولا يعرض شيء من شأنه تنقيص مال الحكومة الا باذنه ومستشارون في كل وزارة يكون من حقهم الشورى لا التنفيذ ولا تقبل الحكومة للوظائف الفنية الا من الانجليز ولا تنفذ أى قانون لم تصدق عليه الجمعية التشريعية » (*) ٠

هكذا بعد أن ذاقت البلاد الأمرين من جراء الحرب التى جرتها اليها انجلترا ، وبعد ذلك الاذلال المضنى للمصريين باعلان الحماية عليهم ، وبعد فوات الفرص للحكام في المطالبة بشيء لصالح مصر ، بعد هذا كله زاد السلطان الأمر سوءا بذلك المشروع الذى ينزل مصر الى مرتبة العبودية، أن كل ما هم السلطان هو وراثة العرش الذى كان يقلقه جدا حتى من قبل أن يتولى العرش ، وفي مقابل ذلك اعترف باستمرار الحماية ولم يعارضها أبدا ، ورضى عن تصرفات انجلترا أثناء فترة الحرب بل أعطاها الحق بالاضافة الى حقوق الحماية في الاحتلال لأى بقعة من مصر ، كذلك أطلق يد المستشار المالى في ميزانية مصر ، وأطلق سيف السردار فيها حتى الوظائف وافق على أن يحتلها الانجليز ٠

ان السلطان لم يأت بجديد لمصر فقد وضع ذلك المشروع في اطار الحماية ولكنه زينه باطار رفيع ظاهر بحق السلطان في التدرج للحكم الذاتى وبجعل رأى الجمعية التشريعية تنفيذيا ٠

واختلفت الآراء بصدد ذلك المشروع اذ اعتبروه انه خطوة في سبيل الحكم الذاتى فانقسموا الى رأيين ، أصحاب الرأى الأول يقولون ان الاتفاق الآن أحوط

(*) سعد زغلول : السابق ، كراسة ٣١ ، ٢٥ يوليو ١٩١٧ ، ص ١٧٥٥ ٠

لأنه ربما ينتهى الأمر للحلفاء ولا يكون لمصر نصيب من أن تنـال أكثر مما تناله الآن . وانه لايليق بسلطان تعين من الانجليز أن يبدى مطالب ضدهم فى مؤتمر الصلح لأن ذلك خروجا عن حد اللياقة ، وأصحاب الرأى الثانى ، يقولون ان الاتفاق الآن يكون هربا من عرض مسألة مصر على مؤتمر الصلح (١) .

حاول عدلى يكن فتح مسألة مصر والتفكير فى اعطائها نوعـا من الاستقلال فيذكر سعد : « حضر عندى أول أمس عدلى باشا بعد أن مر قبله مرتين فى ليلتين متعاقبتين وفهمت منـه أن السنوسى أغار على الحدود المصرية ، وأن السـلطة العسكرية مشغولة بهذه المسألة ، وفكر فى انتهاز هذه الفرصة لفتح باب المخابرة مع رجال الانجليز بشأن اعطاء مصر نوعا من الاستقلال ، فقلت ان الفتح لايصح أن يكون على كل حال من الوزراء لأنه ربما يقال بأنهم يساومون الانجليز مساومة وينتهزون فرصـة ضيقهم ، فاستحسن ذلك ، ولكن المسـألة لا يصح أن تهمل والواجب البحث فيما يطلب » (٢) وقد حضر لطفى السيد هو الآخر مشروعا يقول سعد : « وقد رأيت لطفى حضر مشروع طلب من السلطان فى قضية مصر . وقد تناقشنا فى موضوع الطلب لعلى ألمس تعديلا فيه من بعض الوجوه ـ عن مشروع السلطان ـ وما استقر عليه الرأى هو : أن تكون الحكومة دستورية بأن يكون لها سلطان وراثى يدير الشئون بواسطة وزارة تنتخب أعضاءها ومجلس نواب تنتخب الأمة أعضاءه ، ويرجع اليه الأمـر فى التشريع ومسـئولية الوزارة ، وأن يبقى الموظفون الانجليز فى وظائفهم ، حتى لاتخلو منهم والتى خلت يعين فيها مصرى ، واذا احتاجت الحكومة الى موظف ملكى أو عسكرى أجنبى فلا تختاره الا من أكفأ الانجليز وتبقى وظيفة المستشار المالى على الاختصاص الذى تفسره المذكرة المقدمة من شريف باشا الخاصة بانشاء هذه الوظيفة مع ما اتفقت عليه الحكومة الانجليزية والحكومة المصرية من اعطائه اليه من اختصاصات صـندوق الدين عند الغائه ، وأن يكون رئيس أركان الحرب فى الجيش المصرى من الانجليز ، وأن يكون للحكومة الانجليزية الحق فى أن تحتـل القنال والمدن الثلاث التى عليـه وهى بورسعيد والسويس والاسماعيلية للدفاع عنها اذا خيف أو حصل الاعتداء عليها وأن تتكفل بالدفاع عن نفسها بجيشها الخاص ، وعند الضرورة تنجدها الحكومة الانجليزية بجيوش من عنـدها ، وأن يكون لمصر الحق فى أن تعقـد مع الدول الأجنبيـة المعاهدات التجارية دون سـواها ولا يكون لها ممثلون فى الخـارج الا وكلاء انجلترا (٣) .

وفى نفس الوقت ـ أغسطس ١٩١٧ ـ تقدم أمين يحيى بتقرير الى ونجت يصدق فيه على الحماية هو الآخر ويطلب للأمة مجلس نواب وقد عرض هذا المشروع

---

(١) نفس المصدر .

(٢) نفس المصدر ، كراسة ٢٦ ، ٢٩ نوفمبر ١٩١٥ ، صص ١٣٨٢ ، ١٣٨٣ .

(٣) نفس المصدر ، كراسة ٣١ ، ٩ ، ١١ ، ١٢ أغسطس ١٩١٧ ، صص ١٧٦٢ ، ١٧٦٣ .

على شعراوى ومحمـــد محمـــود وطلب منهما أمين يحيى الاشـــتراك معه فى ذلك وتأييد المشروع (١) ٠

وعندما أحس رشدى أنه حتى هذه المشاريع لم تنفذ وبدت قرائن الاحوال بأن الصلح يتم بين المحاربين على ارجاع الأحوال الى ما كانت عليـــه قبل الحرب ٠ وعليه تعود مصر الى تبعية الدولة العثمانية أو تستقل كما اســـتقل غيرها ٠ أراد رشدى وعدلى بأن يظهرا بأنهما متفقان مع انجلترا وراضيان بحمايتها عليهم وبأن رشدى يريد السفر الى لندن للتفاوض فيما يلزم وضـــع الحماية عليه من الأسس وهدد بأنه اذا رفضت انجلترا ذلك فســتكون النتيجة تقـديم اســـتقالته فى الحال (٢) ٠

وفى تقرير ونجت لحكومته فى ٢٤ ديسمبر ١٩١٧ يبين أن رشدى قدم الى سير برونيات مسودة مشروع سياسى لتحديد العلاقات بين مصر وانجلترا ولكن ونجت عارضه بحجة انشغال حكومة لندن فى ذلك الوقت بموضوع الامتيازات الأجنبية ، وفى الحال ظهر خوف رشدى وتنصل من اعتزامه تقديم هذا البرنامج السياسى الجديد متعللا بأن حديثه مع برونيات فى هذا الموضوع كان ذو صيغة شخصية خالصة (٣) ٠

من هذا نرى أن كل مشاريع التنظيمات خرجت عن تنظيم أى علاقة حـرة مع انجلترا ، ومن اعطاء أى شىء لصـــالح مصر ، انها لم تخـرج عن ما تريـده انجلترا ، فهى مشروعات فاشـلة لم يـكن لهـــا أى نتيجـة حتى أن انجلترا لم تسمع اليها ٠

الأمير فؤاد يتولى السلطنة :

كما بينت من قبل كان الشغل الشاغل للسلطان حسين هو عرش مصر ، فقد أعرب قبل وفاته بسنتين عن تخوفه من أن حكومة بريطانيـا تعيد العرش الى وارث الخديوى عباس حلمى ، لذا اهتـم السلطان بأن يوضع نظـام لوراثة العـرش فى أقـرب وقت ممكن ، وقد كانت رغبـــاته الخاصـــة أن يكون على الترتيب الآتى :

١ ــ أن يتولى العرش بعده اما ابنه الوحيد كمال الدين حسين أو أحمد فؤاد ٠

٢ ــ أن يتولاه الأمير يوسف كمال اذا لم يكن للأمير كمال الدين أو فؤاد ذكور ٠

---

(١) نفس المصدر ، ١٩ أغسطس ١٩١٧ ، ص ١٧٦٤ ٠

(٢) نفس المصدر ، كراسة ٢٩ ، ١٤ أكتوبر ١٩٦٦ ، ص ١٥٩١ ٠

(٣) F. O. wingate to Hording, no. 27, Decembre, 1917

وقد أريد بترشيح الأمير كمال فى الدرجة الثانيـة أن يـكون اسـتعدادا للمفاجآت اذا مات الأولان بدون أن يكون لهما أبناء ذكور (١) ٠

وكان حسين قد ارتاب فيما كتبه كرومر فى كتـابه « عباس الثـانى » من عدم جعل سلطنة مصر وراثية ، وفاتح مكماهون فى هذا الشأن ، فقال له انه رأى شخصى لا رأى حكومته » ولكن من يعلم أن حكومته كانت تسترشد فى أمر التغيير الذى تم بمصر باللورد المشار اليه وسكوت مكماهون عن تقرير النظام الوراثى الموعود به فى عهد الولاية الموجهة الى السلطان يبين أن هذا لم يكن رأيا شخصيا بل رأى الحكومة الانجليزية » (٢) ٠

وأصبح موضوع الوراثة محيرا لكل من السلطان ورشـدى بعـدما أحس السلطان أن ابنه يزهد العرش فى الوقت الذى توافد على العاصمة أمراء بيت محمد على كل منهم يطمع فى أن يستولى هو على عرش مصر وكان على رأسـهم الأمير أحمد فؤاد « وقد أثار ذلك سخط العارفين بأخلاق هذا الأمير وبعده عن الوطنية » (٣) ٠

وبذل السلطان حسين قبل وفاته كل المسـاعى لحمـل ابنه على قبول العرش ، فكتب خطابات الاسترحام الى ملك انجلترا والى ادوارد جراى ، ولكل من يهمهم الأمر فى لندن وتدخل رشدى فى الأمر توسل ونرجى ، وذلك لأنه كان يكره الأمير فؤاد ولا يريده وريثا لسلطنة مصر (٤) ٠

وأخيرا رأت انجلترا أن توافق على مبدا وراثة كمال الدين عرش أبيه ، ولكنها فى نفس الوقت وضعت الاستعدادات لحمل الأمير على الرفض ، فما كاد السلطان يعرف جواب لندن بموافقتها على تعيين ابنه حتى صرح الابن برفض ذلك العرش رغـم المؤثرات والالحاحات سـواء من السلطان أو من الوزراء وعلى رأسهم حسين رشدى وحينما ضغط عليه السلطان بضرورة قبول العرش ، أجابه بأنه سينتحر بالرصاص ٠ وأعقب ذلك بخطاب رسمى يتضمن تنـازله عن العرش (٥) ٠

وأميل الى الاعتقاد أن انجلترا بدورها كانت غير راضية عن تولى كمال الدين العرش ، وقد أبلغت السلطان حسين ذلك والسبب هو تلك الميول التركية التى كانت مسيطرة عليه ، فهو متزوج من ابنة الخديوى السابق عباس الأميرة نعمت الله ، وبينما كان ونجت يلح على وزارة الخارجية البريطانية فى وجوب

---

(١) عبد الرحمن فهمى : السابق ، الملف ١٦ ، ص ١٥٩٠ ٠
(٢) سعد زغلول : السابق ، كراسة ٢٥ ، ١٧ مارس ١٩١٥ ، ص ١٣٢٣ ٠
(٣) نفس المصدر ، كراسة ٣١ ، ٢٢ اكتوبر ١٩١٦ ، ص ١٧٢٦ ٠
(٤) نفس المصدر ، ٢٣ سبتمبر ١٩١٧ ، ص ١٧٧٣ ٠
(٥) Récueil des doc. 8 October, 1917.

اسناد العرش الى الوريث الشرعى ـ كمال الدين ـ وأبدى استعداده الشخصى لحمل الأمير كمال على العدول عن احجـامه من اعتـــلاء العرش ، كانت وزارة الخارجية البريطانية تفكر عكس ذلك تماما حيث كانت واثقـة أن كمال الدين لايميل الى انجلترا ، وأبدت رغبتها فى تفضيل الأمير فؤاد عليـه اذ رأت أنه سيكون أسهل منه (١) ٠

اذن كانت انجلترا تشك فى كمال الدين بل وتعارض فى توليته العرش لخوفها من عدم تعاونه معها فهو مائل للعزلة واســـتقلال الرأى ، وكانت فى الوقت نفسه نخشى أن يكون عرضـــة للتأثير من جانب العناصر المعادية لها ، لذا أصر ونجت عندما علم برأى حكومته ضرورة كتـــابة تنـــازل رسمى عن العرش (٢) ٠ ويقول سعد : « قال لى ـ الأمير كمال الدين ـ ان خطاب التنازل حرره برونيات ونقح فيه وأن المسودات التى سبقته محفوظة عنده اليوم لأن فيها خط ونجت وغيره » (٣) ٠

ولم يكن عدم تمسك الأمير بالسلطنة وطنية منه ، فكثيرا ما كان يردد أنه لا وطن له ولا يعرف الا أنه مسلم فقط ، هذا بالاضافة الى أنه كانت له زوجة فرنســية وابن منها ٠ وأحدث رفض الأمير عرش مصر دويا عظيمـا ، وانتشرت الاشاعات بأن الأنظار منجهة الى الأمير عبد المنعم الذى أرسل الى انجلترا يطالب بحقه فهو الابن الأكبر لعباس حلمى الثانى لكنها رفضت حيث سقط حقه فى الوراثة بخلع والده وبأنها لها الحق فى انتخاب السلطان٠ وكان عباس قد حاول الحصول منها على وعد باعادته للعرش أو حتى بتعيين ابنه ولكنه أخفق فى هذا (٤) ٠

وأخذ فى البحث من جانب انجلترا عن ايجاد خلف للسلطان حسين يكون مرضيا عنه ، ومحترما من المصريين . وراغبا فى التعاون مع السلطات الانجليزية ، وقادرا على الطاعة واذا لم يوجد مثل هذا الشخص ، فلا جدوى من بحث مسألة ضم مصر الى الامبراطورية ٠

وقد اقترح فى الدوائر الانجليزية أن تحول شئون مصر من اشراف وزارة الخارجية الى اشراف وزارة المستعمرات ، وبهذا تصبح مشكلتها ادارية وتخرج من نطاق وزارة الخارجية التى لا تختص الا بالشئون السياسية (٥) ٠

---

(١) wingate : op. cit., p. 221.

(٢) Lloyd : op. cit., p. 258.

(٣) سعد زغلول : السابق ، كراسة ٣٠ ، ١٢ أكتوبر ١٩١٧ ، ص ١٦٥٩ ٠

(٤) أحمد شفيق : مذكراتى ، جـ ٣ ، صص ٣٩ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ٠

(٥) Lloyd : op. cit., pp. 284, 262, 267.

كان الأمير فؤاد بالعاصمة منذ أيام مرض السلطان حسين ورفض ابنه للعرش فاستحسنه الانجليز وبدأت الحكومة فى تسوية ديونه ٠

ولم يكن حسين راضيا عن فؤاد كوريث للعرش فى الوقت الذى كان فيه الوزراء غير ميالين اليه أو راغبين فيه ، فقد كانت شخصية فؤاد ضعيفة ، ولم يكن محبوبا من أحد ولا يوثق فيه ، يذكر سعد : « فهمت من رشدى أن السلطان لا يود أن يزوره الأمير فؤاد ، وفهمت من عدلى أنه لا يود أن يشتغل مع رشدى اذا كان يسلك مع فؤاد مسلكه مع السلطان لأن للبرنس فؤاد ميولا لا تتفق مع مصلحة البلاد ، فلو لم يجد من المقربين عنه ما يقضى بتعديلها استمر فيها » (١) ٠

هذا بالاضافة الى أنه لم يكن أكبر أفراد الأسرة الخديوية ، ولكن لم يسيطر عليه الكره الشديد للانجليز ، لهـــذا فقد رأت الحكومة الانجليزية تعيينه لأنها اعتبرته أسلس قيادة من أى مرشـــح آخـر مع علمها بأنه كان ضئيل الشهرة ، واذا تولى عـرش السلطنة فلن يحصـــل بتأييد من الشعب أو يكون له نفوذ كبير عليه فهو قضى شـطرا طويلا من حيـاته فى الخارج ولا سيما فى ايطـــاليا ، كما لم يكن له أصدقاء فى البلاط لذا فهو سيضطر — كما اعتقدت انجلترا — أن يستند دائما عليها (٢) فاختارته ليكون مطواعا سهل الانقياد ، وعين سلطانا على مصر فى ٩ أكتوبر ١٩١٧ ، وقد برهنت بهذا العمل السياسى أن لديها كل الحق فى مصر وبذلك أظهرت أنها القوة الفعلية المسيطرة عليها ٠

ووضح فى بلاغ انجلترا لفؤاد التدخل البريطانى السافر ، فقد اعتبرت نفسها مصدرا لولاية العرش « ان حكومة صاحب الجلالة البريطانية تعرض على عظمتكم تبؤ هذا العرش السامى » (٣) ولم يكن هنـــاك أى اتساع فى اختصاصات الحاكم ٠ وعهد السلطان الجديد لرشدى بتشـــكيل الوزارة الجديدة بعد أن أوضح له التعاون مع انجلترا « وقد تولينا بالاتفـــاق مع الدولة الحامية عرش السُلطنة المصرية على أن يكون هذا العرش من بعـدنا لورثتنا طبقا للنظام الوراثى الذى سيوضع بالاتفاق بيننا وبينها » (٤) ٠

واستجاب رشدى للمرة الثانية وألف الوزارة الثانية فى عهـد الحماية وأصبح رئيسها ووزير الداخلية فيها ، وكان اسماعيل سرى وزيرا للاشغال

---

(١) سعد زغلول : السابق ، كراسة ٣١ ، ٢٣ ، ٢٨ سبتمبر ١٩١٧ ، ص‌ص١٧٧٣ ، ١٧٧٧٢

(٢) Lambelin. R. : L'Egypte et l'Engletere vers l'independence, p. 127.

(٣) Recueil des doc, 9 Octobre 1917.

(٤) Ibid, 10 Octobre 1917.

والحربية والبحرية ، وأحمد حلمي للزراعة ويوسف وهبه للمالية وعبد الخالق ثروت للحقانية وابراهيم فتحي للأوقاف (١) ٠

ومنذ أن عينت انجلترا فؤادا سلطانا على مصر أشعرته أنه جاء للعرش بأمرها وأنه يمكن تنحيته بكلمتها فهي التي وهبته المركز وهي المتحكمة في تصرفاته وخطواته ، ففي اليوم التالي لاعتلائه العرش أراد كعادة خلفاء محمد على تأدية صلاة الجمعة في مسجد محمد على الجد الأكبر بالقلعة ٠ وهنا تدخلت السلطة العسكرية ومنعته من الصلاة هناك ٠ فكان ذلك من أول الاحتكاكات بين فؤاد والانجليز فقد بينوا له أن هذه المنطقة منطقة حربية حتى السلطان يحرم من دخولها ، وكان هذا اذلالا كبيرا وتقييدا لحريته وتصرفاته الشخصية (٢) ٠ ورغم أن هذا الاذلال لم يكن ذا قيمة كبيرة لكنه ترك أثرا في نفسية فؤاد ٠

أعقب ذلك أن أراد فؤاد أن يعمل شيئا يتفق مع هواه ويشعره بكيانه وكان لا يميل الى وزيرين في وزارته فأراد التخلص منهما واحلال آخرين محلهما ، فأحمد حلمي كان لا يرتاح اليه وابراهيم فتحي كان يكرهه شخصيا وقدم فيه بلاغا للحكومة يتضمن الطعن في تصرفاته في الوزارة ٠ واقترح رشدى على السلطان ادخال سعد زغلول وعبد العزيز فهمي في الوزارة بأن يحل عبد العزيز فهمي محل فتحي وسعد محل أحمد حلمي رغبة منه في أن يضمن لمركزه — بعد أن تضع الحرب أوزارها — لونا من الاطمئنان بتحالفه مع الزعماء الذين كانوا يحظون اذ ذاك بتأييد كبير من الشعب (٣) ٠

وصادف اقتراح رشدى قبولا لدى فؤاد ، فأبلغ المندوب السامي ونجت الذى كتب لحكومته يقول : « انى أعرف سعدا جيدا ، وبالرغم من أنه يشتهر بروحه الوطنية ، فان له بلا ريب نفوذا كبيرا على الشعب كخطيب كما أنه متمتع بقوة في البلاد ، أما عبد العزيز فهمي فهو محام أيضا يشتهر بأمانته واستقامته التامة » وأضاف قائلا عن الوزيرين المطلوب ابعادهما « كانا قد عينهما كتشنر وأنهما موالين جدا للانجليز ولا يرغبان في البقاء في الوزارة لاستياء الشعب منهما ، وان ادخال سعد زغلول وفهمي سوف يقوى النزعة الوطنية بلا شك في الوزارة الجديدة ، ولكنى من جهة ذلك لست معارضا بالكلية ، فسعد الآن وكيل الجمعية التشريعية وقد حصل بفضل مواهبه الخطابية على مركز فائق جدا ٠ ولست متأكدا من أنه ليس من الحكمة أن نحصل على تأييده للحكومة بدلا من أن نجعله معارضا لها في حالة ابعاده عن الوزارة » (٤) ٠

---

(١) Ibid.

(٢) سعد زغلول : السابق ، كراسة ٣٠ ، ١٢ اكتوبر ١٩١٧ ، ص ١٦٥٨ ٠

(٣) Lloyd : op. cit., p. 273.

(٤) Wingate : op. cit., p. 224.

وفى الواقع ، لقد كانت لندن لا ترغب فى احداث أى تغير فى الوزارة فهى لا تميل الى تعيين رجلين مثل سعد وفهمى ، كما رأت ألا تنفذ أى طلب للسلطان خوفا من اثارة ما كانت تلك الحكومة تعتبره سياسة خطرة نخفف من الرقابة الانجليزية الشديدة ٠

وأخيرا فقد كان ابراهيم فتحى من مؤيدى الحماية وعميل من عملائها٠ ومذكرات سعد مليئة بشوقه لدخول الوزارة وفى كثرة محادثاته سواء مع رشدى أم السلطان ثم مع مكماهون و ونجت ٠

ولقد استطاع ونجت أن يلعب دورا مهما فى هـذه الأزمة وكان موقفه متناقضا ، فقد رأينا كيف أظهر رغبته فى تعيين الوزيرين ، ولكن لويد يصرح بأن ونجت هو الذى رفض اقتراح السلطان ويؤيده فى ذلك سعد اذ يقول « أن ونجت لا يرى وجها لتغيير وزارة الأوقاف لأن وزير هذه الوزارة عرضه للقيل والقال فلا ينبغى تصديق كل ما يقال فى حقه » (١) ٠

ويرجع سعد الى أن سبب عـــدم تعيينه فى الوزارة هو أن برونيـات ـ المستشار الشرعى لدار الحماية ـ رأى أن فى اشراك سعد شيئا سياسيا وقد كانت سياسة انجلترا فى ذلك الوقت هى اسكات أى صوت يمكن له أن يعارض أو يناقش أى أمر من الأمور فرضتها الحرب على مصر ٠

وأخيرا وضعت انجلترا حدا لكل هذه المساعى وجاء خطاب من لندن فى ١٣ ديسمبر ١٩١٧ بأن الحكومة الانجليزية لا ترى محلا للتغيير فى الوزارة ولا فى السياسة أثناء الحرب ، وأن فتحى حاز لثقة مكماهون وكتشنر ولم يثبت عليه شىء مما نسب اليه (٢) ، وكان من المتوقع أن ترفض شخصية سعد زغلول فهو معروف كما أقر ونجت أنه شريك مخالف وأن سياسته دائما هجومية على الوزارة ، وسحبت التغييرات المقترحة على الفور ٠

وهكذا عندما أراد السلطان ـ منذ بادىء الأمر ـ أن يستغل الموقف لمصلحته الشخصية ، بأن يكون المصدر الرئيسى لتعيين الوزراء ، اذ كانت تسيطر عليه فكرة بأنه انسان رفيع الشأن ، على المقام ، فالوزراء لم يوجدوا الا لتقديم النصح له وأنه يجب أن يتحكم فيهم ، ضربت بارادته عرض الحائط ٠

وقد أثرت فيه هذه الأزمة وآلمته كثيرا حيث قال فى حديث له مع سعد « ولقد تكلمت مع ونجت فى حقوقى بالنسبة لتغيير الوزراء وهو ما كان للخديوى فقال ان الحماية من شأنها ألا تبقى تلك الحقوق على حالها » ٠ (٣)

---

(١) Lloyd : op. cit., p. 273. ، سعد زغلول : السابق ، كراسة ٢٨ ، ٧ ، ١٢ ديسمبر سنة ١٩١٧ ، صص ١٥٠٥ ، ١٥٠٦ ٠

(٢) نفس المصدر ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ديسمبر ١٩١٧ ، صص ١٥٠٨ ، ١٥٠٩ ٠

(٣) نفس المصدر ، ٢١ ديسمبر ١٩١٧ ، ص ١٥١٨ ٠

وفي تقرير أرسله ونجت الى حكومته يعلل فيه الباعث على سلوك فؤاد هذا بحوفه من الخديوى السابق (١) وفي حقيقة الامر أن فؤاد أراد مناوأة الجلدرا من ناحية ومن أخرى فقد كان يشعر ان الامة غير راغبة فيه لذا أراد أن يعوضهم ويجعل من نفسه شخصا محبوبا بأن تكون وزارته مرضى عنهـا بتعيين هذين الرجلين ، هذا بالاضافة الى رغبته في الاستفادة منهم في ادارة أمور البلاد ، كما أن شعوره باحتقار رشدى له جعله أيضا يطلب ذلك ٠

وهذا أمر يعده بعض الانجليز خطأ سياسيا كبيرا من جانب الحـكومة الانجليزية اذ ضاعت بعدم ادخال سعد زغلول وعبد العزيز فهمي الوزارة ، ضم العناصر الوطنية الى الحكومة ، وان هذا الخطأ السياسى ليبدو جليا جدا في ضوء ما حدث بعد ذلك بعام (٢) ٠

ساءت العلاقات بين الانجليز وفؤاد ولم يحدث ما كانت تتوقعه ٠ فهى اختارت فؤاد حتى لا يخلق العقبات أمامها وفعلا حدث منذ أن تولى العرش أن سهل لها أمورا ولكن ليست كل الأمور التى جعل عجلتيا تدور ، انه فعلا جند المصريين لها ، أعطاها كل شيء لدرجة أنه وهبها ثلاثة ملايين جنيه لكنه في نفس الوقت راح يناوئها ويحاول أن يمارس أوتقراطيته عليها لكن بفشله في تنفيذ أى شيء أراده مضى يمارس الملك الأوتوقراطية على الوزراء محاولا السيطرة عليهم، فساءت العلاقات بينهم فكتب ونجت الى حكومته يقول : « انني أفهم لماذا يفضل بعض الوزراء كامل عن فؤاد ، ان كامل كان يمثل بالنسبة لهم قوة أكبر ، وهو راع لحقوق المصريين أكثر من فؤاد » (٣) وكثيرا ما صـرح اسماعيل سرى بأن فؤاد رجل استبدادى بالرغم من أنه كان يرغب في أن يجعل سرى رئيســا للوزارة بدلا من رشدى الذى كان يكرهه(٤)٠وقد نتج عن ذلك أن أصبح رشدى غير قادر على تيسير أمور الحكومة ، فأصبح لا يدرس أغلب المسائل التى تعرض عليه في مجلس الوزراء « واذا استفهم مسـتفهم من زملائه من أمر ما يكون خاصا بوزارة الداخلية التى يتولى أمورها ارتبك في الجواب ٠ » ويتابع سعد بصدد سوء هذه العلاقة « فهمت منه ـ السلطان ـ أنه غير راض عن رشدى ومن أسباب عدم الرضا التى ذكرها أنه كان يدافع عن ابراهيم فتحى الى آخر لحظة ، وأنه لم يرتب التغيير للترتيب اللازم الذى يؤدى الى النجاح ، فكان يلزم أن يسعى أولا في الاسقاط ـ اسقاط فتحى ـ ثم في انتخاب غيره ، ولم يفعل ذلك وبعد أن حصلت المعارضـة ـ معارضـة لندن ـ في التغير حضر مع ابراهيم فتحى وتركه تحت وصـعد هو وطلب تسـامح عظمته فرفض بتاتا

(١) F. O. Wingate to Harding, Oct. 19, 1918.
(٢) Wingate : op. cit., p. 225.
(٣) Ibid., p. 223 : Wingate toHarding, Octobre 12, 1917.
(٤) سعد زغلول : السابق كراسة ٢٨ ، ٢٨ فبراير ١٩١٨ ، ص ١٥٣٧ ٠

ـ السلطان ـ وقال ان رشدى باشا أراد بهذا أن يسلبنى كل مسئولية على قلت ان مقاصد مولانا السامية لا تستحق الا كل نعضيد قال متأثرا كأن هذه الكلمة مست موضع الألم أليس كذلك انى لا أستحق هـذا ، قلت كذلك يا مولاى ، ولكن قصـد رشدى لا يمكن أن يكون سـيئا ، وان كان الخطأ فى قوله ، وقد علمت منه أنه كان مستعدا استعدادا تاما لأن يضحى بمركزه خدمة لعظمتكم وتنفيذا لكلمتكم ، قال عظمته أعلم ذلك وقد قدم رشدى بالفعل استعفاء بغير تاريخ ، فقلت أرخه يوم ١٦ ديسمبر ، وما أردت بالطبيعة أن أسـتعمله ضده ولكنى أطلعت عليه ونجت ومن هذه الأسباب أيضا أنه نكلم مع برونيات وأفضى اليه بخطته السياسية • فما كان من هذا الأخير الا أن سطر ما جرى منه بالقلم وأرسله الى لوندره » • (١)

من هذا نرى مدى ما وصلت اليه العلاقة بين السلطان ورشدى وتصاعدت الى درجة ان رئيس الوزراء كان لا يزوره أبدا ليعرض عليه أى أمر يختص بالوزارة • « وقد كانت الأمور التى يقررها مجلس الوزراء تعرض عليه بعد أن يكون الاتفاق قد تم بين الحماية وبينهم ، ولقد بلغ من الأمر أن عرض عليه بيان الحـكومة فى مسألة احتكار القطن لنفسها باللغة الانجليزية التى لا يفهمها ، ورشدى باشا يسعى أغلب أوقاته الآن فى سراى السـلطان ويكثر الاجتماع بالأمير كمال ، ومقابلته فى نادى محمد على لجماعة من الانجليز الذين حضروا للبحث فى مسألة القطن ، وكان هذا الأمر مدعوا للعلم ، ولم يأخذ عظمته خبرا بهذا الا من غير رشدى ، وسعى فى أن يسرق من الأوقاف مقدار ألف وخمسمائة فدان من أطيان المرحوم السلطان حسين بمبلغ مائة وخمسين ألف جنيه » (٢) • أما الحكومة الانجليزية فقد سعت منذ البداية للتقليل من نفوذه حتى حينما أراد الحصول على قسط من الاصلاحات الخاصة بالامتيازات والتقدم الدستورى كان الرفض من سياستها ، وقد أحس أن موقفه سيكون صعبا اذا ما انتهت الحرب دون أن يحصل على أى امتياز مادى لمصر ، لكن الانجليز أبوا « لأنهم يريدون أن يفهموا عظمته من أول الأمر ألا يشارك فى سياسة الملك » (٣) حتى لا يتوهم السلطان أن له سلطانا وأن بيده وبامكانه الأمر والنهى •

وخسر فؤاد •• خسر انجلترا ولم يستطع أن يكسب منها شيئا • خسر الوزراء وعلى رأسهم حسين رشدى •• خسر الشعب فقد جاء بدون رغبته هذا فى الوقت الذى لم ينجح أبدا فى أن يجعل لنفسه شعبية بين المصريين •

---

(١) نفس المصدر ، كراسة ٢٨ ، ٢١ ديسمبر ١٩١٧ ، ص ص ١٥١٧ ، ١٥١٨ •
(٢) نفس المصدر ، ٢٠ مارس ١٩١٨ ، ص ١٥٥٣ •
(٣) نفس المصدر ، كراسة ٣٠ ، ١٧ نوفمبر ١٩١٧ ، ص ١٦٨٨ •

نهاية الحرب وتأليف الوفد المصري :

ظهرت ظروف دوليـة ساعدت على نهـاية الحرب ولعبت دورا مهما فى حياة مصر السياسـية ، وكان لها التأثير القوى فى نفوس المصريين ، فقد تغير الوضع الدولى فى هذه الفترة ، قام الروس بالثورة البلشـفية عام ١٩١٧ ، وكان لسقوط روسيا القيصرية أولى نتائج هذه الحرب وعلى أثر ذلك انفجرت مراجل الشعور القومى فى كل مكان ، وكانت له انعكاساته على مصر ٠

كان العامل الثانى هو دخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب بعد أن رأى ولسون أن الانجليز وحلفاءهم لن يستطيعوا الثبات أمام الألمان اذا لم تعاونهم أمريكا بل وتشترك معهم فى الحرب ، ولكنه لم يسـتطع أن يقنع الشـعب الأمريكى بأن انتصار ألمانيا يعرض سـلامة الولايات المتحدة للخطر الا حينما ضربت الغواصات الألمانية البواخر الأمريكية فى عرض الأطلنطى ٠ عند ذلك أعلن ولسون الحرب على المانيا ، وهنا بدت للانجليز فرصة أمل النصر وبخاصة بعد أن قاومت « فردان » الحصن الواقع بين ألمانيا وفرنسا مقاومة عنيفة بقيادة الجنرال بيتان ٠ ومن هنا تغيرت كفة الميزان وازدادت رجحا بالنسبة للحلفاء ٠

عند دخول ولسـون الحرب فى جانب الحلفـاء أعلن فى ٨ يناير ١٩١٨ مبادىء هامة اتخذتها الشعوب نصيرا لها ، أعلن تعميم «مبدأ مونرو» وتطبيقه فى أنحاء العالم ، وبين أن لكل شعب حق فى تقرير السياسة التى تتفق معه ، وبأن له الحق فى تقرير مصيره هو وحده ولا أحد غيره لا فرق بين شعب ضعيف وآخر قوى ، ونادى بانشـاء جمعية أمم لوضع الكفالات لضـمان الاسـتقلال السياسى وسلامة الأملاك لجميع البلدان صغيرها وكبيرها على السواء ، الى أن قرر أن الشعوب لا يجوز أن تنتقل من سيادة الى أخرى بمؤتمر دولى أو باتفاق بين متنافسين وأعداء ، وأن الأمانى القومية يجب أن تحترم ، وأنه لا يجوز أن تساد الشعوب أو تحكم الا بمحض ارادتها ورغبتها ، وأخيرا أضاف بأن ممتلكات الدولة العثمانية يجب أن تكون سيادتها مضمونة ٠ (١)

واعتبر الناس أن تلك المبادىء انجيلا بين المتحاربين وعهـدا صريحا بين المتحالفين ومنهم انجلترا التى صرح رئيس وزرائها مستر لويد علنا باقتناعه بهذه المبادىء وبأن بلاده تلتزمها بعد الحرب ، كذلك وافقت فرنسا عليها ٠

جاءت تصريحات ولسن أملا لكل أمة ضعيفة ، اعتبرتها دستورا وميثاقا وازدادت فرحتها عندما صدر التصريح الانجليزى الفرنسى فى ٧ نوفمبر ١٩١٨ والذى انصب على أنصاف الشعوب العربية التى كانت تخضع للحكم العثمانى(٢)٠

(١) عبد الرحمن فهمى : السابق ، الملف الأول ، صص ٦ ـ ٩ ٠

(٢) Wingate : op. cit., p. 228.

بالاضافة الى ذلك ، فقد ظهرت مملكة العرب كدولة مستقلة عقب قيامها بالثورة على العثمانيين فتلك البلاد المتأخرة حضاريا نالت هذا الاستقلال بفضل معاونة انجلترا لها ، فمن مصر خرجت الثورة العربية ومراسلات الحسين مكماهون تكشف عن التعضيد الانجليزى للعرب والايعاز بالثورة ضد الأتراك بل وبمساعدتهم فى الهجوم على الجناح التركى ٠

وفى ١٨ يوليو ١٩١٨ شرع الحلفاء فى شن هجماتهم على الجيش الألمانى ، الذى دب فيه اليأس واستسلم للقنوط ، وبدا كل شىء مبشرا للحلفاء بالظفر ، وفى نوفمبر قامت الثورة فى ألمانيا واضطرت الحكومة الألمانية الى طلب الصلح ، كما طلبته تركيا ، واستسلمت النمسا وبلغاريا وبقية دول وسط أوربا ٠

كان لانهيار الدولة العثمانية صاحبة السيادة على مصر وانهزامها سببا فى ايقاظ الوعى القومى فى الشعوب العربية وخاصة فى مصر اذ أصبحت غير مدينة بالنبعية لها ٠ وكان لنحرر شعوب وسط أوربا من الحكم العنصرى والألمانى والنمسوى ، ونيل كل من العرب والبلغار واليوغسلاف والسلوفاك استقلالهم ، واشتداد الحركة الثورية فى ايطاليا وألمانيا لدرجة أن الجماهير الشعبية هناك أوشكت على قبض السلطة ٠٠ هذا كله جعل المصريين يتوقعون هم أيضا بتغيير الحكم فى بلادهم ، هذه الأحداث بالاضافة الى الأوضاع الاجتماعية داخل مصر دفعتها للالتحام مع انجلترا ٠ فان الاحتلال والحركة الوطنية نجاهه ووضع مصر أثناء الحرب تفاعل كل ذلك وتبلور فى صحوة جديدة ٠

وقفت مصر منذ أوائل القرن العشرين تشهد تلك الحركات الاستقلالية متمنية أن ينالها هى الأخرى هذا الاستقلال ، رأت ايران قد نجحت فى الوقوف أمام الاستعمار وقاومت بثورتها ١٩٠٥ ، وتركيا حيث تمكنت تركيا الفتاة من الاطاحة بالسلطان عبد الحميد واقامة حكم نيابى ، وحتى أفغانستان أعلنت ثورتها ضد انجلترا ونجحت فى ذلك ، وتلك الانتفاضة الثورية فى الهند ، وثورة أيرلندا النى أثبتت أنه من الممكن لامبراطورية بريطانيا العظمى أن تنسلخ منها مستعمراتها ٠

أحست مصر بأن الوقت قد جاء ، فان انجلترا أفهمتها أن اعلان الحماية عليها جاء نظرا لظروف الحرب ، وأدخلتها بالتالى فى حرب لاناقة فيها ولا جمل ٠٠ قدمت فيها مصر جميع مواردها ٠٠ جعلتها رهن اشارتها ٠٠ فحاربت وضحت برجالها حتى أن اللنبى قائد الحملة المصرية اعترف بأن الجانب الأعظم من الفضل فى نجاح حملة فلسطين وسوريا انما يرجع الى مصر ٠٠ وحارب المصريون فى فرنسا وفى الدردنيل وفى السودان وفى الجزيرة العربية ٠٠ انهم اعتقدوا أنه سيطبق عليهم المبدأ القاضى بألا تحكم الشعوب على غير رضاها ٠

وبدأ الشعب بجميع طبقاته ينتظر خيرا من انجلترا بعد تلك التضحيات

الكبرى ، هنا وفى تلك الفترة بدأت الحركة الوطنية تظهر بوضوح بعد أن كتمت أنفاسها حوادث الحرب ، وبعد أن تأكدت أن النصر أصبح لانجلترا وحلفائها ولم تعد هناك دولة عثمانية صاحبة سيادة شرعية على مصر . كان شعور المصريين منذ نشوب الحرب متجها للدولة العثمانية صاحبة الخلافة والحق الشرعى فى مصر وكانت أغلبية الأمة المصرية تتمنى فوز الأتراك والألمان . ولكن باندحارهم رأوا أن تركيا وألمانيا لن يقدرا على تخليصهم من الانجليز ، اذن لابد من الوقوف أمام انجلترا وجها لوجه وخصوصا بعد أن نشر فى الصحف موافقة بعض الدول من حليفات انجلترا بالحماية على مصر واقرار النظام السياسى الكائن فيها .

وقد فكرت الطبقة الحاكمة أيضا فى وضع مصر وعلاقتها مع انجلترا وأنه بانتهاء الحرب يجب أن تنظم الحماية فى اطار يمنح بعض السلطة لمصر ، وكان فى نية السلطان حسين أن يسافر بعد انتهاء الحرب مباشرة الى لندن لتنظيم الحماية(١) غير أنه كان لا يطمع فى أكثر من توسيع درجة الاستقلال الداخلى فى ظل الحماية البريطانية ، وعندما بدا فى الأفق أن النصر لبريطانيا يبدو قريبا فكر أن يكتب خطابا يوجهه الى بريطانيا رأسا ويسألها فيه حمل المسألة المصرية بما يرضى الأمة فعهد الى رشدى بهذه المهمة وتنفيذ المشروع ولكن مرض السلطان ووفاته حال دون ذلك (٢) . وتدرج الأمر الى أن قام رشدى وعدلى فى الأيام الأخيرة من الحرب بوضع مشروعات لم تخرج عن الحكم الذاتى وتوسيع اختصاصات الجمعية التشريعية ، وكانا يرغبان فى السفر الى لندن لنفس الغرض ألا وهو تنظيم الحماية (٣) . وفى أواخر أغسطس ١٩١٨ اتفق السلطان فؤاد مع رشدى على أن نهاية الحرب ستكون فرصة لتحديد شكل الحماية باعطاء جزء كبير من الاستقلال الذاتى (٤) . ومن هذا يتضح أن الوقت قد حان لاعطاء مصر ، وقد اختلفت وجهات النظر فى الشىء الذى يعطى لها بين المصريين وبين السلطان ووزرائه .

مضى الذين كانوا ينتظرون نصرا ألمانيا عثمانيا ويرحبون به فيما مضى ، وجدوا الآن ان الفرصة قد حانت لتغيير موقفهم ، فقاموا يرددون بأن مصر بمساعدتها للحلفاء ماديا وأدبيا لها الحق فى أن يعم هذا النصر عليها ، وأن ينالها الاستقلال ، أما المعتدلون رأوا أن الوقت قد حان للمطالبة بحكم ذاتى طبقا لما صرح به الساسة البريطانيون مرارا من أن تدخل انجلترا فى مصر تدخل وقتى .

---

(١) سعد زغلول : السابق ، كراسة ٥٣ ،غير مرقمة ، ص ٥ .
(٢) أحمد شفيق : حوليات مصر ، ج ١ ، ص‌ص ١٤٤ ، ١٤٥ .
(٣) ‌زغلول : السابق .
(٤) Roux, Ch : L'Egypte et l'occupation Anglaise à L'Independance Egyptien, p. 256.

كان ونجت على درايه تامة بالشعور العام وقتذاك فأرسل الى بلفور وزير الخارجية يبلغه بأن التصريح الانجليزى الفرنسى له رد فعل فى مصر بين طبقات الأمة بأن تعامل مصر بنفس المعاملة ، وأبان بأن هناك شائعات لا يمكن تجاهلها تقضى بأن المصريين يريدون مندوبا أمريكيا ليبلغ أمانيهم الى ولسن ثم أضاف اليه قائلا « فاذا كان فى امكانك أن تزودنى ببعض التوجيهات بالنسبة لوجهات نظر حكومة جلالته فى حالة بحث الصحف لموضوع مستقبل مصر فسيكون لذلك مساعدة كبيرة لى » (١) ٠

واهتمت وزارة الخارجية بالأمر واقترح رئيس القسم المصرى فى الخارجية البريطانية صيغة للرد على ونجت بين فيهـا بأن مصر وضـعت تحت الحماية البريطانية نتيجة لعمل تركيا وانهـا بذلك أصـبحت جزءا من الامبراطوريـة البريطانية ، وبذلك ليس للرئيس ولسون أن يتدخل فى شئونها (٢) ٠

وعلى الفور أرسل جراهام لونجت يقول : « نحن لا علم لنا بوجود المطالب الوطنية التى أشرت اليها ولا بالطريقة التى ستقدم بها ولابد قبل ادخال أى تعديل على النظام القائم فى مصر من بحث عميق وأخذ رأى المسـئولين الانجليز والمصريين ، وأود أن أؤكد لك اننا سوف لا نتخذ قرارا فى هذا الشأن الا بعد التشاور معك » (٣) ٠

ويذكر محمد بهى الدين بركات : « وبينما نحن فى هذه الحال اذا بنا نسمع مفاوضات الهدنة بين الألمان والولايات المتحدة وفيها يؤكد د٠ ولسون أنه متمسك بخطته التى قالها فى ٨ يناير وما بعدها كأساس لصلح عادل ، فطربنا لهذه النغمة وقال كل فى نفسه هل لمصر حظ فى الصلح القادم بصفة كونها من الشعوب الصغيرة التى نادى باسـتقلالها رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ؟ وهلا تسرى على المصريين القواعد التى فاه بهـا من حيث وجوب اشراك الأمم الحاكمة أو المستعمرة ؟ » (٤) ٠

من هذا يتبين أن مبادىء ولسون وموافقة انجلترا عليها قد لعبت دورا مهما وأيقظت الأمانى الوطنية وأثرها كان واضحا عليها ، لقد تطلعوا لطريق واحد هو تحقيق مطالبهم بالاستقلال والحكم الذاتى ٠

وفى أثناء ذلك انتشر خبر مذكرة برونيات فخلقت عاصفة من الاحتجاجات والغضب لدى المصريين ٠ وتتابعت تقارير ونجت على أثر ذلك لوزارة الخارجية

---

(١) F. O. Wingate to Balfour, Nov. 9, 1918.

(٢) F. O. The Chef of the Egyptian Section to Wingate, Nov. 9, 1918.

(٣) F. O. Graham to Wingate, Nov. 13, 1918.

(٤) محمد بهى الدين بركات : السابق ، ص ٤٨ ، أول ديسمبر ١٩١٨ ٠

محذرا من تحفز المصريين للمطالبة بحقوقهم وبضرورة تحديد معنى الحماية وبين رغبة المصريين – من السلطان الى الفلاح – فى تحقيق استقلال مصر الذاتى (١) ٠

تبع ذلك ظهور فكرة ارسال وفد رسمى لمؤتمر الصلح للمطالبة بحقوق مصر ، واعتبار مسألة مصر مسألة دولية وليس لأى دولة أن تنفرد بالنظر فيها ، وأن هذه المسألة الهامة تحتاج الى درس وتمحيص مثل اجتماع المؤتمر حتى لا يأتى يوم انعقاده الا ومصر مستعدة للمطالبة بحقوقها كاملة (٢) ٠

وقد تعددت الروايات واختلفت الآراء فى صاحب الفكرة فى تأليف الوفد المصرى ، فالرواية الأولى تقضى بأن عمر طوسون هو المحرك الأول لفكرة انشاء وفد وارساله للمطالبة بحقوق مصر ويرجع السبب فى أنه فكر فى ذلك للضغط الذى مارسته السلطة العسكرية عليه ، يذكر سعد فى مذكراته « وهو – أى عمر طوسون – يشكو من السلطة ومصادرة أطيانه فى أبى قير » (٣) ٠ هذا بالاضافة الى ميوله العثمانية ، اذ كانت معروفة ، فموقفه من تركيا في حربها ضد ايطاليا فى طرابلس وقيامه وقتذاك بالدور الكامل لمساعدتها ، فهذا مما دفعه الى الوقوف ضد انجلترا ٠

وقد تكلم عمر طوسون مع محمد سعيد فى شأن صلة مصر بانجلترا على ضوء تصريحات ولسون والتصريح الانجليزى الفرنسى فاقترح عليه محمد سعيد أن يتكلم مع سعد زغلول لشخصيته البارزة فى الهيئة الاجتماعية وفى الجمعية التشريعية (٤) ٠

أما الرواية الثانية فتبين ان أعضاء فى الجمعية التشريعية هم الذين خلقوا فكرة ارسال وفد لمؤتمر الصلح اذ تقول أنه « فى يوم من أيام شهر سبتمبر ١٩١٨ بينما كان لطفى السيد وسعد زغلول وعبد العزيز فهمى خارجين من مجلس ادارة الجامعة المصرية ، وأثناء سيرهم اعترض محمد محمود السبيل واضعا العصاة أمامهم فى عرض الرصيف وقال : « الى أين تذهبون ؟ اننى أريد أن أتحدث فى مصير مصر ٠ لقد انتهت الحرب وستحصل الهدنة ولابد من النظر فى تأليف وفد كى يسافر للمطالبة بحقوق مصر ٠ وذهبوا الى منزل والد محمد محمود واستدعوا على شعراوى وتناقشوا فى ضرورة السعى للحصول على حقوق البلاد فأبى سعد زغلول موافقته على ذلك قائلا : ان الوقت غير مناسب لأن الانجليز منتصرون وعددهم ومعداتهم كثيرة تملأ البلاد ٠ وهذا وضع لا أمل معه

---

(١) Wingate : op. cit., p. 220.

(٢) عمر طوسون : مذكرة بما صدر عنا منذ فجر الحركة الوطنية ص‌ص ٤ ، ٥ ٠

(٣) سعد زغلول ٠ السابق ، كراسة ٣٢ ، ٢٥ أكتوبر ١٩١٨ ، ص ١٨٤٣ ٠

(٤) عمر طوسون : المرجع السابق ، ص ٥ ٠

فى الحصول على شىء منهم • ثم استطرد سعد قائلا : أرى الأولى أن تؤلف جمعية يساعد أعضاؤها بعضهم بعضا » (١) •

وأبدى عبد العزيز فهمى المخاوف من ذلك لأن جمعية من هذا القبيل تكون بطبيعتها سرية وذلك مخالف للقانون ويدخل تحت العقاب فأجابه سعد « اذن تكون جمعيـــة أصدقاء » (٢) وقد قال عبـد العزيز فهمى فى خطبـــة له فى ١٣ فبراير ١٩٢٥ بعد أن أصبح رئيس حزب الأحرار الدستوريين « ٠٠ وعندما شرعنا فى تأليف الوفد بالحاج المرحوم على شعراوى وسعادة محمد محمود باشا واجتمعنا أول مرة فى منزل سعادة محمد محمود نفر سعد من الفكرة بدعوة قوة الأحكام العرفية ، وأردنا أن نؤسس جمعية يكون الغرض منها الســـعى فى مصالحنا الشخصية ــ أو بالعربى الفصيح كما أفهمنا ــ ليعينه على تحقيق ما يتطلع اليه من كرسى الوزارة فنفرنا منه وأسفنا جميعا على أنه كان معنا » (٣)•

وفى حقيقة الأمر فان مذكرات سعد زغلول تعكس رغبته لدخول الوزارة وبالسعى لدى الجهات لتحقيق ذلك ، ولا يستبعد اطلاقا ما بينه وبين عبد العزيز فهمى ولكن يجب أن يؤخذ موقفه بشىء من الحرص •

ولما وجد ســـعد أن الأمة مستعدة للنضال ، واســتاء من حالة مصر السياسية غير سياسته ورأى أن يتصدر هذه الحركة اذ يقول فى مذكراته : « لقد فاتحت بعضهم فى لزوم التفكير فى مصيرها ــ مصر ــ بعد الحرب » (٤) • من هذا نرى أنه نسب لنفسه أولوية التفكير ، وعلى أثر ذلك دعا أصحابه محمد محمود وأحمد لطفى السيد وعبد العزيز فهمى الى عزبته بمســـجد وصيف للتحدث فيما ينبغى عمله عندما تسنح الفرصة للبحث فى المسألة المصرية بعد اعلان الهدنة فأجاب الدعوة محمد محمود وأحمد لطفى السيد واعتذر عبد العزيز فهمى لمرضه (٥) ، وقد فكروا مليا فى الكيفية التى يطالبون بها الانجليز لحق مصر ، وفى أثناء رجوعهم قابلوا ابراهيم الهلباوى وفاتحوه فى الموضوع وكلفوه بنشر الفكرة بين المحامين ويذكر الهلباوى « انه فى خريف ١٩١٨ فكر الأستاذ أحمد لطفى السيد وبعض أصدقائه فى تأليف وفد تكون مهمته أداء هذا الواجب ــ عرض قضية مصر على مؤتمر الصلح ــ وفى ذات يوم وأنا عائد من قريتى بالبحيرة صادفت الأستاذ لطفى السيد مع المرحوم سعد زغلول باشا آتيين من مسجد وصيف وعلمت منهما أنهما كانا يتداولان أثناء السفر فى هـــذا الأمر

---

(١) عبد العزيز فهمى : قصة حياتى ، ص ص ٧٢ ، ٧٣ •

(٢) فتح الله بركات : مذكرات ، الكراسة الاولى ، ص ٦١ ، من ٢٢ ديسمبر ٢١ الى ١٥ يناير سنة ١٩٢٢ •

(٣) خطبة القاها بدار حزب الاحرار الدستوريين فى ١٣ ، ٢٧ فبراير ١٩٢٥ •

(٤) سعد زغلول ، السابق ، كراسة ٢٨ ، ٢٠ مارس ١٩١٨ ، ص ١٥٥٣ •

(٥) عباس محمود العقاد : المرجع السابق ، ص ١٩٢ •

وعرضا على أن أكون معهما ، فحبذت الفكرة وقلت أنا معكما قلبا وقالبا بشرط ألا أبرح مصر لأن مركزى فى مكتبى وأشغالى فى مزارعى لا تسمح لى بالسفر معكم الى الخارج . ومن فكرتى هذه خلقت فكرة جديدة وهى أن يكون الوفد ذا شقين : شق يسافر وآخر يبقى باسم لجنة الوفد المركزية » (١) .

أما الرواية الثالثة فهى ترجع فكرة تأليف الوفد الى رشدى ، فقد كان يعلم مدى تهاونه فى حقوق الشعب المصرى وفى كل الاجراءات التعاونية التى نفذها لصالح الانجليز ، فبوصفه مسئولا عن استرداد الوديعة التى فى حوزة انجلترا فاتح عدلى واتفقا على مخاطبة من يثق بهم من رجال الأمة على مطالبة الانجليز بحقوق البلاد وكان يستدعيهم اليه بواسطة سكرتيره فردا فردا وباسم غير اسمه حتى لا يلفت نظر السلطة الى اجتماعاته بهم وكان أول من خوطب سعد زغلول وعبد العزيز فهمى ولطفى السيد (٢) . وقد وضع رشدى وعدلى مشروعا لتنظيم الحماية وفكر رشدى فى السـفر وتخابر مع قنصلى أمريكا وايطاليا بشأن سفر البعض للخارج (٣) .

وفى مقابلة بين سعد زغلول ورشدى فى نادى محمد على فتح الموضـوع وبين سـعد سعى زملائه معه فى قضـية مصر فرد عليه رشدى : « اننا نحن والسلطان فؤاد متفقون على السفر لأوربا للمطالبة بحقوق مصر ، وبين له أن من المصلحة أن يكون الى جانبنا فريق من الأمة يدافع عن حقوقها نعتمد عليه لأخذ شىء من الانجليز (٤) .

هكذا اختلفت الآراء والروايات فى صاحب الفكرة الأساسية لمشروع الوفد ومن المرجح أن الأمير عمر طوسون هو صاحب الفكرة فى تأليف الوفد ، وأنه لما أحس سعد بذلك خشى أن يفلت الأمر من يده وألا يكون له فى الأمر شىء فأسرع يعقد الاجتماعات فى داره ووضع لهذا الأمر اعتباره ليتزعم هو الحركة (٥) .

وعقب ذلك تم اللقاء الأول بين طوسون وسعد زغلول لما له من مكانة بين الهيئة الحاكمة من ناحية وبين الشعب من أخرى ، ويذكر سعد تفاصيل تلك المقابلة يقول : « فى المساء حضرت وليمة رشدى باشا وجلست بجانب مستر شيتهام وفندت له نظام مجالس المديريات ونظام سائر الهيئات النيابية المصرية ، ثم قابلنى البرنس عمر وقال لى انى أفكر فى أن يقوم من المصريين طائفة للمطالبة بحقوقها فى مؤتمر الصلح ، فقلت فكرة جميلة جالت فى بعض الرؤوس من

---

(١) ابراهيم الهلباوى : المرجع السابق ، الملف الثالث ، ص ١٣٠ .
(٢) احمد شفيق : المرجع السابق ، ص ص ١٤٦ ، ١٤٧ .
(٣) فتح الله بركات : السابق ، ص‌ص ٦١ ، ٦٢ .
(٤) عبد العزيز فهمى : المرجع السابق ، ص ٧٤ .
(٥) Landau, J : Parliaments and parties in Egypt, p. 151.

قبل وقد آن الآن أوانها ، فقال تأمل فيها وانظر من يساعد عليها ، ثم انصرف كل منا عن صاحبه ، وزرت محمد سعيد فى اليوم التالى فحادثنى فى هــذه المسألة ، ثم توجهت معه عند محمود صدقى فتلاقيت مع عدلى وتكلم معى فى تلك المسـألة ورأينا الأوفق توسـيط قنصل أمريكا ، فاجتمع به رشــدى ولطفى السيد واتفقوا على ذلك ، وفاتح هذا القنصل فلم يجد عنده اســتعدادا لتأييد المسعى وقال ليس هنالك الا واحد من طريقين اما أن تطلب تركيا استقلال مصر بأن تقول انها تركت اليها حقوقها واما الالتجاء الى الحكومة الانجليزية » (١)٠

اتفق لطفى السيد وعبد العزيز فهمى ومحمد محمود وسعد زغلول على الاجتماع لمناقشة تلك المسألة ووضع حل لها وفى ضرورة عمل شىء خصوصا بعد أن رفض قنصل أمريكا التابع لصاحب المبادىء الأربعة عشر التوسط أو المساعدة لأمة تريد تقرير مصيرها ٠

بدأت أخبار الصلح تنشر فى الصحف وبدأ ســعد يرتاب من اجتماعاته هذه للمطالبة بحقوق مصر اذ يقول : « وفى اليوم التالى ـ ١٠ أكتوبر ١٩١٨ ـ ذهبت مع محمد محمود الى عزبة مسجد وصيف وتغيب لطفى بك السيد وتخلف عبد العزيز بك فهمى وأقمت يومين وليلتين ثم عدنا وقرأت فى الجرائد أخبار الصلح ولم نهتد الى طريقة والأولى بنــا الســكوت وصرف النظر عن هــذه المسألة » (٢) ٠

من هذا يتضح أن سعدا لم يكن محركا للمسألة بل انه فى كثير من الأحيان كان يصمم على ترك هذا الموضوع ويتحجج فى ذلك بقوله « انه لا يمكننا فعل شىء ما دامت الأحكام العرفية جارية التى ساد الخوف منها قلوبنا » (٣) ٠

وفى أواخر أكتوبر ١٩١٨ قدم رشــدى وعدلى لونجت مشروعا لتنظيم الحماية،وهو مشروع يعارضان فيه مشروع برونيات(٤)٠وردت انجلترا على ذلك بمشروع آخر اذ يذكر سعد : « ان الحماية قدمت مشروعا يقضى باعطاء مصر استقلالا داخليا تاما فى مقابل رضائها بالحماية وانه من المصلحة جدا كما أشار عبد العزيز بك بأن تعم هذه القضية ويعتقدها الناس » (٥) ٠

كان ونجت قد أثارت ريبته كل هذه التحركات فهو على علم بكل ما يدور فيها وبتحفز كل المصريين ضد انجلترا فأسرع بمحاولة احتواء وأقام حفلة فى الاسكندرية فى ٢٢ أكتوبر ١٩١٨ دعا اليها الأمراء وكان من بين المدعوين

---

(١) سعد زغلول . السابق ، كراسة ٣٢ ، ١٢ أكتوبر ١٩١٨ ، ص ١٨٤٠ ٠

(٢) نفس المصدر ، ص ١٨٤١ ٠

(٣) نفس المصدر ، كراسة ٢٨ ، ٢٠ مارس ١٩١٨ ، ص ١٥٥٣ ٠

(٤) فتح الله بركات : السابق ، ص ٦١ ٠

(٥) سعد زغلول : السابق ، كراسة ٣٢ ، ٢٥ أكتوبر ١٩١٨ ، ص ١٨٤٢ ٠

حسين رشدى وعدلى يكن ومدحت يكن ومحمد سعيد والأمير عمر طوسون وسعد زغلول . وبالرغم من أن ونجت قد بث عيونه وأرهف سمعه لكل ما كان متوقعا أن يتبادله هؤلاء من أحاديث سياسية فقد انتهزوا فرصة هذا اللقاء وتحدثوا فى الوضع الراهن،وفى ضرورة عرض قضية مصر على مؤتمر الصلح(١).

وفى لقاء آخر بين سعد والأمير طوسون أحس سعد أنه يمكن الاستفادة من أموال الأمير ويذكر فتح الله بركات بأن سعد قد منى نفسه بمساعدة البرنس له بالأموال ، فأخبر اخوانه بأنه يوجد من يساعدهم بالمال ولم يذكر اسمه(٢). وبين سعد للأمير أن المشروع يحتاج الى مائة ألف جنيه وبأنه يشك فى أن المصريين يدفعون مبلغا جسيما مثل هذا وأنه ممكن لعلى شعراوى أن يدفع عشرة آلاف جنيه ولكنه يشك فى ذلك أيضا (٣) .

من هذا يتضح أن سعدا عندما رأى أن هذا الموضوع أصبح جديا ، والجميع يخوض غماره أراد أن يظهر على مسرح الأحداث ويكون هو بطل الرواية حتى أموال المشروع أراد أن يوجه ذكاءه للاستفادة من الأمير بالحصول عليها منه دون ذكر اسمه وذلك لقدرة سعد للسيطرة على الموقف ، لكن الأمير لم ينسق لذلك ورأى الاكتفاء بكتابة عريضة بعد انعقاد مؤتمر الصلح بها مطالب مصر ، يوقع عليها الأعيان وترسل الى القناصل وتشرح فيها المسألة المصرية (٤) .

عارض سعد وأفهم طوسون أن مثل هذه العريضة لا تأتى بالفائدة المقصودة لاحتمال معارضتها بعريضة أخرى يمكن الحصول على توقيعات عليها يزيد عددها بكثير عن عدد التوقيعات الأولى ، وأن المفيد هو سفر البعض للخارج للمطالبة بحقوق مصر من الدول أمام مؤتمر الصلح ، وعرض له بأن ذلك يحتاج الى المال وان كان المال لا يمكن تدبيره الا بطريق جمعه من الناس فهذا احتمال يستدعى اذاعة الخبر وحينئذ يأخذ المثلون الطريق على المصريين فيسدون باب السعى فى وجوههم ، وبعد أن شرح ذلك طويلا وأفاض فيه كان جواب الأمير استحسان تقديم العريضة ، ففهم سعد من ذلك أنه لا يريد دفع المال ، وتم الاتفاق بعد ذلك على عقد اجتماع مع محمد محمود ، لطفى السيد ، عبد العزيز فهمى ، وغيرهم ، للبحث فى المشروع واذا منع هذا الاجتماع يرسلون منشورا الى ممثلى الدول يخبرونهم فيه بالمنع وبمطالب مصر (٥) .

---

(١) عمر طوسون : المرجع السابق ، ص ٦ .
(٢) فتح الله بركات : السابق ، ص ٦١ .
(٣) عمر طوسون : المرجع السابق .
(٤) فتح الله بركات : السابق ، ص ٦٢ .
(٥) عمر طوسون : المرجع السابق ، ص ٧٢ .

وقد اهتم لطفى السيد ومحمد محمود بضرورة ايجاد حل للمسألة ورأوا أن أول طلب يطلبونه هو « الغاء الأحكام العرفية وأنه عند الكلام فيه يحصل الكلام فى غيره بطريقة عرضية جسا للنبض ، وقد علموا من رشدى أنه يمكن السفر الى الخارج » (١) ٠

وفى ٩ نوفمبر ذهب علوبة عضو الجمعية التشريعية الى منزل سعد والتقى به « قلت له ان الحرب قد انتهت بظفر انجلترا وحلفائها ، وأن الهدنة ستعلن عما قليل ، وقد أعلن ولسون مبادئه كما أعلن لويد جورج تأييد هذه المبادىء ، وأن علينا كأعضاء الجمعية التشريعية وكنواب عن الأمة نحو هذه الأمة ، وأنت الوكيل المنتخب عن الجمعية التشريعية أصبح واجبك أكبر من واجبنا ، فما الذى نعمله ؟ فسألنى سعد وما الذى يقضى أن نعمله ؟ فأجبته بأن الفكرة فيما يجب أن يعمل ـ أى وسيلة ـ لم تتبلور فى ذهنى ولكن المحقق هـو أن من الواجب علينا عمل شىء لمصلحة بلادنا بتكوين جمعية مثلا تسعى فى تحقيق ما تصبو اليه البلاد اعتمادا على مبادىء ولسن ولا زلت أكرر لك يا باشا أنك المسئول الأول أمام الشعب ، فأجابنى أن بعض أصدقائنا قد فكروا فى هـذا الأمر وأنه يتداول معهم فيما ينبغى أن يعمل ، وعند اتفاقهما على الفكرة تخبرنى بالنتيجة حتى نكون معا لتحقيقها ، كما أنه سيخبرهم بمسعاى » (٢) ٠

وفى الوقت الذى كانت فيه الاجتماعات تعقد فى بيت سعد وغيره من أعضاء الجمعية التشريعية لايجاد حل للمسألة المصرية والمطالبة بحقوق مصر ، قامت حركة من بعض الشبان المصريين ، فقد حدث أن اجتمع فريق من أعضاء المدارس العليا وهو يضم نخبة من الشبان المثقفين ـ عملت انجلترا له حسابا وأغلقته ومنعت اجتماعاتـه فى أوائل الحرب ـ قـد تذكروا فى حقوق بلادهم وضرورة المطالبة بها (٣) ٠ وكان هذا الفريق يضـم مصطفى النحاس وهو قاضيا بمحـكمة طنطـا ، وعلى ماهر مدير ادارة المجـالس الحسـبية بوزارة الحقـانية ، وأمين الرافعى الصحفى ، وقد كانت أفكار هؤلاء الثلاثة أميل الى مبادىء الحزب الوطنى ، وفى سبتمبر ١٩١٨ عقد اجتماع فى سان اسـتفانو بالاسكندرية بين مصطفى النحاس وعلى ماهر ودار الحديث عن مبادىء ولسون وقرب الهدنة ، وكان النحاس على صلة بسعد من عدة نواحى لذا اتجهت نيتهم الى سعد واخوانه من أعضاء الجمعية التشريعية للقيام بعمل لصالح مصر ، وعلى الفور قصد كل من النحاس وعلى ماهر سعد زغلول وعرضا عليه ما فكرا فيه « وكلمته فى الموضوع فقال لى كويس ، ولكن فيه سوابق غير مطمئنة فى ذلك وفى الهند قامت مثل هذه الفكرة وكتب فعلا تقرير بذلك وأرسل الى ولسون

---

(١) فتح الله بركات : السابق ، ص ٦٢ ٠

(٢) محمد على علوبة : المرجع السابق ، ص ٩٣ ٠

(٣) فخرى عبد النور : مذكرات ، الفصل الثانى ، ص ١١ ٠

فكانت النتيجة أن هذا التقرير وصل الى نائب الملك فى الهند فقبض على الذين قدموه » (١) ٠

أخفى سعد عليهم مايقوم به هو وزملاؤه لأنه كان فى اعتقاده أن الأوان لم يكن قد آن لاظهاره الا أن النحاس وعلى ماهر لم يقتنعـــا ، يقول النحاس : « وفكرنا فى الطريقة فاما أن الشبيبة تقوم بالأمر بما عندها من الحمـــاس أو يكون الأمر للشيوخ ، فرأينا أن الأمر اذا أوكل للشبيبة يقضى عليه ، اذن فالأحكم أن نبتدىء بدور الشيوخ بحيث أنهم يجب عليهم أن يقوموا بحركة الاشعار الأولى ، وافترضنا أنه فى ذلك الوقت سيقابل بالقمع وهنا يأتى دور الشبيبة وطرح أمامنا هذا السؤال ٠٠ من نختاره من الشيوخ ؟ لم يتجه فكرنا الا الى سعد باعتباره الوكيل المنتخب للجمعية التشريعية فاتفقنا نحن الشبيبة على الذهاب الى عبـد العزيز فهمى ليتوسط لدى سعد ليقـود الحركة وكان عبد العزيز فهمى ساكنا فى مصر الجديدة وكان على ماهر أيضا ساكنا فى مصر الجـديدة » (٢) ٠

تقابل على ماهر مع عبد العزيز فهمى فرفض الفكرة ولكن النحاس لم يكتف ورأى تكرار المقابلة فذهب مع على ماهر اليه وعرض عليه الفكرة من جديد فوجدوه يمتنع أيضا وكانت حجحه أن هذا كله غير منتج فرد عليه النحاس : « هـذا هو تفكيرنا ، وهذا التفكير يجب أن يظهر الى حيز الوجود ، فاذا لم تفعلوا يا شيوخ سنبدأ بدورنا نحن الشبيبة » ٠ فلما اقتنع عبد العزيز فهمى بأن حركة هؤلاء الشباب جدية كشف له عن مساعى سعد وزملائه (٣) ، وأفصح عن تلك الاجتماعات السرية المتوالية التى تتم فى بيت سعد لهذا الغرض ، وأنهم فعلا قائمون بدور التنفيذ لأجل السفر للخارج وقال لهما « نحن سائرين فى طريقنا » وطلب منهما أن يكونا متصلين به اتصالا مستمرا حتى يأتى دورهم ، مع سرية الأمر بينهم (٤) ٠

هكذا أصبح سعد متزعما لهذه الحركة ، وقد نجح فى مسعاه فمنذ بادىء الأمر استطاع أن يقود هذه المسألة مستندا لما له من شعبية ، فكان حريصا على أن تكون الاجتماعات اما فى بيته ــ الذى عرف باسم بيت الأمة ــ واما فى عزبته بمسجد وصيف ٠٠ لقد استطاع أن يجمع أكبر عدد من الشخصيات البارزة فى ذلك الوقت أمثال على شعراوى وعبد العزيز فهمى ومحمد محمود وأحمد لطفى السيد وعلوبة وعبد اللطيف المكباتى ٠

وقد توالت اجتماعاتهم وكانت سرية الى أن بلغ على ماهـر من الأستاذ

---

(١) أوراق محفوظة لدى محمود سليمان غنام ٠

(٢،٣) نفس المصدر ٠

(٤) فخرى عبد النور : السابق ، الفصل الثانى ، ص ١٦ ٠

سامي قصيري مندوب جريدة المقطم أن دار المندوب السامي لديها علم باجتماعات سرية تعقد في منزل سعد وأنهم يترقبونها ويتبعون خطاها ، فقال النحاس لعلى ماهر « يجب أن نذهب لعبـــد العزيز فهمي ونخبره » فأجابه « اذن وجب الظهور » (١) ، ولما علم سعد أن أنباء اجتماعاته قد تسربت الى السلطة القائمة على تنفيذ الأحكام العرفية أسرع باعلان تأليف الوفد وبضرورة مواجهة الانجليز بالمطالب المصرية (٢) ٠

هذا في الوقت الذي كانت فيه أهالي مصر عـــلى دراية ومعرفـــة بهذه الاجتمـــاعات ، فما أن جـاء شهر نوفمبر ١٩١٨ حتى كانت مجالس القـاهرة تتحدث عن اجتماعات سعد باخوانه من أعضاء الجمعية التشريعية ، ورغبتهم في تأليف وفد يسافر الى باريس للمطالبة باستقلال البلاد لدى مؤتمر الصلح ، وكان الجميع يودون الوقوف على ما كان يجرى وراء هذه الحجب الكثيفة لدرجة أنهم علموا بالميعاد الذى حدده ونجت لمقابلة سعد واخوانه ، وكانت أحاديثهم تدور همسا في المجالس الخاصة لأن الأحكام العرفية معلنة والصحف مراقبة(٣) ٠

اذن كان المصريون يشعرون بضرورة جني مصر ثمار النصر بعد تلـك المساعدات التى قدمتها للحلفاء ولانجلترا بالذات ، وبأن الوقت قد حان لتحقيق الوعود التى قطعت لها ، وبأن ترفع عنها الحماية التى فرضتها عليها كاجراء حربي مؤقت لذا سعدوا لاجتماعات سعد واخوانه اذ اعتبروهم المنادين بحقوقهم وحينما قبضت السلطة على الزعماء كان ذلك ايذانا بثورة ١٩١٩ ٠

وجاء دور السلطان فؤاد ، فقد كان على علم تام بتلك الاجتماعات وبذلك الذى ينتظره المصريون جميعا بعد انتهاء الحرب ، فسعى هو الآخر الى محاولة لايجاد حل للمسألة المصرية فاجتمع بونجت في ٣ نوفمبر ١٩١٨ وتكلم معه في رغبته بجعل مصر ملكية دستورية لها مجلس وطني (٤) وهذه المطالب هي مطالب شخصية لا أكثر ولا أقل ، طلب أن يكون صاحب جلالة ، ولكن طلبه هذا لم يجب عليه لأنه كان من عادة ونجت دائما السكوت حتى يعرف رأى لندن ٠

وهنا رأى فؤاد ضرورة الاتجاه لتأييد الحركة الوطنية للمطالبة بحقوق مصر (٥) ٠ فهذه فرصة لمناوأة انجلترا التى طالما عملت على الحد من سلطته

---

(١) أوراق محفوظة لدى محمود سليمان غنام ٠

(٢) فخرى عبد النور ٠ السابق ، الفصل الثاني ، ص ١١ ٠

(٣) نفس المصدر ، ص ٩ ٠

(٤) St. Antony's papers, Number II, Middle Eastern Affairs, Wingate to Harding, Nov. 6, 1918.

(٥) سعد زغلول : السابق ، كراسة ٣٢ ، ١٥ نوفمبر ١٩١٨ ، ص ١٨٤٤ ٠

وأوقفته عند حده ، وقد أبان لرشدى وعدلى أنه موافق على المطالبة لمصر بشيء من انجلترا ، وبدأ يشجع على تأليف وفد لنفس الغرض ، ويذكر عبد العزيز فهمى أن السلطان كان مؤيدا لهذه الحركة ـ تألبف وفد والسـفر ـ « لأننا نحن ـ رشدى والسلطان فؤاد ـ منفقون على السفر لأوربا للمطالبة بحقـوق مصر ، ومن المصلحة أن يكون الى جانبنا فريق من الأمة يدافع عن حقوقها تعتمد عليه لأخذ شيء من انجلترا » (١) ٠

وعقب اعلان الهدنة رأى فؤاد ضرورة بعث برقية الى ولسون يهنئه فيها بالانتصار الذى أحرزه الحلفاء ويشيد بالدور الفعال الذى قامت به الولايات المتحدة الأمريكية في كسب الحرب ورجا فى ختـــام برقينه أن تكون المطالب المصرية موضع عناية الرئيس الامريكي وعطفه ٠ وقـــد رأى ونجت أن هذه البرقية هى نتاج ذهن أذكى بكثير من ذهن السلطـــان اذ يقول « وأنا ميال للاعتقاد بأنها قد تكون من اعداد رشدى بالاشتراك مع محامى ايطـالى قدير صديق للسلطان ، كما أنى ميال الى الاعتقاد بأن لحزب سعد زغلول المتطرف أصبعا فيها » (٢) ٠

وفى ١١ نوفمبر ١٩١٨ حدث أن اجتمع لدى سعد زغلول بمنزله الأمير عمر طوسون وابراهيم باشا سعيد ومحمد محمود باشا وعلى شعراوى باشــا وعبد العزيز بك فهمى وأبدى عمر طوسون رغبته فى عقد اجتماع للمذاكرة فى حالة مصر وما يجب أن يقدم لها من الخدمة ، على أن يكون هذا الاجتماع من أعضاء الجمعية التشريعية ومجالس المديريات والأعيان ، يقول سعد : « فوافقت على ذلك وكتبت أسماء كثيرين من الذين ينبغي دعوتهم وكان هو يعارض فى البعض ويملى البعض ، واشتدت معارضته للهلباوى فاقنعنا بوجـــوب دعوته ، فاقتنع بعد عناء ، وبعد أن تم تحديد الأسماء التى يجب دعوتها كتبت صيغة الدعوة وأخذها الأمير لارسالها ، وحصل الاتفاق على تحديد اليوم اما يـــوم الثلاثاء ـ ١٩ نوفمبر ـ القادم أو يوم الأربعاء ، ومكان الاجتماع قصر الأمير بشبرا » (٣) ٠

واختلفوا على صيغة الدعوة لهذا الاجتماع فكان رأى الأمير أنها تكون « للمطالبة بحقوق مصر » ورأى آخرون أن تكون « للمطالبة باستقلال مصر » ٠ ووافق سعد الأمير ليكون ذلك مدعاة لتسهيل السفر للخارج وهناك تحصل المطالبة بالاستقلال التام ، وكتب لطفى السيد مسودة الدعوة ، وعند الانصراف دعا سعد الأمير لتناول الغذاء عنده يوم الاجتماع ، فقبل الدعوة وقال « انه سيحضر معه أمين يحيى وهو معروف بموالاته التامة للسلطان فأكد ذلك الظن

---

(١) عبد العزيز فهمى : المرجع السابق ، ص ٧٤ ٠

(٢) F. O. Wingate to Graham, Nov. 24, 1981.

(٣) سعد زغلول : السابق ، كراسة ٣٢ ، ١٥ نوفمبر ١٩١٨ ، ص ١٨٤٤ ٠

بأن عظمته مرتاح الى هذا المشروع ، ثم انصرف الأمير ليوزع أوراق الدعوة » (١)· واحتاطوا لتدخل السلطة البريطانية ٠

وفى ١١ نوفمبر ١٩١٨ أعلنت الهدنة فتزاور وزراء مصر ورجال الحماية مهنئين بعضهم بعضا ، وأرسل ملك انجلترا الى السلطان فؤاد يشكره فيها على مساعدة مصر وبأن مصر سينولها نصيب كامل فيما سيعم على الامبراطورية البريطانية من الرخاء (٢) ٠

وفى نفس اليوم اتفق سعد مع عبد العزيز فهمي وعلى شعراوى زميليه فى الجمعية التشريعية وهذا لكى تتوفر الصفة التمثيلية ــ وذلك هو السبب فى استبعاد لطفى السيد واحلال شعراوى محله ــ بأن يطلبوا من دار الحماية تحديد موعد يقابلون فيه السير ونجت للتحدث معه فى طلب الترخيص لهم بالسفر الى لندن لعرض مطالب مصر على الحكومة الانجليزية بناء على نصيحة رشدى وبفضل وساطته (٣) ٠

وتردد ونجت ماذا يفعل ؟ هل يمهلهم حتى يستأذن لندن ؟ وأخيرا بدا له أنه من المفيد أن يلتقى بهم وان كان قد خشى أن يعتبر هذا اللقاء « اعتراف رسمى بريطانى » بأن هؤلاء الزعماء يمثلون الشعب المصرى ، ولكنه تغلب على مخاوفه هذه بتحديد موعد للقائهم ، لا لأنه يريد أن يعرف رأى سعد زغلول وجماعته فحسب ، بل لأنه كان يعلم أيضا أنهم لم يطلبوا مقابلته بدون موافقة السلطان والوزراء ، وبأن هذه المقابلة لن تكون الا مناوشة أولية لا بد وأن يتبعها طلبات رسمية من السلطان ووزرائه ٠

وتحدد يوم ١٣ نوفمبر ولم يخبر سعد عمر طوسون بأمر هذه المقابلة وهذا دليل على أن سعد أحس بضرورة انفراده بهذا العمل وفى حقيقة الأمر فقد ساعده على النجاح فى ذلك شخصيته البارزة فى الجمعيــــة التشريعية وتزعمه للمعارضة فيها ٠

من هذا نرى أن المسألة المصرية قد درست تماما أثناء المرحلة الأخيرة للحرب والدليل أنه بعد يومين فقط من اعلان الهدنة اتصل على الفور المندوبون المصريون بالسلطات الانجليزية ٠

وقد تحولت الفكرة من السفر الى مؤتمر الصلح الى السفر للندن والاتفاق مع الحكومة الانجليزية وواضح أن سبب الأخذ بهذه الفكرة هو أن البلاد وقتئذ

---

(١) نفس المصدر ، كراسة ٣٢ ، ١٥ نوفمبر ١٩١٨ ، ص ١٨٤٤ ، ابراهيم الهلباوى : الملف الثالث ، ص ١٣٠ ٠

(٢) Chafik : op. cit., p. 69.

(٣) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ، ص ٩٢ ٠

تقع تحت الأحكام العرفية ، وكان الترخيص بالسفر تتولاه السلطة العسكرية . هذا بالاضافة الى أن سعدا وزملاءه من مدرسة تفضل التفاهم المباشر مع انجلترا ، ومن ناحية أخرى فقد كان عمر طوسون هو صاحب الفكرة فى ارسال وفد الى المؤتمر . لذا تمكن سعد ـ لكى يبعده ـ أن يغير الخطة ويجعل السفر للندن .

ويذكر محمد فريد « ان القصد الأصلى كان الاقتصار على السفر الى بلاد الانجليز للاتفاق مع الحكومة الانجليزية على منح مصر بعض الامتيازات الداخلية »(١) .

وقرر سعد وزملاؤه من أعضاء حزب الأمة ورشدى وعدلى بعد عدة اجتماعات للبحث والمشاورة تأليف وفدين أحدهما رسمى يمثل الحكومة قوامه رشدى وعدلى ، والثانى أهلى يمثل الأمة برئاسة سعد للسفر لانجلترا لحل القضية المصرية مباشرة مع الحكومة الانجليزية فاذا رفض مطلبه يطالب وفد الحكومة احتياطيا بالحصول على أكبر قسط ممكن من الحرية لمصر(٢) . وأبان الوزيران أن مؤتمر الصلح سيوافق رسميا على الحماية وعليه لا يمكن ترك ماهيتها وكنهها بلا تعريف وتحديد ، فقد كان لمصر تحت السيادة العثمانية حقوق معلومة وهما يريدان أن يعلما ما هى حقوقهما على بريطانيا تحت رايتها (٣) .

فالوفد اذن ليس مؤمنا كل الايمان بأن الحلفاء فى باريس سوف ينصرون قضيته ، وقد أعد العدة لذلك بالتفاهم مع لندن ودعا هذا الأمر لكل من رشدى وعدلى لتنظيم العلاقة بين مصر وانجلترا فى حدود الاعتراف باستقلال ذاتى يهيىء لمصر التمتع فى شئونها الداخلية بالنظام الدستورى(٤) . ويؤيد علوبة أيضا ذلك بقوله : « رأيت هذه الجماعة ـ جماعة الوفد ـ أن تجعل فاتحة برنامجها أن تتجه الى الشعب البريطانى قبل كل شىء لنيل عطفه على مصر والمصريين ، ولتبين للرأى العام هناك أن النقطة التى تلتقى فيها منافع بريطانيا العظمى واستقلال مصر ليست نقطة معدومة بل ايجادها فى حيز الامكان » (٥) .

ويبدو من موافقة الحكومة على تأليف وفدين أمر غير مألوف نظرا لأن العرف قد جرى على أن تتولى الحكومات مهمة تسوية علاقاتها مع الدول الأخرى

---

(١) محمد فريد : السابق ، كراسة ١١ ، ص ٣١١ .
(٢) أحمد شفيق : المرجع السابق ، ص ٢٧٢ .
(٣) القضية المصرية ، ص ٥١ .
(٤) محمد حسين هيكل : المرجع السابق ، ص ص ٨٢ ، ٨٣ .
(٥) محمد على علوبة : السابق ، ص ١٣٨ .

دون حاجة الى وفود أهليـة تصحبها ولكنها تعلم ـ الحـكومة ـ أنها لم تكن لتستطيع أن تدعى تمثيل الشعب المصرى لأنها لم تتول الحـكم على أساس نيابى ، كذلك فانها تدين بالتبعية للدولة صاحبة السيادة على مصر ، لهذا فان تأليف وفد يمثل الأمة فى حد ذاته يعزز مركز الحكومة المصرية أثنـاء عرض مطالبها ٠

ووضعت الخطة لابعاد عمر طوسون ، اذ أن سعدا كان يعتقد أن الأمير وصديقه محمد سعيد يبغيان المحافظة على السيادة العثمانية وهو يكره هذه السيادة بل ويقبل أن يتعاون مع الانجليز على أن يتعاون معها ، كذلك خـاف سعد من تزعم الأمير المشروع ورغبته ـ كعادته دائما ـ أن يكون هو الزعيم ، وهو المسيطر على الموقف ، وتردد فى ذلك الوقت من أعضاء الوفد بأنهم يريدون هذه الحركة « حركة شعب لا امارة ، وحركة استقلال لا خلافة »(١) ٠

وفى الوقت نفســه تدخل السلطان فؤاد وذلك لأن الأمير من الأسرة السلطانية ، والسلطان لا يود تعكير العلاقات بينه وبين انجلترا عن طريق أمير من أسرة محمد على يقف أمامها ويطالب بحقوقه ، فهو غير مرتاح لظهوره كصاحب الفكرة على رأس هذه الحركة ودخول أعضاء البيت المالك فى مآزق سياسية من المفروض أن يكونوا بمعزل عنها ، أما من ناحية نفسية فؤاد فكان يرتاب من زعامة الأمير ومن تنحيته عن العرش وتولى مكانه ٠ كذلك لعب رشدى دورا مهما فى ابعاد طوسون وذلك أيضا لمصلحته الشخصية فمحمد سعيد منافس رشدى حبيب لعمر طوسون ، لذا خاف أن يقبض الأمير على زمام الحركة ثم على زمام الحكم فيغير رئيس الوزراء ويعين محمد سعيد ٠

وتشكلت هيئة مكونة من سعد زغلول وعلى شعراوى وعبد العزيز فهمى وأحمد لطفى السيد وعلى علوبة ومحمد محمود من أجل المطالبة بحقوق مصر ، وتم للثلاثة الأول ذلك اللقاء التاريخى مع ممثل الحماية البريطـانية فى ١٣ نوفمبر ١٩١٨ ، وتصدر سعد الحديث وطلب الغاء الأحكام العرفية والرقابة على المطبوعات ، ثم اشترك الثلاثة فى طلب الاستقلال التام وتحديد العلاقة مـع انجلترا بصداقة الحر للحر لا صداقة العبد للسيد وعند الاقتضاء وجوب السفر لانجلترا لعرض مطالب مصر ، وانه من حقها الاشراف على الدين العام واعطائها التسهيلات فى قناة السويس ، كما أوضحوا أن مصر بلد لها حضارتها التى ترتفع عن بلاد دونها حصلت على استقلالها (٢) ٠

وكانت تلك مواجهة صريحة وحازمة فى وقت مبسوطة فيه الحماية معلنة فيه الأحكام العرفية ٠ وانتقلت أخبار المقابلة الى المصريين فى جميع البلاد ،

---

(١) عباس محمود العقاد : المرجع السابق ، ص ١٩٤ ٠

(٢) عبد الرحمن فهمى : السابق ، ص‌ص ١٢ ـ ١٦ ٠

فكان لها أثرها فى النفوس التى تهفو الى الحرية والاستقلال اذ رأت فى عمل سعد وزميليه ما يروى ظمأها ٠

أما عن دور الحزب الوطنى فانه فى اليوم التالى لاعلان الهدنة اجتمعت اللجنة الادارية وقررت أن تستبدل بالمادة الأولى من مبادئها ما يأتى : « يطلب الحزب الوطنى الاستقلال التام لمصر مع سودانها وملحقانها استقلالا غير مشوب بأى احتلال أو حماية أو شبه سيادة أجنبية أو أى قيد يقيد هذا الاستقلال» (١) وذلك رغم أن قيادة الحزب الوطنى كانت بخارج مصر منذ هجرة فريد واضطهاد كتشنر لأعضائه ومغادرة الكثير من أتباعه مع بدء الحرب معتقدين أنه يمكن لهم خدمة وطنهم وهم بالخارج بعيدا عن أعين انجـــلترا كما أن البعض منهم حاربته انجلترا ونفته خارج مصر ابان الحرب لكن رغم ذلك فان بقايا هذا الحزب قد أيقن أخيرا أنه لا فائدة من الدولة العثمانية عقب انهزامها حتى محمد فريد نفسه فقد تغير من ناحيتها بعد أن أيقن نيتها ٠

الاعتراف الدولى بالحماية :

منذ أن أعلنت انجلترا حمايتها على مصر ، وهى تسعى بكل الطرق لجعل هذه الحماية شرعية ، وذلك باعتراف أكبر عدد من الدول بها ، لأنها تعلم أن هذه الحماية التى فرضتها على مصر لم تكن قانونية ٠

كانت أولى الدول التى سعت انجلترا لضرورة موافقتها على هذا الاجراء فرنسا ، ونحن نعلم التنافس الذى كان بينهما والذى انتهى بالاتفاق الودى ١٩٠٤ وهو يقر عدم تغيير حالة مصر الراهنة فى ذلك الوقت ، ولكن انجلترا بدورها حللت ذلك واعتبرت أن الحماية لا تغير من السياسة ولا من الوضع شيئا ، وفى أوائل الحرب لم تكن الساعة تسمح بالمناقشات الدبلوماسية بين الحلفاء ، وكان طبيعيا بعد أن رفضت فرنسا فكرة ضم مصر الى الامبراطورية البريطانية أن تعلن موافقتها على الحماية اذ اعتبرتها أخف وطأة على الرأى العام هذا من جهة ومن أخرى ففرنسا كانت حليفة لانجلترا ضد ألمانيا ، وكانت تعلم أن وضع مصر الدولى والقانونى يسندها الى تبعية الأتراك وبالتالى فتركيا حليفة ألمانيا اذن فاعلان الحماية على مصر وانهاء السيادة العثمانية يجعلها ضد الألمان وهذا فى الحد ذاته مصلحة لفرنسا ٠ اذن كان من المنتظر أن تعترف فورا فى مثل هذه الظروف بالحماية البريطانية على مصر وذلك فى صبيحة اعلانها أى فى ١٩ ديسمبر ١٩١٤ فى نظير موافقة بريطـــانيا على المعاهدة الفرنسية المراكشية الموقعة فى ٣٠ مارس ١٩١٢ (٢) وفى مقابل أيضا اعطاء

(١) جوليت آدم : انجلترا فى مصر ، ترجمة على كامل ، ص ٣٠٠ ٠

(٢) The Times, Dec. 19, 1914.

فرنســا وعد بسوريا ، وتم ذلك فعلا عن طريق معاهدة سرية بينهما اشتركت فيها روسيا (١) • وقد صرحت الصحف الفرنسية بأن فرنسا كانت على اتفاق مع الحــكومة البريطــانية منذ عام ١٩٠٤ بشأن بسط الحمــاية الانجليزية على مصر (٢) •

وعقب امضاء معاهدة الصلح فى فرساى أراد بلفور وزير خارجية انجلترا احباط مساعى سعد ورفاقه فعادت فرنسا تكرر موافقتها على الحماية اذ كانت تخشى مما يحدثه استقلال مصر بين جيرانها فى تونس والجزائر ومراكش ، وما يترتب على الاستقلال من نتائج خاصة برؤوس أموالها فى مصر ، هــذا بالاضافة الى اهتمامها بارضاء انجلترا والحفاظ على الوفاق الثلاثى •

كانت الدولة الثانية التى سعت انجلترا لضمها اليها باعترافها بالحماية على مصر هى روسيا ، وقد ترددت فى بادىء الأمر ولكنها اعترفت بها بعد أن تم الاتفاق مع انجلترا وفرنسا وبعد أن أخذت وعدا من الحلفاء بالسيطرة على القسطنطينية والمضايق بل وامتلاكهما مع ضمان مراعاة المصالح الروسية فى مصر وتم ذلك عن طريق معاهدة سرية عقدت لأجل هذا الغرض (٣) • ولكن بقيام الثورة فى روسيا حلت نفسها من كل هذه المعاهدات التى عقــدتها مع الحلفــاء •

أما ايطاليا فقد شرطت اعترافها بالحماية بأن تبقى مصالحها فى مصر مصانة كما كانت فى عهد الامتيازات (٤) ، ولم يحدث باعلانها دهشة فى روما فهى من الأمور المنتظرة ، ونشرت صحفها فى ٢٤ ديسمبر ١٩١٤ بأنهــا مستعدة للاعتراف بها وقالت الجورنال دى ايطــاليا « ان انجلترا كانت تعــد نفسها منذ بضعة أشهر لهذا الحادث الذى هو نتيجة الحالة الفعليــة ، فان الضرورة قضت بذلك فتم ، وان عمل انجلترا هذا ليس فيه الا تثبيت الحالة التى كانت موجودة منذ عام ١٨٨٢ » (٥) •

وأيقنت ايطاليا أنه لابد من فوائد جزيلة لها فى طرابلس ، ورغم ذلك فقد تلكأت فى الاعتراف بها وتجنبت الموافقة رسميا حتى لا يكون هذا بمثابة عمل عدائى لألمانيا والنمسا والدولة العثمانية ، لكنها فى نفس الوقت أبلغت انجلترا أنهــا لا تعترض على ادخالها فى شروط الصلح (٦) ومن هنا أعلنت

---

(١) Chirol : op. cit., p. 124.

(٢) الاهرام ١ يناير ١٩١٥ ، الافكار ١٣ يناير ١٩١٥ ، وادى النيل ٢٤ يناير ١٩١٥ •

(٣) Les Nouvelles, 27 Jan. 1915.

(٤) وادى النيل ، ١٠ يناير ١٩١٥ •

(٥) الاهرام ، أول يناير ١٩١٥ •

(٦) الجريدة ، ٢٢ ديسمبر ١٩١٤ •

« البال مال جازيت » عن نظام الحماية « وقد قابلته كل من فرنسا وايطاليا بالارتياح لأن موافقتهما العظيمة تحملانهما على توطيد النظام والأمان فى القطر المصرى » (١) ٠

لكن هذا الموقف المائع كان يقلق انجلترا أشد القلق ، وفى تقرير اللنبى الذى أرسله للندن أثناء ثورة ١٩١٩ طلب فيه ضرورة اعتراف ايطاليا رسميا بالحماية البريطانية حتى تصبح الحماية شرعية (٢) ، ورغم توقيع ايطاليا على معاهدة فرساى ــ التى أقرت الحماية على مصر ــ فان انجلترا لم تكتف بذلك وأرادت تصريحا مثل تصريح كل من فرنسا والولايات المتحدة ، وأصبح ذلك مصدر قلق لرجال لندن من ناحية ولرجال الوكالة البريطانية فى مصر من ناحية أخرى خصوصا بعد أن ظهر فى مصر بعض الايطاليين الذين شجعوا الثورة ، فاجتمع لورد هاردنج بالسفير الايطالى فى لندن للاستفسار عن سر موقف ايطاليا من مصر وتأخيرها فى الاعتراف بالحماية وهدفها من ذلك ، وعرض عليه تعويض ايطاليا فى سبيل ذلك الاعتراف الرسمى باعطائها منطقتى « جوبلاند وكسمايو » من الممتلكات البريطانية فى أفريقيا ، وأبان السفير بأن التعويض لايطاليا فى أفريقيا ملزما لها نظرا لدخولها الحرب فى صف الحلفاء فحسب أن تنال تعويضا لذلك (٣) ، وأخيرا تم الاعتراف ٠

وبالنسبة لليونان فتلقت خبر الحماية بارتياح ، فكان الظاهر من تلغرافات أثينا أن الصحف اليونانية قابلت اعلان الحماية بالاستحسان ، وأملت أن يؤدى الى تحسين الحالة التجارية ، لأن من مصلحة الجالية اليونانية نجاح التجارة فاليونانيون لهم يد وصوت فى سوق التجارة المصرية ٠ واستحسنت بقية الدول المحايدة الحماية ٠ والدول الصغيرة أمثال رومانيا ودول اسكاندينافيا وسائر الممالك الصغيرة ، فهى الأخرى موافقة على الحماية بحكم القوة والمصلحة (٤) ٠

أما عن موقف الولايات المتحدة ، تلك الدولة التى غيرت مجرى الحرب وجعلته فى صالح الحلفاء فبالرغم من أنها لم تدخل الحرب الا فى آخرها لكنها كانت موافقة على الحماية منذ البداية ، وفى يوم اعلان الحماية أعطى سفير انجلترا فى واشنطن لحكومة الولايات المتحدة مذكرة رسمية تحتوى على الاجراءات التى اتخذت فى مصر وتشير الى أن انجلترا ستراعى المصالح الأجنبية فيها (٥) ٠ وفى ١٩ أبريل ١٩١٩ اعترفت رسميا بالحماية نظرا لقوة انجلترا فى مؤتمر

(١) الاهرام ، ١٢ يناير ١٩١٥ ٠

(٢) F. O. Allenby to Earl Curzon, March 28, 1919.

(٣) Ibid, Earl Curzon to Sir Rod, Octobre 14, 1919.

(٤) الجريدة ، ٢٢ ديسمبر ١٩١٤ ٠

(٥) Bourgeois : La Formation de l'Egypte Moderne, p. 40.

الصلح ولتحول الكثير عن ولسون الذى خشى من اغضابها وكان فى حاجة اليها لتحقيق أحلامه فى انشاء عصبة الأمم ، وحرصت انجلترا على اعتراف صاحب المبادىء الأربعة عشر حتى تقضى على الثورة المصرية ٠

بهذا ضرب بحق تقرير المصير عرض الحائط ، فاعترفت الدول بالحماية البريطانية على مصر وستكتمل الدائرة باقرار معاهدات الصلح لها ٠

هكذا عندما أحست مصر بأن السلام سيسود ويضع حدا لظلم انجلترا الذى أقامته فى مصر ، وبأن الوقت قد حان لانهاء الحماية المذلة وتلبية مطالبها ، بعد ما نفذ صبرها وأثارتها أحداث الحرب ، ومتطلبات الانجليز منها ، وما عانته فى سبيل الفوز النهائى يكون فى النهاية نصيبها الرفض البات اذا طلبت أن يسمع صوتها كسائر الشعوب ٠

بهذا حرمت مصر من عرف القانون الدولى ٠٠ من الانصاف ٠٠ من أن نمثل لا لسبب يجيز للحجاز والهند وقبرص ويحرم مصر سوى انضمام الأولين لانجلترا وطلب الأخيرة الخلاص منها ٠

وكان طبيعيا أن مؤتمر فرساى لم يكن مستعدا لسماع صوت مصر أو لتحقيق مطالبها القومية ٠ لقد اجتمع ليحدد مصير الدول المنتصرة مع علاقاتها بالدول الخاضعة لها ، وانجلترا فصلت مصـر عن الامبراطورية العثمانية منذ اعلان الحماية عليها ، فاذا وافق المؤتمر لسماع أقوال مصر ومطالبها ، اذن فواجب عليه أن يسمع مطالب سائر الشعوب الداخلة فى نطاق الامبراطورية البريطانية والشعوب الخاضعة لفرنسا والشعوب التى تحت نفوذ ايطاليا (*) ٠

وفى شهر مايو ١٩١٩ أعلنت شروط الصلح التى قررها الحلفاء وسلمت الى الوفد الألمانى فى مؤتمر فرساى يوم ٧ مايو ١٩١٩ ، فجاءت النصوص الخاصة بمصر من المادة ١٤٧ الى المادة ١٥٤ مؤيدة للحماية التى فرضتها انجلترا عليها فى ١٨ ديسمبر ١٩١٤ وقد قبلتها ألمانيا ضـمن ما قبلته من شروط والصلح ، وصارت جزءا من معاهدة فرساى التى أمضيت يوم ٢٨ يونية ١٩١٩ ٠

واعترفت النمسا بالحماية البريطانية على مصر فى معاهدة سان جرمان فى ١٠ سبتمبر ١٩١٩ وتبعتها بلغاريا فاعترفت بها فى معاهدة نيوى فى ٢٧ نوفمبر ١٩١٩ ثم المجر فى معاهدة تريانون فى ٤ يونيو ١٩٢٠ ، وأخيرا جاء الدور على تركيا لتعترف بها هى الأخرى فأقرتها فى معاهـدة سيفرفى ١٠ أغسطس ١٩٢٠ تلك التى رفضها الكماليون وابدلت بمعاهدة لوزان التى وقعت فى ٢٤ يوليو ١٩٢٣ وفيها تنازلت تركيا عن جميع حقوقها فى مصر ابتداء من ٥ نوفمبر ١٩١٤ ٠ وبذلك اعترف دوليا بتلك الحماية التى فرضتها انجلترا على مصر عقب قيام الحرب العالمية الأولى ٠

(*) محمد حسين هيكل : المرجع السابق ، ص ص ٨٤ ، ٨٥ ٠



الفصل الثانى

الحياة الاقتصادية

الوضع المالى ـ الزراعة : القطن ، المحاصيل الزراعية الأخرى ـ الانتاج الحيوانى ـ الصناعة ـ التجارة ٠

الوضع المالى

انتشرت البنوك الأجنبية فى أنحـاء مصر ، فتهـافت عليهـا أغنياء مصر فأودعوا فيها أموالهم بسخاء وبثقة وبأمانة ، وكانت هذه الودائع بدون فوائد ، وهذه البنوك ترسل الأموال لبلادها وهناك يستثمرونها فى خصوصياتهم ومصر عمياء لا ترى صماء لا تسمع ، واذا عادت هذه النقود الى مصر فانها انما تعود ليقترض منها المصريون بفوائد عالية ، حتى الحكومة المصرية فانها أعطت أموالها للبنك الأهلى بفائدة ١ ، ٥ر١ ٪ مع علمها بأن هـذا البنك يرسل أموالها الى الخارج ، وكانت انجلترا أكثر الدول استئثارا بهذه الكنوز حيث كان البنك الأهلى تابعا لها .

كان لنشوب الحرب العالمية الأولى عاملا بارزا فى تغيير مجـرى الحياة الاقتصادية والمالية فى مصر فمنذ أن أعلنت الحرب قام الأفراد بسحب ودائعهم من البنوك وأقبلوا على الأسواق لشراء ما بها احتياطيا لما تخبئه الأيام ، وقد نتج عن ذلك أن البنوك لم تقو كلها على استمرار دفع الامانات الى أصحابهـا فأغلقت فى وجوههم أبوابها ، واذا سئل أحدهم يسمع رد مدير البنك قائلا « نحن لا نقدر أن نعطيك أموالك الآن اذهب ، ولايؤاخذنا المصريون فى أن نقول لهم العوض على الله »(١) .

وتبع ذلك أن كفت البنـوك عن التسليف على المحصولات فتقول صحيفة الوطن : « قد باتت الحالة المالية والاقتصادية فى مركز سيىء ، والجمهور لا يفتأ يتزاحم على البنوك لسحب أمواله منها وتحويل ماللديـه من السندات والأوراق المالية الى ذهب وفضة والغالبية فى البيوت المالية منعت معاملتها ، وأقفلت أبواب التسليف على الأقطان ومختلف الحاصلات » (٢) .

أحست الحكومة بتلك الازمة فأصدرت أمرها فى ٤ أغسطس ١٩١٤ باعلان « الموراتوريوم Moratorium » ـ التاجيل الجبرى ـ أى عدم دفع الودائع والأمانات والديون لأربابها الى أول نوفمبر ١٩١٤ وتبع ذلك أن أجلت المواعيد

(١) الأفكار ٦ اغسطس ١٩١٤ .
(٢) الوطن ٣ اغسطس ١٩١٤ .

التى يجب أن تعمل فيها البروتستات وجميع الاجراءات الخاصة بالمطالبة وذلك فيما يتعلق بجميع الأوراق المالية الجائز التداول بها وأنه لا يجوز مطالبة المولين وغيرهم من الملتزمين بالسداد أثناء مدة هذا التأجيل ، أما الفوائد فتكون واجبة من تاريخ الاستحقاق الى تاريخ الوفاء(١) ٠

وهذا الاجراء لم يعد بالنفع على الأمة اذ أن التجار من أولى الزمم الواسعة لعبوا بالأمر ورفضوا تسليم البضائع الواجب تسليمها الا اذا قبل الشارى أن يزيدهم فى الثمن معتمدين فى ذلك على الأمر السابق بشأن التأجيل الجبرى (٢) ٠ وتوالت اجتماعات مجلس الوزراء وكان يحضرها شيتهام للبحث فيما يختص بالأزمة المالية ٠

وفى ٢٦ أكتوبر ١٩١٤ صدر أمر بانتهاء التأجيل الجبرى فساءت الحالة المالية . حتى أنه بلغت البروتستات التى أقيمت على التجار فى النصف الأخير من نوفمبر ١٩١٤ حوالى ٢٥٠٠ فى دائرة محكمة مصر المختلطة ، ١٥٠٠ فى دائرة محكمة الاسكندرية المختلطة ، ٥٥٠ فى دائرة محكمة المنصورة المختلطة(٣) ٠

وامتنعت الأموال عن التجارة وهذا أدى الى اضطراب فى السوق المصرية وكان ذلك بالاضافة الى امتناع كثير من الناس عن شراء كل ما لم يكن ضروريا جدا من الأسباب التى دعت كثيرا من المحلات التجارية الكبرى الى تقليل مصاريفها قدر الامكان ولو برفت مستخدميها ، وبناء على ذلك أيضا أجلت الحكومة كل المشروعات التى كانت قد بدأت فى تنفيذها(٤) ٠ وكان هذا وامتناع البنوك عن فتح حسابات جارية داعيا لزيادة الربكة المالية ، وبعد أن وقفت حركات البنوك الخاصة بالتسليف على الغلال أصبحت مخزونة فى شون البنوك كرأس مال ميت غير قابل للتداول ولا للاستفادة منه ٠ هذا عن المعاملات الداخلية أما الخارجية فقد وقفت وقوفا تاما حتى انه لم يتمكن الناس من دفع ما عليهم الى الخارج أو تحصيل ما لهم هناك بينما قلت الأموال المتداولة بين الناس فى القطر وقلت بالتالى الثروة التى يملكونها (٥) ٠ والنتيجة أن أقبل الناس على بيع حليهم ليدفع بعضهم ديونه التى حلت آجالها وليقتات البعض الآخر بأثمانها ، وكان من أثر ذلك أن انخفضت أثمانها بزيادة عرضها ،

---

(١) Conseil des ministres, 4 Août, 1914.

(٢) الأهرام ١٣ أغسطس ١٩١٤ ٠

(٣) Conseil des ministres, 5 Janvrier, 1915.

(٤) الشعب ١٥ سبتمبر ١٩١٤ ٠

(٥) الغرفة التجارية ، أغسطس ١٩١٤ ، ص ٦ ٠

اعتمدت مصر في نظامها النقدى على الذهب لكن ليس معنى هذا أنه لم يكن لديها قبل الحرب أوراق نقدية ، فقد خول للبنك الأهلى منذ انشائه حق اصدار هذه النقود الورقية لكنها لم تكن الزامية بالرغم من أنها كانت قابلة للصرف بالذهب ، فان المصريين لم يطمئنوا الى هذه العملة واقتصر استخدامها على فئات قليلة من أهل المدن وعلى الأجانب « لذا ظل تداولها محدودا بحيث لم يزد الموجود منها قبل نشوب الحرب العالمية الأولى عن ٢٫٢٠٠٫٠٠٠ ج وقد نص قانون البنك الاهلى على أن يكون غطاء أوراق النقد على أساس النصف من الذهب والنصف الآخر من أوراق مالية تحددها الحكومة المصرية » (١) ٠

وكانت أوراق البنكنوت هذه بمثابة نقود اختيارية وذات أهمية ثانوية ، أما نقود الودائع فلم يكن لها أهمية تذكر ويرجع قلة اقبال الشعب على استعمال البنكنوت أو نقود الودائع الى وفرة النقود الذهبية ، ثم الى قلة خبرة الأفراد بالشئون النقدية ، وكانت شئون النقد أولى المسائل التى أولتها السلطات أهميتها ، فقد كان الذهب النقد القانوني للمدفوعات التى تزيد عن جنيهين . وكانت الحاجة في بداية الحرب ماسة الى هذا العون أولا لحلول موسم القطن ـ كانت مصر تستورد النقود الذهبية من انجلترا فى الشتاء وتحتفظ بها لتمويل محصول القطن حتى نهاية الموسم ثم تعيد تصدير أغلبها فى الصيف ، والواقع أن جزءا كبيرا من هذه النقود الذهبية المستوردة لم يكن ثمنا للصادرات وانما بمثابة قروض تمنحها لتمويل محصول القطن ـ ودفع ثمن المحصول ، ثانيا لضرورة وجود مزيد من الذهب بدلا من البنكنوت خشية الاندفاع على البنوك (٢) ٠

وأصبح من الضرورى ، ومن اللازم النظر فى طريقة توفير النقود التى تتداولها الأيدى سواء كان لتمكين البنوك من دفع قيمة ما هو مودع فى خزاناتها للذين تزاحموا على أبواب البنوك أو لتقديم النقود الصغيرة للأهالى ، علاوة على ما هو مطروح للتبادل بينهم حتى تسد هذه النقود حاجة البلاد أثناء بيع القطن ، وتحل محل الذهب الذى كان يرد لنفس هذا الغرض (٣) ، والذى أصبح من الصعب استيراد الكميات المطلوبة منه تلك التى كانت تصل اليها كل عام فى المواسم التجارية ، وكان لا بد من مد السوق بالنقد لمواجهة الطوارىء ٠ واتخذت الأوراق التى يصدرها البنك الأهلى أساسا لهذا النقد بشرط عدم تقديم كميات كبيرة منها للصرف حتى لا يستنفد الرصيد الذهبى ،

(١) د٠ راشد البراوى ، محمد حمزة عليش : التطور الاقتصادى فى مصر فى العصر الحديث ، ص ٢٠٥ ٠

(٢) National Bank of Egypt (1898-1938), p. 41.

(٣) الأهرام ٢٧ مارس ١٩١٥ ٠

وفى ٢ أغسطس صدر قرار يجعل أوراق البنكنوت الصادرة من البنك الأهلى لها نفس القيمة الفعلية للنقود الذهبية (١) ٠

وصرح للبنك الاهلى باصدار البنكنوت دون مراعاة أن يكون له الغطاء الذى نص عليه القانون وألغى حق حاملها فى أستبدالها ذهبا ، وقد كانت هذه الأوراق النقدية مغطاة الى ٥٠٪ بالذهب والنصف الآخر بسندات على الخزانة المصرية لغاية ٢٫٣٥٠٫٠٠٠ ج٠ م٠ أصدرت خصيصا لهذا الغرض وذلك لمعالجة ندرة النقود وقلة الائتمان اللذين نشأ بسبب الحرب (٢) ٠

وأصبح الأفراد ملزمين بقبول البنكنوت فى التعامل بأى مقدار دون قيد أو شرط ، وأعفى البنك الأهلى من التزامه بدفع مقابل النقـد ذهبا ، وصار النقد المصرى نقدا الزاميا يسيطر عليه البنك ٠

تبع ذلك أن اعتمدت الحكومة لتمويل محصول القطن على البنكنوت بعد انقطاع قدوم الجنيهات الذهبية اللازمة لتمويله ، ولما كان فرق السعر القانونى لأوراق البنكنوت لم يكن كافيا ، وللأفراد الحق فى مطالبة بنك الاصدار بصرف قيمة أوراق البنكنوت بالذهب ، لأجل هذا وذاك فرض السعر الالزامى لأوراق البنكنوت المصرية ، وكانت النتيجة هو الانتقال من مرحلة النقود الاختيارية الى المرحلة الالزامية ٠

زاد النقد المتداول ــ البنكنوت ــ فى مصر زيادة كبيرة ، وقد كان لوجود الجيوش التابعة للامبراطورية البريطانية فى مصر عاملا كبيرا فى الاقبال على أموال البلاد اقبالا غير معتاد فتقول صحيفة السفير « ان وجود عدد كبير من الجنود البريطانيين فى البلاد عاد بالنفقات الكثيرة على مصر ولم تقتصر الفائدة على المدن والجهات التى حشد فيها الجند ، بل ان طلبات الجيش العديدة التى تبادلت العمال والعلف والمؤن والنقليات والمهمات على اختلاف أنواعها أوجدت حركة رائجة فى مصر » (٣) ٠

كذلك كان لارتفاع أسعار القطن من ١٤ ريال سنة ١٩١٣ الى ٣٨ ريال ١٩١٦ الى ٩٠ ريال سنة ١٩١٩ عاملا آخر فى زيادة البنكنوت ، وفى الامكان تقدير الزيادة فى الموارد المالية فمثلا كانت تؤخذ أرقام ميزان التجارة من صادر ووارد ــ وقد زادت الصادرات على الواردات وكان الميزان التجارى فى صالح مصر ــ يضاف اليها المبالغ التى وردت البلاد للحاجات العسكرية فتبين الزيادة الملحوظة فى البنكنوت ، أيضـا زادت المبالغ المودعة فى البنوك وفيها استخدم

---

(١) Récueil des doc. 3 Août, 1914.

(٢) جاد لبيب : بناء الاقتصاد المصرى والعلاقات الاقتصـادية والمالية بين مصر وانجلترا ، ص ص ١٨١ ، ١٨٢ ٠

(٣) السفير ٢ مايو ١٩١٦ ٠

لوفاء الديون ثم فى الزيادة فى رؤوس الاموال المشغلة فى الخارج . وعلى سبيل المثال فقد زادت رؤوس الأموال المصرية بعد اعلان الحرب بسنتين ونصف زيادة تبلغ نحو ٣٠ مليون جنيه ، وفى هذا المبلغ زيادة عشرة ملايين فى السندات المحفوظة مقابل اصدار أوراق البنكنوت (١) .

من هذا نرى بداية انخفاض قيمة النقد الورقى وازدياد الطلب على العملة المصرية لشراء القطن ثم لارتفاع أسعاره ولتغطية احتياجات القوات البريطانية ثم ازدياد الصادرات على الواردات بسبب ذلك كله ـ وطبقا لقانون جريشام ـ أن اختفى الذهب من التداول لأنه أضحى عملة جيدة وأصبح البنكنوت وهو النقود الرديئة الأداة الرئيسة للتعامل .

ولما زاد النقد المتداول ولم يقابله الرصيد الذهبى بل لم يستطع مصر صرف رصيد فى الحصول على السلع الأجنبية فأوجد هذا الوضع حالة من التضخم المالى وهو مرض نقدى عبارة عن الزيادة غير الاعتيادية فى كمية النقود المتداولة ومن نتيجته أن يعترى الوحدة النقدية انخفاضا فى قوتها الشرائية ، وأصبح البنك الأهلى لا يحول البنكنوت بالذهب ، والعملة المصرية غير قابلة بأن تستبدل بالذهب ، وصار الفلاحون ـ والمصريون عامة ـ ملزمين بقبول البنكنوت (٢) فى التعامل بأى مقدار وبدون قيد أو شرط وحل الجنيه الانجليزى محل العملات المصرية والأجنبية فى التداول .

وقد قاسى الشعب من تداول هذه الأوراق فلم يكن معتادا عليه أن يستبدل العملة التى كان يستعملها هو وآباؤه وأجداده بعملة أخرى وكثرت الحوادث التى دلت على جهل المصريين لاستعمال هذه العملة فلم يكن المصرى يتصور كيف اختفى الجنيه الذهب من جيبه وحل مكانه قطعة من الورق فاعتبر أن الدنيا قلت خيراتها باختفاء الذهب من يده وبغلاء الأسعار ، فالمصريون جميعا لا يودون التعامل بالورق حتى المتمدين لا يثق الا بالذهب والفضة فما بال الفلاح القروى الذى لم ير فى مدة حياته هذا الورق واذا قيل له ان « الفلوس أبدلت بالورق سخر من قائله وضحك ولا يمكن أن يصدقه » (٣) وراحت الحكومة تسن قوانين العقوبات لمن لا يقبل التعامل بهذا الورق .

وتعددت الحوادث وامتلأت بها صحافة الفترة فقد حدث أن ثلاثة أشخاص قطعوا ورقة بنكنوت ذات عشرة جنيهات الى ثلاث قطع متساوية لكل واحد منهم

---

(١) Récueil des doc. officielle, 1917, 12 Avril 1917.

(٢) Crouchley, A. : The economic development of modern Egypt, p. 189.

(٣) الافكار ٦ أغسطس ١٩١٤ .

قطعة(١) وتقول الشعب : « ان أوراق البنكنوت كثرت ويرى الجمهور مصاعب في صرفها ومنهم من دفع عشرة قروش عن ورقة ذات خمسة جنيهات » (٢) .
وتذكر الاهرام : « أن الحمار أكل رغيف صاحبه وكان في الرغيف ورقة بعشرة جنيهات . وقالوا ان رجلا كان وضع الورقة ثمن قطنه الى جانبه فأخذتها امرأته وأحرقتها تحت ابريق الشاى ، وحدث أن وجدت امرأة تحت وسادة زوجها ورقة نقدية فاعتقدت ان أحدا يسحر لها ليبعد عنها زوجها فأخذتها وحرقتها ورمتها في الترعة »(٣) .

واشتد الاقبال على الفضة مما أدى الى ندرة هذه العملة الصغيرة ، فتقول الأهرام . « أما الأزمة الفضية فيشكو من اشتدادها الخاص والعام في هذه الأيام وكثير من التجار يحرمون من أشياء كثيرة لعدم وجود نقود فضية عندهم لاكمال ما يدفع لهم من الأوراق ، فاذا اشترى المشترى بضاعة بثلاثين قرشا وأعطى التاجر ورقة بقيمة خمسين قرشا لا يجد التاجر في خـزانته عشرين قرشا فضة لتسوية الحساب فيضطر الى استرداد المبيع »(٤) .

ونتيجة لازدياد الطلب ارتفع مقدار ما ضرب من هذه العملة من ٢ مليون جنيه ١٩١٤ الى ٧ مليون جنيه في فبراير سنة ١٩١٨(٥) ، هذا بالرغم من أن العملة الفضية عملة خصوصية وكان من المفروض ألا تصيبها الأزمة ، وقد أرجع السبب في الأزمة الفضية هذه الى وجود القوات الانجليزية في مصر ، فازداد الطلب عليها . هذا بالاضافة الى أجر العمال الذين استخدمتهم السلطة العسكرية . وأخيرا اضطرت الحكومة الى ادخال كمية من الروبيات الهندية .

وطلب بنك انجلترا من البنك الأهلى الموافقة على احلال السندات البريطانية محل الذهب كرصيد لاصدار البنكنوت ، وتبع ذلك أن أخذ نظام العملة المصرية ينتمى الى نظام الاسترليني وتحول عن قاعدة الصرف بالذهب .

وهكذا أجازت الحكومة المصرية للبنك الأهلى حق اصدار أوراق بنكنوت من غير أن يكون ملزما بالاحتفاظ في خزائنه بما يعادل نصف قيمتها من الذهب — وبمقتضى هذا تمكنت انجلترا من الحصول على النقد المصرى اللازم لها لشراء محصول القطن وغيره من الغلات المصرية ثم لسداد نفقات جيوشها بالقطـر المصرى دون أن تصبح بها حاجة الى التنازل عن جزء من الذهب الذى في حوزتها، ولا ريب أن مثل هذا الوضع جعل في يدها قوة شرائية لا حد لها (٦) — وثبت

---

(١) الأهرام ٣ أغسطس ١٩١٤ .
(٢) الشعب ٩ أغسطس ١٩١٤ .
(٣) الأهرام ٢١ يناير ١٩١٥ .
(٤) نفس المصدر ٦ فبراير ١٩١٥ .
(٥) Crouchley : op. cit., p. 206.
(٦) د. راشد البراوى : المرجع السابق ، ص ٢٠٦ .

سعر صرف الجنيه المصرى الاسترليني رسميا . فالبنك الأهلى أصبح مستعدا للقيام بالتحويلات دون تقاضي تكاليف تزيد عن أجر البرقية والمصاريف الفعلية هذا بالاضافة الى اطلاق حرية تحويل أحد النقدين الى الآخر بسعر التعادل ٩٧٫٥ قرشا دون قيد أو شرط ، كذلك قرر وزير المالية أن « الونيتو » يقبل في المعاملات على أن يكون تداوله اختياريا بسعر ٧٧٫١٥ قرشا وأن تقبله الخزانة المصرية دون قيد أو شرط ، وبهذا أصبح هناك فرق بين الجنيه المصرى وبين الونيتو اذ أصبح الجنيه الانجليزى له سعر قانونى بينما الونيتو له سعر اختيارى ، كذلك تقرر تداول الجنيه الانجليزى بقانون بينما الونيتو بقرار وزارى (١) .

وبهذا أصبح اصدار البنكنوت في مصر يتم مقابل تسلم البنك الأهلى أذونات الخزانة البريطانية أو ايداع جنيهات استرلينية لحساب البنك في لندن وبذلك انقضت الرقابة على البنكنوت المصدر وارتبط الجنيه المصرى بالاسترليني، وتعرض الاقتصاد المصرى لأى اضطرابات نقدية في انجلترا فمثلا عندما تدهورت قيمة الجنيه الانجليزى بالنسبة للذهب في نهاية الحرب العالمية الأولى تدهورت بالتالى قيمة الجنيه المصرى (٢) وحينما صدرت انجلترا مقادير كبيرة من الذهب لسداد ديونها انخفضت الى أبعد مدى قيمة وحدة عملتها . ومن المساوئ أيضا أن بيع القطن كان بسبب هذه القروض مرتبطا مقدما والى حد كبير بالسوق البريطانى ، كما أن مصر لم تكن في نهاية أجل هذه القروض تجد غير صادراتها ـ القطنية في الغالب ـ لتسدد بها ما عليها (٣) .

وهكذا قضى على سوق مصر المالية وتحول عماد التعامل من الوحدة المعدنية الذهبية الى الوحدة الورقية الالزامية ، وأصبح أساس الثقة والاعتمادات ووثائق الائتمان معتمدا على الوحدة النقدية الاسترلينية بدلا من الذهب ، وبذلك غدت مصر جزءا من الكتلة الاسترلينية وسيطرت انجلترا على المعاملات في داخل مصر وخارجها اذ أصبحت مصر لا تستطيع أن تستورد ما يلزمها الا من منطقة الاسترليني . وكنتيجة للاجراء النقدى السابق ازداد التضخم المالى ، فقد ترتب على تثبيت سعر الصرف بين انجلترا ومصر أن ارتبط الجنية المصرى بالانجليزى وبالتالى أصبح البنك الأهلى يشترى الكمبيالات المسحوبة على لندن بسعر التعادل ثم يصدر مقابلها أوراقا نقدية في مصر ويودع ما يعادلها من أذونات الخزانة البريطانية . وقد نجم عن هذا التضخم ارتفاع نفقات المعيشة اذ زادت من ١٠٠ سنة ١٩١٣ الى ٢١٢ سنة ١٩١٨ (٤) .

(١) د. محمد فهمي لهيطة : تاريخ فؤاد الاول الاقتصادية ، ص ١٠٤ .
(٢) د. محمد عبد العزيز عجمية : دراسات في التطور الاقتصادى ، ص ٢١٤ .
(٣) د. جاد لبيب : المرجع السابق ، ص ١٨١ .
(٤) National Bank, p. 52.

وقد أرجع كل هذا الى عدم وجود نظام مصرفى مصرى مستقل ينظم علاقة المصارف كلها ويجعلها تحت اشراف بنك مركزى ، فكان من نتيجة ذلك عدم استقرار سياسة الائتمان كذلك كانت البنوك فى مصر متخصصة فى تمويل التجارة الخارجية وفى أعمال الرهونات فحرمت الزراعة والصناعة من الحصول على الأموال اللازمة لها بأسعار فائدة معقولة (١) ٠

ظل تفضيل الجمهور للنقود المعدنية ظاهرا باستمرار الطلب عليها ـ بالذات الفضة والنيكل ـ وقد لاقت الحكومة مصاعب كبيرة دون الحصول على اللازم من النقود الجديدة لسد الطلبات ، فرغم استيرادها للروبيات الهندية ظلت الحاجة لذا ضربت نقود جديدة ، ففى أكتوبر ١٩١٦ وجه السلطان حسين خطابا الى نائب الملك طالبا التصريح للحكومة المصرية بضرب نقود جديدة ورغم أن كل دولة ـ من المفروض ـ أن تكون حرة فى اصدار عملتها بالشكل الذى تراه وبالرسم الذى تفضله الا أن انجلترا ـ ككل اجراء لها ـ لم تدع لمصر الحرية فى ذلك وانما قيدتها فى صك هذه العملة وفى رسمها ووزنها وسعر تداولها (٢) ٠

من هذا نرى الى أى حد ساءت حالة السوق المالية ، وانتشر مبدأ القرض انتشارا عظيما وقد أرجع ذلك الى أن الأموال التى بالسوق المالى بمصر أجنبية والذين يديرون دفتها أجانب ، فليس بين البنوك العديدة فى مصر بنك يعتبر وطنيا ، فكلها ملك للمساهمين الأجانب أو فروع لبنوك أوربية ، فأى أزمة خارجية يكون لها أصداءها القوية فى مصر ، هذا بالاضافة الى طريقة التقييد الخاصة باصدار الأوراق المصرفية ـ البنكنوت ـ ذلك أن الاصدار قاصر على مصرف واحد وهو البنك الأهلى ، وبما أن مقدار النقود يتغير فى فصول السنة تبعا لحركة الأسواق المالية الأجنبية فكان حقا أن تتبع فى اصدار الأوراق المصرفية هذه طريقة وسط بين الاباحية والتقييد حتى يمكن التمكن من زيادة هذه الأوراق أو انقاصها حسب ما تقتضى الحالة (٣) ٠

مع بداية الحرب ظهرت دعوة جديدة تهاجم الوضع المالى للبلاد وتطلب الاستقلال المالى والاقتصادى فتقول الجريدة : « الواقع أن علاقتنا المالية بالدول المحاربة علاقة تابع ومتبوع ، فاننا فى سوقنا المالية لسنا الا غرباء ، ان حالتنا المالية فى السوق المصرية حالة منفعلة غير فاعلة وتابعة غير متبوعة لأنه ليس لنا فيها رأى مسموع ولا فعل ما ، فالذعر لحقه ثقة الناس بالبنوك الأجنبية التى هى البنوك الوحيدة فى مصر » (٤) ٠

---

(١) د٠ محمد عبد العزيز عجمية : المرجع السابق ، ص ٢١٥ ٠
(٢) الوقائع المصرية ١٩ فبراير ١٩١٦ ٠
(٣) الحال ٢١ يوليو ١٩١٧ ٠
(٤) الجريدة ٤ اغسطس ١٩١٤ ٠

وتسطر الشعب : « لو كانت تلك المصارف مصرية لما أقفلت ولما تأخر بعضها عن دفع الأموال التي هي حق شرعي من حقـــوق الوطنيين ولو كانت حقيقة مصرية لاستمرت الأعمال في سيرها ولما توقف تيار الحركة كهذه الأيام السيئة . لو كان لنا بنك وطني يدير عملة في بناء البلد لكان الآن في بحبوحة من العيش ترفع باسم ذلك المصرف الوطني وتقترض منه في تلك الأزمة حتى تنتهي الحرب » (١) ٠

وتبعتهما بقية الصحف في ضرورة انشـــاء بنك وطني لحمايـــة الحياة الاقتصادية والمالية في مصر وقد أخذ طلعت حرب منذ بداية الحرب يدعـو وينادي لانشاء بنك وطني وكان قبل الحرب قد أسس شركة التعاون المالي ، فلما انعقدت الجمعية العمومية لهذه الشركة في شهر مايو ١٩١٥ وقف فيهـا خطيبا وأخذ يتكلم عن شئون البلاد الاقتصادية وما أصابها بسبب اعتمادها على الغير في كل معاملاتها وعدم اعتمادها على نفسها بانشاء المصارف والبيوت المالية وأظهر مساوىء البنوك الاجنبية وبين ضرورة مساهمة الرأسمالية المصرية في تأسيس بنك مصري (٢) ٠

أما عن دور السلطة العسكرية بالنسبة للبنوك أثناء الحرب فانها لم تخفف يدها وسلطت سلطتها عليها وتدخلت في أمورها ، ومن مظـــاهر هذا التدخل حظرها على هذه البنوك دفع مبالغ مباشرة للأشخاص المعتقلين بمصر الا بتوقيع قومندان المعسكر الذي يكون صاحب (الشيك) معتقلا فيه (٣) ، وقد حظرت هذه السلطة أيضا على تلك البنوك معاملة الموجودين في بلاد أعدائها بمقتضى منشور أصدرته في ٢٥ يناير ١٩١٥ ٠

وقد حددت السلطة بمقتضى اعلان عرفي صادر في ١٣ يونيه ١٩١٦ شكل الاقرار الذي يجب على كل شخص مكلف بدفع الأرباح الخاصة بالسندات التي لحاملها أو يدفع قيمة السندات المستهلكة أن يطلب تقديمه من المنتفع ٠

وبالنسبة لمالية الدولة ، فقد تأثرت الحكومة بقيام الحرب تأثرا كبيرا ، فالدولة تعتمد اعتمادا كليا على القطن في اقتصادها ، ومنذ أن بدأت الحرب هبطت أسعاره ونقص محصوله وهو أهم صادرات مصر ٠ وكان من نتيجة ذلك وقوف الحركة التجارية ، ومن هنا ضعفت ايرادات الخزانة ، وظهر العجز جليا ، وأبواب هذا العجز كانت متعددة فالرسوم الجمركية هبط دخلها هبوطا فاحشا وكادت تقفل أبوابها بسبب وقوف حركة التجارة والنقل وقطع العلاقات مع أعداء انجلترا ، ورسوم الموانى والمنائر مسها الضرر وذلك لتناقص عدد السفن

---

(١) الشعب ١٧ أغسطس ١٩١٤ ٠

(٢) وادي النيل ٢٨ مارس ١٩١٥ ٠

(٣) الوقائع المصرية ، ٢٨ أكتوبر ١٩١٥ ٠

التجارية التى تطرق ثغور مصر البحرية ، والرسوم الفضائية والفيدية التى كان نقصها لقلة المعاملات التى تدعو الى التقاضى وقلة عقود نقل الملكية عدا بالاضافة الى صدور الأمر العالى بتأجيل القضايا وتوقيف الأحكام بالبيع الجبرى ، وأخذت أيضا أبواب ايرادات السكة الحديد تنقص من خمسة عشر ألف جنيه يوميا الى خمسة آلاف ، اذ تأثرت من عجز محصول القطن وجمود حركة المبادلات التجارية ، فمنذ الثالث من أغسطس ١٩١٤ قررت مصلحة السكة الحديد أن تنقص عدد قاطرات الركاب والبضائع وقللت سرعتها خشية أن يطول زمن الحرب وينفذ الفحم الذى فى مخازنها مع عدم استطاعتها جلب فحم من أوربا اما لتعذر نقله أو لغلاء ثمنه (١) ، كذلك أوقفت المصلحه الأعمال الهندسية فيها وذهبت الى أبعد من ذلك اذ أغلقت بعض محطاتها ، واقتصدت فى المواد والأدوات التى تصنع منها المركبات لارتفاع ثمنها (٢) ، ونقصت أيضا ايرادات البريد والتلغراف التى أثر فيها وقوف دولاب الأشغال بوجه عام . ومس النقص ايجار الأملاك الاميرية ومتحصلاتها التى تأثرت من جراء هبوط أسعار القطن .

وأرسلت وزارة المالية لجميع المصالح تطلب الاقتصاد الكلى فى المصروفات العمومية ، وأوقفت زيادة الاعتمادات لكل وزارة وكل مصلحة (٣) ، وبالتالى بدأت الوزارات فى الاقتصاد فى نفقاتها ، فقررت وزارة الأوقاف توقيف جميع أعمال المبانى والاكتفاء بعمل الترميمات الجزئية التى تستلزم نفقات كثيرة . وتبعتها بقية الوزارات ، فأوقفت وزارة الاشغال معظم أعمالها الخاصة بالرى ، وأوقفت كل العقود الخاصة بالمصارف والسدود وبالذات فى منطقة الوجه البحرى وذلك بسبب نقص الايرادات ، وذهبت الوزارات الى أبعد من ذلك فوفرت العدد الكثير من مستخدميها حتى أن الاهرام تقول : « أملنا أن ترأف الحكومة بهؤلاء المستخدمين وتتصور الحالة التى يصيرون اليها وهم وعائلاتهم فى الحال الحاضرة من الضيق والعوز فتعدل عن هذا القرار » (٤) . وعلى الفور كونت لجان خصوصية لدرس احتياجات كل وزارة فى هذه الظروف الصعبة .

وفى أول مشروع ميزانية عام ١٩١٥ نقصت الايرادات عن العام الذى قبله مبلغ ٢٫٨٣٢٫٠٠٠ جنيه ، أما المصروفات فقد وفرت المالية ١٢٫٠٠٠ جنيه من بند الماهيات والأجور والمرتبات بسبب الغاء بعض الوظائف ومنع الترقيات.

---

(١) الوطن ٦ أغسطس ١٩١٤ ، ١٨ يناير ١٩١٥ ، ١٦ مايو ١٩١٧ ، الاهرام ٣ ، ٦ أغسطس ١٩١٤ .

(٢) الوطن ١٦ مايو ١٩١٧ .

(٣) Public works ministry; Irrigation service, Basin, cnnversion works, Filé no 36 1/15, October 1, 1914.

(٤) الأهرام ١٨ أغسطس ١٩١٤ .

العلاوات(١) وانخفض معدل اصدار الصحف وعدل عن انشاء المدارس وأوقفت البعثات العلمية والغيت اعانات الطلبة وأقفلت المعامل الخاصة بالمصل واقتصد في اعداد المسجونين(٢) ·

اما عن الزيادة فقد كانت الحربية لها النصيب في ذلك بسبب دخول مصر الحرب وأيضا زيد البوليس ومجلس الوزراء والجمعية التشريعية والدواوين(٣) ·

وهذه الزيادات لم تكن من مصلحة المصريين الذين طـــردوا من أعمالهم واصبحوا لا مأوى لهم ·

وفي عام ١٩١٦ زادت ايرادات الدولة من السكك الحـديدية والجمارك والدومين والبريد والأرباح الناجمـــة عن مبيع القطن واصــــدار البنكنوت وسك نقود فضية · أما المصروفات فقد نقصت حتى أنهــا تركت مجالا لاجراء اقتصاد كلى شمل جميع المصالح الأميرية(٤) · فألغيت كثير من الوظائف ، وكثير من الأعمال أصبحت مربوطة لحساب السلطة العسكرية كمصلحة المساحة والمطبعة الاميرية · وبالرغم من هذا الاقتصاد الا أن وزير المالية كـــان كثيرا ما يرسل للمصالح والوزارات يطلب المزيد والمزيد(٥) ·

أما ميزانية عــام ١٩١٧ فارتفع فيهــا رصيد الدولة ، وأصبح دخل مصر الصافي الذى قدر ب ٣٥ مليون جنيه يستغل فى قروض حرب الحلفاء ، ووضعت السياسة الادارية تحت تصرف السلطة التى « ساعدت الانجليز بينما أهملت العناية بالأشغال العامة التى تخص البلاد »(٦) وازدادت بعض الايرادات فى هذه الميزانية بسبب ارتفاع الاسعار وانصبت على الجمارك والسكك الحديدية والاملاك الاميرية · وبالنسبة للمصروفات فقد ازدادت بفتح اعتمادات اضافية وارتفــاع الأجور ومصاريف الاشغال العسكرية للجيش وانشاء فرق جديدة وثكنات(٧) ·

وفى ميزانية عام ١٩١٨ ارتفعت المصروفات فيها بسبب أعمال الحــرب وتصاعد الأسعار ، كما توقفت معظم الأعمال للاقتصاد هذا من ناحية ، ومن أخرى فان طلبات السلطة العسكرية للعمال جعلت كثيرا من الاعمال توصــد أبوابها (٨) وأصبح الفرق واضحا بين سنوات الحرب وسنوات ما قبل الحرب ،

---

(١) Récueil des doc. off 26 Mars, 1915.

(٢) الوطن أول سبتمبر ، ٥ أكتوبر ١٩١٤ ، الأهرام ٢٨ نوفمبر ١٩١٥ ·

(٣) الأهرام ٣ فبراير ١٩١٥ ·

(٤) Récueil nes doc. off. 27 Avril, 1916.

(٥) وزارة المالية ، اداره عموم الحسابات ، ٢١ أكتوبر ١٩١٦ ، منشور ٣٩ ، ملف ٣٥/١٠٩ ·

(٦) Lloyd : op. cit., pp. 236, 237.

(٧) Récueil des doc. off, Avril, 1917.

(٨) Ministry of public works, Inspection general of Irrigation Lower Egypt, filé no 87, 13/1 g, general correspondence 1918-1919, February 2, 1918, pp. 140, 141.

فايرادات مصر ومصروفاتها ارتفعت فى عام ١٩١٨/١٧ الى ٢٣٫١٦٦٫٠٧٤ جنيها ، ٢٢٫٢٩٦٫٩٤٨ جنيها بينما كانت فى عام ١٩١٤/١٣ هى ١٧٫٧٠٣٫٨٩٨ جنيها ، ١٧٫٦٥٩٫٩٦١ جنيها كذلك الاحتياطى ، فقد وصل فى ابريل ١٩١٨ ما يبلغ ٦٫٧٧٠٫١٧٩ جنيها بينما كان فى ابريل ١٩١٤ هو ٥٫١٠٣٫٥٤٩ جنيها (*) .

الزراعة :

(أ) القطن :

اعتمدت مصر فى اقتصادياتها ـ منذ وقت طويل ـ على القطن ، حيث يعتبر أهم الحاصلات الزراعية بها ، وهو يساهم فى ثروتها مساهمة فعالة ، وتتأثر ماليتها به ، فاذا كان محصول القطن جيدا ووزع فى الاسواق العالمية عاد هذا على مصر بالذهب وغطى ايراداتها ومصروفاتها .

وفى حقيقة الأمر فانه منذ أن احتلت انجلترا مصر وهى دائبة على العمل للنهوض بزراعة القطن حيث كان من أهم مبادئها جعل مصر مزرعة لها وموردا هاما يمد مصانعها فى لانكشير بالقطن المصرى اذ كانت دائما وأبدا فى حاجة ماسة اليه واعتمادها الكلى منصب عليه ، وقد ساعدها على ذلك سيطرتها على مصر وتصرف مستشاريها فيها كما لو كانت مصر من ضمن ممتلكات التاج البريطانى ، ومن هنا أصبحت انجلترا لها اليد العليا فى توجيه سياسة مصر الزراعية .

قامت الحرب العالمية الاولى ، وخضعت اقتصاديات مصر ـ ومنها القطن ـ لظروف خارجية وداخلية أثرت عليها تأثيرا واضحا . فباعلان الحماية البريطانية على مصر أصبحت انجلترا المتصرفة الوحيدة فى شئون مصر وسيطرت سيطرة تامة على الحكومة التى وضعتها لتمثل خيال المآتة فى جميع شئون مصر ومصالحها، فياترى كيف كانت السياسة القطنية للحكومة المصرية؟ أو بمعنى أصح سياسة مستشاريها الانجليز خلال سنوات الحرب ؟ هل كانت مستوحاة من مصالح مصر الحقيقية ؟ أو كانت تطبيقا معتدلا للمبادىء الاقتصادية التى بفضلها حلت الأزمات الكثيرة والخطيرة التى سببتها الحرب فى كثير من البلاد المحاربة والمحايدة ؟ واذا لم تكن هذه السياسة قومية بحتة ، فهل كانت على الاقل عادلة فيها مراعاة لمصالح المصريين ومصالح الانجليز على السواء ؟ أو انها ضحت باستمرار بمصالح مصر فى سبيل مصالح انجلترا ؟.

سنجد الجواب على هذه الاسئلة ونحن نعدد الاحداث الرئيسية

(*) The Times, Nov. 12, 1919.

الخاصة بالقطن والتى جرت بمصر أثناء هذه الحـرب ، والحلول التى كانت غالبا غريبـة وأحيانا متعارضة ، وطبقت على مختلف المشـاكل القطنيـة ونتجت من سياق هـذه الأحـداث ، كهبـوط أسعار القطن ، وغل السلطات يدها عن العمل ، ثم تدخلها وتحديد المساحة المزروعة قطنا والرقابة عليه ، وفرض الاحتكار على الصـادرات وشح وسائل النقل وشـراء جميع حاصل بذور القطن وما يتبعه من شراء جميع الحاصل القطنى نفسه ، والغاء السعر الأدنى فى أثناء الهبوط الذى حددته لجنـة البورصة ، وفرض ضريبة على القطن عندما ارتفع سعره ، واغلاق بورصة البضائع ٠

ومن خلال هذه الوقائع سيمكن الحكم على السياسـة القطنيه التى اتبعت أثناء الحرب العالمية الأولى بمصر فى مجموعها ٠

كان من الطبيعى أن ينعكس الاضطراب الاقتصادى العالمى الناشىء عن شهر الحرب فى أوربا تأثيره فى سوق القطن المصرية ، وقد كان هذا التأثير من البلاغة بحيث ابتدات الحرب فى أول أغسطس ١٩١٤ غداة جنى القطن ، ولما كانت الدول المتحـاربة فى أوربا هى التى تستنفذ القسـم الأوفر منـه ، ومن النتائج الطبيعبة أن يكون لها فى هذا المحصول تأثر شديد الوقع ، فأول نتيجة ترتبت على افتتاح الاعمال الحربية هى حدوث النقص العظيم فى طلب القطن ، وحينئذ ظهر للعيان أمران أحدهما أن محصول القطن يزيد عن الطلب زيادة كبيرة اذ بلغ المحصول ثمانية ملايين قنطار فى حين أن المطـلوب منه خمسة ملايين قنطار ، أما النتيجة الثانية فهى أن فريقا كبيرا من المزارعين لم يكن فى وسعه اطلاقا تصريف محصوله (١) اذ قل الاقبال على القطن المصرى تبعا للقيود المفروضة بسبب الحرب وصعوبات النقل البحرى بعد أن أصبحت الطرق التجارية معطلة اذ أنها تعتمد على الطريق البحرى وبذلك أوقف دولاب التجارة .

تبع ذلك أن تدهورت الأسعار فى البورصة تدهورا عظيما وذلك بسبب خوف مستوردى الاقطان المصرية فى البلدان الاجنبية من خلق الاسواق التى يبيعون فيها منتجاتهم ، ومن هنا أصبحت البـلاد عن بكرة أبيها فى أشد حالات الضنك والقلق ، فقد انخفض سعر القنطار من نوع «الفـولى جودفيربرون العفيفى» انخفاضا مطردا ، فمن ١٨½ ريال لسعر القنطار الى ١٠ ١/٢ ٣/٤ ريال (٢) ، وامتنعت البنوك فى أثناء ذلك عن التسليف واستحوذ الخوف على

---

(١) الشعب ٢ أكتوبر ١٩١٤ ٠

(٢) الأهرام ١٥ سبتمبر ١٩١٤ ، ٢١ مارس ١٩١٥ ٠

البنوك العقارية وسائر محال الرهونات والمقرضين فبادر الجميع الى الحصول على ديونهم ، فصار الفلاح فى أقل من أسابيع فى غاية الحيرة وقارب الأشراف على الخراب ، وتبعا لذلك أقفلت بورصة مينا البصل مدة شهر اغسطس ووقف البيع فيها وهى بورصة البيع والشراء للبضاعة وتسيطر على ثروة البلاد الزراعية فمعنى اقفالها تعطيل جميع الأعمال التجارية . ثم أعيد فتحها فى شهر سبتمبر بعد أن ظلت معطلة خمسة وأربعون يوما ولكن رغم فتحها الا أنه لم يتم فيها بيع أو شراء يذكر وكل ما جرى هو بعض اعمال للبيع على الكونتراتات من القطن الصيفى بسعر ١٤ ريال ومن الجود فير بسعر ١٣½ ريال ومن الفولى جود نوبارى بسعر ١٤ ريال ، وبيع بعض القطن العادى الوارد من الوجه القبلى بسعر ١١ ريال . وقد كانت الأعمال قليلة جدا حتى لم تجد لجنة البورصة موجبا لاعلان الأسعار الرسمية (١) وتصور صحيفة المحروسة الحالة بقولها : « ويؤخذ من الأقاليم أن بعض صغار الفلاحين الذين استحكمت لديهم حلقات الضيق المالى عرضوا أن يبيعوا قطنهم بـ ١٠ ريالات على أن يسلفهم الشارى عشرين جنيها الى ما بعد جنى القطن فأبى الشارى هذه السلفة » (٢) .

وكان لابد من اتخاذ اجراءات سريعة لتفادى آثار هذا الاضطراب الشامل بقدر الامكان وتجنيب الفلاح الاضطرار الى بيع قطنه بأقل من قيمته الفعلية وأدركت لجنة بورصة البضائع بالأسكندرية هذا الأمر ، فقررت منذ يوم ٦ أغسطس ١٩١٤ تصفية كونتراتات القطن بسعر ⅜ ١٥ ريال ، ولكنها فعلت ذلك دون أخذ رأى المستشار المالى ـ ادوار سيسل ـ الذى كان وقتئذ خارج مصر والذى ما أن عاد حتى أسرع بالغاء هذا القرار (٣) .

وفى ٣ سبتمبر ١٩١٤ عطلت بورصة البضائع بالأسكندرية تعطيلا وقتيا بسبب الأحوال الطارئة واقفال بورصة ليفربول ونيويورك وذلك لتحفظ لكل من البائع والمشترى حريته فى أثناء العطلة (٤) وتدخلت الحكومة فى الأمر اجابة لطلب الرأى العام بأسره اذ لم تكن لتجهل أن القطن يكاد يكون الثروة الوحيدة فى البلد ، فكل هبوط مفرط فى سعره يكون كارثة قومية .

ورأت المالية بعد بحث طويل أنه من الضرورى الاتفاق مع الماليين فى أوربا ومفاوضة الغزالين فى مقدار المقطوعية للمعامل من القطن المصرى ولاسيما انجلترا حيث كما هو معهود هى الدولة التى تستولى على قطن مصر ، فتقرر

---

(١) نفس المصدر ، ٢١ سبتمبر ١٩١٤ .

(٢) المحروسة ١٩ سبتمبر ١٩١٤ .

(٣) الأهرام ٢٧ اغسطس ١٩١٤ .

(٤) Récueil des doc. off.note surle Financial adviser, 1915 p. 126.

انتداب ثلاثة من كبار الماليين الأجانب للاتفاق مع أصحاب المعامل والماليين في لندن وليفربول ومنشستر لحل مسألة القطن (١) ٠

وكان الهدف الرئيسي لهذه البعثة تمويل محصول القطن الجديد ، والبحث عما اذا كان هناك طلب ما للقطن المصرى ، ويؤخذ مما أبدته اللجنة أنه من المرجح أن الصناعة القطنية فى العالم قد يتيسر للقائمين بها شراء خمسة ملايين من القناطير على ألا تأخذ هذا المقدار دفعة واحدة بل بطريق التدريج على فترات متفاوتة فى بحر سنة (٢) ٠

أصبح الشاغل الأول للحكومة والأمة تصريف القطن ، فجمعت الحكومة مجلسها الاستشارى فى وزارة الزراعة ، ودعت الغرفة التجارية أعيان البلاد وكبار ملاكها وفاوضتهم فى الامر ، فانتخبوا من بينهم لجنة تدافع عن مصالحهم (٣) ، وفوض اليها المفاوضة مع الحكومة والسعى لديها من جعل القيمة التى تسلف على كل قنطار لا تقل عن جنيهين وفى أن يكون التسليف لمدة كافية بعد انتهاء الحرب تسمح لأصحاب الأقطان بتصريف أقطانهم بأثمان مناسبة ، ويفوض اليها المفاوضة مع أصحاب الشأن والسعى لديهم فى تأجيل جانب من الديون التى تستحق فى ذلك العام وتقسيطها لمدد مناسبة وبفوائد معتدلة ٠

ودعت الحكومه رجال البنوك وكبار المزارعين وتجار الأقطان وآل الخبرة من كل مشتغل بالقطن الي اجتماع كبير عقدته فى الداخلية ، وكان الغرض من الاجتماع النظر فى مسألة محصول القطن ، وقد أبان المجتمعون أن المقدار الذى بيع من القطن لهذا العام ضئيل جدا ، وجرى البحث فى تدبير طريقة لاعطاء صغار الزراع النفقة التى تلزمهم لجنى القطن ونقله وشراء الأكياس على أن تؤخذ من ثمن أقطانهم بعد بيعها ، والعمل على بيع القطن بثمن موافق أو خزنه واعطاء زراعه مبلغا معينا من المال على كل قنطار منه ، وتقرر أن يعطى لكل قنطار أوراق مالية بقيمة جنيهين فى الوجه البحرى وجنيه ونصف فىالوجه القبلى ، وهذه الاوراق مضمونة بموسم القطن وان يودع القطن فى شون البنك الأهلى ومخازن الأسواق العمومية والحلقات الى أن تنفرج الأزمة (٤) ٠

وأخيرا وافق مجلس الوزراء على مبدأ شراء المليونين من القناطير ولكن المستشار المالى عارض بما كان له من حق المنع ، وقال ان هذا الاجراء لا يروق لانكشير ٠ وبصدور أمر جعل تداول ورق البنك الأهلى اجباريا فطفق البنك

---

(١) Conseil des ministres, 9 Octobre, 1915.

(٢) الأفكار ٢٠ سبتمبر ١٩١٤ ، الشعب ٢ أكتوبر ١٩١٤ ٠

(٣) الجريدة ٢٣ سبتمبر ١٩١٤ ٠

(٤) الغرفة التجارية ، ١٨ سبتمبر ١٩١٤ ، ص ص ٣٥ ـ ٣٩ ، الأهرام ١٦ ، ٢٠ أغسطس ١٩١٤ ٠

يزيد كميات ورقه النقدى ويحول الى لندن كل الذهب الذى كان البنك مضطرا الى الاحتفاظ به فى خزائنه ضمانا قانونيا ل ٥٠٪ من قيمة الورق المتداول ، فكان من نتيجة ذلك أن استطاع أصحاب مصانع الغزل فى انجلترا الحصول على ما شاءوا وما يكفيهم من القطن المصرى وبسعر منخفض جدا دون حاجة الى نقل ما يوازى قيمة الثمن ذهبا كما كانوا يفعلون قبل الحرب ، فأحرزوا بذلك ارباحا طائلة ، اما فى مصر فكان الامر على طرفى نقيض ، فقد اضطر الفلاح الى التنازل عن قطنه ب ٨ ريالات أو ٩ ريالات أى بسعر يقل عن ثمن التكلفة . ودفع الضريبة التى ألحت الحكومة بطلبها الى بيع ماشيته بل وحلى امرأته بأثمان بخسة ، واجتمع مجلس الوزراء وقرر فى ١٠ سبتمبر ١٩١٤ تعيين موظفين رسميين مثمنين فى العاصمة والأقاليم لتثمين الحلى والمصوغات لدفع الضرائب بقيمتها وذلك بعد أن ثبت انتهاز التجار فرصة بيع الذهب والاستيلاء عليه دون تثمين (١) .

لكن هذا لم يحل الأزمة ، فلم تتوان البنوك العقارية فى تحصيل قيمة الأقساط السنوية وتوالت الحجوزات ونزع الملكيات وبلغت مبلغا لم يسبق له مثيل فى التاريخ القضائى بمصر ، وفتح الباب على مصراعيه للمرابين ، ومصدرى الأقطان ، وكل هؤلاء من الأجانب فتحكموا فى السوق ، وفى الانتاج وفى تحديد الأسعار وراح الفلاح ضحيتهم .

وتعالت الصيحات تطالب الحكومة أن تتدخل وتؤجل الديون التى حل ميعادها فى سنة ١٩١٤ ولو الى مدة عام واحد فلم تأبه لذلك ، هذا فى الوقت الذى أجلت فيه دفع الديون التجارية والأوراق المالية فى حين أن ديون المزارعين كانت أولى بالتأجيل من الديون التجارية .

وراحت الحكومة تتصرف دون رحمة فى تحصيلها للضرائب ، فتقول الأهرام « ان الفلاحين فى سبيل دفع الضرائب اضطروا الى الاقتراض بفوائد فادحة أو بيع محاصيلهم بأثمان بخسة » (٢) ، أما الشعب فتقول « قامت الحكومة تطالب بالأموال الأميرية من غير تساهل فعظم الضيق والزراع ليس لديهم نقود يجنون بها أقطانهم فكيف يتسنى لهم أن يدفعوا الأموال الأميرية وما خفى ذلك على الحكومة بل أنها تعلم جيدا حتى أنها استعدت لتشترى مصاغ نساء الزراع ، وهذه الأمور رآها الناس فى زمن حكومة اسماعيل باشا الذى اشتهر بجمع الأموال بطرق القسوة » (٣) ، وقد ارتفع عدد الحجوزات من ١٦٫٧٠٧ سنة ١٩١٣ الى ٤١٫٩٩٦ فى سنة ١٩١٤/١٩١٥ ورغم هذه

---

(١) الاهرام ٢٧ مارس ١٩١٥ .
(٢) الأهرام ٤ أكتوبر ١٩١٤ .
(٣) الشعب ٤ نوفمبر ١٩١٤ .

الظروف الصعبة رفضت الحكومة جباية الضريبة عينا حتى لقد بلغ ما جمعته الحكومة فى سنة ١٩١٤/١٩١٥ ما يقرب من ٤٫٨٩٦٫١٣٠ ج٠ م٠ (١) ٠

وبذلك اشترك الفلاح فى الحرب اشتراكا ماليا بعد أن كان مرتاح البال ، هادىء التفكير ، زرع القطن وظن أن المحصول يصبح أحسن حالا مما كان عليه فى العام السابق للحرب وعلقت آماله بذلك فصرف عليه أكثر مما كان يصرف حتى نجاه من الآفات والندوات الأولى . واطمأن لما رأى قطنه حاملا من اللوز ما يجعله يقدر محصوله ضعف ما كان فى الأعوام السابقة ، ولكنه فوجىء بانتشار دودة اللوز انتشارا فادحا ، ثم اشتعال نار الحرب وما تبعها من غلق البورصة أبوابها ، فانتشر الفلاحون فى أنحاء البلاد يبحثون عن مشترين لقطنهم ويتساءلون بعضهم عمن يعلمه بمكان لتاجر قطن « فتراهم يدخلون بيت التاجر أفواجا أفواجا يتسابقون لعرض بضاعتهم وذلك التاجر البسيط يشتريه بثمن بخس » (٢) ٠ ورفعت العرائض الى الحكومة ومجالس المديريات تشرح ما وصلت اليه الحالة مثال ذلك العريضة التى رفعها محمد بك شريف عضو مجلس مديرية الدقهلية الى رئيس مجلس المديرية فمن أقوالها : «كان من أقرب نتائج الحرب الحاضرة منذ ابتدائها وقوف حركة الأعمال فى البلاد وتعطيل الأخذ والعطاء وتضعضع الثقة المالية فى المعاملات والسبب لوقوف حركة الأعمال الآن هو عدم تصريف محصول القطن على قلته ورداءته وذلك لعدم تحديد أسعار له حتى أن الفلاح أصبح فى حيرة بين أن يبيع وهو لا يعرف الثمن ، فيذهب محصول قطنه بأبخس الأثمان وبين أن يضن به وهو محتاج الى ثمنه ليسد به مال الحكومة أولا وعوزه ثانيا ٠٠٠ وان الحالة العمومية فى البلاد وبالنسبة لمحصول القطن وعدم تصريفه سيئة جدا » (٣) ٠

تفاقمت الأزمة والقطن مكدس ، وخشيت الحكومة أن تختل ميزانيتها ، فاضطرت الى اتخاذ قرارها لضمان تمويل محصول القطن عن طريق اصدار أوراق مالية اضافية من أجل تيسير عمليات شراء القطن عن طريق البنوك وتقديم سلفيات الى المنتجين ، وقرر مجلس الوزراء اصدار سندات على الخزانة فى لندن واصدار سندات أخرى فى مصر الى خمسة ملايين جنيه فى كل منهما بحيث لا يتجاوز المبلغ كله فى البلدين ثمانية ملايين جنيه منها خمسة ملايين بضمان الحكومة الانجلبزية وسندات وأسهم احتياطى مصرى (٤) ٠

قوبل ذلك القرار بارتياح ظنا منهم أنه يكفل سلامة مصر لكن سرعان

---

(١) Allenby : 'Report by her Majest's Agent, p. 16.

(٢) العدل ٢٥ نوفمبر ١٩١٤ ٠

(٣) نفس المصدر ١٨ أكتوبر ١٩١٤ ٠

(٤) Récueil des doc. off. 20 Octobre, 1914.

ما خاب الأمل فان الحكومة لم تشتر قطن صغار الفلاحين الملهوفين الا وفاء للضرائب المستحقة بأسعار فى حدود ١٢٠ جنيها ٠

رفض أكثر الفلاحين البيع لكونهم رأوا أن أسعار القطن بدأت تسير الى الأمام ولم يبع القطن رخيصا الا صغار الفلاحين الذين لم يكن فى استطاعتهم الصبر على الضنك والضيق (١) ولم تأت هذه الطريقة بالغرض المقصود الذى يدفع الخطر دفعا تاما لأن الحكومة لا تستطيع مشترى أكثر مما يحتاجه الفلاح لسداد الأموال الا القليل وهذا القليل لا يجعل لليسر محلا وعندما رأى البنك الأهلى أن يسلف على الأقطان اشترط أن يبلغ قيمة التسليف على القنطار ٢٤٠ جنيها اذا كان من النوع الجيد وأن تكون مدة السلفية سنة ٠

وقد بلغ ما خسرته مصر فى هذا الموسم بالنسبة لمحصول القطن ١٦ مليون جنيه ، هذا وقد ساعدت الظروف الطبيعية أيضا على هذه الخسارة، فعدم اكتمال الفيضان وقلة مياه الرى فلم يتجاوز ٦٫٨٧٨٫٠٠٠ قنطار مقابل ٧٫٦٦٤٫٠٠٠ عام ١٩١٣، ٧٫٤٩٩٫٠٠٠ عام ١٩١٢ فى مساحة تكاد تكون واحدة وقد أرجع ذلك الى الرى بالآلات الرافعة وأكثر هذه الآلات تدار بالفحم الذى زاد سعره وتضاعف وبهذا كلف الفلاح أكثر من أرباح الزراعة نفسها هذا بالاضافة الى ذلك النزاع الذى قام بين الملاك والمستأجرين بسبب قلة ما يلزم من النقود للبدء بالجنى وعدم وجود أكياس فارغة لجنيه ، والاضطرار أيضا الى جنى الأقطان دفعة واحدة بدلا من ثلاث دفعات كما جرى فى كثير من الزراعات غير القطن ، كما هاجمته الدودة القرنفلية ودودة اللوز وفتكت بالمحصول (٢) ٠

أما عن تجارة محصول قطن ١٩١٤ فقد صدر منه مليونا ، ٨٧٢٫٤٣٨ قنطارا مقابل ٣ ملايين ، ٢٥٩٫٧٤٨ قنطارا فى موسم ١٩١٣ ، والنقص كان يصدر الى المانيا التى استوردت عام ١٩١٣ من القطن المصرى ٢٫٥٦٦٫٦٣٣ قنطارا والنمسا استوردت فى نفس السنة ١٦٠٫٠٩٤ ، هولندا ١٣٫٥٠٠ وبلجيكا ٩٢٫٣٣٣ ، رومانيا ٢٤٤ ولهذه الدول لم يصدر قنطار واحد من محصول ١٩١٤ حيث قطعت الصلة معها (٣) ٠

أما بالنسبة لبذرة القطن فقد نزلت أسعارها ـ تبعا لنزول أسعار القطن ـ حتى أقفلت السوق بسعر حوالى ٦١ جنيها وأرجع ذلك الى رداءة نوع المحصول فى هذه السنة وارتفاع أجرة النقل بسبب قلة البواخر التى تنقل الصادرات ، وعدم وجود طلبات عليها من أوربا ثم عدم وجود مضاربين

---

(١) الأهرام ٢١ مارس ١٩١٥ ٠

(٢) المقتطف ، مجلد ٤٦ ، مايو ١٩١٥ ، ص ٤٩٨ ، الوطن ٢٦ أغسطس ١٩١٥ ٠

(٣) الأهرام ٢٣ يناير ١٩١٥ ٠

على الصعود وعلى سبيل المثال فقد صدر منها عام ١٩١٤ = ٧٩٫٤٧٥ أردبا مقابل ١٧٩٫٠٠٩ فى سنة ١٩١٣ (١) .

وأخيرات قررت الحكومة فى ٢٢ سبتمبر ١٩١٤ (٢) انقاص المساحه التى تزرع قطنا لانها رأت لو أصبح الفلاح مطلق التصرف فى زراعة القطن ، فان محصول سنة ١٩١٥ مثلا لن يقل عن سبعة ملايين قنطار وبفضله محصول ١٩١٤ لكان هناك عشرة ملايين ونصف قنطار من الاقطان .

غير أن قرار الحكومة هذا بزرع ربع الأرض قطنا كان يعنى زيادة مساحة زراعة الحبوب ومتى ازداد محصول القمح والذرة والشعير نقص ثمنه ؛ ازاء ذلك امتعض الملاك والمزارعون من هذا القرار لما فيه من تقليل دخلهم ونقص ايراداتهم ، فأخذ المستأجرون يطلبون من الملاك نقص الايجارات بواسطة السلطة القضائية ، وأخذ الملاك يتذمرون لأن الديون التى عليهم والأقساط التى يقومون بسدادها فى كل عام لا تسمح لهم بأن يسامحوا فى القيمة المقدره لايجارات أطيانهم من قبل ، لذلك رأت الحكومة أن قرارها هذا سيؤدى الى منازعات ومخاصمات لا تنقطع ، فأصدرت قرارا باستبدال زراعة الربع بزراعة الثلث (٣) .

وقد وافق على هذا القرار الجميع لأن كثيرين من الملاك كانوا يشترطون على المستأجرين ألا يزرعوا أكثر من الثلث قطنا حتى تبقى أراضيهم محافظة لقوتها وخصوبتها ، لكن الحكومة حرمت على أصحاب الأراضى الواقعة فى الحياض زراعة القطن على الاطلاق ، وهؤلاء محرومون من الرى الذى يسمح لهم بزراعة أراضيهم عدة مرات فى العام ويعانون مشقات كثيرة ونفقات كبيرة لرى أراضيهم التى لا تسقى الا مرة واحدة فى العام وأن أطيانهم لا تزال بكرا حافظة لقوتها وعناصرها الحية (٤) ، وكان عقاب الذى يزرع أكثر من الثلث ألا تعطيه وزارة الأشغال ماء لتوفر الماء لزراعة الحبوب ، وأن يعاقب فوق ذلك بالغرامة والحبس وتقليع ما زرع (٥) .

وزاد الميل الى انقاص القطن الأسمر — ميت عفيفى — فى خلال سنة ١٩١٥ ، وبرز القطن السكلاريدس لزيادة الطلب عليه خصوصا لصنع غلاف عجلات السيارات ، فبلغت أسعاره مبلغا يزيد بكثير على أسعار باقى أنواع الأقطان المصرية العادية حتى ان ٥٧٫٥ ٪ من المساحة المعدة لزرع القطن فى الوجه البحرى قد زرعت من هذا النوع مقابل ٢٧٪ زرعت من نوع منت

---

(١) نفس المصدر .
(٢) Récueil des doc. relatif de la guerre, 22 Sep. 1914.
(٣) الأفكار ٦ نوفمبر ١٩١٤ .
(٤) نفس المصدر .
(٥) الأهرام ٦ أبريل ١٩١٥ .

عميمى ، أما الوجه القبلى فاحتكر زراعة القطن الأشمونى ذى الوسيجة (التيلة) الخشنه والقصيرة وذلك لأن الاشمونى فى تلك الناحية يجىء بمعدل فى المحصول يزيد بكثير عن معدل محصول أى نوع آخر (١) ·

وبدأت أسعار القطن ترتفع خلال عام ١٩١٥ نظرا لاحتياجات الحرب فزاد الطلب عليه ، فبلغ الوارد للاسكندرية حتى ٢١ اغسطس ١٩١٥ = ٦ر٤٩٠٫٠٠٠ قنطار ومن الثابت أن كثيرين خزنوا اقطانهم نظرا لهبوط أسعار القطن فى أسواقه ، ولما فتحت أسواق المحصول الجديد بأسعار عالية بدأت تتوارد اليها كميات كبيرة من محصول ١٩١٤ ، وجاء هذا الأمر مع نقص محصول القطن عام ١٩١٥ بسبب المساحة المنزرعة قطنا داعيا لزيادة الأسعار اذ وصل سعر القنطار الى ٢٢ ريال (٢) ·

ولما رأى تجار الصادرات هذا الارتفاع باعوا كميات كبيرة من القطن ، ونتج عن كثرة البيع سقوط فى الأسعار فانخفض سعر القطن حوالى عشرة بنوط . لكن السوق برهنت على نشاط كبير فوجدت المضاربة فى البورصة ، وهذا دفع الأسعار الى النزول مستندة الى حالة الأقطان المصرية فى ليفربول وما هى عليه من ضعف ، كما قرر قومسيون كونتراتات القطن فى بورصة الاسكندرية فى آخر ديسمبر ١٩١٥ اجراء تصفية غير اعتيادية فى الكونتراتات لبلوغ الفرق فى أسعارها بعد آخر تصفية فيها (٣) ·

وتعرض محصول قطن هذا العام لوطأة اللوزة القرنفلية ، ولاقى انقاذ المشاريع المنوية لابادة الدودة مصاعب جمة بسبب الحرب ، وشرعت وزارة الزراعة فى درس مشروع جديد لتعديل طريقة الابادة المستعملة ، هذا بالاضافة الى أن البذور التى زرع منها القطن غير جيدة والكثير منها مصاب بدودة اللوز والدودة كانت مشرنقة فى أغلب البذور وبالتالى ظهرت الدودة القارضة فى جميع المزارع ، وقد أضرت رطوبة الجو نمو الشجيرات ، وانتشر الجراد فى كل البلاد وانتشرت آفات أخرى مثل بويضات الفراش والندوة العسلية حتى لقد قدر العجز بحوالى مليون قنطار (٤) ·

وقدر عجز مليون آخر من الجنيهات لصعود ثمن الأكياس صعودا فاحشا وهذا حمل المزارعين على استصراخ الحكومة لتعينهم وتساعدهم لأن ثمن الكيس الواحد بلغ ثمانية جنيهات أو أكثر أى أن الثمن تضاعف ، وبتضاعف هذا الثمن تكون الخسارة نحو مليون جنيه ·

---

(١) Récueil des doc. off. 27 Avril, 1916.

(٢) La Bourse Egyptienne, 6 Mai, 1916.

(٣) الأهرام ٥ يناير ١٩١٦ ، المقتطف ، يناير ١٩١٦ ، ص ٨٨ ·

(٤) Conseil des ministres, 26 Sep. 1915.

وقدر محصول القطن لعام ١٩١٥ من ٤ ٣/٤ مليون قنطار الى ٤ ٧/٨ مليون في حين كان محصول سنة ١٩١٤ ستة ملايين قنطار ، ٤٩٠ ألف قنطار(١) واحتل القطن المصرى ذلك العام ـ ١٩١٥ ـ ٨١ ٪ من صادرات مصر ، فقد كانت صادرات مصر كلها تبلغ ٢٧٫٠٤٦٫٨١٢ جم بلغ القطن منها ١٩٫٤١٤٫١٠٥ جنيها مصريا (٢) ٠

وبلغ النقص عن ما قبل الحرب مليونا ، ٣٥٠ ألف جنيه انجليزى ٠ وأصدرت السلطة البريطانية تعليمات بمنع تصدير القطن المحلوج وغير المحلوج من القطر المصرى الى جميع الموانى فى أوربا وفى البحر المتوسط والأسود الا موانى بريطانيا وايرلندا وفرنسا وروسيا (ماعدا الموانى البلطيقية) واسبانيا والبرتغال والسبب فى منع تصدير القطن المصرى الى ايطاليا وسويسرا أن القطن يرسل منهما الى المانيا والنمسا عند وصوله من الاسكندرية (٣) والسلطة حرمت العلاقة مع هاتين الدولتين ومن يتبعهما ٠

وتحكم تجار الصادرات وهم مضاربون فى الوقت نفسه فى مينا البصل حيث تتم العقود الخاصة بالقطن وكان معظمهم من الأجانب ، ولم يكن فى طاقة البلاد مقاومة سلطان المشترين من الأجانب الذين ليس عليهم أدنى رقابة ٠

أما بالنسبة لبذرة القطن هذا العام ، فقد نقصت تبعا لنقصان محصول القطن ، وزاد النقص بأن جانبا كبيرا منها فتكت الدودة به فلم يعد يصلح للعصر أو الزرع ، ولم يزد الصادر على مليونى أردب بعد أن كان يصدر نحو أربعة ملايين ، هذا بالاضافة الى أن التصدير منع لألمانيا التى كانت تستورد نحو ٤٠٪ من البذرة الصادرة ، ونتيجة لوضع البذرة هذا ارتفع سعرها فزاد ثمن الأردب ١٠٠ جنيه وبلغ فى بعض الأصناف ١٠٧ جنيها لارتفاع شحنها (٤) ٠

أما بالنسبة لمحصول القطن عام ١٩١٦ فنبت قويا وساعده الحر على النمو السريع ، وكانت مياه الرى وافرة حتى اعتقد المقدرون انه يزيد على سبعة ملايين قنطار ، لكنه لما ابتدأ لوزه يظهر اتضح أن فروعه السفلى قليلة جدا أو مفقودة ثم ظهر أن زمام الأطيان المزروعة قطنا أقل مما كان قبل ذلك ، هذا بالاضافة الى انتشار دودة اللوز ودوة البذر القرنفلية وهذه الأخيرة قضت على ربع المحصول أو على أكثر من ربعه ، ففى تقرير المستشار المالى يقول : « يقدر محصول القطن سنة ١٩١٦ ب ٦٫٠٢٠٫٠٠٠ قنطار بمعدل

(١) الأهرام ٤ فبراير ١٩١٦ — Le Journal du Caire, 27 Mars, 1916.

(٢) مليكة عريان : مركز مصر الاقتصادى ، ص ٤٧ ٠

(٣) Récueil des doc. relatif de la guerre, 6 Mai, 1915.

(٤) المقتطف ، ديسمبر ١٩١٥ ، ص ٥٩٣ ٠

٣ر٦٤ قنطارا فى الفدان الواحد أى بنقص ١٠ر٤٠ فى القنطار عن محصول ١٩١٥ ، وينقص ٥٠ر٠ عن متوسط محصول السنوات العشر السابقة ، ومجموع هذا النقص ينسب الى دودة اللوز القرنفلية » (١) .

لهذا فقد قل الصادر منه عن محصول عام ١٩١٥ وبالتالى انخفض المخزون وبناء على ذلك ارتفعت أسعاره حتى بلغ سعر الكونتراتات ٣٠ ريالا وأصبح القطن العفيفي يباع قنطاره في الأرياف بستة جنيهات وسبعة والسكلاريدس بسبعة جنيهات وبثمانية وهى أسعار لم ترها مصر الا زمن الحرب الاهلية الامريكية (٢) .

وفى أوائل سبتمبر ١٩١٦ أصدرت لجنة بورصة الأسكندرية قرارا بالا يزيد ثمن القطن فى الكونتراتات عن ثلاثة وعشرين ريالا الى غاية ٢٠ سبتمبر ويقول سعد زغلول ازاء هذا الاجراء : « تكدر الناس وخصوصا المزارعين من هذا القرار واحتج اغلبهم عليه فى الصحف واخذت الحكومة تنظر فى الامر ، وبعد مضى يوم قررت أن تشترى هى مقدار سبعة وثمانين ألف قنطار قطنا بسعر أزيد من السعر الأمريكانى بمبلغ تسعة ريالات عن كل قنطار وكان الفرق بين سعر النوعين سبعة فقط . وأن ما تدفعه الحكومة من الفرق يتحمله السماسرة ، وعادت الأعمال فى البورصة الى مجاريها » (٣) ولم يستفد غير الأجانب من جراء هذا القرار .

وازاء هذا الوضع ونظرا لارتفاع أسعار القطن صاح ملاك الأراضى وطالبوا بالغاء التحديد الذى أصدرته الحكومة بزراعة ثلث الأرض قطنا وتم لهم ذلك فى عام ١٩١٦ ، حيث ألغت الحكومة قرارها الخاص بزرع القطن واباحته كما كان قبل الحرب (٤) ، لكن فرصتهم ــ ملاك الأراضى ــ من الاستفادة من ارتفاع الأثمان لم تمتد ، ففى يونية ١٩١٧ ، قررت الحكومة بتوجيه من المستشار المالى تحديد سعر القطن بثلاثة وعشرين ريالا وهو سعر يقل عن سعره الحقيقى ، هذا فى الوقت الذى اتجهت فيه الأسعار الى التحسن .

وبلغ محصول قطن عام ١٩١٧ نحو ٦ر٣٠٠ر٠٠٠ قنطار . وبيع بأسعار عالية مكنت المزارعين من وفاء ما عليهم للبنوك العقارية (٥) . وقد زادت المساحة المزروعة قطنا مابين عام ١٩١٤ ، ١٩١٧ من ٢٨٪ الى ٤٠٪ من مساحة الأراضى المزروعة التى تروى ريا دائما وجنى ملاك الأراضى عموما فوائد من

---

(١) Récueil des doc. off 12 Avril, 1917.

(٢) المقتطف ، نوفمبر ١٩١٦ ، ص ٥٠١ .

(٣) سعد زغلول : السابق ، كراسة ٣١ ، ١٣ سبتمبر ١٩١٦ ، ص ١٧٠١ .

(٤) المقطم ١٤ فبراير ١٩١٦ .

(٥) المقتطف ، ابريل ١٩١٩ ، ص ٤٠٦ .

ارتفاع ايجارات الأراضي الزراعية الناشىء عن ارتفاع ثمن القطن ، وكان أصحاب الأراضي الكبيرة أول من استفادوا من هذا لأن نسبة كبيرة من الفلاحين كانت تملك عددا قليلا من الأراضي وكانوا يحاولون ــ مثل هؤلاء الذين لا يملكون أراضي ــ أن يستأجروا أكبر قدر من الأراضي من جيرانهم من أصحاب الأراضي الكبيرة ، وهؤلاء كانوا يفرضون ايجارات عالية لأراضيهم (١) ٠

وعادت مرة أخرى فهبطت الأسعار ، وهناك عوامل أثرت في سوق الاسكندرية منها تقيد سوق القطن في ليفربول ، وعزم انجلترا على تعطيل مقطوعية القطن الذى يقدم للمصانع ثم « المضاربين على المكشوف » اذ منعتهم الحكومة من الاستمرار في عملهم ، والمضاربة روح التجارة وسبب في ارتفاع الأسعار ، وأخيرا قرار السلطة الخاص بتصفية عمليات البذرة وتحديد سعر لها (٢) ٠

هذا وقد تعرض محصول هذا العام للدودة التي اشتدت وفتكت بأوراق القطن ودخلت في أزهار ، بالاضافة الى استيلاء السلطة على الأنفار فحرمت الأرض من خدمتهم فزادت أجورهم وقلت أعدادهم ٠

ولعبت لجنة الصادرات بالاسكندرية دورا مهما في بخس أثمان الأقطان اذ يقول سعد زغلول في مذكراته : « ان لجنة الصادرات في الاسكندرية وهي مؤلفة من تجار أجانب لا مندوب للحكومة فيها لها امتيازات من الحكومة تسيء استعمالها ضد المزارعين ، فهي التي تعين رتبة القطن وثمنه ، فاذا كان المطلوب الصعيدى خفض ثمنه ، واذا كان المطلوب غيره فعلت به كذلك وأدنت رتبه » (٣) ٠

أما بالنسبة لتصدير قطن ذلك العام ، فقد نقصت صادراته ونتج هذا عن قلة وسائل الشحن وبلغ الصادر منه حتى ٣٠ أبريل ١٩١٧ = ٦٩٥ر٩٠٠ر٣ قنطارا (٤) ، ووضعت العقبات في طريق التصدير ليس فقط الى البلاد المعادية ولكن أيضا في طريق التصدير الى البلاد الحليفة اذ رأت انجلترا أن تؤلف لجنة انجليزية لمراقبة تصدير القطن بأسعار مخفضة الى انجلترا وحصر عمليات التصدير في يد فئة قليلة من البيوت الأجنبية (٥) ٠

وتبع ذلك أن ألغيت كل تراخيص التصدير الصادرة للأفراد والبنوك وجعلها قاصرة فقط على عدد قليل من شركات التصدير التي حققت من وراء

---

(١) Chirol : op. cit., p. 222.

(٢) الشباب ، ١٣ سبتمبر ١٩١٧ ، ص ١٣ ٠

(٣) سعد زغلول : السابق ، كراسة ٣٠ ، ١٨ أكتوبر ١٩١٧ ، ص ١٦٦٦ ٠

(٤) المقتطف ، مايو ١٩١٧ ، ٥٠١ ٠

(٥) الوقائع المصرية ، ١٦ نوفمبر ١٩١٧ ٠

هذا الاحتكار الذى لا مبرر له أرباحا تصل الى ملايين الجنيهات ، وقد كان هذا الاحتكار ايضا وسيلة للتحكم فى أسعار ما تشتريه من المحصول (١) .

كذلك قامت الحكومة البريطانية بشراء بذرة القطن لعام ١٩١٧ بثمن يقل بكثير عن قيمتها الحقيقية اد اشترتها بحوالى ١٠٠٠ر١٠٠ر١ جنيه استرلينى(٢) .

وأخيرا وفى ٨ سبتمبر ١٩١٧ وتحت تأثير الخوف من تعرض موارد الطعام الأساسية فى البلاد لتهديد خطير ، وللالتزامات التى فرضت على مصر لتموين الجيوش البريطانية صدر مرسوم يقضى بتحريم زراعة القطن فى مصر العليا وتقييد زراعته بثلث الأراضى القابلة للزراعة فى الأجزاء الأخرى من القطر (٣) .

وبالتالى فقد نقصت المساحة المزروعة قطنا ، وبلغت فى الوجه البحرى ٨٨٨ر٠٢٣ر١ فدانا وفى الوجه القبلى ٦٧٩ر٢٩١ فدانا (٤) ، ومع أواخر ١٩١٧ وقفت حركة السوق القطنية فتكدست فيها الأقطان ولم يقبل عليها المشترون اذ تحزب التجار الأجانب الذين يعملون تحت ستار على نزول الأسعار ، هذا وقلة وسائل الشحن وبطئها وكثرة المعروض فى مينا البصل والأسواق المحلية الأخرى ، وأصبحت الأسعار اسمية فقط ولا يشترى ولا يباع ، وتنحى البنوك عن مد التجار بالتسهيلات المعتادة ، وبالأموال الكافية التى يستعينون بها على شراء ما تنتجه البلاد مما نشأ عنه قلة الأموال لسد حاجة التجارة من جانب الطلب .

وقد اثرت هذه الحالة اى حركة وقوف سوق القطن فى مينا البصل تأثيرا ظهر أثره فى الريف .

وفى موسم قطن ١٩١٨ أصيبت مصر بخسارة اقتصادية فادحة ذلك أن الحكومة الانجليزية احتكرت محصول القطن جميعه فى ذلك العام - بلغ المحصول ٠٠٠ر٢٥٠ر٥ قنطار - وما كان مخزونا من محصول ١٩١٧ للاحتفاظ للامبراطورية البريطانية وحلفائها بالموارد اللازمة لهم ، وحددت ثمن شرائه بـ ٤٢ ريالا للقنطار من رتبة فلى جودفير (٥) .

ووقف وزراء مصر ورجالها من هذا التصرف موقف المتفرج على قوة عليا تسيطر على الأمور وتوجهها كما تريد ، وكان فى امكان حسين رشدى رئيس الوزراء الاعتراض على هذا التصرف الذى نجم عنه انهيار فى النظام الاقتصادى ، فكيف يكون سعر قنطار القطن ٤٢ ريالا وهو يباع فى ليفربول بـ ٧٥ ريالا وفى أمريكا ٨٠ ريالا . ويصف سعد زغلول موقف الوزراء فيقول :

(١) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ، ص ٥٨ .
(٢) Récueil des doc. relatif de la guerre, 12 Août, 1917.
(٣) Conseil des ministres, 9 Sept. 1917.
(٤) المقتطف ، اغسطس ١٩١٨ ، ص ٢٠٥ .
(٥) National Bank : Assemblé general, 24 Mars. 1919, pp. 11, 12.

« حضر عندى أول امس يوسف بك نحاس بعد هجرة طويلة افهمت منه أنه اراد ان يأخذ على نفقته تخزين قطن الحكومة وشحنه فى الوابورات وأن يقدم على ذلك ما يشاء من بنك الانجليز ، وقد حكى لى عدلى امس حكاية القطن قال اجتمعنا ذات يوم عند رشدى باشا فالمستشار المالى برونيات قال أن الحكومة الانجليزية تنتظر فى هذه الأوقات مساعدة الحكومة المصرية لها وتعتمد كل الاعتماد عليها وأنها أرسلت مندوبين من طرفها للاتفاق على مسألة القطن وبعد قليل من الأيام ، يوم أو اثنين تكلم المستشار المذكور فيما اذا كان عين تحديد ثمن القنطار بمبلغ ٤٢ ريالا ، فقال رشدى أنى أرى هذا الثمن موافق وقال عدلى ان المسألة محتاجة بأن تبحث ، وانصرف الكل على نية البحث » الى أن قال : « فانظر كيف نساس وكيف ندار وكيف رجالنا يرضون لوطنهم بالضرر ولكرامتهم بالامتهان » (١) .

ومن المؤسف أنه أنيط هذا الأمر الى لجنة أجنبية ، وعندما سأل سعد زغلول ونجت وبحث عن سر عدم ضم أى مصرى لهذه اللجنة أجاب : « ان هذه اللجنة فى مخابرة مستمرة مع السلطة العسكرية وتموين الجيوش والمسائل الحربية المهمة لا يمكن أن يطلع على مخابرتها أجنبى » فرد عليه سعد : « عظيم هذا السبب انى ما كنت أعلم ذلك من قبل ومع هذا فان هؤلاء الأعضاء الأجانب أخذوا فى استطلاع آراء الناس وأفكارهم ولكن المسألة التى هى فى غاية الأهمية وعليها مدار ثروة القطر قررتها الحكومة من غير أن يسأل أحد من أرباب الشأن بها » فقال « ان ما فعلته الحكومه هو خير للمصريين ولكنهم لا توسط عندهم فهم يبالغون فى الأشياء ويذهبون من طرف الى طرف ، وأنا مكثت فيهم ثلاثين سنة لكنك تعرفهم أحسن منى،فهم من الصعب ارضاؤهم» (٢) .

وهاجم سعد اللجنة اذ قال لونجت « ان الخواجات الذين حضروا البحث فى مسألة القطن مع كونهم مكثوا عدة أسابيع لم يجتمعوا بأحد من المصريين لاستطلاع رأيهم قال انهم لم يمكثوا الا قليلا وقد اجتمعوا بالوزراء وهم مصريون ويمثلون مصر قلت يمكن أن يقال هذا فى غير هذا القطر الذى له نظام شبه الدستورى وله نواب منتخبون من أبنائه » (٣) .

وأدت الرقابة على القطن الى خسارة كبيرة لأصحاب الأراضى بتحديد السعر بالقدر الآنف الذكر ، حتى أنه انخفضت أسعار العقود فى الاسكندرية الى أقل من ٤٢ ريالا هذا بالاضافة الى أن معظم المنتجين المصريين لم يكونوا بعد حتى ١٢ مارس ١٩١٨ قد باعوا كل محصولهم عن ١٩١٧ .

وبلغ ما خسرته مصر من جراء هذا التحديد ٣٢ مليون جنيه ، وقد

---

(١) سعد زغلول : السابق ، كراسة ٢٨ ، ٧ ابريل ١٩١٨ ، صص ١٥٦٥ ـ ١٥٦٧ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) نفس المصدر ، ٢٩ مارس ١٩١٨ ، صص ١٥٥٥ ، ١٥٥٧ .

اعترف ملنر فى تقريره بما كان لهذا الاحتكار من الأثر فى تفجير ثورة ١٩١٩ ، يقول « وهناك ما يدل على ان التحكم فى أسعار القطن زاد استياء الناس لأن هذا التحكم يحرم المزارع مزية المزاحمة فى الأسواق الأجنبيــة مع كون ايجار أطيانه فى ازدياد » (١) .

ولو أن انجلترا لم تقدم على احتكار محصول قطن ١٩١٨ ، لكانت مصر كسبت أموالا عوضت عليها ما كانت خسرته فى سنوات الحرب ، وقد نتج عن هــذا الوضع لمحصول قطن ١٩١٨ أن توقفت عمليات الوساطة والمضاربة على الأقطان ، وأصبح المستخدمون فى هذا المجال والسماسرة يرثى لحالهم .

وكان من نتائج هذا الاحتكار قفل بورصة الاسكندرية بتاريخ أول أغسطس ١٩١٨ وحرمان عائلات عديدة تعتمــد فى دخلهــا المبــاشر عليها وذلك فى وقت زادت فيه تكاليف المعيشة . وخلق هذا هزات جديدة خطيرة فى الحيــاة الاقتصادية ، ولقد كان من المعقول فى زمن الحرب أن توضع البورصة تحت نظام محكم لمنع الوثبات الفجائية ، لهذا كان واضحا أن اغلاق البورصة فى حد ذاته اجحاف بمصالح البلد هذا من ناحية ومن ناحية أخرى كان ســعر ٤٢ ريالا المقرر للفولى جود فير سكلاريدس غير عادل لانه لم يتمش مع التخفيض فى المساحة الكلية المزروعة ، وكذلك الأضرار التى تحملها القطن نتيجة للآفات الموجودة فى البلد وقلة الماشية التى تخدم الزراعة ثم الارتفاع الكبير فى ايجارات الأراضى وأسعار الوقود والأيدى العاملة والماكينات الزراعيــة والغلاء ، هــذا ولم يراع أيضا اطراد الطلب وتزايده من جانب المغازل والسعر الذى كان يباع به القطن الكلاريدس فى ليفربول .

ولم يكن للفلاح أى مرجع يشتكى اليه لأن اللجنــة التى تستأنف اليها القرارات كانت مشكلة من نفس مصدرى القطن ـ أعضاء لجنــة التحكيم هــذه هم أنفسهم تجــار القطن ـ ومن حقهــا الذى أكثر استعماله خفض السعر المعروض ، ومن هنا كان الفلاح يتجنب الاستئناف والشــكوى مخافة زيادة الضرر عليه .

من هذا يتبين أن المشترى هو الذى يقرر السعر على ما يهوى ويتسلم البضاعة من اللجنة بسعر أقل من السعر الذى قدره هو لنفسه ، ورغم ذلك فقد رفع الفلاح شكواه ولكن كانت عــدد الدعاوى القليلة التى حكم فيهــا بتحسين تقدير الرتبة هى الدعاوى التى كان فيها التقدير الأول دون المعقول بحيث لم يكن من الممكن الدفاع عنه (٢) .

---

(١) تقرير اللجنة الخصوصية ، ص ١٥ .

(٢) د. يوسف نحاس جهود النقابة الزراعية المصرية فى ثلاثين عاما صص ١٢ ، ١٣ .

هـذه هي الأوضاع الغريبـة التي أساءت الى مصلحة البلد وأغضبت المصريين أيما اغضاب ، ربحت الحكومة الانجليزية والحكومة المصرية مليونين من الجنيهات ، وهـذا القدر يقل بعشر مرات عما ربحته بيوتات الاصدار ، وكل ذلك على حساب الفلاح ، وكان من السهل أن تحصل الحكومة المصرية على نصيبها من هذه الأرباح برفع رسوم اصدار القطن أو بفرض ضريبة وقتيـة عليه كان يقبلها المصريون بنفس راضية بشرط بقاء السوق حرة ، على أنـه يجب ان يستبعد من المليون الذى عاد على الخزانة المصرية من هذه العملية مقدار الضريبة التى كانت تؤخذ على عمليات ألشراء والبيع فى البورصـة وطائفة من الايرادات الأخـرى التى لا يستهان بهـا كالمواصـلات التليفونية والتلغرافية والبريدية والسكك الحديدية مما كانت حركة البورصـة تجلبه وأودى به اقفالها .

ويتضح مما سبق أن السياسـة القطنية فى بحر هذه السـنوات كانت تتميز بانعدام المنطق دلت فى مجموعها على تذبذبها وتخبطها واجحافها الشائن بمصالح مصر على حساب مصالح انجلترا ، وقد أثبتت هـذه السياسة وأبانت عن خلو البلاد من تلك الهيئات التى تعمل على حل معضلات المسائل الناشئة عن الحوادث الطارئة مثل النقابات الزراعية والتعاونية ونقابات التسـليف والبنوك الأهلية الحقيقية ، لقـد أبانت الحرب شـدة الغبن على البلاد وعدم مسئولية القائمين بالأمر اذ سلموا أمور مصر الى الانجليز الذين تحكموا فيها .

(ب) المحاصيل الزراعية الأخرى :

الزراعـة فى مصر هى أهم مصدر للثروة فيها ، ومنذ أن احتلت انجلترا مصر نمت هذه الحرفة وجعلتها من مستلزمات اقتصاديات مصر ، ورغم ذلك فقد اعتمدت مصر فى تموينها على استيراد الحاصلات الزراعية ، ففى سـنة ١٩١٣ بلغت الواردات منها ٩٧٨ر٢٤١ر٤ ج٠ م٠ من مجموع واردات مصر البالغة ١٩٥ر٨٦٥ر٢٧ ج٠ م٠ ، وجاءت الحرب وخلقت ظروفا اقتصادية جديدة ، فقد انقطع اكثر الوارد على مصر واقفلت أكثر الدول التى كانت تصدر القمح الى مصر أبوابها .

هـذا عن الظروف الخارجيـة ، أما الداخليـة فتوقفت أعمـال الرى لعدة عوامل منها خفض المصروفات ، وقلة الفحم وغلو ثمنه عرض الزراعة لارتباك كبير ، وفى فترة الحرب لم تتغير المساحة المنزرعة ومساحة المحصول ولكن كل الذى حـدث هو تغيير نسب المحاصيل المختلفة تبعا لمتطلبات الظروف التى تحكمت فيها انجلترا سواء لمصلحتها الخاصة كما حدث فى اتباع سياستها القطنية أو لمصلحة جنود امبراطوريتها التى وقع عليها عبء تموينهم أو لانقطاع

الوارد وتوقف عمليات الشحن فى البواخر وغلاء الأسعار مما أدى الى ازدياد الطلب على تلك الحاصلات .

ومنذ بداية الحرب وعندما أحست الحكومة بتلك الأزمة القاسية التى ستعانى منها مصر من جراء نقص المواد الغذائية اصدرت قرارها في أوائل أغسطس ١٩١٤ تحرم فيه تصديرها ، وخسرت مصر فى الأراضى خسارة كبيرة بلغت من ٢٥ الى ٣٠٪ من قيمتها ، وهبطت أجورها فالفدان الذى كان يؤجر باثنى عشر جنيها لم يعد صاحبه يجد من يستأجره بثمانى جنيهات ، هذا فضلا عن قلة عدد المستأجرين (١) .

كان من نتيجة تخفيض مساحة القطن المزروعة زيادة فى المحاصيل نظرا لاحتياجات السكان والرواد اليها ، واصبح القمح على قمة المزروعات فحاجة الفطر اليه فى ازدياد ، وكان لتخفيض زراعة القطن وفرة في المياه ، فاستفاد الأرز ذلك ان مصلحة الرى استطاعت أن تخزن كمية كبيرة من المياه ، فنتج عن ذلك محصول لا مثيل له ، وجاء معدل المحصول من القمح دون سواه أقل لسبب ملاءمة الأحوال لانتشار الصدى لكن ما لبث أن زاد هذا المحصول واصبح ٢٨٠ الف فدان (٢) .

كما حدثت زيادة كبيرة فى محصول السكر ، وقدر مجموع المساحة المزروعة قصبا بـ ٥٢٫١١٨ فدانا تغل ٣٨ مليون قنطار من القصب (٣) .

لكن لم يلبث الأمر حتى أصيبت مصر بكارثة الجراد ، فقد هاجمت مصر اسراب من الجراد أتت على جانب كبير من المحصولات الزراعية ، وكان اشد وطأة على بنى سويف والفيوم وقدر ما كان يتلفه يوميا من ٥٠٠ جنيه الى الف جنيه (٤) .

وخدمة لمصالح انجلترا رأت أن تعقد قرضا مع الحكومة المصرية بمبلغ ٣٢٫٠٠٠٫٠٠٠ جم لينفق على انجاز أعمال الرى ، وعهدت الى البنك الاهلى لدرس هذا المشروع ، وتم الاتفاق بين مكماهون ووزير الأشغال والبنك الأهلى على أن هذا القرض يؤخذ على ستة عشر قسطا فى ست عشرة سنة ، وعرضت وزارة الزراعة على الحكومة الانجليزية جدول الأعمال التى تريد اتمامها بهذه الأموال من أعمال صرف فى البحيرة والغربية وتحويل طرق الرى فى الأراضى الواقعة بين قنا وديروط وأعمال أخرى للصرف فى الوجه البحرى عامة ، أما

---

(١) المحروسة ١٨ نوفمبر ١٩١٤ ، الأهرام ٢٨ نوفمبر ١٩١٤ .
(٢) Rapport d'Allégation commerciaux et Agriculture p. 23.
(٣) Récueil des doc. off. 1916, p. 99.
(٤) مصر ٨ مارس ١٩١٥ .

الضمانة التى تقدم عن هذا القرض فهى زيادة الضرائب وتنجم على اصـــلاح الأراضى (١) ٠

ويعلق سعد على هذا المشروع بقوله : « هذا المشروع ليس من المشروعات المستعجلة حتى تتوجه الهمم لتنفيذه فى هذه الأيام العصيبة التى اشتد الخناق على الناس فيها ، وأصبحوا لا يدرون من أمر مستقبلهم شيئا ، فالحرب لاتزال قائمة ونيرانها تستعر بين أكثر أمم الأرض ومن لم يدخل فيها مشغول بتوفير الأسباب الواقية من شررها وما عند الناس من المال أصبح غير كاف لحاجاتهم الوقتية فكيف يتأتى لهم وهم يرزحون تحت الأعمال الثقيلة أن يفكروا فى مثل هذا المشروع ولكن السلطان ووزراءه يبذلون منتهى وسعهم فى تمهيد الأفكار لهم بما يتحدثون فى مجالسهم الخصوصية ويوصون بنشره فى الجرائد » (٢) ٠

وفى حقيقة الأمر فقد قاســـت مصر من قلة المياه وقلة مشروعات الرى فى أثناء فترة الحرب وكان لذلك أثره الكبير على الانتاج الزراعى ، فمنذ بداية الحرب جاء فيضان ١٩١٥ متأخرا عن ميعاده ولم يبلغ أعلى منسوبه فى أسوان الا فى ٢٨ سبتمبر مع أن متوســط التــاريخ الذى يبلغ فبه الفيضـــان أعلى المنسوب فى سنوات عديدة لم يتجاوز ٥ سبتمبر ، وأعلى مسوب وصل اليه النيل ١٩١٥ كان ١٨ سم و ٩١ م وكان نتيجة ذلك أن ظل خمسون ألف فدان بدون مياه (٣) ٠

ترتب على هذا أن نقص محصول القمح ، هذا بالاضافة الى انقطاع الوارد والى ازدياد الهجرة لمصر ــ ســـواء من اليهود أو الأرمن ــ وتموين القــوات المحاربة ، ومما أساء الموقف سماح الحكومة بتصدير القمح ، ففى عام ١٩١٥ ، صدر ٤٠٠ ألف أردب قمح (٤) ، ومن هنا راح التجار يصدرونه كما يتراءى لهم ويتركون الشعب يموت جوعا ، فقد حدثت حوادث دلت على أن كثيرا من الناس كانوا يقدمون على الموت لقلة الخبز ، فالقمح هو أهم مادة يعتمد عليها شعب مصر فى غذائه لدرجة أن مقياس « الشبع » عندهم بعدد الأرغفة التى يتناولونها ، وقد ارتفعت أسعار المأكولات والمحصولات الغذائية ارتفاعا متواليا . وهنا رأت الغرفة التجارية أن ترفع الى الحكومة طلبها بمنع تصـــدير القمح الى الخارج لارتفاع ثمنه ٠ ولأنه كان يخشى من قلة المحصول فى سنة ١٩١٦ بعدما أباحت الحكومة زرع الأرض قطنا كالعادة ٠ وكانت الغرفة التجارية تخشى نفاذ

---

(١) الأهرام ٦ مارس ١٩١٥ ٠

(٢) سعد زغلول : السابق ، كراسة ٢٥ ، ٩ مارس ١٩١٥ ، صص ١٣١٧ ، ١٣١٨ ٠

(٣) Récueil de doc. off. 1916, p. 97.

(٤) Rapport 'dAlligation commerciaux et agriculture, p. 23.

المخزون وقلة المحصول فيكون من وراء ذلك المزيد من ارتفاع الأسعار . (١)

استعيض عن قلة القمح بزيادة المساحة المزروعة ذره ، لكن الازمة لم تبرح في بداية ١٩١٥ أصاب الكساد سوق الانتاج الزراعي . فكما أصيب القطن كان نصيب الأرز البوار حتى أصبح يباع ب ٣ جنيهات الضريبة لأن الفلاح محتاج الى المال ، والسمسم نقص ثمنه عن سنة ١٩١٤ جنيها في الأردب ، لكن ما لبث الأمر أن راجت السوق لمحاصيل الدريس والشعير والتبن حيث أن السلطة العسكرية ساعدت على ذلك ، ووصل ثمن الحمل من الدريس الى ٧٠ قرشا بعد أن كان ب ٤٠ قرشا وكذلك وصل حمل التبن الى ٣٠ قرشا وأردب الشعير الى ١٠٠٠ قرش (٢) ونقص محصول قمح ١٩١٥/١٩١٦ مقدار ٢٢٨ر٠٠٠ أردب ورغم هذا فقد أباحت الحكومة تصديره ، فنجد أنه صدر منه في أول يناير ١٩١٥ الى آخر أغسطس لنفس العام ١٩٥ر٩٢٤ أردبا اذا أضفنا الى العجز في المحصول صار هذا العجز حتى نهاية أكتوبر سنة ١٩١٥ = ٤٢٣٩٢٤ أردبا .

وشابه الذرة القمح فيما طرأ عليه منذ بداية الحرب ، فالذرة هو طعام الفلاح وكان محصوله قد زاد مقداره مليونا ، ٧٩١ ألف أردب وهي كمية كبيرة كان يجب أن تجعل ثمن الذرة معتدلا مع أن متوسط ثمن الأردب في شهر سبتمبر ١٩١٤ نحو ٩٤ قرشا وبلغ المتوسط سنة ١٩١٥ = ١٠٤ قرشا والسبب راجع الى كثرة الصادر الذى بلغ ٢٥٦ر٤٠٥ أردبا هذا بالاضافة الى زيادة المقطوعية المحلية لوجود القوات البريطانية ، وهذه الزيادة لم تحسب لها لجنة التموين حسابا في الاحصاء ولا مصلحة الزراعة بتقدير متوسط ما تستهلكه البلاد في كل سنة من كل صنف . (٣)

ومنذ أوائل ١٩١٥ أعيدت زراعة الدخان (٤) وكان ذلك للظروف التي فرضتها الحرب اذ حرم على مصر الاستيراد من البلاد المحاربة ، وبعض هذه البلاد هي التي تورد الدخان الى مصر مثل تركيا ، فلما انقطعت العلاقات كان على مصر أن تبذل جهدها لتعويض هذا النقص لذا شرعت في اعادة زراعة الدخان .

كذلك زيدت المساحة التي تزرع قصب السكر فبينما كانت في ١٩١٤/١٩١٥ = ٥٢ر١٨١ فدانا أصبحت في ١٩١٥/١٩١٦ = ٥٩ر٢٢٤ فدانا (٥) لنفس الظروف السابقة .

---

(١) الأهرام ٢٩ أكتوبر ١٩١٥ .
(٢) نفس المصدر ٢٥ اغسطس ١٩١٥ .
(٣) نفس المصدر ٢٩ كتوبر ١٩١٥ .
(٤) مصر ٢٣ يناير ١٩١٥ .
(٥) Le progres Egyptien, 11 Avril, 1916.

وأسهمت لجنـــة الزراعـــة والتجارة فى مشروع أعدته لانتـــاج المحصولات الزراعية في الأرض المصريـــة لتحل محل المنتجات الزراعيـــة التى كانت مصر تستوردها من الخارج والتى وقفت الحرب حائلا دون استيرادها ·

ومنذ ١٩١٦ بدا التناقص ملحوظا فى مساحة الأراضى التى تزرع أرزا فقل سنة ١٩١٦ = ١٧٤ر٠٠٠ فدان عن مثلها سنة ١٩١٥ (١) · وبدأت مصر تنتج البطاطس على نطاق واسع حيث كان من أهم السلع الغذائية التى احتاج اليها الجيش وتمون بها ، وراحت السلطات المسئولة تبذل كل جهدها منذ بداية الحرب ثم على وجه التحديد بعد أن أصبحت الاسكندرية قاعدة البحر المتوسط ومركزا لحملة غاليبولى لتشجيع توسيع زراعة الحبوب ، فعلى سبيل المثال كانت مهمة جنـــاب المســـتر مكلوب Maclop كبير مفتشى وزارة الزراعـــة فى طوافه بالأقاليم داعيا لتشجيع المزارعين للاكثار من زراعة الحبوب بدلا من القطن وكان الجنرال مـــرى قائد القوات البريطـــانية فى مصر قد أصـــــدر تصريحا بهذا المعنى (٢) لسد حاجات الجيوش البريطانية ·

واتخذت الاجراءات لتنفيذ ذلك بمختلف الطرق ، وعلى سبيل المثال فقد وافق مجلس الوزراء على فتح اعتماد اضافى بمبلغ ٣١٠٠ ج لمصـــلحة الأملاك الأميرية لأجل زرع نحو ٢١٠٠ فدان من أطيانها ذرة فوق الزراعات المعتادة (٣)·

وجاءت الزيادة فى هذه المحصولات :

	عام ١٩١٦	عام ١٩١٧
الذرة الشامية	٢٣٨ر٧٢٥	٢٦٦ر٩٩١
البرسيم	١ر١٨٧ر٠١٣	١ر٣٤٦ر٧٨٥
الشعير	٤٢٢ر٧٦٥	٤٢٨ر٥٠٧
الأرز	١٤٤ر٨٠٧	٢٥٦ر٦٩٥
العدس	٦٢ر٢٨٦	٩١ر٨١٦
الحلبة	٥٧ر٣٧٨	٩٢ر٤١٤ (٤)

وكان هذا على حساب القطن ·

واستمرت هذه الحال حتى نهاية الحرب حتى أنه صدرت الأوامر بمنع بعض الزراعات قطعيا واحلال الحاصلات الغذائية محلها مثل ذلك القرار الذى

(١) الأخبار ١٩ نوفمبر ١٩١٦ ·

(٢) Récueil des doc. relatif de la guerre, 22 Fev. 1917.

(٣) Conseil des ministres, 18 Juillet, 1917.

(٤) المقتطف ، ابريل ١٩١٨ ، ص ٢٧٤ ·

صدر فى ١٤ اكتوبر سنة ١٩١٨ لتحريم زراعة الخشخاش فى الأراضى المصرية والاستعاضة عنه بزراعة الحبوب وفرضت غرامة على من يخالف هذا الأمر (١) • وساعد على هذا أن فيضان النيل سنة ١٩١٨ ـ رغم تأخره ـ الا أنه جاء طبيعيا ولم يحدث رى فى بعض مساحات صغيرة فى الوجه القبلى حيث أنه حدث نقص طفيف أثر فيها •

من هذا نرى أن وزارة الزراعة اهتمت اهتماما بالغا بحبوب مصر وحاصلاتها الغذائية ، وقد سعت لجنة التجارة والزراعة بالنهوض بها واختلاق الطرق الصالحة لزيادتها فألفت « لجنة تجارة المحاصيل » التى قامت بدراسة شاملة لمحاصيل مصر الزراعية وقدم كل من أعضائها تقريره ، فكان التقرير الأول عن زراعة الأرز وتوسيعه قدمه شكور باشا وبين فيه الأنواع التى نزرع فى مصر كلها والمناطق التى تنتجه فى أنحاء مصر ، كذلك قدم « دودجيون Dudgeon » تقريره عن زراعة النيلة فى مصر ، وامكانيات زراعة القنب الهندى (٢) • ومن هذا نرى أنه لم يعد الاهتمام فقط بالحاصلات الموجودة فى مصر بل تعدى الاهتمام الى ضرورة خلق محصولات جديدة والرقى بالمستوى الزراعى •

وكان للحرب العالمية الأولى أعظم الأثر فى انتشار زراعة الخضراوات فى مصر بعد أن امتنع ورودها من الخارج فى وقت كانت فى أشد الحاجة اليها لتموين أهلها وجيوش الامبراطورية ، هذا بالاضافة الى أن زراعتها فى ذلك الحين كانت مربحة لدرجة كبيرة جعلت أصحاب الأراضى يهتمون بها ويبالغون فى انتاجها الى حد زاد على حاجة الاستهلاك الداخلى ، ولم يكن هناك مجال لتصديرها والحرب قائمة فغمرت الأسواق وكانت النتيجة هبوط أسعارها (٣) •

الانتاج الحيوانى :

وكما تعرضت البلاد لأزمات الانتاج الزراعى تعرضت أيضا لأزمات الانتاج الحيوانى فمصر ليست بالبلاد الغنية ، فحيواناتها ليس لها طابع التخصص ، فهى تربى لكل غاية لأجل اللبن واللحم والحراثة ، ومن هنا كانت سمتها هزيلة • اذن فلابد من الاستيراد • وبقيام الحرب انقطع الوارد واعتمدت مصر على انتاجها لتغطى به احتياجات سكانها وتلك الأعداد الهائلة التى وفدت عليها سواء من المهاجرين أو من جنود الامبراطورية •

---

(١) Récueil des doc. relatif, 14 Octobre 1918,

(٢) Rapport d'Alligation Commerciaux et agriculture pp. 39, 45.

(٣) حسين على الرفاعى : الصناعة فى مصر ، ص ٢٨٥ •

ومنذ بداية الحرب قل عدد المواشي المذبوحة ، فعلى سبيل المثال بلغ ماذبح في فبراير ١٩١٤ = ٧٣٫٠٦٥ رأسا بينما ذبح في فبراير ١٩١٥ = ٢٢٫٣٢٦ رأسا وكان أكثر النقص في الأغنام والماعز ٠

واشتدت الأزمة لقلة الانتاج الحيواني وللشـدة المالية التي اسـتحكمت حلقاتها « فالخرفان والعجول صارت تعرض بنصف الثمن ولا تجد مشتريا » ٠

وبالنسبة للثيران فقد زاد استهلاكها لتغطية متطلبات السلطة وأثر هذا في ارتفاع الأسعار « حتى أن الثور الذى كان يباع قبل الحرب ما بين عشرة جنيهات وعشرين أصبح يباع بأربعين جنيها وبخمسين أيضا » ٠

وقل عدد الجمال وأرجع ذلك الى استغلالها في المعارك الحربية التي دارت على أرض مصر ففي عام ١٩١٤ كان هناك ١١٨٫٤١٤ رأسا فوصلوا عام ١٩١٧ الى ٩٦٫٧٩٠ رأسا ونقصت الأغنام من ٨١٦٫١٨٤ رأسا عام ١٩١٤ الى ٧٩٦٫٧٥٧ رأسا عام ١٩١٧ كذلك الماعز من ٣٣١٫٠١٦ رأسا عام ١٩١٥ الى ٣٠٢٫٠٠٦ رأسا عام ١٩١٧ ٠ (١)

وأصيبت الفصيلة البقرية بالطـاعون فانتشر في أنحـاء البلاد وارتكز في الوجه القبلي وقد حاولت وزارة الزراعة أن تقاوم ذلك الوباء ، فوافق مجلس الوزراء على منح وزارة الزراعة اعتماد بمبلغ ١١٫٤٠٠ ج٠ م٠ للقيام بالنفقات اللازمة لمقاومة هذا الطاعون (٢) وأسست الوزارة « المجلس الاسـتشارى في الأمور الزراعية » في ٢٠ ديسمبر ١٩١٧ فقرر بأكثرية الآراء أن يمنع ذبح اناث البقر والجاموس مدة سنتين مهما كان سنها الا اذا اثبت لوزارة الزراعة أن احدى هذه المواشي كبرت وهزلت أو مرضت ولم تعد صالحة للعمل أو الانتاج ، وكذا اناث الجمال التي لا يزيد سنها على ثلاث سنوات مدة سنتين أيضا وذكور البقر التي لا تتجاوز سنها ثلاث سنوات مدة سنة واحدة ٠ (٣)

الصـناعة :

عندما نشبت الحرب العالمية الأولى كان النشاط الاقتصادى مرتكزا في أيدى العناصر الأجنبية تموله وتشرف عليه وتنهض بشئونه ، ذلك ان العشرين سنة التي سبقت الحرب رأت تفوقا لرؤوس الأموال الأجنبية اذ بلغ رأس المال

---

(١) المقتطف ، مايو ١٩١٥ ، ص ٥٠٠ ، يناير ١٩١٨ ،ص ٦٠ ، ابريل ١٩١٩ ، ص‌ص ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، The Egyptian Gazette, June 16, 1915. ، الوطن ٨ يونيو ١٩١٧ ، المحروسة ٢٤ مارس ١٩١٧ ٠

(٢) Conseil des ministres, 5 Sep. 1917.

(٣) المقتطف ، يناير ١٩١٨ ، ص ٦٠ ٠

الأجنبى فى عام ١٩١٤ ما يعادل ٩١٪ من مجموع الأموال التى تستغل فى بالشركات المساهمة دون أن يشمل ذلك قناة السويس (١) ٠

والواقع أن الرأسمالية المصرية كانت قد أخذت ـ قبيل نشوب الحرب ـ تحس بالضيق لطغيان النفوذ الاقتصادى الأجنبى ، واجتاح هذا التيار مصر وندد بتغلغل الأجانب ، وكان أول صوت عبر عن ذلك الضيق هو صوت طلعت حرب الذى رأى أن السبيل الى تحرير مصر الاقتصادى هو انشاء بنك مصرى برؤوس أموال مصرية ٠

ولا ريب فى أن الوضع الاقتصادى لمصر فى ذلك الوقت هو الذى دفع الى التفكير فى ذلك ، فالأرض الزراعية محدودة ، والسكان تتزايد ، وانجلترا هى صاحبة السيطرة على أسعار المحاصيل من جهة وارتفاع أسعار الأرض وانخفاض الأرباح من جهة أخرى ، هذا عجل بضرورة انقاذ مصر ٠

وبذلك يمكن القول بأن الرأسمالية المصرية عندما نشبت الحرب كانت على قدر من الوعى يدفعها الى الاستفادة من هذه الفرصة التى تهيأت لها ، وتمثل هذا الوعى فى ارتفاع رؤوس الأموال المصرية فى البنوك ارتفاعا سريعا خاصة فى البنك الأهلى والبنك الانجليزى المصرى اذ زاد رصيدهما فى عام ١٩٢٠ الى ٣٥ر٥ مليون جنيه بعد أن كان ٦ر٥ مليون جنيه فى عام ١٩١٤ (٢) وفوق ذلك فقد دخلت الرأسمالية المصرية ميدان الصناعة بعد أن انخفضت أرباح الزراعة نتيجة لهبوط أسعار القطن اذ أنه بنشوب الحرب انقطع سيل رؤوس الأموال الأجنبية عن التدفق الى البلاد وتعذر أيضا استيراد معظم السلع المصنوعة فى الخارج وصفى أعمال الرأسماليين الأجانب من رعايا ألمانيا وحلفائها ، ففى عامى ١٩١٥ ، ١٩١٦ أوقفت حوالى ١٧ شركة ، ٦٢ بيتا من البيوت الألمانية والنمساوية ، وأقفل أيضا البنك الشرقى الألمانى وهو أحد البنوك التجارية المهمة فى مصر (٣) وأخيرا اشتداد الحاجة الى صناعات تسد حاجة الجيش والشعب ٠ كل هذا أتاح للرأسمالية المصرية فرصة النزول الى السوق فى ظل حماية الزامية جاءت بها ظروف الحرب ، وتبعا لذلك أنشئت الشركات المحلية التى عادت على مصر بالفوائد الكثيرة أثناء الحرب وبعدها (٤) ٠

من هذا نرى أن الحرب خلقت المناخ الذى هيأ للرأسمالية المصرية النمو ،

---

(١) ويقسم رأس المال الأجنبى الى ٤٦ر٢٦٧ر٠٠٠ جنيه رأسمال فرنسى ٣٠ر٢٥٠ر٠٠٠ جنيه رأسمال انجليزى ، ١٤ر٢٩٤ر٠٠٠ رأسمال بلجيكى ٠ أمين مصطفى عفيفى : تاريخ مصر الاقتصادى والمالى فى العهد الحديث ، ص ٤٤٨ ٠

(٢) نفس المرجع ، ص ٤٨٩ ٠

(٣) Goruchley : op. cit., p. 77.

(٤) Ibid, p. 160.

فاصبحت تتطلع خلال الحرب الى الصناعة اذ علمتها مقدار الأرباح التى يمكن لها أن تجنيها من هذا الباب ، وأنه بزيادة نفوذها الاقتصادى يجعلها تتطلع الى مزيد من السلطان السياسى ٠

وتحول لفيف من البورجوازيين الى الأعمال المالية فى ظل الحرب أفادت مصر اقتصاديا وكان من نتيجتها أنه على أثر انتهاء الحرب أنشىء بنك مصر سنة ١٩٢٠ لتمويل الصناعات المصرية ، ولهؤلاء كان طلعت حرب يوجه نداءاته لاستثمار الأموال فى الصناعة ، ونجح فى ذلك ٠

وامتلأت الصحافة بالصيحات الداعية لاستثمار رؤوس الأموال المصرية فى مجال الصناعة وأنشئت صحيفة لهذا الغرض عام ١٩١٦ تحت اسم L'Indisponsable journal de propagande de l'industrie تحث على تشجيع المصريين لاستثمار أموالهم فى الصناعة وبضرورة احلالها محل الرأسمال الأجنبى فى جميع المجالات (١) ٠ فتقول الحرية « تألفت الشركات فى مصر لغير المصريين ، وعملت عملا متواصلا واستثمرت ، فاذا نظرت الى السوق المالية المصرية فلا تجدها الا اسما على غير مسمى اذ أن الأموال الموجودة فيها ليست لنا ، فلا يمكنا أن نحرك يدا ونخطو خطوة ٠٠ أما السوق الصناعية فاذا نظرنا اليها فلا نجد الا فقرا وجدبا » (٢) ٠

وراحت صحيفة الاصلاح تنادى البورجوازيين باستثمار رؤوس الأموال المصرية فى المجالات الصناعية (٣) ، وأخذ سيد درويش يتساءل . .

ثروتنا فين الاقتصادية وفين كبارنا وفين ألوفاتهم
حاطينها فى ايدين أفرنجية وآهم يا فرحتنا بكثرتهم
المصرى أولى بقرش المصرى يفضل فى بلده ميتبعزقش
هم بمالهم واحنا بروحنا دى ايد لوحدها متصقفش ٠

بقيام الحرب أوقفت حركة الواردات وانصرفت الأمم الى شئون الحرب ونتج عن ذلك أن فقدت مصر بعض أسواق تصريف محاصيلها ، كما انقطع ورود بعض الأصناف المصنوعة فارتفع ثمنها ارتفاعا كبيرا فكان ذلك سببا شديدا وباعثا قويا على ايقاظ المصريين وحكومتهم وحملهم على التفكير فى سد النقص الذى شعروا به ، اذ رأوا أنهم عالة على غيرهم من الأمم الصناعية ، وأنه ليس لهم كيان اقتصادى مستقل خصوصا بعد أن أدركوا أن عوامل ومقومات الصناعة متوفرة فى مصر ٠

وقد وجدت الصناعة جوا ملائما فى ذلك الوقت ، فالشعب محتاج للغذاء والكساء وجيوش الامبراطورية البريطانية فى حاجة الى المصنوعات من ذخيرة

---

(١) L'Indisponsable, 1ere année, 8, Decembre 1916.

(٢) الحرية ١٣ نوفمبر ١٩١٧ ٠

(٣) الاصلاح ٢١ يونية ١٩١٧ ٠

وصيانة أسلحة وصناعات معدنية مختلفة هذا بالاضافة الى تضخم البطالة التى انتشرت في أوائل الحرب ـ نظرا لتوقف معظم الأعمال ـ واستعداد العمال لقبول العمل بأجور مخفضة نسبيا رغم الارتفاع المطرد فى تكاليف المعيشـة ٠ (١) مع كفاءتهم في جميع الميادين من برادة ونجارة وحدادة ونقش وسبك معادن ٠ وساعدت انجلترا أيضا على قيام الصناعة فى مصر ، فنحن نعلم أنه منذ احتلالها عملت على القضاء على الصناعة المحلية ويتبين ذلك فى تقارير لورد كرومر ولكن نظرا لضرورة تموين جيوشها راحت تخفف من قبضتها على مصر من هـذه الناحية ٠

ونشطت الحرب كل الأفكار الصناعية التى لم يكن لها صدى قبل ذلك ، تجلى هذا فى الصحافة فظهرت الدعوة فيها للصناعة فى كافة منتجاتها فنادت الأهرام داعية الى انشاء مصانع للقطن ونسيجه تقول : « ان مصر لا مصانع لها لنسج القطن ، فحياتها المالية مستمدة من أوربا التى يجيئها منها الذهب ثمنا لمحصولاتها وقد وقفت سوقها فى الأزمة هذه ، وتعطلت مصالحها ، لذا وجب العمل لانقاذ الموقف وذلك بخلق الصناعات التى يحتاج اليها القطر » ٠ (٢)

وامتلأت العناوين فى الصحف والمجلات تحت اسم « الصناعة فى القطر المصرى » ٠ فراحت الاكسبريس تقول « ألا يكفينا خجلا ما نشعر به الآن فى أزمة الأسواق المصرية ، فلو عندنا مغازل ما بعنا القطن ب ٨ ريالات ، ولسـت أدرى لو انقطع عنا وارد الابرة ، فكيف نخيط أثوابنـا ، ان الجريـدة تطالب بتوجيه أموال مصر الى الصناعة ، وباستخدام العمال المصريين أهل النشاط فى هذا المجال » ٠ (٣)

وتبع ظهور الدعوة لاقامة الصناعة الوطنية ترقية التعليم الصناعى وحث الناس على تشجيع الصناعة المصرية ، فصدرت التعليمات لمجالس المديريات بتوسيع المدارس الصناعية فيها والعمل بجد على زيادة نشاطها لمواجهة ظروف الحرب (٤) ٠ وشجعت الورش الصناعية وعمل على توسيعها حتى بلغت فى أغسطس ١٩١٥ عشرين ألف ورشة صناعية أنفق عليها ٤٠٠ ألف جنيه (٥) ٠

وسرعان ما انفتح أمام مصر ميدان الانتاج الصناعى ، اذ أظهرت الحرب خطر الاهمال والتواطؤ ، كمـا أدركت الحكومـة خطر الاتكال على المصـنوعات الأوربية ، ومن هنا وجهت هى الأخرى نشاطها للرقى بالصناعات الموجودة

---

(١) امين عز الدين : تاريخ الطبقة العاملة منذ نشأتها حتى ١٩١٩ ، ص ١٥٤ ٠
(٢) الأهرام ٣ سبتمبر ١٩١٤ ٠
(٣) الاكسبريس ٢٤ يناير ١٩١٥ ٠
(٤) نظارة الداخلية : مجالس المديريات ، ٦ سبتمبر ١٩١٤ ٠
(٥) الاكسبريس ١٥ اغسطس ١٩١٥ ٠

وبخلق صناعات جديدة تسد متطلبات الأمة بعد أن سلمت بأن الزراعة وحدها لا تكفي بالسير بمصر في طريق التقدم ، وفي ٨ مارس ١٩١٦ قرر مجلس الوزراء تأليف لجنة للتجارة والصناعة من كبار الرأسماليين المصريين وذلك لدراسة الأسس التي تشاد عليها الصناعة والنهوض بها وتوسيع نطاقها وترويج أسواقها خاصة وأن عوامل قيام الصناعة متوفرة في مصر حيث توجد المواد الأولية والقوى المحركة وانخفاض أجور الأيدي العاملة وكثرتها والأسواق (١) ٠

عقدت هذه اللجنة ثماني وثلاثين جلسة كان أولها في ١٣ مارس ١٩١٦ ، وزار أعضاؤها الورش والمصانع الموجودة بالقاهرة والاسكندرية وبقية مدن مصر للوقوف على الحالة الصناعية للبلاد وزاروا أيضا مدارس المهندسخانة والفنون والصناعات والتجارة العالية والمتوسطة ، وأجروا محادثات شتى مع التجار وكبار الصناع وكان يعرض نتائج المناقشات والزيارات هذه في اجتماعات اللجنة المتوالية ٠

وتألفت لجان فرعية من أعضاء اللجنة وأضيف اليهم آخرون من ادارة التعليم الفني والصناعي والتجاري للقيام بأبحاث خاصة ، وهذا أدى الى تمام الالمام بحالة الصناعات في مصر ، وقدمت اللجنة تقارير عن تأثير الحرب على التجارة والصناعة في مصر ٠

وكان أول أعمال اللجنة استبدال الأصناف التي انقطع ورودها بأصناف من مصنوعات البلاد وايجاد الأسواق المصرية لها ، وتخير الوسائل الكفيلة بتمهيد الصعوبات التي يلقاها التجار وأرباب الحاصلات من اختلال نظام التعامل بين الأمم بسبب الحرب ثم النظر في التدابير التي تضمن لتجارة مصر وصناعتها ـ بعد أن تنتهي الحرب ـ نهضة تعتمد عليها مصر للاستغناء عن الأسواق الأجنبية مع القيام بتوثيق رابطة التعامل لسد ما ألحقته الحرب من تغيير في النظام الاقتصادي للبلاد (٢) ٠

وقدمت اللجنة اقتراحاتها وهي تتلخص في تعديل نظام الجمارك واعفاء الصناعات من الضرائب الداخلية وفتح باب المدارس الصناعية والتجارية على مصراعيه ، والتوسع في خفض أجور النقل بالسكك الحديدية ومنح التسهيلات الخاصة بنقل المصنوعات المعدة للاصدار والاستهلاك المحلي في بعض الأحوال والمناسبات ، ومنح الأفضلية في المناقصات الحكومية للحاصلات المصرية والمصنوعات الوطنية ، ومنح اعانات مؤقتة وامتيازات بشروط خاصة لبعض المشروعات الصناعية أو الخاصة باستخراج المعادن ، وتقديم القروض بقصد تمكن

---

(١) Récueil des doc. relatif de la guerre, 13 Mars, 1916.
، تعرير لجنة التجارة والصناعة ، ص ص ٢٢١ ، ٢٤٥ ، ٢٥١ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ٠
(٢) وادي النيل ، ١٧ مارس ١٩١٦ ٠

الأفراد من الحصول على المال الكافى لانشاء بعض الصناعات أو ترقيتها وتحسينها ، والتوسع فى منح المساعدات المالية للمشروعات ذات المنفعة العامة ، وانشاء معهد للأبحاث الصناعية يتكفل بالنفقات والأعمال التمهيدية اللازمه لشرح الأساليب الجديدة وغيرها مما يعجز عنه الأفراد والجماعات والشركات الصناعية والفنية ، كذلك انشاء معمل فنى لتحليل واجراء التجارب وعمل الأبحاث العلمية ، واقامة المتاحف والمعارض التجارية والصناعية مما يكفل تنشيط الرقى الصناعى بفضل ما يمنح فيها من الجوائز ، والمساعدة على انشاء النقابات والتعاون وتعيين طائفة من الاخصائيين بصفة مفتشين ومعلمين متجولين للمساعدة على ترقية الصناعات الصغيرة بالارشاد ووسائل النصح والايضاح ونشر المعلومات العامة المتعلقة بالمسائل الصناعية والتجارية(١) أيضا نادت بانشاء بنك صناعى للمساعدة فى النهضة الصناعية حتى لاتكون المشروعات فى حاجة الى الاستعانة بالمصادر الأجنبية لذا فوجود هذا البنك ضرورى للتسهيلات المصرفية لمساعدة الصناعات القائمة (٢) ٠

وعهدت اللجنة الى طلعت حرب لوضع نظام لانشاء شركات تعاون فى المدن والقرى لتحسين تلك الصناعات ولتنظيم وسائل الحصول على الخامات وتصريفها ، وأحالت اللجنة على قطاوى باشا درس المواد المتعلقة بصناعة البناء ، وشرعت فى فحص تقرير كبير عن صناعة الفخار والخزف (٣) وبينت اللجنة أن سبب اضمحلال الصناعة راجع الى تخصص مصر فى الزراعة دون غيرها ، ونظام الضرائب وحمله على الصناع والمنافسة الأجنبية ما تدره من ضرر على البلاد وافتقار مصر الى الرأسمالية وأخيرا نظام البنوك وفشله فى تمويل الصناعات الأهلية ٠ وتعلقت الآمال بهذه اللجنة فى أحياء الصناعة الموجودة وايجاد المعدومة والبحث عن الأسواق التى تروج فيها المتاجر والمصنوعات الوطنية ٠

تنقسم الصناعات الى صغيرة وأخرى كبيرة ، أما عن الأولى فهى تقتصر على ورش صغيرة يشتغل بها عدد يسير من العمال ، وهناك أيضا من يزاولون عملهم فى حوانيت ضيقة يساعدهم صبيان ، وهذه الطائفة صاحبه المقام الأول فى الصناعة لأنها تضم الشطر الأعظم من الصناع وهى منتشرة فى جميع أنحاء مصر وتتمثل فى صناعة البناء ، النساجة وملحقاتها ، الصباغة ، الحدادة ، أشغال المعادن ، النجارة وملحقاتها ، الدباغة ، الأحذية ، صناعة الدقيق ، الصناعات الكيماوية (الزيوت ، الصابون ، الشمع) ثم صناعات الزخارف من صياغة ، نجارة دقيقة ، حفر معادن ٠

وتخصصت مدن مصر فى هذه الصناعات ، فالقاهرة على رأس الحركة

(١) د٠ محمد فهمى لهيطة : المرجع السابق ، ص ٢٨٦ ٠
(٢) تقرير لجنة الصناعة والتجارة ، ص ص ١٩ ، ٢٠ ٠
(٣) Bulletin Commercial, Sep. 3., 1916.

الصناعية والفنية ، والمحلة الكبرى تخصصت فى نساجة الأقمشـــة القطنية ، ودميـــاط نسج الحرير والأحــذية والنجارة الدقيقة ، وقليوب وأخميم لنساجة الأقمشة القطنية ، وأسيوط للنساجة والتطعيم وعمل الشبلان ، وقنا للفخار ، ونقادة للنساجة القطنية والحريرية ٠

وساعد النشاط الذى أحدثته الحرب فى معظـم الصناعات على زيادة عدد المشتغلين بالحرف الصغيرة ، ويعمل هؤلاء الصناع فى أماكن رديئة ، فاذا كان الصانع من أهل القرى اشتغل فى كوخه بين الأقذار وان كان من أهل المدن مارس مهنته فى ورشة منزوية فى بعض مهاجر المدينة وخرائبها فهمهم ايجاد مكان رخيص الأجرة ولا يهمهم الحالة الصحية رغم ما يستفيدون من مكاسب وأرباحا منذ نشوب الحرب ، هذا بالاضافة الى اتباع الأساليب القديمة فى العمل وهذا فى حد ذاته يسرف فى الخامات ويعطل الانتاج ويؤدى الى رفع الأسعار ، وقد تقدمت صناعات الصابون والدباغة والأحذية والقمصـــان تقدما عظيما بعد الحرب مباشرة ٠ (١)

أما الصناعات الكبيرة فهى تلك التى تتناول كميـــات وفيرة من الخامات وتباشر فى مصانع كبيرة تدار بالقوة الآلية مع استخدام عدد عظيم من العمال فيها ٠

الصناعات المعدنية : صناعة الحديد : وهى صناعة واسعة النطاق ، نشطت ابان الحرب ، وتشمل المنشآت المعدنية بكافة مظاهرها المتنوعة وأشكالها المتعددة كتشييد الورش والمبـــانى العموميـــة والجســور والخزانات والآلات والأجهزة وسكك الحديد والمحركات والمراجل والمضخات وآلات الرى ٠

ويوجد فى مصر كثير من المصانع والورش الكبيرة خاصة بانشاء المصنوعات الحديدية ، وتصليح المصنوعات القديمة ويشـــتغل بها عدد كبير من الصناع وبعضهم متخصص فى « تصليح الاوتوموبيلات والموتسـكلات من شــكمانات ورفارف وقزازه وسلندرات » ٠ (٢) وأهم هذه الورش : عنابر السكك الحديدية وهى تعمل لتصليح القاطرات والعربات ومركزها بولاق ولها ورش فرعية فى الاسكندرية وطنطا وبولاق الدكرور والواســـطة والمنيا وســـوهاج والأقصر والسيدة زينب ويبلغ مجموع العمال بها حوالى ٥٫٠٠٠ ، وهنـــاك أيضا ورش الترسانة وتشتغل بتصليح السفن الأمـــيرية وبأعمـــال هامة لمصلحة الرى ، وورش السجون ومركزها طره والقنـــاطر وورش القلعـــة وتقـــوم بتصليحات وعمل مصنوعات جديدة للجيش وهناك ورش تابعة لمصلحة الصحة والمساحة

(١) تقرير لجنة التجارة والصناعة ، ص ص ٥٣ ، ٥٤ ٠

(٢) Ministry of Public works, fourth cicle of Irrigation No. 10 - 2/15, p. 4, 8, 13, اذونات ورش ٠

ومخازن البوليس ومصلحة خفر السواحل والموانى والمنائر ، كذلك وجدت ورش صغيرة تعمل بصنع المسامير والصواميل والسلاسل وأحذية الخيل والنوارج وحديد المراكب (١) ٠

صناعة الذهب والفضة : صياغة المعادن صناعة دقيقة ، وما من مدينة فى مصر الا وبها سوق للصاغة وقلما نجد قرية من القرى الكبيرة الا وبها واحدا أو أكثر من الصياغ ، ويبلغ عدد المحترفين لهذه الصناعة ٢٢٣٢ صائغا طبقا لاحصاء مارس ١٩١٧ ، كانت القاهرة عدد صياغها ٦٠٩ وتلتها الاسكندرية اذ بلغ عددهم ٢٧٨ ، واختلف المبلغ المتداول فى تجارة المصوغات من سنة لأخرى اذ هو يتعلق بحالة موسم القطن والظروف المالية للبلد ٠

صناعة الأسرة : بالرغم من انقطاع الواردات ــ من الخامات ــ فان مصنع الأسرة الذى أنشىء ١٩١٣ نمتع برخاء ويسر بسبب الاقبال على منتجاته بعد أن اتقن عماله أعمالهم اذ أصبحت لا تقل اتقانا وتهذيبا عما يناظرها من البضائع الأوربية (٢) ٠

صناعة الساعات : انقطع الوارد وبدأت مصر تصنع الساعات وتذكر جريدة الوطن أنه « عندما رأت مصلحة السكة الحديد والتلغراف تعذر مجىء الساعات الكبيرة من أوربا فطلبت من يعقوب أفندى صانع الساعات أن يصنع لها ساعة كبيرة وبعد ستة أشهر تمكن من صنع الساعة ، ولقد أشاد الخبراء بصنعها » (٣) ٠

الصناعات الكيماوية : صناعة الورق : مع بداية الحرب بلغت أزمة الورق أشدها ٠ فهددت الحياة الأدبية فى البلاد ، وعانت منها الصحافة والتجارة ودوائر الحكومة والكتاب والمؤلفون وأصحاب المطابع وعمالها وتلامذة المدارس ، وكل فرد من أفراد الأمة ، وظهر ذلك جليا فى صغر حجم الصحف وارتفاع أسعارها وقل طبع الكتب العلمية حتى أن حركة المطابع وقفت واستغنت عن كثير من عمالها ، وتبعا لهذه الحال كان من الضرورى التفكير مليا ، بل والعمل المتواصل على انشاء مصانع للورق خصوصا وأن مواردها الأولية متوفرة فى مصر (٤) وشنت الصحافة حملة واسعة على ضرورة اقامة هذه الصناعة ، وقد استطاع « خليل عفيفى بك » أحد أعيان الزقازيق انشاء مصنع للورق ، تمكن فى ظرف عام واحد انتاج من ٣٫٥ الى ٤ مليون كيلو من مختلف الأوراق (٥)

---

(١) تقرير لجنة التجارة والصناعة ص ١٣٧ ٠

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٠٤ ٠

(٣) الوطن ٢٤ أغسطس ١٩١٧ ٠

(٤) La Bourse Egyptienne, 18 Mai, 1917.

(٥) مصر ١١ يوليو ١٩١٦ ٠

كما وجد مصنع آخر لورق اللف الخشن أنشيء فى ١٩٠١ ولكنه كان فاشلا وبنشوب الحرب امتنعت مزاحمة النمسا ، فأخذ المصنع ينتج ويستهلك انتاجه وربح أرباحا عالية حتى بلغ انتاجه في عام ١٩١٦ = ١٠٠ طن من ورق اللف ، ٢٠ طن من الورق الأبيض (١) ٠ ووجهت الحكومة اهتمامها لتلك الصناعة فغطت السوق باحتياجاتها ٠

صناعة الصابون : صنع فى مصر كميات كبيرة وذلك لسد طلبات المصريين واستخدمت أيضا لخدمة الجيوش الموجودة فى مصر ، وبالرغم من الارتفاع الفاحش فى أثمان التلك وزيت الكبريت اللازمين لعمل الصابون الا أنه قد أصبح فى طاقة المعامل أن نصنع الصابون بالزيت الأبيض المكرر نوعين راجا رواجا عظيما وحلا محل الصابون الذى كان يرد من فلسطين وسوريا واليونان بعد أن انقطع وروده ، فظهر الصابون البلدى فى الأسواق ، وهذا دفع أصحاب الأموال الى تأسيس مصابن كبيرة وكثيرة ، فزاد عددها أثناء الحرب كذلك زاد انتاج شركة الملح والصودا من كميات الصابون (٢) ٠

صناعة الكحول : مع بداية الحرب أدخلت عليها تحسينات كبيرة ، حتى أنه أنتج فى عام ١٩١٥ = ١١٫٠٠٠٫٠٠٠ كيلو من الكحول ، ولكن قلة الخامات خفضت من كمية الانتاج فى ١٩١٦ اذ أصبح الانتاج حوالى ٩٫٠٠٠٫٠٠٠ كيلو وكانت له أيضا أسواقا رائجة فى البلاد الأجنبية أثناء الحرب ٠

تكرير الكونياك : منذ نشوب الحرب اتسعت صناعة تكرير الكونياك والروم ، ونشطت هذه التجارة مع انجلترا على أثر امتناع فرنسا عن التصدير وزادت المقطوعية المحلية له ٠

صناعة الكاوتشوك : أنشيء مصنع للكاوتشوك لسد الطلبات بعد وقف الاستيراد ، وأصبح به عددا من الصناع المصريين المهرة استطاعوا الوفاء باحتياجات مصر (٣)

الصناعات الغذائية : السكر : انتعشت صناعة السكر وارتفعت أرباحها

م	ج	
٩٥٠	٥٤٫٠٦٧	صافى أرباح السنة المنتهية فى ١٩١٤/٨/٣١
٩٧١	١٧١٫٩٢٩	صافى أرباح السنة المنتهية فى ١٩١٥/٨/٣١
٩٣٧	٣٠٢٫١٤٩	صافى أرباح السنة المنتهية فى ١٩١٥/٨/٣١(٤)

---

(١) تقرير لجنة التجارة والصناعة ، ص ٢٠٢ ٠

(٢) حسين علي الرفاعى : المرجع السابق ، ص ٥٥٣ ، الاكسبريس ٦ يناير ١٩١٨ ٠

(٣) تقرير لجنة التجارة والصناعة ، ص ص ١٩٩ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ٠

(٤) الغرفة التجارية ، ابريل ١٩١٨ ، ص ١٤٠ ٠

ولكن الشركة عاملت الأهالى والتجار بقسوة بالغة • فقد استطاعت اقناع الحكومة باحتكار عصير القصب فى معاملها ، فتحكمت فى الأسـعار لأنه عند بداية الحرب وحدوث أزمة القطن ١٩١٤ هب الأهالى يكثرون من زراعة القصب وتهافتوا على شركة السكر ، فأرادت أن تعاقبهم على عدم زراعة القصب قبل الحرب ، وكانت تعلم أن الفرصة قد انيحت لها اذ منعت الحرب المزاحمه من الخـارج ، فأصبحت الشركة هى الحاكم بأمرها ، فوصل انتاجها من السكر فى العام أثناء الحرب حوالى ١٠٠٫٠٠٠ طن وهـذا القدر يزيد على مقطوعيه الأسواق المصرية بنسبة ٢٠٪ ، وبفضل انقطاع التجارة النمساوية من البحر المتوسط أصبح فى استطاعة الشركة أن تصدر الى الخارج أكثر من ٢٠٫٠٠٠ طن بأسعار رابحة ، وكثر عدد العمال المشتغلين فيها حتى وصلوا الى ١٧٫٠٠٠ عامل ، وراجت منتجات السكر رواجا كبيرا ، وكثر الطلب عليها سـواء فى الأسواق الداخلية أو الخارجية مما أدى الى توسيع ورش الأشغال المعدنية بها . فأصبحت فيما يختص بمعدات الصناعة وآلاتها مستقلة بعض الاسـتقلال عن المصانع الأجنبية ، وهى من هذا الوجه تؤدى الى القطر خدمة جليلة بتكوين صناع وطنيين مهرة فى جميع الحرف والصناعات • (١)

صناعة الزيوت : بلغ ما حولته المعاصر فى ١٩١٤/١٩١٥ من بذرة القطن الى زيوت وأقراص = ١٫٢٢٠٫٠٠٠ أردب ، وهو يعادل ربع محصول البذرة ، وتخرج ما ينيف عن ١٠٫٠٠٠ طن من الكسب ، وهذا يعادل عصر حوالى ١٤٠٫٠٠٠ برميل من الزيت ، وأهم المعاصر موجودة فى كفر الزيات(٢) •

وفى الوجه القبلى يقتصر الزيت على الخس والسمسم والدخن ، أما فى الوجه البحرى فينحصر فى بذور الكتان والقطن ، وكثرت المصـانع الصغيرة لاستخراج الزيوت من السمسم البلدى المصرى ، واستخراج السيرج والطحينة من السمسم والسوداني وعمل الحلوى بسائر أنواعها ، واستثمرت الأموال فى ذلك فأقيمت المصانع مثال مصنع الخضرى ـ الذى راجت بضاعته من الزيوت ـ على شاطىء المحمودية (٣) •

كذلك قدمت شركة الملح والصودا انتاجها من الزيت ، « ولولا زيت هذه الشركة الآن لتعذر حصول القطر على هذا الصنف بعد أن امتنـع وروده من اليونان وغيرها من البلاد الأوروبية »(٤) •

---

(١) تقرير لجنة التجارة والصناعة ، ص ١٨٠ •
(٢) نفس المصدر ، ص ص ١٥١ ، ١٨٥ •
(٣) الاكسبريس ١٣ أبريل ١٩١٧ •
(٤) نفس المصدر ٦ يناير ١٩١٨ •

صناعة البيرة : من بين الصناعات المصرية العديدة التى كانت الحرب سببا فى اتساع نطاق أعمالها صناعة البيرة ، وكانت النمسا تصدر البيرة الى مصر . وقضت الحرب على المزاحمة الخارجية حتى أن مصانع البيرة راجت رواجا عظيما وزادت أرباحها ، ومثلت زيادة مقطوعية البيرة فى مصر دليلا على أن معامل البيرة الوطنية قامت مقام المعامل الأجنبية بل وسبقتها (١) . ويشمل مصنع بيرة التاج بالقاهرة على معدات وآلات متقنة ، وارتفع الانتاج من ٣٠٠٠٠ر٣٠ هكتولتر الى ٩٠ر٠٠٠ هكتولتر فى العام منذ نشوب الحرب ، كذلك سدت صناعة البيرة متطلبات الجيوش الانجليزية (٢) .

العلف المسكر : وهو خليط من العسل الغير نظيف والتبن وأنشىء له مصنع بوشر العمل فيه منذ منتصف عام ١٩١٥ ، وبلغ مجموع نتاجه فى مدة عام ٢٣ر٥٠٠ طن ، وقد أوقف على تموين الجيوش البريطانية ، اذ استغلته السلطة لاطعام خيولها وبغالها (٣) .

السمن الصناعى : زاد انتاج السمن الصناعى لاحتياجات السلطة العسكرية (٤) .

صناعة النشا : ظهرت هذه الصناعة عقب بدء الحرب اذ توفر لها الخامات ، فالنشا يستخرج من الحاصلات الزراعية وخاصة القمح والذرة والأرز (٥) .

صناعة الكازوزة : راجت هذه الصناعة رواجا واضحا ، وكانت متقنة الصنع فعلى لسان شاهد عيان « وقد سررت عندما شاهدت الاستعدادات العظيمة والنتائج الحسنة ، وقد تناولنا شيئا من أصناف الكازوزة ، وتفقدنا آلات المصنع فكان شيئا من الاذهال » (٦) . كذلك ازدادت ونشطت مطاحن الغلال .

المصنوعات الحيوانية : صناعة الجلود : لما كانت الزراعة صاحبة المنزلة الأولى فى مصر وكانت تربية المواشى عاملا من أهم عوامل الزراعة ، توفر فى كل عام كمية عظيمة من الجلود الخام ، والعادة فى تصريف هذه الجلود أن جانبا كبيرا من جلود الضأن والجاموس ينظف ثم يجفف ويملح لوقايته من التعفن وبعد ذلك يصدر البعض الى أوربا للدباغة ، والبعض يعالج بالصناعة داخل البلاد ، فجلود الضأن تحول الى فراء وسجاجيد وجلود الماعز يصنع منها

---

(١) المحروسة ١٨ يناير ١٩١٧ .

(٢) تقرير لجنه التجاره والصناعه ، ص ٢٠٤ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٩٨ .

(٤) Ministry of Finance, report on the work of the Government analytical laboratory assey office, p. 15.

(٥) تقرير لجنة التجارة والصناعة ، ص ٨٥ .

(٦) العدل ، ٨ مايو ١٩١٥ .

الغرب ، وكثير من الجلود يقدم للدباغة ويوجد في القاهرة والاسكندريه حوالى أربعون مدبغة ، وأثرت الحرب على هذه المدابغ ، فكثر الاقبال عليها ، فارتفع ثمنها ، وأسرعوا في تحضيرها فردأت أنواعها ٠

صناعة الأحذية : تقدمت تقدما عظيما في فترة الحرب ، فقد أنشئت مصانع عديدة لعمل الأحذية أما بصفة مصانع ملحقة ببعض المحال الكبيرة المشتغلة بتجارة الأحذية ، وكان ذلك بالقاهرة والاسكندرية وسائر المراكز التجارية الكبرى أو بصفة مصانع مستقلة تقدم ما تصنعه من الأحذية الى أصحاب المحال التجارية الصغيرة ، وتنحصر معظم الأشغال التى تقوم بها المصانع المستقلة في عمل الأحذية الرخيصة ، واشتهرت دمياط بنوع خاص في صناعة هذا النوع من الأحذية (١) ٠

أما عن الألبان ومنتجاتها فبانقطاع الوارد أنشئت مصانع لانتاج الزبد والجبن والكريمة على طراز مصانع ألبان أوربا وانتشرت في أنحاء مصر (٢) ٠

تنقية الصوف : لم يصنع الصوف في مصر ، ولذا أثرت الحرب فيه فوصل سعر القنطار الى أربعة جنيهات وخمسة بعد أن كان لا يتجاوز الجنيهان ، واقتصرت حرفة الصوف في مصر على تنقيته ، فكثرت الورش لهذا الغرض ، وبعد تنقيته كان يفرز كل لون منه على حدة ٠ وبعد ذلك تكدس هذه الأصواف وتعبأ في أكياس وتشحن الى ليفربول وجنوه وغيرهما من بلدان أوربا (٣) ٠

الصناعات المعمارية : صناعة البناء : نشطت وأصبح أكثر بدائع أشغال الزخرفة والتصوير بالجبس بأيد مصرية ، وخصصت في المدارس الصناعية أقسام للمباني ٠

صناعة الطوب : أنشىء مصنع كبير بالعباسية تدار أجهزته بآلتين بخاريتين احداهما بقوة ٢٢٥ حصانا والأخرى بقوة ٧٥ حصانا وجميع عماله مصريون ٠

صناعة مربعات الأسمنت : يوجد في مصر خمسين معملا ، وأهمها المصنع الذى يشغل مساحة قدرها ١٦٠٠٠ م٢ ويشتمل على ٩ مكابس مائية قوية . وعلى عدة مطاحن ومساحق آلية وخلاطات كلها تدار بآلة بخارية قوتها ٢٧٥ حصانا وصل انتاجه اليومى أثناء الحرب ١٠٠٠ م٢ من أنواع المربعات على اختلاف أصنافها فهو يخرج مربعات للاصطبلات ولتغطية الجدران والحمامات ولتبليط الأسطح ٠

صناعة الفخار : انتعشت هذه الصناعة بنشوب الحرب لوقوف الوارد اذ

(١) تقرير لجنة التجارة والصناعة ، ص ص ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ٠

(٢) La Verité, 17. Avril 1918.

(٣) تقرير لجنة التجارة والصناعة ، ص ٢٠٦ ٠

أصبح فى طاقة المصنع أن يعنى بمطالب مصر ، وقد توسع اذ بلغ أربع أفران عاملة ، واثنى عشر دولابا ومضربا للطوب .

شركة الأسمنت : أصبح انتاجها فى أثناء فترة الحرب يضارع الأسمنت الأوربى ، وعمال المصنع كلهم مصريون ، وأصبح انتـــاجه له سوق رائجة لدى عدد كبير من مصالح الحكومة ومعظم المقـــاولين الخصوصيين فالحرب جعلت المصنع يبيع انتاجه بسهولة تامة .

ونشطت أيضا أقسام مصنع سورناجه التى تضم الطوب المصنع بالآلات على اختلاف أنواعها والأنابيب وملحقاتها المصنوعة من الفخار والأدوات الصحية ، والأدوات المصنوعة من الفخار الذى يقاوم النار والجير المائى والأسمنت والجبس الرمادى والأبيض ، وأسس عـام ١٩١٦ قسم جديد هو قسم الفخار والصينى المزخرف وأدوات المعامل والعوازل الكهربائية ، وبنى أيضا أول فرن لاعداد عمل الصينى والقشانى فى عام ١٩١٧ (*) .

صناعة الأخشاب : وجدت فى مصر مصانع كبيرة للأخشاب فى القاهرة والاسكندرية ودمياط وطنطا والمنصورة ، وقد اهتمت مصر بصناعة الأخشاب ، فخصص فى المدارس الصناعية عدد كبير من تلاميذها للاشتغال بهذه الصنعة ، واشتهرت صناعتهم بالجودة والاتقـان ، كذلك شجعت هـذه الصـناعة فى الورش الصناعية بكل من بولاق والمنصورة وأسيوط ، وتوجد أيضا للحكومة مصانع تصنع فيها عربات النقل والمركبات وعربات السكك الحديدية ، كذلك يقوم العمـال المصريون بتصليح المحطات والمكاتب والأكشاك وغيرها ، وهذه الورش نشطت وغدت فيها حركة عظيمة منذ نشوب الحرب ، وذلك لكثرة ما لديها من أشغال السلطة التى تتضمن العربات والمركبات وكبارى الخشب وأرجل الحمير والصناديق ، وثبت أن مصـنوعات هـذه الورش لا تقل عما يناظرها فى المصنوعات الأوربية .

وأحـــدثت الحرب تأثيرا واضحا فى صناعة الأثاث لقلة الواردات من المصنوعات الخشبية ، فقد هبطت قيمتها من ١١٨٫٠٠٠ جنيه فى ١٩١٣ الى ٢٠٫٠٠٠ جنيه فى ١٩١٥ ، ١٤٫٧٦٢ جنيها فى ١٩١٧ وهذا دفع التجار الذين يستوردون الأثاث من الخارج الى انشاء ورش جديدة وتوسيع ورشهم القديمة وأدخلت الآلات الميكانيكية الحديثة لنشر الأخشاب وخرطها واعطائها الأشكال المناسبة المطلوبة .

(*) نفس المصدر ، ص ص ١٦٢ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ١٨٩ ، ١٩٤ .

صناعة الغزل والنسيج : شركة الغزل الأهلية : وهى شركة كبيرة لديها ٢٠ ألف مغزل ، ٦٥٠ نولا تديرهما آلة بخارية قوتها ١٠٠٠ر١ حصان . وآلة احتياطية قوتها ٦٥٠ حصانا ويقوم بالعمل فيها ٨٠٠ عامل معظمهم وطنيون ، وبنشوب الحرب سافر رؤساء العمال الأوربيون فكانت فرصه للعمال المصريين حيث أحلوا مكان هؤلاء الرؤساء ، فأثبتوا اقتدارهم فى مزاولة ما عهد اليهم من الأشغال ، واستطاعت الشركة أن تنتج بعد قيام الحرب من الغزل ٣٥٠٠ رطل انجليزى ، ومن النسيج ما يتراوح بين ٨ ، ٩ ملايين ياردة ، وبذلك زاد انتاجها عما كان عليه قبل الحرب بما يتراوح بين ١٥ ، ٢٠٪ ، وكانت الشركة قبل الحرب نصدر منتجاتها بالذات لتركيا ، ولكن بانقطاع العلاقات بين تركيا ومصر رأت الشركة حتمية تصريف منتجاتها داخل مصر ، فسعت بكل الطرق لاكتساب ميل الجمهور الى منتجاتها ونجحت فى ذلك ٠

المغزل الأهلى بالاسكندرية : نشطت أعماله حتى أنه فى عام ١٩١٦ استهلك ٠٠٠ر٥٠ قنطار من القطن وصنع من الخيوط ما قـــدره ٠٠٠ر٥٠٠ر٣ رطل انجليزى ، ومن المنسوجات ما يتراوح بين ٨ ، ٩ ملايين من الياردات ٠ وقد كان للحرب العالمية أثر عظيم فى الاعتماد على الخيوط الأهلية بعد الخيوط الرفيعة التى كانت ترد من انجلترا وايطاليا والصين (١) ٠

كذلك بدأت مصر تهتم بصناعة الحـــرير ، فـــربت دودة القز لهذا الغرض (٢) ، وازدهرت صناعة الملابس فأنشئت المصانع الجديدة منها ذلك المصنع الذى كان الهدف منه تموين الجيوش البريطانية من جهة وسد احتياجات الشعب وتوريد الملابس الى المصالح الأميرية والى الشركات الخاصة من جهة ثانية خصوصا بعد وقوف الواردات الألمانية والنمساوية من الملابس الجاهزة التى كانت باسطة نفوذها على الأسواق المحلية ، ووصل معدل انتاجه الى ٣٠٠ بدلة فى اليوم ، وذلك لكثرة المشتغلين به من العمال ، وبفضل آلاته ومعداته التى تدار بالقوة الكهربائية ٠

واستحدثت أثناء الحرب صناعة الملبوسات الكتانية ، فأنشىء لها مصنع بالقاهرة عام ١٩١٦ وجهز بمعدات وآلات حديثة الطراز ، وتعددت منتجاته من أقمشة وقمصان صوف قصيرة وسراويل قصيرة وفانلات وصداريات صوف وأطقم داخلية وجوارب رجالى وحريمى وعنتريات وكوفيات وطـــرح وسيلان وفانلات للألعاب الرياضية وبدل للأطفال (٣) ٠

---

(١) نفس المصدر ، ص ص ٦٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ٠

(٢) L'Egypte Contemporaine, Decembre 1914, p. 228.
La Bourse Egyptienne, 22 Août, 1917.

(٣) تقرير لجنة التجارة والصناعة ص ص ١٢٧ ، ٢٠٢ ٠

وارتبطت بصناعة الملابس تأسيس معامل للحياكة لشغل جميع أصناف البياضات (١) والفانلات والملابس الداخلية والقمصان وأصناف أخرى بلغت فى حدود الخمسين صنفا التى تحاكى واردات أوربا بجودتها الفائقة ومتـــانتها واتقانها (٢) • كذلك أنشىء مصنع للملابس الجـاهزة والحياكة فى الترعـــة البولاقية فى يولية ١٩١٦ وحوى على مختلف الأنواع من الجوارب للسيدات والرجال والأولاد سواء من الحرير أو القطن ومعاطف للسيدات وصدارى للرجال وأحزمة وأثواب مختلفة وكلها ذات ألوان جميلة ثابتة تدل على حسن الذوق فضلا عن اتقان الصنعة (٣) •

أما من ناحيـــة الصـــناعات النســائية ، فتقدمت بشـــكل ملحوظ ابان الحرب ، ففى عام ١٩١٦ أنشىء مصنع الأشغال النسوية ، ظهر فيه فن المرأة المصرية فى التطريز والليسيه فنقلت رسوماتها من الفن المصرى فى العصر اليونانى والرومانى والقبطى ثم العـــربى ، وبلغ الكثـير من الأشـــغال التى أخرجتها المرأة المصرية حدا رائعا من الجودة ، فلقيت اقبالا فى شرائها ، وفى عام ١٩١٧ زاد عدد العاملات بالمصنع فطرزن الملابس النسوية الداخلية الرقيقة حتى بلغت قيمة الأشغال التى صنعها هؤلاء العاملات فى أحد الأسواق التى أقيمت ٤٫٠٠٠ جنيه كذلك أنشىء مصنع للأشغال النسوية بالاسكندرية كان مثلا فائقا فى انتاج الدانتل والبرودرى والفلترية على الأقمشة الحريرية (٤) •

وبدأت المرأة تغزل الخيوط العادية والمستعملة فى التطريز ونسج الاقمشة والتريكو ، وتقوم أيضا بصنع الناموسيات وشباك الصيد ومناديل الرجــــال وطواقى الصبيان والعصبات وأشغال السنارة والابرة من كروشيه وتريكــــو وعمل الشيلان والتلافيح ، كذلك اشتغلت فى صناعة الأكلمـــة وفرز « الفحم الحيوانى » المستعمل فى تكرير السكر وأيضا فى صناعة الشيكولاته وبقيـــة أنواع الحلوى (٥) •

صناعة الطرابيش : كانت الطرابيش ترد من النمســـا ، وبعـــد انقطاع العلاقات الذى كان من نتيجتـــه أن قام اسماعيل عاصم باشا بانشاء مصنع للطرابيش فى قها يضم ١٨٠ عاملا وعاملة وآلته قوتها ٢٤ حصانا بخاريا ، وأصبح ما يخرجه يوميا ٨٠٠ طربوش ، فأقبل النـــاس على شرائها متهافتين عليها ، وهذا فى حد ذاته شجع أصحاب المصانع على توسيع أعمالهم ، فتضاعفت

---

(١) ديوان معية سنية ، دفتر صادر ، رقم السجل ٤١٦ ، ٢٨ يونية ١٩١٦ •
(٢) الديوان العالى السلطانى ـ محفوظات الوارد الرسمى والغير رسمى ، ٢٠ يوليو ١٩١٦ •
(٣) العمران ، يولية ١٩١٦ ، ص ص ١٦٥ ، ١٦٦ •
(٤) La Bourse Egyptienne, 22 Août, 1917.
(٥) د• محمد فهمى لهيطة : المرجع السابق ، ص ص ٣٠٥ ، ٣٠٦ •

مقطوعية مصنع الطرابيش بسبب ازدياد القوى الشرائية (١) ولقيت منتجاته نجاحا فى الأسواق الخارجية لما لها من اتقان لا يقل عن الطرابيش المستوردة ٠

حتى صناعة القبعات ازدهرت وانتشرت فى السوق المصرية ، كما صنعت القبعات الحربية لسد احتياجات الجيوش البريطانيـــة فأفتتح مصنع شبرا للقبعات عام ١٩١٦ لسد الطلبات المتزايدة (٢) ٠

صناعة السجاجيد : على أثر قيام الحرب زيد من نشاط المدارس الصناعية بأسيوط ونجع حمادى وبنى سويف فى صناعة السجاد ، فتقدمت مصر فى عمل السجاجيد من الصوف ذى اللون الطبيعى وحالف هذه الصناعة الكثير من النجاح (٣) ٠

عمل الحصر والقش (السمار) : نشطت أثناء فترة الحرب وتركزت فى المنوفية والغربية وكفر الحصر ودمياط وأقبل الأهالى على استعمال السلال المزخرفة المصرية الصنع فراجت رواجا عظيما (٤) ٠

وازدهرت صناعة الزكايب والأكياس التى كانت قبل الحرب تكون مشكلة كبيرة بالنسبة لتصدير القطن ، ولكن بقيـــام الحرب وكأغلبية ما صنع صنعت هذه الأكياس (٥) ٠

صناعة السجاير : لقد شجع ما أصاب البلاد الأخرى التى تصنع السجاير من العطل فى سنى الحرب هـــذه الصناعة فى مصر ، فأبيحت زراعـــة الدخان ، وأصبحت المقطوعية تكفى مصر بل وتصدر لبريطانيا واستراليا وفرنسا وايطاليا، وزادت القيمة المصدرة فى كل سنة من سنوات الحرب عن الأخرى (٦) ٠

وقد تمكن أرباب الصناعات بفضل مجهوداتهم من سد حاجة مصر الى الكثير من الأصناف التى انقطعت ، وبفضل هذه المجهودات أمكن التقليل من الغلاء الفاحش « فبأى أسعار مدهشة كنا نضطر الى ابتياع ما نحتاج اليه من السكر والزيوت والأسمنت والكحـــول والطرابيش وأنواع الأثاث اذا كانت الصناعة المنتجة لهذه الأصناف غير موجودة فى مصر » (٧) ٠

وكان من أهم نتائج قيام لجنة التجارة والصناعة اقامة المعرض الصناعى

---

(١) الاصلاح ٢١ يونيو ١٩١٧ ، التجارة ، ٨ سبتمبر ١٩١٨ ٠

(٢) Le Journal du Caire, 15 Jan. 1916.

(٣) La Bourse Egyptienne, 20 Jan. 1915.

(٤) تقرير لجنة التجارة والصناعة ، ص ١٢٨ ٠

(٥) Le Progres Egyptien 16, Mai.

(٦) مليكة عريان : المرجع السابق ، ص ٩٧ ٠

(٧) تقرير لجنة التجارة والصناعة ، ص ٦٠ ٠

بحديقة انطونيادس بالاسكندرية حيث عرض فيه ستة وعشرين نوعا من الصناعات قاموا بها صناع مصريون لأول مرة منذ نشوب الحرب ، وكثر زواره وكان ذلك في حد ذاته تشجيعا للصناعة المصرية .

بهذا نرى أن الحرب كانت بمثابة حماية للصناعات الوطنيه فأدت الى تحسن وضع الصناعات القائمة ، والتى كان بعضها مهددا بالافلاس ، اذ استطاعت أن تثبت مركزها وتجنى أرباحا وفيرة بسبب احتكارها للسوق المحلية ، وأتاحت الحرب الفرصة للمنتجين لانشاء المصانع ولكن رغبتهم فى عرض السلع في السوق فى أقصر وقت جعلتهم يغفلون الأخذ بأساليب الانتاج الحديثة وذلك لتعذر استيراد الآلات الكبيرة ذات الكفاية الانتاجية ، هذا بالاضافة الى نقص التعليم الصناعى الحديث . لهذه الأسباب كان معظم المشاريع التى ظهرت لمواجهة ظروف الحرب من النوع الذى يتبع نظم الانتاج الفنى الضيق ، ولكنه بالرغم من صغر حجم المشروعات الصناعية هذه ، ورغبتها فى تحقيق ربح عاجل فانها كانت بمثابة الحجر الأساسى للنهضة التى تمت فى الفترة التالية للحرب .

التجارة الداخلية :

قامت الحرب فكان لها تأثير كبير وواضح على الحالة التجارية الداخلية فمصر منذ الاحتلال البريطانى وهى تعتمد كل الاعتماد على الواردات الأجنبية وذلك لتغطية احتياجاتها المحلية من دقيق وبترول وماشية وفواكه ومصنوعات ، فلما قامت لحرب انقطعت هذه الواردات ، وبالتالى أصبح على مصر أن تكفى نفسها وأن تغطى احتياجات جيوش الامبراطورية المرابطة على أرضها من تموين وخلافه ، وهذا فى حد ذاته موقفا عصيبا مرت به مصر أثناء هذه الفترة كانت أولى نتائجه ذلك الارتفاع الهائل فى الأسعار اذ ارتفعت عما كانت عليه قبل الحرب بمعدل ٢٣٧٪ (*) .

وتعددت الأسباب التى أدت الى هذا الارتفاع ، وكما ذكر . فقلة الموارد من البضائع والمحاصيل المجلوبة من أوربا بسبب انقطاع معظم المصانع الى صنع الذخيرة والأسلحة ومهمات الجيوش وانفصام العلاقات مع ألمانيا وحلفائها حرمت مصر مما يصدر اليها ، وكان ممكنا للدول المحايدة أن تستمر فى علاقاتها التجارية مع مصر ، ولكن هناك عقبات أمام ذلك ، فقد قطعت طرق المواصلات بين مصر والدول الغربية هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى حرب الغواصات التى شنتها ألمانيا على السفن قلل من البضائع الواردة ، اذ

(*) Galatoli : Egypt in mid passage, p. 15.

أغرقت الباخرة « نيس » فى البحر المتوسط وكانت محملة ببضائع قيمتها ٢٠٠ ألف جنيه لصالح التجار المصريين • ولم يعد من السفن التجارية فى ميناء الاسكندرية الا سفن الأمم المحايدة وهى قليلة جدا ، هذا بالاضافة الى الارتفاع الكبير لقيمة الشحن للبضائع الواردة ، وعلو السوكرتاه على كل ما يرد من الخارج (١) •

وهذا انعكس على داخلية البلاد ، فباعلان الحرب ارتفعت الأسعار ، وبسرعة فائقة أقبل الناس على شراء تلك المواد وخزنها خوفا من نفاذها وأصبح الرث العتيق يباع فى الأسواق بأثمان باهظة حتى البضائع الموجودة فى المخازن منذ عشر سنوات وأكثر والتى كان أصحابها يتمنون بيعها وأكل الدهر منها وشرب أصبحت بأغلى الأثمان ذات قيمة وكثر الطلب عليها (٢) •

ومما زاد رفع أثمان البضائع احتياجات الجيوش البريطانية الى جانب كبير منها واقبالها على شرائها من غير تدقيق ولا حساب ، فربح التجار وتحمل الشعب عبء خسارة ثقيلة لأن التجار اضطروه للشراء بالأثمان التى يشترى بها الجيش . وكان من نتيجة ذلك نشأة فئة ربحت واستفادت من هذه الظروف، وضحى البعض بوظائفهم ، وتركوا أعمالهم وأنشأوا « الكانتينات » لتموين الجيش البريطانى (٣) •

كذلك غنم أصحاب الحوانيت من جراء ذلك مبالغ طائلة وربح تجار الماشية والألبان والخضروات وأصحاب القهاوى والحانات وتجار الكحول والدخان والسجاير والمطاعم وانفقت الجيوش البريطانية فى مصر ما يقرب من ٨٥ مليون جنيه مصرى(٤) وهذا الذى دفع الحكومة لاصدار أوراق البنكنوت واحلاله محل النقد الذهبى ، وكان من نتيجته التضخم المالى الكبير اذ كثرت النقود بين أيدى الناس ورخصت وبالتالى غلى ما يشترى بها •

فوق ذلك فقد دخل الميدان التجارى الوسطاء ، فغزت المضاربة التجارية السوق ، فارتاده أناس ليسوا بتجار ولا بباعة بل هم مضاربون يشترون البضائع ويرغبون غيرهم فى ابتياعها منهم بثمن غال فيزداد الثمن أضعافا حينما يصل الى يد من يضطر الى شرائها ، وبهذه الطريقة يربح الوسيط فى ظرف بضعة شهور ثلاثة وأربعة آلاف جنيه (٥) •

ولعب التجار دورا مهما فى المساعدة على ارتفاع الأسعار وغلو الأشياء ،

---

(١) الشعب ٣ اغسطس ١٩١٤ ، المقطم ٤ ديسمبر ١٩١٥ •

(٢) المقطم ١٤ فبراير ١٩١٦ ، وادى النيل ٢٥ نوفمبر ١٩١٧ •

(٣) الاخبار ١ مارس ١٩١٦ •

(٤) الاكسبريس ١ اغسطس ١٩١٥ Issawi : Egypt in Revolution, p. 31.

(٥) المقطم ٧ فبراير ١٩١٨ •

ففشا داء الاحتكار والتلاعب بالأثمان ، فبمجرد أن أعلنت الحرب خزنوا القمح في مخازنهم والبعض أخفاه عن الأعين في أماكن مجهولة ورفعوا أثمان حاجياتهم وطمعوا وازدادت رغبتهم في الثراء فمثلا صنف معين يكون في ساعة معينة بعشرة قروش اذا به باثنى عشر فبخمسة عشر فبعشرين وهذا كله بعد ساعات معدودة من نفس اليوم وتلاعبوا بالاسعار فمثلا طن الفحم بيع فى صباح ب ١٨٠ قرشا وفجأة ارتفع الى ٢٠٠ قرش وفى نفس اليوم وصل الى ٣٠٠ قرش (١) .

وكان أغلب هؤلاء التجار أجانب ، فعندما أحسوا بالأزمة أكثروا من شراء البضائع بأثمان بخسة وكفوا عن البيع حتى واتتهم الفرصة فانتهزوها ، أما المصريون من التجار فاكتفوا بالاشتغال بالتجارة البسيطة ولم يستفادوا مثل الأجانب الذين أصبحت التجارة كلها بأيديهم ، وحاولت الحكومة ، الضغط عليهم عن طريق الاجتماع بقناصلهم ومطالبتهم بالكف عن استغلال الشعب (٢) ولكن بدون فائدة واستمرت الأسعار تعلو فرأت الحكومة أنه يجب عليها أن تظهر بمظهر المحافظة على مصلحة مصر وحماية شعبها من أثر الحرب باتباع سياسة انقاذ ما يمكن انقاذه ، ولكن ككل اجراء سياسى حدث لمصر أثناء الحرب كانت الاجراءات الاقتصادية التى اتخذتها الحكومة ، فهى لا تصدر أى أمر الا بعد موافقة انجلترا وأن يكون وفقا لمصالحها ومتمشيا مع اقتصادها وتموين جيوشها على أرض مصر .

كانت أولى الاجراءات التى رأت الحكومة المصرية أن تتخذها ، منع تصدير المواد الغذائية والحاصلات المصرية للخارج وفرضت عقوبة على كل من يجرؤ على التصدير وأناطت المراقبة بخفر السواحل وبمصلحة الجمارك ولصقت الاعلانات تحذر على من يضبط بأى بضاعة مصدرة بأنها ستوقع عليه عقوبة الاعدام(٣) .

لكن الحكومة رجعت وأباحت التصدير الى الخارج ، فارتفعت الأثمان لمجرد سماع شكوى بعض التجار فصدر الأرز والفول السودانى والسمسم والزيوت والخضروات والسكر والدقيق والبيض والبصل (٤) . وهذا الموقف المذبذب من الحكومة ازاء منع اباحته ثم تقيده شجع القائمين على التجارة باحتكارها وبرفع أسعارها .

ثم رأت الحكومة أن تعمل على فك الأزمة من ناحية أخرى ففاوضت جماعة من التجار المشهورين لكى تشترى منهم كميات وافرة من الأرز والسكر والبن وسائر المواد الغذائية ثم تخزنها هى وبالتالى تبيعها للشعب بأثمانها ولكن هذه

---

(١) وادى النيل ١٧ فبراير ١٩١٦ ، الوطن ٥ اعسطس ١٩١٤ ،
The Egy. Gazette, August, p. 1914.

(٢) الشعب ١٧ اغسطس ١٩١٤ .

(٣) الحكومة المصرية : كوبيا السواحل الغربية ، ٢٠ مارس ١٩١٦ ، ص ٢٠١ .

(٤) المؤيد ٢٤ فبراير ١٩١٥ .

الطريقة لم تؤت ثمارها ، وازاء ذلك الوضع علا صياح الجمهور يستنجد بالحكومة لوضع حد للأزمة ، وفى الوقت نفسه طالبت الصحافة بوضع تسعيرة للمواد الغذائية حتى لا يغالى التجار ، ولبيت الدعوة وكانت الاسكندرية هى أولى المحافظات التى حددت تسعيرة المواد ، ففى الثامن من أغسطس ١٩١٤ رأت بلدية الاسكندرية تحديد أسعار المواد الغذائية ، وأعلنت أنه كل عشرة أيام ستلصق التعريفة المقررة على الجدران وتنشر فى الصحف · وخول أيضا للمجلس البلدى حق الشراء بالجملة من الأسواق المحلية أو الخارجية من الحبوب والمواد ذات الضرورة الأولى ثم بيعها بالسعر الأصلى للجمهور ، وأن تنشىء المأمورية مخابز بلدية ومطابخ اقتصادية وخصص لهذا الأمر ٥٠٫٠٠٠ جنيه (١) ·

وفى ٢٠ أغسطس ١٩١٤ تبعت القاهرة والمحافظات الاسكندرية فى تحديد الأسعار وذلك عن طريق لجنة مختلطة تتألف من المحافظ أو المدير بصفته رئيسا ومن أعضاء يعينهم وزير الداخلية لكل محافظة أو مديرية ، وتقرر أن تحدد اللجنة فى كل أسبوع أقصى الدرجات للأسعار ، ورأت هذه اللجان أن يعاقب كل من امتنع عن البيع بالتسعيرة بغرامة لا تتجاوز ٢٠٠ قرش وغلق محله على الأقل أسبوعا(٢) ·

واجتمع هارفى باشا قائد بوليس القاهرة بمأمورى الأقسام لضرورة العمل على تنفيذ التسعيرة والرقابة على التجار وفرض العقوبة عليهم وكثرت قضايا التسعيرة فى أنحاء مصر حكم فيها على التجار ولم تمض على تشكيل اللجان عام حتى ساءت الأمور ·

وفى حقيقة الأمر فان لجان التسعيرة لم تحل الأزمة اطلاقا بل عملت على ازديادها ، فكانت مضرة أكثر منها نافعة فساعدت التجار على اخفاء ما لديهم من بضائع لدرجة أنهم ربحوا أكثر من قبل تسعير المواد ، هذا بالاضافة الى عدم ادخال كل المواد فى التسعيرة مما ساعد على عدم التحكم فى السوق اذ أخرج من التسعيرة الدقيق والخبز والفحم بأنواعه ، كذلك زيدت التسعيرة على الملح وذلك على أثر استجابة طلبات التجار الذين رفعوا أصواتهم منادين برفع الثمن المقرر فى التسعيرة وخاصة القمح والدقيق ·

وضرب الناس بتلك التسعيرة عرض الحائط لا سيما بعد أن أصبحت تمتد اليها يد التعديل والتغيير كلما اعترض بدال أو احتج بائع أو صاح تاجر سواء أكانت دعواه صحيحة أم كاذبة ، فكلما شكا أحدهم أصغت له اللجنة وصدقت أقواله وأجابته الى طلبه برفع الصنف الذى يقول انه لا يقدر أن يبيعه بالسعر المحدد فى التسعيرة · هذا وقد أوجدت ارتباكا شديدا فى المعاملات ،

(١) الاهرام ٩ ، ١٣ أغسطس ١٩١٤ ، الوطن ١٠ أغسطس ١٩١٤ ·

(٢) Récueil des doc. relatif de la guerre, 20 Août, 1914.

لأن السعيرة قابلة للتغيير كل أسبوع ، وهذه القابلية تجعل أملا عند المزارع مثلا في أن الأسعار تتحسن يوما فيوما فيمسك يده عن البيع ، ومن ذلك أن أسعار بعض المحصولات جعلت في محل الانتاج أكثر من سعرها الرسمي في محل التصريف (١) ٠ وفي الواقع فان كثيرين من أعضاء لجنة التسعيرة كانوا يفضلون الراحة على التعب فكم من مرة وضعوا أسعار لأصناف كانت تباع بأقل من الأسعار التي عينوها وأمروا باتباعها والخضوع لها (٢) ٠ ويقول محمود بيرم التونسي ساخرا من قرارات لجنة التسعيرة :

تعريفة محكة التقدير من لجنة التعسير لا التسعير
اجتمعت في أسعد الأوقات وحددت سعر الغذا كالآتي
القمح كل حبة بدرهم ومثله الأرز وحب السمسم
والتبن لم يوجد بالمثقال في الخصب فالمثال بالريال
من اشترى صاعا من النخالة فهذا يعد من ذوي النبالة (٣) ٠

ثم رأت الحكومة في ٢٤ أغسطس ١٩١٤ تأليف لجنة للتموين مكونة من ثمانية أعضاء تحت رئاسة سعيد ذو الفقار باشا مهمتها بحث حالة مصر من حيث التموين بالمواد الغذائية وغيرها من أصناف الحاجيات الأولية ، والسعي وراء الحصول على ما يمكن لسد كل نقص في موارد البلاد الاقتصادية ، ولكنها تداخلت مع لجان التسعيرة اذ أصبح عليها أن تقدم لها من آن لآخر كشفا ببيان الأصناف التي يجب عدم تعرض هذه اللجان لأثمانها ، وكان من شأن هذا التداخل أن تغالت اللجنة فيه ، فأخرجت من المواد القابلة للتسعيرة مادة الخبز وهي القوت الوحيد للفقير والمسكين (٤) ٠ وبهذا نرى أن هذه اللجنة أيضا لم تعمل على تخفيف الأزمة بل زادت من حدتها ٠

كذلك أنشأ مجلس الوزراء « لجنة الزراعة والتجارة » في ٨ أبريل ١٩١٦ لتنظيم التسويق للحاصلات الزراعية بعد انقطاع العلاقات التجارية مع ألمانيا وحلفائها ، ولبحث المنتجات التي ترد من الخارج والعمل على انتاجها في الأراضي المصرية ٠ لكن هذه اللجنة أيضا لم تعمل على حل الأزمة ومن هذا نرى أن الحكومة بدلا من أن تخفف من وطأة الوضع عملت على ازدياده ، وتسبب أيضا في ارتفاع الأثمان غلو النقل داخل البلاد وذلك أن السلطة العسكرية أمرت بجمع المراكب التجارية على النيل وخصصتها للأعمال الحربية ، ولهذا

---

(١) الأفكار ٢٨ فبراير ١٩١٨ ٠
(٢) الاهرام ٢٨ نوفمبر ١٩١٥ ٠
(٣) الأهالي ١٣ ديسمبر ١٩١٧ ٠
(٤) المنبر ١٥ أكتوبر ١٩١٥ ٠

السبب أصبح النقل بطريق النيل صعبا ونادرا ، والنقل بالسكك الحديدية عاليا ومحدودا (١) ٠

وساعد على ازدياد الموقف حرجا احتياجات الجيوش البريطانية الى التموين ، لذا عملت الحكومة على انقاص المساحة التى نزرع قطنا وتعويض ذلك بزراعة الحبوب لصالح السلطة التى زاد طلب جنودها على الحاصلات فانتزعت من أفواه الشعب لصالح الجيوش ولتموين بها ، ففى أواخر ١٩١٥ أنشئت لجنة للنظر فى تموين الجيوش البريطانية (٢) ٠

وفى ٢٦ سبتمبر ١٩١٧ صدر مرسوم سلطانى بانشاء مصلحة للتموين مهمتها حصر جميع المسائل الخاصة بتموين البلاد ودرس الأسعار المحلية وتتبع ما يحدث من التقلبات فى الأسواق ، وعرض جميع الاقتراحات التى ترى فائدتها لأجل وضع القواعد لتحديد الأسعار ووضع نظام لتوزيع المأكولات والحاجيات الأولية . ثم كان عليها القيام بحاجة الجيش البريطانى ، وتوزيع هذا العبء على مختلف الجهات وقد أصبحت هذه المصلحة وثيقة الصلة بالسلطة العسكرية ٠ (٣)

وهذا الاجراء أدى الى نشوء حالة أخرى من الظلم لأن حاجات الجيش بطبيعة الحال هى التى أوليت النصيب الأكبر من العناية دون حاجة الشعب ، ومرة أخرى وقع عبء تقديم المؤن الغذائية على صغار أصحاب الأراضى دون كبارهم وعلى فقراء الشعب دون أغنيائهم ونرتب على ذلك تلك الزيادة الهائلة فى الأسعار وهذا الغلاء الفاحش الذى قاست منه مصر حتى أنه لم يعد فى مقدرة الطبقات سواء الفقيرة أو المتوسطة القدرة على شراء الطعام ٠

أما عن المواد التى أصابها الغلاء ، فكان أهمها الحبوب ، فعلى سبيل المثال اذا نظرنا الى القمح والأرز ورمزنا لأسعاره قبل عام ١٩١٤ برقم ١٠٠ فتكون الزيادة :

السنة	١٩١٤	١٩١٥	١٩١٦	١٩١٧	١٩١٨
النسبة للقمح	٩٨	١١٢	١٢٣	١٩٩	٢٤٢
النسبة للأرز	٩٣	٨٩	٩٨	١٥٣	١٦٨(٤)

وارتفع سعر الذرة وهو الغذاء الأساسى للفلاح الى ٣٠٠ قرش للأردب رغم أن سعره كان محددا ب ١١٠ قرشا وسعر العدس الى ٢٣٥ قرشا للأردب بعد

---

(١) وادى النيل ٧ فبراير ١٩١٦ ، الأفكار ٢٨ فبراير ١٩١٨ ٠

(٢) الأخبار ٢٦ نوفمبر ١٩١٥ ، الأهرام ٢ ديسمبر ١٩١٥ ٠

(٣) مجلس الوزراء ، جلسة ٩ مارس ١٩١٨ ٠

(٤) Crouchley : op. cit., p. 198.

أن كان يباع ب ١٢٠ قرشا (١) وساءت الحالة وتحير الناس فى العمل ووصلت حالتهم الى درجة من الهياج خصوصا ازاء ارتفاع أثمان الغلال ، ويصف مندوب الأهرام يقول : « مررت باحدى الأســـواق فرأيت أرملا تحمل مقطفا وحولها أولادها ، عائدة من السوق وهى تدعى على أصحابه بالموت فسألتها عن السبب فقالت ان أولادى سيموتون جوعا ، ولم أستطع أن أشترى حبوب لأن التجار قد أوصلوا كيلة القمح الى ٥ر٢٧ قرش » (٢) ٠

وكسدت الأسواق وحتى الفلاحين لم يعودوا يرغبون فى البيع بالأسواق بل يبيعون فى قراهم لأن التجار يقصدونهم فى منازلهم حتى لا يدعوا فرصة الشراء لغيرهم طمعا فى الربح وجمع الثروة ، وتجمع الناس وأرسلوا المندوبين لمديرى المديريات لعرض شكواهم من ارتفاع أسعار الغلال ولكن بدون جدوى ٠ حدث ذلك كله داخل البـلاد فوجدت الغرفـة التجاريـة المصرية أن من أهم اختصاصاتها البحث فى ايجاد التعاون والتوازن الاقتصادى والسـعى لاصلاح الأمور وتحسينها ، فوالى مجلس ادارتها اجتماعاته منذ الثانى من أغسطس ١٩١٤ وانتخب بين أعضائه لجنة على رأسـها طلعت حرب للنظر فى الأثمان ، وفى ٨ أغسطس اجتمع مجلس ادارة الغرفة التجارية تحت رئاسة عبد الخالق مدكور وبقية الأعضاء وأحضروا لهذا الاجتماع حوالى سـبعين تاجرا من تجار الغلال والدقيق وأصحاب المخابز بالقاهرة (٣) ٠

ولم تثمر تلك المجهودات واستمرت الأسعار فى الارتفاع ، وعندما اشتكى الناس من ذلك أسرع التجار ـ للعمل على زيادة الأزمـة ـ بتحويل غلالهم من الأسواق الى مخازن بعيـدة عن أنظار البوليس لدرجة أن منهم من خزنهـا فى المدافن (٤) ٠ ورغم أن تقليل المساحة التى زرعت قطنا عام ١٩١٥ قد سببت زيادة فى مساحة الأراضى التى زرعت قمحا ، ولكن طلبات الجيش من ناحية ، واصابة المحصول من ناحية ثانية ، واباحة التصدير من ناحية ثالثة ، وأخيرا انقطع الوارد من الدقيق ، كل هذا سـاعد على تأزم الموقف ثم ازداد بانقاص المساحة المزروعة حبوبا باعادة زراعة القطن كما كانت عليه ٠ ولم تكتف الحكومة باباحة التصـدير ، بل زادت التسـعيرة الى أن أخرجت كل من القمح والدقيق والخبز منها ٠

ولعب الوسطاء والمضاربون ـ وغالبيتهم من الأجانب ـ دورا فى الأزمة ، وهذا بالاضافة الى أن كبار المزارعين وأرباب الأراضى الواسـعة التى امتلأت أيديهم بالثـروة بسبب ارتفـاع سعر القطن عامى ١٩١٦ ، ١٩١٧ ، أصبحوا

---

(١) السفير ٣٠ أكتوبر ١٩١٦ ٠

(٢) الأهرام ٢٢ ابريل ١٩١٧ ٠

(٣) نفس المصدر ، ١١ اغسطس ١٩١٤ ٠

(٤) نفس المصدر ١ فبراير ١٩١٥ ٠

فى غير حاجة لبيع حبوبهم فيحفظوا حاصلاتهم الزراعية أزمانا ولا يفرطون فيها الا بأثمان يفرضونها ، ولم يكتفوا بهذا بل انهم يأخذون غلال مزارعيهم ويشترونها منهم بالأسعار المقررة ويخزنونها ٠

من هذا يتبين أنه ليس تجار الغلال وحدهم انما معهم هؤلاء ، جميعهم يتحكمون ويحبسون المحصول عن الشعب ٠ زد على ذلك فان بعض الشركات نستعين بالبوليس على أخذ كميات كبيرة من الغلال الداخلة فى التسعيرة بمجرد ورودها الى ساحل روض الفرج وأثر النبى وهذا يحرم الجمهور من الحصول على شىء منها ٠ (١)

وفرضت لجنة مراقبة التموين ـ التى أنشئت لسد حاجات الجيش البريطانى ـ نفوذها وسلطتها على سوق الغلال بكافة الطرق فشددت على مسألة القمح ، بل وهددت بايقاع العقوبة على من يثبت أن لديه أى مقدار مخزون من الغلال وعلى أثر ذلك انتشر التفتيش بالاراضى والمنازل وأعلنت عن جوائز مالية لكل من يرشد عن كميات من القمح مخبأة (٢) ، وأنشىء بالاسكندرية بمينا البصل مكتب لتوزيع الحبوب تحت ادارة لجنة التموين المحلية لمراقبة جميع القمح ودقيقه الذى يصل للاسكندرية ٠

وتبعا لارتفاع سعر الغلال ارتفعت أسعار الدقيق ففى يوم واحد نراه من ١٦٠ قرشا الى ٢٤٠ قرشا(٣)، واجتمع تجار الدقيق وكلهم من الأجانب اليونانيين وتداولوا فى الأمر وصمموا على رفع الأسعار بدرجة كبيرة لم يسمع بها من قبل لعلمهم أن الطلب كثير والعرض قليل والمصرى محتاج الى ذلك ، والواجب عليهم حسب شروط الاجتماع أن يتحكموا فى المصريين وأن يمتصوا دماءهم(٤)٠

وانتهز التجار فرصة غلاء الدقيق فى اليونان فصدروا اليها كميات كبيرة تزيد على ٥٠٠٠٠ر٥٠ كيس ، ولم يعد يحتاجون الى طلب الترخيص ، فكلما لاحت لهم الفرصة ، وكلما رأوا من مصلحتهم تصدير الدقيق صدروه (٥) ٠ وأخذ تجار وابورات الطحين يضاربون بسعره فى اليوم ثلاث مرات فيبيعون الأقة تارة بثلاثة ونصف ومرة بثلاثة وعشرة ومرة بثلاثة ، والازدحام شديد أمام وداخل وابورات الطحين ولا يمر يوم دون المضاربة والملاكمة ، والنساء فى ثورة لاحتياجهن لشراء الدقيق ليقتاتوا به هن وأولادهن « وقد رأينا امرأة أخذت طشتا

---

(١) الأفكار ٢٨ فبراير ١٩١٨ ٠

(٢) Recueil des doc. relaif de la guerre, 16, Mai, 1918.

(٣) الوطن ٥ اغسطس ١٩١٤ ٠

(٤) الشعب ٧ أغسطس ١٩١٤ ٠

(٥) وادى النيل ١١ ، ٢٣ فبراير ١٩١٥ ٠

كبيرا وركبت الكهرباء ونزلت فى السوق لبيعه حتى تستطيع أن نجد الثمن الذى تدفعه لشراء الدقيق » (١) ٠

وعندما سعرت الحكومة الدقيق كانت تسعيرتها حبرا على ورق وينقل لنا شاهد عيان مظاهرة نسائية من أجل الحصول على الدقيق أمام باب مخزن فكان الصباح « لمين نشتكي ولمين نبكى مادام القاضى بربرى والنائب تركى » (٢) ٠

تبع ذلك ارتفاع أسعار الخبز حوالى ٤٥٪ ، وكانت الاسكندرية كالعادة أكثر غلاء من باقى مدن مصر اذ وصل ثمن الرغيف ٣ قروش ونقص وزنه وصغر حجمه ٠ وعندما حددت الأسعار قامت المخابز بحركة تعطيل مضربة عن العمل (٣) ٠

واذا انتقلنا الى الفحم نجد أنه تأثر تأثرا واضحا وبالغا بقيام الحرب ، فارتفع سعره ارتفاعا بالغا وصل الى :

السنة	١٩١٤	١٩١٥	١٩١٦	١٩١٧	١٩١٨
النسبة	١٣٥	٢٠٫٢	٢٤٦	٨٦٨	١١٠٧(٤)

وأرجع ذلك الى قلة الوارد منه وارتفاع الشحن والنقل هذا وقد أسهم التجار فى الزيادة فتعطلت أكثر الآلات البخارية المستعملة لرى الأراضى وتوقفت أعمال وزارة الأشغال من مشروعات الرى وخلافه (٥) ، وأخذ البعض من كبار ملاك الأراضى يتركون الأرض بدون زراعة ، فيقول مندوب المقطم « علمت أن أحد كبار المزارعين شرق الجيزة قد فضل ترك ٢٠٠ فدان بورا على أن يشترى طن الفحم بـ ٤ جنيهات عدا مصاريفه » (٦) ٠ وبالتالى ساءت حالة الفلاحين وأصبحوا فى حيرة شديدة ٠

وجرت الحالة على البترول وتعرض لنفس الظروف السابقة ، فصدرت أوامر الحكومة بتوزيعه فى الأقسام بالبطاقات وعين المراقبون على التوزيع ، ورغم ذلك فلم يستفد الجمهور اذ استطاع الوسطاء أن يحولوا بينهم وبين الأسعار المحددة ، وتألفت لجنة بالاسكندرية « لجنة غاز البترول » لتموين البلاد (٧) لكنها لم تنجح فى مهمتها للدرجة أن بيرم التونسى ردد عنه :

---

(١) السفير ٥ اغسطس ١٩١٤ ٠

(٢) نفس المصدر ٢ فبراير ١٩١٧ ٠

(٣) الأهرام ١٢ نوفمبر ١٩١٦ ، ٤ ديسمبر ١٩١٦ ٠

(٤) Crouchley : op. cit.

(٥) Public works ministry, Inspection general of irrigation, No. IX 28, 43/1, 1916, 1917, pp. 35, 61.

(٦) المقطم ١٣ نوفمبر ١٩١٥ ٠

(٧) Récueil des doc. relatif de la guerre, 18 Octobre 1917.

وهو لما قد حـازه من الشرف يوضع فى بلور أصحاب الترف
وبمـا عـدوه فى الجهـاز كيما يقال دخلت بالجاز (١)

أما عن السكر فقد قفز ثمنه واستمر حتى بعد دخوله فى التسـعيرة ، ولعبت شركة السكر دورا فى الأزمة فتحكمت فى السوق وفى اختيار العملاء وفى تقـدير الكميـات (٢) وذلك بعد أن خلا الجو لها ومنعت الحرب المزاحمة الأجنبية فى الأسواق بل وأعطتها الفرصة لتصدير السكر للخارج وكانت النتيجة المزيد من الأرباح لها ٠

وأصاب الغلاء الزيت حين كفت المعامل عن صنعه لعدم وجود البذرة عندما احتكرتها السلطة ، والزيت هو المادة الدهنية الوحيدة التى يتغذى بها الفقير بعد أن وصلت أسعار السمن أقصاها ٠

وبادخال الحكومة الزيت فى التسعيرة جعل شركة الملح والصودا تمتنع عن تشغيل وابوراتها فى اخراج الزيت من البذرة وبينت بأنه باتباع التسعيرة ستخسر الشركة لأن السعر المقرر له لا يقوم بنفقات عصره ، والذى تسبب فى هذه الأزمة هو أن بعض الشركات المعاكسة لشركة الملح والصودا وأصحاب المعاصر الصغيرة أرادوا منافستها فأعلنوا استعدادهم لبيع الزيت الفرنسـاوى وغيره بسعر أقل مما تبيع به شركة الملح والصودا ، فلما أوقفت معاملها عجز هؤلاء عن عمل الزيت الفرنساوى بنوع خاص ، فانعدم كلية من السوق (٣) ٠

واذا تناولنا الانتاج الحيوانى وما قاسته مصر منه نجد أن الحرب قد أثرت تأثيرا واضحا عليه ، وككل شىء فى مصر قد مسه الغلاء أيضا وحرم منه الفقير أبدا ، حتى الغنى لم يصبح هو الآخر قادرا على شرائه بعد أن انقطع الوارد من الخارج ، وازدادت طلبات السلطة العسكرية عليه ٠

وعندما سعرت اللحوم امتنع القصابون عن الذبح واعتصبوا مطالبين بزيادة الأسعار ، ولم تستطع الحكومة أن تحزم الأمر اللهم الا اصدار الفتاوى للتقليل من ذبح الضـحية والسـماح بنحر الخيـول (٤) ٠ وتبع ذلك ارتفاع منتجات الألبان ٠

أما عن الدواجن فمرت بظروف الحرب القاسية اذ أثر عليها ارتفاع سعر الذرة كما أن الترخيص بتصدير البيض قلل من الانتاج ورفع الأسـعار من

---

(١) الأهالى ١٣ ديسمبر ١٩١٧ ٠
(٢) الاكسبريس ٦ يناير ١٩١٨ ٠
(٣) نفس المصدر ، ٢٤ فبراير ١٩١٨ ، التجارة ٣ مارس ١٩١٨ ٠
(٤) الوقائع المصرية ٢ أكتوبر ١٩١٦ ، ١٧ سبتمبر ١٩١٧ ، ١٢ سبتمبر ١٩١٨ ٠

١١٥ قرشا لكل ألف بيضة الى ٣٠٠ قرش فى ظرف أربعة وعشرين ساعة (١) ، هذا بالاضافة الى احتكار الانتاج لصالح السلطة ٠

والصابون أصبح مغشوشا لقلة الزيت ولارتفاع أثمان الكربونات ومواد العطارة ارتفعت الى أربعة أثمانها وتعذر الحصول على معظمها (٢) والأدوية والعقاقير والزجاج والورق دارت فى نفس الفلك والمحصولات الزراعية من الدرنيات فالبطاطا أصبح لا يستطيع أكلها الا الأغنياء والبطاطس وصلت الأقة منه الى ٦ قروش بعد أن كان سعرها قرشا واحدا (٣) ٠ وارتفعت الطماطم ٨٤٪ عن سعرها قبل الحرب وعلت أثمان الثوم والزيتون والعنب (٤) ٠

وتعرضت الأقمشة لارتفاع الأسعار ، فالأصواف انقطعت وارداتها ، والأقمشة الشعبية كالبفتة والشيت أصبح على الفقير ومتوسطى الحال عدم القدرة على شرائها كذلك الحرير (٥) ٠

أما الأحذية فكاد الناس أن تستغنى عنها والطرابيش رغم أنها مصنوعة على أرض مصر الا أن أسعارها ارتفعت الى درجة كبيرة وأضحى السبرتو « كالريحة » (٦) ، والملح زاد ١٠٠ ٪ وهو من أهم الحاجيات وقوام الطعام فاحتكره التجار وتلاعبوا به ، وأصبحت علبة الكبريت نادرة (٧) وزادت أثمان الثروة السمكية حتى الماء أصبح له سعر مرتفع فاذا سئل السنقا عن سبب رفع الثمن قال « ان جلد القرب غال وان الماء غال وان نفقاتى صارت كثيرة بسبب الغلاء » (٨) ٠

كان ذلك أهم ما أصاب السوق التجارية المصرية أثناء فترة الحرب بعد أن أقحمت انجلترا مصر فى حرب لا ناقه لها فيها ولا جمل وقد أثر هذا الوضع على المجتمع المصرى مما سيكون له نتائجه ٠

---

(١) المنبر ٥ أكتوبر ١٩١٥ ٠

(٢) الحرية ٢٤ يناير ١٩١٥ ، الأهرام ١٩ مايو ١٩١٥ ٠

(٣) وادى النيل ٢ سبتمبر ١٩١٥ ، الأهرام ١٣ سبتمبر ١٩١٥ ٠

(٤) المنار مايو ١٩١٨ ، ص ٣٦٥ ، الوطن ٩ نوفمبر ١٩١٨ ٠

(٥) المقطم ١٩ مايو ١٩١٥ ، ١٥ نوفمبر ١٩١٧ ، ٧ فبراير ١٩١٨ ، الحرية ٢ أكتوبر ١٩١٨ ٠

(٦) وادى النيل ١٩ مارس ١٩١٦ ، ٢٧ يناير ١٩١٧ ٠

(٧) الحرية ٧ أكتوبر ١٩١٧ ٠ وادى النيل ١٩ أغسطس ١٩١٨ ٠

(٨) الاخبار ١ فبراير ١٩١٦ ٠

التجارة الخارجية :

يقصد بهـا المعاملات التجاريـة والمالية التى تحدث بين أفراد وحكومات وحدات سياسية مختلفة ، أو بعبارة أخرى انتقال السلع والأموال عبر الحدود السياسية ، فالفرق اذن بين التجارة الداخلية والتجارة الخارجية هو « مبدأ اجتياز الحدود السياسية » لدولة ما فيمكنها حظر التجارة مع دولة أخرى معادية أو فرض الرسوم الجمركية مراعاة لصالح الاقتصاد القومى ·

والتجارة الخارجية من أهم العوامل التى يمكن بواسـطتها تقدير حركة الاقتصاد بأى بلد ، ومن ثم فان الاحصاء الجمركى يعتبر بمثابة مرآة تنعكس فيها الصورة العامة لهـذه الحركة ، ومصر ــ منـذ الاحتلال الانجليزى لها ــ اعتمدت فى اقتصادها على الاستيراد من الخارج لمعظم المصنوعات اللازمة لها ، ومقابل ذلك فهى تصدر للبلاد الأجنبية حاصلاتها الزراعية بما يفى بأثمان هذه الواردات وبتكاليفها ·

ويتأثر المزارعون فى مصر من التغير فى مقادير محصولاتهم وقيمتها تبعا لقانون العرض والطلب الخاضعان لعوامل متقلبة شتى ، هــذا فضلا عن أن التجارة فى مصر شأنها فى سائر البلاد الزراعية البحته معرضة لتقلبات كثيرة ناشئة عن دورية الزراعـة والتباين فى مقادير المحصولات وأثمانها ، وكذلك تتعرض التجارة لما ينشأ عن العوامل السالفة الذكر مع الاختلاف فى المقدرة على الشراء لدى الأشخاص المرتزقين من الزراعة ، وامكانيات مصر الاقتصادية ترتكز على محصول زراعى واحد هو القطن ، وهذا المحصول معرض من حيث قيمته وكميته لتقلبـات أشد وأعظم مما يصيب سـائر المحصولات المعادلة فى الأهمية وينشـأ عن ذلك عيبان أولا عـدم التوازن بين العرض والطلب ثانيا الاختلاف العظيم فى ايراد الأفراد مما يؤدى الى اختلال الميزانيات ·

قامت الحرب العالمية الأولى فأدت الى حرمان مصر من العديد من السلع ، كما أنها حالت دون تصريفها لأهم منتجاتها ، وأصبحت سـياسـية التخصص الاقتصادى غير ملائمة لأنه يشترط لنجاحها ركنان أساسيان ، حرية التجارة وانتظام وسائل النقل ، وذلك لا يتوفر أثناء الحروب ·

واختل الوضع الاقتصادى اذ رأت الحكومة منذ الثانى من أغسطس ١٩١٤ منع تصدير المواد الغذائية ، وجاء قرار الخامس من أغسطس ليزج بمصر فى تلك الحرب فأعلنت ولاءها لانجلترا التى أملت عليها شروطهـا فيما يختص بأعدائها فمنعتها من التعامل معهم وكان نتيجة ذلك أن اقفلت البيوتات التجارية وكان معظمها ألمانيا ونمساويا · كذلك أوقفت أعمال المحال التجارية التى يديرها الأوربيون لسفر أصحابها للالتحاق بجيوشهم ·

وقطعت واردات كانت ترد لمصر من المانيا والنمسا وحلفائهما ، تلك التى أصبح من المتعذر احضارها من مكان آخر فالقاطرات والمواد المعدنية والأدوية والسجاير والأدوات الكتابية والمنسوجات والمصابيح والمطاط والسكر والنيلة والكحول ، وكان التاجر الألمانى أو النمساوى يأتى بالزخارف وما ينفق والذوق المصرى ، « فالطربوش » هو شعار المصرى « والشال » نفضله المصرية والأدوات المنزلية « والملابس وأدوات المائدة والاعطار وأنواع الصابون التى كانت تباع بأثمان زهيدة كانت تستورد من محلات ألمانية » (١) .

وعلى سبيل المثال فان قيمة ما صدر لمصر من القاطرات والعربات فى عام ١٩١٣ بلغ ١٫٤٥٠٫٠٠٠ فرنك كان نصيب ألمانيا منها ١٫٣٠٠٫٠٠٠ فرنك . أما صادرات مصر لألمانيا والنمسا فكانت تفوق صادرات مصر الى دول أخرى وارتكزت على الجلود والمنسوجات والقطن اذ تبلغ ما ثمنه نحو ٥٫٧٠٠٫٠٠٠ جنيه وسائر البلاد تشترى بنحو ٢٨٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه(٢) .

وفرضت الحكومة على تجار الصادرات أن يودعوا تأمينا فى خزينة الجمرك لا يقل عن ٥٠ ٪ عن الأقطان التى يصدرونها الى الخارج ، ولا يرد اليهم هذا التأمين الا بعد ثلاثة شهور اذا ثبت أن هذه الأقطان لم تصل الى ألمانيا والنمسا « وكأن الحكومة لم يكفها ما لحق الفلاح من كساد وضياع تعبه فجاءت اليوم تعرقل مساعيه بهذا القرار الذى كان ضربة قاضية على تجار الصادرات وعلى الفلاح ، ان الفلاح يجد بوارا فى قطنه فضلا عن بخس ثمنه »(٣) .

وفرضت الرقابة على السواحل ، وأوقفت الحركة التجارية بميناء الاسكندرية بالنسبة للسواحل الغربية وذلك حتى لا يتسرب أى شىء للسنوسيين أعداء انجلترا ، وفى ٢٠ مارس ١٩١٦ ألصقت السلطة العسكرية فى شوارع الاسكندرية اعلانا تهدد فيه باعدام من يهرب بضائع الى تلك الجهة(٤) .

كذلك انقطعت العلاقات الاقتصادية مع تركيا عقب دخولها الحرب فى صف ألمانيا وحلفائها ، وكان من أثر ذلك انقطاع ما كان يرد من تركيا من الجبن والحيوانات الحية والفواكه الجافة والطازجة والطباق (٥) .

وكانت السلطة العسكرية هى المهيمنة على مصالح مصر منذ اعلان الحرب . فأصدرت الأوامر تلو الأوامر وحبست الذهب وأمرت بعدم تحويله فى المعاملات

---

(١) وادى النيل ٦ يناير ١٩١٦ .
(٢) المقطف ، أكتوبر ١٩١٤ ، ص ٣٧٠ .
(٣) السفير ٢٨ أكتوبر ١٩١٤ .
(٤) كوبيا السواحل الغربية ١٩١٧/١٦ ، ٢٠ مارس ١٩١٦ ، ص ٢٠١ .
(٥) الأهرام ٧ نوفمبر ١٩١٥ . Allenby : op. cit., p. 17.

المالية الى بلاد الأعداء ، وائتمر الجمهور بهذا الأمر فبطلت كل معاملة مالية بين مصر وألمانيا والنمسا وبلغاريا وتركيا (١) ٠

وبدخول ايطاليا الحرب ضيق دائرة التجارة فى مصر وحال دون ورود تلك البضائع والسلع المصدرة منها الى مصر وزادت مقاديرها فى الفترة الأولى التى كانت ايطاليا فيها على الحياد ، وكانت مصر تستورد منها الثياب والكبريت وزجاجات المصابيح والفحم (٢) ٠

ومنذ أوائل ١٩١٥ فرضت الحكومة رسوما جمركية جديدة على الواردات فجعلت الرسوم على المشروبات الروحية ١٠ ٪ من قيمتها وخشب البناء ٨ ٪ والدخان والسيجار بين ٣٢ ، ٤٢ قرشا على كل كيلوجرام ، كذلك زيدت الرسوم ٢ ٪ على السكر المكرر (٣) ٠

أما بالنسبة للرسوم الجمركية المقررة على الصادرات ، فقد كانت على جميع الأصناف بوجه عام ١٪ من قيمتها ، ويحصل الجمرك فضلا عن ذلك عوائد رصيف قدرها ٢ فى الألف لحساب مصلحة الموانى والمنائر وعوائد تمليط قدرها½ فى الألف لحساب بلدية الاسكندرية ، وزيدت عوائد الرصيف هذه ستة أضعاف منذ ديسمبر ١٩١٥ فارتفعت بذلك من ٢ فى الألف الى ١٢ فى الألف فأصبح مجموع العوائد والرسوم المفروضة على الصادرات ٢½٪ من قيمتها « وقد جاءت هذه الزيادة التى حصلت على غير انتظار فى الضرائب غير المقررة مخالفة فى روحها وتطبيقها لمقتضى العرف ان لم تكن مناقضة لنصوص الاتفاقات والأرجح أن الباعث عليها ما أحدثته الحرب من الشدة المالية » (٤) ٠

وفى الواقع ، فقد بلغ العجز فى الوارد من ٥٥ الى ٦٠٪ فى الستة أشهر الأولى من الحرب بالنسبة لمتوسط السنين السابقة للحرب (٥) ٠ وذلك بسبب ايقاف التجارة بين مصر والبلاد المحاربة والى نقصها بين مصر وبلاد الحلفاء ، هذا بالاضافة الى عدم توفر الأموال لجلب البضائع من الخارج لما أصاب مصر من الخسائر فى محصولها ووقوف المعاملات التأجيلية بين مصر وأوربا ٠ وضاقت دائرة الدول المصدرة لمصر وأصبحت تستورد أكثر حاجاتها وما يلزمها من انجلترا ولكن بعد مرور فترة من الحرب كان من الصعب عليها أن تورد لمصر لأنه فى النصف الأول من عام ١٩١٥ أعلنت ألمانيا الحصار على السواحل الانجليزية والأيرلندية بواسطة الغواصات والألغام التى بثتها فى البحار فدمرت

---

(١) الأهرام ٢١ أغسطس ١٩١٥ ٠

(٢) الأخبار ٢٧ مايو ١٩١٥ ٠

(٣) Récueil des doc. off. 27 Avril, 1916.

(٤) تقرير لجنة التجاره والصناعة ، ص ١٠٢ ٠

(٥) الأهرام ٢٨ نوفمبر ١٩١٥ ٠

البواخر التى اصطدمت بها وأنذرت بواخر الدول المحايدة وتوعدتها حتى لا تدنو من الموانىء الانجليزية ٠

وعندما عادت الحكومة وسمحت للتجار بالتصدير أصيبت مصر بالأزمة الاقتصادية وطبق ذلك على الحبوب والدقيق ، فرغم حاجة مصر الملحة لهما الا أنه سمح بتصديرهما بدون قيد أو شرط ٠

وكانت حجة الحكومة فى السماح بتصدير الحبوب كالقمح والفول والعدس والذرة بأنواعها أن فى البلاد كميات تفى بحاجتها وأنه بسبب منع تصديرها قد نقصت أسعارها الى درجة أضرت بمجهود المزارعين ، وهنا رأت أن تترك أمر بيع هذه الأصناف طبقا لقانون العرض والطلب ، فاتخذت اجراءيين اعتقدت أنها بهما ستوفق بين مصالح الجمهور ، فأولا حزفت أصناف الحبوب المذكورة هذه من جدول المواد الجارى تسعيرها ، ثم أباحت تصديرها الى الخارج على أمل أنه مع ضمان بيعها بين الجمهور بسعر معتدل يمكن أن يستفيد فريق المزارعين فى تصريف محصولهم بأثمان طبيعية تعوض عليهم ما أصابهم بسبب الضائقة المالية(١) ٠

أثر هذا تأثيرا سيئا على البلاد ، فقد أخذ التجار يصدرون الصنف ، وكان من نتيجة ذلك أن ارتفعت الأسعار وهنا رأت الحكومة فى ١٢ سبتمبر ١٩١٦ منع تصدير القمح والذرة الشامية والعدس والأرز والفول والمحصولات الغذائية وتقاوى الخضروات(٢) ٠

وفى حقيقة الأمر ، فقد كانت لاحتياجات الجنود التابعة لانجلترا بمصر المقام الأول فعلى مصر أن تمون هذه الأعداد الوفيرة دون النظر لمصلحتها الاقتصادية اذ أنه يجب عليها أولا أن تقدم كلما يمكن تقديمه لمساعدة بريطانيا وان لم يتم ذلك بخاطرها فسيتم بيد عليا قوية مسيطرة هى السلطة العسكرية لذا تم تموين القوات وسد احتياجاتهم(٣) ٠

ومهما يكن من قول فان الصادرات منذ قيام الحرب كان النقص فيها بمعدل ١٤٪ عما قبل الحرب(٣) ، لكنها زادت على الواردات ، فكان من نتيجة ذلك أن أصبح الميزان التجارى فى صالح مصر ، ففى عام ١٩١٥ كانت أهم الأصناف التى زادت صادراتها الذهب والفضة والأشياء الثمينة وتقدر زيادتها ب ٤٨٢،٠٠٠ ج م والسكر وزيادته ٤٧٢،٠٠٠ ج م والقمح ٤٠٠،٠٠٠ ج م ، والذرة وزيادته ٢٦١،٠٠٠ ج م والفول واللوبيا ٢٣٤،٠٠٠ ج م ، وقد قدرت الصادرات فى هذا العام من أول يناير الى آخر أكتوبر ب ١٩ مليون ، ٧٨٠ ج م

---

(١) نفس المصدر ٥ مايو ١٩١٥ ٠

(٢) Récueil des doc. relatif de la guerre, 25 Sept., 14 Dec., 1916.

(٣) Conseil des ministre : Commission d'Approvisionnement, No. 547.

يقابلها فى مثل هذه المدة من سنة ١٩١٤ = ١٨ مليون ، ٧٦٩ ألف جنيه • ومثلها فى سنة ١٩١٣ = ٢٢ مليون ، ٦٢٦ ألف جنيه ومثلها سنة ١٩١٢ ٢٣ مليون ، ٦١٢ ألف جنيه (١) • وخلاصة القول ان الصادرات الزراعية زادت زيادة كبيرة فى أثناء ذلك العام ما عدا القطن وذلك لانقطاع ما كان يصدر منه الى ألمانيا والنمسا وروسيا •

وفى عام ١٩١٦ ازدادت قيمة الواردات على الصادرات ، فكان الوارد ٣٠ر٨٨٧ر٠٠٠ جنيه مقابل ١٩ر٩٥٢ر٥٣٤ جنيه للصادر ، وشملت الزيادة فى الوارد من السمك والجلود والمسكرات والشوكولاتة والكاكاو والبيرة والمشروبات الروحية والمنسوجات والبرانيط والغنم والشمع والشعير والزيوت المعدنية(٢) ، وأصبح معلوما بأن « هذه الزيادة تعلل بزيادة المقطوعية لوجود الجيش البريطانى واقبال التجار على طلب البضائع والمنسوجات طمعا للربح » (٣) •

أما بالنسبة للصادرات فقد زادت عن السنوات السابقة ، فبلغت ٣٧ر٤٥٨ر٠٠٠ جنيه مقابل ٢٥ر٧٩٧ر٠٠٠ جنيه فى عام ١٩١٣ احتوت على الحبوب ، وشمل القطن منها مبلغ ٢٩ر٨١٣ر٦٨١ جنيها (٤) •

هذا وقد أنشئت فى ٨ أبريل ١٩١٦ لجنة للزراعة والتجارة رأسها انجليزى ووكيل وزارة الزراعة ، ومهمتها تسويق بعض الحاصلات الزراعية (٥) ، فعلى سبيل المثال كانت مصر تصدر الأرز لتركيا ، وبانقطاع العلاقات أصبح على هذه اللجنة أن تنظم تسويق هذا المحصول بما يتفق مع النظام الاقتصادى الذى وضع لمصر ابان هذه الفترة •

أما عن تجارة مصر الخارجية سنة ١٩١٧ فهى لم تبلغ فى سنة من السنين ما بلغته فى هذه السنة من صادر ووارد ، فان قيمة الصادرات بلغت حسب تقدير الجمارك٤١ر٠٤٩ر٦١٢ جنيها وقيمة الواردات بلغت٣١ر٨٣٨ر٩٩٨ جنيها ، صدرت بضائع ثمنها أكثر من ٤١ مليون جنيه وجلبت بضائع ثمنها أقل من ٣٢ مليون جنيه ، فزاد لحسابها أكثر من ٩ مليون جنيه وفى منها دين الحكومة •

وقد وصلت هذه القيمة من الصادرات بفضل ارتفاع أسعار القطن اذ بلغ ٤١ر٥٧٩ر٤١١ جنيها • ويمثل المبلغ الخاص بالواردات ارتفاعا فى الأسعار أكثر مما يمثل زيادة فى المقادير ، فاذا قابلنا معدل الأسعار التى استوردت بها

---

(١) الأهرام ٤ فبراير ١٩١٦ •
(٢) Récueil des doc. off. 12 Avril, 1917., Allenby : op. cit., p. 18.
(٣) المقطم ٢٤ أكتوبر ١٩١٦ •
(٤) المقتطف ، ديسمبر ١٩١٦ ، ص ٥٨٣ ، فبراير ١٩١٧ ، ص ٢٠٦ •
(٥) The Egyptian Mail, Ap. 26, 1916.

الأصناف بمعدل أسعارها عام ١٩١٤ تكون الزيادة ٥٥٩٪ على سعر خشب البنـاء ، ٥١٢ ٪ للفحم ، ٢٧١ ٪ للأسمنت ، ١٠٠ ٪ للمنسوجات ، ٣٩٤ ٪ للحديد ، ولوجود الجيوش البريطانية أصبح وارد القمح والذرة ١١٧ر٦٩٤ جنيها فارتفع معدله عن السنوات السابقة (١) • وجـاء عام ١٩١٨ فكثرت الواردات والصادرات عن بقية سنوات الحرب ، فالأولى بلغت ٢٢٦ر٢٨٥ر٤٧ جنيها بينما الثـانية وصلت ٩٥٢ر١٠٩ر٤٨ جنيهـا وعلل سبب ذلك أنه كان لا يزال في الاسكندرية حتى أول سبتمبر ١٩١٨ مقدار ٠٠٠ر١٠٦ر١ قنطار من القطن المخزون قيمتها نحو ٠٠٠ر٥٠٠ر٧ جنيه ثم أن في الواردات احتياجات بملايين الجنيهات لحساب الجيش البريطاني (٢) ومن هنـا كان الميزان التجاري في صالح مصر •

وأصبح واضحا أن اعتماد مصر ارتبط ارتباطـا وثيقـا في الصادرات والواردات على انجلترا ، اذ أعطت لنفسها حق احتكار صادرات مصر وخاصة القطن الذي ساهم بمبلغ ٠٠٠ر٨٧٥ر٣ جنيه من صادرات هذا العام (٣) •

وخلاصة القول أن فترة الحرب مرت على مصر وأثرت في حياتها الاقتصادية تأثيرا كبيرا ، فقد كان الميزان التجاري في صالحها بمعدل ٠٠٠ر٤٣٣ر١٣٩ جنيه ، وكان من نتيجة هذا رواج استثمار الأموال عند نهاية الحرب اذ بلغت حوالي ١٥٠ مليون جنيه (٤) وجهت الى ميدان جديد في اقتصاد مصر هو الميدان الصناعي ، وفي حقيقة الأمر فقد أرجع السبب في أن ميزان المدفوعات كان في صالح مصر أن أسعار القطن ارتفعت كما زادت الكميات المصدرة منه ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى ما أنفقته القوات العسكرية في مصر اذ تراوح ما بين ٨٠ ، ٨٥ مليون جنيه (٥) • ومن خلال هذه السطور أمكن التعرف على أوضاع مصر الاقتصادية التي خلقتها ظروف الحرب القاسية •

---

(١) الغرفة التجارية ، مايو ١٩١٨ ، ص ١٨٧ ، المقتطف ، ابريل ١٩١٨ ، ص ٣٢٩ •

(٢) National Bank : Assemblée general, 24 Mars 1919, p. 12.

(٣) Crouchley : op. cit., pp. 175, 179.

(٤) Ibid, pp. 80, 197. The Times, Jan. 21, 1919.

(٥) National Bank, p. 52.

الفصل الثالث

الأوضاع الاجتماعية والمظاهر الثقافية

الخريطة الاجتماعية لمصر : الأجانب ـ كبار ملاك الأراضى ـ المثقفون ـ التجار ـ العمال ـ الفلاحون • أمراض المجتمع المصرى فى هذه الفترة : الفقر ـ الجرائم ـ سلوك جنود الامبراطورية • التيارات الثقافية : التعليم ـ الصحافة ـ الفكر ـ المسرح •

(أ) الأجانب :

أثرت عناصر مختلفة في تشكيل المجتمع المصرى وتركيبه ، فلم يكن أبدا مجتمعا خاصا بالمصريين ، بل ضم بين ذراعيه عناصر أجنبية استطاعت أن تلعب دورا هاما في تركيبه من ناحية وفى اقتصادياته من ناحية أخرى •

بتبعية مصر للدولة العثمانية وبكونها ولاية من ولاياتها تكونت فى مصر طبقة الأتراك وأصبحت صاحبة المصالح الحقيقية فيها ، وبمجيء محمد على تأصلت هذه الطبقة وأصبحت الطبقة الارستقراطية الحاكمة لها امتيازاتها الكثيرة : فأغنياؤها يعيشون عيشة الترف والبذخ ، ويحتلون المناصب الكبرى في الحكومة والجيش • وكثيرا ما تمثلت هذه الطبقة بالأوربيين وبعدت كل البعد عن مصر وعاداتها وتقاليدها ، وكانت ترسل أولادها يتلقون التعليم فى أوربا ويربون على النمط الأوربى •

وتلى طبقة الأتراك الأوربيون المغامرون الذين جاءوا مصر يغترفون من أموالها ، وكفل لهم نظام الامتيازات حرياتهم فجمعوا الثروات الضخمة على حساب الشعب وشيدوا القصور وعاشوا عيشة الأمراء وأصبحوا من أصحاب المصالح الكبرى في الدولة ونالوا ثقة الحكومة اذ لم تقم هى بايقاف هذا التيار ذلك لأن الضرائب العقارية قليلة أو معدومة ، والانتاج الزراعى الذى ينظمه الأجنبى يدر أينع الثمرات ، ولم تعمل الحكومة على القيام بتحويل وجهتهم الى بيع أراضيهم للمصريين بل ان الرهونات العقارية كثيرا ما دعت الأجانب الى الاستزادة من أملاكهم عن هذا الطريق ، وراح الألمانيون يتسللون الى بعض الوظائف العلمية ورضى الانجليز بذلك ليزلفوا الى ألمانيا عقب احتلالهم لمصر • وأخذ الفرنسيون ينشرون ثقافتهم فى المحاكم ودور التعليم والشركات ، واقتفى أثرهم فى ذلك الايطاليون واليونانيون حيث تمادوا فى الاستغلال حتى فى أصغر الوظائف والصناعات ، وتركز النشاط الاقتصادى فى مصر فى أيدى الأجانب فسيطروا عليه •

واستـــولى الانجليز على أهـم المراكز والمنـاصب فى مصر ، اذ قامت السياسة الانجليزية فى أوائل عهد الاحتلال على استخدام عدد معين من الموظفين ليستشاروا ويساعدوا خصوصا فى دوائر المالية والرى ، وتدريجيا أضيف اليهم مستشار قضائى ، وآخر للمعارف وبعدها للداخلية ، ثم عين مفتشون للأقاليم ، ثم ما لبث الأمر بأن اتسع نطاق الوظائف لهم فى الحكومة وازداد عدد الموظفين الانجليز زيادة مضطردة ، وأصبح الموظف المصرى آلة فى يد الانجليز عليه حق الاصغاء والتسليم ، وبقى الانجليز منفردين بتصريف شئون الدولة وبتوجيه سياستها ، والانجليزى المشورة منه نافذة وان جاءت فى قالب النصيحة ، وكانت الحكومة المصرية كما مهملا فالمستشار البريطانى يحضر جلسات مجلس الوزراء وهو صاحب الرأى المسموع •

أخذ الاستياء ينمو ويزيد ورأى المصريون الذين اتصفوا بالكفاءة أنه قد قضى على ترقيتهم الى أسمى المناصب فى حكومتهم بعد النظام القاضى بأن المنصب الذاتى يتقلده غير المصرى اذا خلا بل يتقلده على الدوام •

وفى حقيقة الأمر فقد خضعت المنـاصب الدنيـــا للمصريين ، وقصرت المناصب العليا على غير المصريين بصفة عامة ، ففى أثناء وجود لجنة ملنر فى مصر طلبت من كل وزارة بيانا لتوزيع الوظائف فبها بنسبة بعضهـــا الى بعض فى سنوات ١٩٠٥ ، ١٩١٠ ، ١٩١٤ ، ١٩٢٠ فوجدت أن المصريين يشغلون من الوظائف الصغيرة نحو ثلثى ما كان راتبه عنها يختلف من ٢٤٠ جنيها الى ٤٩٩ جنيهـا وينحط نصيبهم من الثلث قليلا فى الوظائف التى تختلف رواتبها من ٥٠٠ الى ٧٩٩ جنيها ، أما الوظائف الكبيرة فان نصيب المصريين فيها لا يبالغ الربع ، وفى الوزارات المالية والمعارف والأشغال العمومية والزراعة والمواصلات كان نصيب المصريين من الوظائف الكبيرة فيهـا ٣١ مقـابل ١٦٨ يتقلـدها البريطانيون وواضح أن الاحتلال البريطانى كان يعمل عامدا على ابقاء المصريين فى حالة من القصور والعجز والاعتماد على الانجليز فى القيام بشئون الوظائف الهامة ، ومن ثم سيطروا تماما على شئون البلاد(١) •

وكون الأرمن جالية خاصـــة بهم ومارسوا العمـل الاقتصـادى وازداد عددهم بقيام الحرب حيث قاسوا من الاضطهادات فى تركيا والشام مما اضطرهم الى الهجرة لمصر فهى البلد الوحيد الذى كان يفتح ذراعيه لكل غريب يطأ أرضه حتى أنه وصل فى يوم واحد أربعة آلاف أرمنى لاجىء(٢) •

وعن الجاليـــة الشامية فجاءت الى مصـر منذ عهد اسماعيل هربا من ظلم الحكم التركى فى الشام وخنقه للحريات وتضيقه على انتاج المطابع والفكر ،

(١) تقرير اللجنة الخصوصية ، ص ٢٤١ •

(٢) The Near East, October 1, 1915.

فكونوا جالية فى مصر على درجة كبيرة من النفوذ وخصوصا المسيحيين منهم ، وهذه الجالية لم تكن تستمد أهميتها من أعضائها بل من المراكـــز التى كان يشغلها أفرادها ، فكان معظمهم من الطبقة العليا وكبار رجال الدولة ٠

واحتضـــن الاحتلال السوريين ، اذ رأى أنه ليس باستطاعته الاعتماد على المصريين من المسلمين بحجة أنهم لا فائدة منهم فى ذلك الوقت ، ورأوا أن الأقبـــاط لا يفضلون المسلمين الا فى القليل ، ومن ثم فلم يبق أمامهم ســـوى السوريين ، فهم موظفون أكفاء يتقنون لغتهم ويقبلون أن يتعاونوا معهم فسدوا الفراغ لهم لذلك وصفهم اللورد كرومر فى مذكراته بأنهم « منحة من السماء » وأنهم « خميرة البلاد » ووصلوا الى أعلى المراكز الادارية ، وكان منهم المحاسبون والصحفيون والتراجمة والجباة والمرابون ٠

وازداد أعداد السوريين فى أثناء فترة الحرب فهاجروا الى مصر هربا من اضطهادات جمال باشا ٠ ففى أقل من شهر وصل الى الاسكندرية ثمانية آلاف منهم(١) ٠

وتقول صحيفة « الاكسبريس » معبرة عن هذه الطبقة ومدى استفادتها من ظروف الحرب « ولقد نجحوا فى التجارة والزراعة والصناعة ٠ ففى الأسواق التجارية نجد السوريين فى المقام الأول فهذا هو سمعان الشهير وسليم ، وفى بورصة ميناء البصل وبورصة الأوراق فى الاسكندرية يوجد التجار المشهوريين من السوريين الذين نجحوا فى تجارة الحبوب والأقطان وأسسوا لهم المراكز المالية الخطيرة ، وفى الأشغال المالية البحته نبغ السوريون وخصوصا فى ادارة المصارف والشركات ، وكذلك فى الزراعة ألفوا الشركات الزراعية حتى اشتغلوا بمهنة الخياطة وصناعة الأحذية والحلاقة والبقالة ، وبالفنـــون الأدبية كأصحاب المطابع والمجلات والجرائد وأرباب المكاتب العمومية ، وفى تجارة الخشب فقد نجح فيها عائلة كرم بسبب ارتفاع أثمان الخشب ، وكذلك أسعد باسيلى تاجر الخشب الذى ربح الكثير ، وكذلك الخواجة شكر الله الذى اشتغل فى تجارة الحديد فربح فى هذه الأيام بسبب ارتفـــاع أثمان الفحـــم والحديد وغيرهم وبأرباحهم اشتروا العقار والأطيان ، وذلك بعكس الوطنى الذى اذا صادفه شىء من الربح يبعثره فى الحانات ومنازل الدعارة واقتناء المركبات »(٢) ٠

أما عن اليهود ، فقد لعبـــوا دورا مهما فى المجتمـــع المصرى تمتعـــوا فيه بامتيازات عديدة وحينما اندلعت الحرب تعرضوا هم الآخرون فى الشام لعنف جمال باشا ففروا الى مصر لاجئين اليها ، فوصل الى الاسكندريـــــة عقب قيام الحرب ١١٫٢٧٧ مهاجرا وصفهم أحـــد كتابهم « وصلوا الى مصر وهم يطوون

(١) Le progrés Egyptien, 24 Jan, 1915.

(٢) الاكسبريس ١١ يوليو ١٩١٦ ٠

أحشاءهم على الطوى ويصلبون على حجر الفضا ، فرفلوا فى بحبوحـــة النعيم والسؤدد مدى أربع سنوات متوالية » وبمجرد أن تدفق هذا السيل من المهاجرين تشكلت لجنة من كبار الرأسماليين من أبناء الطائفة اليهودية وقابلوا السلطان حسين كامل الذى أبدى من جانبه عطفا شديدا على اللاجئين ، وبادرت الحكومة المصرية بارسال أحد مفتشى وزارة الداخلية لدراسة أحوال اللاجئين واحتياجاتهم واقتراح مدى امكانية مساعدتهم (١) ، ففتحت لهم مناطق القبارى والبلدية فى الشاطبى ومبنى الحجر الصحى ووضع تحت تصرفهم محطـــة الورديان ودار المحافظة فى رأس التين وغيرهما من الأماكن الحكومية (٢) ٠

وتولت الخزانة المصرية نفقاتهم حتى لقد أنشأت لهم المخابز الخاصة هذا فى الوقت الذى كانت تعانى فيه من شـــدة الأزمة ٠ وعلى لسان أحـــد كتابهم يقول : « وقد ارتاح لهم المصريون أن يعيشوا في أمان وأن يقيموا شعائرهم بحرية ، فقد بنى لهم معبدا ومستشفى فضلا عن أن المكان نفسه صحى وملائم للمعيشة وبه حدائق خضراء وطرقات مرصوفة ونافورات مياه » (٣) ونعم اليهود فى أثناء هذه الفترة ، فتمتعوا بكافة حقوق المواطنين وبامتيازات أخرى لم يكونوا يحلمون بها ٠ وراحت معظم الصحف تنشر المقالات تنوه فيها بالعذاب الذى قاساه اليهود ٠ ومن معسكرات اللاجئين خرجت الفكرة التى تدور حول مساعدة الانجليز ضد الأتراك والمحاربه فى صفهم ، فتكونت منهم فرقة من أجل هذا الغرض (٤) ٠

واستفاد اليهود من ظروف الحرب وذلك لدرايتهم وكفاءتهم من الشئون الاقتصادية وعلى سبيل المثال فمنذ بداية الحرب تقول الشعب : « أخذ اليهود يطوفون فى الأسواق بمصر والأقاليم لالتقاط الجنيهات الذهبية التى يجدونها بين يدى الجمهور أو لدى التجار ويدفعون عن كل جنيه أربعة أو خمسة مليمات زيادة على سعره الرسمى (٩٧٥ مليما) ولا جرم أن هؤلاء اليهود لا يدفعون هذه الزيادة الا مقابل الحصول على أكثر منها ، فاذا استمرت العملة الذهبية تتوارى عن العيون وهؤلاء الصيارفة يجدون فى أثرها فلا يبعد أن تصل قيمة الجنيه الانجليزى فى مصر الى ١٠٠ قرش أو أكثر » (٥) ٠

ومارس اليهـــود نشاطهم فى حـــرية تامة واستطاع بعضهم أن يصبح من

---

(١) أحمد محمد غنيم : اليهود والحركة الصهيونية فى مصر ١٨٩٧ ـ ١٩٤٧ ، ص ٢٢ ٠

(٢) Fargeon, M. : Les Juifs en Egypte, pp. 173-177.

(٣) Ibid, p. 177.

(٤) Ibid, p. 178.

(٥) الشعب ، ٢٧ أكتوبر ١٩١٤ ٠

دوى الاملاك والبعض الآخر احتكر بعض الصناعات مثل « صناعة السينما » فقد أسس « جوزيف موصيرى » فى عام ١٩١٥ شركة للسينما سماها « جوزى فيلم » أدارت دور سينما فى القاهرة والاسكندرية والسويس وبور سعيد ، وأقام « شيكوريل » ١٩١٥ مؤسسه خاصة بتصدير القطن وتسويقه الداخلى ثم أصبح عضوا فى بورصة البضائع وبورصة مينا البصل وعضو مجلس ادارة جمعية المصدرين ، و « الفريد كوهين » أسس فى عام ١٩١٤ « شركة التسليفات التجارية » التى انتشرت انتشارا واسعا وأصبحت لها وكالات فى لندن وغيرها من المراكز التجارية الرئيسية فى العالم (*) ٠

(ب) كبار ملاك الأراضى :

أما عن طبقة كبار ملاك الأراضى ــ وأعنى بهم ممن يملكون أكثر من خمسين فدانا ، وكان عددهم على حسب احصاء سنة ١٩١٤ = ١٢ر٤٨٠ وكانت مساحة الأراضى التى يمتلكونها تبلغ ٢ر٣٩٦ر٩٤٠ فدانا بمعدل ٩ر٤٣٪ من مساحة أراضى مصر المنزرعة ــ ارتمى أغلبيتها فى أحضان الانجليز ، وبنى كرومر سياسته وخطته لحكم مصر على أساس دعم هذه الطبقة والاستعانة بها ، وأصبحوا بذلك أصحاب المصالح الحقيقية فى البلاد ، وكانت مبادؤهم السياسية تنحصر فى المطالبة بالحياة النيابية والحكم الذاتى فى ظل الاحتلال البريطانى ٠

وبقيام الحرب اتبعت انجلترا سياسة قطنية خسر على أثرها طبقة كبار الملاك ، فمنذ البداية أخذ سعر القطن ينزل تدريجيا بسبب خوف مستوردى الأقطان المصرية فى البلدان الأجنبية من خلق الأسواق التى يبيعون فيها منتجاتهم ، وكان قد انخفض متوسط ثمن القنطار الى ١٢ ريالا بعد أن كان ثمنه فى السنة التى سبقت الحرب ١٩ ريالا وقد تسبب عن ذلك خسارة جسيمة لأصحاب الأراضى ، ولكن هذه الحالة لم تستمر طويلا ، اذ ازداد طلب الدول الأجنبية على الأقطان المصرية وأخذت أسعارها تصعد من أول موسم ١٩١٥/١٩١٦ وتوقع ملاك الأراضى أن يعوضهم هذا الصعود بعض ما خسروه ٠ ولكن الحكومة كانت قد حددت المساحة المنزرعة قطنا بثلث الزمام مما جعل كبار الملاك يصيحون فى طلب الغاء هذا التحديد وتم لهم ذلك فى ١٩١٦ ولكن فى يونيو ١٩١٧ حدد سعر القطن ب ٢٣ ريالا ثم حرمت زراعته فى مصر العليا وقيدت زراعته بثلث الأراضى القابلة للزراعة فى باقى مصر ، ولم يلبث أن أصيب كبار الملاك فى موسم ١٩١٨ حين احتكرت الحكومة الانجليزية محصول القطن جميعه ٠

(*) أحمد محمد غنيم ، ص ص ٥٢ ــ ٥٨ ٠

من هذا نرى أنه بالرغم من الفائدة المحققة التى لا تنكر وجناها كبار الملاك بسبب ارتفاع أسعار القطن من جانب وارتفاع الايجارات الناشىء عن هذا الارتفاع فى الأراضى الزراعية من جانب آخر الا أنهم كانوا من أشد الفئات سخطا على الانجليز ، ذلك لأنهم تحكموا فى أسعار القطن وفى احتكاره ولم يتركوا لهم فرصة التمتع بأقصى ما يمكن تحقيقه من هذه الأرباح التى أتت بها الحرب ٠

وسنحت الفرصة للرأسمالية المصرية الى الظهور والنمو تحت حماية الزامية اقتضتها ظروف الحرب ، فانخفاض أرباح الزراعة وانقطاع سيل رؤوس الأموال الأجنبية وتصفية أعمال الرأسماليين الأجانب من رعايا ألمانيا وحلفائها ، واغلاق بعض البنوك أبوابها واشتداد الحاجة الى صناعات مختلفة تسد حاجة الشعب والجيش المرابط على أرض مصر ٠ كل هذا أتاح للرأسمالية المصرية الفرصة للنزول الى الأسواق فارتفعت رؤوس الأموال المصرية فى البنوك ارتفاعا سريعا وخاصة فى البنك الأهلى والبنك الانجليزى المصرى ، فازداد الرصيد عام ١٩٢٠ الى ٣٥٫٥ مليون جنيه بينما كان عام ١٩١٥ قد وصل الى ٦٫٥ مليون جنيه(١) ٠

(جـ) المثقفون :

المثقفون طبقة جديدة على المجتمع المصرى . أخذت فى النمو والازدهار فى مطلع القرن التاسع عشر كنتيجة للاحتكاك الفكرى والحضارى بين المجتمع الاقطاعى المتخلف فى مصر والحضارة الرأسمالية الغربية ، ولحركة النقل من الفكر الغربى فى صوره المختلفة ٠ فهى تمثل اذن الثقافة الأكثر تطورا ، وحرمت هذه الطبقة من وظائف الدولة التى كانت حكرا على الأجانب ٠

وزع المثقفون بين أصحاب المهن الحرة كالمحاماة والموظفين والدارسين وقد حلت هذه الطبقة محل مشايخ الأزهر وورثتها فى دورها الوطنى القيادى للحركة الوطنية فى مصر ، وتوزعت بين الحزب الوطنى وحزب الأمة وكانت غريبة فى ديارها محرومة من شغل المراكز اللائقة بها ، ففى الوقت الذى كانت الوظائف تغلق الباب أمامهم كان الانجليز يشغلون الوظائف ويسدون عليهم الطريق : يقول ويفل عنهم « كانوا ينظرون الى أى وظيفة يشغلها موظف بريطانى على أنها يجب أن تكون من نصيبهم وخصوصا أنه أثناء الحرب انحط مستوى الموظفين البريطانيين رغم أن عددهم زاد خلال سنوات الحرب ومن رأى هؤلاء أن المساعدة البريطانية للمصريين قلت رغم أن تدخل الانجليز فى شئونهم زاد ، فلما خابت آمالهم اتجهوا الى السياسة والصحافة » (٢) ٠

وبذلك تسربت الى أجهزة الدولة أسوأ العناصر البريطانية وأقلها كفاءة وأكثرها فسادا ٠

---

(١) Crouchley · op. cit., p. 77. ، امين مصطفى عفيفى : المرجع السابق ص ٤٨٩ ٠
(٢) Wavell : Allenby in Egypt, p. 38.

ووصل الأمر بتهاون الحكومة المصرية فى حق المصريين أن وزير الأوقاف لبى طلب انجلترا في تعيين أحد الانجليز فى وزارته ـ كانت قاصرة على المسلمين ـ فعين مستر « جربنوود » رئيسا عموميا للهندسة المياهية بتفاتيش الأوقاف مدعيا عدم وجود أهل لهذا المنصب بين مواطنيه المسلمين الأكفاء (١) ٠

هذا بالاضافة الى أن الحكومة منحت الموظفين الذين استخدموا فى الحرب مرتباتهم وقدمت المساعدات لعائلاتهم (٢) فى الوقت الذى نحت المصريين عن أعمالهم بسبب الاقتصاد ٠

وفى أواخر أيام الحرب ازدادت متاعب هذه الطبقة ، ففى المدة بين ١٦ أغسطس ١٩١٨ وأول سبتمبر ١٩١٨ أى فى ظرف يقل عن شهر واحد ، تقدم للقومسيون الطبى فى لندن ١٣٣ شابا انجليزيا من راغبى التوظف فى مصر ، ونجح هؤلاء جميعـا فى الكشف الطبى ، فما كان على الحكومة المصرية الا أن تدفع ٣٠٠ جنيه رسم هذا الكشف ، ووفد هذا العدد الكبير على مصر حتى اضطرت الحكومة الى ايجاد أقسام جديدة فى مصالحها لاستيفائه (٣) ٠

من هذا نرى كيف ضاقت سبل العيش فى وجـوه المثقفين بالاضافة الى ظروف الحرب القاسية التى كانت فى حد ذاتها صورة ساخطة لما صاحبهـا من غلاء للأسعار وارتفاع فى مستوى المعيشة وعدم دفع المرتبات والاستغناء عن الموظفين وما صاحب ذلك من تقييد للحريات بوجود الأحكام العرفية ٠ وكثرت الشكوى ورفعت الالتماسات الى السلطان من حملة الشهادات يطالبون فيهـا بالحاقهم بالوظائف بعـد أن امتلأت جدران المصالح بالاعلانات عن عدم وجود وظائف خالية وفيها يشرحون حالهم وما وصلوا اليه من بؤس وضنك (٤) ٠

وارتفعت أصوات المفصولين من وظائفهم بسبب الغاء تلك الوظائف أثناء فترة الحرب (٥) فنظرا لتوقف مشروعات الرى والصرف فصلت الحكومة ٥٠٠ موظف من وزارة الأشغال فتقول السفير : « كان أمام الحكومة طريق آخر كالغاء العلاوات والترقيات التى تمنحها باليمين وبالشمال ، وكان عليها أن تبحث فى دوسيهات المستخدمين عن الذين ترقوا بسرعة البرق بفضل المحسوبية ، ان الذين فصلوا هم الوطنيون فقط » (٦) ٠

---

(١) العالم الاسلامى ١٧ مايو ١٩١٦ ، ص ١٠ ٠

(٢) Public Works Ministry, Archives, File no 87 11\1 A. Budget 1916-1917, December, 2, 1915.

(٣) الأهرام ٢٣ يناير ١٩٢٠ ٠

(٤) الديوان العالى السلطانى ، محفوظات ١٩١٦ ، ٣٠ ابريل ، ١٣ مايو ١٩١٦ ٠

(٥) Public Works Ministry, File no 8746/2, December 3, 1915.

(٦) السفير ٢٨ أكتوبر ١٩١٤ ٠

ومضت بقية الوزارات والمصالح على نفس المنهج هذا فى الوقت الذى زيدت فيه رواتب الكثير ، فعلى سبيل المثال زيد راتب « يوسف قطاوى » ٢٠٠ جنيه فأصبح ما يأخذه فى السنة الواحدة ١٠٠٠٠ر١٠ جنيه كذلك زيد مرتب المستر « دارجون » المستشار الزراعى والدكتور « ورنوك » زيادة كبيرة رغم أن رواتبهم عالية (١) وتقول الاكسبريس : « وأصبحنا نقرا فى أعداد مرتبات الموظفين العشرات والمئات بدل الآحاد ، والفضل فى هذا اليسر يرجع الى الذين نظموا الميزانية ، والفضل يرجع فى ذلك الى هؤلاء المستعمرين ، هذا اليسر الذى بات الموظفون يتنعمون به وهذا المال الذى زاد عن كفايتهم ، فأخذوا يشترون العقار والأطيان ورغم هذا يمدون يدهم للرشوة وظلم الناس ولا يهمهم اذا خربت الدنيا أو تلف المحصول أو عم الغلاء » (٢) ٠

وساءت حالة الموظفين لدرجة أن وزارة المعارف شهدت عريفا من عرفاء كتاتيبها كان قد أعلن بالاستغناء عنه فما كان منه الا أن دخل على المفتشين فى غرفتهم لا ليطلب أن يعاد الى وظيفته وبيده شهادته ولكن ليطلب حتى أن يعين فى وظيفة « فراش كتاب » لأن وراءه ثمانية أولاد يبكون جوعا (٣) ٠

ثم رأت الحكومة أن تستقطع من الموظف الذى يزيد مرتبه على ١٥ جنيها ربع المرتب والذى يزيد مرتبه على ٥٠ جنيها ثلث مرتبه ، ثم قرر قومسيون بلدية الاسكندرية توفير المستخدمين الذين لا يزيد مرتب الواحد منهم على ١٤ جنيها فى الشهر بحجة التدابير الاقتصادية ، وذلك رغم أن بلدية الاسكندرية أكثر موظفيها يتراوح مرتب الواحد منهم بين ٤٠ جنيها ، ١٠٠ جنيه فى الشهر ، هذا فى الوقت الذى أعطت فيه بلدية الاسكندرية عائلة « نورسا بك » منحة مالية لا مسوغ لمنحها قدرها ١٢٠٠ جنيه (٤) ٠

وساءت حالة الموظفين ، فعلى لسان أحدهم « اننا لم نذق طعم اللحم منذ مدة سنتين وقد بعنا جميع ما نمتلكه حتى قضت أننا نلبس بدلة الحكومة على الجسد دون لباس ولا قميص » (٥) ٠٠

وشارك الطلبة الموظفين فى بؤسهم ، وكان الوضع الاجتماعى لهم،

---

(١) الاخبار ٢ مايو ١٩١٥ ، الافكار ٤ أكتوبر ١٩١٥ ٠

(٢) الاكسبريس ١٣ ابريل ١٩١٧ ٠

(٣) المؤيد ٢٥ يوليو ١٩١٥ ٠

(٤) الأهرام ٢٩ اغسطس ١٩١٤ ، ٢٣ فبراير ١٩١٥ ٠

(٥) الديوان العالى السلطانى ، ٢٩ مايو ١٩١٦ ٠

يدفعهم للثـورة والعمل السـياسى ، وفيما يختص بأولاد الأغنيـاء الذين تلقوا تعليمهـم فى الخـارج . فهؤلاء عنـد عودتهـم الى بـلادهم سـرعان ما يـرون أنفسهم محصورين فى نطاق ضيق بالنسبة لمـا يمكن أن يقـدموه لأنفسهم ولبـلادهم ، أما الذين يتعلمون فى داخـل بلادهم ، فقـد كان معظمهم من الطبقة الوسطى ، وبعضهم من عائلات فقيرة جدا تعانى صعوبات بالغة فى سبيل اكمال دراستهم(١) ، وحتى بعد اكمال دراساتهم فلم يكن ثمة ضمان بأنهم سوف يلتحقون بعمل ملائم وذلك بسبب مزاحمـة الأجانب لهم ، وحتى اذا توظفوا فهنـاك حائل بينهم وبين الترقى للمناصب العليـا . وهذا الوضع الاجتماعى لم يكن ينطبق فقط على طلبة المدارس العليا كالطب والحقوق والهندسة وغيرهم انما ينطبق أيضا على تلاميذ الثانوى .

وبدأت أول محاولة لتنظيم صفوف الطلبة بأنشاء نادى المدارس العليـا عام ١٩٠٥ ، وكان هذا القطاع الشعبى يمثل لمصطفى كامل مثلا صالحا وتربة خصبة ، ولمـا قامت الحرب وفرضت الأحكام العرفية أقفـل نادى المدارس العليا ، وكممت الصحافة ، وتأجل انعقـاد الجمعية التشريعية ، ثم أعلنت الحماية البريطانية على مصر ، فنتج عن هذا الكبت الشديد أن تحولت المدارس والجامعة الى ميادين للمناقشات السـياسية يتحدث فيها كبار الطلبـة أمام صغارهم من خيانة حكامهم لمصر (٢) . وظهر أثر ذلك عندما أراد السلطـان حسين زيارة مدرسة الحقوق فقد اتفق معظم طلبتها على الامتناع عن الحضور فى اليوم المحدد – ١٨ فبراير ١٩١٥ – فكان هذا الاضراب شبه مظاهرة ضـد الحماية (٣) .

وهكذا اهتم الطـالب المصرى بالسياسة ، وأصبح من النادر أن يوجـد المثقف الذى يتناول أى موضوع دون أن يعـرج الى الحديث عن العبـودية السياسية لبلاده وامتلأت القهاوى بالطلاب رددوا فيها شعاراتهم وأثروا تأثيرا قويا على السـامعين الأقل حظـا من الثقـافة والتعليم ، وكانت محـاولتا قتل السلطان حسـين تلقى تأييـدا وموافقة من طلاب المدارس العليـا الذين كانوا يتحدثون فيما بينهم عن القائمين بها بوصفهم أبطالا وطنيين (٤) . ولهذا فانه عندما انتهت الحرب كان المثقفون أول من فجر الشرارة الأولى لثـورة ١٩١٩ .

---

(١) Laqueure W. : Communism and Nationalism in the Middle East, p. 13.

(٢) Elgood : The Transit of Egypt, p. 220.

(٣) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ، ص ص ٢٤ ، ٢٥ .

(٤) Elgood : op. cit., pp. 213-221 .

(د) التجـار :

سـيطرت العناصر الأجنبية على النشـاط التجارى ولم تترك للوطنيين سوى الاعمال البسيطة وحتى البيع بالقطاعى استولت عليه ، فالبقالة كانت حـكرا يونانيا ، والمنسوجات الصوفيه والقطنيه والبياضات والفحم احتكارا انجليزيا والسـجائر اختص بهـا الأرمن والمشروبات الروحيـة اشتهر بهـا اليونانيون والايطاليون . أما تجارة الغلال فقد كانت فى أيد مختلفة ، ومع انه توجـد مئات من الحوانيت الصغرى التى يمتلكها مصريون الا ان تجـارتها غير رائجه لان اصحابها لم يكونوا يقدرون الأساليب العلمية الحديثة (١) .

ومع قرب أجل الحرب أحس التجـار الأجانب بهـا فأكثروا من شراء البضائع بأثمان بخسة وكفوا عن البيع بعد أن أودعوها لوقت الحاجة لكسبوا المبالغ الطائلة ، فعلى سبيل المثال : « بعد انقطاع ورود الدقيق من روسيا وفرنسا عن بور سعيد اجتمع تجار الدقيق وكلهم ولا شك من الأجانب اليونانيين وتداولوا فى الأمر خفية وقر قرارهم على ارتفاع الأثمان ارتفاعا باهظا لم يسمع به من قبل لعلمهم أن الطلب كثير والعرض قليل والمصرى محتاج الى ذلك فيجب عليهم حسب شروط الاجتماع أن يتحكموا فى المصريين وأن يمتصوا دماءهم ، كل ذلك لأن التجارة بأيديهم والمصرى بعيد عن الاشتغال بها ، كل ذلك لأن رؤوس الأموال التى بمصر هى أجنبيـة ، كل ذلك لأن المصرى لا يشتغل الا بالتجارة البسيطة » (٢) .

وتمضى الصـحافة لتعطينـا صورة واضحة عن تحـكم التجار الأجـانب واحتكارهم للتجارة ابان فترة الحرب حتى أن محافظ القنال جمع قناصـل الدول التى ينتمى اليها هؤلاء التجارة للحد من جشعهم وجبروتهم وللتقليـل من هذا الغلاء الفاحش (٣) .

وأرجع السبب فى أن التجـارة الوطنية فى يد المصريين تختلف عنهـا فى يد الأجانب ذلك لأن التجـار الوطنيين لا جامعة لهم ولا اتفـاق ولا تضامن بينهم . وبأن هذا أدى الى خسارتهم وفوز الأجنبى عليهم ، لدرجة أن الأمـر كان يصل الى أن الواحد منهم كان يسعى لدس الدسائس لزميله عند المصارف حتى يعرقل أعماله ويوقف حركة أشغاله (٤) .

وقد أقرت لجنة التجارة والصناعة فى تقريرها بأن التجارة الوطنيـة تفتقر الى كثير من وجوه التقويم والاصلاح .

(١) مليكة عريان : المرجع السابق ، ص ص ١٩ ، ٢٠ ، ١٤٦ .
(٢) الشعب ١٧ أغسطس ١٩١٤ .
(٣) الاهرام ٧ أغسطس ١٩١٤ .
(٤) الاكسبريس ٢ ابريل ١٩١٦ .

وضغطت الحكومة منذ بداية الحرب على طبقة التجار المصريين ، فكثيرا ما نزعت ملكياتهم ، فعند اعلان الحرب أصدرت الحكومة « المورانوريوم Moratorium » ـ تأجيل الدفع ـ فكان ذلك لمصلحة البنوك ولمصلحة الماليين الأجانب ، وأخذت هذه البنوك وهؤلاء الماليون يدفعون الأمانات على أقساط وبآجال حتى انتهوا من خطر الافلاس ولما سلمت البنوك وسلم الماليون مما يهددهم رفعت الحكومة الموراتوريوم وصرخ التجار وأعضاء الغرفة التجارية فلم تسمع ولم تجب ، ولما جاء دور التجار وحلت الكمبيالات والأقساط التجارية التى كان حسابها معمولا على وقت غير هذا الوقت ارتبكت السوق التجارية التى أخذت فى طريقها عدة محلات وأعلنت بسببه عشرات التفاليس .

وبالرغم من ذلك فان الثلاث السنوات الأخيرة من الحرب أفادت التجار ، فاحتياجات تموين القوات البريطانية وانتعاش تجارة السوق المحلية زادت من نشاطهم فسددت ديونهم وخلصت رهوناتهم ، وارتفعت رؤوس الأموال المصرية فى البنوك واستثمرت فى اقامة المشروعات التجارية (١) .

ودعت لجنة التجارة والصناعة بضرورة العمل على نهضة التجارة الوطنية وتحسين حالة التجار ، هذا وقد سرت روح النقابات بينهم ، ولعبت الغرفة التجارية دورا مهما فى الحث على انشائها ، فدعت تجار الغلال فى ٨ يربيو ١٩١٧ لتأليف نقابة تضم شملهم وتوحد كلمتهم (٢) وفعلا أتم تجار الغلال فى الاسكندرية وسائر القطر تشكيل نقاباتهم الرئيسية وفروعها فى الأقاليم . وانتخبوا لها الرئيس العام وهو مراقب التموين ورؤساء الفروع ، وهم من تجار الحبوب ، وكذلك أعضاء النقابة العامة وأعضاء النقابات الفرعية وجميعهم من تجار الغلال المصريين أصحاب الدراية والخبرة فى تجارتهم ، وأتمت النقابة الرئيسية بالاشتراك مع نقابات الأقاليم وضع قانون النقابة العامة وشمل تعيين وظيفة هذه النقابات واختصاصها ووظيفة النقابة الرئيسية واختصاصها ، وأوضح هذا القانون كيفية تشكيل النقابات ولجان التحكيم وابان اختصاص هذه اللجان وعين الأبواب التى تحصل منها النقابات على نفقاتها وفرض على كل نقابة وضع ميزانيتها السنوية وخصصت لها ٨٠٪ من الايراد ، ٢٠٪ تعطى للنقابة الرئيسية ، وعين القانون اختصاص لجنة التحكيم التى تنظر فى الخلاف

(١) Grouchley : The investment of foreign capital in Egyptian and public debt, pp. 76, 160.

(٢) الغرفة التجارية ، يوليو ١٩١٨ ، ص ٢٣٥ .

الذى يقع بين التجار وبعضهم وطريقة الحكم فى هذا الخلاف ، ورات النقابه ضرورة انشاء مجلة خاصه بها تنشر كل ما يهم تجار الغلال (١) ٠

وتبع ذلك أن شعر أصحاب المطاحن بأن نقابة تجار الغلال ستكون لها السلطة عليهم وستمنح الاشراف على أعمالهم والترخيص بالعمل لكل صاحب مطحن أو وابور فأسرعوا فى المباحثة والمداوله لأجل انشاء نقابة لهم تحميهم من هذه المراقبة ٠ وأمام هذه الحركة النظامية شعر الخبازون أنه يستحيل عليهم البقاء بغير نقابة رسمية لطائفتهم مع تشكيل نقابتى تجار الغلال وأرباب المطاحن ، فاجتمعوا واتفقوا على تأسيس نقابة لهم تدافع عن مصالحهم وتعترف لجنة التموين بها رسميا (٢) ٠

هذا وقد خلقت ظروف الحرب طائفة من أغنياء الحرب من التجار ، وفى الواقع فانه عندما قررت انجلترا اتخاذ الاسكندرية قاعدة حربية لحملة غاليبولى فى أواخر عام ١٩١٥ دب فيها النشاط الاقتصادى وأدركت الرواج واليسر بصفة اجمالية بعد أن طفق الجنود يتواردون عليها ودارت فى أسواقها ومنازلها حركة التوريدات والأشغال المختلفة للغرض العسكرى وانعكس ذلك على بعض من التجار فتكون ما يمكن أن نطلق عليه « أغنياء الحرب » ، فتقول صحيفة الأخبار « من نتائج الحرب أن كثيرين قد ربحوا مالا كثيرا بواسطة متاجرتهم مع الجيوش المحاربة ، وقد كان معظم هذه الأرباح ليس بالقليل فاثرى بعض الناس وربح بعضهم ربحا ما كان يحلم به ولا يخطر له ببال (٣) ٠

واغتنى تجار الحديد وربحوا أرباحا طائلة ، فعلى سبيل المثال أن أحد تجار الحديد كان يملك قبل الحرب حديد الكمر « لتسقيف المنازل وحديد مطروف » ما يقرب من ٤٠٠٠ر٤ طوينلاطه ، وكان ثمن الحديد قبل الحرب يتراوح بين ستة وسبعة جنيهات على كل طوينلاطه ٠ وبانقطاع الوارد واحتياج الجيوش البريطانية باع الطوينلاطه ب ١٨ جنيها وربح من البضاعة الموجودة لديه ٠٠٠ر٤٠ جنيه (٤) ٠

وراجت حركة الأخذ والعطاء ، ولم يبق محل تجارى لم يتعهد للجيش بتوريد الملبوسات أو الأدوية أو المأكولات أو علف الماشية ، وباع أصحاب شوادر الخشب أكثر ما عندهم بأضعاف أثمانه لأن السلطة أخذت كميات وافرة منه بعضها استعملته فى عمل زرابى وأكشاك للخيول والجنود ،

---

(١) الاكسبريس ١٨ أغسطس ١٩١٨ ٠
(٢) التجارة ١٣ يناير ١٩١٨ ، الاكسبريس ١٥ سبتمبر ١٩١٨ ٠
(٣) الاخبار ٢٣ مايو ١٩١٦ ٠
(٤) وادى النيل ٢٥ يوليو ١٩١٥ ٠

وبعضها أرسلت الى الدردنيل لهذا الغرض ، ولهذا قل وجود صنف الخشب وارتفعت أثمـــانه الى ثلاثة أضعاف ، والذين ربحـوا أكثر من الجميع متعهدو توريد علف المواشي وخصوصا صنف الشعير ، فان هؤلاء المتعهدين باعـــوا المسلطة كميات عظيمة من هذا الصنف بأثمان عالية فربحوا من هذه التجاره مبالغ وافرة (١) .

وكان تجار الغلال والدقيق أيضا أكثر الناس ربحا بسبب امتناع وارد الدقيق والحبوب من الخارج وزيادة الطلب على المحصول سواء من المصريين أو من الجيش ، وكان من بين الرابحين أيضا تجار الماشية والخضار والألبـــان وأصحاب المقاهي والحانات وتجار الكحول ومعامل الدخان والسجاير المصرية .

وارتفعت الأرباح نتيجة لذلك وبالتالي ارتفع مستوى الأثمان ونفقـات المعيشة وأصبح التضخم النقدى من الخصـــائص الواضحة والمســـيطرة على الاقتصاد المصرى مما أثقل كاهل الطبقات الفقيرة وذوى الدخول المحدودة التي لم تستفد من ظروف الحرب هذا في الوقت الذى أصبح أغنياء الحرب في عداد الأمراء بما جمعوا من ثروة هيأت لهم الجاه والرفاهية والقصـــور الفخمـــة والمركبات ، ولم يشعروا بالأزمة بل استفادوا منهـــا فهى التى أوصلتهم الى هذه الدرجة من الغنى واليسر ، وأصبح لا حديث للمجالس الا حكايات أغنياء الحرب التي رفعتهم من حضيض الذل والهوان الى أوج العزة والسعادة ، فبعد أن كان أحدهم يسكن في منزل حقير ببضعة ريالات في الشهر أصبح يساوم أرباب العقار في مشترى عقاراتهم بألوف الجنيهات . حتى نســاء التجـــار الذين ربحوا مع الحرب أصبحن يركبن المركبات الخاصة غارقات في الحرير بعد أن استبدلن الخلاخيل الفضة بالذهب (٢) .

وراح محمود بيرم التونسى يقول تحت عنـــوان : « ايه نابنـــا بعـــد الحرب » .

بعـد الحروب الى هدت قلبنـا الموجوع
طلع منابنـا شـوية خردوات وبتـوع
وكام جباردين مشمع نصـهم مخروع
وجنبهـم ربعميت مليـــون جنيـه مطبوع
وكام حمار حرب أصبح بالغنى ممروع
وجيش بنات اسمه أرتيستات يقوده الجوع (٣)

ورغم هذا فان الفائدة الكبرى من نفقات الجيش البريطانى عـادت على الأجانب ، اذ أن أرباح الوطنيين لا توازى ربع أرباح الأجانب ، فالأشغـــال

(١) الاكسبريس ١ اغسطس ١٩١٥ .
(٢) نفس المصدر ، ١١ اغسطس ١٩١٨ .
(٣) محمود بيرم التونسى · ديوان ، ح ٢ ، ص ٢٩ .

التجارية المهمة في يد الأجانب وحدهم ، فهم الذين أفادوا افادة كبيرة سواء من ارتفاع الأسعار أو من التعهدات الكثيرة التي قاموا بها للدوائر والمصالح فمحلات « ديفس براين ، لندن هاوس ، شالون ، هانو ، صيدناوى » أخذت تشتغل للجيش ليل نهار ، ونفذت جميع الأدوية من مخازن العطارة ، وباعت محلات عطارة « دلمار وغناجه وجاليتى » بألوف الجنيهات وبأثمان مضاعفة لأن السلطة العسكرية كان يهمها الحصول بسرعة تامة على العقاقير المطلوبة للمستشفيات .

(هـ) العمال :

شهدت مصر في الخمسة عشر عاما السابقة للحرب حركة عمالية على درجة طيبة من الوعى ساعدت على قيامها الظروف السيئة التى كانت تعمل فيها الطبقة العمالية ، بالاضافة الى وجود عدد كبير من العمال الأجانب بين العمال المصريين ، فمنذ أوائل القرن العشرين أخذت المشروعات الخاصة والحكومية تنتشر في مصر وترتب على ذلك ازدياد عدد العمال المشتغلين فيها ، وكانت ظروف عملهم صعبة حيث أن الأجور ضئيلة وساعات العمل طويلة ، وليس هناك ما يؤمنهم ضد الشيخوخة واصابات العمل اذ لم يكن هناك تشريع صناعى لتنظيم أمورهم ، ولهذا شعروا بوجوب تضامنهم والمدافعة عن حقوقهم، وكون العمال الأجانب مع المصريين نقابات خاصة بهم وبالتالى أصبح هناك وعى نقابى بين صفوف العمال .

وباعلان الحرب تمخض أمران هامان فيما يختص بالطبقة العاملة ، أولا زيادة أفرادها نتيجة للنشاط الصناعى الذى نهض ابان الحرب ، وللعمل في السلطة العسكرية ولسفر العمال الأجانب ، ففى احصاء سنة ١٩٠٧ كان عدد المشتغلين بالصناعة يبلغ ٣٥٦٫٤٢٠ وذلك الى جانب ١٠١٫٠٢٦ يعملون في النقل . وقد ارتفع هذا الرقم عام ١٩١٧ الى ٤٨٩٫٢٩٦ بخلاف عمال النقل الذين بلغ عددهم ١٥٠٫٦٣٣ عاملا فيكون المجموع ٦٣٩٫٩٢٩ عاملا (١) . ثانيا انتكاس الحركة النقابية بدلا من نموها بنمو الطبقة العمالية ، وذلك نظرا للاجراءات التى اتخذتها انجلترا منذ وقوع الحرب ، كقانون التجمهر واعلان الأحكام العرفية وتقييد الحريات وتعطيل الجمعية التشريعية واعلان الحماية وما صاحب ذلك في تشديد الرقابة على المصريين ، كل هذا الاجراءات شلت العمال وجردتهم من أسلحة العمل الجماعى وترتب على ذلك اغلاق دور النقابات بناء على أمر الحاكم العسكرى البريطانى فتوقفت الحركة العمالية توقفا تاما خلال الحرب (٢) .

---

(١) مليكة عريان : المرجع السابق ، ص ٨٩ .
(٢) الوقائع المصرية ٢ نوفمبر ١٩١٤ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتعرض العمال في هذه الفترة للظلم والاستغلال حتى أصبحت ساعات العمل تصل الى اثني عشر ساعة على وجه العموم (١) ، هذا بالاضافة الى أن التضخم ضرب العمال ضربة قاسمه • ومضت انجلترا تنفذ سياستها تجاه هذه الطبقة ، وكان كثير منها من أتباع الحزب الوطني ، فقامت حملة اعتقالات واسعة ضد رجال هذا الحزب كما هاجمت مقراته وأنديته العمالية ومدارس الشعب التي أنشأها للعمال وضبطت أوراقها ودفاترها وسجلاتها ، وكان من أبرز رجال الحزب الذين اعتقلوا أو نفوا أو حددت اقامتهم عدد من العناصر الوثيقة الصلة بالطبقة العاملة والعاملين في الحقل النقابي وخاصة في نقابة الصنائع اليدوية وفروعها ونقابة عمال الترام أمثال : أحمد لطفي بك عضو شرف جمعية عمال ترام القاهرة • وأحمد أفندي رمضان زيان رئيس نقابة المصانع اليدوية بالاسكندرية ومحمد عوض جبريل سكرتير نقابة المصانع اليدوية باسكندرية (٢) •

ومع بداية الحرب ، وتلك الظروف الاقتصادية التي قابلتها مصر خلقت مشكلة كبيرة عان منها العمال المصريين وذاقوا الأمرين وهي « البطالة » ، فمنذ اللحظة الأولى للحرب رأى أصحاب الأعمال توفير العمال ، فقد وقفت الحركة التجارية ورحل رعايا الدول الأعداء وصفيت أعمالهم ورأت الحكومة الاقتصاد فأعطت الأوامر للوزارات بالاستغناء عن العمال •

ومنذ السادس من أغسطس توقفت أعمال الشحن والتفريغ « فبعد أن فرغ الحمالون مشحون الأربع بواخر التجارية الانجليزية والنمساوية والفرنسية ، أصبحوا الآن من غير عمل أما الشحن فقد منع تنفيذا لقرار الحكومة بمنع تصدير المواد الغذائية الى الخارج ، فبذلك وجد ألف عامل في الحال بدون عمل » (٣) •

ولم تكن وقوف حركة العمال هذه قاصرة على عمال الميناء والجمرك والمخازن والسكك الحديدية وشركات الفحم والنقل ولا على الذين يرتزقون من حركة السفن التي بطلت من جراء الحرب ، فهذه الأعداد من العمال لا تذكر بالنسبة لباقي جيوش العمال الذين يشتغلون في المدن وضواحيها كعمال البناء والورش والمصانع والمعامل والأنوال والمغازل والمحاجر ، فقد كسدت الحركة في جميع هذه الأعمال وأصبح عمالها الذين يعدون بالألوف لا يجدون لهم مصدرا للرزق ولا مجالا للكسب والتعيش هم وعائلاتهم •

ويصف الحالة مراسل المؤيد فيقول : « ذهبت اليوم الى صديق لي يشتغل

---

(١) Laqueur : op. cit., p. 25.

(٢) أمين عز الدين : المرجع السابق ، ص ١٣٦ •

(٣) السفير ٨ أغسطس ١٩١٤ •

سواقي المياه والطنابير التي يحتاجها الفلاحون لزراعة وري أطيانهم ، فوجدت أبوابها موصدة وعمالها جالسين على بابها وعلى وجوههم علامات الحزن والكدر ، ومررت بجملة ورش ومصانع تشتغل بسبك الحدايد وصنعها وعمل الآلات للزراعة وأدوات الحرث والفلاحة فوجدتها موصدة الأبواب أيضا والبؤس مخيما على ربوعها ، في عدة شوارع في المدينة وضواحيها وأقسامها . أن العمارات التي كان يشتغل أصحابها باتمامها قد أبطل العمل فيها وجف ما حولها من مونة ومررت بشواطيء البحر فرأيت أكثر قوارب الصيد بلا عمل والصيادون يشكون من كساد الحال وقلة اقبال الناس على شراء السمك وانصرافهم لكل موارد الغذاء الرخيصة ، ورأيت في مواقف عربات الركوب مئات من المركبات لا تخرج المركبة من الموقف الا كل بضع ساعات مرة ولا يجد سائقوها اقبالا كما كانوا يجدون من قبل ، فأين تذهب كل هذه الجيوش من هؤلاء العمال البائسين الذين كانوا يشتغلون في تلك الأعمال المتنوعة أيموتون جوعا أم يسعون لطلب الرزق وسد رمقهم ورمق أولادهم من باب يتيسر لهم حلال كان أم حراما ؟ » (١) ٠

ولم يكد يمضى أسبوع على قيام الحرب حتى كان هناك اربعة آلاف من العمال طردوا من معامل السجاير وشون البنوك ومخازن التجار ، وكانوا في حالة يرثى لها « وقد يجدهم الانسان على القهاوى وفي منعطفات الطرق يشكون ويبكون ولا يعرفون كيف يتصرفون » (٢) ٠ وارتفع عددهم فجأة فوصل في ١٢ أغسطس ١٩١٤ الى عشرين ألفا من العمال العاطلين وهم عمال مخازن الأخشاب والفحم وعمال شركات المكابس ، وجميع عمال مينا البصل والعربجية وعمال شركات البناء من بنائين وفعله ، ووفرت شركة الترام الأعداد الكبيرة هي الأخرى ، وفي الاسكندرية أصبحت جهات باب سدرة وكوم الشقافة والقبارى وكفر عشرى وكرموز وراغب مزدحمة بهؤلاء العمال العاطلين (٣) ٠ حتى أصحاب عربات الركوب استغنوا عن عمالهم ، وبعض المصانع كمصانع السجاير والمحلات التجارية انقصت مقادير الأعمال الموزعة على عمالها الى النصف ثم الى الربع حتى أصبح العامل لا يكسب في شهره ما يكفيه مؤونة الأسبوع ٠ وقد قلل هذا من حركة الدفع فالعامل لم يعد في وسعه أن يفي دينه للبدال والخباز وغيرهما ولا حتى أن يدفع أجرة منزله (٤) ٠

وكثرت فئة المتعطلين بسبب وقف حالة المعمار لدرجة أنهم أصبحوا متسولين في الأزقة والطرقات حتى بلغ الأمر أن اعتدى شخص منهم على سيدة

---

(١) المؤيد ١٦ اغسطس ١٩١٤ ٠

(٢) الأهالي ٩ أغسطس ١٩١٤ ٠

(٣) نفس المصدر ١٣ أغسطس ١٩١٤ ٠

(٤) الأهرام ٢ اغسطس ١٩١٤ ٠

أجنبية أثناء سيرها فى الطريق بأن اختطف من يدها كيس نقودها فقبض عليه وسيق للقسم وظهر من التحقيق أنه من الصناع المرفوتين (١) ، ويقول مراسل صحيفة الوطن : « حدثنى صديق لى عاد من الثغر ــ الاسكندرية ــ قال : كنت جالساً بغرفة بوليس أحد الأقسام واذا بالشرطى آت برجلين أحدهما من أصحاب الحرف والثانى صاحب مخبز ، فادعى صاحب المخبز على خصمه بأن طلب منه خبزا فأرسله اليه مع تابعه الى المنزل فأخذه منه عنوة ولم يدفع له الثمن وبين له أنه الآن بلا عمل وليس معه ما يدفعه ، وعندئذ بدأ المتهم يقص على معاون البوليس مبلغ الشقاء الذى حاق به فقال : من يوم أن استغنى عنى وأنا أبيع أثاث منزلى قطعة قطعة لأسد بالثمن رمق أطفال صغار وزوجة،ولما لم أجد ما أبيعه وسمعت صراخ من حولى من ألم الجوع ، دفعنى الضيق الى التحايل على صاحب المخبز بمثل ما فعلت ، ثم خنقته العبرات وأخذ فى البكاء ، وقال انه يطلب عملا يرتزق منه لأنه ليس من الكسالى ، فدفع المعاون ثمن الخبز من جيبه ، وعاون الرجل بشىء من المال » (٢) .

ولم تستطع أى نقابة من نقابات العمال أن تساعد فى حل هذه الأزمة ، فهى معطلة واكتفت بأسلوب الالتماس واستثارة العطف بعد أن كان أسلوبها قبل الحرب هو الاعتصام والاضراب . فهذه صيحة من سكرتير نقابة طنطا « الجاشنجى » الى الأغنياء والجمعيات الخيرية والحكومة تقول : « فى مدينة طنطا وحدها ما يزيد على الألف عامل وهم عاطلون من الأشغال ولا غلو فى ذلك فجلهم من طائفة المعمار وقد أوقفت الأعمال المعمارية كلها . ولقد وفرت سكة حديد الدلتا أيضا فوق الخمسين عاملا ، وألصقت اعلانا من أول هذا الشهر بادارتها تعلن عمالها جميعا بأنها خصمت من أجرتهم نصف شهر فيشتغل العامل نصف يوم فقط ، وفوق ذلك أيضا عمال سكة حديد الحكومة ، والاشاعات التى تنهال عليهم من وفر العمال ، ناهيك بعمال السجاير عندنا وعمال المحال التجارية الجارى التوفير فيهم ، وأن فوق المائتى حانوت من حوانيت الصناع الصغرى على وشك الغلق لقلة الأعمال ، ولذلك انهال الصناع على دار النقابة يئنون ويشكون سوء الحال ، والنقابة طالبة اعانتهم » (٣) .

ورفعت نقابة عمال الصنائع اليدوية فى الاسكندرية الى حسين رشدى العريضة التالية « نحن أعضاء مجلس ادارة نقابة عمال الصنائع اليدوية بالاسكندرية جئنا بهذا لنشرح الحالة السيئة التى وصل اليها العمال فى الظروف الحاضرة ، فقد وصلت الى النقابة عرائض من آلاف الصناع العاطلين يشكون فيها من الضنك والفاقة ويطلبون الاعانة منها ومساعدتهم

---

(١) ديوان معية سنية ، صادر عربى ، سجل رقم ١٤٦ .

(٢) الوطن ٢٨ اغسطس ١٩١٤ .

(٣) العدل ٦ أغسطس ١٩١٤ ، الشعب ١٩ اغسطس ١٩١٤ .

بتقديم ما يقتاتون به هم وعائلاتهم ، وبما أن النقابة نظرا لحداثة عهدها ليس في مقدورها اعانة هذا الجيش الجرار الذى يقدر بعشرات الآلاف ونطلب تأليف لجان عامة تجمع التبرعات من القادرين لكى يعطى كل عامل ما يكفيه لسد بعض مطالبه الضرورية أو صرف جزء من أموال الأوقاف الخيرية ووضعها تحت تصرف هذه اللجان » (١) .

وعمال السجاير فى القاهرة الذين طالما استخدموا سلاح الاضراب قبل اعلان الحرب نراهم أمام هذه الظروف يكتفون بالاستعطاف الى الصحف . فقد أرسل بعضهم رسالة الى الأهرام تقول : « نحن لفافى السجاير اجتمعنا اليوم وعددنا نحو الثلاثة آلاف وانتخبنا منا وفدا قابل سعادة محافظ القاهرة وعرض على سعادته سوء مصيرنا ، فأجاب سعادته للوفد انه لايتسنى له عمل أى شىء الآن ونحن نلجأ الى الأهرام خادم الانسانية » (٢) .

ومس الضرر المقاولين ، فالبنوك قطعت عنهم تلك المبالغ التى اعتادت أن تمدهم بها فى مقاولاتهم ، ثم توقفت وزارة الأشغال العمومية عن أعمال الحفر والردم وسائر الأعمال العمومية وبذلك أصبح لديهم أربعون الف عامل متعطل (٣) .

وهاجرت أعداد كبيرة من هؤلاء العمال العاطلين من الاسكندرية وبورسعيد والأقاليم الى الوجه القبلى لعلها تستطيع أن تجد ما تسد به رمقها . وقامت الحكومة بتسفير حوالى ثلاثة آلاف من هؤلاء العمال « الصعايدة » العاطلين العاملين حمالين فى الميناء الى بلادهم محاولة لتخفيف الأزمة وخوفا منها على الأمن العام ، كذلك رحل من دمنهور حوالى ١٫٩٠٠ الى الصعيد ، وبهذا بلغ عدد « الصعايدة » الذين عادوا الى قراهم حوالى السبعة آلاف (٤) .

ورغم هذا فلم تحل الأزمة ووصل الأمر بهؤلاء العمال أنه فى يوم ٢٦ أغسطس ١٩١٤ بالاسكندرية ، وفى شارع مسجد الحضرى وأمام خباز بدأ فريق منهم يساوم هذا الخباز ، فما كان من الآخرين بعد أن رأوا الخبز قريبا منهم ، وهم يطلبونه لأنفسهم وأولادهم فلا يجدون الدرهم الذى يشترونه به ، فاندفعوا مرة واحدة على المخبز « فقلبوا عاليه سافلا وأخذوا من عيشه كل ما يجدون » (٥) .

---

(١) الأهرام ٢ سبتمبر ١٩١٤ .

(٢) نفس المصدر ٣١ أغسطس ١٩١٤ .

(٣) نفس المصدر ١١ أغسطس ١٩١٤ .

(٤) The Egyptian Gazette, Sept 2, 1914, Les Nouvelles, 9 Sept. 1914.

(٥) الاهالى ٢٨ أغسطس ١٩١٤ .

وراح عمال الاسكندرية يهددون المحافظ بأنه اذا استمر الوضـع هكذا فسيكونون خطرا على الأمن العام « سـعادة محافظ اسـكندرية ٠٠ نعرض على مسامع سعادتكم أن الأزمة المالية اضطرت أصحاب المعـامل الى اغلاق أبوابها ، ولذلك أصبحنا نحن طائفة البرشامجية وعائلاتنا فى حالة ضنك شديد ، وحيث أننا لم يكن لنا سوى هذه الحرفة بتنـا حيـارى لاندرى ما نصنع ، فنرجو ان تشملنا الحكومة بأنظارها قبل استفحال الخطر وحدوث ما لا تحمد عقباه » (١) ٠

وفعـلا حـدث ما لاتحمد عقبـاه ، ففى ٣١ أغسطس ١٩١٤ تجمع فى الاسكندرية عدد كبير من العمال العاطلين قدروا ب ١٥٠٠ وطافوا فى شـوارع المدينة متجمهرين متظـاهرين ٠ وخشى أصـحاب الحـوانيت على حـوانيتهم ، فأغلقوها ، ثم تجمعوا أمام المحافظة وساعة المنشية فازدحم بهم شارع نوبار وميدان سانت كاترين وشارع العطارين حتى تعذر مرور المركبات والدخول الى ديوان المحافظة ، « وكل منهم يصيح بأعلى صوته نريد خبزا ٠٠ نريد عملا نرتزق منه » ٠ ولكنهم لم يكتفوا بذلك ، وفى اليوم التالى تكررت المظاهرة من هؤلاء العمال « وقاموا بحركات فى الطرقات أدت الى اغلاق الحوانيت ، وسمعنا أن بعضهم خرج عن حدود القانون وانتهك حرمة تلك الحوانيت » (٢) وهنا تداخل رجال البوليس محاولين المحافظة على النظام ٠

وفورا سرت العدوى الى القـاهرة ، فقام العمال العاطلون الذى غشيتهم الفاقة بثورة الجياع وقصدوا المحافظة ببـاب الخلق يدوون بأعلى أصواتهـم يطلبون الخبز والعمل ، ولما لم يسمع لهم هجموا على المخابز والبقالين والقهاوى والخمارات وجميعها ملكا ليونانيين وأروام وهشموها بعد أن ضربوا أصحابها ، وكاد نطاق الثورة يتسع بعد أن خـرج أولاد الحسينية مسلحين بعصيهم لولا تدخل البـوليس الفورى الذى أمسـك بهم « وقد زاد عدد الذين قبض عليهم زيادة عظيمة ووزعتهم المحافظة كلا على القسم التابع له » (٣)، وتكرر نفس الشيء فى أكثر من مكان بالقاهرة ٠

ومضت المحافظة تقبض على عطلة العمال الذين كانوا فى هذا التجمهر بارشاد الموجودين فى سجونها ، فيذهب الشرطى ومعه نفر من المحجوزين ــ من المتظاهرين ــ الى منزل الفار ويقبض عليه ، وقد بلغ عـدد المقبوض عليهم فى نفس يوم المظاهرة ١٧٠ شخصـا فكتبت ضدهم المحاضر اللازمة واعتبرتهم النيابة مشاغبين وأسمتهم بياناتها الرعاع ، وطاف الفرسان من الجيش المصرى

---

(١) نفس المصدر ٠

(٢) الافكار ٢ سبتمبر ١٩١٤ ، The Egyptian Gazette, Sept. 1, 1914.

(٣) السفير ٢ ستمبر ١٩١٤ ، الاهرام ٢ ، ٣ سبتمبر ١٩١٤ ٠

فى الشوارع يستطلعون الأخبـار ويقبضون على من يشتبهون فيـه ويحيلونه على المحاكمة (١) ٠

وأحيل المتهمون على النيابة العمومية واسـتدعت الحقانية على الفور وكلاء النيابة من أجازتهم لهذه الحالة وقسمت النيـابة المتهمين الى ثلاثة أقسـام : المتظاهرون فى الدرب الأحمر والخليفة ، والمتظاهرون فى باب الشعرية والجمالية والمتظاهرون فى بولاق ٠

ووصفوا بأنهم عصبة بالقوة الاجبـارية وحـكم على بعضـهم بالسـجن والآخر بالجلد ٠ وكانت هذه أولى القضـايا التى طبق فيها قانون التجمهر ، وأقلقت بال الحكومة كما أقلقت السلطة ومن هنا رأت الحكومة ضرورة حل هذه المشكلة التى أصبحت تشكل خطرا قويا فى مثل هذه الظروف ، فقرر مجلس الوزراء تأليف لجنة للنظر فى أمر العمـال العاطلين وللتباحث فى الوسـائل المؤدية الى تخفيف كربتهم فى هذه الأحوال (٢) ٠

أما فى الاسكندرية فكان أول عمل اتخذته أنهـا رحلت أعدادا كبيرة من العمال الى قراهم لتخفيف الضغط عليها ، ثم أرسلت حوالى ألف عامل الى شركة الملح والصودا ببورسعيد لتشغيلهم هناك بنقل الملح بأجرة قدرها ٨ قروش وتعهدت الحكومة بتسفيرهم مجانا فازداد العدد المرسـل حتى وصـل ألفين من العمال (٣) ٠

ووجـدت بلدية الاسكندرية فى منطقة الشاطبى مجالا لعمل هؤلاء العمال العاطلين من رجال ونساء ، فوضعت شروطا لعملهم تلخصت فى أن هذا العمل عبارة عن اشغال أتربة بجهات الشاطبى ، ومواعيد العمل من الساعة السابعة صباحا الى الواحدة ظهرا والأجرة ثلاثة قروش فى اليوم للرجال وقرشين للنساء ، ودفع الأجور يكون يوميا بعد انتهاء مواعيـد العمل ، والأدوات اللازمة للعمل تقدمها البلدية ، وأن يراقب العمل ملاحظون يكونون تحت ادارة مفتش ، فاذا لم يكن العمل قد أجرى بكيفية مرضـية فان الأجـر ينقص أو يقطع بالمرة ، وكل عامل يرتكب عملا من أعمال سـوء السلوك أو يخل بالنظام أو يتعهد عدم اطاعة الأوامر يفصل ، ويكون العمل ستة أيـام فى الأسـبوع ، والعطلة يـوم الجمعـة ، وأن تعد البلدية فى محـلات الأشـغال الماء الـلازم للشرب والمعـدات الصحيحة وأن يبتدأ العمل من يوم الثلاثاء أول سبتمبر ١٩١٤ (٤) ٠

---

(١) السفير ٤ ، ١٠ سبتمبر ١٩١٤ ٠
(٢) مجلس الوزراء ، جلسة ٣ سبتمبر ١٩١٤ ٠
(٣) الأهالى ٥ سبتمبر ١٩١٤ ٠
(٤) أمين عز الدين . المرجع السابق ، ص ص ١٤١ ، ١٤٢ ٠

وفعلا انفض العمال على العمل فى سوية الأراضى بالشـاطبى فتفرقوا حول الهضاب التى بين البحر وخط الترام ليهدموها وينقلوا ترابها الى الحفائر التى فى تلك الجهة ، واشترك النساء فى هذا العمل المضنى الشاق ، ومرة أخرى تظاهر العمال وتجمهروا غير راضين ولا قانعين بهذا العمـل ، فثـاروا وأخذوا يرمون الحجارة على قاطرات الترام المارة بالشاطبى الى الرمل فكسروا زجاجها وأصاب الركاب من جراء ذلك وعلت أصواتهم فأحدثوا ضجة كبيرة ، وفى الحال استدعى البوليس تلفونيا فهرع الحكمدار اللواء هوبكنسون باشا الى الشاطبى بصحبة مستر غوردون انجرام مأمور الضبط وعدد من رجال الشرطة لايقل عن ٥٠ رجلا ووصلوا الى محل التجمهر وفرقوا المتجمهرين (١) ٠

وهنا صـدر الأمر الى الملاحظين على العمـال فى الشاطبى بالمحافظـة على النظام باستعمال القسوة وبحرية التصرف فى هؤلاء العمال ، فأرسـل لكل امباشى بلوك خفر مجلده لمعاقبة العمال الذين يحدثون اضطرابا فى أثناء العمل، فكانوا يضربون العمـال بلا رحمـة وكثيرا ما كانـوا يحـدثون لهـم عاهات مستديمة (٢) ٠

ويقول مندوب الأهرام : « وقد علمنا من الاحصاء الرسمى الذى فى دفاتر موظفى البلدية بالشاطبى أن الشغالين يبلغ عددهم بهذا النهـار ٣٠٠٠ر٣ منهم ٢٣٠٠ رجل ، ٤٠٠ ولد والباقى من النساء ، أما الواقفون خـارج الحواجز على جانب الطريق فلم يكن يقل عددهم اليوم عن ألفين ، وبينما كان هؤلاء يتذمرون بأصوات منخفضة من قلة العمل وشدة الفاقة كان أولئك ينقلون التراب ويحفرون فى الأرض بسكون وهدوء بخلاف عادة العمال كما لايخفى ، وقد وقف نفر من رجال الشرطة الماشية والبوليس السوارى بين الطالبين وكشك البلدية ليمنعوا كل خلل فى النظام ويسكتوا كل من أراد الاحتجاج ويحرسـوا مدخل الورشة وكانت احدى مركبات السجن واقفة على مسافة بضعة أمتار من مجتمع العاطلين وسائقها واقف بجانبها على أتم اسـتعداد لسوقها بمن يؤدى بهم سوء الحظ الى ركبوها الى السجن » (٣) ٠

ولم يمض شهر ابريل ١٩١٥ حتى انتهى العمل بمنطقة الشاطبى وعادت الأزمة من جديد وتألفت فى الاسكندرية لجنة لاعانة العمال والعاطلين برئاسة وكيل المحافظة لجمع التبرعات وفى القاهرة تكونت لجنة أخـرى رأت انشـاء مخابز عمومية ومطاعم لمساعدة العمال ودعـوة الأعيان للاكتتاب بما يجودون به لهذا الغرض (٤) ٠

---

(١) الأهرام ، الأهالى ٤ سبتمبر ١٩١٤ ٠
(٢) الاكسبريس ٢٤ يناير ١٩١٥ ٠
(٣) الاهرام ٦ سبتمبر ١٩١٤ ٠
(٤) نفس المصدر ٣ ، ١٠ سبتمبر ١٩١٤ ٠

وفررت الحكومة تشغيل العمال فى استخراج السباخ من بعض التلال الواقعة فى ضواحى القاهره وبدأ العمل فى منطقة العباسية لنقل الأتربة ، وقاسى العمال الأمرين من الملاحظين وقسوتهم مع قلة الأجور اذ كان المقرر لكل عامل ثلاثة قروش يوميا (١) ٠

وبعد قليل قرر ديوان المالية ابطال العمل فى منطقة العباسية وتوقف العمال عن العمل وجاء تقرير وزارة الزراعة بأن تلال السباخ الواقعة فى ضواحى القاهرة لا تحتوى على مقادير النتروجين الكافية التى توجد عادة فى السباخ الذى يحسن استعماله للأطيان وعليه لا يمكن بيع ما يستخرج منها كسباخ نافع وبالتالى يمنع تشغيل العمال العاطلين فى ذلك وأن كل عمل يعمل من هذا القبيل يكون باطلا وبلا فائدة (٢) ٠

ولم تحل مشكلة العمال العاطلين ، وفى ٢٢ يوليو ١٩١٥ ، ومرة أخرى راحوا يتظاهرون أمام المحافظة يشكون الألم والجوع ، ويصفهم مندوب وادى النيل يقول : « وكانت التعاسة بادية على وجوههم والفقر والجوع ظاهرا على أجسامهم التى برح فيها الشقاء بحيث أن مجرد النظر اليهم يؤثر فى قلوب الناظرين وقد قذفت بهم الحادثات بعد الغاء تلك الأشغال الى آخر درجة من درجات الشقاء ، وكانوا يسترون عوراتهم بأسمال بالية وهم يقولون نحن لانسأل احسانا ولكننا نطلب عملا ، ومالبث رجال الشرطة أن شتتوا شملهم بلا رفق ولا رحمة وأبعدوهم بعنف فتفرقوا بين الجموع صامتين لا يبدون اعتراضا » (٣) ٠

وراح البوليس يقبض على العمال فى الطريق الذى يتوجس خيفة منهم بتهمة مزاحمتهم له ، وذلك خوفا من حدوث ما يقلق الأمن الداخلى ٠ ومن الطريف أنه فى الوقت الذى اشتدت وتأزمت فيه مشكلة البطالة لم تقلل الحكومة من الأعداد التى استمرت تنحيها عن أعمالها رغم ما أحست به من خطورة العمال العاطلين فى مثل هذه الظروف الاقتصادية والسياسية الصعبة ٠

وبدأت الشكاوى تنهال على المسئولين تطلب العدالة ، وجرت عملية واسعة من الجهر بالآلام والمطالبة بالحقوق وعلت الأصوات تريد حلا وتعجب من تخيير الأجنبى على المصرى « نصرخ بأعلى أصواتنا من هذه المصلحة التى لم تجب الا شكوى الأجانب الذين لاتقل مرتباتهم عن الخمسة جنيهات بمنحهم علاوات » (٤) ٠

---

(١) Egyptian Gvt., Cairo city police, No. 90, Feb. 9, 1915, p. 39.

(٢) أمين عز الدين : المرجع السابق ٠

(٣) وادى النيل ٢٣ يوليو ١٩١٥ ٠

(٤) الحكومة المصرية ، التماسات محفوظه ، مايو ، يونيو ١٩١٦ ٠

هكذا ساءت حالة العمال وسدت في وجوهم الأبواب وأصبح من المناظر المألوفة فى شوارع مصر فى الصباح والمساء أن يشاهدوا ومعهم أولادهم يدفعونهم الى الغادين والرائحين يسألون الاحسان ويستمدون المعونة ، وان غل المسئول يده الى عنقه تقدموا خاضعين باكين مظهرين حقيقة أمرهم ، وقد حدث أن عاملا يعول عائلة كبيرة متكونة من زوجة وأربعة أولاد وأخ عاجز مريض شرع فى الانتحار لأنه سعى كثيرا لايجاد عمل وخاب فى المسعى (١) •

وتقدمت الصحافة بالمقترحات من أجل انقاذ مصر واعانة العمال ، وأظهر بعض الأفراد اهتماما عاطفيا فعملوا على تأليف لجان من أجل تقديم المعونات للمحتاجين البائسين • لكنها لم تستمر هذا فى الوقت الذى تعددت فيه الحفلات الخيرية لمعاونة البلجيكيين والفرنسيين من منكوبى الحرب وخرجت أموال الأغنياء للصليب الأحمر ولجمعية القديس يوحنا (٢) •

ونجحت انجلترا فى القضاء على أى نشاط نقابى مع بداية الحرب وتعرض العمال للذل والهوان وكان لابد من العمل على لم شملهم وتوحيد فكرهم لمواجهة تلك الظروف الصعبة ، وبالرغم من علمهم بأن أية حركة سيقومون بها سوف يقضى عليها فى الحال وستقابل بالعنف من جانب السلطة العسكرية التى كانت بحكم الأحكام العرفية مسيطرة على جميع قوى مصر وباسطة يدها على المرافق التى يعمل بها العمال الا أن المطالب العمالية ارتفعت صيحاتها ، فكمسارية السكة الحديد يتقدمون للسلطان ولونجت بمطالبهم : عدم رفت الكمسارى وهو فى سن صغير ، وضرورة صرف المكافأة بعد انتهاء الخدمة ، ومكافآت للعمل ، وبدل سفر ، والتعويض فى حالات الاصابة فى العمل ، وزيادة المرتبات . وتقليل ساعات العمل (٣) •

وراحت اضرابات العمال تتوالى ، وكان عمال السجاير والدخان فى الباكورة ذلك أن ظروف الحرب كانت أشد تأثيرا عليهم ، فقد انتهز أصحاب معامل السجاير فرصة اعلان الحرب للتخلص من الاتفاقيات القديمة التى أجبروا على قبولها قبل الحرب ، وقاموا بتوفير عدد كبير من العمال بحجة نقص الدخان العام ، وزاد من صعوبات حياتهم ذلك الارتفاع المطرد فى تكاليف المعيشة ، فلما لاحت تباشير السلام ، وانتقل مسرح العمليات الحربية من منطقة القنال وسيناء الى فلسطين ، وخفت يد السلطة العسكرية نسبيا عن الشئون اليومية للحياة ، بدأ عمال السجاير يعودون رويدا رويدا الى ممارسة أساليب العمل الجماعى للدفاع عن مصالحهم ولرفع بعض ماحل بهم من ضيق أصحاب الأعمال،

---

(١) مصر ٩ ديسمبر ١٩١٦ •
(٢) الاكسبريس ٧ مارس ١٩١٥ ، الاخبار ٤ مايو ١٩١٥ •
(٣) المحروسة ١٧ يناير ١٩١٧ •

ففي نهاية أغسطس ١٩١٧ أعلن نحو مائة من لفافي السجاير في محلات « كوتاريللي » بالاسكندرية الاضراب مطالبين برفع فئات أجورهم — كانت تتراوح بين ٢٠ ، ٢٢ قرشا للف ألف سيجارة — ومساواتها بأجور القطعة السائدة لنحو خمسين عاملا من العمال القدامى في المعمل — وهي تتراوح بين ٢٤ ، ٢٦ قرشا لكل ألف سيجارة — لكن هذه الحركة لم تسفر عن نتائج ايجابية ، واضطر العمال للعودة الى العمل دون اجابة مطالبهم (١) ٠

تلى ذلك الاضراب اضراب عمال محل سجاير « كندرك بيكيان » في نهاية أكتوبر ١٩١٧ ، واشترك في هذا الاضراب نحو ١٢٧ عاملا طالبوا بزيادة أجورهم قرشا على الفئة المحددة للف الألف سيجارة ، كما طالبوا بتحسين معاملتهم أثناء العمل من جانب رؤساء العمل ، وعقدوا عدة اجتماعات باحدى المقاهي العامة للبحث في أمورهم ، وشكلوا لجنة لعرض مطالبهم ، وقابل صاحب المعمل وكيل محافظة الاسكندرية وصرح بأنه لا يريد ولا يرضى أن يزيد أجورهم ويوقع شروطهم وزعم أن الرجل منهم يربح في معمله ١٠ جنيهات في الشهر ، فلما قابل وفدهم وكيل المحافظة وأخبرهم بهذا الخبر ونصح لهم بالعودة الى العمل،كذبوا الخواجة «كفورك» وقالوا ان الذين يربحون الـ ١٠ جنيهات لايزيدون عن أربع أنفس والباقين لايتجاوز ربح الواحد منهم ٤ جنيهات وصمموا على اضرابهم (٢) وكان مصير هذا الاضراب لايختلف عما قبله فانفض دون نتيجة٠

وفي أوائل فبراير ١٩١٨ عاد الكرة عمال السجاير مرة أخرى فطالبوا بزيادة الأجور لغلاء المعيشة وأرسلوا للصحف يستغيثون بها ، ووجدت هذه المطالب من الصحف أذنا صاغية ، فكتبت الأهرام : « ان مطالب العمال حق ومن الواجب تعضيدهم لأن العامل لم يعد يستطيع أن يوفق بين معدل كسبه اليومي وبين نفقاته سواء كان فردا أو عائلا ، والعمال الذين يتطلبون زيادة الأجور يزيد عددهم على ألف عامل بالاسكندرية ، وقد كتب كل فريق منهم الى رؤساء محله بهذا الشأن ولم تظهر نتيجة الالتماس حتى الآن » (٣) ٠

وحدد عمال « ملكونيان » — قدروا بنحو ٧٠٠ عامل — بأنهم سيستمرون في اضرابهم حتى تحقق لهم هذه المطالب :

١ — رفع فئة الأجر المقررة للف الألف سيجارة من ثلاثة عشر قرشا وثلاثون فضة (½ ٧ مليم) الى ستة عشر قرشا وثلاثون فضة ، وانتاج العامل ٣٫٠٠٠ سيجارة في اليوم ٠

---

(١) أمين عز الدين : المرجع السابق ، ص ١٦٢ ٠
(٢) الوطن ١٨ أكتوبر ١٩١٧ ٠
(٣) الاهرام ٢ يناير ١٩١٨ ٠

٢ ـ وقف اجبار العمال على شراء الأطعمة (والملابس) من المطعم الذى أقامه المصنع واطلاق حرية العمال فى شراء الأطعمة من الخارج .

٣ ـ وقف اجبار العامل على التبرع بـ ٢٪ من أجورهم للجمعية الخيرية الأرمنيه، وكان هذا الخصم يطبق على العمال الأرمن وغير الأرمن (١) .

ورفضت ادارة المصنع هذه المطالب . وراح مدير المعمل يراسل الصحافة محاولا ايهام الجمهور بأن العمال لا حق لهم فى الشكوى وبأنهم سعداء (٢) ، وذلك حتى لا تناهض العمال . لكن امتداد أمد الاضراب لم يلبث ـ فى مثل هذه الظروف الصعبة ـ ان فت فى عضدهم وأخذت جماعات منهم تقبل العودة على أساس قبول زيادة قدرها قرشان على الفئة القديمة للف الألف سيجارة ، وفى يوم ٢١ فبراير ١٩١٨ أعلن مدير المعمل أن العمال عادوا الى أعمالهم الا نفرا قليلا .

ويبدو أن عودة جانب من العمال المضربين الى العمل لم ينه الاضراب تماما ، فقد ظل العمال الذين استمروا فى الاضراب يتجمعون حول المعمل ويواصلون شكواهم لدى المسئولين طوال شهرى مارس ، أبريل ١٩١٨ دون جدوى وحاولت ادارة المعمل تحطيم مقاومتهم بقبول عودة جماعات محدودة منهم يوما بعد يوم مع الاصرار على استبعاد العناصر البسيطة التى قادت الاضراب .

وفى ٢٠ أبريل ١٩١٨ تضامن بعض العمال المشتغلين مع من بقى من العمال المضربين وأعلنوا تجديد الاضراب ، ثم هاجموا المعمل واشتبكوا مع العمال الموالين للخواجة « ملكونيان » فى قتال مرير تحطم خلاله الكثير من معدات المعمل ونوافذه وتدخل البوليس وألقى القبض على عدد كبير من العمال وأحيل ٦٦ منهم للمحاكمة (٣) وانتهى الاضراب على هذه الصورة .

أما عن اضراب العمال فى الاسكندرية فقد كان أكثر تنظيما وأكثر فاعلية ذلك أنهم تضامنوا بفضل احياء وتنشيط نقاباتهم واستعانتهم بأحد المحامين ، والتزموا جانب الهدوء وتلافوا أعمال العنف خوفا من تدخل البوليس كما حدث فى القاهرة ، وقابل المستشار القانونى لهم محافظ الاسكندرية لتسوية مطالبهم من زيادة الأجور ، وجمع أصحاب المصانع واقترح عليهم زيادة الأجور بنسبة ٢٠٪ ولكنهم رأوا أن تكون الزيادة ١٣٪ فقط ، ولهذا قرر العمال الاضراب ابتداء من ٩ فبراير ١٩١٨ ، ولكنه كان اضرابا منظما بعد عن تصرفات عمال ملكونيان ، وكانت الغالبية العظمى من العمال المضربين وقادتهم

---

(١) المحروسة ٥ فبراير ١٩١٨ .
(٢) الحال ١٩ فبراير ١٩١٨ .
(٣) أمين عز الدين : المرجع السابق ، صص ١٦٤ ـ ١٦٧ .

« يصرفون أكثر ساعات النهار فى مقهى فرنسا تجاه المينا الشرقى حيث يجلسون بكل سكون ويتداولون فى أمرهم العام ومصلحتهم المشتركة » (١) ٠

ولقيت هذه الحركة تأييدا من البعض والدليل أنهم تبرعوا بمبلغ ٨٥ جنيها، وراحت تنظم الحفلات لصالحهم والتى خصصت لمساعدتهم (٢) ٠

وفى ٢٠ فبراير ١٩١٨ عقد اجتماع بمكتب المحافظ ودار بين الفريقين ـ المحافظ والمحامى ـ حديث طويل اختص بزيادة الأجور وباقى مطالب العمال وارجاعهم الى أعمالهم (٣) ٠

وأخيرا تم الاتفاق على رفع الأجور ، ولكن حدث ما ليس فى الحسبان اذ بينما العمال نالوا مطالبهم من الوجهة المادية اذ بالمعمل قد أجحف بهم من الوجهة الاجتماعية بأن سمح بعودتهم على أن يرفت فريقا منهم بحجة أنه استخدم غيرهم أثناء الاعتصاب « ولكن روح التضامن السارية بين العمال أبت قبول الرأى ، وخرجت مسألة الاعتصاب من المطالبة بحقوق مادية الى المطالبة بحقوق الاخاء والتضامن فى العمل ، فلقد فضل العمال أن يكونوا كلهم عاطلين من أن يرضخوا اليه تاركين وراءهم فريقا من اخوانهم » (٤) ٠

واستؤنف الاضراب من جديد ، وكاد أن يفقد طابعه الهادىء اذ ترددت الأنباء عن تجمهر العمال المضربين أمام محلات دوراس وكوتاريللى وكاسيموس ولوران ومحاولتهم الاعتداء على بعض العمال الخارجين على الاضراب ، وقد أصيب أحد رجال البوليس فى هذا التجمهر ، واستمر الاضراب الى ٢٠ مارس ١٩١٨ فسوى على أساس زيادة الأجور ١٣ ٪ (٥) ٠

وامتدت حركه اضراب عمال السجاير الى اغتصاب مصنع الغزل بالاسكندرية والقاهرة وذلك بسبب عدم اجابة طلباتهم (٦) ، هذا وشجعت الصحافة هذا التيار رغم الرقابة الصارمة عليها فراحت تبين أن المطالب لاتنال الا بالتضامن واتفاق الكلمة وأن النقابات هى المتحدثة بلسان العمال وطالبت بأن تكون رئاستها من العمال أنفسهم (٧) ٠

هكذا جددت حركة العمل الجماعى طالبة تحسين شروط العمل ، وفى الوقت نفسه عملت على احياء النظام النقابى ، فقد نبهت الحرب العمال الى آمر

---

(١) الاهرام ١١ فبراير ١٩١٨ ٠
(٢) المقطم ١٦ فبراير ١٩١٨ ، الاهرام ١٨ فبراير ١٩١٨ ٠
(٣) الاهرام ٢٠ فبراير ١٩١٨ ٠
(٤) المحروسة ٢٦ فبراير ١٩١٨ ٠
(٥) أمين عز الدين : المرجع السابق ، ص ١٧٣ ٠
(٦) الشباب ٩ ابريل ١٩١٨ ٠
(٧) الاكسبريس ٢٠ يوليو ١٩١٨ ٠

مستقبلهم بعد أن اشتدت بهم الفاقة وارتفعت الأسعار ارتفاعا عجزوا معه عن الحياة ، لأن أجورهم القليلة التى كانت لاتكفيهم حتى قبل الحرب للمعيشة أصبحت أثناء الحرب لاتفى بأى التزامات ٠

(و) الفلاحون :

وقع عبء الأزمة الاقتصادية على الفلاحين بسبب انخفاض أسعار القطن ، وعلو ايجارات الأطيان ، وارتفاع تكاليف المعيشة ، وتشدد البنوك فى تحصيل الديون العقارية ، ووقف التسليف على القطن ، ثم اكراه الفلاحين على انفاق مالديهم من مدخرات عينية أو ماليـة وبيع ما لديهم من ماشية ودواجن للوفاء بالديون والالتجاء الى الاقتراض بالربا الفاحش ٠

هبط سعر القطن هبوطا فاحشا فى موسم ١٩١٤ عقب اعلان الحرب ، والقطن هو عماد الثروة الاقتصادية فى مصر واعتماد الفلاح الكلى يكاد يكون منصبا عليه ، وجرت العادة أن الفلاح يذهب سنويا الى المصارف والمرابين يقترض على قطنه وقبل جنى ثروته يكون قد باع محصوله وأخذ العربون ليستعمله فى الجنى ٠

وفى هذه الظروف وبعد منع التصدير ماذا يفعل الفلاح الذى قضى العام يشتغل بزراعته وريه وجنيه منتظرا ثمنه ليدبر حاجاته المعتادة انه لايجد الا قطنا مخزونا ومن هنا فلم يعد يأكل ولايشرب ولا يلبس ٠٠ ان عليه أن يدفع قسط الضريبة ، ويسدد القسط العقارى ، ويدفع الديون الغير اعتيادية ، ثم يفكر فى مصير قطن هذا العام ٠

وزاد الأمر أن أصحاب الأراضى يطالبون الايجارات ، وكان صغار الفلاحين قد استأجروا الأطيان من كبار الملاك بأجور مرتفعة ، واجتهدوا فى زراعتها وأنفقوا النفقات الكثيرة واذ هم يفاجأون بنزول الثمن ٠ وليس فقط هذا ، بل تعذر التصدير فكيف اذن يدفع الفلاح الايجار ؟ لقد امتنعت البنوك عن تسليف الفلاحين الأموال لجنى قطنهم وشحنه وترك القطن ، ثم أخذت الجنية الأولى والثانية والثالثة معا فخرج القطن لذلك دونا فى كميته وصفته ، وحدث فى بعض الحالات أن الفلاح المستأجر رفض جنى قطنه علما أنه يجمعه للمؤجر ٠

ووصفت صحيفة الأفكار حالة الفلاح فى ذلك الوقت بقولها : « بات الفلاح يخشى ألا يجد طريقة لجمع القطن من شجيراته فيبير مكانه وتعظم عصائبه ويشتد بلاؤه فالمزارع الآن يعانى من المصائب ما لم ير فى حياته ولكن أجلها مصيبة القطن تلك هى كبرى المصائب التى شملت القطر بأسره ، فضرائبه لامفر من

دفعها ويلتفت حوله فلا يجد شيئا غير ذلك القطن الذى يتساقط شيئا فشيئا على الأرض ، ثم هو عاجز عن جمعه عجزه عن جميع لوازمه ، وقد كانت الحكومة قد قررت دفع جنيهين عن كل قنطار ولكن مرت فترة حلت أثناءها مواعيد جمع القطن ولم يتقرر شيء بشـــأن دفـع شيء للمزارعين يتمكنـون به من جمعـه وحفظه » (١) ٠

لقد وجد الفلاح أبواب الاقتراض مغلقة نصب عينه ، فلم يجد من يقرضه قرشا أو يعطيهلأجل حاجيات عمله مما اعتاد أن يتناولها على الحساب ٠ فأصبح بذلك عليه ديون قديمة برهونات ذات ميعاد محدد لدفع الأقساط وديون جديدة بشروط ، فبات لايملك أجرة جنى قطنه ولاثمن الأكياس التى ينقل فيها القطن الى بيته وكان عليه أن يجهز أرضه للزراعة الشتوية فاذا هو ليس لديه ثمن التقاوى والسماد ولا حتى أجرة تقليع حطب القطن ، ومع هذا تشدد الحكومة فى جباية الضرائب منه (٢) ٠

وأخذت البنوك العقارية تطالب بأقساطها ، ولم تســـاعد الحكومة على تخفيف الأزمة على الفلاح بل أنها زادتها من تلك القسوة السى انبعتها ، فأصدرت تعليماتها الى الحكام الاداريين والصيارفة باستعمال الشدة فى تحصيل الأموال ومطلوبات البنك الزراعى مما اضطر الكثيرون من الفلاحين الى بيع أقطانهم بأدنى من الحد الذى هبطت اليه الأسعار حتى بيع القنطار فى عام ١٩١٤ فى كثير من القرى والبنادر بمائة وعشرين قرشا ، وفى كثير غيرها بستين قرشا (٣) ٠

وفى حقيقة الأمر أنه لم تظهر أسعار محددة للقطن فى ذلك العام ، فرمى الفلاح محصول قطنه بأبخس الأثمان وفضل ذلك عن أن يحتفظ به وهو محتاج لسد مال الحكومة ٠ فانتشر الفلاحون فى أنحاء البـلاد يبحثون عن مشترين لقطنهم ويتســاءلون عمن يعلمه بمكان تاجـر قطن « فتراهم يدخلون فى بيت التاجر أفواجا يتسابقون لعرض بضاعتهـــم ، وذلك التاجر البسيط يشتريه بثمن بخس،ومن لم يقبل يرفض الشراء منه فيرجعون على أعقابهم خاسرين» (٤)٠

ويصف مندوب الأهرام قسوة الحكومة وعنفها فى جمع الضرائب يقــول « كنت مسافرا الى احدى المديريات الأكثر خصبا فالتقيت فى القطار بالمعاون المأمور بتنفيذ البيع الجبرى لمواشى الفلاح تحصيلا للمال وسمعته يقول مالا ينطق على السمعة المنوه عنها وعلمت من أقواله أن اضطرار الفلاح للتخلى عن جاموسته بأبخس الأثمان لتأدية المال ولعدم وجود مشترين لقلة النقود عند الأهالى كـأنه

---

(١) الافكار ١١ ستمبر ١٩١٤ ٠
(٢) الوطن ١٣ أكتوبر ١٩١٤ ٠
(٣) العدل ١١ أكتوبر ١٩١٤ ٠
(٤) نفس المصدر ٢٥ نوفمبر ١٩١٤ ٠

عند اشهار مزاد جاموسته لا يقبل على شرائها الا مشتر واحد ويعرض لها الثمن البخس » (١) ٠

أمام ذلك اضطر الفلاحون ، الى بيع مصـــوغات زوجاتهم بالثمن البخس للمرابين « الذين كانوا يشترونها منهم ويبيعونها الى بعض البنوك التى ترسلها الى لندن اما لتسك عملة أو لتحفظ سبائك فى بنك انجلترا » (٢) ٠

ولما كثر عرض المصوغات فى السوق هبط أسعارها ولعب التجار بأثمانها، وهنا رأت الحكومة أن تعمل شيئا ، فتدخلت فى الأمر وأعطت للبعض سلفيات على أقطانهم ثم عينت مثمنين لتقدير الأثمان الحقيقية للحلى وقبلته بدل النقود فى سداد الضرائب ، وأصدرت قرارها بذلك (٣) ٠

وفى هذا القرار حصرت الحكومة مشتراها للذهب بمقابل الأموال الأميرية وعوائد الأملاك وحذرت الناس من بيع المصـــوغات بأقل من قيمتها ، فهل كان جميع الناس أصحاب أطيان وأملاك تستحق عليهم الأموال الأميرية وعوائد تلك الأملاك حتى يتمكنوا من بيع مصوغاتهم للحكومة بقيمتها الحقيقية وأخذ الزائد عن حق الحكومة نقدا ؟ ان الكثيرين الذين يبيعون مصوغاتهم لا يملكون دارا ولاعقارا فهؤلاء لا يجدى تحذيرهم من بيع مصوغاتهم بأقل من قيمتها ، ان هــؤلاء لا يجدون أمامهم سوى المرابين أو من يبتاعون منهم أشياءهم بأقل الأثمان ٠

هكذا أصيب الفلاح من جراء الحرب بالعسر المـــالى والضنك الشديد ، بوقوف حركة أعماله وارتفاع أثمان حاجياته وأخيرا بمرض ماشيته ، فقد أصيب الجاموس بمرض الخناق وفتك به ، وأصاب الطاعون كل الفصيلة البقرية (٤) ٠

وأمام ذلك رأت الحكومة أن تعلن الموراتوريوم ـ تأجيل الدفع ـ فوافقت مرغمة على تأجيل سداد الضريبة العقارية المستحقة فى شهر نوفمبر ١٩١٤ الى شهر ديسمبر ويناير التاليين ، وأصدرت وزارة الحقانية منشورا أبلغته للقضاة نصحت لهم فيه بالتسامح والامهال وبمنح الآجال البعيدة لمن يكون غير قادر على سد دينه ٠ لكن ما لبث أن مرت بضعة شهور حتى أعلنت الحكومة انتهاء التأجيل الجبرى للديون ذلك لأن المستشار المالى بين أن كثيرا من الأهالى لديهم من الأموال ما يكفى فى اجابة طلبه وله حق طلب بيع هذه الأملاك لا ينازعه فيه منازع (٥) ٠

ان التأجيل الجبرى لم يكن ذا فائدة للفلاح بل هو لصالح معظم التجار ،

(١) الاهرام ١١ نوفمبر ١٩١٤ ٠

(٢) مصر ١٤ أغسطس ١٩١٤ ٠

(٣) Récueil ades doc. relatif de la guerre, 10 Sept. 1914.

(٤) الشعب ٢٤ سبتمبر ١٩١٤ ٠

(٥) الاهرام ١٣ مايو ١٩١٥ ٠

ذلك لأن ديون المزارعين لا تحل آجالهـا الا في شهرى نوفمبر وديسمبر ١٩١٤ فاذا انقضى أجل الموراتوريوم فى شهر نوفمبر أو ديسمبر أصبحت الطامة الكبرى على الفلاحين لأنهم يقفون بين نارين عجز محصول القطن الى درجة أكثر من النصف عند بعضهم ومن ٣٠٪ عند الأكثرين الأمر الذى حال بينهم وبين سداد ديونهم لأن المـال الذى يحصلون عليه لا يكفى لسداد الأقساط الباقية من أموال الحكومة (١) ٠

وثارت ثائرة المستأجرين لقرار الحكومة القاضي بتحديد منطقة المساحات التى تزرع قطنا فوجد المستأجر نفسه مغبونا بعد تحديد تلك المساحة وطالب المالك بتخفيض الايجار وفقا لقلة الايراد ٠ فالفـلاح الذى يملك خمسة أفدنة ويزرع نصفها قطنا ينتج منها أكثر من سبعة قناطير ، فاذا بيع القنطار ب ٢٧٠ قرشا كان الثمن ١٩ جنيها وهذا أقل من المبلغ الذى كان يحفظه لسداد الأموال والنفقة الضرورية فيصبح محتاجا لبقية النفقة فى حين أن الدائن يطالبه بمبالغه وهنا أمرت الحكومة ألا يزرع أكثر من ربع أطيانه قطنا فيضطر الى زراعة فدان وربع ينتج منها أربعة قناطير أو خمسة يقدر ثمنها ب ١٥ جنيها بيد أنه محتاج للمال الضرورى الذى لا يقل عن ٢٠ جنيها فيرتبك فى أحواله ويطالبه الدائن فى أمواله وفوائدها فلا يدرى من أين يحصل على نفقته الضرورية (٢) ٠

وفى ٢ مارس ١٩١٥ اجتمع مجلس الوزراء وأقر مشروع قانون بفرض رسوم وقتيه على زمام الأطيان لمدة ثلاثة أشهر اعتبارا من أول يناير ١٩١٥ بنسبة ٦ ٪ من قيمة ضرائبها وتحصيلها على الأقساط الأميرية وبنسبتها (٣) ٠ وهذا مما زاد أزمة الفلاح ووصلت حالته الى درجة من السوء ٠

وزاد ألم الفلاح وهمه فقد هجم الجراد على المزروعات وترك الأرض جرداء ثم انخفض ثمن الحاصلات وهبطت أسعار البصل هبوطا جعل التاجر والزارع يؤثران تركه فى أرضه لمن يشاء حمله ، وتشدد البنك الزراعى فى طلب مالـه قبل الفلاح ونزلت الأراضى حتى أصبح الفدان الذى كان يضن به صاحبه على أن يبيعه ب ٢٠٠ جنيه لا يجد من يشتريه ب ٦٠ جنيها (٤) ٠

ونتيجة لانخفاض أثمان الحاصلات ازدادت حالة الفلاح سوءا فعلى سبيل المثال كان الفلاح يؤجر الفدان بمركز ملوى ب ٢٥ جنيها ويدفع المستأجر علاوة عليها ١٠ جنيهات ثمن كيس سماد لتسميد الفدان وجنيهين ونصف أجرة أنفار لرى الفدان وجنيها ثمن تقاويه وجنيها أجرة حصادة ونصف جنيه مشال المحصول

---

(١) نفس المصدر ١٨ أكتوبر ١٩١٤ ٠

(٢) العدل ١٨ أكتوبر ١٩١٤ ٠

(٣) الاهرام ٣ مارس ١٩١٥ ٠

(٤) الاخبار ٢٩ ابريل ١٩١٥ ٠

الى الأجران وجنيها أجرة درسه وتجهيزه ومجموع هذا لا يقل عن ٤٢٫٥ جنيه غير تعب المستأجر ليله ونهاره ، ان أحسن فدان يعطى ٨ أردب من القمح وأعلى ثمن يباع به الأردب فى هذه الظروف ٣ جنيهات فيكون مجموع هذا ٢٤ جنيها يضاف اليه ٢٫٥ جنيه ثمن التبن الناعم والخشن فيكون المجموع ٢٦٫٥ جنيه ومن هنا يخسر الفلاح ١٦ جنيها فى كل فدان (١) .

وانتشر المرابون واتسع نشاطهم فازداد دين الفلاح ، وفى بعض الأحيان انتهى الأمر بأن المرابى كان ينزع ملكية الارض « ان المرابين عمدوا الى شراء الأرض ومحصولاتها ومواشيها ووصل بهم الطمع الى الاستيلاء على امرأة الفلاح » (٢) .

وكثرت الشكوى وتتابعت العرائض ورفعت الالتماسات لتخليص الفلاحين من براثن المرابين والبنكيرات وشركات التسليف الصغيرة « فهمهم ينحصر فى نزع الملكيات والحجز على المنقولات والمزروعات » (٣) .

وأخيرا وافق المستشار المالى على دخول الحكومة مشترية لمقدار معين من القطن بسعر جنيهين للقنطار وذلك ليتمكن الفلاحون من تسديد الأموال الأميرية وترتب على هذا أن خسرت البلاد حوالى عشرين مليونا من الجنيهات فى تجارة قطن عام ١٩١٥ . وفى عام ١٩١٦ ارتفع القطن مبلغ ١٢ جنيها للقنطار ولكن كبار التجار ومعظمهم من الأجانب تلاعبوا بالأسعار وبقى الفلاح غارقا فى ديونه وزاد سعر رى الفدان من الأرض التى كانت تروى بالآلات الرافعة لارتفاع سعر الوقود وارتفع سعر السماد وأسعار الأكياس اللازمة لتعبئة القطن وأجور النقل حتى العمال الزراعيين الذين كانوا يستأجرون بـ ٣ قروش فى النهار أصبحوا لا يرضون الا بـ ٦ قروش (٤) .

وراح البنك العقارى ينزع مساحات واسعة من الأراضى من مالكيها حتى أوشكت الاراضى الزراعية كلها أن تنتقل الى ملكية البنك العقارى والمرابين الأجانب ، وكانت قضايا الحجز على الأطيان تجرى بمعدل ١٢٠٠ قضية فى الشهر ، وقد حدث أن أطيانا قيمتها تزيد على أربعين ألف جنيه رهنت بخمسة آلاف ثم طرحت فى المزاد العلنى بثلاثة آلاف فلم يتقدم لشرائها أحد فأعيد طرحها بألف وخمسمائة جنيها فزادها على البنك الداين (٥) .

---

(١) الوطن ٤ ابريل ١٩١٨ .
(٢) الاخبار ٣ نوفمبر ١٩١٥ .
(٣) ديوان معية سنية ، صادر ، سجل ٤١٣ ، ١٣ أكتوبر ١٩١٥ ، التماسات محفوظة ، ٢١ يونيو ١٩١٦ .
(٤) الوطن ١٨ يونيو ١٩١٧ .
(٥) أمين مصطفى عفيفى : المرجع السابق ، ص ١٤٦ .

بهذه الطريقة ذهبت الأراضى للبنوك التى احتفظت بها حتى تتاجر فيها عندما تنتهى الأزمة وأن مجرد القاء النظر على جداول قضايا نزع الملكية ثم مقارنة عددها فى عامى ١٩١٥ ـ ١٩١٦ والأعوام التى قبلها يدل على سوء الحالة الاقتصادية ، اذ هدد الفلاح الافلاس فطرح أراضيه فى المزاد العلنى وباعها بأبخس الأثمان (١) ٠

هذا بالاضافة الى متطلبات السلطة الجبرية تلك التى أعطت لنفسها الأولوية المطلقة باستيلائها على المحصولات والمواشى والدواب ، فوقع عبء تقديم المؤن الغذائية لها على صغار أصحاب الأراضى دون كبارهم ، وعاش الفلاحون فى ذعر وفزع من السلطة وهجماتها عليهم ، وكان مجرد اعلان أى خبر خاص بذلك حتى ولو كان صدى لتصرفاتها يدخل الرعب فى قلوبهم ، فتذكر لنا صحافة الفترة العديدة من الأحداث التى تشير الى ذلك فتقول الأهرام : « حدث فى مديرية المنوفية أول أمس حادث ذو نتائج سيئة ، فقد روى مراسلنا فى تلا أن مدينا خاف أن يحجز دائنه على مواشيه فأخذ بتهريبها فسأله أحدهم عن السبب فأجاب أن العساكر الانجليزية تصادر المواشى لتذبحها فشاع الخبر فى البلاد كلها وتراكض الأهالى الى الغيطان ليرجعوا مواشيهم الى المساكن واضطر مأمور مركز أن يرسل البوليس ومعاونى الادارة الى القرى وأن يكلم العمدة بالتليفون ليسكنوا روع الأهالى ، وفى يوم ٩ مارس ١٩١٥ كان يوم سوق جنزور فراجت فى تلك السوق اشاعة فحواها أن حكومة بريطانيا العظمى أمرت بجمع المواشى وأخذها للذبح فعلا صراخ النساء وعويل الأطفال وأسرع الأهالى الى الغيطان ليأتوا منها بمواشيهم الى البيوت فاكتظت الطرقات بالمواشى والجميع يتسابقون ليصلوا الى منازلهم ويخبئوا ماشيتهم » (٢) ٠

وان دل هذا على شىء فانما يدل على مدى الشعور بالكراهية ضد الانجليز، ومتطلباتهم بل وضد الحكومة التى كانت راضخة لطلبات السلطة ٠

ولم تقتصر طلبات السلطة على ماديات الفلاح فقط ٠ اذ استطاعت أن تنتزع منه ابنه وأخاه بل هو نفسه من أجل العمل فى الميدان الحربى عن طريق التجنيد الاجبارى ، فذهب الفلاحون ومنهم من لم يعد الى أرضه ومات شهيدا من أجل الحلفاء ٠

وقد اعترف لويد نفسه بأن الفلاحين ظلموا من وضعهم الذى خلفته الحرب اذ يقول : « وهكذا كانت مسألة الشعب آخذه فى التحول ببطء الى حالة من الهياج الشديد وفقد الفلاحون احتمالهم الصبور للظلم » (٣) ٠

---

(١) الاخبار ١١ يناير ١٩١٦ ٠
(٢) الاهرام ١٢ مارس ١٩١٥ ٠
(٣) Lloyd : op. cit., p. 243.

وأمام هذه الحالة المؤلمة التى وصل اليها الفلاحون ، كان التفكير فى مسألة التعاون ، فنشر صادق حنين كتابه عن التعاون وحده ، وراح أحمد بك لطفى المحامى يحرك ويدعو الى هذه الحركة التعاونية طوال فترة الحرب (١) ، ومضت الدعوة تأخذ طريقها وتزدهر من أجل مساعدة الفلاحين بانشاء شركات الاستهلاك التعاونية للقضاء على الوسطاء ، وبنوك تعاونية للتخليص من المرابين وتأسيس النقابات الزراعية (٢) .

كانت النقابات الزراعية من أهم ما شغل بال الفلاحين ، والهدف منها تسهيل الحصول على البذور والأسمدة والآلات الزراعية والماشية وتشييد المخازن والشون والمعامل الكيمائية ومعامل الحلج وحقول التجارب وتسليف الفلاح .

وخلقت الحرب الكثير من النقابات الزراعية ، فافتتح فى ١٦ أغسطس ١٩١٤ نقابة ميت سلسيل الزراعية بمركز دكرنس دقهلية ، وكان رأسمالها ٦٧٤ جنيها منقسما الى ٢٦٩٦ سهما قيمة كل سهم ٢٥ قرشا نحصل من ١٩٨ عضوا ، وانتخب رئيسا لها هو الشيخ يوسف حسن عاشور ، كذلك افتتحت فى أول سبتمبر ١٩١٤ نقابة كمشيش الزراعية مركز تلا منوفية وبلغ رأسمالها ١٧٧ جنيها ، ٧٥٠ مليما مقسما الى ٧١١ سهما قيمة السهم أيضا ٢٥ قرشا متحصلا من ١٠٨ عضوا وانتخب رئيسا لها هو مقلد أفندى من أعيان كمشيش (٣) .

وفى ٢٦ ديسمبر ١٩١٧ أنشئت نقابة زراعية فى جهة « سنبو » بمركز ميت غمر دقهلية وعرف أهالى هذه الجهة فائدة التعاون وما وصلت اليه النقابات الأخرى ، وبلغ مجموع رأس المال فى هذه النقابة ١٣٥ جنيها وكان ثمن السهم ٢٥ قرشا (٤) .

وفى ٦ يونيه ١٩١٨ أسست نقابة زراعية فى مديرية المنوفية ببلدة زاوية (بمم) وأنشئت هذه النقابة معامل النسيج ومخازن أعدت لصيانة الحبوب ومعمل صابون وكتب عليه « صابون نقابة زاوية بمم الزراعية » (٥) وقامت النقابة الأخيرة هذه بمجهود وافر فأنشأت ناديا للألعاب الرياضية وعملت على ترقية « جمعية المساعى المشكورة » ومدها بما يستطاع من مال مجلس المديرية تنشيطا لها وتثبيتا لمركزها لتقوم بما عهد اليها من تربية أبناء المنوفية وتعليمهم ابتدائيا وثانويا ، وكذلك عمل مدير المنوفية بايعاز مأمورى المراكز بنشر هذه

---

(١) الافكار ٨ ابريل ١٩١٨ .
(٢) الشباب ١٨ مارس ١٩١٦ .
(٣) الاهرام ٨ سبتمبر ١٩١٤ ، الحرية ١٣ سبتمبر ١٩١٤ .
(٤) التجارة ٦ يناير ١٩١٨ .
(٥) الاصلاح ١٣ يونيو ١٩١٨ .

الفكرة التعاونية بين الأهالى وضرب الأمثال لهم واظهار الفوائد التى تنجم عن ذلك فى مصلحة الفلاح ، فكان أول من لبى نداءه عبد الرحمن بك حسن مأمور مركز منوف ، وأخذ فى تأسيس النقابات حيث تكون فى دائرة مركزه أربع نقابات زراعية فى أقل من شهر وكانت الأولى فى (الواط) والثانية فى (الباجور) والثالثة فى (الحامول وشبرا باوله وكفرها) والرابعة فى (سرس اللياں) (١) ٠

ومضت الصحافة تبين فوائد هذه النقابات وأهميتها فتقول التجارة : « ولو كانت النقابات الزراعية عامة فى أنحاء القطر لما وجدنا أسعار الحيوانات الداجنة والمواشى قد بلغت هذا الحد الفادح ، انه يصعب علينا أن نرى فى تقارير مصلحة الجمارك أن مصر مستوردة من الخارج حبوبا وأرزا ومواد أخرى لا يتعذر علينا زراعتها فى تربتنا الخصبة اذا انتشرت هذه النقابات » (٢) ٠ وبذلك سيطرت الروح التعاونية على الريف المصرى ٠

أمراض المجتمع المصرى فى هذه الفترة :

الفقر : كان الفقر من أهم المظاهر الاجتماعية التى عانى منها المجتمع المصرى ابان هذه الفترة وقد جاء نتيجة لظروف اقتصادية صعبة فرضتها الحرب على أهل مصر ٠

فباعلان الحرب ارتفعت أسعار حاجيات المعيشة الضرورية الى درجة عالية ، ووقع عبء هذا الارتفاع على كاهل الطبقات الفقيرة التى لم يكن باستطاعتها ولا بقدرتها دفع الأثمان العالية للوازم حياتها وزاد من الغلاء متطلبات السلطة العسكرية فما كان من الحكومة الا أنها أصدرت أوراق البنكنوت تفاديا للأزمة ، ونتيجة لاغراق السوق المصرية بكمية كبيرة من العملة هى رواتب ضباط وجنود الاحتلال والقوات البريطانية المحاربة ٠ انخفضت القيمة الشرائية ، وتضرر الناس من وقوف حركة الأشغال ومن غلاء مواد المعيشة وكثرت العرائض المقدمة من الأهالى للحكومة من الشكوى مما وصلوا اليه من بؤس وسوء حالة والتماس النظر اليهم (٣) ٠

وتبعا لذلك زادت الوفيات من ٣٠٠٠٠٠ قبل الحرب الى ٣٧٥٠٠٠ عام ١٩١٦ ، وفى عام ١٩١٨ وصل عددها الى ٥١٠٠٠٠ أو أكثر من

(١) نفس المصدر ٢٤ أكتوبر ١٩١٨ ٠
(٢) التجار ١٣ يناير ١٩١٨ ٠
(٣) ديوان معية سنية ، عربى ، سجل رقم ٣٠٤١٦ ، ١١ يوليو ١٩١٦ ، سجل رقم ٤١٧ دفتر صادر ، ١٧ مايو ١٩١٧ ، ١٨ أغسطس ١٩١٧ ٠

عدد المواليد فى تلك السنة ، هذا بالاضافة الى ضحايا الحرب والجرحى والمشوهين (١) ٠

وقفت الحكومة ازاء هذا الغلاء موقف المتفرج فى بادىء الامر فوعدت أن تنظر فى أمر أسعار الحاجيات ، واكتفت بان نصحت لبعض التجار وسألتهم أن يرأفوا بالأهالى ، وبأن يتقاضوا أسعارا عادلة ، ولكن التجار لم يأبهوا بكلام الحكومة لهم . وهنا رات أن تصدر أمرا بتسعير المواد الغذائية ، ولكن ضرب بهذه التسعيرة عرض الحائط وعانى الفقراء الأمرين ، وحلت الفاقة بالناس « شنق شخص نفسه بحبل يدعى الشيخ أحمد حسن من كفر على أغا بطنطا لضيق ذات يده » (٢) ٠ وتعددت الحوادث وامتلأت بها أعمدة الصحافة لتصور الذل الذى عانى منه المصريون حتى لقد بلغ الامر أن أحد الفقراء «أخذ بنتا من بناته الى بلد أخرى غير بلدته وعرض بيعها على رجل وساومه فيها فابتاعها منه بثمن بخس بدراهم معدودة » (٣) ٠

وكثرت الجثث التى عثر عليها وتبين أن أصحابها قد ماتوا بسبب الجوع (٤) ، وحتى المعونات التى قررت الحكومة أن تعطيها للبعض ما لبثت أن قطعتها ، فعلى سبيل المثال « جعلت محافظة القاهرة للمدعوة فاطمه زهره وأولادها اعانة يومية قرشان فلم ينقض الا وقت قصير بمنحها اياها حتى قطعتها » (٥) ٠

وراحت الشركات ذات المرافق العامة تضغط على الشعب ، فقطعت شركة المياه عن الأهالى المياه (٦) ، وطرد أصحاب المساكن السكان منها فافترشوا الأرصفة (٧)، وقد كان للمهاجرين الى مصر سبب فى استمرار الأزمات التى عانى منها المجتمع المصرى كما وقف المسئولون موقفا عمل على زيادة الحدة ، فالمجلس البلدى بالاسكندرية وضع نصب عينيه استنزاف الاهالى بتلك الضرائب التى فرضتها حتى أن بيرم التونسى يقول :

قد أوقع القلب فى الأشجان والكمد
هوى حبيب يسمى المجلس البلدى
ما شرد النوم من جفنى القريح سوى
طيف الخيال ، خيال المجلس البلدى

---

(١) Issawi, ch. Egyptian economic and social analysis, p. 31.

(٢) الاهرام ١٦ سبتمبر ١٩١٤ ٠

(٣) وادى النيل ٢٤ فبراير ١٩١٥ ٠

(٤) نفس المصدر ١٩ مارس ١٩١٥ ، عكاظ ١٦ نوفمبر ١٩١٥ ٠

(٥) الديوان السلطانى ، القسم العربى ١٩١٥ ، ٢٥ أكتوبر ١٩١٥ ٠

(٦) الدليل ١٦ سبتمبر ١٩١٤ ٠

(٧) السفير أول سبتمبر ١٩١٤ ، الوطن ١١ سبتمبر ١٩١٧ ٠

اذا الرغيف أتى فالنصف آكله
النصف للمجلس البلدى (١)

ذلك أنه عقب قيام الحرب، كثرت مشاريع المدير العام لبلدية الاسكندرية — وهو انجليزى — حتى سميت غرفته (بمطبخ الضرائب) ومن هذا المطبخ ظهر فى بداية عام ١٩١٥ العن ضريبة وأبغضها للنفس واثقلها على كل فرد وهى ضريبة الدخولية (المكوس) فانها ضريبة تحصل على قوت الانسان فى وقت الشدة والعسر وهى لا معنى لها اخترعها المدير العام لسد نقص الميزانية — كما يدعى — واستطاع على الفور بقرار القومسيون التصديق عليها من وزارة المالية (٢) ٠ هذا فى الوقت الذى رفعت فيه مرتبات ومكافآت واعانات الأجانب العاملين فى البلدية (٣) ٠

وترتب على ظاهرة الفقر التى عانى منها المجتمع عدة أمراض اجتماعية أخرى تمثلت فى كثرة الجرائم بأنواعها من سرقة واختلاس وقتل وغش وربا وتزوير وتسول واحتيال وفوضى وفساد وهتك أعراض ودعارة وانتشار الأمراض ، وخضع المجتمع المصرى لظروف جديدة طرأت عليه خلقتها الظروف الاقتصادية ، ثم كان لوجود تلك الأعداد الوفيرة من الجنود التابعين لانجلترا اثر فى طبع سمة جديدة على المجتمع فى هذه الفترة ، فاختلت لذلك القيم الانسانية والاجتماعية والشاهد على ذلك ما ورد فى أخبار تلك الفترة ٠

الجرائم :

اما عن الجرائم فقد ازداد عددها فتقول المحروسة : « توالت اخبار الجرائم فى انحاء القطر لدرجة لم يعهد الناس لها مثيلا ، فقد عددنا أمس فى احدى جرائد العاصمة اثنى عشر حادثة وقعت فى الارياف والمدن متباينة النوع ما بين قتل وسطو وجرح ، واشتد الرعب فى بعض القرى خصوصا فى مديرية الشرقية ومدينة الزقازيق نفسها ، فقام الاهالى يضعون قضبان الحديد وراء أبوابهم غير مكتفين بالأقفال » (٤) ٠

وكثر القتل وسفك الدماء والحوادث الجنائية وانتشرت سلطة الأشقياء وبناء على كثرة الجرائم أنشئت دائرة بمحكمة الاستئناف لنظر تلك القضايا اثناء

---

(١) الاهالى ٢٥ مارس ١٩١٧ ٠
(٢) الاكسبريس ١٤ فبراير ١٩٥١ ٠
(٣) نفس المصدر ٢١ فبراير ١٩١٥ ٠
(٤) المحروسة ٢٥ أكتوبر ١٩١٤ ٠

العطلة للفصل فيها على وجه السرعة ، وتحقيقا لهذا الغرض اقترحت وزارة الحقانية تعديل المادة (١٢٣)من لائحة الاجراءات ، ووافقت محكمة الاستئناف على هذا التعديل (١) ٠

وعلى سبيل المثال كانت الجرائم التى ارتكبت فى الثلاث سنوات الاخيرة من الحرب كما يلى (٢) :

السنة	دقهلية			اسيوط			جرجا		
	جنايات	جنح	عوارض	جنايات	جنح	عوارض	جنايات	جنح	عوارض
١٩١٦	٦٩	٢٥٢	١٣٥	٦٦	٤١٢	١٠٢	٧٠	١١٠	٢٢٨
١٩١٧	١٠٠	٢٢٥	١٢٧	٥٧	٤١١	٩٨	٤٩	١١٣	٢٠٣
١٩١٨	٦١	١٤٦	١٤٧	٤٧	٤٤٨	٧٨	٥٤	٢١٠	١٣٦

وكثرت عصابات السرقة حتى بلغ الأمر بالعصابات أنهم كانوا يسرقون الحبوب من مخازنها فوق الاسطح ويسرقوا المصاغوالنقود وانضم اليهم بعض الخفراء ٠ وقد وصل الأمـر ببعض العمال العاطلين البؤساء أن يقفوا مرقف قطاع الطرق والمتشردين فى أطراف مدينة الاسكندرية وبعض جهاتها « فقد حدث أمام شونة الخواجة « جارجيش » بقرب كفر عشرى على شاطىء المحمودية أن أوقف بعض العمال العاطلين خادم الخواجة « زونبوس » البقـال المعروف الذى كان يسوق مركبه صغيرة محملة بضائع لتصدر الى بعض جهات القطر وحاولوا نهب البضائع لولا أن صرخ مستغيثا واتته النجدة من بعض رجال الأمن والأهالى ، وفى نفس المكان فاجأ بعضهم عربجى « الخواجة جرجس عماد » تاجر الصابون الذى كان يحمل على مركبة بعض جوالات الصابون وحاولوا أخذها عنوة واقتدارا لولا أن أدركهم بعض الأهالى الذين كانوا سائرين على الشاطىء الثانى من ترعة المحمودية وجاءوا لانقاذه على اثر صراخه واستغاثته وحدث أن قابل شخصان احد ابناء الاعيان بين الشاطبى ومحرم بك وقت الغروب وطلب منه احدهما أن يشعل له سيجارة ففعل وفى اثناء ذلك هجم عليه الثانى من الخلف واوثق يديه وتمكن الآخر من سلب ساعته وسلسلته الذهبية ومحفظة نقوده » (٣) ٠

(١) وادى النيل ٩ أغسطس ١٩١٥ ٠

(٢) وزار الداخلية ، ادارة عموم الامن العام ، تقرير الامن العام فى فى القطر المصرى ٠

(٣) وادى النيل ٥ سبتمبر ١٩١٧ ٠

وأرجع السبب فى انتشار جرائم السرقات الى أنه فيما قبل الحرب كان الناس « يجدون أبواب الرزق مفتوحة امامهم فى عمليات المقاولين من ردم وهدم وبناء ولكن الآن لا يجدون هذه السبل لوقوف حركة العمل بسبب الأزمة التى اضطرت الناس الى تأجيل ما يرغبون عمله من هذا القبيل فبقى هذا العدد الكبير من العمال عاطلا عن العمل وهو اذا عاش فى بلده كان عبئا ثقيلا على كاهلها لا يجعل شغله الوحيد الا السلب والنهب وتقليع المزروعات وارتكاب الجرائم ، واذا خرج من بلده وقصد العاصمة ليبحث عن عمل يحمله الفقر وضيق ذات اليد على ارتكاب الاجرام فيتفق مع نفر من بنى جلدته لتأليف عصابة خطف وسلب للخزائن والاموال » (١) .

ولما كثرت الجنايات فى داخلية البلاد وتعددت حوادث السطو اضطرت وزارة الداخلية الى نشر بلاغ رسمى أمرت فيه المشايخ والعمد أن يقدموا الى مأمورى المراكز تقارير وافية كاملة يذكرون فيها أسماء الرجال المشتبه فيهم فى دائرة محيطهم وفى نفس الوقت يلاحظون عن قرب جميع التحركات (٢) لكن بعض السرقات كانت تجرى وراء ستار العمد والمشايخ ، وقد راجعت مديرية أسيوط أعمالهم ، فاتضح لها تداخل بعضهم فى السرقات بل واشتراك بعضهم مع العصابات ، فحاكمت ٢٨ عمدة ورفتت ٣٨ عمدة (٣) .

ولعب النساء والأطفال بل والشيوخ دورا فى السرقة لقلة ذات اليد فتقول وادى النيل « فيا ويحنا يوم نرى الشيوخ ينغمسون فى الجرائم بأيد عاشت عمرها نقية ثم ابى الدهر الا أن بلوث نقاءها بالاجرام فى آخر أيامها ولا وسيلة للجائع الضعيف الا أن يخالس الناس ليسرق ويخاتل القوم لينهب » (٤) .

وسرت عدوى السرقة الى الموظفين انفسهم لضيق ذات يدهم وللحالة التى وصلوا اليها فشدة الغلاء جعل بعض الموظفين ينقادون الى ذلك اذ أن الضيق ساقهم الى التماس الكسب بالطرق المحرمة وصرح بذلك المستشار القضائى فى تقريره حيث قال : « ان حوادث الضيق الذى أصاب فريقا من الناس كان سببا فى زيادة السرقات فى القطر » (٥) .

وتبع السرقات كثرة الاختلاسات وخاصة فى مصالح الحكومة فقد اختلس أحد الموظفين مبلغ ١٥٠٠ جنيه واختلس آخر من مصلحة الرى

---

(١) المحروسة ٧ أكتوبر ١٩١٥ .
(٢) الاخبار ١٠ أغسطس ١٩١٥ .
(٣) الوطن ١٦ نوفمبر ١٩١٨ .
(٤) وادى النيل ٣ نوفمبر ١٩١٥ .
(٥) الوطن ٢٦ مايو ١٩١٧ .

بالاسكندرية مبلغ ٤٠٠ جنيــه ، ولم يقتصر الأمــر على اختلاس النقود وانما تعداه الى جميع ما كان تحت الايدى ، فاختلس احد الموظفين بالسكة الحديد أربعين صفيحة بترول (١) ٠

وانتشرت موجة التزييف سواء فى المصــوغات أو النقود ، فأصبح من الذهب ما هو نحاسا مطليا بالذهب وزورت اوراق المائة جنيه وضبطت آلات التزييف (٢) ، حتى المأكولات فقد مسها الغش فى جميع أصنافها (٣) ٠

وظهر مرض الربا الذى انتشر انتشارا واسعا فى مصر أثناء هذه الفترة ، فرضته الظروف الاقتصــادية التى عانت منهــا مصر ، وانتشر المرابون فى القرى والدساكر والعواصم والبنادر ، فكبلوا المزارعين بالديون ووصل الأمر الى ضياع الملكيات ، فقد أراد تاجر أن يقترض ٥٠٠ جنيه الى سنة فطلب منه ٥٠٪ ، واقترض صاحب محل ١٥٠ جنيه بفائدة قدرها ٤٥٪ وقد أصبحت قيمة الجنيه المصرى فى شرع المرابين ٤٨٠ قرشا (٤) ٠

وظهرت محلات اقتراض النقود « الرهونات » فجأة فى أنحــاء مصــر ، فقامت بأعمالها واقرضت المحتاجين نقودا زهيدة مقابل رهن بعض المصوغات أو الأوانى النحاسية أو الملابس وغيرها بفائدة باهظة لأن صاحب الحاجة أعمى « أما الفقراء والمحتاجون والذين عضهم الجوع بنابه فانهم يذهبون بالمتاع القليل الذى أبقت عليه يد الدهر فيرهنونه على دريهمات معدودة وربما كانت قيمــة ذلك الشيء والمرهون توازى عشرة أضعاف وكثيرا ما كان يترك أصحاب الرهونات رهوناتهم لعجزهم عن السداد » (٥) ٠

وطغى المرابون وأخــذوا يعملون كل ما يمكن ارتكابه من أنواع القسوة مع مدينيهم الضعفاء المحتاجين لطرق أبواب الاقتراض لحاجتهم فأرغموهم على شروط لا مبرر لها فالقانون المصرى يعطى سعر للفوائد المشروعة ٩٪ ولكن لم يطبق هذا ، فقد مد المرابون يدهم للمحتاجين ولكن بضعف الأرباح المشروعة اذ كيف يتسنى لها أن تقرض بضعف الربح القانونى فى هذه الازمة الشديدة ، وكانت تعرض بأربعة أمثال الفائدة المشروعة ٠

وكثر عدد المتسولين ، فكان العامل المتعطل يحمل أطفاله ويصــــحب زوجته ويطوف فى الشوارع يطلب الاحسان « وسرى فى المدينة طولا وعرضا

---

(١) الأفكار ٣١ يولية ١٩١٥ ، الاكسبريس ٢ يوليو ، ٢٠ اغسطس ١٩١٦ ٠

(٢) وزارة الداخلية ، أحكام تاديبية ، فهرست الأوامر العمومية ١٩١٨ ، ٤ أبريل ١٩١٨ ، ديوان معية سنية ، صادر ، سجل ٤١٧ ، ٧ أكتــوبر ١٩١٧ ، مصر أول فبراير ، ٢ ديســمبر ، ٣١ ديسمبر ١٩١٥ ٠

(٣) الاهالى ١١ نوفمبر ١٩١٦ ، وادى النيل ١٠ مايو ١٩١٧ ، المحروسة ٣٠ سبتمر ١٩١٨ ٠

(٤) المحروسة ٢٦ اغسطس ، ١١ سبتمبر ١٩١٤ ٠

(٥) وادى النيل ٢ يناير ١٩١٥ ٠

من العباسية الى ضواحى القلعة تجد المتسولين وراءك وامامك وحولك ، اذا دخلت حانوتا لا يفارقوك الا عند بابه ليستقبلوك ساعة خروجك منه » (١) ·

أما عن الاحتيال ، فمنذ بداية الحرب ظهر بعض المشعوذين يدعون معرفة علم الكيمياء وأنه بامكانهم تحويل النحاس الى ذهب ، وآخرون استغلوا البعض وهددوهم بأنهم يعملون بالسياسة لعلمهم مدى عقوبة ذلك واستنفذوا أموالهم (٢) ، كما أن البعض منهم أوهم الناس أنهم رسل السلطة العسكرية واستحوذوا على ما لديهم ومنهم من كون عصابات احتيال « لاخراج الشبان من الجندية » (٣) ·

وانسع مجال التدجيل والشعوذة وامتهان التنجيم والكذب والتجنى على الاهالى ، وسيطرت آفة السكر وأصبحت الشاغل لكثير من طبقات المجتمع فتهددت الأمة بالضعف وأرجع ذلك الى وجود القوات البريطانية وتشجيعها لهذا الأمر ، وانتشرت معامل الخمور فى كل مكان (٤) ·

وتبعا لانتشار السكر انتشرت المواد المخدرة ، فقد تفشى الكوكايين بين بعض من المصريين حتى تسرب الى الفتيات والشابات واستعمل كباقى المكيفات وكان الصيادلة يبيعونه بدون تذكرة طبيب طمعا فى الربح ، ودخل كثير من هؤلاء النساء الى المستشفيات يعانون من هذا المرض ، ورغم ذلك فان التجار كانوا يوصلون لهم الكوكايين والمورافين بطرقهم الخاصة (٥) ·

وكثر تناول الحشيش فهرب لداخل البلاد رغم يقظة رجال خفر السواحل فكانوا يضبطون كميات كبيرة من الحشيش ، ففى ١٩ أبريل ١٩١٥ قبض على نسافة حرب قديمة وعليها أحد عشر رجلا وكانت مليئة بالحشيش، وقبضوا على سفينة أخرى كانت تحمل ١٦٫٠٠٠ كجم حشيش وعليها يونانيون اشتغلوا بهذا الصنف وضبط الكثير بميناء الاسكندرية يحاولون تهريب الحشيش(٦) ، ورغم هذا فقد انتشر موزعو الحشيش وتعاطاه الناس بجميع أنواعه وبمختلف طرقه اعتقادا منهم أنه ينسيهم همومهم ·

وتبع ذلك انتشار القمار فى مدن مصر كلها بحالة مريعة ، وأصبح فى كل مقهى مجتمع للمقامرة يؤمه الأفراد وكثيرا ما أصبح الموظف المؤتمن على مال أو وكيل تاجر أو مزارع يتصرف فى غير ماله · وانكب الكثير على

---

(١) المحروسة ٢٧ مايو ١٩١٨ ·

(٢) الجريدة ٨ أكتوبر ١٩١٤ ، ١١ ديسمبر ١٩١٤ ·

(٣) وادى النيل ٣١ مايو ١٩١٥ ، الوطن ١٤ سبتمبر ١٩١٧ ·

(٤) الأفكار ١٠ ، ١٥ سبتمبر ١٩١٤ ، ٩ يونيو ١٩١٥ ، الأهرام ٢ مارس ١٩١٥ ، الاكسبريس ٣ سبتمبر ١٩١٧ ، وزارة الداخلية ، أوامر عمومية ، ٩ مارس ١٩١٦ ·

(٥) وادى النيل ٦ ابريل ١٩١٥ ، ٠٠ مايو ١٩١٦ ·

(٦) الأفكار ٢٠ ابريل ، ١١ مايو ، ١٣ أكتوبر ١٩١٥ ، وادى النيل ٨ أكتوبر ١٩١٦ ·

القمار لدرجة أن احدهم فقد فى ليلة واحدة وفى جلسة واحدة بملعب قمار مبلغ ٦٠٠ جنيه ، ودخل القمار المنازل فكثرت السهرات للصباح على لعب الورق حتى الغلمان قامروا فى الأزقة والحوارى ، وعلية القوم وسراتها قامروا فى النوادى والاماكن العامة ، وسمحت وزارةالداخلية بتداول القمار وشارك النساء فى الأمر فرحن يقامرن فى النوادى العامة (١) .

وعمت حوادث هتك الاعراض والشذوذ الجنسى على جميع المستويات وامتلأت بها الصحافة (٢) . فكان ذلك سببا فى تصدع المجتمع ابان هذه الفترة .

واصيب المجتمع بداء الرشوة فانتشرت فى المصالح الحكومية وبين الافراد العاديين ولعب بعض رجال الشرطة دورا كبيرا فىالمساهمة فيها ، اذ خلقت ظروف الحرب العوامل التى ساعدت على تفاقمها من ذلك قضايا مخالفة التسعيرة وغش المأكولات وتجاوز مواعيد سهر الحانات ومهربو المواد المخدرة وبيوت الدعارة ، فرجال الشرطة كانوا يتغاضون عن ذلك كله مقابل الرشوة(٣) .

وسرت الرشوة بين العمد ومشايخ البلد بالنسبة لطلبات السلطة العسكرية اذ لم يكن عليهم رقيب فى اختيار من يقدمونه للسلطة ، فكان من يغدق عليهم الأموال يعفى من الخدمة ومصادرة محصولاته ، ومن هنا كان حشد العمال والجمالة بل والحاصلات قد أعطى الفرصة بدون شك لانتشار المحسوبية والفساد والرشوة (٤) . فقد حكمت محكمة الجنايات ـ نظرا لارتشاء العمد ـ على عمدة بولاق الدكرور بالحبس سنة مع الشغل لانه ثبت انه أخذ رشوة ، وألقت نيابة الزقازيق أحد العمد فى غيابة السجن لانه متهم بالرشوة وامتدت أيدى العمد الى النذر القليل ولو حتى من مرتبات الخفراء ، وتستر العمد على اللصوص نظير الرشوة أيضا ، وبديوان المعية صور للمظالم التى قدمها الأهالى يشكون فيها العمد لنهبهم الأهالى وحبسهم وأخذ الرشاوى منهم (٥) وكثيرا ما كانت الرشوة تؤخذ باسم الخفير لصالح المهندس وسجل المستشار القضائى فى تقريره عن جرائم الرشوة « ان قلة ما يبلغ ولاة الامور منها لا يمكن أن يؤخذ دليلا قاطعة على قلة ما يقع منها » (٦) ، وضبطت

---

(١) وادى النيل ٩ ابريل ، ١٨ سبتمبر ١٩١٦ ، ٧ يونيو ، ١٥ يوليو ١٩١٧ ، الاكسبريس ٢٩ يوليو ، ٢٥ نوفمبر ١٩١٧ .

(٢) الحرية ٢٤ اغسطس ١٩١٥ ، وادى النيل ٨ سبتمبر ١٩١٦ ، الوطن ٢ يونيو ، ٢٣ يوليو ١٩١٧ ، ٢٢ يونيو ١٩١٨ .

(٣) الاكسبريس ٦ اغسطس ١٩١٧ .

(٤) House of Lords, vol XXXIV, p. 678.

(٥) الافكار ٧ سبتمبر ١٩١٦ ، ١٣ يناير ١٩١٧ ، ديوان معية سنية ، دفتر صادر غير رسمى ، سجل ٤١٦ ، ٢ فبراير ، ٦ مايو ١٩١٦ .

(٦) المحروسة ٣١ يوليو ١٩١٧ .

الرشوة فى بيوت بعض الموظفين ، وتعاطاها المحضرون لكيلا ينفذوا الاحكام الصادرة أو ليؤخروها (١) ومست الرشوة مأمور ضبط القاهرة « فليبدس » الذى كان رئيسا للمكتب السياسى ومنه ألحق الأذى بالمصريين أثناء الحرب ، وتعددت القضايا التى اتهم فيها ، وصدر الحكم عليه وعلى زوجته ، واهتم الناس لهذه القضية اهتماما عظيما ، وقابلوا الحكم بارتياح لانهم كانوا شاعرين بفساد سيرة ذلك الرجل وقبح ادارته (٢) .

ونعددت المجالس التأديبية لمحاكمة المرتشين من المسئولين وخاصة رجال الأمن ، ومضت السخرية من هذا الوضع على لسان المصريين فى كل مكان .

وسيطرت القسوة ومورست وسائل التعذيب على يدالقائمين بالامر من تجويع وضرب وسجن وقد أرسلت الشكاوى للمسئولين فى الحكومة والمعية وهى تفيض بالظلم الواقع على الاهالى بسبب وبدون (٣) .

وعانى المجتمع المصرى ابان هذه الفتره من الدعارة وتجارة الرقيق الابيض ، وكانت هذه التجارة معروفة قبل الحرب ، فمصر دائما ملجأ يفد اليها المهاجرون من كل مكان وبذلك فتح باب هذه التجارة على مصراعيه ، ففى سنة ١٩٠٨ كان عدد الفتيات والفتيان الذين عملوا فى هذا المجال بالاسكندرية ٧٥٩ ثم ارتفع هذا العدد الى ١٢٠٣ سنة ١٩٠٩ ثم الى ٢٢٦٣ فى عام ١٩١٠ (٤) .

وحينما أعلنت الحرب استقبلت الاف المهاجرين من اليهود والارمن فاشتغل عدد كبير منهم بالدعارة ، وكانت الضائقة الاقتصادية التى عانت منها مصر سبب أن ترك الكثير بيوتهن وامتهن هذه المهنة خصوصا بعد وجود هذه الأعداد الوافرة من الجنود التابعين للامبراطورية البريطانية واغداقهم على هذه الوجوه . « وانتشرت البيوت السرية فى القاهرة والاسكندرية وحواضر المديريات وتعدى الفساد الى النيل فاذا بشاطىء النيل من جهة العاصمة والجيزة رست عليهما الذهبيات أعدت للفحش والتجارة بالأعراض ، كذلك كثرت فى منطقة الأزبكية وشارع وجه البركة بما وفد عليها من البغايا والمتهتكات

---

(١) الوطن ٢١ اغسطس ١٩١٧ .

(٢) ابراهيم الهلباوى ، السابق ، الملف الثالث ، ص ١٢٤ ، وادى النيل ٥ يوليو ١٩١٧ ، سعد زغلول ، السابق، كراسة ٣١ ، ٢٥ يوليو ١٩١٧ ، ص ١٧٥٢ .

(٣) معية سنية ، دفتر صادر ، سجل ٤١٦ ، ٤١٧ ، ١١ نوفمبر ١٩١٦ ، وادى النيل ٢٧ مايو ٣ يونيو ، أول يوليو ، ٢٠ يوليو ١٩١٧ .

(٤) الأهالى ٦ يوليو ١٩١١ .

فكثرت باراتها وبيوتها ، ولم تخل طرقاتها من أسرابهن تغدو وتروح تشاغل المارة وتعاكس الجالسين » (١) ٠

وتفننت المتجرات بالعفات والأعراض فى الوسائل التى تسترهن عن أعين الشرطة فلم يكن منهن الا أن استأجرن منازل وعلقن عليها لوحات كتب عليها « بنسيون » وذلك ستار وضعته على أبواب الدور وكثرت هذه فى القاهرة والاسكندريه ، وخلقت ظروف مصر تغيرا فى بعض أخلاق الفتيات لدرجة أنه وصل لبعضهن « التزين بأفخر الأزياء وخروج الفتاة من بيتها حيث شاء لها الهوى تغازل من يعجبها فاذاما كانت الاشارة أو الابتسامة كان السلام فالكلام فالموعد فاللقاء » (٢) ٠

وفي حقيقة الأمر فان ظروف مصر فى ذلك الوقت هى التى أجبرت البعض على الاقدام على ذلك بعد أن فتك الجوع بهن فقصدن الجمعيات الخيرية فاذا بها مغلقة الأبواب موصدة المنافذ وحركة العمل عاطلة ٠ اذن فليس أمامهن الا هذا الطريق ولم يكن هذا برضاء منهن اذ أن حوادث الانتحار بينهن لدليل قوى على أن الكثيرات منهن طرقن هذا الباب مرغمات لأسباب قوية (٣) ٠

وبالرغم من وضع السلطة العراقيل امام جنود الامبراطورية لارتياد هذه الأماكن الا أنهم عاثوا فيها فسادا سواء فى الاسكندرية أو القاهرة ٠ وكان لذلك أثره اذ تفشت الأمراض السرية وتعذر على الفقراء علاجها لارتفاع أسعار الأدوية ٠ أما عن باقى الأمراض فقد انتشرت وعانى منها المصريون ، ففى عام ١٩١٥ اجتاحت مصر الدفتريا على أثر انتشار الحمى التيفودية **التى فتكت** بالكثير ٠ هذا بالاضافة الى انتشار العدوى من مرضى الجنود الانجليز ، وانتقلت الكوليرا على أيدى الهنود ، وارتفع عدد المصابون بالطاعون ، وعانت الأحياء الوطنية من الجدرى ، وسرى مرض الحمى القرمزية ، وأصيب أغلبية المصريين بالأمراض الرمدية ، وعمت الملاريا وساد انتشارها (٤) ٠

وتبعا لذلك تكونت لجنة صحية للبحث عن أسباب انتشار الأمراض ، فأقرت رفع المستوى الصحى عن طريق انشاء وزارة للصحة ، وانشاء مستشفيات بها أقسام متعددة لجميع أنواع الأمراض (٥) ٠

---

(١) العفاف ٧ سبتمبر ١٩١٤ ٠

(٢) الافكار ١٢ أكتوبر ١٩١٤ ، وادى النيل ٢٧ يونيو ، ٢٩ يوليو ١٩١٦ ٠

(٣) وادى النيل ٢٠ مارس ١٩١٥ ٠

(٤) ديوان معية سنية ، صادر ، سجل رقم ٤١٦ ، ٤١٧ ، ١٥ يوليو ١٩١٦ ، ٤ مايو ١٩١٧ ، مجلس الوزراء ، جلسة ٢٥ سبتمبر ١٩١٨ ،

gov. Egy. Copy letters 1917, Inspection of direction Dec. 14. 1917. p. 412.

(٥) Le Journal du Caire, 17 Août, 1918.

سلوك جنود الامبراطورية :

أما عن سـلوك جنـود الامبراطورية البريطانية في مصر فأسـاء الى المجتمع وحطم معنوياتة فى هذه الفترة وكان هذا السلوك من أهم ما أحنق المصريون على الانجليز وأعمالهم ، ومما كان له الاثر الكبير فى تفجـير ثوره ١٩١٩ ، فقد نشرت احـدى المتطوعات ـ كانت تقـوم بخدمة الجنود فى الميادين وقد أمضـت بمصر من نوفمبر ١٩١٥ الى أبريل ١٩١٦ ـ مقـالا فى صحيفه (Daily News) فى ٢ أبريل ١٩١٩ تعرض فيه أسباب ثورة المصريين فى مارس ١٩١٩ قالت : « ان الاضطرابات الحالية لم تكن الا نتيجه لأزمه لخطئنا تجاه المصريين ، لا جدال فى أن السلطات المسئولة ملومة كل اللوم فى ارسال جنود من جنود مستعمراتها الى مصر دون أن يبينوا لهم الطرق التى يجب أن يعاملوا بها الأهالى ، فان الكثير من هؤلاء كان جاهلا جهلا فاضحا لدرجة أنهـم كانوا يتصورون أن مصر بلد انجليزى ، وأن المصريين قوم دخلاء ويعجبون كيف سمح لهؤلاء العبيد أن يأتوا الى هذه الديار ، ولقد سمعت غير واحد من الأسترالبين يقول : (لو كان الأمر بيدى لما أبقيت على واحد من المصريين فى هذه البلاد) ، وعاملوا الأهالى بقسـوة واحتكار ، فلقد رأيت فى الكنتين الذى كنت أشـتغل فيه خادما مصريا من خير الخدم انهال عليه جندى بالضرب بقدمه لشيء تافه وهو أنه لم يفهم أمرا أصدره اليه ، وضرب أحد الجنود رجلا متعلما مهـذبا من المصريين وسلب منه عصاه الغالية الثمن بلا أدنى سبب ، وصرح لى الكثير من الجالية البريطـانية أنه يجب أن تمر سنوات عـدة لنستطيع محـو الأثر السيىء لما اقترفه الجيش من الرذائل فى هـذه البـلاد ، وروى لى أن بعض الجنود السكارى نزعوا البراقع عن وجوه بعض السيدات المسلمات ، فلا غرو اذن اذا كان المصريون يخافوننا ويحقدون علينا » (١) ٠

ويقول محمد بهى الدين بركات فى مذكراته : « حضر جيش هندى الى مصر ، ولقد سمعت أن فريقا منهم اغتال بائعة بلح ، وأنهم اغتصبوها من كل ناحية وأنهم تكاثروا عليها حتى ماتت ، وقد رآها بعض الثقاة ميتة أمام احدى خيامهم بهليوبوليس ، ولقـد رأيت بعض هؤلاء الهنود فى هليوبوليس وهم يأخذون بعض الحوذية قهرا ليحملوا لهم بضائعهم » (٢) ٠

ومحاضر البوليس المصرى فى فترة الحرب ، وهذه المحاضر تكاد تكون ممتلئة بتهم موجهة ضد العساكر الانجليزية والاسترالية والنيوزيلاندية ضد الاهالى تدل على الفظائع التى ارتكبوها مع المصريين ، وسوف نتناول بعض

(١) احمد شفيق : المرجع السابق ، ص ٨٥ ، عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ، ص ٤٣
(٢) محمد بهى الدين بركات : السابق ، ٢٦ سبتمبر ١٩١٤ ٠

هذه الحوادث لعلها تبرهن كيف سيطر الجنود على الشعب المصرى ، وكيف تسلطوا على الفقراء ، وكيف أثاروا المصريين بتصرفاتهم .

ففى ١٠ ديسمبر ١٩١٤ استطاع جنديان انجليزيان أن يستوليا على بضاعة من أحد المتجولين بشارع « وجه البركة » ولم يدفعا ثمنها وفرا هاربين فما كان من هذا البائع الفقير الا أن بلغ بوليس باب الحديد .

كذلك كان هؤلاء الجنود يركبون العربات دون ان يدفعوا الثمن ، فكثير من محاضر بالبوليس مكتوبة من سائقى عربات يوضحون فيهـا أنهم لم يقبضوا أجورهم واذا طالبوهم بها اعتدوا عليهم (١) .

ومضوا يرتكبون الأشياء المشينة فى أحياء القاهرة . فقد حدث أن أنفق جماعة منهم على الدخول الى بيت من بيوت الدعارة بشارع وجه البركة أثنـاء النهار ، ولم يلبث المارة والجالسون الى المشارب فى ذلك الشارع الكثير الحركة أن رأوا النساء يلقين من نوافذ أعلى طابق من ذلك البيت الى الشارع وبعـد وقت قليل رأوا هؤلاء الجنود يصبون البترول على جدران الدار ثم يشعلون النار فيه ، كل هذا والناس ينظرون هم ورجال الشرطة الى هذا المنظر الذى يمثل القسوة والوحشيه ولا يقربون على الدنو من هؤلاء النساء لاسعافهن أو اطفاء ما أوقد هؤلاء الجنود من لهب ، وأخيرا حضر رجال المطافىء والحكمدار ورجال الاسعاف فقام كل منهم بما فرض عليه . « فقبض على نحو خمسـين عسكريا سيحاكمون أمام المجلس العسكرى » (٢) .

واتخذت السلطة الاحتياطات لعدم تكرار ذلك فعلقت لوحات على كثير من شوارع الدعارة تحرم فيه مرور الجنود البريطانيين من هذه الشوارع ، وصـدرت الأوامر للقهاوى ــ بالذات الموجـودة فى وجه البركة ــ بأن تغلق فى الساعة التاسعة منعا لحدوث أى مشاغبات ، لكن هذا لم يمنع تفاقم هذه المشاغبات وازدياد الاضطرابات ضـد الأهالى ، فحدث أن أحد الجنود يدعى « جورج راسن » وبدون أدنى سبب تشاجر مع أحـد الأهالى « أحمد حسـن » وسبب له اصابات بالغة فى وجهه ولم يخلصه من تحت يده الا أحد رجال الشرطة (٣) لكن قليلا ما كان البوليس يتدخل فى هـذه الاضطرابات ، وتصف صحيفة المؤيد بعض هذه الأعمال وموقف البوليس منها تقول :

« يختلف حوذى أو مكارى مع أحد الجنود حيث يطـالب الأول بأجرته ويشتد فى الطلب كما يشتد مع كل راكب ويريد الثانى أن لا يدفع ، وتكاد

---

(١) Egyptian Gvt. Cairo City Police No. 86, December 14, 1914, p. 277, No. 95, June 15, 1915. p, 359., No. 101, June 15, 1916, p. 105.

(٢) أحمد شفيق : المرجع السابق ، ص ٨٤ ، المؤيد ٤ أبريل ١٩١٥ .

(٣) Egyptian Gvt., Cairo City police, No. 93, 97, Jan., Feb. 21, 1915, pp. 11.

تقوم قيامة الشارع من وراء هذا الخلاف ، فيقف البوليس كما يقف أحد المارين مكتوف الأيدى ، ويدخل جندى منزلا من منازل الضواحى فيستغيث السكان بالخفير لكن بدون جدوى لأنه يتوارى ان كان حاضرا ويختفى كل الاختفاء أن كان متواريا ، وهكذا تتعدد الحوادث وترتفع الشكوى كما يفسد الأمن ويختل النظام ورجال البوليس يرون الشر كل الشر من وراء تعرض الجنود الانجليز للأهالى فيقفون على الحياد التام » (*) .

وقد كانت صحيفة المؤيد صاحبة صوت المعارضة والهجوم على تصرفات الجنود هذه ، وكثيرا ما كانت توجه الخطابات لمكسويل تستنكر فيه هذه الأفعال مطالبة بوضع حد لها .

من هذا نرى أن البوليس كثيرا ما يقف موقف المتفرج ، فقد كان يعلم جيدا انه لو أقدم سوف تصدمه الأوامر بادانة من يتدخل ، فاحتمال أن يصاب فى معركة من هذه المعارك يفقد فيها شيئا ولا يعاقب مصابوه ، حتى البوليس يخشى هؤلاء الجنود ويوميا تكثر المشاغبات بينهم وبين الحمارة والعربجية والباعة الطوافين وكمسارية الترام ، وكثيرا بل وغالبا ما كان هؤلاء الجنود فى حالة سكر تام تائهين يعربدون ويضربون ويصيحون فى كل مكان ، يدخلون البارات يشربون ويمذون ولا يدفعون بل يقومون بضرب واصابة صاحب الحانة اذا طالبهم بالمقابل .

وحدث فى ٢٧ أغسطس ١٩١٥ أن طلب جندى انجليزى من أحد الأهالى المارين بشارع العباسية اعطاءه نقودا فلما رفض اذ لم يكن معه فعلا انهال عليه الأول ضربا وأصابه اصابات بالغة . وفى ١١ نوفمبر ١٩١٥ أحدثت جماعة من العساكر الأستراليين ــ وهم سكارى ــ الشغب والاضطراب فى شارع بولاق فكسروا الزجاج لبعض المحلات وأصيب البعض من جراء ذلك . وطرق جنديان حديقة أحد الأهالى كانت مملوءة بالفاكهة بالعباسية وعاثوا فيها وأخذوا ما لذ وطاب لهم ، وعندما طالبهم بالتعويض بأى مبلغ ضربوه حتى أفقدوه وعيه . ودخل جنديان أستراليان بارا بالأزبكية للشرب ثم انقضا على الخزانة واستوليا على كل ما بها من نقود وهربوا وقبض على واحد منهم والثانى عثر عليه مختفيا فى حديقة الأزبكية . وهجم ثمان جنود استراليين سكارى على احدى قهاوى الأهالى بالمطرية وأداروا الضرب فى الموجودين محطمين كل ما أوجدوه أمامهم من محتوياتها ، كما انقضوا على درب « الملات » وبعثروا محتويات حوانيته . وبالاسكندرية دخل جماعة من الجنود على قهوة فرنسا وهجموا على الخزينة وسرقوا ما فيها من نقود . وامتدت أعمال العنف والشغب الى كل مكان ، فعلى سبيل المثال أبلغ أحد رجال البوليس فى ١٥ يناير ١٩١٦ أن أحد العساكر الانجليز أطلق عيارا ناريا بجهة السبتية ، وكان هذا العسكرى معينا على باب العنابر فترك النقطة وذهب ليبحث عن مشروب له فوجد المحال مغلقة وتصادف أن رأى

★ المؤيد ٢٢ يوليو ١٩١٥ .

غنما كثيرا فى الشارع فاطلق عليها النار ، وأطلق آخر عيار نارى على خمسة أشخاص من الأهالى ولسؤاله عن سبب اطلاقه النار قرر أن هؤلاء الخمسة كانوا واقفين على الكوبرى وواضعين أيديهم على درابزينه ولما كلفهم بالسير لم يمسئلوا ويظهر أنهم لم يفهموه فأطلق عليهم النار • وحدث أن تشاجر عسكرى أسترالى مع بائع فاكهة مصرى فى بار فاستولى الأسترالى على زجاجة ويسكى وضرب بها البائع ، وبلغ الأمر ببعض الجنود أنهم كانوا يعتدون على نساء الخفراء وكانوا يذهبون للعاهرات ولا يدفعون الثمن ، وكثيرا ما كان رئيس الشرطة الانجليزى يكبح هجماتهم باطلاق النار (١) •

وازاء حوادثهم هذه أصدر القائد العام للجيوش البريطانية فى مصر قرارا بعزل كل جندى لا يحترم نفسه ولا يحافظ على كرامته وبدأ تنفيذ هذا القرار • فتقول صحيفة العالم الاسلامى : « ان عساكر استراليا فى مصر قد بارحوها فسر لذلك المصريون الذين كانوا قد سئموا تلك العساكر وملوا من سكرهم وتعدياتهم » (٢) • وهكذا أصيب المجتمع المصرى فى هذه الفترة بتلك الآفات ، وعان من القسوة والشدة والظروف الصعبة ما هيأ له جو الثورة عقب نهاية الحرب مباشرة •

التيارات الثقافية :

(أ) التعليم :

جاهدت انجلترا لجعل الجهل سائدا فى مصر حتى يسهل لها قيادة هذا الشعب الساذج ، ومنذ البداية عملت على احلال اللغة الانجليزية محل اللغة العربية فى المدارس المصرية وجعلتها لغـة التدريس فى المرحلتين الابتدائيـة والثانوية ، ثم رأت أن تجعل التعليم فى المرحلتين بمصروفات لا يحتمل دفعها الا الموسرون القادرون وساعد ذلك على تكوين طبقتين متميزتين فى الثقافة والميول والاتجاهات لا تكاد احداهما تؤمن بالأخرى أو تقوم بالتفاهم الجدى معهـا • هـذا الى جانب تشجيعهـا للمدارس الأجنبية على خلق طبقة تتسم بالأرستقراطية فى ثقافتها الأجنبية عن البلاد ، وبذلك تحاول التفرقة بين أبناء الشعب وخلق الطبقية فيه (٣) •

ولقد اهمل الانجليز التعليم بمصر بحجة أنه لم يات وقت ذلك بعد ، وأن هناك مجالا للاصلاحات فى الرى والقضاء وغير ذلك ، وقال كرومر « انه من الصعب أن نناقش طراز السجادة اذا كان المنزل المصنوعة فيه يحترق » ، كذلك

(١) Egyptian Gvt. Cairo City Police No. 89 90, 94, 95, 96, 97, 98, 100, 103, 105. March, June, August, November 1915, January, April, May, July 1916.

(٢) العالم الاسلامى ٣١ اغسطس ١٩١٦ •

(٣) محمد خيرى حربى : تطور التربية والتعليم ، ص ١١ •

صرح أن التعليم العالى ليس ضرورة للبلاد وأن الأفضل انشاء كتاتيب تكفى لتعليم القراءة والكتابة ، وأن الغرض من المدارس هو نخريج موظفين كافيين للعمل فى الوزارات والمصالح ، ويكفى للدلالة على اتجاه سياسة الاحتلال الى عرقلة التعليم أن الانجليز عندما احتلوا مصر كانت نسبة الذين يعرفون القراءه والكتابة ٥ر٨٪ وبعد خمسة وأربعين عاما من احتلالهم وطبقا لاحصاء عام ١٩٢٧ كانت نسبة المتعلمين ٨٣/٤٪ وهذا دليل واضح وقاطع على شدة حرص انجلترا على عرقلة يقظة الأمة (١) ٠

كانت أولى مراحل التعليم فى مصر « الكتاتيب » تلك التى يتناول فيها الأطفال المبادىء الأولى لتعليمهم وخير وصف لها ما سجلته صحيفة الاكسبريس على صفحاتها تحت عنوان « قبور الأحياء » فتقول « اذا مررت يوما فى طريقك الى حى المرغنى من حارة الصورى رأيت جبا مظلما وبه أصوات كالنمل ٠٠ انها غرفة أرضية بها نافذة ضيقة وصبية صغار جالسون بين هذه الجدران فى الظلام حيث لا هواء ولا ضياء ، يستنشقون رطوبة تنبعث من جوانب المكان وهى سم قتال يفتك بهم ، انهم يتلقون القراءة والكتـابة على يد ذلك الشيخ المسمى « الفقيه » أو « العريف » أجسامهم نحيفه أذابها الفقر وأضناها الاهمال ، ووجوه شاحبة كساها الجوع صفرة كصفرة الموت وعيون حائرة تكاد لا ترى وخاصة فى ذلك الظلام » (٢) ٠

وفى هذه الكتاتيب كان التعليم ينحصر فى مبادىء القراءة والكتابة تمهيدا لحفظ القرآن ومواد الدراسة تمثلت فى الدين والتهذيب واللغة العربية والخط العربى والحساب ، ولم يبذل الانجليز أى جهود جديدة لا فى اصلاح المناهج ولا فى حسن تطبيقها ٠

وهكذا استمر الحال حتى قامت الحرب العالمية الأولى ، واحتاج الانجليز الى استرضاء المصريين حتى لا تقوم أى انتفاضة ضدهم أثناء هذه الفترة الحرجة ، هذا فى وقت هى فى أشـد الحاجة الى تعاون المصريين معها ، وكانت على يقين من ضيق الشعب بسياستها التعليمية ، فهمت ببعض الاصلاحات فى التعليم الشعبى فى عامى ١٩١٦ ــ ١٩١٧ فحولت الكتاتيب الى مدارس أولية ذات أربع فرق ، ولقبت الفقيه « برئيس » والعريف « بمعلم » وحرمت على الرؤساء والمعلمين جباية نقود أو غير ذلك من التلاميذ ، وفى مقابل ذلك رفعت مرتباتهم الى خمسـة جنيهات للرئيس وثـلاثة للمعلم ، وكان الراتب فى سنة ١٩٠٨ جنيهين للفقيه وجنيها واحدا للعريف ٠ وفى الوقت نفسه قررت على التلاميذ والتلميذات بتلك المدارس مصروفات تجبى لوزارة المالية مع منح المجانية لنسبة

---

(١) محمد على علوبة : المرجع السابق ، ص ٧٩ ٠

(٢) الاكسبريس ١٤ فبراير ١٩١٥ ٠

معينة منهم ترتفع تدريجيا فى الأحياء الفقيرة · وعدلت مناهج الدراسة بما يطابق الوضع الجديد فدرس الدين واللغة العربيه وعلم الأخلاق ، والخط والجغرافيا والتاريخ المصرى والرسم والحساب والمنزلى والتربية العلمية والتربية العملية وقانون الصحة والتدبير المنزلى من أشغال ابرة وطباخة وغسيل وكى وادارة المنزل · وحذت مجالس المديريات حذو وزارة المعارف فى تحويلها الكتاتيب الى مدارس أولية (١) وزادت من عددها ·

وفى عام ١٩١٦ بدأت الوزارة فى انشاء مدارس مكملة للمدارس الأولية أطلقت عليها اسم (المدارس الأولية الراقية) كان أخص أغراضها أن تمهد لتلاميذ المدارس الأولية (الكتاتيب) الذين يتحتم عليهم اتمام حياتهم الدراسية سبيلا لتعليمهم تعليما أوفى مما يتلقونه فى الكتاتيب وأن يكون هذا التعليم عمليا وملائما لأحوالهم الاجتماعية أكثر مما يحصلون عليه فى المدارس الابتدائية (٢) ·

ورأت الوزارة أن التلاميذ الذين يتخرجون من المدارس الأولية للبنين ليس لديهم من الدراية بالحياة ما يمهد لهم طريق الكسب ، فانشأت بالقاهرة مدرسة أولية راقية للبنين مدة الدراسة بها أربع سنوات ووضعت لها منهجا أرقى من المدارس الأولية ، فالتعليم فيها باللغة العربية وتدرس أيضا اللغات التلاث والترجمة والتاريخ والجغرافيا والرياضيات والعلوم والرسم ، كذلك تضمن المنهج مبادىء بعض الفنون كأشغال النجارة والمعادن · وأيضا اقتدت مجالس المديريات بالوزارة فى ذلك · لكن لم تنجح تلك المدارس فى الأقاليم نظرا لقلة الاقبال عليها فأعادتها المجالس الى ما كانت عليه (٣) ·

كذلك أنشئت فى نفس العام أول مدرسة أولية راقية للبنات ، وكان الغرض منها تزويد خريجات المدارس الأولية الراغبات فى الاستمرار فى الدراسة بقسط كاف من العلوم والثقافة النسوية التى تزيد من كفاءتهن فى الحياة المنزلية ، لذلك احتل التدبير المنزلى بجميع فروعه المقام الأول فى خطة الدراسة وكانت مدة الدراسة بها ثلاث سنوات (٤) ·

وعند تقرير عدد نسب التلاميذ الذين يقبلون مجانا بالمدارس الأولية الراقية جعلت المصروفات المدرسية ثلاثون قرشا فى الشهر بدون طعام ، وستون قرشا بطعام ، غير أنه بعد تأسيس المدارس الأولية الراقية بعام ثبت أن هذه المصروفات ما زالت فوق مقدور التلاميذ الذين يرغبون فى الالتحاق بها ، وهنا

(١) محمد خيرى حربى : المرجع السابق ، ص ٢٧ ·
Le Journal du Caire, 28 Fev. 1916.
(٢) مجلس الوزراء ، جلسة ٢١ يناير ١٩١٨ ·
(٣) Conseil des ministres, 6 Juin 1916.
(٤) Ibid.

رفعت مذكرة من وزارة المعارف الى مجلس الوزراء بشأن تخفيض المصروفات « لأجل توسيع نطاق التعليم ، ونظرا لمراعاة غلاء المعيشه فلذلك دعى لتخفيض المصروفات المدرسية بالمدارس الراقيه للبنين والبنات وجعلها خمسة عشر قرشا في الشهر بدون طعام وخمسة وأربعون بطعام » (١) .

ووضع عدلى يكن وزير المعارف فى ٢١ مايو ١٩١٧ تقريرا وافيا عن توسيع نطاق التعليم الاولى للقضاء على الأمية المنتشرة فى البلاد ، وكانت الوزارة قد شكلت لجنة فى ٣٠ مايو ١٩١٦ لدراسة أحسن الطرق المؤدية الى تعميم التعليم الأولى بين طبقات الأمة ، وقد اجتمعت هذه اللجنة فى أواخر يونيو ١٦١٧ . وأوصت باستعمال اللغة العربية ، وفى آخر جلساتها اقرت المجانية فى جميع البلاد بالنسبة للتعليم الأولى ، وخرج اطار مشروعها الى الوجود الذى طالب أن ينشأ فى كل مدينة وقرية فى مدة لا تتجاوز عشرين سنة مدارس أوليـة يكون فيها نصيب البنين ٨٠٪ والبنات ٥٠٪ وأن تقدم الوزارة اعانات لمسألة البناء والمرتبات (٢) . لكن تنفيذ المشروع لم يتم وربما كان الغرض من خروج شكل المشروع ارضاء المصريين فى هذه الظروف الحرجة .

وصدق مجلس المعارف الأعلى فى أواخر فبراير ١٩١٧ على ميزانية وزارة المعارف ١٩١٧/١٩١٨ وأظهر الرغبة فى اعداد مشروعات مفيدة استنارت فيها الوزارة لاصلاح التعليم وتكميله ، وأدرجت فى مشروع ميزانيتهـا ما يلزم للاستمرار فى توسيع نطاقه على حسب ما يناسب قلة مواردهـا وصـعوبة الظروف ، فقررت أن توسع نطاق مدارس المعلمين للاسراع فى اعداد المدرسين الذين تستدعيهم حاجة البلاد ، وأنشئت فى الاسـكندرية فى سـنة ١٩١٦ مدرستان أوليتان احداهما للمعلمات والأخرى للمعلمين فأدرجت فى ميزانية ١٩١٧/١٩١٨ ما يلزم لانشاء فصلين جديدين بالأولى وفصل جديد بالثانية ، وقررت أيضا أن تدخل فى اثنى عشر مدرسة النظام المتبع منذ سنة ١٩١٥ فى مدرستين فقط من مدارس البنات الأولية وهى أن تدفع الحـكومة مرتبـات المعلمين ، وزادت الوزارة الاعانات المخصصة للمدارس الأولية الأهلية التابعة لتفتيشها من ٣٠٠٠ر٣ جنيه الى ٤٠٠٠ر٤ جنيه مكافأة لها وتشجيعا لأربابهـا ، وزيدت ميزانية المعارف ١٩١٧/١٩١٨ عن ميزانية السنة التى سبقتها بمقدار ٤٢٥٥٠ جنيها وبعض هذه الزيادة يقابلها زيادة فى الايراد ناشئة عن تقرير المصروفات المدرسية بمدرسة المعلمين السلطانية وزيادة مصروفات بعض مدارس

---

(١) مجلس الوزراء ، جلسة ٢١ يناير ١٩١٨ .

(٢) الهلال يوليو ١٩١٧ ، ص ٨٥٣ ، اكسبريس أول يوليو ١٩١٧ ، الاصلاح ٨ يوليو ١٩١٧ . The Near East, July 27, 1917, p. 243. الوطن ٣ أغسطس ١٩١٨ . وادى النيل ١٩ ابريل ١٩١٨ .

أخرى عالية وثانوية خصوصية ، وكثرة عدد الطلبة ، وزادت المصروفات أيضا على نسبة زيادة عدد الطلبة وارتفاع أسعار الأدوات المدرسية والمواد الغذائية(١) ٠

أما بالنسبة للتعليم الابتدائى ، فقد كان غرض انجلترا هو اعداد القلة للوظائف الصغيرة العامة ، ونجلزة هذا النوع من التعليم بغرض نشر الثقافة الانجليزية على حساب العربية وحصص لأبناء الطبقة التى هى أكثر يسارا من طبقة تلاميذ الكتاب ٠ وطريقة التعليم هى التلقين المجرد من أى صفة علمية اذ يقول علوبة « كان الضرب من وسائل التأديب فى المدرسة فيخلع حذاء التلميذ ويضرب بالعصا على قدميه ويعقد المدرسون اللغة العربية حتى أصبحت من أصعب العلوم وأثقلها على التلاميذ » (٢) ٠

ولم تراع الوزارة بأى حال من الأحوال مستوى التلاميذ فصعبت الامتحانات ، فحدث أن اللجنة التى وضعت أسئلة الحساب لامتحان الشهادة الابتدائية لم تتبع برنامج الدراسة فخرجت فى الأسئلة التى وضعتها عن الحد المعقول ، فلما اطلع عليها رئيس اللجنة وكان فرنسيا أجلس الأساتذة أمامه وأملى عليهم الأسئلة وطلب اليهم الاجابة عنها فعجزوا عن الجواب عليها (٣) ٠

وأخيرا رأت الوزارة الغاء شهادة الدراسة الابتدائية والاستعاضة عنها بامتحان قبول فى المدارس التى كانت تشترط وجوب الحصول على هذه الشهادة للدخول فيها (٤) ٠

وصرح عدلى يكن بأن الغاء الشهادة الابتدائية أمر ضرورى اذ أن المقصود من هذه الشهادة لم يكن الا الحصول على موظفين للوظائف الصغرى فلما توفر عدد الذين بيدهم شهادة الدراسة الثانوية بقسميها الأول والثانى لم يعد من حاجة الى بقائها ما دام التعليم الأولى لا يعتبر الا مؤهلا لمواصلة الدرس فى الثانوى (٥) ٠

هذا بالاضافة الى كثرة حاملى الابتدائية العاطلين وخوفها من اندماجهم فى سلك السياسة ، مما اضطرها الى تغيير نظام التعليم الابتدائى والغاء الابتدائية ، وادخال التعليم العملى فى هذه المدارس ٠

ومنذ بداية العام الدراسى لعام ١٩١٦ رأت وزارة المعارف أن تزيد أجور التعليم فى مدارسها وأقر مجلس الوزراء هذه الزيادة ، وألغيت جميع الاستثناءات

---

(١) فتاة الشرق ، مارس ١٩١٧ ، ص ٢٥٩ ٠

(٢) محمد على علوبة : المرجع السابق ٠ ص ٩ ٠

(٣) السفير ٢٥ يونيو ١٩١٥ ٠

(٤) Conseil des ministres, 28 Dec. 1915.

(٥) وادى النيل ١٦ يناير ١٩١٦ ٠

لقبول أى تلميذ بالمجانية ، وتوسعت الوزارة فى التعليم الابتدائى فقررت زيادة أربع فصول فى مدارس البنين الابتدائية بحيث أصبحت تقبل ٦٥٨٠ تلميذا بدلا من ٦١٧٤ تلميذا (١) • وفى أول ينـاير ١٩١٦ أرسلت وزارة الداخلية الى مجالس المديريات بصب الاهتمام على التعليم الأولى وجعل الدراسة الابتدائية واسطة لما فوقها (٢) •

أما عن المدارس الثانوية ، فكانت تدرس بها نفس العلوم الابتدائية ولكن بدرجة أقوى وأرقى ما عدا الدين فيدرس مكانه الكيمياء والطبيعة وكانت العلوم تدرس بالانجليزية ما عدا اللغة العربية ولكن فى منتصف عام ١٩١٥ قررت الوزارة أن تدرس العلوم بالعربية •

وكانت مدة الدراسة فيها خمس سنوات وامتحان البكالوريا يتناول مناهج الخمس سنوات والالمام بهـا أمرا مرهقا ، وهى تعد طبقة الموظفين فى الحكومة على النمط الذى يريده السادة الانجليز ، والمدرسـون فيها أجانب من انجليز وفرنسيين وسويسريين ، والتـاريخ يدرس فيها بغير لغة البلاد ، وأهم جزء فيه ينحصر فى تاريخ البلاد الأجنبية وعظمة الدول الغربية وعظماء الرجال الغربيين ولم نعط من تاريخ مصر أو عظماء الاسلام الا نتفا صغيرة (٣) •

وفى بداية الحرب لم يكن الاقبال على التعليم الثانوى كثيرا حيث أن المتخرجين من المتعلمين يقاسون من قلة العمل أولا ثم من ضعف المرتب ثانيا • ففى عـام ١٩١٤ تخرج من احـدى مدارس القـاهرة سبعة وأربعون طالبا لم تأخذ المعارف أحدا منهم (٤) •

وكان لوزارة المعارف حتى عام ١٩١٧ ست مدارس ثانوية للبنين منها ثلاث بالقاهرة واثنتان بالاسكندرية وواحدة بطنطا يتلقى العلم فيهـا ٢٤٤٢ من الطلاب ، ورأت الوزارة منذ ذلك الحين أن هذا العدد من المدارس لا يكفى فشرعت فى زيادته وأنشـأت مدرسـة كبيرة فى أسـيوط سـنة ١٩١٨ • كذلك قررت الوزارة ميزانية التعليم لعام ١٩١٨ فيما يختص بالتعليم الثانوى زيادة خمسـة فصـول بحيث يصبح عدد تلاميذها ٢٨١٨ بدلا من ٢٦٢٠ وعزمت على انشاء مدرسة ثانوية بالزقازيق ، وزادت الوزارة الاعانات المخصصة بالمدارس الثانوية من ستة آلاف الى سبعة آلاف ، وكانت صعوبة الامتحانات فيها من

---

(١) وزارة المعارف ، قلم السجلات ، المحفوظات العربية للوارد الرسمى وغـير الرسمى سنة ١٩١٦ •

(٢) Le Journal du Caire, 1 Jan. 1916.

(٣) محمد على علوبة : المرجع السابق ، ص ٢٣ ،
Le Journal du Caire, 2 Juin, 1915.

(٤) وادى النيل ٣٠ يونيو ١٩١٥ •

أهم مميزاتها فكثيرا ما كانت نتيجة شهادة الكفاءة ١٨٪ وأقل من ذلك في البكالوريا ، وتتابع رسوب الطلبة سنة وسنتين في مثل هذه الظروف الصعبة والعسر المالي الشديد (١) .

أما عن المدارس الصناعية ، فكانت سياسة انجلترا من حيث مناهج هذه المدارس هي ألا تدخل بها صناعات مختلفة بل كانت ترمي الى وجود صنعة واحدة أو اثنتان من نوع واحد ، وهدف انجلترا أن تعد بعض الصناع أو الفنيين بحيث يزودوا بتعليم فني بسيط يؤهلهم لخدمة الأعمال اليدوية ، وفي آخر ديسمبر ١٩١٥ بلغ عدد المدارس التي نديرها ادارة التعليم الفني والصناعي والتجاري اثنتين وثلاثين مدرسة نضم بين جدرانها ٤٣٨١ تلميذا ووسع نطاق مناهج التعليم بمدرسة الهندسة ومدرسة الفنون والصنائع وبنى أيضا ثلاث عشرة مدرسة صناعية .

وفي سنة ١٩١٧ كان هناك بمصر سبعة عشر ورشة ومدرسة صناعية ثلاثة بالقاهرة واثنتان بكل من مديريات أسيوط وقنا والغربية وواحدة بالاسكندرية والسبع الباقية موزعة على سبع مديريات في كل مديرية واحدة (٢) .

وتوسعت مدرسة الهندسة سواء من حيث زيادة عدد التلاميذ الذين يمكن قبولهم فيها أو من حيث اصلاح نظامها وتوسيع فهم التعليم بها وتخريج طلبة في فنون الهندسة الآلية أو الكهربائية أو المعمارية يكون في طاقتهم أن يشتغلوا بأعمال خارجة عن دوائر الحكومة وذات اتصال بالمشروعات الصناعية . وضمت هذه المدرسة قسما للعمارة بجانب قسم الري والهندسة المدنية ثم استحدث في ١٩١٦ثلاثة أقسام جدد واحد للهندسة الآلية والآخر للهندسة البلدية والثالث للهندسة الكهربائية (٣) .

وفي حقيقة الأمر فانه منذ بداية الحرب احتاجت السلطة العسكرية لمنتجات المدارس الصناعية وهنا راحت تعمل بجد وتبذل المجهودات ، وعلى سبيل المثال فقد ووفق على فتح اعتماد اضافي بمبلغ ٨٠٠ جنيه لمصلحة التعليم الفني والصناعي والتجاري على ذمة ثمن الفحم بالورش الصناعية نظرا لعدم كفاية المال المقرر لهذا الغرض بالميزانية بسبب غلاء هذا الصنف وازدياد الأعمال التي عهد بها الى هذه الورش لحساب السلطة العسكرية (٤) .

ونشطت هذه المدارس ، ويصف مراسل صحيفة « الاكسبريس » زيارته لمدرسة الصنائع في أسيوط يقول « تفقدت ورشة المدرسة فوجدت الطلبة

---

(١) ديوان معية سنية ، صادر ، سجل ٤١٦ ، ١٥ يوليو ١٩١٦ ، الحكومة المصرية ، التماسات محفوظة ، ٣ يونيو ١٩١٦ ، وادى النيل ٦ يوليو ١٩١٨ .

(٢) تقرير لجنة التجارة والصناعة ، ص ص ١١٢ ، ١١٣ .

(٣) مجلس الوزراء ، جلسة ٥ أكتوبر ١٩١٥ .

منكبين فيها على تعلم الصناعة من برادة ونجارة وحدادة وسبك معادن ونقش وورشة لصنع السجاد » (١) . وبلغ عدد المدارس الصناعية المتخصصة فى تعليم صناعة الخشب ثلاث عشرة مدرسة تابعة لمجالس المديريات وعدد تلاميذها ستمائة تليمذ فى قسم النجارة فقط (٢) .

وازدهر التعليم الزراعى على يد مجالس المديريات ، وأنشئت المدارس التابعة له التى هدفت الى مكافحة الأمية الزراعية ونشر الوعى الزراعى بين الفلاحين ، ودرست لجنة الزرعة والتجارة جميع الطرق المؤدية لرقى هذا التعليم ، كما اهتمت وزارة الزراعة به ، وراحت الصحافة توالى نداءاتها من أجل ذلك (٣) .

أما التعليم التجارى فكان مهملا ، فالأجانب فى مصر مستأثرين بالأعمال المالية والتجارة والشركات والمصارف والبيوتات المالبة والتجارة الكبيرة كان لا يؤسسها ولا يديرها ولا يعمل بها سوى الأجانب . لذا كانت مدارس التجارة المتوسط قليلة فى مصر وعدد تلاميذها لم يتعدوا الألف ، وقد رأت لجنة التجارة والصناعة ادخال التعليم التجارى الأولى فى المدارس الأولية . وبوشر هذا التعليم فى مدرستين نهاريتين وثلاث مدارس ليلية (٤) .

أما بالنسبة للمدارس الأهلية فهى تنقسم الى قسمين الابتدائية والثانويه « وهذه المدارس هى ملاجىء بؤس لا ترى فيها غير أكواخ قذرة مظلمة فى أحياء غير صحية ولا تعثر بداخلها غير بعض المقاعد الخشبية ومنضدة أكل عليها الدهر وشرب ، ولا نلاحظ من نظامها شيئا من العناية بالصحة أو النظافة ، أما معلموها فانهم يتناولون مرتبات تتراوح بين جنيه وجنيهين ولذلك تجدهم على قدر مرتباتهم فهم يأخذون من أولئك التعساء الذين قضوا وقتا مفيدا بالأزهر أو ببعض المدارس الأخرى ومن ذلك يتبين مقدار التعليم فى المدارس الأهلية » (٥) .

وأصبحت هذه المدارس هدفا للحصول على طرق للمعيشة لأصحابها وأقرب الى التجارة منها الى دور التعليم حتى أن القائمين بادارة شئونها لا يعرفون من المواد التى تدرس فيها غير اسمها فقط ، والكتب المقررة على كل فرقة ، ولما كان الغرض من فتح المدرسة هو التجارة فقط فانهم يقبلون فى أى من سنى الدراسة من يدفع مصروفاتها المقررة . وأصبح متعذرا على أفراد الطبقة الوسطى والعامة من الالتحاق بهذه المدارس اذ أنها ضربت حولها نطاقا من النطاقات

---

(١) الاكسبريس ٢٨ مارس ١٩١٥ .

(٢) تقرير لجنة التجارة والصناعة ، ص ١٣١ .

(٣) Le Journal du Caire, 20 Mai, 1915, Conseil des ministres 6 Sept. 1916, The Near East, April 9, 1915, p. 642, L'Indisponsable, 15 Jan. 1917.

(٤) تقرير لجنة التجارة والصناعة ، ص ص ، ٢٤ ، ١٠٧ .

(٥) وادى النيل ١٨ ابريل ١٩١٧ .

والقوانين فالمنتفع بها أفراد قلائل من الطلبة أبناء الأعيان لا يزيدون عن ١٠٪ من الطلبة المصريين (١) .

ويدخل تحت التعليم الأهلي مدارس الجمعية الخيرية القبطية وجمعية التوفيق ثم الجمعيات الخيرية الاسلامية والأوقاف ، ومنذ بداية الحرب قطعت وزارة الأوقاف تلك الاعانات التي كانت تقررها للمدارس بسبب الأحوال المالية ، وبناء على هذا أغلقت بعض المدارس أبوابها (٢) .

أما عن المدارس الأجنبية ، فتفوق الفرنسيون وأسسوا مدارسهم في مصر على النظام الفرنسي « الفرير ، الجيزويت ، القلب المقدس ، أم الاله ، الراعي الصالح ، الراهبات » كذلك أسست الارساليات المدارس الأمريكية والانجليزية والألمانية واليونانية والروسية .

ويصف علوبة هذه المدارس يقول « ان المدارس الأجنبية في مصر تعمد الى تغيير التلاميذ والتلميذات من اللغة العربية وترغيبهم في اللغة الأجنبية حتى أصبح المصريون فيها أقوى في اللغة الاجنبية منهم في اللغة العربية ... ومما يوجب الحسرة أن المدارس الأجنبية تلزم المصريين ما يسمونه بالتاريخ المقدس وهو تاريخ الأنبياء من سيدنا ابراهيم الى عيسى ولا يذكر فيه النبي محمد ... والذين يتربون في هذه المدارس يضعف احساسهم القومي ويبعدهم عن دينهم ... ان هؤلاء برعوا في الرقص ولعب الميسر » (٣) .

أما عن التعليم العالي ــ المدارس العليا ــ فهو يختلف عن التعليم في مراحله السابقة حيث أن الطلبة في هذه المدارس واقعون تحت نظم المواظبة والعقوبات بالطرد أياما أو نهائيا .

وكان الغرض من انشائها اعداد الموظفين للحكومة ، وهذا يقتضي أن يتعلم الطلبة الطاعة والخضوع التام ، وكانت تشمل مدرسة الهندسة ، والطب ، والحقوق ، والمعلمين العليا والزراعة العليا والتجارة العليا . وعن مدرسة الهندسة فهي أقل هذه المدارس عيبا في نظامها وبرامجها ويرجع ذلك الى قدم عهدها ، والطلاب يتمرنون في العطلة المدرسية ، والخريجون تأخذهم الحكومة ، وقد اتسع نطاق التعليم فيها ، وتقرر أن يزاد عدد الطلبة الذين يرسلون لأوربا (٤) .

وفيما يتعلق بمدرسة الطب فلها عيوب كثيرة وخريجوها لايسعون للحكومة ولا يقبل الناس عليهم لعدم ثقة الناس بالمتخرج الجديد ، ومدرسة الحقوق كان

---

(١) الوطن ٢٧ يوليو ١٩١٧ ، الاكسبريس ١٩ أكتوبر ١٩١٨ .
(٢) الاحرار ٢٧ ابريل ١٩١٥ ، المنار ، مايو ١٩١٥ ، ص ٣١٣ ، المنبر ١٧ أغسطس ١٩١٨
(٣) محمد على علوبة : السابق ، ص ص ١١ ــ ١٥ .
(٤) فتاة الشرق ، مارس ١٩١٧ ، ص ٢٦١ .

العاطلون فيهـا كثيرون وهى خارجة عن وزارة المعارف ، والسلطه الانجليريه – وعلى حسب المبادىء الدنلوبية – تقرر الكتب التى تتلاءم مع أغراضها فكان كتاب قانون الامتيازات الأجنبية فى مصر من أهم الكتب التى تدرس فى مدرسة الحقوق ٠

وبخصوص مدرسة المعلمين فلم يهتم فيها الا بالتربيه العملية ، ومدرسه الزراعة خارجة عن سلطة وزارة المعارف ، وكانت هذه المدرسة قبل ذلك مدرسة خاصة يدخل اليها حاملو الابتدائية وسهلت الحكومة سروط الالتحاق بهـا وأدخلتها ضمن المدارس العليا ، وقررت أن يكون أساتذتها انجليز (١) ٠

وكان للحرب أثرها غير المقصود فى اسناد بعض وظائف التدريس فى المدارس العليا للمدرسين المصريين ودائما تطعن انجلترا فى كفاءة المصريين . وتعمل على عدم تعيينهم فى الوظائف الكبرى فمنعوا من الاشتراك فى التدريس فى مدرسة الطب غير أنه نتيجة للحرب وتغيب أساتذة مدرسة الطب الانجليز ابان الحرب أسند الى بعض المصريين عبء القيام بكثير من الأعمال ، وبدىء فى تعيين أساتذة منهم فى القسم الاكلنيكى وقسم أمراض النساء والرمد (٢) ٠

وعقب اعلان الحرب بسنة ألغيت المجانية من مدرسة المعلمين السلطانية . وألزم كل تلميذ فيهـا بدفع مبلغ خمسة عشر جنيها ٠ ولكن عدلى يكن أصدر قرار فى ٢٩ يوليو ١٩١٦ خاص بانشاء محال مجانية بالمدارس العالية الأميرية . وزيد عدد الطلبة فيها ٠ أيضا قرر مجلس الوزراء فى ٢٢ أغسطس ١٩١٨ المجانية فى مدرسة الحقوق السلطانية ٠ وكان من نتائج الحرب كذلك أن زادت مصاعب الجامعة المصرية الأهلية المالية وما وافت عام ١٩١٧ حتى فكرت الحكومة فى انشاء جامعة أميرية تدخل فى دائرتها المدارس العالية (٣) ٠ وقد وافق مجلس الوزراء على المشروع ٠ وتم تشـكيل لجنـة لاعداد مشروع الجامعـة الحكومية (٤) ٠

وأمام ذلك رأت الجامعة الأهلية العمل على اصلاح نفسها ، فأنشأت بعض الأقسام وأعادت تدريس بعض المواد وتخفيض الرسوم المفروضـة وتعميم المحاضرات العامة (٥) ٠

---

(١) المسر ١٧ أغسطس ١٩١٨ ٠
(٢) تقرير يبين حالة التعليم فى مصر من سنة ١٩١٧ الى سنة ١٩٢٢ ، ص ٣٢ ٠
(٣) الاهرام ٢١ يونيو ١٩١٥ ، الوطن ٦ سبتمبر ١٩١٧ ٠ Conseil des ministres, 25 Sept. 1918.
(٤) Conseil des ministres, 27 Feve. 1917.
(٥) المستقبل ٨ يناير ١٩١٧ ٠

وامتازت فترة الحرب بنشأة ما أطلق عليه (جامعة الشعب) التى تأسست فى مارس ١٩١٧ وفتحت أبوابها للجمهور وصادفت اقبالا ونجاحا دعا القائمين بالأمر فيها الى تنظيم الموضوعات التى نلقى فيها المحاضرات ، وهذه الجامعة تحتوى على قسمين قسم مصرى عربى وقسم أجنبى فرنسى ، وقام كلاهما بمهمته خير قيام ، والقسم العربى نلقى فيه محاضرة فى الأسبوع والغربى ثلاث محاضرات والمحاضرات تاريخية مصرية واجتماعية وأدب عربى ، وساعد هذا على تثقيف العامة وايجاد نهضة علمية (١) ٠

أما بالنسبة لتعليم البنات فقد أنشأت الحكومة ومجالس المديريات والأهالى الكتاتيب والمدارس الابتدائية والثانوية فى جميع أنحاء مصر لتعليم البنات حتى بلغ عدد الطالبات حسب احصاء أواخر عام ١٩١٥ حوالى ٨٠ ألف طالبة (٢) ٠

وأمكن لتعليم البنات أن يتغلب على التقاليد القديمة ، كذلك قدر للمدارس الأجنبية أن تضم العدد الأكبر من البنات حيث أن الطبقة العليا فى مصر كانت تلحق بناتها بها ، وقاربت أعدادها أعداد البنين ، ففى احصاء عام ١٩١٥ كان عدد التلاميذ ٢٣٫٦٥٧ وعدد التلميذات يكاد يكون مساويا فهو ٢٠٫٧٤٣ بينما فى المدارس الوطنية وحسب نفس الاحصاء كان عدد التلاميذ ٤٣٤٫٠٤٠ فى حين أن عدد التلميذات لم يتجاوز ٥٨٫٨٣٠ (٣) ٠

وقامت الوزارة بمشروعين بالنسبة لتعليم البنات أولا : التوسيع فى نطاق تعليمهن وذلك عن طريق تشجيع مدارس البنات الابتدائية التابعة لمجالس المديريات والجمعيات الخيرية وتحسين حالها بتفتيشها ومنحها الاعانات المالية ، والمشروع الثانى انشاء مدرسة راقية للبنات فى القاهرة تشمل قسما ابتدائيا وآخر ثانويا وسيكون هذا المشروع أساسا لمشروع آخر لتعليم البنات تعليما ثانويا (٤) ٠

واهتمت الجمعيات الخيرية وخاصة جمعية التوفيق الخيرية المركزية بتعليم البنات ، ففى تقريرها عن أعمالها عام ١٩١٥ دليل على التقدم فى مشروعاتها العلمية ٠ اذ أقامت قسما خاصا بهذا التعليم فى مدارس الجمعية ٠ وتألف وفد منها وسعى لدى وزارة المعارف فى عمل امتحانات للبنات المنتهيات وتسليمهن شهادات بعد أن أبطل امتحان شهادة الدراسة الابتدائية لما فى ذلك من تشويق البنات على التعليم وترغيبهن فى الدرس والتحصيل (٥) ٠

---

(١) الشباب ٣٠ أكتوبر ١٩١٧ ، Le journal du Caire, 28 April, 1917, 7 Juin, 1918.

(٢) فتاة الشرق ، يناير ١٩١٦ ، ص ١٤٢ ٠

(٣) السابق ، يناير ١٩١٧ ، ص ١٥٧ ٠

(٤) The Egyptian Mail, Feb. 21, 1917.

(٥) فتاة الشرق ، فبراير ١٩١٦ ، ص ٢٨٤ ٠

كذلك أدارت جمعية العروة الوثقى أربع مدارس ابتدائية للبنات منها ثلاث بالاسكندرية وواحدة بطنطا ، وبلغ عدد التلميذات فيها الى ١٥ يناير ١٩١٧ = ٣٥٤ تلميذة يتعلمن فى ٢١ فصلا منهن ١٢٨ يتعلمن بالمجان والباقى بالمصروفات (١) ٠

وبدأت سيدات مصر فى الاكتتاب لمشروع انشاء مدرسه الطب العاليه للفتيات (٢) ، وأيقنت الوزارة ان مدارس البنات على أنواعها فى حاجة ماسة الى المعلمات ، ومن هنا رأت ضرورة البحث عن طريق للحصــول على العدد المطلوب منهن ، ومدرسة البنات السنية فى القاهرة هى التى يتخرج منهــا المعلمات للمدارس الابتدائية والراقيــة والمعلمات الأوليه ، لذا رأت الوزارة ضرورة توسيع نطاق التعليم فى هذه المدرسة ٠ وبناء على ذلك قررت الوزارة تخفيض المصروفات المدرسية السنوية بمدارس البنات الابتدائية وجعلها تسعة جنيهات بدلا من اثنى عشر جنيها ، وأدرجت فى ميزانيتها التوسع فى انشاء مدرستين للمعلمات بالاسكندرية والقاهرة ، فافتتحت مدرسة الاسكندرية بمحرم بك . وسار النظام فيها على نظام مدرسة السنية بالقاهرة (٣) ٠

وفى حقيقة الأمر فانه بالنظر الى ميزانية وزارة المعارف أثناء فترة الحرب نجد أنها ارتفعت اد وصلت فى عام ١٩١٨ الى ٥٧٨ر٧٣٣ جنيها بينما كانت قبل الحرب ١٧٦ر٧٣ جنيها ، بالرغم من انقاص الوزارة من مصروفاتها تبعا لظروف الحرب اذ بلغ ما أنقصته ٠٠٠ر٦٠ جنيه بالعدول عن بعض المشروعات واكثار عدد الحصص وانقاص أجر العاملين والكتب وأدوات التعليم (٤) ٠

لكن المسئولين تداركوا الأمر بسرعة وأرادوا أن يذروا رمادا فى الأعين وأن يبعدوا المصريين فى مناوأة السياسة الجديدة للدولة وأن يظهروا لهم فوائد النظام السياسى الجديد الذى خضعت له البلاد فتعمدوا الاهتمام بالتعليم لعله يلهى المصريين عن الاشتغال بالأمور الأخرى ، ولكنهم لم ينجحوا فى ذلك فلم يرض المصريون عن هذه الحركة التعليمية ومضوا يناوئون سياسة انجلترا ٠

---

(١) الاكسبريس ٣٠ أبريل ١٩١٧ ٠

(٢) فتاة الشرق ، مارس ١٩١٧ ، ص ٢٦٢ ٠

(٣) مجلس الوزراء ، جلسة ٢١ يناير ١٩١٨ ، فتاة الشرق ، مارس ١٩١٧ ، ص ص ٢٥٩ ـ ٢٦١ ، La Bourse Egyptienne , 2 Fev. 1917.

(٤) Récueil des doc. off. 1915, pp. 104, 105, The Near East, June 14, 1918, p. 479. ، الأهرام ٢٠ فبراير ١٩١٥ ٠

(ب) الصحافة :

قامت الحرب العالمية الأولى ، وأعلنت انجلترا الأحكام العرفية على مصر ، وغصت السجون بالوطنيين ، وأبطلت بعض الصحف بينما فرضت الرقابة على الأخرى • وكانت صحيفة «الشعب» وهى بديلة صحيفة «العلم» للحزب الوطنى قد خضعت منذ البداية للرقابة الصارمة اذ كانت ذى شعبية بلغت ذرونها من حيث الانتشار والرواج والمكانة الصحفية ، وكان المصريون يتلهفونها لادراكهم باتجاهاتها • لذا كثيرا ما نتردد على ادارتها مندوبون من الداخلية ومأمير من الأقسام ورجال من الشرطة لتفتيشها حيث كان يصل الى الحكومة دائما أخبار وجود منشورات سرية فى ادراتها (١) • وبناء على ذلك اتفق كل من أمين الرافعى رئيس تحريرها مع عبد الرحمن الرافعى وعبد الله طلعت على وجوب وقف صدورها (٢) احتجاجا على الرقابة الصحفية العنيفة •

شرعت ادارة المطبوعات تطلب الغاء الصحف والمجلات التى نتوجس خيفة منها ، فابتدأت عملها باغلاق صحيفة « الاجبشن ناخرختن » الألمانية رسميا بحجة أن بعض الصحف اعتمدت عليها فى نشر الأخبار (٣) • وأظهرت أن هذه الأخبار بالطبع غير صادقة لأنها فى صف ألمانيا • وبدأت تدعى الصحفيين الذين لمست فيهم الجرأة ورأت أن تغلق صحفهم ومجلاتهم فدعت سلامة موسى الى تعطيل المجلة التى كان يصدرها تحت اسم « المستقبل » وهذه المجلة من أرقى مجلات العصر لما فيها من فكر ثقافى واع ، فيقول بصدد ذلك : « ففى ذات يوم وأنا أفكر فى مشكلة الورق طلبتنى ادارة المطبوعات فقصدت اليها غير عابىء بما يحدث ، وكانت الاشاعات كثيرة بشأن تعطيل الصحف والمجلات ، وهناك قعدت أمام أحد الموظفين السوريين الذى حيانى وطلب لى القهوة وجعل يلاطفنى بكلمات عذبة ، ويسألنى عن المجلة وهى رائجة أم أنى أخسر فيها • ثم بعث فى طلب رجل انجليزى وجاء هذا وقعد قبالتى يستمع دون أن يتكلم ثم شرح لى هذا الموظف حرج الموقف وضرورة وقف « أى تعطيل » بعض المجلات ، ومع أنى لم أكن أبالى التعطيل كما قلت فانى وجدت فتنه سيكولوجية فى متابعة البحث والمناقشة وخاصة أمام هذا الانجليزى ، فأبديت أنى قادر على اصدار «المستقبل» مهما كانت الصعوبات ، فتلاحظ الاثنان وأنا مفتون بالموقف وأصررت على أنى سأصدرها الى آخر الحرب وأنى سأدعو فيها الى الاشتراكية،وعاد الموظف السورى يخاطبنى فى ملاحظة مسرفة ويقول انى أستاذ وعاقل وأصررت أنا على العناد • وأخيرا صرح من غير ملاحظة بأن ادارة المطبوعات تستطيع التعطيل وأن المناوئين

(١) الشعب ٧ سبتمبر ١٩١٤ •

(٢) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ، ص ٢٤ •

(٣) المحروسة ١٨ أغسطس ١٩١٤ •

للحكم فى الظروف الحاضرة الشاذة يمكن نفيهم أو اعتقالهم ، وكان هذا ما أردت أن أسمعه فنهضت وقلت انى سأعطل المجلة وخرجت » (١) ٠

وسلكت وزارة الداخلية منذ بداية الحرب ، فى خطة جديدة وهى ألا تسمح باصدار صحف جديدة الا لمن تود ومتى تريد وأصبح لها على الصحفيين بعد ذلك شروط وعهود ، فحرمت التعرض للسياسة والكتابة فى المسائل الدينية والتدخل فى الشئون الادارية وأباحت له فيما عدا ذلك الكتابة فى التاريخ والفلسفة والعلوم والآداب والاصـــلاح والعمران والنقد والتقريظ والتربية والتعليم (٢) ٠

وامتلأت الصحف بما يهواه الانجليز من الاشادة بانتصاراتهم . فلم يكن هناك أى خبر « حـربى » صحيح انما زيف حتى تخرج الهزيمه التى كانت تقع بالحلفاء كأنها انتصار رائع لهم ويقول سلامة موسى ـ كشاهد عيان ـ ازاء ذلك : « كنا نقرأ الأخبار كما يحب الانجليز أن نفهمها ، لذلك كانت الرقابة صارمة شاملة فقد اشتركت فى بعض المجلات الأمريكية كى أصل عن طريقها الى الأخبار الصحيحة فكانت اما تمنع من الوصول واما تنقص أوراقها التى تحمل أخبارا غير ملائمة للانجليز » (٣) ٠

هكذا فرضت الرقابة على الصحف ، وضاعف من شدتها أن الرقيب لم يكن من صميم البلاد بل كان هو الخصم الطبيعى ، فكانت الرقابة تتبع مباشرة لسلطات القيادة البريطانية وهى سلطات لا يعنيها أن تتنفس صحف مصر أو أن تختنق أنفاسها ، ان كل الذى يعنيهـــا أن تكون الصحف مجرد نشرات لأنباء الانتصارات الحقيقية أو المزيفة للجيوش البريطانية أو الجيوش الحليفة لها ، ولم يكن الغرض من القيود المفروضة على الصحافة خلال الحرب مقتصرا على أن تجنب الصحف الخوض فى مسائل حربية أو من شأنه الاخلال بالأمن العام بل الغرض أوســـع وأعم من ذلك بكثير حتى كان يتناول المسائل الســـياسية ، فمن التعليمـــات مثلا ما يأتى : « لا يجـوز نشر أى فصل أو فقرة يراد بهـــا الاشارة تصريحا أو تلميحا الى عدم اعتراف بعض الدول بالحالة السياسية الحاضرة فى القطر المصرى » (٤) ٠

وكانت السلطات البريطانية لا تعنى بأن تظهر الصحافة المصرية بالمظهر اللائق بأى صـــحافة فى العـــالم ، فهى دون سائر صـــحف الدول الحليفـــة تظهـــر ومساحات كبيرة من صفحاتها بيضـــــاء بسبب المشاطبات التى يشطبها

(١) عكاظ ٩ أكتوبر ١٩١٤ ٠
(٢) سلامة موسى : المرجع السابق ، ص ص ١١٨ ، ١١٩ ٠
(٣) البلاغ ١٢ ، ١٣ نوفمبر ١٩٣٢ ٠
(٤) سلامة موسى · تربية سلامة موسى ، ص ص ١٥٥ ، ١٥٦ ٠

الرقيب ، وزاد البياض المتخلف عن الحذف عقب اعلان الحماية البريطانية ، والرقيب يقرأ مواد الصحيفة بعد الفراغ من اعدادها للطبع فلم يكن يسع الوقت للمحررين لاحلال مواد جديدة مكان ما حذفه الرقيب .

ويصف أمين الرافعى الرقابة فى فترة الحرب يقول : « يكفى أن يرى الرقيب — ورأيه الأعلى — فى جملة أو مقالة ما يتوهم أنه « يحايل الأفكار » فتجد قلمه الأحمر أو الأزرق معدل بهدم بناء المقالة من أولها أو فى وسطها أو فى آخرها أو فيها كلها ، ولا يهمه بعد ذلك أن يستقيم معنى ما تركه بغير خوف أو لا يستقيم » (١) .

هذا التصرف الرقابى خلق فى الجو الصحفى لمصر نوعا من التواكل ، فلم نظهر على الصحافة المصرية خلال فترة الحرب أية بادرة لمحاولة الرقى بالفن أو بالأسلوب الصحفى أو سد الفراغ الذى كان ينشأ عن شطب الرقيب ، فضلا عن الأخبار الخارجية ذاتها كانت تأتى للصحف على صورة بلاغات رسمية صادرة عن القيادة البريطانية ، ويبدو أن الصحفيين كانوا فى فترة الحرب يعيشون فى حيرة فلا هم يقدرون على امتداح السلطات البريطانية التى تعتبر سلطات معتدية على البلاد ولا هم يستطيعون مهاجمتها بسبب وطأة الأحكام العرفية ، هذا بالاضافة الى أنهم لم يكونوا فى جو وطنى تبدو فيه مظاهر السياسة الوطنية اذ كانت الأحكام العرفية البريطانية قد شردت كل الوطنيين وبالتالى نستطيع أن نقول ان الصحافة المصرية كانت يومئذ فى محنة .

وكانت صحيفة الوقائع المصرية وهى الصحيفة الرسمية لمصر تكاد تكون انجليزية ، فتنشر الأوامر والاعلانات العرفية علاوة على أنها أصبحت ميدانا لنشر اعلانات السلطة العسكرية وطلباتها التى تنتهى بجملة معتادة هى «God Save the King»

أما صحيفة الأهرام فقد مورس فوقها الضغط الشديد والرقابة الصارمة ، فكثيرا ما وجدت مسافات واسعة بيضاء بفعل الرقابة لكنها — بالرغم من ذلك — كثيرا ما كانت تنشر بعض الأنباء على مسئوليتها ودون رغبة الرقيب ، فاذا تبين لها أن الخبر يحتاج لتكذيب أو تصحيح عادت فنشرت من نفسها التكذيب أو التصحيح (٢) .

ويؤكد لنا ذلك خطاب من ادارة المطبوعات الى أحد المسئولين الانجليز جاء فيه : « بمجرد وصول خطابك المؤرخ فى ٢٤ الجارى اتصلت بمدير الأهرام لأحدثه بشأن الخبر الذى نشر فى هذه الجريدة فى ٢٧ الجارى ولقد لفت نظرى « تقلا بك » أن الأهرام قامت بنفسها بتكذيب الخبر المذكور فى رسالة نشرتها يوم

---

(١) الأخبار ١٥ مايو ١٩٢١ .

(٢) ابراهيم عبده : جريدة الاهرام تاريخ وفن ، ص ٥٣٥ .

١٧ الجارى » (١) • كذلك خضعت التلغرافات الخصوصية التى كانت ترد للأهرام لمراقبة المطبوعات وحتى التعليق عليها أيضا كان يعرض على المراقبة (٢) •

كانت الأهرام تحاول أن نعبر عما يدور بأذهان الناس فتلقى قلم الرقيب بالمرصاد ، وكثيرا ما نشأت المشادة بينهما ، وتعددت الشكاوى من سلطة الرقابة وأنذرت الأهرام وزاد الخلاف حدة حين نبين للمطبوعات أن الأهرام تنشر أنباء يشطبها الرقيب كنشرها لبعض الأنباء مما أثار ضجة فى دوائر الرقابة التى أعدت ذلك اعتداء على سلطتها . وبالرغم من ذلك الا ان الأهرام عاودت نشر الممنوع كالخبر الذى نشرته فى ٢ مارس ١٩١٦ تحت عنوان « تلامذة مدرسة الحقوق والعفو عنهم » اذ أرسل رئيس قلم المطبوعات الى الصحيفة ليستفسر عن السر فى النشر فكان الجواب هو حصولها على ترخيص شفوى من رئيس الوزراء بذلك (٣) •

وكثيرا ما كانت الرقابة على المطبوعات تشكو من الأهرام لتأخير عرض « البروفات » عليها ، اذ كانت تجبر الرقيب على انتظارها حتى الرابعة صباحا وذلك بعكس المقطم التى كانت تقدم « بروفاتها » فى العاشرة مساء وحتى قبل ذلك (٤) •

وازدادت المنازعات بين الرقيب والمحررين اذ كان الرقيب يتعرض لكل أبواب التحرير حتى الاعلانات ، وقلما كان شر الرقباء ينال الصحف الأخرى كالمقطم اذ أنها نصدر طبقا لما تريده السلطة العسكرية ، فمن قبل الحرب وهى على سياسة تفاهم مع الانجليز ، وحينما ظهرت تباشير الحرب الأولى جندت هذه الصحيفة لخدمة أغراض انجلترا وللدعاية لها ، ومن قبل اعلان الحماية نشرتها فى مقالاتها وشجعتها ، فكتبت تحت عنوان (أهل مصر والتغيير المنتظر) تتنبأ فيه بفرض الحماية الانجليزية على مصر واعتبارها نعمة عليها ، وعندما أعلنت الحماية تجرأت المقطم وأذاعت هذا النبأ تحت مانشيت كبير بعنوان (بشرى للأمة المصرية) فى ملحق يوزع فى الشوارع والطرقات ، ولو كان الشعب المصرى فى ذلك اليوم منظما أو له قيادة لخرجت الألوف الى جريدة المقطم تحرقها وتنسفها •

أما صحيفة الجريدة وهى لسان حزب الأمه ، فقد أخذت فى بداية الحرب تؤيد الحلفاء ، وكان لطفى السيد يعيب على الألمان بقوة غزوهم بلجيكا واعتدائهم على حيادها ، واعتقد أن مباحثات تجرى بين رشدى

(١) محفوظات ادارة المطبوعات ، ٢٥ فبراير ١٩١٥ •
(٢) نفس المصدر ، ١٦ فبراير ١٩١٦ •
(٣) نفس المصدر ، ١٨ يناير ، ٢ مارس ١٩١٦ •
(٤) نفس المصدر ، ١٣ ابريل ١٩١٥ ، ٩ أكتوبر ١٩١٧ •

والانجليز للتصريح بأنهم متى انتصروا فى الحرب جلت انجلترا عن مصر واعترفت باستقلالها التام ، وعندما بدأت المقطم تروج لفكرة أنه اذا حيرت مصر بين من يحكمها من الدول فانها تختار انجلترا ، أخذت الجريدة تكتب كتابة مخففة فى هذا المعنى ، فقد كانت تذكر أن مصر نريد الاستقلال ، فاذا لم يكن السبيل اليه ميسورا ، ولابد من أن تحكمها أمة أخرى فانجلترا خير أمة ترضاها مصر ، ومع أن لطفى السيد لم يكن هو الذى يكتب حول هذا المعنى الا أنه مسئول عن الصحيفة وعن كل ما ينشر فيها (١) ·

وبالنسبة لصحيفة الأهالى ، فقد كانت قبل الحرب العالمية الاولى تنتهج الاعتدال مع الانجليز · ولكن هذه السياسة تعرضت بعد أربع سنين لخطرين الخطر الأول قيام الحرب الأولى التى كانت عاملا هاما من عوامل تكذيب فكرة الاعتدال مع الانجليز لما ارتكبته السلطات البريطانية من وسائل العنف والاكراه مع المصريين فى سوقهم الى ميادين القتال دون مبرر ، وفى اغتصاب المواد التموينية وأخذها من أفواه المصريين لحساب القوات البريطانية المحاربة · أما الخطر الثانى الذى تعرضت له هو اندلاع ثورة ١٩١٩ وهنا ليس مجالا لشرحه · ومرت فترة الحرب على الأهالى وهى فى حالة ركود اذ لم يبق لها مورد تعيش منه غير التعاقد على نشر الاعلانات القضائية من المحكمة المختصة، وقد عانت الأهالى علاوة على نقص مواردها من نقص الورق حتى صدرت فى ورقة واحدة سنة ١٩١٧ فى ورق خشن وضارب الى السمرة فى حجم نصفى، واضطرت فى أحوال أخرى الى الاحتجاب عن الظهور من أواخر أكتوبر حتى ٢٠ نوفمبر ١٩١٨ ·

وعن صحيفة وادى النيل وصاحبها « محمد الكلزه » فيكفى أنه خدم السلطة العسكرية فى أثناء الحرب حتى خفت عليه الرقابة ونال بعد ذلك وساما انجليزيا عالى الشأن · وبخصوص صحيفة مصر ، فكثيرا ما عطلت لكونها فى بعض الأحيان تنشر مقالا لم يطلع عليه الرقيب أو مثلا لنشرها سطورا كان الرقيب قد حذفها (٢) ·

وتعرضت صحيفة البصير التى كانت تصدر بالاسكندرية لتهديدات الرقابة وانذاراتها المتعددة على نشرها حوادث ليست على درجة من الأهمية مثلما فعلت عندما نشرت فى ١١ يناير ١٩١٨ عن شخص ارتدى لباس عسكرى ـ وهو ليس من العسكريين ـ فاعتبرت الرقابة أنها بذلك النشر خالفت نص المادة السادسة عشرة من التعليمات المرسلة فى ٣١ أكتوبر ١٩١٧ والقاضية بعرض

---

(١) محمد حسين هيكل : المرجع السابق ، ص ص ٦٥ ـ ٦٧ ·
(٢) الأفكار ٢٢ اغسطس ١٩١٥ ·

جميع الأخبار المتعلقة بالمجالس الحربية أو العسكرية على رئيس مراقبة المطبوعات قبل نشرها (١) ٠

وفى عام ١٩١٦ أصدرت السلطة العسكرية البريطانية صحيفة الكواكب وذلك لخدمة مصالحها فى مصر ولبيان فضل انجلترا عليها ، وجعلتها سياسية أدبية أسبوعية وقد رأس تحريرها الشيخ محمد القلقيلى ٠

أما الصحف الأجنبية فى مصر وبالذات الانجليزية فكانت بطبيعة الحال تعمل لصالح الانجليز فنرى The Egyptian Gazette منذ بداية الحرب استنكرت فكرة حياد مصر ، وطالبت باعلان الحماية عليها وذلك بعد نشوب الحرب بيومين فقط ٠ وذلك ـ كما تقول ـ حتى لا يتأثر موقف مصر اذا ما دخلت تركيا الحرب الى جانب ألمانيا ، وأتت على رشدى لنبذ فكرة الحياد لأن دولة الاحتلال تحارب ، كما طالبت بفرض الرقابة على الصحف والرسائل حماية لمصالح الحلفاء (٢) ٠

وعندما أعلنت الحماية على الفور أبانت أنها استقبلت بالرضاء والهدوء وارتاحت كثيرا لعزل عباس ورجحت حسين عليه ٠ وظلت الجازيت تردد طيلة الحرب أن انجلترا صديقة الاسلام وألمانيا عدوته ، وتحث المصريين على الولاء لها ، ونفت ما تردد من أن ثورة وطنية وشيكة الوقوع فى مصر ، وتفرغت الجازيت شأنها شأن جميع الصحف الأجنبية والوطنية لأنباء الحرب وميادين القتال ونشرت المقالات المتصلة فى تمجيد الحلفاء والثناء على بسالتهم ٠ وكانت شئون مصر السياسية لا تحتل من أعمدة الجازيت مكانا هاما بل كان يقتصر اهتمامها على الشئون المالية وأنباء التجارة وأسعار القطن والأوراق المالية ٠

وتأتى صحيفة The Egyptian Mail لترحب بالحماية حتى قبل اعلانها وتصف تصرف عزل عباس بالحكمة والعقل (٣) ، وتؤيد صحيفة The Egyptian Morning News الحلفاء وتنادى بوجوب فرض الأحكام العرفية على مصر فى حالة دخول الدولة العثمانية الحرب ، كما طالبت بنفى الوطنيين الذين أسمتهم « المهيجين » الى تركيا ، وهاجمت صحيفة الشعب وباركت عزل عباس واعلان الحماية (٤) ٠

وسارت الصحف الفرنسية فى نفس الطريق تؤيد وتحبذ وتبارك أعمال انجلترا فى مصر ، ورغم التأييد المطلق لتلك الصحف من السلطة الانجليزية

---

(١) محفوظات ادارة المطبوعات ، ١٣ يناير ١٩١٨ ٠

(٢) The Egyptian Gazette, August 1, 6, 7, 1914.

(٣) The Egyptian Mail August 6, 1914.

(٤) The Egyptian Morning News, August 13, 1914.

الا انها خضعت للرقابة فكثيرا ما نرى بين صفحاتها أماكن بيضاء ألغيت بفعل الرقيب ٠

من هذا نرى أن انجلترا أستطاعت فرض سيطرتها وأحكامها العرفيه في هذه الفترة وكممت أفواه الصحفيين وشلت أقلامهم وأبقت ما تراه هي على هواها وما هو متفق مع مصالحها معتقدة ومقتنعة أنها بذلك تقضى على أى حركة يمكن لها أن تثير الشعب المصرى لكن ما لبث أن وضعت الحرب أوزارها حتى تغير الوضع فى مصر ودخل فى مرحلة جديدة ٠

(ج) الفكر :

تعددت الانجاهات الفكرية فى هذه المرحلة الصعبة التى مرت بها مصر ، فانصب الاتجاه الأول على النزعة الاشتراكية التى سادت وسيطرت على عقول بعض المفكرين ، وظهر ذلك بوضوح فيما كانت تنشره صحافة ذلك الحين من مقالات متفرقة ان دلت على شيء فانما تدل على ان موضوعات جديدة دخلت كمادة دسمة فى أحاديث الناس يناقشونها ويجدون فيها بصيصا من الأمل فى المستقبل وربما يكون مرد ذلك كله الى الظروف الاقتصادية الصعبة التى مرت بها مصر هذا من ناحية ، وظهور بعض المفكرين الاشتراكيين من ناحية أخرى ٠ أما الظروف الاقتصادية فقد لمسناها فيما سبق ٠ وعن الاشتراكيين فكانوا كثيرين منهم شبلى شميل ونقولا حداد واسماعيل مظهر رفرج أنطون وولى الدين يكن وسلامه موسى ، ونشر الأخير فى عام ١٩١٣ أول مؤلف عن الاشتراكية رد فيه على الاتهامات التى توجه الى هذا المذهب ، والكتاب فى حجمه أقرب الى المقال مما جعل تأثيره محدودا فى تيار الفكر الاشتراكى ٠ وكان سلامة موسى مؤمنا بالعلم الحديث ، وما يقتضيه من ضرورة تطوير الأدب والحياة بأسرها مستهدفا من وراء ذلك كله أن يقيم بناءا جديدا على أنقاض البناء القديم ، ولم يأل جهدا فى كل ما كتب ليقاوم الأسلوب القديم فى التفكير والكتابة ٠

وفى أوائل عام ١٩١٥ صدر كتاب : « تاريخ المذاهب الاشتراكية » لمؤلف ظل مغمورا فترة طويلة من الزمن هو مصطفى المنصورى ، لم تتح له ظروف الشهرة وذيوع الصيت ولا الانضمام الى حزب من الأحزاب ولا حتى الحزب الاشتراكى المصرى الذى تكون عام ١٩٢١ لسبب بسيط جدا هو أنه كان يعمل بالوظائف الحكومية بينما زملاؤه يشتغلون بالصحافة متحررين من كل قيد ، فضلا عن أن الاشتغال بالصحافة يتيح للكاتب الفرصة كى يتعرف جمهور كبير من القراء لآرائه وأفكاره ، لذا فان أحدا من المثقفين لم يدر بالمنصورى ولم يعرف عنه شيئا اللهم الا المهتمون بدراسة تطور الفكر الاشتراكى المصرى ، وفى كتابه أحاط بالتيارات الاشتراكية والفكرية والتنظيمية التى عرفتها أوربا ٠ وايمان المنصورى بالاشتراكية كحل ضرورى لعلاج المشكلات ، والأمراض الاجتماعية يبدو واضحا من حديثه عما فعلته الاشتراكية لاصلاح المجتمع ، وقدم المنصورى

برنامجا اشتراكيا تضمن العديد من الاصلاحات السياسية والاجتماعية والقضائية وما أسماه بالاصلاحات الديمقراطية (١) ٠

وبذلك كان المنصوري على دراية واحساس بالأمراض التى تنهش المجتمع وتنخر فى عظامه كالسوس ، وهذه المطالب فى معظمها تمثل حلم مثقف مدرك للأفكار الاشتراكية التى سبق لها أن تحققت فى بيئات أخرى ٠ وتعبر فى نفس الوقت عن أماني وتطلعات انسان درس مختلف المذاهب الاشتراكية وتعرف على اتجاهاتها وأعلامها ، ومن هذا نرى أن المنصورى كمفكر اشتراكى رائد تمكن رغم الظروف القاسية التى أحاطت به من أن ينشر آراءه تلك ويطبع من كتابه ثلاث آلاف نسخة ، وانه نادى فى عهد لم يألف هذا النداء بعد بآراء كانت تعد الى ذلك الحين خيالية يوتوبية لا سبيل الى تحقيقها أبدا ٠

والى جانب هذه المحاولات المجتمعة نجد مقالات متفرقة فى صحف ومجلات هذه الفترة تدور حول ذلك ، فتقول مجلة البيان : « ان غرض الاشتراكية الأكبر هو عدم حرمان العمال من المصادر الطبيعية للحياة ومن التعليم ٠٠٠ ان النظام الحالى يقضى الى تقسيم المجتمع الى طبقتين أصحاب ملايين يقف فى وجوههم جمهور من الفقراء المعدمين ٠٠ الان يجب أن تضع الأرض ورأس المال تحت حماية المجتمع وفى حوزته (٢) ٠

وقال حسن كامل الشيشنى داعيا للاشتراكية « ٠٠ ان التعاون يرمى الى اقتصاد كبير من النفقات وهو الوسيلة الممهدة للاشتراكية وهو يرمى الى تعميم امتلاك رؤوس الأموال من بين أفرادها » (٣) ٠

وفى الهلال كتب نقولا حداد تحت عنوان « الاشتراكية ما تطلبه وما لا تطلبه » مقالا شرح فيه مفهومية الاشتراكية وانها مبنية على سنة اجتماعية اقتصادية منصفة ، وان الوسيلة المشروعة الوحيدة لانتاج الثروة هى العمل فقط (٤) ٠

وراحت الآنسة « مى » تنادى هى الأخرى بالاشتراكية وتبين فضل الاخاء والمساواة وبأن الاخاء الدواء الشافى لآلام البشرية والمحرر الوحيد للعالم يساوى بين غنيهم وفقيرهم وقويهم وضعيفهم (٥) ٠

وكانت هناك عناصر من أبناء الطبقة الغنية تشارك فى هذه الأفكار مدافعة عن فكرة الحرية والديمقراطية ٠ فكتب هيكل فى السفور تحت عنوان

---

(١) وادى النيل ٦ ابريل ١٩١٥ ٠
(٢) البيان ، مارس ١٩١٦ ، ص ص ٥٩ ، ٦٠ ٠
(٣) الشباب ، ابريل ١٩١٦ ، ص ٤٠٩ ٠
(٤) الهلال ، يوليو ١٩١٨ ، ص ص ٧٨٣ ــ ٧٨٥ ٠
(٥) فتاة الشرق ، مارس ١٩١٨ ، ص ٢٢٥ ٠

« الاشتراكية تخطو الى الأمام » مقالا بين فيه أن الاشتراكية تمحو أصول الظلم نريد الحق والعدل والحرية وتطالب للناس بأكبر حظ من السعادة (١) ٠

وحذى حذوه منصور فهمي فى السفور بتمجيد الاشتراكية والأمل فى أن نعم بين الأمم جميعا (٢) حتى المقطم طالبت ألا تكون مصر بمعزل عن الاشتراكية (٣) ٠

وأن من يتتبع ما نشر فى البيان ، الفجر ، السفور ، وادى النيل سيجد أن الاشتراكية كانت حلما جميلا يراود مخيلات الكتاب فعبروا عنه منفردين وفى أوقات متفاوتة ونادوا بضرورة الأخذ بالنظام الاشتراكى ، وكثيرا ما كانت المقالات تنشر دون توقيع من صاحبها ٠

وبذلك قويت هذه النزعة ولقيت صداها فى الفكر المصرى فى ذلك الوقت فكانت مادة دسمة يتحدث بها الناس فى مجالسهم يجدون فيها بصيصا من الأمل فى المستقبل وطرب بها المصريون وتمنوا انتشارها ٠ فهى رمز للنضال والكفاح والتمرد على الظلم ورفض حياة الخضوع والاستسلام ٠

وقامت الصحف بحملة ضد الأغنياء ، فقالت الأهرام : « أما البلاد فمع حالتها الحاضرة يوجد بها أغنياء كثيرون يملكون أطيانا وعقارات جمه ويستطيع كل منهم أن يتبرع بجانب عظيم من أمواله الوافرة تنفق على فقراء البلاد وهذا لا يتم الا بأن تأمر الحكومة بتأليف لجنة لكل مركز قوامها العمدة والأعيان والتجار والعلماء وتعين هذه اللجنة لجان فرعية تؤلف لهذا الغرض وتفرض هذه اللجنة على كل مقتدر يدفعها نقودا أو غلالا لاعانة الفقراء » (٤) ٠

وحدث فعلا هذا ولكن بصورة أخرى « فقد علم محمد سعيد بك مأمور مركز ملوى أن جماعة من أهل بندر ملوى لجأوا الى تكوين عصابة من أشقياء المركز لضرب ضريبة على الأغنياء لأن شقاء الحياة والضائقة المالية أثرت عليهم تأثيرا شديدا » (٥) جرى هذا بناء على تشبع الرأى العام ٠ وامتلأت صحافة الفترة بالشعر والأزجال التى تفيض بالمبادىء الاشتراكية بل وبالثورة على الوضع الاجتماعى والهجوم على الأغنياء ٠ وتأصلت هذه النزعة لدى أغلبية الشعب المصرى فى هذه الفترة ، فبعد أن أصبح العمال فى الطرقات عاطلين تعددت الحوادث نظرا لضيق هذه الطبقة بهذا الوضع وتطلعها للنظام الاشتراكى : «بينما كان أحد الموظفين لادارة سكة حديد القبارى يمر بين شون الأقطان القريبة

---

(١) السفور ١٧ يناير ١٩١٦ ٠
(٢) نفس المصدر ، ١٤ يونيو ١٩١٧ ٠
(٣) المقطم ٢٤ يوليو ١٩١٧ ٠
(٤) الأهرام ٦ سبتمبر ١٩١٤ ٠
(٥) الوطن ١٥ سبتمبر ١٩١٤ ٠

من ترعة المحمودية قاصدا كوم الشقافة بين الغروب والعشاء فاجأه أحدهم وطلب منه ربع ريال فلما رفض أن يجيبه الى طلبه قال له : كيف أنك تحمل هذه الساعة الذهبية الثمينة وهذه السلسلة القيمة ، وهذا الخاتم الغالى ونحن وأولادنا نعانى الآلام من الجوع ومر الفاقة ؟ » (١) .

وقد وصل الأمر الى أنه حدث أن « جماعه من طلاب المدارس فى القاهرة اشتغلوا بنشر مطبوعات تحتوى على انتقادات جارحة على بعض اخوانهم من ذوى اليسار والجاه وأوعزوا الى ماسح أحذية بتوزيع هذه المنشورات أمام مدرسة درب الجماميز وراح البوليس يقبض عليهم » (٢) .

من هذا نرى أن التيارات الجديدة التى تعرض لها المجتمع المصرى قد خلقت ايديولوجية معينة لم تسيطر فقط على المثقفين بل أصبحت نبراسا يهتدى به معظم المصريين .

وكان الاتجاه الثانى التحرر الفكرى من القيود التى كانت مفروضة على المجتمع فيما يختص بالمرأة حيث أنه نتيجة لاعلان الحماية البريطانية على مصر والغاء السيادة العثمانية حدث تغيير جوهرى هو تحرير القضاء الشرعى من التقيد بالمذهب الحنفى الذى كان معمولا به وفقا للتبعية العثمانية ، فأصبح مأخوذا من المذاهب الأربعة وهى نفس الفكرة التى سعى اليها محمد عبده وكانت الدولة العثمانية عقبة أمام التنفيذ . وبذلك انفصلت المحاكم الشرعية عن محاكم الآستانة وعين سلطان مصر قاضى مصر الأكبر وتألفت لجنة من علماء الأزهر ومدرسى مدرسة القضاء الشرعى ومدرسة الحقوق برئاسة وزير الحقانية لوضع قانون الأحوال الشخصية لأحكام الزواج تستمد مواده من فقه المذاهب الأربعة(٣) . ونتيجة لذلك أصبح وضع المرأة أحسن حالا من ذى قبل ، فاتسعت حقوقها ، وأصبح لها الكيان الذى أعطاه الاسلام لها .

وشغلت قضية السفور والحجاب مفكرى هذه الفترة وأحدثت صراعا عنيفا ، فأصبح هناك فريقان من أيد الحجاب وانتصر له وعزا ما انتشر من فساد الى السفور ، وآخر دافع عن السفور وضرورة تحرير المرأة ، فكانت معارك قلمية عنيفة استمرت طوال الحرب وانضم لكل حزب أنصاره . وظهرت صحيفة السفور وانحصرت فى مجال الانتصار لحرية المرأة والمناداة بوجوب سفورها (٤) ، وعلى نفس الدرب سارت بعض الصحف الأخرى وخاصة تلك التى انصبت على الاهتمام بالمرأة وخرجت منها الصيحات « أيها النساء اخلعن الحجاب وضعن

(١) المؤيد ٦ سبتمبر ١٩١٤ .
(٢) الأمة ٧ يناير ١٩١٦ .
(٣) الاكسبريس ٧ فبراير ١٩١٥ .
(٤) السفور ٤ يونيو ١٩١٥ .

مكانه الفضيلة » (١) ، ومضى الشعراء ينادون بالسفور ، فيقول طه السباعى عن الحجاب :

ان كان حسنا ترغبون حصانة   فالعلم والأخلاق أفضل برقع
أو كان قبحا فاتركوه وشأنه   فالشوك ليس بحاجة لموشع(٢)

وكانت الكاتبة الآنسة « مى » على رأس المنادين بتحرير المرأة ، ففى حديث لها مع سلامة موسى تقول : « يجب أن تربى المرأة المصرية على تفكر واننا نريد جمعيات تجتمع فيها النساء للمناقشة ، وبذلك يضطرون الى التفكير بوعى وادراك » (٣) • وانبرى الكثير فى تجنيد المقالات واقامة الحجج والبيانات على وجوب حرية المرأة وبضرورة اختلاطها بالرجل فى المجتمعات والغاء انتقالها من رق أهلها الى رق زوجها بدون حرية (٤) •

تبع ذلك المطالبة بالعدل والمساواة فى الحقوق والواجبات بالنسبة للرجل والمرأة ، وماجت البلاد بتلك الحركة النسائية ، فنرى أسماء منصور تتحمس الى تلك القضية وتخطب فى الجمعيات العامة وتطالب بذلك وتنتقد سلطة الرجل المسيطرة المتحكمة بل وتدعو المرأة للخروج الى ميدان العمل (٥) •

وارتفعت صيحة وجوب تعليم المرأة ونبذ القديم من العادات والتقاليد حتى المسئولين نادوا بوجوب تعليم البنات (٦) وتولت لواء الزعامة فى هذه المسألة لبيبة هاشم صاحبة مجلة فتاة الشرق •

وانتشرت الجمعيات النسائية وشاركت فيها المرأة بكل طاقتها وقد أرجع ذلك الى مجهود الدعوة الصحفية والكتاب الذين نادوا بتأسيسها ، وشاركت حرم اسماعيل بك عاصم فى هذا الأمر اذ جمعت أعدادا من السيدات المصريات فى منزلها وألفن جمعية أدبية غايتها السعى فى ترقية المرأة والاهتمام بمستقبلها لتساوى المرأة الغربية فى المدنية والارتقاء • وتبع ذلك عدد ليس بالقليل من الجمعيات وتعددت جلساتها ، وكثر عدد العضوات فيها (٧) •

---

(١) الجنس اللطيف ، مارس ١٩١٨ ، ص ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، البيـــان ٢٠ فبراير ١٩١٧ ، ص ص ٧٥ ، ٨٦ ، ٨٧ •
(٢) السفور ١٠ مارس ١٩١٦ •
(٣) المستقبل ٩ اغسطس ١٩١٤ •
(٤) المنار ، ابريل ١٩١٥ ، ص ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ •
(٥) الجنس اللطيف ، سبتمبر ١٩١٧ ، ص ص ١٠١ ـ ١٠٦ ، مارس ١٩١٨ ، ص ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ •
(٦) نفس المصدر ، مارس ١٩١٥ ، ص ٣٢٩ ، السفور ١٨ يونيو ١٩١٥ ، الكوكب ٦ نوفمبر ١٩١٧ •
(٧) المنار ، يناير ١٩١٧ ، ص ٥١ ، فتاة الشرق ، فبراير ١٩١٧ ، ص ٢١٩ ، Les Nouvelles, 3 Mars, 1917.

وكانت النتيجة أن خلع معظم النساء الحجاب وخرجن بالملابس الملونة وذهبن الى المجتمعات وشاركن فى الأحاديث وأصبح يسمع لرأيهن وكان ذلك أولى الخطوات التى مهدت للمرأة أن تلعب دورا بارزا فى ثورة ١٩١٩ ، والفضل يرجع الى التحرر الفكرى الذى انتشر فى مصر ابان ذلك الوقت ، لكن ذلك لم يمنع تمسك البعض بتفكيره الذى انصب على التمسك بالقديم ٠

(د) المسرح :

شهدت فترة الحرب العالمية الأولى فى مصر نهضة كبيرة فى المسرح المصرى خلفتها تلك الأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى عانى منها المجتمع اذ كان لابد من وجود ما يخفف من آلام الناس ويرفه ويعزيهم فى وضعهم وليعبر عن كبتهم وضيقهم وتبرمهم من تلك الأوضاع التى عاشوها فوقع عبء ذلك على المسرح الذى لعب دورا مهما فى هذه الفترة الحرجة من تاريخ مصر ، فوجدت نهضة مسرحية جديدة على يد أفراد يعدون من أعمدة المسرح الحديث ٠

وأصبحت القاهرة فى حركة دائمة اذ تقول الاكسبريس : « فاذا قضى الانسان يومه مشغولا بعمله ففى الليل يقضيه مع عدد كبير فى المسارح التمثيلية والموسيقية ويمكن له أن يتنقل من مسرح بريطانيا الى الكورسال الى كازينو دى بارى الى الأوبرا السلطانية ، ومن نادى الألعاب الرياضية الى نادى الموسيقى الشرقية الى نادى الفنون الجميلة ، ومن جوق عكاشة الى جورج أبيض الى عبد الرحمن رشدى الى جوق الريحانى الهزلية الى منيرة المهدية الى توحيدة المطربة » (١) ٠

وفى عام ١٩١٤ اتفق كل من جورج أبيض والشيخ سلامه حجازى على تأليف جوق « أبيض وحجازى » فمثل رواية « صلاح الدين الأيوبى » ، « عايدة » لكن ما لبث جورج أبيض أن كون لنفسه فرقة خاصة فى عام ١٩١٦ مثلت الأدب الغربى مثل « روى بلاس » لهوجو وترجمها نقولا رزق ومسرحية « قيصر وكليوباترة » لبرنارد شو التى ترجمها ابراهيم رمزى (٢) ٠

وازداد الاقبال على المسارح بشكل لم يكن مألوفا قبل الحرب « ان المسارح فى كل ليلة تذاكرها مستوفاه من قبل الميعاد اذ أن الاقبال عظيم جدا عليها فى هذه الأيام ، وهذه الحال لم يألفها صاحبها قبل الحرب ، ان هذه المسارح فى مصر تبيع أوراق دخولها للطالبين قبل الموعد بأربع وعشرين ساعة » (٣) ٠

---

(١) الاكسبريس ٢٤ فبراير ١٩١٨ ٠

(٢) د٠ محمد مندور : المسرح ، ص ٤١ ٠

(٣) الاكسبريس ، نفس العدد ٠

وفى أثناء الحرب فكر جماعة من الماليين فى انشاء شركة ترقية التمثيل العربى لتقوم بتمثيل روايات من جميع الأنواع غنائية وغير غنائية على أن نكون كل رواياتها مؤلفة ولها صبغة مصرية أو شرقية ، وكان من أنجح التمثيليات التى قدمتها رواية « الراهب المتنكر » عرضت على مسرح الأوبرا ثلاث مرات فى موسم ١٩١٦ وكتبها أمين الخولى وكان وقتذاك طالبا بمدرسة القضاء الشرعى (١) .

وانتعشت حركة التمثيل فى مصر لدرجة لم تعهدها فى أى وقت من الأوقات ، وفى عام ١٩١٧ بلغت الجوقات مبلغا راقيا من الحركة الأدبية والماديه ولا سيما الجوقات الجدية منها ، « اذ كانت الجوقات الهزلية محرزة من النجاح بينما الجوقات الجدية نائمة حتى ذلك العام ثم ما لبثت أن ظهرت فى الأفق منبهه قدرتها وعظمتها » (٢) .

ودخل المثقفون ميدان المسرح ، فمن بينهم كان المحامى والمهندس والأديب ، فعلى سبيل المثال كان عبد الرحمن رشدى محاميا قبل اشتغاله بالتمثيل مع فرقة جورج أبيض وما لبث أن كون فرقة عام ١٩١٧ قدمت مسرحيات معربة وعربية ، وميز فرقته أن أعضاءها كانوا من الشباب المتعلم ومن أبناء الأسر الكريمة ، وكان محمد بك تيمور يكتب له رواياته الرائعة ، فقدم رواية « العصفور فى قفص » باكورة انتاجه ، فقامت بتمثيلها الفرقة فى أول مارس ١٩١٨ (٣) .

وسرى حب الروايات غير العربية ، وكان من أشهر الروايات التى قدمت « كارمن » للكاتب الفرنسى راسين بعد أن قام فرح أنطون الكاتب الروائى بتعريبها ، وهى من نوع الأوبريت ولحنها كامل الخلعى ، وتولت منيرة المهدية وجوقها غناءها وتمثيلها (٤) .

وكان جورج أبيض زعيما للمسرح الدرامى ، فلم يكن أحد يجرؤ على محاكاته أو عن أى محاولة لتقليده وقد تربع على هذا المسرح طوال فترة الحرب وما بعدها ، وتهافت الناس على رواياته فكانت بنواراته ومقاعده دائما مشغولة وبالحجز (٥) .

وارتقى التمثيل المسرحى على يد عكاشة وجوقه اذ أخذ على عاتقه تمثيل الروايات العربية كرواية « طارق بن زياد » . واستطاع سلامة حجازى أن يسهم

---

(١) د. محمد مندور : المرجع السابق ، ص ٤٣ .

(٢) المحروسة ٨ فبراير ١٩١٧ .

(٣) الشباب ١٦ أغسطس ١٩١٧ ، ص ١٣ ، د. محمد مندور : المرجع السابق ، ص ٤٤ .

(٤) الاكسبريس ١٨ مارس ١٩١٧ .

(٥) La Bourse Egyptienne, 5 Jan. 1915, The Egyptian Mail, April 10, 1918.

بدوره في هذه الفترة فيصبح عميد التمثيل العربي (١) • ولو أن وافته المنية أثناء الحرب الا أنه ترك تراثا عظيما من بعده ، وتمكن سيد درويش الذى عمل بفرقة جورج أبيض والريحانى وعلى الكسار ومنيرة المهدية وعكاشة ، أن يكون لنفسه فرقة خاصة فهو فنان ملحن قبل أن يكون مغنيا حسن الصوت ، فصاغ أدواره في قوالب ذات حبكة فنية •، بذلك تعددت الفرق المشتغلة بالغناء المسرحى وبلغ نشاطها ذروته فى سنوات الحرب ، وقامت بينها منافسة شديدة بكل ما فى هذه الكلمة من معنى (٢) •

أما المسرح الفكاهى ، فكان فى طليعته نجيب الريحانى ، الذى بدأ عمله فى عام ١٩١٦ ـ وكان موظفا بشركة السكر ـ برأس مال قدره خمسة وعشرون جنيها فلم يكن لديه فرقة ولا روايات يمثلها ولكنه مع ذلك اخذ يمثل على مسرح الشانزلزيه بالفجالة ، ثم كون فرقة على مسرح « الاجبسيانه » وأصبح ملك الفكاهة وخلقتها شخصيته المستقلة البعيدة عن التقليد والغير معروفة قبل ذلك والتى تهافت عليها الناس وكانت تحمل بين طياتها النقد اللاذع ، وابتكر شخصية كشكش بك عمدة كفر البلاص ونجح فى رواياته الفرانكو أراب ثم تعرف على بديع خيرى وأخذا فى تاليف الروايات ، وكثر محبيه حتى أنه أصبح من المستحيل وجود أى مكان خال فى مسرحه ، فهو غاص بالمشاهدين من كل طبقات الأمة (٣) •

وكون مصطفى أمين فرقة افتتح بها كازينو « دى باريس » وضم اليها على الكسار « البربرى الأبيض » الذى كان يضحك الجماد (٤) •

ولمع فن التمثيل الفودفيل على يد عزيز عيد اذ كان له فضل استنباطه وقام بتمثيل عدة روايات نقلت آكثرها عن الفرنسية وأشهرها « خلى بالك من اميلى » ، « ياستى ما تمشيش عريانة » ، « العمدة فى باريس » ، « مقدرش أقول » ودل ظاهرها على الفكاهة وباطنها على نواحى أخلاقية (٥) ، كما حدث أن نسب المثلون فى هذا الفن الى الحكومة التقصير فى أعمالها فى ترانيم مضى الشعب ينشدها كقولهم « يا حكومة انت الملومة » وبذلك استطاعوا أن « ينفثون فى روح الشعب احتقار الحكومة بمثل هذه الألفاظ ويمهدون للناس طريق الاستهانة بها » (٦) • ومن هنا يتبين أن التمثيل نقد المجتمع فعرض المضار والفساد

---

(١) الاكسبريس ٢٧ يونيو ١٩١٥ ، ١١ نوفمبر ١٩١٧ •

(٢) محمود أحمد الحفنى : سيد درويش ، ص ٩٥ •

(٣) السيف ١٥ اغسطس ١٩١٧ ، La Bourse Egyptienne, 2 Jan. 1917, The Egyptian Mail, April 19, 1918.

(٤) السيف أول ابريل ١٩١٧ •

(٥) المحروسة ٨ فبراير ١٩١٧ ، السيف ٤ مارس ١٩١٧ ، الوطن اول أغسطس ١٩١٨ •

(٦) المنبر ٢٣ يوليو ١٩١٨ •

والضغط والكبت وأظهر ذلك على مرأى ومسمع من الجميع ٠

ومضت الفرق الفنية تتنافس فيما بينها ، فعاد هذا على الفن بمزيد من النشاط والثروة والتقدم ، وفى حقيقة الأمر فانه منذ عام ١٩١٥ حاول البعض السعى المتواصل فى التأليف بين الأجواق المشتغلة بالتمثيل ، ولم تمض سنة ١٩١٧ حتى ظهرت دعوة قوية لتآلفها ، وقد سمى هذا المشروع باسم « نقابة التمثيل العربى » للعمل على اعلاء شأنهم وفنهم (١) ٠

وكان لوجود القاعدة الحربية للحلفاء بالاسكندرية عاملا مهما لنهضة المسرح والأغانى فى مدينة الاسكندرية ، فوفد اليها جميع أرباب المغانى والأجواق ، وانتشروا فيها « ومنهم داود حسنى وشفيق وزكى مراد وجميل عزت وجوق سلامة حجازى ومنيرة المهدية وعكاشة » (٢) ٠

وأصبحت المرأة من رواد المسرح ، تقول الاكسبريس : « رأيت فتيات وسيدات وطنيات يفضن بمسرح الكورسال وقد شغلن قسما كبيرا منه غير متحجبات يرتدين أحسن زى ويبدين فى أبهى منظر ، وعلمت أن المرأة المصرية تسبق الرجل الى المسرح » (٣) ٠

وتشجيعا للمسرح والعمل على الرقى به أصدر الأديب محمد حسن مجلة شهرية اسماها « الأدب والتمثيل » ، وولعت القلوب بالتمثيل حتى الطلبة راحوا يمثلون الروايات الأدبية كانهم درسوا هذا الفن فى عدة كليات (٤) ٠ اذ أنهم آمنوا بما حواه من المعانى والحكم والمواعظ وما تضمنه من أخلاق وعادات ، هذا بالاضافة الى أنه صورة منعكسة للمجتمع ٠

أما دور السلطة ازاء الفن ، تلك التى استطاعت أن تكمم الأفواه طوال طوال فترة الحرب وتقضى على كل معارضة ضد تصرفاتها نبين مما سبق أنها لم تتمكن أن تقضى على هذا المنفذ الجديد الذى طرأ على المجتمع فى ذلك الوقت ، كانت تعلم مدى تأثير فن المسرح على الشعب ومدى اهتمامه به ٠٠ فلم تستطع ايقافه لخوفها من تذمر الأهالى ، وكمثل الصحافة والبريد أخضعته بالتالى للرقابة فانصبت على الممثلين ورواياتهم والمطربين وأغانيهم ، فاستدعى سلامة حجازى للتحقيق لبيت فى رواية قدمها عقب عزل عباس وتولية حسين اذ قال :

عم يخون وأم لا وفاء لهـــا   أم ولكن بلا قلب ولا كبد ٠

---

(١) المحروسة ٢٠ يناير ١٩١٧ ٠
(٢) الاكسبريس ٦ اغسطس ١٩١٦ ٠
(٣) نفس المصدر ٢٤ فبراير ١٩١٨ ٠
(٤) الدليل ٣ فبراير ١٩١٧ ٠

ويقول محمد بهى الدين بركات انه عندما غنى الشيخ سلامة حجازى فى رواية شهداء الغرام :

زمن يعلمنا الفجور ملوكه   فيه وآثام الخنا ملكانه ٠

قامت ضجة عنيفة وهدد الشيخ فى حريته وباغلاق مسرحه وآرغم على التعديل فصار :

زمن يعلمنا الفجور شيوخه   فيه وآثام الخنا ساساته ٠

ويذكر جورج طنوس الذى كان يعمل بالتمثيل مع سلامة حجازى هذه الواقعة « فى مساء الأحد ٣٠ سبتمبر ١٩١٧ مثل فى تياترو برنتانيا رواية شهداء الغرام ومثل اذ ذاك تمثيلا شائقا أعجب به كل الشاهدين ، حتى جعل الكل يفقون هاتفين « ليحيى الشيخ » . وفى صباح اليوم التالى قصدت واياه دار الحماية لأمور تخص الجوق » (١) ٠

وعندما قدم على الكسار وأمين صدقى رواية « ليلة ١٤ » لاجازتها تدخلت الرقابة ، وجعلت اسم الرواية « القضية ١٤ » (٢) ٠

كما رأت السلطة العسكرية اغلاق قهوة « نزهة النفوس » التى كانت تشدو فيها منيرة المهدية ٠ وذلك بسبب تصرفات الجنود الأستراليين وخروجهم عن الحدود اللائقة (٣) ٠

ورغم ذلك فقد استطاع المسرح أن يؤدى دورا هاما وأن يهيىء الأذهان ويعد النفسيات لاجتياز أهم مرحلة تاريخية للنضال المصرى هى ثورة ١٩١٩ فكان للفن وبالذات المسرح دور كبير فى المشاركة فيها بكل امكانياته ٠

---

(١) جورج طنوس : سلامة حجازى ، ص ٧ ٠

(٢) صبرى أبو المجد : زكريا أحمد ، ص ١٤٩ ٠

(٣) آخر ساعة المصورة ، ٢٤ سبتمبر ١٩٣٩ ، ص ٢٥ ٠

الفصل الرابع

المجهود الحربى

الهدف العسكرى لأعداء انجلترا ـ مصر معسكرا للحلفاء ـ الجيش المصرى ودوره فى الحرب ـ الرديف المصرى ـ فيلق العمال وفيلق الجمالة ـ العمل الميدانى ـ جمع الدواب ـ مصادرة الأقوات ـ الخدمات الصحية ـ الأموال للصليب الأحمر ـ المبانى والأراضى ـ الزام المصالح والهيئات .

بانضمام الدولة العثمانية الى ألمانيا واعلانها الحرب على الحلفاء كان لابد لضرب انجلترا فى سيادتها وذلك بالاستيلاء على قناة السويس لشل تخطيطها العسكرى ولن يتأتى هذا الا بحملة تركية تستولى على مصر فهى ترغم انجلترا على ابقاء قوات كبيرة فى مصر فيخف الضغط على الدردنيل . هذا بالاضافة الى الرغبة فى اثارة المصريين ضدها ٠

وأعدت انجلترا للأمر عدته ، فعينت مكسويل قائدا عاما لقوات الجيوس البريطانية فى سبتمبر ١٩١٤ ، وقسمت دفاعات قناة السويس الى أربعة . الأول التسط ، الكوبرى ، جنيفة ، والثانى الدفرسوار وسيرابيوم والثالث المعدية والفردان والبلاح ، والرابع القنطرة وملاحات بور سعيد (١) ٠ وكانت خطة الانجليز انهاك قوى الأتراك فى الصحراء والتربص لهم على القناة ٠ ومع البداية هزموا فى طوسون فى ٢/٣ فبراير ١٩١٥ وتلاها الطور فى ١٢ فبراير ١٩١٥ فعاد الضباط الألمان الى الآستانة وتركوا الحملة لاعداد تخطيط جديد ٠

ورأت ألمانيا والدولة العثمانية ضرورة تهديد انجلترا عن طريق حدود مصر الغربية ووثائق السواحل الغربية تفيض بهؤلاء الذين ضبطوا من الألمان والأتراك متخفون فى أزياء الأوربيين (٢) ٠ ودارت المخابرات بين الطرفين المانيا والسنوسيين لتقسم انجلترا مجهودها بين الحدود الغربية والشرقية فيصعب عليها الدفاع عن القناة ، وقد تمكن السنوسى بعد أن حصل على السلاح والأموال وعلى يد رجاله من مهاجمة معسكر الاستراليين والاغارة على الفيوم وقطع خطوط السكك الحديدية (٣) ٠ وحشدت انجلترا القوات عند مرسى مطروح فى ٧ ديسمبر ١٩١٥ وهجمت على القوات السنوسية وانتصرت فى عدة مواقع انسحب على أثرها السنوسيون الذين بدأوا يهاجمون عن طريق الواحات واحتلوا « الواحة

---

(١) Manifold : An out line of the Egyptian and Palestine. Compaigns 1914-1918, p. 11.

(٢) الحكومة المصرية ، دفتر كوبيا السواحل الغربية ، ٢٧ ، ٣٠ أغسطس ١٩١٤ ، ص ص ٧٩ ، ٤٦٥ ٠

(٣) الأفكار ٤ ابريل ١٩١٥ ٠

البحرية وسيوه والفرافرة والداخلة والخارجة » لكن ما لبث الأمر أن دخلت القوات الانجليزية عدة معارك انتهت باسترداد المناطق التى استولوا عليهـا . وفشلت ألمانيا والدولة العثمانية فى تحقيق الهدف المشترك . وجاءت الحدود الجنوبية لمصر لتكون مثار قلق لانجلترا اذ رأت ألمانيا وحليفتها اثارة على بن دينار سلطان دارفور ضد الانجليز فى مصـر عن طريق الهجوم على الحـدود الجنوبية ، ومضت رسائله التهديدية الى ونجت فى السودان معلنا شق عصا الطاعة مهددا باعلان الجهاد وتبع ذلك أن بدأ يتقدم صوب الخرطوم لكن أعدت حملة انجليزية وتمكنت من هزيمته فى ٢٢ مايو ١٩١٦ (١) .

كانت انجلترا على يقين من عودة الأتراك والألمان الى قناة السويس مرة أخرى ، فرأى كتشنر الهجوم على الدردنيل كوسيلة لمنع الخطر عن مصر لكن هذه الخطة فشلت وانسحب الانجليز من غاليبولى ، وهنا وقع الاتفاق بينها وبين الشريف حسين لضمان عدم ضربها من البحر الأحمر عند تقدمها لقتال أعدائها عبر قناة السويس .

وجاءت الحملة التركية الثانية هادفة قناة السويس ، وفى البداية كانت النصرة لها ولكن وصول الامدادات لانجلترا حول الهزيمة الى نصر وأعطى للحلفاء المزيد من التقدم فتتبعوا الأتراك واستولوا على العريش ثم رفح التى استغرقت بعضا من الوقت ومجهودا كبيرا ومقاومة عنيفة من الأتراك لكن انتهى الأمر باستسلامها فى ٩ يناير ١٩١٧ وأصبحت سيناء خالية ، وواصل اللبنى سيره حتى دخل القـدس فى ٧ ديسمبر ١٩١٧ ، وأعقبها الاستيلاء على دمشق واعلان استسلام الأتراك (٢) .

مصر معسكرا للحلفاء :

قامت الحرب العالمية الأولى وكان على مصر ــ وهى تحت نفوذ انجلترا ــ أن تكون طرفا فى هذه الحرب ، فقد أقحمها قرار الخامس من أغسطس ١٩١٤ بالانضمام للحلفاء ، ومنذ اللحظة الأولى عملت انجلترا على جعل مصر معسكرا لقواتها وقوات حلفائها اذ أن موقع مصر الاستراتيجى ووجود قناة السويس وهى الشريان الحيوى للامبراطورية البريطانية حتم عليها وضع مصر فى اطار حربى بجانبها . وراحت توالى استعداداتها داخل مصر ، فأمرت باقامة الخنادق، واهتمت بمدن الساحل فعززت مواقع جنودها فى النقط الحربية والشواطىء وشددت المراقبة على السواحل وأمرت باليقظة التامة بين جنودها حذرا من

---

(١) ديوان رئيس الجمهورية ، وارد افرنجى ، رقم ١٧٤٣ ، ١٢ نوفمبر ١٩١٦ ،
Kearsy : The operation in Egypt and Palestine 1914 to June 1917, p. 31.
(٢) Ibid, pp. 32, 50, Manifold : op. cit., p. 20.

حدوث ما ليس في الحسبان ، واهتمت بمدينة الاسكندرية ــ التى أصبحت قاعدة لحملة البحر المتوسط تجاه غاليبولى ومركزا لقيادة القوات ــ فأنشئت الاستحكامات الحربية فيها فنصب مدفعا بقرب قصر رأس التين موجهة فوهته الى المدينة ، «فتضاعف الرعب والذعر بين أهل المدينة وضواحيها» (١) وعسكرت الجنود الانجليزية في أبي قير ورشيد ، وخضعت المدن كلها لانجلترا فحولت منها الى معسكرات لجيوشها وأصبحت مصر قاعدة كبيرة للعمليات الحربية في الشرق الأوسط ، وأدخلت مدينة بورسعيد والاسماعيلية والسويس في منطقة الحرب وبالتالى قيد فيها حركات الأهالى وخضعت لرقابة عسكرية صارمة . وتبع ذلك اصدار التعليمات الواجب على المصريين اتخاذها أثناء الغارات ، فكان عليهم اقفال المنازل والنوافذ من غروب الشمس حتى شروقها واظلام الأماكن العامة والخاصة (٢) .

وشهدت البلاد طوفانا من جنود الامبراطورية من كل ملة ولون وجنس حتى يصح أن تسمى كل مدينة مدينة عسكرية اذ أصبح أهاليها وسكانها يرون الجنود والعساكر في كل جهة من جهاتها وفى كل شارع من شوارعها ، ويصف لويد هذه الحالة فيقول : « .. عندما حل عام ١٩١٦ كنا قد حولنا دلتا النيل الى معسكر مسلح ولم يراع في ذلك أى اعتبار الا للمحاربين ، فعندما وصلت قوات الاحتلال الى بورسعيد والسويس وجدت هاتين البلدتين تحت الحكم العسكرى وكانت قناة السويس خط مواصلات الحلفاء ، وقاعدة معسكراتها في الاسماعيلية والقنطرة تسكنها القوات الاسترالية والهندية والبريطانية وأسند الى المصريين فيها القيام بأعمال مسح الخشب ونقل المياه ، أما القاهرة والاسكندرية فكانتا المكانين الذين تخص فيهما القوات وقت اجازتهما ، وكانت الحكومة المدنية تسهر على راحتها » (٣) .

وتحملت مصر وحدها نفقات وتكاليف هذه المعسكرات ، فقد قرر مجلس الوزراء في جلسته المنعقدة في ١١ نوفمبر ١٩١٥ الموافقة على فتح اعتماد بمبلغ ٨١٩٨ ج م . لوزارة الحربية لانشاء معسكرات وفرق هجانة « على ذمة شبه جزيرة سيناء » وكذلك قرر المجلس في ١٨ نوفمبر ١٩١٥ الموافقة على فتح اعتماد مبلغ ٣٣٥٧ ج م . لوزارة الحربية « على ذمة نفقات المعسكرات وفرق الهجانة التى تقرر انشاؤها » (٤) .

هكذا استغلت انجلترا موقع مصر ، وما لبثت أن تعدت هذا الاستغلال بالسيطرة على المصريين أنفسهم لخدمتها وخدمة حلفائها ، وقد ساهمت مصر

---

(١) الأهرام ٨ أغسطس ١٩١٤ .

(٢) نفس المصدر ٢٥ اغسطس ١٩١٦ ، السفنر ٢٧ ديسمبر ١٩١٦ .

(٣) Lloyd : op. cit., p. 185.

(٤) Conseil des ministres, No. 11, 30 Nov. 1915.

بمجهود حربى وافر فى هذه الحرب لدرجة أن قواد انجلترا نفسها أشادوا بهذه المساعدة واعترفوا بأنها هى التى رجحت كفة الحلفاء ٠

ومنذ الأيام الأولى من الحرب أعلنت انجلترا بأن مصر لن تتحمل شيئا من أعباء هذه الحرب لكنه رغم ذلك فقد ضرب بهذا التصريح عرض الحائط واستغلت مصر بمن عليها لصالحها ولصالح حلفائها ٠

الجيش المصرى ودوره فى الحرب :

كان استغلال الجيش المصرى لصالح الانجليز من أهم مقدمات هذه المساعدة حتى أنه حسبت قوة الجيش المصرى من قوة الجيش البريطانى على القناة ، فمنذ أن بدأت الحرب دعا ونجت ــ حاكم عام السودان وسردار الجيش المصرى ــ الجنود الاحتياطية المصرية للانضمام الى الجيش المصرى العام ، وأعلن ضرورة تلبية الأوامر التى تصدرها وزارة الحربية ، وأعقب ذلك أن اجتمع بأفراد الجيش المصرى بالعباسية وحثهم على الشجاعة والطاعة فى هذه الحرب، وأخذ يوالى اجتماعاته بالجنود ، طالبا منهم تنفيذ أوامره (١) ٠

وبدأت الاستعانة بالقوات المصرية من قبل نشوب الحرب مع الدولة العثمانية ، فمنذ شهر أغسطس ١٩١٤ صدرت الأوامر لسلاح الهجانة المصرى باستطلاع شواطىء القناة والقيام بأعمال الدوريات فيها (٢) ٠

وتعرض سلاح الهجانة المصرى الى الخطر ، « ففى ٢٠ نوفمبر ١٩١٤ بينما كان الملازم أول محمد أنيس وهو من هجانة السواحل يجول مع فرقته بين بير النصف وقطية وجد عشرين رجلا راكبين هجنا يلوحون برايات بيضاء فصوبوا نيرانهم عليهم فردت عليها النيران المصرية وفى أثناء ذلك أصيب الملازم فأخذه أحد هجانته وأركبه خلفه على هجينه ولكن النار أصابتهما ، كذلك قتل اثنى عشر رجلا وجرح ثلاثة من هذه الفرقة » (٣) ٠

وبعد بضعة أيام من اعلان انجلترا الأحكام العرفية كانت هناك فرقة من الجيش المصرى فى طريقها الى قناة السويس لتأخذ نصيبها فى هذه الحرب وليس كما يقول الجود « لتأخذ نصيبها فى الدفاع عن مصر » (٤) ٠

---

(١) السفير ١٠ أغسطس ١٩١٤ ، الأهرام ١٤ يناير ، مصر ١٣ يناير ١٩١٥ ،
Les Nouvelles, 9 Sept. 1914

(٢) Macmunn : Military operation, Egypt and Palestine, pp. 13, 14, Kearsy : op. cit., pp. 21, 86.

(٣) العدل ٢٥ نوفمبر ١٩١٤ ٠

(٤) Elgood : op. cit., p. 86.

أما بالنسبة للمعارك مع الأتراك ، فقد ساهم الجيش المصرى بنصيب وافر فى هزيمتهم على القناة ، ففى ليلة ٢/٣ فبراير ١٩١٥ حاول الاتراك اجتياز القناة عند طوسون واستقرت على تلك المدينة البطارية المصريه الخامسة التى وضعت ضمن وحدات الجيش البريطانى للدفاع عن قناة السويس وصد هجوم الأتراك ٠ وكانت هذه البطارية برئاسة الملازم أحمد حلمى ، وعندما بدأ الأتراك يمدون الجسر فوق القناة الذى كان منصوبا على زوارق من الألومنيوم للعبور عليه ٠ تركتهم البطارية المصرية بعد أن تقرر أن يقوم أحمد حلمى بتكتيكاته بعد اتمام الجسر ، وتم تركيبه وبدأوا فعلا بالسـير عليه هنا أدخل أحمد حلمى عنصرى المفاجأة والسرعة فانصب عليهم بنيران المدفعية فهزمهم وردهم وقتل منهم وأحبط محاولتهم هذه ولكنه ضحى بنفسه فى هذه المعركة ، كما قتل الملازم ثان فريد حلمى ، وجرح عدد آخر من الضباط (١) ٠ وشهد قائد الجيوش البريطانية بذلك التفوق للعسكريين المصريين وبتلك التضحية التى قدموها ٠ وأشـاد أيضا بشجاعة المصريين على القناة الأسرى الأتراك حيث أبانوا أنه أثناء هجومهم على القناة لاحظوا أن هناك عساكر وضباط مرتدين الطرابيش قد فتحوا نيرانهم وانقضوا عليهم ، ومنح ملك انجلترا وسـام Victoria cross للقائد على زكى الذى تولى قيادة البطارية الخامسة وللملازم أول خليل جبور لدورهم فى المعركة (٢) ٠

أعقب ذلك موقعة الطور وكان الفضل في الانتصار فيها للجنود المصريين، فقد حدث فى شهر يناير ١٩١٥ أن أبلغ قومندان الجنود التركيةفى نخل أن الطور ليس فيها قوة تحميها فأوفد اليها قوة مؤلفة من خمسين رجلا وضابطين من الألمان لاحتلالها ، غير أن هذه القوة وجدت عند وصولها الى الطور أن هناك حامية تتألف من مائتى مقاتل وأنه ليس من السهل الاستيلاء عليها ٠ فأرسلت الى نخل تطلب نجدات جديدة فبلغت قوتها بالنجدات الجديدة مائتى مقاتل من الأتراك والعرب واحتلت قرية الطور على بعـد خمسة أميال منها ، فلما علم خبر وصولهم أنزلت فصيلة من الجنود المصرية تبع أورطة البيادة الثانيةالمصرية وزحفت عليهم وسط الروابى والتلال من غير أن يشعروا وفاجأتهم بالقتال ، وقد قاموا بواجبهم خير قيام ، وهذه الفصيلة مؤلفة من بلوكين ومعهما اليوزباشى مصطفى حلمى وضباط آخريين مصريين وقوة قدرت بحوال مائة وخمسون رجـلا (٣) ٠

وحارب الفرسان المصريون على أرض سيناء ، كما ألف الضباط المصريون

---

(١) الأهرام ١٢ فبراير ١٩١٥ ، السفير ٢١ فبراير ١٩١٥ ، وادى النيل ٢٦ فبراير ١٩١٥ ،
Le Journal du Caire, 21 Fev 1915, La verité, 22 Fev. 1915.

(٢) La phare d'Alex. 24 Fev. 15 April, 1915.

(٣) الأهرام ١٤ ، ٢٥ فبراير ١٩١٥ ، Elgood : Egypt and the Army, p. 142.

لجنة لجمع الأموال لمساعدة الأرامل والأيتام وضحايا الحرب من الانجليز • (١)
وعلى الحدود الجنوبية كانت القوات المصرية تحارب من أجل الحلفاء ، فعندما انضم سلطان دارفور للأتراك وأعلن الجهاد ضد الانجليز ، صدر أمر ونجت في ٢٧ فبراير ١٩١٦ بتحرك بطارية مكونة من اليوزباشي علي اسـلام نائب قومندان هذه البطارية والملازم أول حسن الزيدى قائد اجى صنف والملازم أول حسن حلمى قائد ٢ جى صنف والملازم أول حسن قنديل قائد ٣ جى صنف وقد أعدت لهذه البطارية قوة ست مدافع مكسيم وخمسة وخمسون صف ضابط وعسكرى من ضمنهم ثلاثة أشارجية وبروجى وبيطار وباشجاويش وبلوك أمين وثمانية وسبعون جملا •

وصلت هـذه البطارية الأبيض عاصمة كردفان ثم اتجهت بعد ذلك الى بلدة النهود وعسكرت فيها البطارية مع باقى القوة من طوبجية وبيادة راكبة وهجانة ، ثم اتجهت الى جبل الحلة واحتلتها ، وقامت بطارية ـ كانت تحت حكمدارية الملازم أول محفوظ ندى ومحمود زكى رشاد ـ بحماية بلدة اللجود للمحافظة على الآبار فيها وتقدمت القوات المصرية واحتلت بردش وأم كدادة ، ثم اشتبكت مع قوات سلطان دارفور عند برنجية وهزمتها • ولم يمض الا القليل حتى تمكنت القوات المصرية من التقدم صوب الفاشر عاصمة دارفور هذا فى الوقت الذى احتلت فيه كتيبة مصرية آبار الأبيض بعد أن تقهقرت قوة دارفور نحو الفاشر • فتابعت القوات تقدمها الى أن احتلت الفاشر وقتل سلطان دارفور• وقد استشهد فى هذه المعارك قواد مصريين أمثال الملازم أول محمد يسرى والملازم ثانى أحمد زهران وخمسة آخرين هذا عدى الجرحى • (٢)

وبين ونجت أن الفضل فى الانتصار على قوات سلطان دارفور يرجع للقوات المصرية التى تحملت الصعاب خاصة الظروف الطبيعية من جبال ورمال ومياه ، وطلب منح وسام النيل ووسام محمد على الى الضباط كمكافأة لهم على خدماتهم واعترافا بالمشاق والمجهود الكبير الذى بذلوه • (٣)

وتحملت المالية المصرية نفقات هذه الحملة ، فوافق مجلس الوزراء على فتح اعتماد مبلغ ٣٥٨١٥ جنيها بميزانية وزارة الحربية لسد النفقات اللازمة من أول يناير الى آخر مارس ١٩١٧ لأجل احتلال دارفور (٤) •

---

(١) Gov. Egy. Copies des lettres administration, 30 Mars, 1917, pp. 427
Les Nouvelles, 10, La Reforme, 10 Sept. 1914.

(٢) ديوان رئيس الجمهورية ، دفتر وارد ، أرقام ٢٢٩٧ ، ٢٥٢٧ ، ٢٥٨٢ ، من ٢٣ مارس ١٩١٥ حتى ٢٩ مايو ١٩١٦ •

(٣) نفس المصدر ، رقم ٢٣٦٧ ، ٣١ يوليو ، ١٢ اغسطس ١٩١٦ ، رقم ١٢٨٣ ، ٢٠ يوليو ١٩١٧ ، المقطم ٤ نوفمبر ١٩١٦ •

(٤) Conseil des ministres, 30 Jan. 1917.

ومضى الجيش المصرى يحارب فى ميدان آخر اذ أرسلت منه فصائل وعددا من الجنود الى شبه الجزيرة العربيه لمساعدة حاكم الحجاز الذى أعلن الثورة والحرب على الدولة العثمانية

ويذكر لورنس أنه وجد فى وادى الصفراء لدى فيصل معسكر الجيش المصرى المنظم تحت قيادة الماجور «نافع بك» وكان أرسله حديثا السير ونجت من السودان وهو مؤلف من بطارية مدافع الجبال وبعض الرشاشات ، ويذكر أيضا أن السبب فى ارسال ذلك أنه عند وصول القائد الانجليزى الكولونيل ولسون الى ينبع تقدم فيصل اليه وبين له ما يحتاج اليه فأمر فورا بأن نسلم اليه بطارية مدافع جبلية وبعض مدافع مكسيم وضباط ورجال فنيون من المستودعات المصرية فى السودان « واعتقد العرب عند وصول هذه النجدة بأنهم قد أصبحوا يعادلون قوات الترك ويتمكنون من مقاومتهم » ٠ (١)

وأبلى الجنود المصريون شجاعة فائقة فى مساعدة العرب ضد الاتراك لدرجة أن ونجت أبان فى خطبة فضلهم : « ٠٠٠ ولا أرى بدا من الاشارة الى ما قام به الجيش المصرى الباسل وضباطه الشجعان من الخدمة الشريفة فى الحجاز والاسم المجيد الذى اكتسبوه بين اخوانهم العرب ٠٠ » (٢) ٠ وكذلك ساهم الجيش المصرى فى العمليات الحربية على حدود مصر الغربية ضد السنوسى ٠ كما أن هناك عددا من الضباط والجنود المصريين قد حاربوا فى أكثر من جهة فى الدردنيل وفى القناة وفى السلوم ، ففى خطاب موجه من سردار الجيش المصرى الى سلطان مصر يطلب مكافآت لهم على قدرتهم الفائقة وخدماتهم الجليلة التى أدوها فى هذه الميادين وتذكر الوثيقة بعضا منهم : شحاتة كامل ، البجباشى محمد شاهين ، واليوزباشى محمود حلمى ، مصطفى منصور ، عارف لبيب والملازم أول محمد صادق الأصفهانى ٠ (٣)

ونشرت الجريدة الرسمية للحكومة البريطانية أخبار مكافآت حسن الخدمة فى القتال للعسكريين المصريين ، كما أنعم بالترقيات على الكثيرين منهم ٠ (٤)

وعلاوة على ذلك ، فقد وضع الجيش المصرى بكل أريحية تحت تصرف قوات البحر الأبيض المتوسط والقطر المصرى معدات للراحة ومهمات حربية وتقديم ١٧٤٫٠٠٠ قنبلة لقوات البحر الأبيض المتوسط ، وتسليم القاطرات والفولاذ للدفاع عن القناة وصنع مقادير عظيمة من المهمات والملبوسات وتصليحها فى ادارة المهمات ٠ (٥)

---

(١) لورنس : الثورة فى الصحراء ترجمة رشيد كرم ، ص ص ٣٥ ، ٣٨ ٠
(٢) المقطم ٤ نوفمبر ١٩١٦ ٠
(٣) ديوان رئيس الجمهورية ، دفتر وارد ، بدون رقم ، ٥ فبراير ١٩١٦ ٠
(٤) الوطن ٢ ، ٢٧ نوفمبر ، ٤ ديسمبر ١٩١٨ ٠
(٥) الأهرام ٢٦ يناير ١٩١٧ ٠

ولم يقتصر ضغط انجلترا على مصر باستخدام جيشها فى تلك الميادين المختلفة ولكنها ذهبت الى أبعد من ذلك رغم تعهداتها السابقه بأنها ستأخذ على عاتقها كل أعباء الحرب دون أن تكلف المصريين شيئا ، لقد كانت هذه الوعود حبرا على ورق ، مجرد تخدير لأعصاب المصريين الذين أقحمتهم فى حرب ضروس لا منفعة لهم فيها انما عليهم أن يقاسوا ويستغلوا ويموتوا من أجل انجلترا ٠

جمع الرديف المصرى :

هذا وقد أتيح للسلطة العسكرية استدعاء الرديف المصرى فى بداية عام ١٩١٦ ــ وكان عدده حوالى ١٢٫٠٠٠ وهو الجيش المدرب على الأعمال العسكرية والذى قضى المدة المقررة تحت السلاح بمقتضى قانون العسكرية المصرى وقدره خمس سنوات ويستمر تحت طلب الحكومة بصفة جيش احتياطى مدة خمس سنوات أخرى ــ لاستخدامه فى تنظيم التشهيلات اللازمة للدفاع عن القناة بعدما أصبحت قناة السويس عرضة لغزو تركى ألمانى مرة ثانية وعلى ذلك رفع اسماعيل سرى وزير الأشغال بصفته وزير الحربية والبحرية فى ٢٠ يناير مذكرة الى حسين رشدى تتضمن مشروع قرار وزارى يطلب أفراد الرديف فى جميع الفرق للخدمة العسكرية ما عدا الموجودين منهم فى خدمة الحكومة وذلك بناء على طلب قائد عموم القوة البريطانية فى مصر ، ولم يلبث يوم ٢٠ يناير ١٩١٦ يمر حتى وافق مجلس الوزراء (١) ٠

وأضيفت التعيينات الخاصة بالرديف على عاتق مصر ، وقد رأت انجلترا فى بداية الأمر أن تستأجر أفراد الرديف فأبت الحكومة قائلة « انى آنف أن يقال عنى انى أؤجر رجالى للزود عن قنالى بمال غيرى وليس بمالى » (٢) ٠

وبذلك وافقت الحكومة وتحملت الأعباء بلا أجر أو مساومة وقد كان من الممكن أن تطلب بعض المنح فى مثل هذه الظروف التى عجزت فيها انجلترا وحلفائها عن متابعة القتال فى الدردنيل وغاليبولى فى أوائل يناير ١٩١٦ بعد أن فقدت الرجال والذخائر والأموال ٠

وبدىء فى تنفيذ قرار جمع الرديف ، فأخذت وزارة الحربية ترسل الى المحافظات والمديريات كشوفا بأسماء رجال الرديف المطلوبين للخدمة حسب أقسامهم فى السلك العسكرى وتاريخ مدتهم وانفصالهم من الجيش ، وحينما تلقت المحافظات والمديريات هذه الكشوف بدأت ترسل الى كل قسم من أقسامها بجدول به أسماء المجندين المقيمين بذلك القسم وعهد الى المأمور تنفيذ الأمر فيستدعى كل من كان مدونا اسمه فى الجدول ويرسله الى المحافظة (٣) ٠

---

(١) Récueil des doc. relatif de la guerre, 20 Jan. 1916.

(٢) المقطم ٢١ يناير ١٩١٦ ٠

(٣) الأهرام ٢٣ يناير ١٩١٦ ٠

وقسمت وزارة الحربية الرديف الى خمس حملات بحسب طبقاته المعروفة فى السنوات الخمسة قبل ذلك التاريخ والتى اقتصر استدعاؤه للخدمة عليها ، وقسمت كل حملة من هذه الحملات الى خمسة أقسام وجعلت كل قسم مؤلف من ٢٢٠ صف ضابط وعسكرى عدا ما يتبعه من الجمال ، واختارت أن تجعل القاهرة مركزا للرديف العام وأن تظل قيادته العامة فى يد اللواء هربرت Herbert باشا قومندان قسم المحروسة واختارت لواءين من الضباط المصريين المتقاعدين للمعاونة فى التفتيش وضمت الى كل منهم فى حملته الضباط المصريين المستودعين والمتقاعدين أحد عشر ضابطا متفاوتى الرتب أكبرهم من الحائزين لرتبة البكباشى أو الصاغ وهو الذى يولى من بينهم منصب « أركان حرب » (١) .

وبازدياد الأعمال انهال الطلب على الاحتياطى . فطلب من اللواء Herbert أعدادا من الاحتياطيين للعمل فى الفرق المساعدة . (٢) .

ومنذ البداية لم يكن الرديف المصرى راضيا عما أصابه ، فكانت أولى انتفاضاتهم تلك التى حدثت فى ميدان عابدين حيث تجمهروا فيه وأعلنوا عصيانهم رغم شدة الرقابة وسلطة الأحكام العرفية وتجردهم من السلاح توجهوا لاعلان شكواهم الى السلطان التى انحصرت فى « التأخير فى دفع المكافآت المستحقة لهم ، وعدم كفاية الأجور التى تقرر دفعها اليهم ، وعدم موافقة الغذاء ، فقابلهم حسين رشدى ووعدهم بالنظر فى شكواهم ولكنهم جددوا المظاهرة واجتمعوا فى اليوم التالى ، وهنا كانت الاحتياطيات العسكرية قد اتخذت ووقع صدام بينهم وبين رجال البوليس جرح ثمانية من الرديف وأصيب كذلك بعض المارة على أثر الاشتباكات بينهم » (٣) ، وعلى أثر ذلك رحلوا بعيدا عن العاصمة . وأخذ البعض يفر من بلدة الى أخرى عاش فيها عيشة مستترة حتى لا تراه الأعين .

ولما رؤى أن ذلك الفريق من المصريين قد نأوا بجانبهم عن معاونة الانجليز وأنفوا خدمتهم رغم تهديدهم أصدر السلطان الجديد فؤاد مرسوما خاصا بالتجنيد بتعديل الأمر العالى الصادر فى ٤ نوفمبر ١٩٠٢ وذلك لتشجيع الناس على التطوع ومنحهم الامتيازات فمن تطوع لخدمة الحلفاء لمدة عام أعفى من الخدمة العسكرية التى كان ملزما بها (٤) .

وكان هذا منافيا لقرار مجلس الوزراء الصادر فى ٣ أغسطس ١٩١٤

---

(١) الأمة ١٧ فبراير ١٩١٦ .

(٢) عملية أورطة رديف الجيش المصرى ، دفتر صادر ووارد ، جـ ١ ، ١١ يناير ١٩١٨ .

(٣) الأهرام ١ فبراير ١٩١٦ .

(٤) Récueil des doc. relatif de la guerre, 22 Oct. 1916.

والذى يحرم على مصر الدخول في خدمة احدى الدول المتحاربة ، ولعهد انجلترا الذى قطعته على نفسها بأنها ستتولى الدفاع عن مصر دون طلب أية مساعدة منها ٠

ورغم الرقابة التى كانت مفروضة على الصحافة الا أن صحيفة الأهالى راحت تذكر انجلترا بوعودها تقول : « نذكر أن جناب قائد القوات البريطانيه فى العام الماضى وهو يستعد لرد حملة جمال باشا قد نشر بلاغا أعلن فيه للمصريين بأن انجلترا أخذت على نفسها حق الدفاع عن مصر بجنودها وأنها بناء على ذلك لا تطلب من المصريين أى مساعدة أو أن يدخلوا معها فى القتال » (١) ٠

ويقول سعد معلقا على هذا المرسوم : « نشرت الجرائد مرسوما سلطانيا بمعافاة من سيتطوع فى الجيش الانجليزى سنة من الخدمة العسكرية ، وقد وقع هذا الأمر أسوأ وقع عند الناس وتشاءموا به من حكم عظمة السلطان لأنهم عدوه أسوأ فاتحة لأعماله » (٢) ٠

وكانت سياسة الوفاق بين رئيس الوزراء والانجليز هى التى فرضت على المصريين نزف الدماء والمزيد من التضحية والعذاب فرشدى هو المتحكم فى الأمور وكان رهن ارادة الجيش البريطانى حيث أنه يتصرف فى معظم الأمور بدون موافقة بقية أعضاء الوزراء أو حتى أخذ رأيهم مع العلم بأنه مهما كان أى وزير قد اعترض فسوف يعزل فى الحال ويؤتى بآخر يكون رهن اشارة انجلترا ، ويقول سعد زغلول فى مذكراته عن استئثار رشدى بكافة الأمور : « فهمت من عدلى أن القوم كانوا يريدون تجنيد خمسة وعشرين ألف جندى بصفة عمال فى الجيش ولكن حصلت معارضة فى ذلك خشية ما يحدث فى نفوس الناس ، ومن سوء الأثر وفهمت منه أنه غير راض عن ضعف رشدى أمام الانجليز ويشكون من طرف خفى من أن رشدى يبت فى الأمور بدون أن يأخذ بآرائهم » (٣) ٠

فيلق العمال وفيلق الجمالة :

رأت انجلترا أن هناك أعمالا غير قتالية ليس على الجندى التابع لانجلترا القيام بها ، فيكفيه جدا أن يحمل السلاح وأن يحارب وأن تقع الواجبات الغير قتالية على غيره ، وليس هناك أمهر من المصريين فى عملهم ، اذ أن هذه الأعمال تعتمد على العمل اليدوى والطاقة البدنية وتشمل تعبيد الطرق ومد السكك

---

(١) الأهالى ٢٢ يناير ١٩١٦ ٠

(٢) سعد زغلول : السابق ، كراسة ٣٠ ، ٢١ أكتوبر ١٩١٧ ، ص ١٩٦٩ ٠

(٣) نفس المصدر : كراسة ٢٦ ، ٢٦ ديسمبر ١٩١٥ ، ص ١٣٨٥ ٠

الحديدية وحفر الآبار والخنادق ومد أنابيب المياه ، واقامة الاستحكامات ونقل معدات التليفون والتلغراف والمهمات والدخائر والتموين • لهذا بدا من الضرورى جمع المصريين ، على شكل صورة فيالق اضافية تكون تحت تصــرف القيادة البريطانية تعمل لخدمة القوات المحاربة •

قررت انجلترا أن تؤلف فيلقين هما فيلق العمال للقيام بالأعمال اليدوية وراء القوات الانجليزية ، وفيلق الجمالة لنقل المهمات وغيرها من نهاية السكك الحديدية الى الخطوط الأمامية •

ولم يكد يمر آخر أغسطس حتى أمر الجمالة المصريون بالذهاب الى قناة السويس وبعدم مبارحتهم اياها (١) ، كذلك بدأ فيلق العمال عمله منذ أغسطس ١٩١٤ حيث أقام التحصينات بقرب الشطوط المهمة وحول ضفتى قناة السويس وقد أقاموها بهمة فائقة ونشاط كبير (٢) •

وساعدت الظروف على تكوين فيلق العمال اذ ساءت الحالة منذ بدايه الحرب وقاسى العمال المصريون والفلاحون الأمرين من وقف النشاط الاقتصادى ومن تلك البطالة التى تفشت بين الطبقات العاملة واخيرا الارتفاع فى تكاليف المعيشة • فساعد هذا فى أول الأمر على الانخراط فى هذا الفيلق والاقبال عليه وبلغ الأمر الى أنه تقدم الى قومندان البوليس المصرى أهالى تطلب الانخراط فى فرق العمال بالدردنيل ، وذلك للتخلص من تلك الظروف الاقتصادية والاجتماعية القاسية التى يحيوها • (٣) •

شرعت السلطة العسكرية فى تنظيم وترتيب فرقة العمال المصريين فى شهر يوليو ١٩١٥ وعهد فى ذلك الى عشر ضباط فجمعوا حوالى ألف وخمسمائة عامل وكان الانتظام فيها فى بادىء الأمر بالتطوع وبذلك تمكن الانجليز من اخلاء سبيل عدد كبير جدا من جنودهم لارسالهم الى مواقع أخرى حربية ، وأعطى أجرة العامل فيها يوميا خمسة قروش هذا بالاضافة الى الجراية اليومية • (٤)

وخلال الاستعدادات لمعركة غاليبولى رأت القيادة البريطانية ضـــرورة الاستعانة بالعمال المصريين ففى أغسطس ١٩١٥ طلبت قيادة الحملة البريطانية للبحر المتوسط نحو خمسمائة عامل مصرى من أبناء الصعيد للعمل بجزيرة « مودروس» ، فوفقوا فى عملهم واتقنوه بحيث أن القيادة طلبت المزيد منهم حتى بلغ عددهم ثلاثة آلاف عامل عند جلاء القوات البريطانية عن غاليبولى • ويعلق Elgood على هؤلاء العمال بقوله : « ان الصعيد ينتج رجالا ذوى بنــاء

---

(١) Hallberg : The Suez Canal, p. 334.

(٢) مصر ١٤ أغسطس ١٩١٤ •

(٣) Egyptian Gvt. Cairo City police, No. 96, Sept. 13, 1915, p. 408.

(٤) المقطم ٣ يوليو ١٩١٧ •

جسماني رائع ، لا يضارعهم انسان آخر في قدرتهم على الاحتمال ، انهم يؤدون كافة الأعمال اليدوية في يسر وسهولة ولكنهم يبلغون حد الاعجاز في أعمال الحفر ، وهي الأعمال التي كانت الحملة تنطلبها حين ذاك » (١) ٠

وازدادت الأهمية للعمال حيث أنه في الفترة بين خريف ١٩١٥ وربيع ١٩١٦ حشد من فيلق العمل المصرى ٨٫٥٠٠ فرد للعمل في خدمه الحملة الهنديه في العراق ، ١٥٫٠٠٠ فرد للعمل وراء خطوط القتال في الجبهة الغربية (٢) ، ذلك أنه ما أن اطلع ولاة الأمور العسكريين على الأعمال النافعة التي تقوم بها هذه الفرقة من العمال حتى اشتد الطلب عليها من كل جبهة ولا سيما قسم التعيينات والطبجية والمهندسين فلبت طلبات هذه الأقسام وسواها ، وكان استخدام العمال في أول الأمر لقضاء الحاجة الحاضرة الماسة ثم تبين أن الضرورة تقضي بانشاء مصلحة دائمة وتعيين رؤساء لها وتأليف مكاتب دائمة للاستخدام٠ كذلك خرجت من فرقة العمال المصريين فرقة العمال المتعهدين وهم رجال يعملون في مقالع الحجارة ويشتغلون بانشاء الطرق بموجب عقود فردية (٣) ٠

لأجل هذا لم يتوان القائد العام للجيوش البريطانية عن الالحاح في اتخاذ الاجراءات الفعالة للحصول على العدد اللازم من العمال الذين اشتد الطلب عليهم. حتى لقد بلغ عددهم ١٫٢٠٠٫٠٠٠ مصرى جندوا وليس صحيحا أن عددهم كان بين ٨٠ ، ٩٠ ألفا ، اذ يذكر هذا العدد البيان الصحفي لمستر لندس القائم بأعمال السفارة البريطانية (٤) ٠

احتوت فرقة الجمالة على مائة ألف رجل ذهب منهم ثلاثة وعشرون ألفا استخدموا في فرنسا ، وقدمت هذه الفرقة خدمات جليلة للحلفاء ، ويصف فرقة الجمالة هذه مراسل المانشستر جارديان الانجليزية يقول : « لا يمكن لقنبلة أو لرصاصة أن تحرك وتثير الحيوان الأبله وقواد الابل وهم من الفلاحين الذين جمعوا وسجلوا في القرى المصرية وكلهم عزل من السلاح وغير مدربين على الحرب يمكنهم أن يجروا عند الاشارة للهجوم وأن معظمهم الآن في الحقيقة في التصاق تام بحيواناتهم وهم يسرعون في تلبية نداء ضباطهم البريطانيين والرصاص يدوى ويتساقط حولهم وهم اذا طولبوا بالخروج بابلهم لتكون في مأمن من الأذى أخذوا معهم سترهم التي توزع عليهم خشية أن تسرق أثناء غيابهم ، وبعضهم يسعى في الصعود الى التل تحت اطلاق النار ليأتوا بنقودهم من خيامهم وكان قواد الابل أنفسهم يعيرون الذين يلوذون بالفرار ويقولون عنهم (بنات) وأنه لا يليق بهم أبدا أن يكونوا من الرجال ٠٠ وأصبحت اليوم بعض الفرق

---

(١) Elgood : op. cit., pp. 108-238.

(٢) Ibid, p. 240.

(٣) المقطم ١٧ سبتمبر ١٩١٧ ، الأهرام ٢٦ أغسطس ١٩١٦ ٠

(٤) عبد الرحمن فهمي : السابق ، الملف السابع ، ص ٥٠٧ ٠

تقسم نفسها قسمين أولهما الثابتون فى أمكنتهم وثانيا الهاربون • وأن الانتقال من قسم الى آخر اما جائزة واما عقاب » (١) •

ضحت مصر من أجل جمع هؤلاء العمال والفلاحين ، فقد عرقل هذا أعمال الزراعة التى تتوقف عليها الحياة فى مصر وتعطلت مشروعات الرى الجديدة وعندما برزت أهمية هؤلاء الرجال تحول التفكير من مجرد استخدام جماعة محدودة من العمال والفلاحين الى انشاء الفيالق الاضافية • ففى ديسمبر ١٩١٥ صدرت أوامر القيادة البريطانية لانشاء عشر مجموعات ، كل مجموعة تحتوى على ٢٠٢٠ر٢ جملا ، ٢٠ حصانا ، ١٦٨ر١ مصريا ، ١٠ ضباط انجليز تحت رئاسة « الكولونيل وايتنجارن Whittingharn » ، وفى سبتمبر ١٩١٦ وبعد موقعة رومانة وأثناء التقدم عبر الصحراء كان هناك ثلاث عشرة مجموعة فى خدمة القوات المحاربة (٢) وفى الستة شهور الأولى من عام ١٩١٥ استطاعت أن تجمع السلطة العسكرية بين ألف وألف وخمسمائة جمل وعدد يقرب من ألف من الجمالة المصريين للخدمة على القناة بين بورسعيد والسويس ، وقسموا الى أربع أقسام ولم يمض شهر ديسمبر ١٩١٥ — وبعد تكوين الحملة المصرية — حتى صدر أمر من القيادة بضرورة تمهيد فيلقين من الجمالة وأن يكون كل فيلق محتويا على عشرة آلاف جمل وقسم كل فيلق الى خمس مجموعات • وأثناء الفترة من ديسمبر ١٩١٥ — تاريخ تكوين الجمالة — الى عام ١٩١٩ كان هناك ٠٠٠ر١٧٠ جمال ، ٥٠٠ر٧٢ جمل فى خدمة الفيلق • واستدعى لهم ضباط من الجيش المصرى لصعوبة التفاهم اللغوى معهم ، ووضعت فيالق الجمالة هذه لمعاونة الحملة المصرية ، تلك الحملة التى وقع عليهـا عبء القتال فى سيناء وفلسطين •

ومصادر تلك الفترة تبين أن التعاقد على هذا العمل كان اختياريا وبناء على عقود تكتب بين الطرفين لمدة ستة أشهر (٣) • كان هذا فى بداية الأمر ، وأخذت الصحف تنشر المزايا التى تعود على من ينضم الى هذه الفرق وما يوزع على الفرد يوميا من مأكل ومشرب وملبس ومسكن وذلك لضم أكبر عدد للفرقة فكانت تغريهم بأن الجراية اليومية للعامل هى ٣٢ أوقية خبز بلدى ، ٢٤ أوقية بقسماط ، ٣ أوقية لحمة ، ٤ أوقية عدس ، ٢ أوقية أرز ، ٤ أوقية بصل ، ثلثين أوقية سمن ، وثلثين أوقية ملح (٤) •

هذا فى وقت اشتدت فيه الأزمة وانعدمت الأقوات ، كذلك رفعت أجرة

---

(٤) الأفكار ٧ يونيو ١٩١٧ •

(٢) Macmunn : op. cit., p. 409, Badcock : A history of the transport services of Egyptian Expedionary 1916-1918, p. 21.

(٣) Badcock : op. cit., pp. 20, 21, 23, 32, 300.

(٤) المقطم ٣ يوليه ١٩١٧ •

العامل فى فرقه العمال الى خمسة قروش يوميا والجمال الى سة قروش ، وأعلن أنه عند انتهاء مدتهم يعادون الى أوطانهم على مصاريف السلطه (١) ٠

وعندما قررت القيادة البريطانيه تتبع الأتراك فى سيناء وفلسطين والخروج من قناة السويس رؤى انشاء خط للسكة الحديدية من قطيه الى فلسطين وهنا ألحت الحاجة الى تضاعف أفراد فيلق العمال وفيلق الجماله ٠ ورأت السلطة أن أسلوب التعاقد الاختيارى هذا لن ينفع أمام ذلك العمل المتزايد ٠ وفى نفس الوقت سرعان ما ظهرت صعوبة جمع المصريين للالتحاق بقسم العمل فى الجيش الانجليزى بالرغم مما كان يدفع لهم من أجور ، لا سيما بعد ما علم هؤلاء بالمخاطر الجسيمة التى أصابت العمال فى شبه جزيرة سيناء نتيجة للغزو التركى حيث تعرضوا لضرب القنابل وراح ضحايا منهم ، هذا بالاضافة الى ما أشيع عن سوء المعاملة التى يلقاها المتطوعون المصريون لأجل ذلك تردد الفلاحون فى اجابة الدعوة ، بل انهم فضلوا الموت عن الخدمة فى تلك الفيالق المساعدة ، هذا فى الوقت الذى كانوا يعتقدون أن النصر سيكون حليفا لألمانيا وتركيا (٢) ٠

نقلت العمليات الحربية الى فلسطين للقيام بهجوم قوى على الأتراك ، وعين اللنبى قائدا للقوات البريطانية فى مصر فى عام ١٩١٧ وتزايدت مطالب الجيش وان كان اللنبى قد أبقى قسما من هذه القوات فى مصر لمساعدة الحامية البريطانية للمحافظة على النظام وتوفير الامدادات اللازمة للقوات المحاربة ولقسمى العمل والنقل ٠ وحتى ذلك الوقت لم يحتج المصريون احتجاجا ظاهرا على ما كانت تطلبة السلطة العسكرية من العمال غير أنهم بمجرد نقل الجيوش البريطانبة الى فلسطين أصبحوا يحجمون عن تقديم مساعدتهم ، اذ لم يجدوا أى فائدة من متابعة الحملة فى بلاد بعيدة كفلسطين ، غير أن السلطات الحربية أساءت تفسير روح القلق التى استولت على المصريين واتهمت هؤلاء بأنهم معادون لانجلترا ، ومن ثم أصبح الحكم العرفى أداة للقمع بصورة أحس بها جميع المصريين (٣) ٠

ويحلل « ويفل » الموقف « لقد ازدادت حاجات الجيش ـ كلما تقدمت حملاته ـ الى العمال والحيوانات والمواد الغذائية ، ولم يعد التطوع وحده يكفى للوفاء بها ٠ وبذلك لم يجد رجال الحرب وسيلة للحصول على حاجاتهم سوى الضغط على الحكومة المصرية ، وأدى هذا بدوره فى النهاية الى أشنع صور الضغط فى القرى ، فراحوا يجندون الناس رغم ارادتهم فى فرقة العمال ٠٠٠

---

(١) وادى النيل ١٨ يوليه ١٩١٧ ٠

(٢) Lloyd : op. cit., pp. 224, 230, Elgood : op. cit., p. 315, Badcock : op. cit., p. 31.
عبد الرحمن فهمى : السابق ، ص ٤٥٦ ٠

(٣) Lloyd : op. cit., pp. 234, 235. Elgood : op. cit., pp. 306, 307.

وكما يحدث دائما فى مثل تلك الاضطهادات وقع العبء الأكبر على أشد الناس فقرا وأقلهم نصـــيرا من غير أن يدرك الجينس والموظفون من الانجليز كل تلك المظالم التى ترتكب باسمهم ، ولكنهم بالطبع ـ مذنبون ـ فى نظر الفلاحين ... وأصبح الانجليز هم الظالمون اذن فليسقط الأجانب الملاعين » (١) .

ولسوء حظ انجلترا فان الفلاحين لم يكن لديهم أية رغبة فى الانخراط فى فرق العمل ، فالفلاح المصرى كان عزوفا عن ترك قريته ، ومسقط رأسه فكيف يترك أرضه ليلقى حتفه فى الحرب . كذلك فلم يجذبه للعمل فى الجيش أى شعور وطنى لأنه كان يفهم أن الحرب الدائرة على حدود بلاده لا تخصه هو انما تخص انجلترا وحدها ، وعلى ذلك فعندما تقرر أن يتسع نطاق استخدام العمال المصريين ، لم يكن مفرا أمام السلطات العسكرية من اتخاذ اجراءات القسر للحصول عليهم .

رأت السلطة العسكرية للتغلب على هذه الصعوبات أن تحول عملية الاستخدام من أسلوب « التعاقد الاختيارى » الى « التجنيد الاجبارى » اذ أصبح لا مفر الا الالتجاء الى طريقة القوة اذ هى التى يحقق لها حشد الأعداد المطلوبة للفيالق الاضافية ، وعندما أوعزت القيادة العامة ـ أرشيبا لدمرى فى ٢٣ مايو ١٩١٧ ـ باتباع طريقة التجنيد بالاكراه عارضه ونجت على اعتبار أن ذلك يعد خرقا للتصريح الذى أصدره مكسويل فى ٧ نوفمبر ١٩١٤ وأعلن فيه تكفل بلاده بكل أعباء الحرب دون أن تطلب من مصر أى مساعدة ، كما أنه يفقد المصريين الذين يعتبرهم الانجليز أنهم يضمرون العداء لهم ، فحيادهم وهدوءهم من الصواب ، وان كان قد أشاد بايجاد أى وسيلة تضمن اشتراك المصريين من تلقاء أنفسهم فى الحرب . (٢)

وألفت لجنة فى القاهرة للكشف عن كل الوسائل لزيادة العمال واشترك فيها السلطان حسين ووزراؤه وعرض التشجيع فى الصحف ، غير أنها لم تهتد الى حل ، وعندئذ كتب ونجت يعلن موافقته على ما رأته اللجنة من استحالة تنفيذ اقتراحات الحكومة الانجليزية وذهب أبعد من ذلك فقال : « انى لا أستطيع أن أضمن أن عدد العمال المصريين الذين تستخدمهم الآن حكومة جلالة الملك وهو مائة ألف ، يمكن المحافظة عليه فى الظروف الحاضرة وأن رشدى أكد لى أنه سيبذل هو ووزراؤه كل جهد لمساعدة السلطات التى تتولى التجنيد وتسهيل عملهم » ثم قال : « ان القسر يمكن اتباعه اذا أبطل التصـــريح ـ تصـــريح مكسويل ـ وسواء بطل على يدنا أو على يد الوزراء من تلقاء أنفسهم فانه سوف يكون من المستحيل أن نتجنب الكراهية الناجمة عن خيانة العهد ، وهذه الكراهية سوف تعبر عن نفسها محليا فى صورة اضطرابات داخلية وبعبارة أخرى أن

---

(١) ويفل : اللنبى فى مصر ، ترجمة ابراهيم الابطش ، ص ٣٧ .

(٢) Wingate : op. cit., p. 214, Lloyd : op. cit., p. 237.

القسر سوف يقتضى زيادة كبيرة فى فرق الحاميه الانجليزية فى مصر ، ولا يوجد ثم ريب من أنه سوف يقلل المساعدة التى نعطيها مصر الآن ان لم يوقفها تماما » . (١)

ويقول سعد زغلول فى مذكراته « تدور على ألسنة الناس اشاعة بأن الانجليز يريدون أن يجمعوا جنودا من مصر بطريق الجبر . ويعللون ذلك بأنه اذا لم تشترك مصر فى الحرب معهم فلا تتقاسم معهم شعور الفرح والخير وبما أنها تتنعم بحسن ادارتهم يلزمها أن تشاطرهم المتاعب التى يحملونها فى سبيل الحرب ، ويرد قوله هذه الاشاعة بأن رشدى والسلطان غير مبالين لهذا المشروع ومعارضان فيه حتى ذهب بعضهم الى أنه ربما أدى هذا الخلاف الى سقوط الوزارة » . (٢)

واستعملت السلطة الضغط على الحكومة ، غير أن هذه رفضت ما يوعز من استعمال القسر وان كانت قد بدأت بعرض وسائل الاغراء على التطوع للعمل ففى ٢٠ أكتوبر ١٩١٧ أعلنت الحكومة قرارها : « بما أن السلطة العسكرية البريطانية أبلغت الحكومة المصرية أنها تلاقى صعوبات فى ايجاد الرجال اللازمين لفرقة العمال بطريق التطوع الاختيارى ، وبما أنه ولو أن الحكومة البريطانية قد أخذت على عاتقها الدفاع عن مصر الا أن البلاد لا تستطيع أن تقف وقفه المتفرج ازاء هذا الدفاع بل ان من واجبها الأدبى أن تعاون السلطة العسكرية المشار اليها جهد الاستطاعة وبما انه يتعين فى هذه الحالة العمل على ايجاد وسيلة للتشجيع على التطوع الاختيارى فقد قرر المجلس أن يقترح على السلطة العسكرية زيادة الأجر اليومى وأن تتحمل هذه الزيادة الحكومة المصرية وأن يعفى كل رجل يتطوع فى هذه الفرقة لمدة سنة على الأقل من الخدمة العسكرية ، وكذلك اعفـــاء كل رجل يتطوع فى هذه الفـــرقة من أجور الخفر طول مدة تطوعه » (٣) . الا أن ذلك كان دون جدوى ومن هنا أصبح التجنيد الاجبارى الوسيلة الوحيدة التى لابد من اتخاذها للحصول على العدد اللازم من العمال واقترح الانجليز استخدام جميع المقترعين للتجنيد ممن تثبت لياقتهم ولم يصبهم الدور ، ولكن الحكومة المصرية رفضت قبول ذلك حتى لا تتهم بأنها اشركت البلاد فى جهود الحرب . كما رفضت رفضا قاطعا حل هذه المشكلة بالاجبار . ولم تكن على استعداد لأن تتحمل مسئولية التجنيد الاجبارى ، وكانت واثقــة من أن موظفى الادارة فى الأقاليم وخاصة العمد يمكنهم بوسائل الضغط الحصول على ما يلزم من الرجال (٤) وبذلك أبدت استعدادها لتوفر العدد بتلك الوسائل الادارية سواء قبل المواطنون أو لم يقبلوا .

---

(١) Ibid, p. 215, p. 283.

(٢) سعد زغلول : السابق ، الكراسة ٢٩ ، ٥ نوفمبر ١٩١٦ ، ص ص ١٦٠١ ، ١٦٠٢ .

(٣) Gov. Egy. Conseil des ministres, 1917 No. 10, 20 Octobre, 1917.

(٤) الأهرام ١٢ ابريل ١٩١٧ .

وهكذا اتفقت كلمة السلطة وكلمة الحكومة على جمع الرجال ، وظل التجنيد اختياريا فى الظاهر وفى الحقيقة لم يكن بهذه الصورة اذ فرضت السخرة دون أن ينص عليها قانون ، وعلى الفور طلبت الحكومة من المديرين فى منشورات دورية أن يضاعفوا جهودهم لتشجيع التجنيد • وأبلغ المديرون مأمورى المراكز هذه الأوامر وأبلغها هؤلاء بدورهم للعمد ، وأنذر الأخيرون بأشد العقوبات اذا تقاصروا فى العمل ، وأنه اذا لم يتطوع للجيش البريطانى عدد كاف من القرية أو الناحية فان اللائحة تقع على المسئولين أنفسهم لذا اتخذ المديرون والعمد التدابير التى اعتقدا أنها ستحميهم من المصير الذى يهددهم اذا فشلوا فى مهمتهم وبهذه الطريقة أصبح من اللازم على كل مدير أن يقدم شهريا من مديريته عددا معينا من الرجال لسد طلبات السلطة (١) •

وقاسى المصريون سواء عن طريق جمعهم أو من السخرة التى فرضت عليهم والتى أرجعتهم الى عهد اسماعيل ، ولأهمية هذه المرحلة فى حياة شعب مصر سنعرضها من خلال شهود العيان •

بدأ تنفيذ السياسة التعسفية الجديدة لحشد العمال والفلاحين قسرا للعمل فى السلطة فعين ستة وعشرون ضابطا بريطانيا بين الاسكندرية وأسوان لأجل هذه العملية (٢) ، وكل ضابط يعاون مأمور المركز فى جمع « الأنفار » وتبدأ العملية باستدعاء عمدة القرية وابلاغه بالعدد المطلوب من قريته وعندما يأوى الفلاحون الى دورهم يبدأ الخفراء ورجال البوليس بالهجوم عليهم لجمع العدد المفروض على القرية أن تجمعه ، وبين صراخ الأطفال وولولة النساء يحشد الرجال الذين وقع عليهم الاختيار فى مضيفة العمدة تحت حراسة قوة من بوليس المركز • وفى الصباح يساق الجمع ــ وهو موثوقون بالحبال ــ الى المركز حيث يتسلمهم الضابط البريطانى ليشحنهم بالسكة الحديد الى « كمب التوزيع » فى الاسماعيلية ولا يجرى ــ خلال هذه العملية ــ أى قدر من التسجيل الدقيق ، وانما يكتفى الضابط البريطانى باعداد قائمة بأسماء الرجال وأحيانا يقسمهم الى مجموعات (٥٠ رجلا) يختار لكل مجموعة رئيسا من بينهم يتولى تنفيذ ما يصدر اليه من أوامر خلال الرحلة الحزينة الى الحرب •

وتناول سلامة موسى هذا الأمر بقوله :

« رحلت الى الريف ــ قرية بالقرب من الزقازيق ــ ورأيت كيف كان يسلط الانجليز علينا الموظفين المصريين من مأمورين ومديرين وحكمدارين وشرطة لخطف محصولاتنا ، وكانت الجمال والحمير بل الرجال يخطفون أيضا

---

(١) Wingate : op. cit., p. 216, Macmunn : op. cit., p. 366, Elgood : op. cit., p. 316.

(٢) Allenby : A brief record of the advance of the Egyptian expeditionary force, p. 108.

كما لو كانوا فى قرية زنجية على خط الاستواء قد كبسها النحاسون لخطف سكانها وبيعهم فى سوف الرقيق ، وكان المنظر تئن منه النفس كما يفتت القلب فكان الرجل يربط بالحبل الغليظ من وسطه وخلفه أمثاله ، ويسيرون على هذه الحال صفا الى أن يبلغوا (المركز) فيحبسون فى غرفة المتهمين ثم يرحلون الى فلسطين وكنت أنجح أحيانا بالرشوة فى استخلاص بعض هؤلاء المساكين ، وذات مرة وأنا بالمنزل سمعت صراخا ودخلت على نسوة فى فزع ونحيب ، وعرفت أن ثلاثة ممن يزرعون أرضنا ألقى القبض عليهم وهم يحرثون فى الحقل فخرجت ووجدتهم مربوطين بالحبال الغليظة بحراسة أحد الشرطة . أما سائر الشرطة فقد تركوهم كى يغزوا قرية أخرى ، واستطعت بمساومات مع الشرطة أن أحصل على الافراج عنهم ولكننى لم أنجح كل مرة ، ففى ذات يوم قصدت الى مأمور الزقازيق أطلب منه اطلاق اثنين من الفلاحين فتأملنى ثم قال : أنا عايز أرحلك أنت لفلسطين فتركته اذ لم تكن الظروف وقتئذ تأذن بالتحدى وفى تلك السنوات السود أثرى كثير من العمد ثراء فاحشا . فقد فرضوا ضرائب على جميع الشباب من سن العشرين الى الخمسين على مقدار ما يملك ، فهذا يؤدى خمسة جنيهات وذاك عشرة جنيهات حتى يعفيهم من الاعتقال وبعثهم الى فلسطين ، وعرفت عمدة كان يملك ست أفدنة فقط جمع نحو خمسة آلاف جنيه بهذه الطرق ، وكان الفلاحون يجوعون كى يجمعوا هذه الغرامات ويؤدوها » (١) .

ولم يكن ذلك رأى شهود العيان من المصريين فقط بل أيضا أيده الانجليز أنفسهم فيذكر الجود وكان أميرالايا فى الجيش الانجليزى « ان كل مدير لمديرية كان مطالبا بأن يقدم من مديريته عددا معينا من الأنفار ، وفشله فى ذلك كان يجر عليه لوما قاسيا من رؤسائه ، أما كيف كان المديرون يحضرون الأنفار ، فقد كان ذلك متروكا لتصرفات الموظفين فى كل مديرية وهؤلاء كانوا يهمون بالاشارة ، فشيوخ القرى اختاروا الضحايا الذين كانوا يرونهم مناسبين دون تدخل من أحد ، لقد حانت لهم الفرصة لتصفية ثأرهم المبيت ضد أعدائهم . وأصبحت مصر الزراعية تمزقها الحزازات فوشت العائلات ببعضها البعض الآخر وتسمم الجو بالفساد ، وكان الفلاحون الذين لا يستطيعون دفع المال من أجل اعفائهم أول من كانوا يؤخذون غالبا ثم يعقبهم الأعداء الشخصيون لحكام القرية ، وكان أهل الريف الذين يرتادون الأسواق يخطفون عنوة ثم يرحلون الى أقرب معسكر عمل ، واذا كان أغلبهم يستسلمون للمصير فان البعض منهم كان يقاتل من أجل حريته ويولى الأدبار » (٢) .

وسجلت مجلة نيشن هذه الحقيقة : « ان تجنيد فرق العمال فكك عرى

---

(١) سلامة موسى : المرجع السابق ، ص ص ١١٢ ، ١١٣ .

(٢) Elgood : op. cit., p. 318.

الأسرة بغياب عائلها ورجالها مما أدى الى زيادة الفقر وانحلال الأخلاق كما أدى سوء معاملة هؤلاء العمال الى تعرضهم للأمراض وموتهم حتى أننا قد صنعنا ما عم من سخط علينا بين طبقات الفلاحين ، فقد وعدنا مراعاة لشعور المسلمين ألا نزج مصر فى الحرب ولكننا نقضنا هذا الوعد بتجنيد فرق العمال وما كان تجنيدنا اياها على طريقة التجنيد الاجبارى المنظم بل كان يجرى على أيدى أعوان يتفرقون فى القرى ويتصيدون العمال من هنا وهناك ، وقد عاد الكرباج الذى طالما افتخر اللورد كرومر بالغائه » (١) .

ويصف الدكتور جست Guest فى Daily News ٢٨ مارس ١٩١٩ ما رآه « وضع نظام للتطوع ظهر عدم كفايته وصدرت الأوامر بأخذ العمال من الحقول بالاكراه ، والطريقة هى أن يدخل رجال الحكومة القرية وينتظرون رجوع الفلاحين الى منازلهم فى الغروب فيحيطون بهم وينتقون خيرهم للخدمة ، فاذا رفض أحدهم هذا التطوع الاجبارى جلد حتى الاقرار بالقبول وعلى هذا النحو ساقوا صبيانا من سن أربعة عشر عاما وشيوخا فى السبعين ، وكانت الجموع المريضة المنهكة تساق لتأدية الأعمال الحربية والكرباج كفيل بتسخيرهم من غير حساب ، وأصبح الجلد من الأعمال اليومية ، وكان المكلفون بالجلد هم أطباء أنفسهم حتى أن المرضى كانوا يخافون أن يختلط الأمر فينتقلون خطأ من طابور المحتاجين للعلاج الى طابور المحكوم عليهم بالجلد » (٢) .

ويقول سعد زغلول فى مذكراته معلقا على ذلك الموقف : « افتخر رجال الحكومة بأنهم عارضوا فى التجنيد الاجبارى حتى منعوه ، ولكن الحكام فى سائر أنحاء القطر أخذوا من بضعة أيام يتخطفون الناس من الأسواق ومن الطرقات ومن المساكن فى القرى ويحملونهم على أن يكتبوا طلبا بالتطوع فى الحملة ، ومن يأبى من المخطوفين أن يختم ضرب حتى يختم ، وفى بعض المراكز أقيم صانع أختام على باب المركز ليصنع ختما لكل من ليس له ختم وقد أبى رجال فى اطسا — بمديرية المنيا — فجاءتهم قوة من العساكر والخفر وساقتهم الى المركز مكبلين بالحديد ، وهنا ضربوا حتى ختموا ، وحدث أن بعض الأهالى فى جهة فارسكور رفضوا السير مع العساكر ، وحدثت مشاجرة أدت الى اطلاق النيران عليهم فقتل ثلاثة ، والسلطة تستعين فى جمع الناس بكل طريقة من طرق الجبر والاكراه ، وهذا فضلا عن كونه أشد أنواع مصادرة الأمة فى حريتها ، فانه احتقار لها بانزالها منزلة الأنعام السائرة » (٣) .

هكذا كان الناس يساقون مكرهين الى ميادين الحروب ولنأت الآن عـــلى

---

(١) الأهرام ٢٠ ديسمبر ١٩١٩ .

(٢) Sobry, M. : La question de l'Egypte depuis Bonapart jusqu'à la revolution de 1919, pp. 85, 86.

(٣) سعد زغلول : السابق ، كراسة ٢٨ ، ٥ يونيو ١٩١٨ ، ص ١٥٨٥ .

فكاهة ذكرها سعد فى احدى خطبه فقد قال انه رأى جنديا يسوق مصريا مكبلا فى الحديد فلما مثل أمام رئيسه قال له من هذا ؟ فرد عليه الجندى قائلا : هذا متطوع يا سيدى (١) ٠

ويذكر أحمد شفيق فى حولياته حادثة ان دلت على شيء فانما تدل على الضيق الذى حصل بالمصريين من جراء هذه السخرة يقول : « ان قطارا كان يقل جماعة من المتطوعين المحروسين بالجند شاهرى أسلحتهم قاصدا القنطرة ، فما أن ابتعد عن مدينة الزقازيق بضعة كيلو مترات حتى ألقى واحد منهم بنفسه من القطار أثناء السير تخلصا من التطوع الذى لم يكن بالطبع بناء على رغبته فمات فى ساعته » (٢) ٠

من هذا نرى أن تموين الجيش البريطانى أصبح ضريبة اجبارية تزداد باتساع العمليات الحربية ، وسارت مواكب العبيد المقيـدة بالحديد والأغلال لتحارب معركة الحرية كما كان يسميها الحلفاء ٠

وكم من المخازى والفساد واكب هذه العملية الغريبة ، فكثير من العمد انتهزوا هذه الفرصة ليوقعوا بأعدائهم وأبناء الأسر المناوئه لهم فيخصـونهم بالاختيار للعمل فى السلطة ، بينما يتسترون على معارفهم ويعفونهم منها وسويت حسابات قديمة على أثرها تمزقت مصر من الأحقاد والثأر واتهمت الأسر بعضها البعض وسمم الفساد جو البلاد ٠ كما اتسعت الذمم بقبول الرشاوى وامتد خيطها من العمدة الى مأمورى المراكز والضباط البريطانيين أنفسهم ، وبالرغم من صدور الأحكام التى تمنع قبول الهدايا (٣) الا أن الثراء انتاب الكثير من العمد بعد أن فرضوا الاتاوات على الأهالى ليعفوا من الذهاب للحرب ٠ وساءت أحوال الأسرة ومضى النساء يبعن حليهن حتى يدفعن مقابل الافراج عن أولادهن وأزواجهن من خدمة السلطة (٤) ٠

العمل الميدانى :

سيق المصريون الذين جمعتهم « السلطة » الى ميادين الحرب لا الى الميدان الشرقى فحسب بل الى الغربى أيضا ٠ فأخذوا من الدار الى النار حرموا من وطنهم وآلهم ، وذهبوا الى حيث يقومون بحفر الخنادق وتمهيد الطرق وانشاء السكك الحديدية ونقل الأغذية والذخائر وذلك لتقديمها للخط الأمامى وتحت

---

(١) البلاغ ٢١ فبراير ١٩٢٣ ٠

(٢) أحمد شفيق : المرجع السابق ، ص ٩١ ٠

(٣) المجموعة الرسمية لعام ١٩٢٠ ، عدد ٨٩ ، ص ١٤٤ ٠

(٤) Les Nouvelles, 15 Dec. 1915.

وابل قنابل الألمان وحلفائهم • وقد بلغ عددهم ٢٠٠ر١٠٠ عاملا حتى نوفمبر ١٩١٨ (١) •

منذ أواخر عام ١٩١٥ بدىء فى استخدام العمال المصريين لمضاعفة الخط الحديدى الممتد من الزقازيق للاسماعيلية لتسهيل عملية نقل القوات والعتاد الحربى الى منطقة القناة ، ثم ما لبث أن استخدم هؤلاء على نطاق واسع لبناء خطوط السكك الحديدية الخفيفة والطرق المرصوفة فى الأراضى الصحراوية الممتدة على الجانب الشرقى من قناة السويس ، وبذلك عبدوا الطرق ومدوا أنابيب المياه وبنوا الخزانات والصهاريج وأقاموا مخازن العتاد والتموين وخطوط البرق والتليفون وأنشأوا التحصينات ومهدوا الأحجار والأشواك وأعدوا المياه والأقوات ومدوا أسلاك الأرانب فوق الرمال لتيسير قوات الامبراطورية • (٢)

فمن غير المصريين يقوم بهذا العمل ؟ لقد فرض عليهم وما عليهم الا الطاعة ، وأصبحت القنطرة مركزا لتجمع عدد كبير من العمال ، وبفضلهم غدت ملتقى هاما للخطوط الحديدية •

عقب تقهقر الأتراك عن القناة تتبع الانجليز خطواتهم فى سيناء وكانت قاحلة لا ماء فيها ولا سبيل لسير الجيوش بمدافعها وعرباتها الضخمة ، وهنا « أرسل الانجليز أمامهم العمال المصريين والرديف المصرى لتمهيد الطرق حتى أصبحت صالحة لسير السيارات ولجر المدافع الضخمة ، ومدوا بجوارها أنابيب المياه المأخوذة من ترعة الاسماعيلية ، وأنشأوا سككا حديدية لسير القطارات عليها ، فاصبحت الصحراء هينة الاختراق بفضل العمال المصريين والرديف المصرى ، وصار زحف الجنود فيها مستطاعا بعد أن كان ضربا من المخاطرة » (٣)•
ويؤكد Kearsy أنه « لعبور شبه جزيرة سيناء وحدها يلزم قطع مائة وعشرين ميلا على الأقل من القنطرة ، وفى هذا السبيل كان من الضرورى زيادة فرق العمال المصريين لانشاء الخطوط الحديدية كما كان من الضرورى اعادة تنظيم حملة الخط الأول على استخدام الجمال والحمير لامكان تموين القوات فى الصحراء من رأس السكة الحديدية ، وهذه الأعمال كانت تتطلب وقتا لاتمامها ، كما وأن التقدم سيكون حتما بطيئا اذ أن سرعته ستتوقف على سرعة انشاء السكة الحديدية التى قدرت سرعة انشائها بحوالى عشرون ميلا فى الشهر » (٤) •

وتصف صحيفة وادى النيل المجهود الحربى للعمال « من القنطرة شرقا تجد الاستحكامات المنصوبة ، وهذا الطريق البرى مرصوف بالأحجار الصغيرة

---

(١) Allenby : op. cit., p. 108.

(٢) Lloyd : op. cit., pp. 216, 217, 223, The Egyptian Gazzette, Dec. 24, 1916.

(٣) Massey, W. T. : The desert compaigns; p. 31.

(٤) Kearsy : op. cit., p. 12.

بواسطة الوابورات ، وحفرت الآبار على الجانب المقابل للقنال حتى تتمكن العربات الرائحة الجاية مدة عظيمة من النهار من اطفاء جيشان الأتربة بالرش ، هذا هو الحال الذى عليه الطريق من الاسماعيلية الى القنطرة وللمصريين يد فى تسوية الطرق واقامة الاستحكامات وهم الذين يشتغلون بالحفر لتسيير مياه الأنابيب فيها » (١) .

وقد أرجع الكثير من مسجلى الحوادث الحربية أن السبب فى نصر القائد « مرى » فى معاركه انما هو راجع الى المصريين « والفضل كله اليوم فى النصر يعود الى فرقة المصريين الذين مدوا السكك الحديدية مسافة مائة ميل فى الصحراء القحلة بل وتعدوا ذلك بأن نقلوا الأحمال الثقيلة والغذاء والثياب والذخيرة وتلك الآلات التى تتدفق الى خطوط القتال ، ويعود الفضل أيضا الى القوافل القائمة بها فرقة العمال المصريين » (٢) .

لقد تقدم العمال المصريون بكل همة ونشاط غير مبالين للأخطار ، فحدث على سبيل المثال أثناء عملهم بالعريش استطاعت قنبلة أن تقتل وتجرح تسعة وثلاثين منهم ، ورغم ذلك فلم يتوان البقية عن العمل (٣) .

وتصف صحيفة المقطم نشاط العمال المتزايد فتقول : « استخدمت انجلترا علاوة على العمال العاديين عددا كبيرا من الصناع البارعين من نجارين وحدادين وسمكرية وصناع خيام وعمال محاجر وبرادين وسائقى قطارات ، وعمال هذه الفرقة يقولون ان أهم صناعة من صناعاتهم انشاء الاستحكامات ، وقد أنشأوا برعاية الملاحظين البريطانيين خطا (للديكوفيل) على الشاطىء الغربى بمصر ، وبنوا مخافر وعنابر ، وشقوا الطرق ، وأنشأوا أرصفة الموانى وبلغ من نشاطهم وهمتهم أن مائة وخمسين رجلا أفرغوا تسعمائة طن من المهمات الحربية فى احدى الناقلات فى يوم واحد وكوموها أحسن تكويم ، وفى شرقى القنال فان فرق العمال أنشأت جانبا كبيرا من الاستحكامات الدائمة وشبكة سكك الحديد ، ومدوا أنابيب المياه ، ويظن المرء أن مد أنابيب الماء من الأعمال الهينة ولكنها فى الحقيقة مهمة شاقة تقتضى نقل ونصب ألوف الأطنان من الأنابيب وتمهيد الطرق ، وقامت فرق العمال باعمال كبيرة القيمة فى شحن البواخر وتفريغها فى الموانى المصرية وفى توزيع المهمات فى مواضع شتى على شاطىء البحر فى الشرق والغرب ، ومع أن السواد الأعظم منهم لم يألف ركوب الزوارق والنقل بها ومع شدة المجارى البحرية فى القسم الجنوبى الشرقى من البحر المتوسط ، فقد تعلموا أن يعملوا فى هذه الأحوال الشاقة ويذللوا الصعوبات ، وبعد ما

---

(١) وادى النيل ١٠ اغسطس ١٩١٦ .

(٢) الأفكار ٢٧ يوليو ١٩١٧ .

(٣) Massey : op. cit.

استولى الجيش على العريش واحتلها أنزل العمال المذكورين مقادير من المهمات لا تقع تحت حصر من البواخر الى البر فى القسم الجنوبى من فلسطين » (١) ، هذا وقد استخدم العمال المصريون فى بناء المطارات أيضا (٢) ٠

وكان انتصار الانجليز على الأتراك فى رومانه يعود الى تلك الأعمال الباهرة والخدمات الجليلة التى قامت بها فرقه العمال المصرية هذه « فقد مهدت الطرق لتقدم الجيوش البريطانية ومدت السكك الحديدية ودكت الحصون والاستحكامات ونظمت بمهارة أنابيب المياه وطمرتها تحت الرمال وأقامت لوازم التليفون والتلغراف ونصبتها فى أماكن معينة ، ونقلت أيضا المهمات والذخائر الى مسافات معينة شاسعة وفى أرض يصعب فيها السير وبالاختصار فان فرقة العمال قامت بجميع الأعمال الهندسية الثانية فأطلقت يد الجنود للقيام بواجباتهم الحربية الخصوصية ، والحق أن هذه الفرقة العظيمة القيمة يحق لمصر أن تفاخر بالأعمال الباهرة التى قد قام بها أبناؤها كما يحق أيضا لضباط هذه الفرقة من أكبرهم مقاما الى أبسطهم رتبة أن يباهوا بأعمالهم التى يستحقون من أجلها كل مديح وثناء ، ولا شك أن الجيش مدين لهم بنجاحه دينا عظيما لأن حسن دفاعه عن القناة راجع الى جدهم وسعيهم ، ثم ان البوليس المصرى التابع لهـذه الفرقة يستحق هو وقومندانه المصرى وضباطه كل مديح وثنـاء ، فان المحافظة على النظام بين الألوف من الفلاحين غير المدربين ليس من الهينات » (٣) ٠

ودارت مناقشات فى مجلس العموم البريطانى حول هؤلاء العمال ، فكان الجميـع يعترف بتلك الأعمال القيمة التى أفادت الجيش البريطـانى أثنـاء الحرب (٤) ، كذلك أشاد المهندسون الانجليز فى بور سعيد بمهارة العمال ، فهناك خطابات منهم الى المسئولين فى القاهرة ٠ اذ كانوا يواصلون عملهم ليل نهار ، وذلك لعدم امكان تزويد المدينة بعمال أكثر (٥) ٠ وبذلك أخل بالعقود التى حددت مدة العمل بثلاثة أشهر فى بادىء الأمر ثم بستة أشهر فأصبح العامل أو الجمال يدخل تحت خدمة السلطة ولا يعرف متى ستنتهى هذه الخدمة ٠

ويبين اللنبى فضل المساعدات المصرية فى حملته على فلسطين وسوريا اذ يسجل : « تبعت فرقة العمال المصرية الجنود منذ اليوم الأول من أيام القتال فكانت تسير وراءهم فى زحفهم وتعمل بهمة ونشاط ونجاح فى تحسين الطرق وقد كانت بعض فصائل هذه الفرقة تعمل فى خطنا الأصلى وبهذا فان مصر مسئولة الى حد كبير عن نجاح الحلفاء فى فلسطين » (٦) ٠

---

(١) المقطم ١٧ سبتمبر ١٩١٧ ٠

(٢) Government Egy. Canal secretairiat, No. 159, 9 Fev. 1918, p. 63.

(٣) الأهرام ١٣ أغسطس ١٩١٦ ٠

(٤) House of Commons, Vol. 113, March 20, 1919, p. 2369.

(٥) Gouv. Egy. Canal secretairait, No. 27, 22 Juin 1916, P. 14, No. 36, 24 Juillet, 1916, p. 9, No. 116, 18 Octobre 1918,p. 37.

(٦) TheEgyptian Gazette, Nov. 31, 1919.

وأقر ملنر في تقريره بأن الشعب المصرى تحمل التكاليف والقيود التى اقتضتها تلك الحرب بالصبر والرضا والخدمة التى قام بها فيلق العمال المصرى كانت خدمات لا تثمن ولا غنى عنها للحملة الفلسطينية (١) ·

هذا عدا البطولات التى قام بها العمال ، فعلى سبيل المثال لا الحصر حدث أنه فى شهر مارس ١٩١٧ أن كان جندى انجليزى يسبح فى مياه البحر قرب العريش فجذبه التيار وبعده عن البر فأخذ يصيح طالبا العون ، وفى الحال ألقى أحد رجال فرقة العمال بنفسه وأخذ معه خشبة تساعد الجندى على العوم ثم عاد الى الشاطىء وجاء بحبل طويل ثم سبح فى البحر المتلاطم بالأمواج حتى بلغ الجندى فأعطاه طرف الحبل وانتشله · وقد حدث أن طيارة من طيارات ألمانيا أغارت ليلا على احدى المستشفيات القائمة على خطوط المواصلات ، وقذفت عليها القنابل ، وكان فى المغاور المجاورة للمستشفى جاويش ومعه مائتان من رجال فرقة العمال ، فخرجوا على الفور وساعدوا فى نقل الجرحى من المستشفى الى مكان أمين وعرضوا أنفسهم للمخاطر (٢) ·

ووصل مجهود مصر الحربى عبر البحار وليس على حدود مصر فقط ، فخدم العمال المصريون فى الميدان الغربى وبلغ عددهم حوالى ١٦٫٣٠٠ رجل فى منتصف عام ١٩١٧ (٣) ·

ذلك أنه لما طارت أخبار نجاح العمال الى فرنسا ، خاطب العسكريون فيها ولاة الأمور فى مصر ، ومن هنا تم الاتفاق على ارسال بعض هذه الفرق الى فرنسا لتحل محل الجنود البريطانيين ليرسلوا الى خطوط النار (٤) ·

وفى مارس ١٩١٧ أرسلت بعثات العمال المصريين من مديرية جرجا للخدمة فى فرنسا «فبات أهلهم على أحر من الجمر منتظرين ورود الأخبار عنهم وقد زار حضرة مدير جرجا المعسكر منذ يومين فقابله جناب القائد فرأى سعادته فرقة من العمال مستعدين للسفر الى فرنسا فخطب فيهم باذلا لهم النصح ومبينا الفوائد التى تعود عليهم من هذا السفر ماديا وأدبيا ولا سيما فى هذا الحين الذى اشتد فيه الغلاء طالبا لهم بالسلامة » (٥) ·

هذا ومضت الصحافة تنشر شروط الاغراء للحث والتشجيع على السفر ، فكل عامل يرغب السفر الى فرنسا يعطى بذلة ، بالطو ، حذاء ، ٣ بطانيات ،

---

(١) Milner : Report, p. 10.

(٢) المقطم ١٧ سبتمبر ١٩١٧ ·

(٣) Wingate : op. cit., p. 214.

(٤) المقطم ١٧ سبتمبر ١٩١٧ ·

(٥) نفس المصدر ، ٢١ أبريل ١٩١٧ ·

٢ قميص ، ٢ جوارب ، لباس ، قميص من الفانلات هذا عدا الطعام الذى يحتوى على لحم ، خضر ، شاى ، لبن ، سجاير وأجرة اليوم ٨ قروش (١) .

وتقول الأهرام « نزلت فى فرنسا حديثا الفرقة الأولى من قسم الأشغال المصرى القادمة اليها من مصر للاشتغال بأعمال مختلفة فيها أجور طيبة ، وقد وصفها كاتب ممن حضروا حفلة استقبالهم فى فرنسا فقال : جاءتنا فرقة من العمال المصريين للعمل معنا هنا فى أعمال مختلفة مؤلفة من رجال ممتلئين صحة وقوة ونشاطا وقد قوبلت مقابلة حافلة عند نزولها الى البر وأعجبنا جميعا من حسن هندامها ونظامها ودلتنا هيئتها بلباس الخاكى على أنها فرقة جد وعمل ولاحظنا على وجوه رجالها السرور بالمناظر الجديدة التى وقعت عليها أبصارهم فى البلاد » (٢) .

وبرهن هؤلاء العمال على كفاءتهم فقد عملوا فى جو يختلف كل الاختلاف عن البيئة التى عاشوا فيها ، حضروا من أقصى صعيد مصر ليتحملوا أعباء المعيشة فى فرنسا ورغم ذلك فقد أثبتوا جدارة فائقة ، فقد حدث مرة فى احدى موانى فرنسا أنهم فرغوا من شحن باخرة تحمل ٣٠٠٠ طن من البضائع والمهمات المختلفة فى أقل من ثلاثة أيام ، وفرغوا مرة أخرى من احدى البواخر ستة آلاف طن من الشوفان فى يومين وجاء التقرير الرسمى عنهم ما نصه : « وكل ما شاهدناه من أعمال هذه الفرق يشهد بالفضل للضباط وصف الضباط والرجال فيها ، فانهم يؤدون أعمالهم برغبة ونشاط يبعثان على أشد الارتياح » (٣) .

ولم يقتصر ارسال العمال الى فرنسا فأوفدوا الى اليونان والعراق فأدوا خدمات جليلة هناك وعملوا تحت نيران القنابل والمدافع والبندقيات (٤) .

هذا بالاضافة الى الخدمة فى الدردنيل ، ففى شهر مايو ١٩١٥ جمعت أورطة من الأشغال مؤلفة من ست بلوكات للخدمة فى الدردنيل ، واستلم قيادة الأورطه والبلوكات ضباط انجليز فى خدمة الجيش المصرى « وقامت هذه الأورطه مدة الأربعة الأشهر التى خدمتها فى شبه الجزيرة بخدمات فائقة تحت وابل مستمر من القنابل » (٥) . وذهبت طوائف من العمال الى طنوس ومدروس للقيام باعداد الطرق وتمهيدها للقوات المحاربة . وفى سلانيك أرسل عدد كبير من العمال المصريين قدر فى عام ١٩١٦ بستمائة عامل ثم ما لبث أن وصل الى سبعة آلاف عامل فى عام ١٩١٨ وكان عملهم هناك القيام بانشاء السكك الحديدية (٦) .

---

(١) نفس المصدر .

(٢) الاهرام ١٣ أبريل ١٩١٧ .

(٣) المقطم ١٧ سبتمبر ١٩١٧ .

(٤) The Egyptian Mail, April 13, 1917, Badcock : op.cit., p. 23.

(٥) الأهرام ٢٦ يناير ١٩١٧ .

(٦) Major R.A.M.C. : with R.A.M.C. in Egypt, 278, The Egyptian Mail, April 4, 1918.

كذلك استخدمت فرق كثيرة من هؤلاء العمال في ميدان العراق الحربى . فوصلها فى عام ١٩١٦ حوالى ٨٫٢٨٠ عاملا ، فخلفوا فيها آثارا من أعمالهم وصنعهم من البصرة الى بغداد ، هذا بالاضافة الى أن الانجليز فى العراق راوا أن يستعينوا بجانب من العمال المصريين على حفظ النظام والأمن العام فى مدينة بغداد فألفوا قوة من البوليس اختاروا رجالها من العمال المصريين فقامت هذه القوة بعملها حق القيام (١) ، وبلغ العمال الذين عملوا فيما وراء البحار نحو ثلاثة وعشرون ألف عامل (٢) .

لعبت فرقة الجمالة دورا مهما ـ لا يقل أهمية عن دور العمال ـ فى الحرب مع انجلترا وحلفائها سواء على شرق مصر أو غربها فانه حينما شرع الجيش البريطانى فى تتبع الأتراك فى سيناء كان الطعام والمياه والذخيرة تنقل فى كل مكان على ظهور الجمال قبل أن تمد الطرق والسكك الحديدية ، فان طبيعه الحرب تقضى على فصائل من الجنود أن يرابطوا فى مواقع بعيدة عن الطرق المطروقة . اذن فلابد من استخدام العدد الكبير من الجمال لايصال المهمات والمؤونة والماء اليهم ، ولا يخفى أن الجمال يستهدف فى بعض الأحيان لشىء من الخطر ، فالماء والذخيرة من أشد الضروريات فى أثناء المعارك ويغلب أن تكون الجمال الوسيلة الوحيدة لنقلها الى المواضع التى تبدو فيها الحاجة اليها ، وقامت هذه الفرقة بنصيبها فى كل معركة دارت فى الميدان شرقى قناة السويس ، وفى كل قتال حربى مع السنوسيين ، ولعبت فرقة الجمالة دورا مهما فى معاونة لورانس ضد الأتراك . وفى مساعدة اللنبى فى الاستيلاء على العقبة ، فحملوا المؤن والامدادات من العقبة للقوات العربية التى كانت تحت قيادة الأمير فيصل فى معان (٣) .

كذلك أدى الجمالة خدمات كبيرة فى نقل الجرحى البريطانيين ، فكانوا ينقلونهم باسرع ما يمكن وبدون خوف من القنابل والنيران التى كانت تحيط بهم (٤) .

وقد أطلع مندوب المقطم على بعض السجلات من أعمال البسالة والاقدام التى قام بها بعض الجماله ، فمن ذلك أن الأمر صدر فى بئر دويدار الى جانب منهم بأن يصعدوا بالجمال الى تل « طلبا » وكان ذهابهم الى ذلك التل ثلاث مرات من الأعمال المقرونة بالخطر ، وكتب القائد يقول فى ذلك ان الباش ريس عبد الله خيرى سلك سلوك باهرا النهار بطوله ، وقاد رجاله صاعدا الى التل فى المرات الثلاث باتم نظام وذكر القائد أسماء آخرين امتازوا فى تلك المعركة

---

(١) المقطم ١٧ سبتمبر ١٩١٧ . Elgood : op. cit., p. 240,

(٢) Macmunn : op. cit., p. 365.

(٣) The Near East, March 9, 1917, Laurance : Seven pillars, pp. 516-572.

(٤) Wavell : op. cit., p. 62.

التى دارت فى يوم ٢٣ أبريل ١٩١٦ ــ معركة رومانه ــ وبعد هذه المعركة وجه القواد الأنظار الى ثبات الجمالة تحت قنابل المدافع وقالوا « انهم لم يفارقوا جمالهم بل سلكوا مسلكا عظيما » وحدث مثل ذلك فى رفح وبقية المدن ، على أن أفعال الفرقة ظهرت على أسمها فى « المعركتين اللتين دارتا فى فلسطين حيث أثبت رجالها أنهم أهل للاسم الحسن الذى أحرزوه » ، فقد وجه قواد الفرق نظر القائد العام الى خدمات الفرقة الجليلة وشدة لزومها ، وسألوا الجمالة أى مكافأة يفضلون ، فاختاروا أن يعطوا مالا ولكن الضباط رأوا أن يعطوهم مكافآت . وعرض على قائد احدى الفرق أسماء سبعة وعشرين رجلا من الجمالة ، وقال عنهم الضابط الذى عرض أسماءهم ان الوصف المعتاد لا يفيهم حقهم من الثناء على حسن منالهم ، فقد فعلوا فى كل مرة فوق الواجب المفروض عليهم ، وفى مقدمة الممتازين الباش ريس عمر محمد عمر ، ولكن الجمال حامد عبد الله معوض لا يقل عنه فقد ظل ستة عشرة ساعة متوالية واحداى يديه مجروحة جرحا بالغا بعد ما عضه أحد الجمال (١) .

وهناك شواهد أخرى من هذا القبيل وهى مقتبسة من تقارير القواد والضباط فقد خدم الباش ريس نور الدين سعيد خدمة عظيمة فانه رد الطمأنينة الى نفوس الجمالة وجعلهم ينطرحون على الأرض بقرب جمالهم وساعد الجنود فى نقل الذخيرة فى الخنادق تحت نيران المدافع السريعة والبنادق والقنابل . كما عهد الى الباش ريس عباس سعيد محمود والريس محمد عثمان فى نقل جماعة من الجرحى فجاء بهم الى مكان الأمان تحت نار القنابل وهما رابطا الجأش ، وقد صوب الأتراك عددا كبيرا من القنابل أثناء معركة رومانه الى نقالات الجرحى فى الميدان ، فاستقر الرأى على نقل كل شىء الى موضع أمين ودعى الجمالة الى المساعدة وبينما هم ذاهبون بالجرحى سقطت بجانبهم تسع عشرة قنبلة وهم سائرون فلم يفر واحد منهم بل ظلوا يقودون جمالهم كأنه لم يحدث حادث ما ، وقد احتفل فى ٢٧ مايو ١٩١٦ بعرض بعض بلوكات الجمالة فى فلسطين فوزعت عليهم المكافآت والجوائز اعترافا ببسالتهم ، وكان الجمالة لابسين الجلاليب الزرقاء وعلى رؤسهم الطاقيات ، وقد أجمع الذين عرفوا هؤلاء الجمالة على أنهم استحقوا هذا التكريم أعظم استحقاق (٢) .

وتشجيعا للمزيد من التضحية والتفانى أنعم السلطان بنوط الجدارة من الفضة والبرونز عليهم وخاصة الجرحى الذين استمروا فى ممارسة عملهم تحت النيران . هذا وقد أقر اللنبى بخدمات هذا الفليق فى برقية له لوزارة الخارجية البريطانية فى ٣١ أكتوبر ١٩١٨ « ان فيلق الجمالة قدم خدمات قيمة ساعدت كثيرا على النصر للحملة » (٣) .

---

(١) المعظم أول أغسطس ١٩١٧ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) Badcock : op. cit., p. 23.

وهكذا قدمت مصر أقصى ما يمكن تقديمه في هذه الحرب لصالح انجلترا . ووقع العبء الأكبر من هذه التضحيات على العمال والفلاحين الذين استخدمتهم السلطة ، فقاسوا من طريقة جمعهم أو بمعنى أصح خطفهم التى استمرت طيلة عامي ١٩١٧ ـ ١٩١٨ حتى بعد اعلان الهدنة فانتشر الرعب فى نفوس الفلاحين وأصاب الحزن كل منزل حيث فقد فردا من أفراده وأهله لا يعلمون هل سيعود أم لا ، فلم تنقطع المآتم ولم يهدأ الندب على تلك الألوف التى ذهبت ، خطفهم الانجليز لكى يرمونهم فى أتون النيران خارج بلادهم ، وقد أجمع المؤرخون والمعاصرون لتلك الفترة على أن من أهم أسباب ثورة ١٩١٩ ذلك التجنيد الاجبارى الذى وقع على القرى المصرية ، وبالرغم من تلك الخدمات الجليلة التى قدمها الفيلقان لانجلترا وحلفائها الا أنهم قاسوا الأمرين فقد عاشوا فى ظروف غير طبيعية ، وزاد الأمر وبالا عليهم المعاملة القاسية التى كانوا يلقونها على يد قوات الانجليز الذين انتزعت من قلوبهم الشفقة والرحمة .

وتقول صحيفة رائد العمال الانجليزية فى ٣ أبريل ١٩١٩ : « كان الكرباج هو الوسيلة الوحيدة لتسخيرهم ، وأصبح الجلد من الأعمال اليومية فى معسكرات هؤلاء المجندين وأى معسكرات .. لا خيام .. وسوء تغذية .. ورداءة كساء .. وقلة غطاء .. ثم أمراض تفترسهم افتراسا لقد كانوا يموتون كالذباب فى الصحراء ، وكثيرا ما رفض السماح لهؤلاء المجندين بالعودة الى بلادهم حتى بعد انتهاء مدة خدمتهم » (١) .

هذا ويقر ملنر فى تقريره عن أسباب ثورة ١٩١٩ أن المستشفيات التى كان يمرض فيها هؤلاء العمال لم تكن على ما يـرام وأنه كان من بين ضباطهـم كثيرون يجهلون لغتهم ولاخبرة لهم بمعاملتهم .. وتظلموا من اطالة مدة خدمتهم الى ما بعد التاريخ الذى تعاقدوا عليه وذلك بعد ما تولت السلطة العسـكرية أمر التجنيد (٢) وقد صرح مستر تشرشل فى مجلس العموم البريطانى بأن الخدمة الطبية للفلاحين المصريين العاملين سواء فى فرقة العمال أو الجمالة كانت ناقصة وغير كافية (٣) .

ويؤكد الدكتور « جست Guest » فى صحيفة (Daily News) انه « لسوء تغذيتهم وملبسهم وعدم وجود مستشفيات كافية ورداءة أحوالها كانت نسبة الوفيات بينهم عالية جدا رغم عدم نشر احصاءات » (٤) .

ويصفهم السير فالنتين تشيرول « وبعد أن جنـد هؤلاء عاملنـا هم كمـا يعامل العمال الرخيصـو الأجـر عادة ، فكانت أطعمتهم وملابسـهم وخيامهم وفراشهم رديئة ، وقال قس انجليزى ان الفلاحين فى هذه الفرق كانوا يتساقطون

(١) شهدى عطية : تطور الحركة الوطنية ١٨٨٢ ـ ١٩٥٦ ، ص ٣ .

(٢) Milner : op. cit., p. 11.

(٣) House of Commons, vol. 114, April 3, 1919, p. 1412.

(٤) Sabry : op. cit., pp. 85, 86.

فى سيناء وفلسطين والعراق تساقط الذباب » (١) ٠

وكان الرافعى شاهد عيان فيقول : « كانوا يعاملون معاملة المعتقلين وما هم بالمذنبين يربطون بالحبال ويساقون كالأنعـام ويقـام عليهم الحراس وينقلون بالقاطرات فى مركبات الحيوانات ويعاملون أسـوأ معاملة ولا يعتنى بصـحتهم ولا بغذائهم وراحتهم وكانوا يوعدون بأن يستخدموا لمدة محـدودة ثم تمد على الرغم منهم ومات كثيرون منهـم فى ميادين القتـال أو فى الصحراء فى سيناء والعريش أو فى العراق وفرنسا وأصيب كثير منهم بالأمراض والعاهات التى جعلتهم عاجزين عن العمل » (٢) ٠

وقد سـئل بعض من قضى عليهم نكد الطالع بأن يكونوا ضـحية هذا « التطوع » فقالوا انهم ذاقوا الأمرين وكانوا فى أسوأ حال ، وزيد أيضا أنه كان نصيب البعض منهـم أن أسر فى الجيش التركى شـهورا أو أصيب البعض بجراح أليمة (٣) ٠

ونشر الكاتب الأمريكى مستر « جورج كريل » فى مجلة Le Gppe فى ٢٧ سبتمبر ١٩١٩ عما قاساه هؤلاء العمال « لقد سيق مليون ومائتا ألف من المصريين الى الخدمة فى فرقة العمال والنقل وما يتهم به الوطنيون المصريون السلطة العسكرية أن معاملتها للعمال كانت أسوأ من معاملتها لدواب النقل فقد كان طعامهم رديئا ومسكنهم فاسدا وكانت العناية الصـحية بهم ضئيلة فمات هـؤلاء المجندون التعساء كالذباب ، وكلما قضى منهم نفر وخـلا بموتهم مكان ساق الكرباج الآلاف غيرهم ليحـلوا محلهم ، ودم هؤلاء الرجال هو الذى يجرى بين مصر وانجلترا اليوم (٤) ٠ وقد تعرض هؤلاء العمـال للنار وهم يحفرون الخنادق وينقلون المؤن والذخائر على خطوط القتال ٠

ويصف الجود ظروف العمل يقول : « فى الشهور الأولى من عام ١٩١٦ لم يكن لسائقى الجمال زى خاص بهم ، وان كانت قد صرفت بطانيـة واحـدة لكل منهم ٠ وبهذه المعدات الوهمية تحمل الرجال مشاق الحملة فى سيناء » ثم أشار للظروف الجوية القاسية « ان فلسطين فى الشتاء ليست بالبلد الذى ييسر القيام بحملة مريحة فى أراضيها ، وعمليات النقل بالدواب فى مثل هذا الجو الذى لا يرحم تتم فى أقسى الظروف ، فالوحدات المقاتلة يمكنها أن تتوقف حتى تتحسن الظروف الجوية ولكن قوافل التموين لايمـكن أن تتوقف لتأخذ قسطا من الراحة ٠٠ وكانت الأمطار الغزيرة تضيع معالم « المدقات » وتجتاح مسافات طويلة من خطوط السكك الحديدية فتقتلعهـا ، ولا يكون ثمة مفر من

---

(١) الأهرام ٢٠ ديسمبر ١٩١٩ ٠

(٢) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ، ص ٤١ ٠

(٣) البلاغ ٢١ فبراير ١٩٢٣ ٠

(٤) عبد الرحمن فهمى : السابق ، الملف السابع ، ص ٤٥٧ ٠

تعطيل كافة وسائل النقل الميكانيكية وهنا يأتي دور الجمال لتحمل عبئها ولقد تمكنت (قوافل الفيلق) من أداء مهمتها بفخر في هذه الظروف ، وكم من قوافل صارعت العواصف وهي تحمل التموين الى الخطوط الأمامية وكثير من الرجال والدواب والجمال لقي حتفه دون رحمة على الطريق .. لقد كان هذا الفيلق بحق مخلوقا فريدا » (١) .

وهاجمت الحمى فرقة الجمالة التي كانت تعمل لمساعدة الأمير فيصل ، وكثر المصابون بالتيفوس والدوسنتاريا ، ورغم ذلك فقد كانوا يقومون بمهامهم، وانتشرت الكوليرا وكثرت الأعداد المصابة بها لدرجة أنهم حينما عادوا الى مصر نقلوها معهم (٢) ، كما مات الكثير من جرائها من الرديف في الميدان (٣) .

وبناء على ذلك أصدرت الحكومة المصرية في ٢٩ يونيو ١٩٢١ بلاغارسميا يتبين منه أن العمال الذين لاقوا حتفهم وهم قائمون بخدمة الانجليز وأصيبوا بجراح وعاهات مستديمة وبعجز تام أو جزئي عن العمل ستصرف لهم مكافآت ومعاشات (٤) واعتبر ذلك هبة ممنوحة مع أنها حقوق واجبة . هذا وقد كانت المبالغ التي قدمت بسيطة للغاية .

وفي ملفات أذونات المعاش لعمال السلطة يتضح أن ما أنيط اليهم من أعمال قد سببت لهم عاهات واصابات مستديمة وهم يطالبون بالتعويض فعلى سبيل المثال لا الحصر فالجمال « منصور شحاته » أرسل لقومندان قلم تعويضات حملة الجمال اللفتنت همفورز Homforz يطلب التعويض عن عينه التي فقدت أثناء عمله كتربي ، كذلك طلب تعويضا من يدعى « محمد ابراهيم » العامل بالسلطة الذي أصيب باصابة مستديمة وطلب « سعد كريم حسن » الذي يقول في طلبه « أفندم اني كنت شغال تبع الريس عبد القادر سالم رئيس طلبة نمرة ٦١٨ بالسلطة العسكرية بالقنطرة ، ونظرا لأني مكثت شغالا بالأتربة حتى عجزت ببصري في عيني الاثنين وذلك من عناء الأشغال بالسلطة ، وهو الآخر يطلب تعويضا عن اصابته (٥) .

وأصاب الموت الكثيرين على أثر أعمالهم الشاقة هذه ، ففي شكوى من والد يطلب تعويضا عن ابنه ــ المدعى فريد عبد القادر ــ الذي مات أثناء قيامه بخدمة الجيش الانجليزي (٦) ، وانقطعت أخبار البعض من الذين وقعوا تحت يد السلطة .

---

(١) Elgood : op. cit., p. 244.

(٢) الأهرام ٢٦ اغسطس ١٩١٦ ، Major R.A.M.C. : op. cit., p. 179.

(٣) عملية أورطة رديف الجيش المصري ، دفتر صادر ووارد ، جـ ١ ، ٤ ديسمبر ١٩١٧ ، ٦ يناير ١٩١٨ .

(٤) الوقائع المصرية ٢٩ يونيو ١٩٢١ .

(٥) ملفات أذونات معاش ٢٩ مارس ١٩٢٢ ، ٢١ سبتمبر ١٩٣٣ ، ٢٩ أكتوبر ١٩٣٣ .

(٦) Egyptian Gvt. Cairo City Police, No. 239, Sept 16, 1916, p. 95.

وتروى المقطم عن الذى قاساه الجمالة على لسان أحد الضباط الانجليز : « جرح الجمال أحمد يونس فى رأسه ولكنه ظل مع جماله ولم يذكر شيئا عن جرحه حتى حططنا الرحال فى محلة أخرى على بعد ميـــل من محلتنا الأولى • وبعد سبع ساعات من جرحه ، وقد كان هذا الجرح بالغا ، كما تبين من الكشف الطبى واضطر الجراحون أن يستخرجوا احدى عينيه ويعملوا له عملية جراحية كبيرة فى الجمجمة » (١) • وأمام هذه الشدة فى العمل وهذا الضغط المتزايد حاول بعض الجمالة الفرار وترك عملهم مما قاسوه • وشاركهم فى ذلك بعض من العمال والرديف وامتلأت الصحافة باعلانات الهروب •

وتعددت الاصابات حتى فى فرنســا من جراء الظروف المناخية القاسية لتراكم الثلوج وعدم تحمل المصريين لها ، كذلك ارتفعت نسبة الوفيات للعاملين فى طنوس ومدروس (٢) •

ومن الغريب فعلا أن أهل مصر من ذوى اليسر يقدمون خدماتهم للانجليز عن طريق دفع الاعانات للصليب الأحمر ويهملون من كان منهم فلم يساعدوا هذه الفرق الأمر الذى جعل كاتبة انجليزية تقول : « لقد عرفنا من مزايا أهل مصر انهم اذا دعوا لمبرة عامة يظهرون بمظهر الكرم والأريحيــة ويكتتبون بســخاء للأعمال الخيرية النافعة مثل خدمة الصليب الأحمر والاعانات الخاصـــة ونحو ذلك ، وكثيرا ما نرى منهم عطفا على المنكوبين والبؤساء ومن الغريب والحالة هذه أنهم لم يهتموا الاهتمام الواجب باخوانهم رجال فرقة العمــال المصرية المشتغلين بالأعمال العسكرية أنهم يستحقون كل عطف ومساعدة » (٣) •

وكانت رحلة العودة لمن كتبت له أصعب من الرحيـــل امتلأت بالعذاب والمشـــقة واللهفة والحنين لأرض الوطن بعد ذلك الحرمان الطويل والغـربة القاسية والتى انعكست فيما رددوه من كلمات فاضت بالشوق والحب لمصر •

جمع الدواب :

وكمــا جمعت السلطة الرجال لم تبق على جمــل أو حمــار أو حصان الا واستولت عليه لصالحها ، وطبقت نفس طريقة جمع العمال على الحيوانات • « وكان كل ذلك يجرى بمساعدة رجال الحكومة بل بناء على أوامرهم وبضغطهم على الأهالى فكانوا يسارعون الى ارهاق الأهالى لخدمة السلطة العسكرية ويتفانون فى اظهار الهمة فى تلبية طلباتها كل فيما يخصه فالمدير يتلقى الأمر من وزارة

---

(١) المقطم اول اعسطس ١٩١٧ •

(٢) الأهرام اول نوفمبر ١٩١٥ ، Major R.A.M.C. : op. cit., pp. 278, 279.

(٣) المنبر ٢١ نوفمبر ١٩١٨ •

الداخليه بجمع عدد مخصوص من الدواب . والمأمور بدوره يعرض على كل بلد أو قرية ما يخصها من القدر المطلوب ، فيقوم العمدة بجمع ما طلب منه من أفراد الأهالى كبيرهم وصغيرهم ، غنيهم وفقيرهم ، وكان هؤلاء الحكام من المدير الى العمدة الى الخفير يستعمل كل ما أوتى من حول وقوة وما منح من سلطان للحصول على ما فرض على مديريته أو مركزه أو قرينه ، بل لقد تعدى بعضهم حدود العدالة فى تنفيذ تلك الأوامر حتى أن البعض استعمل هذه الظروف سبيلا لجمع الأموال من الناس وأكلها بالباطل »(١) ٠

وكان على العمد والمشايخ فى كل البلاد أن يقدموا للسلطة كشفا وافيا يشتمل على عدد الجمال والحمير وأسماء أصحابها ، وخضع ذلك لرقابه صارمه وقبض على أعداد كبيرة منهم لاخفائهم بعض الجمال والحمير ، وعلى سبيل المال، فقد تستر العمدة « عبد الرحمن التميس » عمدة أسيوط على أغنياء البلد ولم يذكر فى تقريره من الجمال والحمير الا النذر اليسير خوفا من أنه اذا قدم جمال غيره يضطر هو الآخر الى ذكر جماله وحميره (٢) ٠

وفى حقيقة الأمر فانه منذ أن بدأت الحرب كان لابد من الاستيلاء على قطعان من الجمال حيث احتاجت اليها القوات البريطانية لنقل المهمات ، وهنا بدأت السلطة تجمع الجمال من المديريات وفى بادىء الأمر جعلت أجره الجمل الواحد خمسة عشر قرشا يوميا ، ولم يمض شهر فبراير ١٩١٥ حتى كانت قد جمعت ألفين ومائتى جملا (٣) ٠

هذا وقد اعترف لويد بأنه « مما أغضب المصريين الحاح السلطات البريطانية فى طلب الجمال والحمير لاستخدامها فى سلاح الهجانة اذ تعتبر الدابة بالنسبة للفلاح شيئا مقدسا وحتى شرعية الطلب لم تخفف من غضب الناس كما لم تقلل من متاعبهم »(٤) ٠

ورغم الأعداد الكبيرة التى جمعتها السلطة الا أنها دائما كانت تحتاج الى المزيد ، فعانى الفلاحون كثيرا من فقدان دوابهم اللازمة لهم ـ وقد أسيىء الى الزراعة بجمع هذه الدواب ـ ففى عام ١٩١٧ أشتدت الحاجة الى استخدام الجمال فى النقل الحربى ، ووجدت اللجان المكلفة بالشراء من قبل الجيش صعوبة كبيرة فى الحصول على العدد اللازم من الجمال ٠ بل ان المنشورات السرية التى أرسلتها الحكومة الى المديريين لحثهم على بذل جهود قوية فى هذا السبيل لم تحدث نتيجة سوى نشر الظلم ، فكبار أصحاب الأراضى وشيوخ

---

(١) احمد شفيق ٠ المرجع السابق ، ص ص ٩٢ ، ٩٣ ٠

(٢) الوطن ١٠ أكتوبر ١٩١٧ ٠

(٣) الأهرام ، المقطم ٣ فبراير ١٩١٥ ٠

(٤) Lloyd : op. cit., p. 238.

القرى كانوا يتمتعون بميزة الاعفاء والفلاحون والفقراء هم الذين كان عليهم أن يقدموا جمالهم (١) .

وأظهرت الحكومة كرما فى معاملة السلطة العسكرية حيث فتحت وزارة المالية فى ٢٥ أغسطس ١٩١٧ بعض الاعتمادات للمديريات لابتياع الحمير اللازمة للسلطة ، وقالت الحكومة فى بلاغها ان الغرض من ابتياع هذه الحمير « أنها لازمة للخدمة العمومية » ثم صدرت الأوامر للمديريات بأن ينتقى المفتشون البيطريون الحمير الصالحة للعمل ، وأن يقدروا أثمانها التى تدفع من خزانة المديرية من الاعتمادات المفتوحة (٢) .

وتبع ذلك أن نشرت السلطة العسكرية اعلانا فى ٢٦ نوفمبر ١٩١٧ أمرت فيه جميع المصريين أن يقدموا دوابهم ، وأصبح غير مصرح لهم بالتصرف فيها أو حتى نقلها ، وفرضت العقوبة على من يخالف تلك الأوامر (٣) .

وازدادت حركة المصادرة لأعز ما يملكه الفلاحون ، وأقر ملنر فى تقريره أن ما تم فى هذا الأمر كان من أهم أسباب ثورة المصريين عام ١٩١٩ (٤) .

ولعبت الحكومة دورا مهما فى تقديم الدواب للسلطة العسكرية وفى الضغط على الناس كما كان دورها فى جمع الرجال للسلطة ، ووقف الوزراء أوقاتهم لجمع الدواب للسلطة العسكرية ، وتحملت هى التكاليف ذلك أن السلطة استولت أيضا حتى على ركائب المهندسين التى وجدتها صالحة للاستعمال ، وهنا كان على الحكومة التعويض لهؤلاء . وعلى سبيل المثال فقد وافق مجلس الوزراء فى جلسته المنعقدة فى ٢٣ فبراير ١٩١٨ على اعطاء « عبد المسيح فهمى وحسين كامل ماهر وكامل ميخائيل » المهندسين برى الفيوم مصاريف الركائب التى يتكبدونها بسبب استيلاء السلطة العسكرية على ركائبهم (٥) .

وفى بداية عام ١٩١٦ كان هناك ٢٠٫٠٠٠ جمل مستخدمة فى الحملة المصرية ، وفى أواسط ١٩١٧ ارتفع العدد الى ٣٥٫٠٠٠ ، وقسموا الى مجموعات حوت كل مجموعة على ٢٫٠٠٠ جمل (٦) ، وهذه المجموعات عملت فى خط النقل الأول تنقل الأحجار وتحضر الامدادات .

---

(١) Ibid, pp. 241, 242.

(٢) أحمد شفيق : المرجع السابق ، ص ١٠٨ .

(٣) Récueil des doc. relatif de la guerre, 26 Nov. 1917.

(٤) Milner : op. cit., p. 10.

(٥) مجلس الوزراء : جلسة ٢٣ فبراير ١٩١٨ .

(٦) Wavell : The Palestine Compaigns, p. 62.

وجمعت الجمال من مختلف المديريات ، فكان نصيب البحيرة ٢٦ر٥٢ ، الغربية ٤٫٢١٨ ، الدقهلية ١٫٥٦٠ ، المنوفية ٢٫٧٤٠ ، الشرقية ٥٫٨١٧ ، القليوبية ٢٫٠٩٦ ، الجيزة ١٫٤٢٦ ، الفيوم ١٫٢٠١ ، بنى سويف ١٫٣٨٠ ، المنيا ٢٫١٠٦ ، أسيوط ٣٫٥٤٣ ، جرجا ٢٫٣٦٣ ، قنا ٢٫٠٨٤ ، أسوان ٣٦٣ ، القاهرة ٢٠٣ ، الاسكندرية ٨٦ ، الاسماعيلية ٣٣ (١) . وبناء على ذلك قلت الجمال وارتفعت أسعارها بمعدل ثمانى مرات عما كانت عليه قبل الحرب . وبلغ من جبروت السلطة أنها بعد الحرب أرادت أن تبيع ماتبقى من الجمال للمصريين بأسعار قدرتها وفق مصالحها .

أما بالنسبة للحمير فكانت لها منفعة تامة ، وقسمت الى أربع مجموعات كل منها تحتوى على ٢٫٠٠٠ حمار (٢) عملوا بكل طاقتهم مع المصريين فى خطوط القتال .

مصادرة الأقوات :

جاء بعد ذلك دور مصادرة الحبوب والمنتجات المصرية بالقوة لصالح السلطة العسكرية وقد كانت هذه المصادرة من أسباب ثورة ١٩١٩ .

استولت السلطة على كل مايلزمها من المنتجات الزراعية بالسعر الذى ترتضيه هى ، وما بيد المصريين غير التسليم بالأمر الواقع وتقديم فروض الطاعة والولاء ، فان هناك سلطة أكبر تجبرهم على ذلك ألا وهى سلطة الحكومة المصرية التى كانت طوع السلطة العسكرية ، فيقول عبد الرحمن فهمى : « وضعت السلطة يدها على ما تنبته الأرض من قطن وكتان وحبوب فى مقابل أثمان تحددها السلطة بنفسها لنفسها وتلزم الناس قبولها ، ويا ليتها كانت تأخذ ما تحتاج اليه هى وحدها بهذه الطريقة الجائرة .. انها كانت تأخذ هذه الأشياء بأثمانها الضئيلة وتبيعها للدول الأخرى بالأثمان العالية . فكانت بذلك شر وسيط وأنهم تاجر » (٣) .

وكان على كل فرد أن يقدم ما ملكت يداه من غلال وحبوب والا عرض نفسه لخطر المصادرة والقبض والمحاكمة « وهكذا أخذت غلال البلاد ومحاصيلها وسلموا للسلطة العسكرية بأبخس الأثمان ، وكان لهذا العمل رد فعل ترك الأهلين فى ضنك وعطل أعمالهم وعاد عليهم بكل الأضرار » (٤) .

---

(١) Badcock : op. cit., p. 57.

(٢) Manifold : op. cit., p. 25.

(٣) عبد الرحمن فهمى : السابق ، الملف الأول ، ص ٥ .

(٤) البلاغ ٢١ فبراير ١٩٢٣ .

ويقول ملنر « والأهالى الذين لم يكن عندهم حبـوب اضطروا أن يشتروا المطلوب منهم بأسعار السوق العالية ويقدموه بأسعار المصادرة الواطئة » (١) ٠

هذا ومنعت الحكومة في بداية الحرب تصدير المواد الغذائية حرصا منها على كفاية متطلبات السلطة لتموين جيوش الامبراطورية وليس حرصا منها على الشعب المصرى الذى يعانى من الظروف التى خلقتها الحرب على اقتصادياته ٠

ومثلت الحكومة دورها فى الضغط على الشعب فكان « المدير يتلقى الأمر من وزارة الداخلية بجمع عدد مخصوص أو كمية محدودة من الحبوب ، فيفرض هذا على كل مركز من مراكز مديريته كمية من القمح وأخرى من الشعير أو التبن أو الدريس ٠٠ والمأمور بدوره يفرض على كل بلد أو قرية ما يخصها من القدر المطلوب منه ، فيقوم العمدة بجمع ما طلب منه من أفراد الأهالى كبيرهم وصغيرهم ، غنيهم وفقيرهم ، وكان هؤلاء الحكام من المدير الى العمدة الى الخفير يستعمل كل ما أوتى به من حول وقوة وما منح له من سلطـان للحصـول على ما فرض على مديريته أو مركزه أو قريته ، بل تعدى بعضهم حدود العدالة فى تنفيـذ تلك الأوامر ، والبعض استعمل هذه الظروف سبيلا لجمع الأموال من الناس وأكلها بالباطل ، كما أن بعض ذوى الأمر كان يتخذ من هذه السلطة واسطة للانتقـام من أعدائهم حتى فسدت نفوس بعض الحكام والمحكومين على السواء » (٢) ٠

وكان موقف العمد من هذه المسألة كموقفهم من مسألة جمع أنفار للسلطة ، فجعلوا الجمع ضريبة على المزارعين ، فمنهم من فرض على أهل بلدته مثلا مائة أردب واضطرهم الى شرائها من الجهات الأخرى البعيدة ، فنتج عن ذلك أن ارتفع ثمن الشعير الى ٤٠٠ قرش للأردب كما حدث فى بلدة اتليوم بمركز ملوى (٣) ٠

وهكذا جعل الانتاج الزراعى فى خدمة انجلترا وجيوشها ٠ ومن أجل هذه الغاية زيدت مساحة الأراضى التى تزرع حبوبا وانقصت المسـاحة التى تزرع قطنا لتموين تلك الجيوش المتدفقة على مصر ويصف سعد الحـالة فيقـول : « وحددت ثمن الأقطان بأبخس الأثمان ، وكذلك بقية المحصولات وأساءت الى الزارعـة بجمع الدواب والأنفـار للحملة وحجزت على الزارعين ألا يتصرفوا فى محصولاتهم حتى تستولى السلطة مطلوبها منها » (٤) ٠

وبهذا أجبرت مصر على أن تمد الجيش البريطانى بالمؤن وبجميع متطلباته ٠ وقد علق محرر صحيفة « رائد العمال » الانجليزية على ذلك بقوله : « فارتفعت

---

(١) Milner : op. cit., p. 11.

(٢) أحمد شفيق : المرجع السابق ، ص ص ٩٢ ، ٩٣ ٠

(٣) الوطن ٤ أكتوبر ١٩١٧ ٠

(٤) سعد زغلول : السابق ، كراسة ٢٨ ، ٥ يونيو ١٩١٨ ، ص ١٥٨٦ ٠

أثمان الحاجيات بمصادرتنا للمحصولات الزراعية ، فعم الغلاء ، وأصبح العيش منعسرا ، وأجور العمال كما هي ، فساءت حالة الفقراء والعمال بدرجة عظيمة لم تتمالك الصحف رغم الرقابة الحربية من الاشارة اليها ، فهل بعد هذا نستغرب اذا بلغ الكره لنا والحقد علينا مبلغها في قلوب المصريين » (١) •

احتكرت السلطة الدريس ، ففي ١١ نوفمبر ١٩١٥ أصدر القائد العـــام لجيوش الامبراطورية أمرا لوزارة الزراعة المصرية لتوريد كافة الدريس الى الجيش البريطاني • وحسبنا بهذا العمل اعترافا من الحكومة بتقديمها كل ما استطاعت من المساعدات للجيش المحارب في مصر رغم ما أعلنه الانجليز أنفسهم من أنهم لن يلجأوا الى ذلك•وتحججت الوزارة بأن الزراع المصريين لم ينتفعوا حق الانتفاع ببيع الدريس للجيش البريطاني ، بل اختص الوسطاء أنفسهم بأرباحه « لهذا ارتأت السلطة العسكرية رعاية لمصلحة الزراع المصريين أن تشترى منهم رأسا الدريس المطلوب للجيش على يدها هي وأنها ستعين من وقت لآخر الثمن الذى تشترى به الدريس وتعلقه في الأسواق بين القرويين وتنيب شركة الأســـواق عنها استلام الدريس وشحنه وتصديره » (٢) •

وفي ١٦ أغسطس ١٩١٧ رأت السلطة ضرورة ايجاد كل السبل لتسهيل زراعة الحبوب والزيادة منها لتموين جيشها • فأحتكرت السلطة أيضا محصول الذرة الخضراء لمعسكرات الجيش في القاهرة والاسكندرية وضواحيهما ، وحدد المقدار الشهرى الذى على كل مدينة أن تقدمه ، فالقاهرة كان عليها أن تقـــدم ٢ر٥٠٠ طن انجليزى والاسكندرية ٢ر٠٠٠ طن انجليزى (٣) •

واستمرارا لتلك السياسة أصـــدر القائد العام للقـــوات البريطانية في نوفمبر ١٩١٧ أمره بالحصول على المؤن اللازمة للحملة بالأســـعار الرسمية ، وتحددت بأبخس الأثمان ، وانتشر رجال الحكومة ينقبون في منـــازل الفلاحين ليستولوا على مطالبهم وان صادف ودفعوا فالأسعار زهيدة •

وعندما احتاجت السلطة للتبن رأت الحـــكومة ادخاله في التسعيرة حتى تستولى عليه السلطة بثمن محدود فيقول سعد : « واحتاجت السلطة الى التبن بعد أن قرر مجلس الوزراء ادخاله في التعريفة •• ان الحكومة تدخل الصنف في التعريفة لا رحمة بالناس ولكن لكى تتمكن السلطة بأخذه بالثمن المحـــدد في التعريفة المذكورة فويل لقوم أمورهم بأيدى غيرهم » (٤) •

---

(١) عبد الرحمن الرافعي : المرجع السابق ، ص ٤٣ •
(٢) الأهرام ١٢ نوفمبر ١٩١٥ •
(٣) Récueil des doc. relatif de la guerre, 23 Mars; 1916.
(٤) سعد زغلول : السابق ، كراسة ٣١ ، أول سبتمبر ١٩١٧ ، ص ١٧٦٨ •

وفى أواخر عـام ١٩١٧ بلغ التبن المطلوب للسلطة العسكرية من البلاد ٥٣٠٫٠٠٠ حمل ، فقسمت هذه الأحمال على الأقاليم (١) ، ويصور لنا سلامة موس الأمر : « كان معظم النقل فى الحرب على الخيـول الاسترالية ، وكانت ضخمة يعلف الحصان منها بضعف ما يعلف به حصان من خيولنا ولذلك كان التبن والشعير يخطفان من الريف » (٢) ·

كذلك رأى مجلس الوزراء اعفاء رسم السكر المصنوع ــ المكرر ــ اللازم للسلطة العسكرية ، لكن سكر الأهالى وضعت عليه الرسوم · كمـا احتكرت السلطة كل انتاج البطاطس لتمون به جيشها ، فحـرم شعب مصر من أكـل البطـاطس هـذا فى الوقت الذى امتنع فيـه وروده من ايطـاليا عقب دخولها الحرب (٣) ·

وتبع ذلك احتكار السلطة لبذرة القطن لعام ١٩١٨/١٧ ، وقد عينت لجنة عرفت باسم « لجنة مراقبة بذرة القطن » لكى تتولى شراء وتخزين وشحن بذرة القطن عن محصول ١٩١٧ ــ ١٩١٨ لحساب حكومة جلالة ملك بريطانيا (٤) ·

كما أنشئت لجنة أخرى لمراقبة القطن مؤلفة من الانجليز تعاونها لجنـة استشارية تمثل مخازن التصدير ومزارعى القطن والبنوك وتتولى لجنة مراقبة القطن شراء القطن من محصول ١٩١٨ بسعر حـدد بـ ٤٢ ريالا للقنطـار على « ألا يسمح الا بتصـدير القطن الذى اشترته اللجنـة وأن تلغى الرخص التى أعطيت من قبل ما عدا رخص القطن المودع بالموانى » (٥) ، وكان تحديد الأسعار خسارة كبيرة على المصريين ، ومما زاد الأمر صعوبة احتكار انجلترا لمحصـول القطن عام ١٩١٨ ·

كذلك وضعت مادة زيت البترول تحت تصرف السلطة العسكرية ومنع أى شخص من اقتنائه الا بشروط قاسية ولمدة محدودة جدا وبكمية صغيرة (٦) ·

وكثرت مصادرات الأهالى عندما تشعر أنها فى حاجة الى المزيد ، ففى ٤ مارس ١٩١٨ أصدر اللنبى بلاغا : « حيث أنه قد حصـل تأخـير فى استيراد الكميـات اللازمة من الأذرة الشامى والرفيعـة (العويجة) للسلطة العسكرية ، ولضمان الحصول على المقادير المطلوبة من الجهات المختلفة بالقطر بطريقة عادلة

---

(١) أحمد شفيق : المرجع السابق ، ص ١٢٦ ·

(٢) سلامة موسى : المرجع السابق ، ص ١١٣ ·

(٣) The Near East, Feb. 1, 1917, p. 268. Conseil des minestres, 25 Sep. 1917.

(٤) Récueil des doc. relatif de la guerre, 12 Août, 1917.

(٥) Elgood : op. cit., p. 330.

(٦) Wingate : op. cit., p. 218.

نعلن : كل شخص يملك أذرة شامى أو عويجة عليه أن يخطر مأمور المركز التابع له بما فى حيازته منها ، وذلك فى ظرف عشرة أيام من تاريخ هذا الاعلان ، وهذا الاخطار يجب عمله بواسطة عمدة البلد ، ويمكن للمالك أن يخطر المأمور مباشرة بعد ابلاغ عمدته بذلك ، وكل من يتأخر عن اخطار المركز بما لديه من الأذرة يكون جميع ما يمتلكه منها عرضة للمصادرة ، فضلا عن تعرضه للمحاكمة أمام مجلس عسكرى ، والعمد مسئولون عن تنفيذ ما جاء بهذا الاعلان كل فيما يختص بالبلاد التابعة لعموديته وعن مراجعة البيانات التى تقدم بواسطتهم وعن صحة ما جاء بها بوجه عام » (١) ٠

وفى أول أبريل ١٩١٨ أمرت السلطة العسكرية العمد بالمحافظة على الأجران بمنع المزارعين من التصرف فى محصولاتهم وبأن يخزنوها عند العمد حتى تأخذ السلطة حاجتها من الحبوب على اختلافها ، وبذلك توسط العمد بين الفلاحين والسلطة ، وأطلق أيديهم للتحكم فى الفلاحين باسم الجيش ٠ وقلق الفلاحون لأن العمد لا توجد لديهم مخازن تسع المحصولات ولأنهم يجهلون مدة التخزين ، وهم فى أشد الحاجة الى أثمان حبوبهم ، هذا فى الوقت الذى جاء فيه موعد دفع الضرائب التى لو لم يدفعونها من ثمن المحصول اضطروا الى بيع ما يمتلكون بأبخس الأثمان بل واستدانوا بالربا الفاحش ٠

واستولت السلطة على الأشجار لتنتفع بأخشابها وتغطى احتياجاتها منها ، وامتدت يدها لتستحوذ على النشارة ، فكثرت الطلبات عليها لحاجة الجيش لاستخدامها (٢) ٠ واستغلت السلطة المصريين حتى فى أعمال الرقابة على مراكب الصيد بالمياه المصرية ، وفوق ذلك فانها استولت على معظم المراكب الشراعية التى رأت أنها فى حاجة الى استعمالها (٣) ٠

الخدمات الصحية :

قدم أطباء مصر خدماتهم للجيش الانجليزى فتواجدوا على الحدود وقاموا بكل ما أنيط اليهم من أعمال ، وازداد الطلب عليهم وعرضت لهم المشجعات ، وكان التعاقد معهم مدته ستة أشهر لكى يخدموا فى فرقة العمال المصريين ٠ وتحملت الحكومة أيضا نفقاتهم ، فأصدر مجلس الوزراء فى جلسته المنعقدة فى ٢٧ فبراير ١٩١٧ الموافقة على منح المستخدمين الخارجين عن هيئة العمال والملتحقين بجيوش الحلفاء نفس الامتيازات الممنوحة للموظفين الدائمين ، وذلك

---

(١) Récueil des doc. relatif de la guerre, 4 Mars, 1918.

(٢) Egyptian Gvt. Cairo city police. No. 104 Jan. I, 1918, p. 8.

(٣) الحكومة المصرية ، كوبيا السواحل ، ديوان الادارة ، ١٤ فبراير ١٩١٧ ، ص ٤٧٢ ٠

بأن نعطى لعائلاتهم اعانة توازى ثلث مرتباتهم ، وأن تحسب لهم المـــدة التى يقضونها فى تلك الجيوش من المدد التى يستحقون عليها المكافأة (١) ٠

كذلك ساعدت وتعاونت الحكومة على خلق المستشفيات لاستقبال جرحى قوات الامبراطورية ووضعت تحت تصرف السلطة مبانى كثيرة لتكون مستشفيات للجنود ، ففى جميع مدن مصر وجدت هذه المستشفيات وازدادت فى منطقـــة القناة ــ الاسماعيلية ، القنطرة ، الكوبرى ، بور توفيق ، بور سعيد ، رومانه ، المحمدية ــ حيث الجبهة الحربية ، وحولت السلطـــة فى الزقازيق المدارس الى مستشفيات ، وانتقلت المدارس الى أماكن أخرى ، كذلك حولت مبانى كثيرة فى الاسكندرية كانت مدارس وفنادق الى مستشفيات لاستقبال جرحى غاليبولى ، وخصص كازينو سان استفانو كمستشفى عسكرى لانزال المرضى والجرحى الهنود فيه ، وعلى طول النيل حتى أسوان أصبحت الفنادق الفاخرة مستشفيات لخدمة الجيش البريطانى ، هذا بالاضافة الى المستشفيات الأصلية فعلى سبيل المثـــال « أعطيت استبالية الجيش بالقـــاهرة بكـــامل معداتهـــا الى فرقـــة النيوزيلانديين » (٢) ٠

وذكر مراسل التيمز بالقاهرة بأن « مصر تلقت آلافا عـــديدة من جرحى البريطانيين ومرضاهم الذين استفادوا من مناخها الصـــحى ، وأن المستشفيات ودور النقاهة فتحت فى جميع أنحاء البلاد ، وقد أنفق المصريون على بعضهـــا ولطالما تقدموا بالعطايا الجزيلة وقدموا الهدايا المسهلة للراحة ، كمـــا قدموا هبات من أثاث وغيره » (٣) ٠

وقدم المصريون أيضا للجرحى البريطانيين المساعدات الكبيرة ، على سبيل المثال ، قدمت جمعية الهلال الأحمر المصرية للسلطة العسكرية قطارات مجهزة بكل ما يلزم لراحة الجرحى ، ومن أموالها كانت تساعد فى اقامة المستشفيات أيضـــا (٤) ٠

الأموال للصليب الأحمر :

وكمـــا حـــدث فى جمع الرجال والدواب رؤى أنه من الضرورى استنزاف الشعب المصرى بامتصاص الأموال منه ، ومنذ بادىء الأمر عملت الحكومة المصرية على تلبية رغبة السلطة العسكرية فى ضرورة اسهام المصريين فى جمعية الصليب

---

(١) Conseil des ministres, 27 Fev. 1917.

(٢) الافكار ٨ نوفمبر ، الاهرام ١ يناير ١٩١٥ ، ٢٦ يناير ١٩١٧ ٠
La Bourse Egy. 26 Aôut, 1916. Elgood : op. cit., pp. 170, 171.

(٣) وادى النيل ١٥ يناير ١٩١٨ ٠

(٤) الوطن ٥ يونيو ١٩١٥ ، الاهرام ٢٨ أكتوبر ١٩١٥ ٠

الاحمر وفرسان القديس يوحنا البريطانية وحث الناس على ذلك وجندت الصحافه لدفع عجلة التبرعات ٠

واهتمت السلطات الانجليزية بذلك الأمر وراح مكماهون يخطب بين القاهرة والاسكندرية للاكتتاب للصليب الأحمر : « انتم تعلمون ولا أزيدكم علما أن الاجتماع الذى أتشرف برئاسته اليوم قد عقد بقصد اعلام الجمهور بالدعوة العامة التى أصدرتها جمعية الصليب الأحمر البريطانية حاثة الجمهور على الاكتتاب لاعانتها ، كما نستطيع الاستمرار على القيام بالمبرة الجليلة التى أخذت على نفسها القيام بها فى أنحاء القطر ٠ وتذكرون أنه عقد فى الاسكندرية اجتماع من هذا القبيل وانى توسعت فى الكلام فيه على الجهود العظيمة والأعمال الجليلة التى تقوم بها جمعية الصليب الأحمر فى كل مكان ٠٠٠ ان جمعية الصليب الأحمر فى احتياج الكثير من المال ، ومهما تكن خزائنها فائضة بالمال فلابد من مال جديد ننفقه فى سبيل مبرانها وخيراتها الى أن ينتهى أجل القتال » (١) ٠

ويقول سعد زغلول فى مذكراته : « شرع السير مكماهون نائب الملك فى اكتتاب عام بالقطر المصرى لجرحى الحرب البريطانية ، عقد لذلك احتفالا بالاسكندرية وآخر فى القاهرة خطب فى كل منهما خطبا طويلة فى بيان مزايا الصليب الأحمر والخدمات التى يؤديها ، وأن الحاجة الى المال انما هى للأمور الكمالية التى تسلى الجرحى لا للوازم الضرورية التى تقوم الحكومة بتوفيرها على غاية ما يرام ٠ وما أن بلغت هذه الدعوة الأقاليم حتى قاموا يحثون الأهالى على الاكتتاب حتى بلغ المجموع مبلغا عظيما قدرناه بمائة ألف جنيه على التقريب، ولكن الذى ساعد على ذلك الاقبال هو الرهبة من الأحكام العرفية وتنفيذها وان لم يهدد بالأحكام فعلا » (٢) ٠

وأقيمت الحفلات لصالح الصليب الأحمر والقديس يوحنا (٣) ، وقد كان المصريون أنفسهم فى ذلك الوقت فى حاجة ماسة الى المعونة ، وليس من العدل ولا من الانسانية أن يحض الناس على التبرع لجرحى الانجليز فى حين أن فقراء الأمة من العمال المتعطلين وغيرهم كانوا على حالة كبيرة من الجوع والبؤس ٠

وتقول صحيفة مصر : « تلقت الوزارة كثيرا من رسائل الاستفهام من أعيان المصريين الذين يرغبون فى الاعراب عن عطفهم على انجلترا وميلهم للتبرع للصليب الأحمر الانجليزى والبنك الأهلى يقبل التبرع لجمعية الصليب الأحمر ، وفى الوقت نفسه تقول الوكالة البريطانية ان القطر

(١) الأهرام ٢٨ أكتوبر ١٩١٥ ٠
(٢) سعد زغلول : السابق ، كراسة ٢٦ ، ٢ نوفمبر ١٩١٥ ، ص ١٣٧٥ ٠
(٣) الأهرام ٢٤ أكتوبر ١٩١٥ ٠

المصرى منى بتأثير الحرب ، وأن الضيق المالى ترك كثيرين من الناس بلا عمل وأوقع ضيقا وضنكا فى جميع أنحاء البلاد ويحتمل أن يدوم ذلك ، وترى الوكالة أن يوحد المصريون جميعهم مساعيهم لاسعاف اخوانهم ومواطنيهم بتنظيم الاعانات لتخفيف وطأة الضيق والضنك فى القطر المصرى » (١) .
واتبعت طريقة الاجبار وذلك لتدبير الاموال اللازمة التى لم يتيسر الحصول عليها بطريق التبرع ، واستعملت وسائل الاكراه ، ففرض على كل مدينة وكل قرية أن تدفع مبلغا معينا من المال ، ومارس حكام الاقاليم الضغط بوسائلهم الخاصة والمعهودة على مرءوسيهم الذين ارغموا الشعب على دفع الأموال بتهديدهم بالويل والثبور على يد الحكومة اذا لم يجمعوا المقرر جمعه « وقد كان الجمع من صغار العمال والباعة والفقراء الوطنيين ، أما الاغنياء والتجار الأجانب الذين أثروا بسبب الحرب والذين استفادوا من الاشتغال مع السلطة كانت تبرعاتهم بسيطة » (٢)

وكانت الصحف تنشر يوميا قوائم طويلة بأسماء المتبرعين للصليب الأحمر، غير أن هذه القوائم لم تكن حقيقية كما يقول أحد المعاصرين لتلك الأحداث(٣)، ويقول ملنر فى تقريره : « أما تفويض جمع المال الى موظفين محليين من المصريين فكان من شأنه فتح باب المذكرات والمساوىء المؤدية الى زيادة التشديد على الفقراء الذين كرهوا الحرب جدا لأسباب أخرى كثيرة » . كما بين أن الاكتتاب للصليب الاحمر كان من أهم عوامل تفجير ثورة ١٩١٩ (٤) .

وعبر الشاعر عبد الحفيظ الأسيوطى عن سخط الشعب لاغتصاب أمواله باسم الصليب الأحمر فقال :

ولو أننا استطعنا بذلنا جهدنا	بالاكتتاب وعنه لا نتأخر
العين تبصر والأكف قصيرة	فاذا تأخرنا فانا نعذر
من لم يجد يا قوم قوت عياله	أولى بعطف المنصفين وأجدر(٥)

وبلغ ما دفعته مصر للصليب الأحمر ٣٢٠ر٠٠٠ جنيه (٦) جمعوا قسرا ، ولم يكتف بذلك بل تعداه بحث الناس على الاكتتاب لانشاء تمجيد وتخليد لكتشنر اذ كتب وزير الداخلية للمديرين بشأن ذلك وانتخب من كل مديرية عضو ليرأس لجنة الاكتتاب (٧) .

(١) مصر ١٧ سبتمبر ١٩١٤ .
(٢) الاكسبريس ٣ ستمبر ١٩١٧ .
(٣) Symons, T. : Britain and Egypt, p. 75.
(٤) Milner : op. cit., pp. 10-12.
(٥) المنبر ١٦ نوفمبر ١٩١٦ .
(٦) وادى النيل ١٥ يناير ١٩١٨ .
(٧) سعد زغلول : السابق ، كراسة ٢٩ ، ٢٥ أكتوبر ، ٢٥ نوفمبر ١٩١٦ ، ص ص ١٥٩٣ ، ١٦٠٢ .

المباني والأراضي :

وامتدت أيدي السلطة الى أراض ومبان كبيرة في أنحاء مصر وذلك لخدمة أغراضها العسكريه ، فعندما احتاجت السلطة لمد الخط الحديدى بين الاسماعيليه والزقازيق أصدر القائد الاعلى لجيوش بريطانيا فى مصر نزع ملكيه الأرض التى ستنشىء فيها السكك الحديدية (١) ٠

واستولت السلطة على ممتلكات الأفراد فانتزعتها منهم ، وصرحت فى بادىء الأمر أنها ستعوضهم ، فنشر قلم المطبوعات هذا البلاغ : « طبقا للتعليمات الواردة من وزارة الحربية وبمشاركة جناب المرخص البريطانى قد عين جناب القائد العام للجيوش البريطانية في القطر المصرى الأشخاص الآتية أسماؤهم أعضاء لمجلس التحكيم الذى سيناط به البحث فى جميع المسائل والشئون المتعلقة بالايجارات والتعويضات المقتضى اعطاؤها عن المنازل والأملاك التى استولت عليها السلطة العسكرية » (٢) . ولكن لم يتم أى تعويض ٠

وتنازلت الحكومة المصرية مجانا الى الحكومة البريطانية عن أراضى مساحتها ٤٢٠٣ م٢ بجهة جاردن سيتى بالقاهرة قدر ثمنها بمبلغ ١٢٠٨ ج م لتكملة مبانى دار الحماية (٣) ٠

وفى مارس ١٩١٧ قررت القوة الجوية الملكية البريطانية احتلال منطقة أبى قير وجعلها محطة جوية بريطانية (٤) ٠ والأمير عمر طوسون يملك فيها أماكن واسعة وكان ينتفع بها الى ما قبيل الحرب انتفاع المالك الحر بملكه الخاص ، فلما نشبت الحرب رأت السلطة العسكرية أن الأرض التى يمتلكها واقعة فى مكان حربى مهم فتوصلت الى أن تستولى على ٤٧٩ فدانا من ملكه ، ووضعت يدها عليه ثم تابعت الاستيلاء على حوالى ٨٩ فدانا بما عليها من أشجار ومبانى أصبحت « فى حيازة وزير حربية جلالة الملك وملكا له » (٥) ٠ وعلى الفور عينت لجنة لتقدير الثمن ، ومضت احتجاجات عمر طوسون ٠

هذا وقد قاست مصر الأمرين من الحرب وتلف الكثير من مبانيها وتعددت الضحايا وذلك بوصول الطائرات الألمانية والقاء قنابلها فوق القاهرة فى الأحياء المأهولة بالسكان ومحال العمل (٦) ، وعلى المدن الساحلية فى الاسكندرية ورشيد

---

(١) Récueil des doc. relatif de la guerre, 4 Dec. 1915.

(٢) الأهرام ٧ يونيو ١٩١٥ ٠

(٣) مجلس الوزراء : جلسة ٣١ اكتوبر ١٩١٦ ٠

(٤) Elgood : op. cit., p. 339.

(٥) سعد زغلول : السابق ، كراسة ٣١ ، ٣١ أغسطس ١٩١٨ ، ص ١٨٢٠ ٠

(٦) الاهرام ١٤ نوفمبر ١٩١٦ ، ٢٢ مارس ١٩١٨ ، السفير والمقطم ١٤ ، ١٥ نوفمبر ١٩١٦ ٠

ومدن القناة فى السويس وبورتوفيق وبورسعيد فتقول الأهرام « قامت الطائرات الألمانية بغارة على بورسعيد وألقت القنابل على حى العرب وبعض المنازل الخاصة فسقطت احدى القنابل على مدرسة ، وألقت قنبلة على كلية الفرير ، وألقيت ثالثةعلى الشارع الأكبر فى أول حى العرب ، فسقطت على قهوة تدعى قهوة البسفور ، وقتلت وجرحت جميع الأهالى ، وكان جميع القتلى من الوطنيين ... وقد كان منظر الشارع حين حدوث الغارة مما يفتت الأكباد » (١) .

الزام المصالح والهيئات :

جندت كل المصالح الحكومية وغير الحكومية لمتطلبات السلطة العسكرية حتى أن الجنرال مكسويل قد أعرب فى برقية له لوزارة الخارجية البريطانية عن ارتياحه التام لتلك المساعدات الثمينة التى قدمتها له جميع مصالح الحكومة المصرية (٢) .

وذكر مراسل التيمز بالقاهرة « أن المصالح الأميرية المختلفة قد ساعدت السلطة العسكرية مساعدة كبرى ، وأن وزارة الأشغال العمومية ومصلحة السكة الحديدية قامت بدور عظيم فى انشاء الاستحكامات الدفاعية على ضفة قناة السويس الشرقية ، وكان مد الخطوط العسكرية واستخدامها تحت ادارة مصلحة السكة الحديدية المصرية ، وكان جل المشتغلين فيها من العمال المصريين من أهم الأمور التى ساعدت السلطة ، وفوق ذلك فقد قدمت مبالغ طائلة لتلك الأعمال » (٣) .

واعترف أكثر القادة الضباط الانجليز والذين اشتركوا فى الحرب كجنرالات على قناة السويس وسيناء وفلسطين بمدى أهمية تلك المساعدة وهذه الخدمات التى قدمتها مصلحة السكة الحديد المصرية للسلطة .

كما قدمت وزارة الأشغال العمومية المساعدات القيمة للسلطة لاعداد الطرق فكانت تمونها بالأحجار رغم احتياجاتها لها لبناء الحواجز ضد الفيضان ، وتمدها بالسماد الذى تزايدت فى الطلب عليه (٤) ، وكلفت الورش الصناعية لخدمة السلطة ، فوافق مجلس الوزراء على « منح مصلحة التعليم الفنى والصناعى والتجارى اعتمادا اضافيا بمبلغ ٢٦٠٦ ج م منها ٢٣٥ ج للأجور ، ٢٣٧١

(١) الأهرام ٢ سبتمبر ١٩١٦ .
(٢) الوطن ٢٣ يونيو ١٩١٦ .
(٣) وادى النيل ١٥ يناير ١٩١٦ .
(٤) Public Ministry works, Archives circle irrigation File No. 43. 7-6 Feb. 7, 1916, P. 36, No. 43-7-60, April 8, 1916, p. 58, No. 89-12-1, Feb. 20, 1918, p. 43.

للمهمات وذلك بسبب ازدياد العمل الناشىء عن كثرة الطلبات التى توصى عليها السلطة العسكرية فى الورش التابعة لهذه المصلحة » (١) ٠

ووقع العبء على العمال ، فأكثر المصالح التى قدمت خدماتها للسلطة لم تكافىء العمال وبعضها عوضهم ٠ فمثلا مصلحة السكك الحديد والتلغرافات خصت طائفة من مستخدميها بمكافآت مالية مقابل الخدمات الكثيرة التى قدموها فى الأعمال المتنوعة الخاصة بالسلطة العسكرية منذ بداية الحرب ، ولكن بقية المصالح ظلمت العمال ، ففى شكوى موقع عليها من عمال يعملون بورش الاسكندرية يقولون : « لقد مضى علينا الآن أكثر من سنتين ، أى منذ نشوب الحرب ونحن مشتغلين بالورشة أشتغالا تختص بالسلطة العسكرية زيادة على أعمالنا اليومية المعتادة الأمر الذى يضطرنا الى الاشتغال ليلا لغاية الساعة الثامنة مساء وأحيانا لأكثر من ذلك دون مقابل مع علمنا بأن مصلحة الفنارات والسكك الحديد والتليفونات تدفع لمستخدميها المشتغلين ليلا فى تلك الأعمال مقابل سهرهم » (٢) ٠

كذلك وافق مجلس الوزراء على فتح اعتماد اضافى لمصلحة السجون بمبلغ ٨٫٠٠٠ ج علاوة على المقرر للتوريدات العمومية للقيام بمصروفات الأعمال التى تطلبها السلطة العسكرية والتى يترتب عليها زيادة فى الايرادات (٣) ٠

وبهذا نرى أنه منذ نشوب الحرب أنفقت الحكومة المصرية لحساب الحكومة البريطانية ولأغراضها العسكرية مبالغ طائلة فى مختلف المصالح ، وقيدت هذه المبالغ فى حساب العهد على الحكومة البريطانية ، ووضع السير وليام برونيات المستشار المالى بالنيابة كشفا فى أوائل عام ١٩١٨ بالمبالغ التى أنفقتها الحكومة منذ أن بدأت الحرب الى نهاية ٣١ ديسمبر ١٩١٧ فوصلت الى ٢٫٥٠٠٫٠٠٠ ج م مع تقدير مبلغ نصف مليون جنيه آخر كان منظورا صرفه حتى آخر تلك السنة المالية أى أن ما أقرضته الخزانة المصرية للحكومة البريطانية بلغ ثلاثة ملايين جنيه ٠ فكان ذلك كرما بالغا وسخاء زائدا ٠

لقد أعلن القائد العام للجيوش الانجليزية فى مصر عند وضع البلاد تحت الأحكام العرفية بأن الحكومة الانجليزية سوف تدافع عن مصر وسوف تتحمل أعباء الدفاع ، لكن الوزراء وعلى رأسهم رئيسهم رغبوا فى أن تكون الحكومة رهن اشارة الجيش الانجليزى وتحت أوامره العسكرية فجعلوا مصروفات هذا الجيش من أموال الشعب المصرى ٠ وعبر المستشار المالى ازاء هذه المكافأة بقوله « لا حاجة بى الى الاعراب عن شعورى الحاضر ازاء هذه التقدمه المبذولة من كرم » ،

(١) Conseil des ministres, 1 Fev. 1916.

(٢) الحكومة المصرية ، مصلحة أقسام الحدود ، كوبيا السواحل ، الاسكندرية ١٠ يناير ١٩١٧ ٠

(٣) Conseil des ministres, 16 Fev. 1916.

وكان لهذا أثره على المصريين ، « ولما اطلع الناس على هذه المذكرة سخطوا سخطا شديدا على الوزراء واستنزلوا عليهم اللعنات » (١) ٠

ويعلق سعد زغلول على ذلك : « لم يمر على مصر زمان كانت الأمور فيها أكثر فوضى من هذا الزمان ، ولم تكن الحكومة محاربة للأمة فى وقت أكثر من محاربتها لها الآن لأنها سلبت منها ثلاثة ملايين قدمتها للحكومة الانجليزية » (٢)، وقال ملنر على أثر هذه المنحة « ان حكومة السلطان أيدت رجال السلطة البريطانية بأعظم تعاون حبى والدلائل على ذلك كثيرة منها تنازلها عن ثلاثة ملايين جنيه انجلبزى من حساب الأمانات والعهد التى كانت قد سلفتها ، وكان يحق لها المطالبة بها » (٣) ٠ وهكذا تبرعت الحكومة المصرية بهذا المبلغ الكبير وتحملت هذه النفقات فى الوقت الذى كان شعب مصر يعانى فيه الأمرين بسبب تلك الظروف التى أقحمت الشعب المصرى فى هذه الحرب ٠

وبذلك ضحت مصر كثيرا وتحملت أعباء تلك الجيوش التى مضت تخرب وتعربد فى البلاد باستهتار وبدون تحفظ ٠ فكانت عربات الجيش الانجليزى تجرى فى الشوارع غير عابئة بآداب المرور ، وعلى أثر ذلك تكررت حوادث التصادم والاصابات للأفراد المصريين (٤) ٠

بهذا أفلحت القيادة البريطانية أن تجند مصر وامكانياتها من رجال وأموال ومنتجات للمساهمة فى المجهود الحربى ، فقد كان دائما الشغل الشاغل لدى قائد القوات البريطانية فى مصر المزيد من التضحيات ٠ فدائما على اتصال بونجت باحثا ومدققا معه الدور الذى يمكن أن تقوم به مصر لخدمة المجهود الحربى البريطانى (٥) ٠

لقد اعترف ونجت فى خطاب له للسلطان فؤاد بأنه بفضل تعاون ومجهود كل طبقات الشعب المصرى أمكن لانجلترا الانتصار (٦) ، ونشرت التيمز تفخر بمصر وبأصالتها تقول : « ان مصر حافظت على السكينة والهدوء ، وقدمت

---

(١) سعد زغلول : السابق ، كراسة ٢٨ ، ١٨ ابريل ١٩١٨ ، ص ١٥٦٩ ٠

(٢) نفس المصدر ، ٥ يونيو ١٩١٨ ، ص ١٥٨٥ ٠

(٣) Milner : op. cit., p. 85.

(٤) Egyptian Gvt. Cairo city Police. No. 101, June 5, 1916, p. 47. No. 104 Jan. 14. 1917, p. 429.

(٥) Wingate : op. cit., p. 214.

(٦) ديوان رئيس الجمهورية ، دفتر صادر ووارد ، ٢٧ ديسمبر ١٩١٧ ٠

مئات الألوف من أبنائها لمعاونة الحلفاء . وقدمت أيضا جزءا كبيرا من محاصيلها لهم فى الوقت الحاضر الذى تعانى هى من متاعب العيش وصنوف الغلاء » (*) .

قدمت مصر كل ما تملك لانجلترا وحلفائها .. تحملت فوق طاقتها .. قدمت العمال والعلف والمؤن والنقليات وجميع المهمات على اختلاف أنواعها .. لعلها تحظى برد هذا الجميل وتلك المساعدة وهذا التفانى عقب الحرب وبعد اعلان حق تقرير المصير .

(*) الوطن ٢ ديسمبر ١٩١٧ .

الفصل الخامس

الحركة الوطنية

اجراءات القمع الانجليزية ــ انعكاسات الأوضاع على المصريين ــ الترجمة العملية ــ استمرارية سياسة العنف ــ الحركة الوطنية خارج مصر •

اجراءات القمع الانجليزية

عندما أعلنت الحرب رأت انجلترا أن تحكم الرقابة على المصريين حتى تأمن جانبهم وبذلك تضمن الميدان الداخلى وتتفرغ للخارجى بعد أن تأكدت من نوايا الأتراك فى اعداد حملتهم للاستيلاء على مصر وتعاونهم مع كل من السنوسى على حدود مصر الغربية وعلى بن دينار على الحدود الجنوبية ٠

كانت أولى خطوات السلطة العسكرية هى احكام الرقابة الحربية على مصر وقد ساعدها على ذلك الجيوش البريطانية الموجودة فيها ٠ هذا بالاضافة الى استدعائها فرقة « ايست لانكشير » من لندن واللواء التاسع الهندى من الهند بخلاف قوات كبيرة من استراليا ونيوزيلانده ، وتلك القوات كانت فى حاجة الى تدريب كبير قبل أن تكون أهلا للحرب ، لذلك أوكل اليها مهمة المحافظة على الأمن الداخلى فى مصر (١) ، حتى تتفادى حدوث أى اضطرابات وتبعد الخطر على قدر الامكان ، فاحتلت الجنود كل قرية وكل طريق بل كل قنطرة ، وعزز ذلك بتأليف قوى خصوصية من الخفراء وتوزيعها فى القاهرة والاسكندرية والمحافظات والمديريات وسائر المدن التابعة لها (٢) ٠

كان الانجليز يعلمون جيدا أن قرار الخامس من أغسطس سيكون له تأثير كبير على الشعب ضد انجلترا ، لذا أخذت للأمر عدته فزادت من الاهتمام بالضغط والرقابة على المصريين ، فأوقفت الأجازات لعلاج أى اضطراب يمكن له أن يحدث (٣) ، واستغلت السلطة الشباب اليونانى المقيم فى مصر حتى تتمكن من ضبط الأمن (٤) ، كذلك أعطت البطارية المصرية بالجيش أجازة لمدة أسبوع ووزع أفرادها على الأقاليم للمحافظة على النظام وللقضاء على أى حركة ، وعلى الفور جمع اللواء هارفى حكمدار بوليس القاهرة ـ كان بأجازة فى بداية الحرب ولكن وكيل الداخلية ديمترى اسكندر استدعاه فورا فى ٦ أغسطس ١٩١٤

(١) Massey : op. cit., p, 3, Elgood : op. cit., p. 177.

(٢) Récueil des doc. relatif de la guerre, 28 Sep. 1915.

(٣) وزارة الداخلية ، الفهرست الخاص بالأوامر العمومية ٩ سبتمبر ١٩١٤ ٠

(٤) La Bourse Egyptienne, 12 Août, 1914.

لما له من سلطة قوية على احكام الأمور فى مثـل تلك الظروف (١) ـ مأمورى الأقسام المختلفة والضباط والجنود وعاد من كان فى أجازة منهم ليتسلم عمله وأمرهم بمراقبة العاصمة وببذل الجهد فى المحافظة على الأمن العام ٠ ثم انتقل الى الاسكندرية واجتمع فيها بالسلطات المحلية لتنفيذ نفس التعليمات (٢) ٠

وتبع ذلك أن انتشرت قوات الأمن فى القاهرة لمواجهة ما قد يحدث من ثورات ، ووزعت القوات الأجنبية على قصر النيل مركز الرئاسة وهليوبوليس والأوبرا والزيتون والعباسية والهرم وشارع عباس وشارع سليمان وبالقرب من البنك الأهلى ، وعززت هذه القوات بقوتين مصريتين الأولى وضعت فى عماد الدين والثانية لا تبعد عنها كثيرا (٣) ٠

ونشطت اجراءات رجال البوليس السرى ، فانتشروا فى كل مكان سواء فى العاصمة أو المديريات وسهروا طوال الليالى لمراقبـة حركات المصريين ٠ وأخذ الانجليز ينشرون الرعب فى قلوبهم ، فبدأت القيادة البريطانية تستعرض جنود الاحتلال فى الشوارع والطرقات المشاة منهم والفرسان بكامل أسلحتهم الثقيلة والخفيفة ، وكان أكثر طوافهم بالأحياء الوطنية الآهلة بالسكان وذلك لاثنائهم عن القيام بأى حركة ضد الانجليز ، ووزعت الجنود الهندية ـ وقدرت بعشرة آلاف ـ بين رمل الاسكندرية ومصر الجديدة وبلبيس وكانت كل قوة منها تسافر الى فرنسا تحل محلها أخرى ، ونصبت المدافع فى كل مكان « فقد وضع مدفعا عند رأس التين مصوب فوهته الى مدينة الاسكندرية » ، لنفس ذلك الغرض ، ووصلت حركة الضبط والربط للدرجة القصوى (٤) ٠

ازاء تلك الاجراءات لم يستطيع الشعب أن يقف من قرار الخامس من أغسطس موقف احتجاج ، فتقول صـحيفة الأهالى على أثره : « قابله الناس بانقباض وسكون غريبين ، قابلوه بالهدوء الذى يقابل به الانسان خبر وفاة عزيز له ، ولولا أن الناس الآن مشغولون بالغلاء وبأخبار الحرب لكان لهذا القرار ضجة كبرى ومع ذلك فسيأتى يوم ويظهر فيه الأثر الطبيعى لهذا القرار » (٥) ٠

وقد تعمدت الأهالى وقالت ان الغلاء وأخبار الحرب منعت المصريين عن القيام بأى احتجاج على هذا القرار ولم تذكر أن الرقابة الشديدة هى التى منعت المصريين من عمل أى شىء ٠

ويصور محمد بهى الدين بركات أثر القرار على المصريين فيقول : « أدخل

---

(١) ملف اذن أوراق ربط معاش جورج هارفى حكمدار مصر ، ٢١ مارس ١٩١٨ ٠
(٢) المؤيد ٩ اغسطس ١٩١٤ ٠
(٣) Egyptian Gvt. Cairo City Police, No. 100, April 3, 1916, p. 21.
(٤) الأهرام ٢٩ اغسطس ١٩١٤ ٠
(٥) الأهالى ٩ اغسطس ١٩١٤ ٠

على النفوس الحزن والأسى فجعلنا نحس من جديد بذلك الجرح الذى لم يندمل بعد جرح الحكم الأجنبى واستعماره البلاد لصالحه وأننا لا حول لنا ولا قوة فى أمس الأشياء بمصالحنا ، وقد كتب علينا أن نرى الأقدار تقع علينا دون أن نتحرك » (١) ٠

كان المحتج الوحيد على هذا القرار أحد أعضاء الجمعية التشريعية ويدعى حسين بك هلال رغم أنه من الزعماء الحكوميين ، الا أنه عقب اعلان القرار أعد تقريرا وقدمه الى حسين رشدى يهاجم فيه خروج مصر عن الحياد ويرى أنه كان من الضرورى المحافظة عليه ، وأن مصر أصبحت مهددة بالغزو من جميع حدودها، وازدادت أعباؤها بتلك الجيوش الوافدة عليها هذا وان وضع مصر الدولى يمنعها من ذلك فهى تابعة للدولة العثمانية ، كما استفهم عن الشىء المقابل لمصر ازاء هذا الموقف الجديد (٢) ٠ وكان هذا الصوت هو الوحيد الذى خرج معلنا ومحتجا على دخول مصر الحرب بجانب انجلترا ، أما بقية الأصوات فقد كممتها الرقابة الصارمة ٠

تبع ذلك أن وضعت خطوط التليفونات المصرية تحت مراقبة جيش الاحتلال ومورست الرقابة على الرسائل بنوعيها البرقية والبريدية ، فكان القانون يفرض توقيع عقوبة الحبس أو الغرامة حتى عشرين جنيها والعزل فى الحالتين على كل من أخفى من موظفى الحكومة أو البوسته أو فتح خطابا من الخطابات المسلمة للبريد أو سهل ذلك لغيره ٠ ثم فرض توقيع العقوبتين معا على كل من أخفى من موظفى الحكومة أو مصلحة التلغرافات تلغرافا من التلغرافات المسلمة الى المصلحة المذكورة أو أفشاه أو سهل ذلك لغيره (٣) ٠

هكذا اعتبر القانون فتح الرسائل البريدية أو افشاء ما تحتويه الرسائل البرقية أو مجرد تسهيل ذلك جريمة يستحق عليها الموظف العزل فوق العقاب بحسب الأحوال ٠ ولم يجز الاطلاع على تلك الرسائل الا فى مواد الجنايات والجنح بشروط خاصة منها استئذان النيابة ٠

لكن انجلترا أعطت لنفسها حق فتح الخطابات ومراقبة البرقيات ، ففى أول الأمر روقبت البرقيات الواردة للوكلاء السياسيين الألمانيين والنمساويين ، واحتج هؤلاء الوكلاء على هذا العمل ، ثم ما لبث الأمر أن سرى على كل المكاتبات الخارجية حتى لقد شكا سفير الولايات المتحدة من فتح خطاباته لما فيها من معلومات سرية (٤) ، وبذلك سيطر الرقيب على كل ما كان يرد من الخارج

---

(١) محمد بهى الدين بركات : السابق ، ١٨ أغسطس ١٩١٤ ، ص ٦ ٠

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٠ ، المؤيد والأهرام ٣ سبتمبر ١٩١٤ ٠

(٣) مصر ٥ أغسطس ١٩١٤ ٠

(٤) Ministre des Affaires Etrangers, copies des lettres reçues, No. 1776, 6 Août, 1914, Allemange, No. 327, 10 Mai, 1918, Amerique.

وتعدى ذلك بأن عمم الفتح والمراقبة على كل ما كان يناول فى داخل مصر من رسائل أو برقيات بل من داخل كل مدينة منه ، فاذا فرطت من مصرى كلمة تناقض أغراض السلطة اطلعوا عليها فى تلك المكاتبات ومن ثم أوفدوا اليه الجواسيس تترقبه حتى لقد وصل بهم الأمر الى الاعتقال والمحاكمة من أجل كلمة فى خطاب ٠

هذا وقد وردت الأنباء البرقية الخارجية الخاصـــة بالناحيتين الحربية والسياسية مغيرة ومبدلة ، وعلى لسان شاهد عيان « كانت ترد الينا مبتورة لا تكاد تفهم ٠ فاذا أضفنا الى ذلك أنها كلها واردة من لندن التى لها صالح ظاهر فى نشر انتصارات حقة عن أسطولها وجيوش أصدقائها ، عرفنا ما فى تلك الأنباء من الصدق ٠ ولقد بلغ من تلك المراقبة أننا أردنا أن نرسل الى أحد أقاربنا بالشام تلغرافا ليحضر حيث أن مصر صارت فى حالة حربية قيل لنا انه تلغراف سياسى لا يصح ارساله لأن فيه كلمة حرب »(١) ٠

ويؤيد هذا سلامة موسى اذ يقول : « كنا نقرأ الاخبار كما يحب الانجليز أن نفهمها ، ولذلك كانت الرقابة صارمة شاملة ، فقد اشتركت فى بعض المجلات الامريكية كى أصل عن طريقها الى الاخبار الصحيحة ، فكانت اما تمنع من الوصول الى ، واما تقص أوراقها التى تحمل أخبارا غير ملائمة للانجليز» (٢) ٠

ولما كانت الصحافة آداة كبرى لوقوف الشعب منها على الحقائق ، فلم يرد الانجليز اطلاق الحرية لها ، بل لم يريدوا أن يكتفوا بقيود قانون المطبوعات الذى هو على الصحف أشد قسوة من أية رقابة ، فكتموا أنفاسهـــا ، وكمموا أفواهها ، فنرى الصحف أكثر أعمدتها بيضاء لحذف المقالات حتى السطر الواحد محذوف منه كلمات فيذهب بالكلام ومعناه ويشوه المقال ، ونبه على الصحف بألا تنشر شيئا يشعر بأن هناك ضيقا فى النفوس أو أن هناك ظلما واقعا على أهل مصر ، وصدرت الأوامر تمنع توزيع أى من الصحف أو النشرات الاخبارية بدون ترخيص(٣) ٠

كذلك منعت الصحف من نشر أى خبر له مساس بتحركات الجيوش من نزول فى السفن أو خروج منها أو نقل أى خبر يتعلق بوصول السفن الحربية أو النقالة أو سفرها أو مرورها وبأن قلم المطبوعات سيقوم بابلاغ الصحف ما يلزم ابلاغه من ذلك فى الظروف المناسبة ، وفتشت ادارات بعض الصحف وذلك حتى لا يكون الشعب على دراية بالتحركات ويستغل ذلك ضد الانجليز

---

(١) محمد بهى الدين بركات : السابق ، ص ٢٠ ٠

(٢) سلامة موسى : المرجع السابق ، ص ١١٨ ٠

(٣) Récueil des doc. relatif de la guerre, 13 Août, 1914.

وأوقفت الداخلية بعض الصحف وعلى رأسها الصحيفة الألمانية (١) ، ورغم ذلك فقد استطاع أحد الضباط وهو نجل الشيخ سليم البشرى شيخ الجامع الأزهر أن ينقل للخديو عباس بالأستانة أخبار مصر وتحركات الانجليز فيها ورسوما عن الاستحكامات التى شرعوا فى اقامتها بجبهة القتال ومعلومات أخرى حربية (٢) .

وجاءت برقيات الصحف الخاصة بأنباء الحرب متناقضة رغم أنها من مصدر واحد انجليزى بالطبع وهو يختلف عن الحقيقة التى تمثلت فى انتصارات ألمانيا المتتابعة .

وراحت انجلترا تقرب للأذهان ـ عن طريق الكثير من الصحف التى جندتها لمصلحتها ـ بأن الميول الألمانية ليست متسلطة على المصريين ، فصحيفة المؤيد تحتج على رأى المقطم فى أن تسعة أعشار المصريين مع الألمان ، أما المحروسة فتندد بامبراطور ألمانيا وبحقه الالهى المقدس . وباعلان الأحكام العرفية فى البلاد ازداد الضغط على الصحافة فلم يعد يسمح بنشر شىء الا بعد عرضه على الرقيب وأخذ الاذن بالموافقة على نشره ، وبذلك أصبحت « كل الصحف شبه رسمية لا تنطق الا بما تأذن به الرقابة ولا تنشر الا ما تريد اعلانه واعداد النفوس لقبوله » (٣) .

وتكملة لهذه الرقابة الصارمة على الشعب أصدر قانون التجمهر الذى يمنع تجمع الأشخاص وفرض العقوبة على ذلك (٤) ، ورغم أن هذا القرار صدر فى ١٨ أكتوبر الا أن الاجتماعات كانت قد حرمت عقب اعلان الحرب مباشرة وروقب المتحمسون من المصريين مراقبة شديدة ، وفرق أى اجتماع سواء أكان بقصد أو غير قصد « فقد حدث مساء أمس الأول أن مجموعة من تلاميذ المدارس من سكان جهة الباب الجديد كانوا جالسين فى محل بائع دخان يتجاذبون الحديث ، فجاءهم أحد رجال البوليس برتبة أونباشى وأمرهم بالانصراف من هذا المحل والا ساقهم للبوليس » (٥) .

لم تطمئن انجلترا الى موقف المصريين حيالها ، فرأت السلطات الانجليزية فى مصر ضرورة ايقاف نشاط الجمعية التشريعية ومهدت لهذا باصدار قانون التجمهر ، وعلى الفور صدر الأمر بتعطيل الجمعية التشريعية ، وكان المظهر الوحيد لوجودها هو تسلم أعضائها لمرتباتهم بانتظام ، اذ خافت انجلترا من أن

---

(١) The Egyptian Gazette, August 17, 1914, The Near East, Sept. 25, 1914, p. 677.

(٢) سعد زغلول : السابق ، كراسة ٢٥ ، ٢٦ مارس ١٩١٥ ، ص ١٣٢٩ .

(٣) نفس المصدر ، ٩ مارس ١٩١٥ ، ص ١٣١٧ ، الشعب ٥ نوفمبر ١٩١٤ .

(٤) Récueil des doc. relatif de la guerre, 18 oct. 1914.

(٥) الشعب ٢٥ أكتوبر ١٩١٤ .

تخلق الجمعية المتاعب لها بأن تحتج مثلا على أى اجراء تقوم به وكانت انتشرت الشائعات منذ أوائل الحرب بتعطيل الجمعية اذ يقول محمد بهى الدين بركات : « وقد سمعنا أن بعض الانجليز يصرح بأن الجمعية التشريعية لن نعقد أبدا . ولست أدرى ان كان هذا عن طريق النهدئة أو أن منشأة أن الانجليز يريدون انتهاز هذه الفرصة للتخلص من المعارضة فى الجمعية » (١) .

بهذا نرى أن انجلترا قد منحت نفسها الحرية لاطلاق يديها فى كل شىء حتى فى الجمعية التشريعية وهى الهيئة النيابية الوحيدة فى مصر عطلتها ، وقوبل هذا الاجراء بهدوء من أعضاء الجمعية ما عدا العضو حسين بك هلال الذى تحرك بحرص وكتب تقريرا الى حسين رشـــدى التمس فيه أن يكون الخديوى بين رعيته فى هذه الأيام الصعبة حتى يشرف على أعمال حكومته ويبعد بذلك ما تلوكه الألسن ، يريد بذلك ما يدور همسا فى المجالس من أن الحكومة العثمانية تمنعه من الحضور لمصر وتريد أن تحجزه عندها رهينة حتى تأمن به جانب مصر اذا تحركت هى حركة ما لمساعدة انجلترا أو من أن الانجليز يريدون أن يبقى هو بعيدا عن مصر حتى لا يكون فيها رأيا عاما ويجمع حوله حزبا قد يكون خطرا عليهم ومهدوا لهم فى الظروف الحاضرة (٢) .

أما باقى الأعضاء فالكثير منهم أظهروا النفاق والرياء للانجليز ، فأقاموا للمغـــادرين من رجالهم الحفلات واكتتبوا للصليب الأحمر حتى سعد زغلول نفسه تغاضى عن الكثير على أمل أن يتولى الوزارة .

كل هذه الاجراءات التى اتخذت والبلاد لم تقع رسميا تحت الحكم العرفى ، وأخيرا رأت انجلترا اعلانه فى ٢ نوفمبر ١٩١٤ (٣) ، وتأذت أنظار المصريين من لصق اعلانه على الجدران فى الطرقات فى كل أنحاء مصر .

ويحلل «الجود» أن سبب اعلان انجلترا الأحكام العرفية على مصر هو تخوفها من معاونة الشعب المصرى لتركيا ، نظرا للعلاقة الروحية التى تربطهما ولوجود عباس حلمى الحاكم الشرعى للبلاد فى القسطنطينية (٤) ، وهو على صواب ، فان وجود الأحكام العرفية والسيطرة التامة على المصريين حال دون هدف تركيا من ثورة المصريين ضد انجلترا فى وقت اجتياز حملتها أرض مصر ووقوعهـا ضايق وأرهق وحد من نشاطهم ولولا هذا الضغط الشديد الذى مورس فوقهم لقامت ثورة ١٩١٩ فى فترة الحرب ، فقد أرسل أدوارد جراى الى شيتهام فى

---

(١) محمد بهى الدين بركات : السابق ، ٢٦ سبتمبر ١٩١٤ ، ص ٣٠ .

(٢) نفس المصدر ، ص ص ١٧ ، ١٨ .

(٣) Récueil des doc. relatif de la guerre, 2 Nov. 1914.

(٤) Elgood : op. cit., p. 83.

١٣ نوفمبر ١٩١٤ يقول له : « اننى موافق على الترتيبات التى تمت ، وأشكرك وأشكر أيضا القائد العام لسيطرتكما على الموقف بتميز ومهارة » (١) ٠

ووصفت صحيفة La Bourse Egyptienne الموقف عقب اعلان الأحكام العرفية « وجد منذ فجر أمس تغيير فى شوارع القاهرة عقب اعلان الأحكام العرفية فالعربات آخذة طريقها العادى ولكن المقاهى والبارات تحدد ساعات العمل فيهـا الى الساعة الثامنه مساء ، وسلحت بعض الأماكن أمثـال شركة التلغرافات الشرقية والوكالة الانجليزية والوكالة الفرنسية ، واصطف الجنود المسلحون فى الشوارع والطرقات يوقفون أى جماعة صـغيرة منفذين تطبيق قانون التجمهر » (٢) ٠

وتولى الناس الذعر والجزع فى كل مكان ، وحاول شيتهام خداع الشعب أن بين لهم أن الحكم العرفى مقصور أمره على الوسائل الحربية اللازمة للدفاع عن مصر دون أن يتعدى ذلك التهجم على تشريع البلاد ونظامهـا الأسـاسى وقوانينها وقضائها ، وكل سلطة فيها ، فأرسل لحسين رشدى فى ٦ نوفمبر ١٩١٤ يقول له : « ياعطوفة الوزير أتشرف بأن أرفع لعطوفتكم فى هذا صورة المنشور الذى أصدره جناب قائد الجيوش البريطانية فى ٢ نوفمبر — معلنا به الأحكام العرفية — وترون عطوفتكم من هذا المنشور أن السلطة فيما يتعلق بالوسائل الحربية اللازمة للدفاع عن القطر المصرى وبالتدابير التى يستنـد عليها هذا الدفاع أصبحت منحصرة فى يد جناب القائد العام وأن حضرات النظار لا يزالون كل واحد منهم حافظا للسلطة التى له فى الأمور الملكية الخاصة بنظارته » (٣) ٠

وبذلك أصبحت الأحكام العرفية خطرا على الحرية العامة وحقوق الأفراد ومجالا لبعض ذوى الأغراض للنكاية بخصومهم واحراج مراكزهم ٠ وقسمت مصر الى عدة مناطق عسكرية يحكم كلا منها قائد مسلح بقوة الحكم العرفى (قسم الاسكندرية — قسم الدلتا — القوة الغربية وتشمل مديريـات القطر كلها) ٠ وأنشئت محافظة فى الغرب سميت (محافظة الغرب الوقتية) وألحقت بالسلطة العسكرية رأسا ونفذت فى منطقتها الأحكام العرفية وشملت مرسى مطروح وسيدى البرانى والضبعة وواحة سيوه والواحات البحرية (٤) ٠

هكذا أعلن الحكم العرفى الانجليزى على مصر بجرة قلم من قائد جيش الاحتلال بناء على أمر حكومته وسهل الأمر موقف المسئولين ٠

---

(١) Lloyd : op. cit., p. 196.

(٢) La Bourse Egyptienne, 3 Nov. 1914.

(٣) الوقائع المصرية ٦ نوفمبر ١٩١٤ ٠

(٤) نفس المصدر ٠

وفى ١١ نوفمبر أصدر مكسويل منشورا ــ لحتمية الحكم العرفى ــ يهدد فيه المصريين اذا تشيعوا لأعداء انجلترا ووجدت معهم منشورات تعنى ذلك بتعرضهم للحكم العسكرى(١) ٠

وأنشئت تبعا لذلك المحاكم العسكرية تحت الحكم العرفى ، فقامت على غير القانون المصرى وأخذت تقضى بعقوبات الاعدام والسجن والغرامة والجلد ، وتولى القضاء فيها جماعة من ضباط الجيش الانجليزى يجهلون عادات البلاد وتقاليدها ، وزيادة على ذلك فليس لهم المام بالقوانين يمكنهم من تحرى الحقائق « فالأهالى بذلك خاضعين لا لقانون العقوبات العادى انما خاضعون لمارشال حضر من انجلترا ليست لديه أية خبرة عن عقول المصريين ، ولم يكن يعلم أنه فى قانون العقوبات المصرى لا توجد عقوبة بدنية كالجلد » (٢) ٠

وأعطيت لهذه المحاكم اختصاصات كثيرة ، فكانت تقضى فى جرائم القذف والسبب فى غير الانجليز، والمسائل الخاصة بالآداب وتزييف النقود ،وتبعا لذلك أصبح كل شخص خاضعا للقانون الجنائى المصرى يرتكب جريمة يحاكم أمام المحاكم العسكرية اذا اعتبرت السلطة العسكرية جرمه هذا منافيا لمصلحتها ٠

ومن المعروف أن الحكم بالاعدام يستلزم أولا معرفة وزارة الداخلية بناء على طلب من النائب العمومى مبين فيه استيفاء اجراءات خاصة ، ولكن هنا أهمل ذلك فأصبح فى امكان تلك المحاكم العسكرية التصرف كيفما تشاء فى المصريين بورقة مكتوبة يرسلها رئيس المحكمة العسكرية الى الحكمدارية لتنفيذ ما فيها خلافا لما تنص عليه القوانين المصرية دون نقض أو ابرام ٠

ونشرت الشركة المركزية التلغرافية برقية دلت على نشاط هذه المحاكم فى فترة الحرب تقول : « ان الحركة الثورية فى مصر تزداد يوما فيوما بين المصريين وان المحاكم العسكرية التى أنشأها الانجليز فى مصر تصدر الأحكام بالاعدام بلا انقطاع على العصاة والثائرين ضد سلطتها من المصريين »(٣) ٠

وصرح أحد أعضاء مجلس العموم البريطانى بأن مصر قد بترت الحرية فيها بهذه الاجراءات(٤) ، ووقع العبء على المصريين ، فكثيرا ما صدر الحكم العسكرى ظلما وعدوانا بينما كان هناك أناس أوقعوا الظلم وبرئوا ٠ وروى نجيب فؤاد المحامى فى مقال له بصحيفة البلاغ أن قضيتين رفعتا على عمدة طهطا احداهما جنحة تستر على نفر محكوم عليه بعقوبة مقيدة للحرية وصدر فيها الحكم ابتدائيا على العمدة بحبسه ثلاثة أشهر ، ولما استؤنف الحكم توصل

---

(١) Récueil des doc. relatif de la guerre, 14 Nov. 1914.

(٢) House of Commons, vol. 115, May 15, 1919, p. 1835.

(٣) العالم الاسلامى ، ٢٥ مايو ١٩١٦ ، ص ١٣ ٠

(٤) House of Commons, vol. 113, Mars 20, 1919, p. 2385.

المحكوم عليه الى استصدار أمر من السلطة العسكرية بالامتناع عن نظر الدعوى وفعلا صدر الأمر ولم ينفذ للحكم (١) ٠

أعقب ذلك أن أغلقت السلطة العسكرية نادى أعضاء المدارس العليا خوفا من حـــدوث أى شغب يضر بمصلحة انجلترا (٢) ، وحلت النقابات العمالية ، وأعطت الأوامر لكل عمدة وشيخ بلد بأن يمنع بالقوة المناقشة فى المسائل السياسية « والا تعرضوا لأشد أنواع العقاب » (٣) ٠

وبلغ الأمر الى انجلترا راحت تمنع أى احتفال دينى ممكن له أن يجمع الساخطين على الأوضاع فأجلت الموالد كمولد السيد البدوى بطنطا وابراهيم الدسوقى بدسوق وتحججت فى ذلك بأن الظروف المالية لا تسمح باقامة مثل هذه الموالد وبأنها تجعل الفلاحين يتركون حقولهم ومصالحهم ، ويذهبون الى هذه الموالد ، لذا فان ابطالها يعود على البلاد بالفائدة ٠ ولا ينكر أحد أن هذا التأجيل يرجع الى ظروف سياسية ٠ وحتى فى الموالد التى لم تستطع انجلترا أن تؤجلها أمثال مولد الحسين فرضت رقابة صارمة عليها ، يقول سعد زغلول : « توجهت الى مكان المولد فى السرادق ، وكان الجو حاشدا حسب العادة وحضر هنس ـ مستشار الداخلية ـ وتحادثنا معا فأخذ هنس يتكلم بالألمانية معى ، وقال ما معناه أننى أريد أن أقبض عليك وأرسلك الى رأس التين قلت ان كانت الوطنية هى سبب سجن الناس فانى فخور بالسجن » (٤) ٠

الى هذه الدرجة وصلت الأحوال بأن يحضر مستشار الداخليـــة وقوات الشرطة الموالد حتى يسيطروا على الموقف ويمنعوا وقوع أى مظاهرة يقوم بهـا الموجودون٠وأصدرت السلطة الأوامر الى جميع ملاك ومديرى الفنادق بأنيقدموا لها كل يوم بيانا عن الأشخاص الذين ينزلون فى فنادقهم ويبرحونها ، وكان عليهم أن يرسلوا هذه البيانات للبوليس فى كل صباح ، وقد وقعت العقوبة على كل من خالف هذا (٥) ٠

وراح مكسويل يحذر المصريين من المخابرة مع العدو بأية وسيلة أو تقديم المساعدة له أو بالحصول على معلومات يمكن لها أن تعرقل الاجراءات العسكرية والترتيبات الحربية الجارية فى ميدان القتال أو داخل البلاد أو من اذاعة أخبار تحـدث قلقا أو انزعاجا فى البلاد أو تشويشا على النظام أو التعرض لسلامة الخطوط الحديدية والكبارى والبواغيز أو التعريف عن المواقع التى يشغلهـا

---

(١) البلاغ ١٩ أغسطس ١٩٢٣ ٠

(٢) فخرى عبد النور : السابق ، الفصل الثانى ، ص ١١ ٠

(٣) The Near East, Septembre 11, 1914.

(٤) سعد زغلول : السابق ، كراسة ٢٨ ، ٢٦ ديسمبر ١٩١٧ ، ص ١٥١٩ ٠

(٥) السفير ٢٥ فبراير ١٩١٥ ٠

والجيش والأسطول بحركاته وتدبيراته وخططه الحربية ، وبين أيضا أن للسلطة العسكرية حق استخدام الأفراد والممتلكات الخاصة وتكليف السكان باخلاء الأماكن التى تكون مجاورة للحصون أو تقع على موانىء أو المجاورة للمواقع الحربية وقد تلزم السلطة أى شخص بالاعتكاف فى المكان الذى تعينه والحجر على أى انسان بملازمته بيته وعدم مبارحته داره بعد ساعة معينة تقررها السلطة(١) •

وتبع ذلك أن فرضت المراقبة الشديدة على سواحل مصر سواء الغربية أو الشرقية خوفا من تسرب أشخاص محرضين على الثورة لهذا أخضعت الطرق التجارية وخاصة الطرق الواقعة غرب مصر الى رقابة صارمة ، فمنذ الأول من سبتمبر ١٩١٤ « كثرت الاجتماعات بالاسكندرية للاتفاق على الترتيبات التى ستتخذ لأجل أحسن الطرق للرقابة على حركة الطرق التجارية » (٢) •

وانتشرت الجواسيس فى كل مكان تراقب التحركات ، ففى ٢٦ أغسطس ١٩١٤ ضبط ضابطان ألمانيان مرتديان زى أعرابى ومعهما من يدعى « سيدى عبد الرحمن » « وسيدى أحمد » « وسيدى محمد ادريس » قاصدين الحدود بالساحل الغربى ، وكذلك ضبط السيد محمد شرف ومحمد عبد المطلب وعبده كيلانى متوجهين أيضا للغرب ومعهم سبعة ضباط أتراك لينضموا للسنوسى ، وأبلغ مدير ادارة الأقسام الغربية قومندان قسم الضبط أنه فى ٢٧ أغسطس ١٩١٤ مرت مركبة ومعها ٦٠ جملا تحمل مواد غذائية وأعطيت الأوامر لتفتيش القطارات جيدا فى محطة الحمام وحجز أى شخص سواء أكان من الالمان أو الاتراك أو المصريين مسافرا للغرب وتفتيشهم والاستيلاء على ما معهم من أوراق أو مكاتبات(٣) •

وتقول الأهرام : « اعتقلت السلطة العسكرية فى دمياط منذ أيام خمسة عشر بحارا عثمانيا جاءوا دمياط بمركب شراعى للاتجار والنقل ثم أخلت سبيلهم وعادت فاعتقلتهم وأرسلتهم للاسكندرية ، واعتقلت القوات البريطانية المرابطة على قناة السويس سبعة من البدو وأرسلتهم الى مصر »(٤) •

هكذا اتخذت الاحتياطات اللازمة لمراقبة المارين من والى الساحل الغربى ، وعين مراقبون للعمل ليلا ونهارا لهذا الغرض وجاءت الاخباريات تفيد بأنه — على سبيل المثال لا الحصر — تبين أن المركب المسماة « أبو العباس » وهى تحت رئاسة « محمد الفتورى » كانت موجودة بالسلوم وفرغت البضائع التى

---

(١) الجريدة ١٧ نوفمبر ١٩١٤ •

(٢) ديوان الادارة ، كوبيا السواحل لعام ١٩١٥ ، ١٦ أكتوبر ١٩١٥ ، ص ١٥٢ •

(٣) كوبيا أقسام السواحل الغربية عام ١٩١٤ ، ٢٧ أغسطس ١٩١٤ ، ص ٢٤٨ •

(٤) الأهرام ٢٥ فبراير ١٩١٥ •

استحضرتها من الاسكندرية ثم قامت من السلوم رأسا للشام لاستحضار جوابات سرية وأدوات حربية و « نورى باشا » وأمر مدير الأقسام الغربية بمراقبتها وحجزها عند الرجوع (١) ، ازاء ذلك صدرت أحكام الاعدام على كل من يضبط حاملا لبضائع أو خلافه للحدود الغربية .

من هذا نرى أن انجلترا كانت يقظة جدا تجاه هذا الأمر ، فأوقفت الكثير على هذا الطريق ، وخافت من حدوث قلاقل داخل مصر فأصدرت التعليمات الى قومندان حرس الجمارك بالاسكندرية « بأنه في حالة حدوث هيجان ذى خطر بالبلدة يجب غلق جميع البوابات الموجودة بالاسكندرية وعلى الفور استدعاء جميع الأنفار من الوردية ، وان يتضاعفوا بكل بوابة ، وكذلك أعداد خراطيم ومعدات الحريق لتصويبها فورا تجاه الرعاع عند اللزوم » (٢) . تبعا لذلك كثرت جنود الانجليز على هذه السواحل ووزعت بين السلوم وبنى سويف بالاضافة الى أعداد كبيرة من الجمالة وانتشر البوليس فى الموانىء سواء منها الشرقية أم الغربية ، وذلك لتأمن انجلترا عدم تسرب أى برنامج عمل من جهة الأتراك أو السنوسيين يكون له تأثير على نفوس المصريين خصوصا بعد أن تأكدت من استعداد السنوسيين للزحف على مصر .

واتخذت نفس الاجراءات بالنسبة للسواحل الشرقية خوفا من حدوث تسرب لأفراد معهم منشورات أو كتابات تقضى بتحريض المصريين على الثورة ، وفى ٢٩ سبتمبر ١٩١٥ وقبل الهجوم التركى الأول على قناة السويس أصدر مكسويل أوامره التى تقضى : « أولا : لا يجوز للمسافرين فى أى مركب كان النزول الى البر فى منطقة قناة السويس ما لم يكونوا قاصدين الجهة التى نزلوا فيها أو كان نزولهم بقصد انتقالهم من مركب الى آخر ، ويستثنى من ذلك المسافرون من الرعايا البريطانيين أو رعايا احدى دول الحلفاء الحاصلين على جوازات سفر قانونية .

ثانيا : تشمل منطقة قناة السويس وبور سعيد ، بور توفيق ، جميع المراسى التى بينها على جانبى القناة وتوقيع عقوبة صارمة على كل من يخالف ذلك » (٣) .

عقب ذلك عين قومندان بوليس الاسكندرية قائدا للبوليس الحربى للمدينة ، فأصبح من أهم اختصاصاته الرقابة بل والسيطرة على الميناء الذى صار منذ أغسطس ١٩١٦ ميناء حربيا خاضعا للسلطة الحربية مطبقا عليه كل الاجراءات الحربية (٤) .

---

(١) كوبيا أقسام السواحل الغربية عام ١٩١٤ ، ١٦ أبريل ١٩١٥ .

(٢) نفس المصدر ، ٢٧ أغسطس ١٩١٤ ، ص ٢٤٨ .

(٣) Récueil des doc. relatif de la guerre, 29 Sept. 1915.

(٤) Allenby : op. cit., p. 60.

وهكذا كانت اجراءات انجلترا تجاه الحدود والرقابة عليها خوفا من تسرب الدعاية الألمانية والتركية داخل مصر وانتصارها ، وفي هذه الحالة تفقد انجلترا السيطرة على الموقف في مصر التي أصبحت من أهم المراكز الحربية للحلفاء ، وخاصة بعد أن تأكدت من شعور المصريين المعادى لها ، ولهـــذا كانت فطنة للقضاء على كل حركة يمكن لها أن تتغلغل داخل مصر سواء كانت هذه الأخطار من داخل مصر أو من خارجها ٠

وكان عليها أن تراقب ثلاثة آلاف من رعايا أعـــدائها وتتبع خطواتهم وحركاتهم (١) ٠ ولم يمض عام ١٩١٥ حتى صفيت أعمالهم ورحلوا عن مصر ، وفي تقرير مكسويل الى كتشنر في ١٦ أكتوبر ١٩١٤ يوضح فيه ما معناه بأنهم جاهدون في القضاء على الدعاية الألمانية التي لها المقدرة على تحريض الثورة في مصر ، وأنه قد تم اعداد قائمة بأسماء الذين يجب مغادرتهم لمصر من رعايا الأعداء وقص عليه مسألة « روبرت مورس » وهو ضابط ألماني برتبة ملازم أول كان يعمل في بوليس الاسكندرية وسافر الى الآستانة في ٤ سبتمبر ١٩١٤ وقابل فيها المسئولين الأتراك والألمان الذين أفهموه بوجود رسل في مصر يعـدون أذهان المصريين لثورة ضد الانجليز في نفس الوقت الذى تصل فيه الحملـة التركية حتى يجبروهم على تقسيم قواتهم بين الثورة والحملة ، وبحث معه في مسائل حربية خاصة بسد قناة السويس وهدم الجسر الفاصل بينها وبين الترعة الحلوة ، وأعطى له ديناميتا لتسليمه الى مؤيدى تركيا بمصر ، ولكن قبضت عليه السلطة في ٢٩ أكتوبر ١٩١٤ وحوكم (٢) ٠

وكتب القنصل الانجليزى في حلب يبين مجهودات الألمان تجاه مصر ضد الانجليز قال ان أحد خياطى هذه البلدة أوصى بعمل عدة بدل وعمائم هندية على أنواع مختلفة طبقا لرسومات وقياسات أعطاها له بعض الضباط الألمان الموجودين هناك (٣) وذلك حتى يتيسر لهم الأمر ويدخلوا مصر ٠

ورغم ذلك فقد ازداد النشاط الألماني في مصر ، وكثر الأشخاص الألمان المحرضين على الثورة ضد الانجليز باثارة الشعور الديني واعلان خلاص مصر على يد الجيش العثماني المحتشد في سوريا ، ولم تستطع السلطة أن تصل الى بعض الألمان الموجودين في مصر لمهارتهم في الهرب ، مثال ذلك الضابط الألماني

---

(١) الحرية ٣١ أكتوبر ١٩١٤ ٠

(٢) Arthur, 9 : Kitchener et la guerre 1914-1915, p. 127, Young, G. : Egypt, pp. 201, 202.

(٣) ادواردكوك : تلخيص أسباب انقطاع العـلاقات الـودية بين بريطانيـا العظمى والدولة العثمانية المدونة بالمكاتبات الرسمية المنشورة من وزارة الخارجية البريطانية بلندن ، مترجم ، ص١٧

البارون « اتوبيرج Otto gum penberg الذى أتعب السلطة ووزارة الداخلية وقد عرض مدير السواحل الغربية مكافأة كبيرة لمن يرشد عنه (١) ٠

وخضع أيضا الأتراك النازلين لمصر والموجودين فيها الى مراقبة شديدة ، وراح البوليس السرى يبحث وراءهم ، وقبض على كثيرين وهم جالسون فى بعض المحال العمومية التى اعتادوا الجلوس عليها ، واستدعت ادارة الضبط بعض الذين لهم صلة بهؤلاء الأتراك وحجزوا حتى أن صدر قرار نهائى بشأنهم (٢) ٠ وضبط أيضا « سليمان البروى » وهو تركى ، يحث الناس على العصيان وقد عثر على خطاب حرره أحد الضباط البحريين الاتراك فى مصر ، قال فيه انه اجتهد كل الاجتهاد فى احداث اعتصاب الانشجية والمهندسين المسلمين المستخدمين فى أربع بواخر متخصصة لنقل الجنود الانجليز وبأنه سيسعى فى تفريق هذه البواخر بعد ركوب الجنود فيها (٣) ٠

ويؤكد محمد فريد هذه الخطط « كنا قد أرسلنا عبد العزيز أفندى عمران الى مصر ليراسلنا بطريقة مخصصة عن الأخبار الحقيقية أو لارسال أحد الاخوان المخلصين ، وسافر فى ١٩ فبراير ١٩١٥ ، وبعد أن صرح له بالدخول لمصر بعد تفتيشه وتفتيش عفشه عاد اليه البوليس بعد أربعة أيام وفتشــوا مسكنه ومسكن أخيه المقيم بمصر ، وقبضوا عليه وسجنوه مدة أثنى عشر يوما ثم رحلوه الى الاسكندرية وأمروه بالسفر حالا من القطر المصرى » (٤) ٠

وتمكن البعض من الأتراك الفرار من مصر بعد صدور المحاكمة بادانتهم ، ففى الأيام الأولى من الحرب وفد الى مصر أحد ضباط الجيش العثمانى لمهمـة سياسية وكان اعتماده فى قضائها على معونة شخص آخر يدعى « مجد الدين أفندى ناصف » ولكن لم يلبث أمر ذلك الضابط أن انكشف فقبض عليه بتهمة التجسس وحكم عليه بالاعدام رميا بالرصاص ثم استبدل الحكم بالسجن المؤبد مع الاشغال الشاقة ، وهناك فى ليمان طره القى مجد الدين أفندى شباكـه لاقتناص هذا الضابط من السجن ، وتم له ما أراد (٥) ، هذا فى الوقت الذى كان جمال باشا يوزع المنشورات فى سوريا تضمنت فتاوى أصدرها المفتى الأكبر بالآستانة يحرم فيها على مسلمى مصر الحرب ضد الأتراك ويعلن أن جزاء من يفعل ذلك نار جهنم (٦) ٠ وكان السلطان قد وجه نداء للمصريين لاثارة القلاقل أمام الانجليز ومساعدة الحملة التركية ٠

(١) كوبيا السواحل ، ٣ ابريل ١٩١٥ ، ص ٢٠٤ ٠
(٢) الجريدة ٤ نوفمبر ١٩١٤ ٠
(٣) ادوارد كوك : المرجع السابق ٠
(٤) محمد فريد : السابق ، الكراسة الرابعة ، ص ١٢٦ ٠
(٥) محمود طاهر العربى : اثنى عشر عاما فى السجون ، ص ص ٣٣٤ ، ٣٣٥ ٠
(٦) Storrs : op. cit., p. 135.

واتجهت المجهودات التركية في هذا الاطار الى الحــدود الغربية لمصر لتشتت جهود انجلترا لكنها كانت يقظة لذلك ، ففى تقرير من رويتر يبين أن المحكمة العسكرية فى مصر عقدت جلستها فى ٢٠ ديسمبر ١٩١٦ لمحاكمة خمسة رجال ضبطوا وهم فى طريقهم من البحرية الى مصر يحملون معهم أسلحــة وخطابات وهم « وهمان بن حيان » وهو عربى طرابلسى ويعمل لدى السنوسى استطاع دخول المنطقة التى تحتلها القوات البريطانية وهو مسلح بالمفرقعات والطبنجات ومكاتبات تحوى على اشعال الثورة فى مصر والخروج على الانجليز ، والثانى « موسى صالح » والثالث « موفتى سنيدا » والرابع « يوسف محمد » والأخير « على محمد » ، وكانوا محملين جمالهم بالديناميت والمفرقعات والطبنجات وخطابات من السنوسى تحث المصريين فيها على التمرد ضد الانجليز (١) ٠

كانت السلطة الانجليزية فى مصر على دراية فائقة بهذه التحركات ٠ وأحكمت الرقابة ووضعت الاجراءات للقضاء على أى حركة من هذه الحركات حتى أن مكسويل نفسه توقع تحالفا بين الأتراك وعلى بن دينار على الحــدود الجنوبية لمصر ليقوم الأخير بنفس الغرض الذى قام من أجله السنوسى ، فأرسل الى كتشنر فى ١٦ أكتوبر ١٩١٤ يقول له : « اننى أعرف أن هذه سياسة وزارة الخارجية ، ولكنى أعتقد أنه يجب أن نتقرب من عرب مكة واليمن لضمها لنا ضد الأتراك » (٢) ٠

وعن هذا الطريق قامت الثورة العربية ضد الدولة العثمانيــة ، وأمن الانجليز خطر أى هجوم مضاد من هذه الناحية وتفرغوا لصد تركيا وحليفتهـا ألمانيا ، وانتهى الأمر بانتصارهم ٠

انعكاسات الأوضاع على المصريين :

كان بمصر فريقان ، فريق يؤمن بالاستقلال عن الدولة العثمانية ، ويرى أن ترتبط مصر بمعاهدة مع انجلترا ولكنه لا يعترف بالأسلوب الثورى لتحقيق ذلك ، وتمثل فى مدرسة حزب الأمة الذى يرى التفاهم المباشر مع الانجليز ، وتشيع هؤلاء لانجلترا وحلفائها ، وضم أيضا رجال الحكومة القائمة وهم الطبقة العليا ومنهم بعض الشخصيات القوية التى لعبت فيما بعد دورا كبيرا فى التاريخ المصرى أمثال سعد زغلول ، وعدلى يكن ، وعبد الخالق ثروت ، واسماعيل صدقى وأنصارهم ، كما كان من بينه كثير من المصريين الذين تلقوا تعليمهم بالخارج ٠

وثق هؤلاء بوعود انجلترا التى قطعتها على نفسها لرجال الحكم فى مصر

(١) The Near East, Feb. 2, 1917, p. 326.

(٢) Arthur : op. cit., p. 128.

متى خرجت منتصرة من القتال ، ومنهم من كان يرى أن الظروف تحتم على الأمة أن تنتظر حتى يحين الوقت للمطالبة بحقوقها • وكان أغلب هذا الفريق من الطبقة الأكثر ثروة الـذين يعتمدون على بيع قطنهم للانجليز لهـذا تقربوا وتحببوا لهم • (١)

أما الفريق الآخر فهو يؤمن بالاستقلال التام عن الانجليز مع بقاء الارتباط الروحى الاسـلامى بالدولة العثمانية ويرى أنه بالتعـاون مع الأتراك يمكن التخلص من الانجليز ، وكان أكثر هذا الفريق يضم الطبقة الوسطى والمثقفين الذين أطلق عليهم « طبقة الأفندية » ، وهم من أتباع الحزب الوطنى ، آمنوا بالانحياز الى جانب ألمانيا ، وساعدتهم انتصاراتها على ذلك حتى أن أحد رفقاء الخديوى عباس كتب الى عدلى محاولا ضمه الى صفهم وكان مما قال له : « ان بعد موقعة البحيرات الماسورية لن تقوم لروسيا قائمة وان النصر أصبح محققا للألمان » • (٢)

ولا شك أن تأثير الزحف الألمانى المظفر عبر بلجيكا وعدم صمود الجيش الانجليزى وارتداده ، وما انطلق من الشائعات حول الهزائم الانجليزية كان له تأثير فى مصر • اذ غمرت مصر روايات هذا الارتداد ، ومن هنا فان « موجة من الشعور العدائى للانجليز والموالى للألمان قد سادت حينذاك فى بعض الدوائر فى مصر » • (٣)

وراحت صحيفة الشعب وهى لسان الحزب الوطنى تشكك القراء فى أنباء القتال المنشورة فى الصحف ودللوا على انتصار الألمان وسخروا من المغلوبين من البلجيك والفرنسيين والانجليز ، ذلك « فان شعورا باطنيا كان يخالج الكثيرين بأن انتصار الألمان والأتراك معناه الخلاص من الانجليز والسـلطة العسـكرية والأحكام العرفية » • (٤)

لهذا فقد أصبح الشـعب من أتبـاع الحزب الوطنى تواقا للألمان وعقوله مهيأة للثورة ، وانتشر الشعور المعادى للانجليز وأصبح قويا جدا وكاد أن ينتصر لولا اجراءات مكسويل التى حالت على قدر الامكان دون نفاذ نشاطه وساعدت سيطرة الأحكام العرفية على ذلك •

ورغم هذا فلم يكترث المصريون بالعقاب ، ففى ٢٤ يناير ١٩١٥ ــ قبل الهجوم العثمانى بحوالى أسبوع ــ جمع أحد أبناء أعيان الوجه البحرى عددا من

---

(١) Storrs : op. cit., pp. 132, 133.

(٢) الأهرام ٢ نوفمبر ١٩٢٧ •

(٣) Lloyd : op. cit., pp. 188, 189.

(٤) محمد حسين هيكل : المرجع السابق ، ص ٧٣ •

الفلاحين وبين لهم قرب دخول العثمانيين مصـــر وتحريرها من الانجليز على يدهم ، فأبلغ أمره للسلطة فألقت القبض عليه ٠ (١)

وفي كل مساء كان الناس يجتمعون بالقهاوى ويتكلمون بأصوات مرتفعة عن النصر المؤكد الذى سيحرزه العثمانيون ويرسمون خطط القتال على أفاريز المقاهي وقارعات الطريق وذهبوا الى أنهم حددوا الساعة التي ســـيدخل فيها الجيش العثماني مدينة القاهرة ٠ (٢) وذهب فريق الى الاشاعة بأن الأتراك وصلوا الدلتا واحتلوا البلاد « فهؤلاء الرجال ـ أتباع الحزب الوطنى المنحاز لتركيا ـ أعلنوا أن الأتراك وصلوا الى بنها وأكد الحاضرون ذلك بل ان البعض حكى أنه شـــاهد الأتراك المنتصرون وهم يجتازون القناة بعد أن قضـــوا على استحكامات الانجليز الدفاعية هناك ، وصـــدق الأهالى ذلك فى طول البـلاد وعرضها » (٣) ٠

وهذه الحالة دعت ستورس وهو الســكرتير الشرقى لدار الحماية الى أن يكتب في أحـــد تقاريره للندن : « ظهرت فى بداية الحرب فى أواسط معينة موجة معادية للانجليز وشعور مشايع للألمان لدرجة أدهشت بعض الأوربيين وحيرت حتى المراقبين المصريين ، فعلى الرغم من انقياد المســـلمين كانوا معادين صراحة للأتراك فانهم كانوا يهزون رؤوسهم قائلين نرجو للأتراك كل نجاح »(٤)

وفى ١٦ أكتوبر ١٩١٤ كتب مكسويل الى لندن يقول : « لقد ازداد عدد المتهيجين فى مصر ـ ولكن كل شيء هادىء ـ وهذا ناتج عن الدعاية الألمانية اذ أن الثورة فى مصر على وشك الحدوث وأن العملاء منتشرون فى كل مكان يروجون ضد الانجليز » (٥) ٠

وراح المتشيعون للألمان ودولة الخلافة يذيعون أن الجيش المقبل عرم ولن يستطيع الانجليز صـــده واعتقدوا أن الأتراك سيصلون للقنـــاة فى آخر يناير ١٩١٥ وأن الخديوى اتفق معهم على استقلال مصر استقلالا تاما وسافر الى فينا للعمل على مافيه صالح مصر مع الحكومة الألمانية والنمساوية ٠

وبذلك ترددت الأخبار فى مصر عن اعلان استقلالها والاعتراف بسيادتها فى الآستانة نفسها وبأن الخديوى عباس قادم وبصحبته لفيف من المصريين على رأس جيش لطرد الانجليز وخلاص مصر وأنه بانتصار المانيا وتركيا سوف تحرر أرض مصر ٠ (٦) وردد الناس : « الله حى عباس جاى ٠٠ قولوا لعين

---

(١) المقطم ٢٥ يناير ١٩١٥ ٠

(٢) نفس المصدر ٣ يناير ١٩١٥ ٠

(٣) The Near East, March 3, 1915, p. 484.

(٤) محمد حسين هيكل : المرجع السابق ، ص ٧٣ ٠

(٥) Arthur : op. cit., p. 96.

(٦) محمد حسين هيكل : المرجع السابق ، ص ص ٦٩ ـ ٧١ ٠

الشمس متحماشى ، لاحسن غزال البر صابح ماشى ٠٠ يا أمة الاسلام ليش حزينه ان كان على عباس بكره يجينا » ٠ لقد اعتبر المصريون لعنات الانجليز على عباس ورفض عودته الى مصر شهادة بوطنيته ودليلا على تمسكه بأهداف مصر فى الحرية والاستقلال ٠

وقد جهرت هذه العناصر بعدائها لانجلترا وحلفائها ٠ وكانت تدعو الله علنا أن ينصر الأتراك وحلفاءهم الألمان ، وتطوع من مكنته الظروف فى جيش السنوسيين وفى الجيش التركى اذ رأوا أن الفرصة قد سنحت لمصر للكسب وللتخلص من الحكم البريطانى (١) ٠ ومضت الدعاية لألمانيا فوصفت بأنها الدولة الكبرى الوحيدة التى صادقت الاسلام دون أن تحتل شبرا من الأراضى الاسلامية وبأن الامبراطور الألمانى أصبح مسلما وأطلق عليه « الحاج حامى الاسلام » ، ويبين ستورس أن هذا من أثر الدعاية الألمانية التى كان يقوم بها البارون « اوبنهايم » السكرتير الشرقى للقنصلية الألمانية منذ أواخر عهد كرومر (٢) ، وعلى أثر ذلك تتابع قدوم الألمان على مصر ، وأرجع الانجليز لهؤلاء الألمان تسميم العقول المصرية ضدهم وأنه على أثر ذلك اتسع مجال الميل للألمان فى مصر ، وانتشر بين الشعب وخاصة طلبة المدارس الذين أصبحوا معادين للانجليز على طول الخط ٠ (٣)

وبالرغم من اجراءات انجلترا بصدد بتر ذلك الشعور الا أنه ازداد ، وعلى سبيل المثال « فى أحدى الليالى قام شخص من الأهالى وأخذ يصيح بصوت عال فى الشوارع ٠٠ الحرب الحرب ، ويقصد بذلك اثارة الشعب بالحرب ضد الانجليز فقبض عليه فى الحال ٠ ونفذت أيضا عقوبة الجلد على « ابراهيم الجزمجى » لأنه أخذ يطوف فى المقاهى ويردد انتصارات ألمانيا ، وفى أحد المقاهى صاح يقول « فلتحيا ألمانيا ٠٠ فلتسقط انجلترا » فجلد سبعين جلدة « وكانت هذه أول مرة تنفذ فيها عقوبة الجلد » (٤) ، بهذا نفذت المحاكم العسكرية هذه العقوبة وفرضتها على الشعب المصرى رغم خلو القوانين المصرية منها ٠

وعندما بدأت المناوشات بين الأتراك وحرس خفر السواحل فى الجهة الواقعة بين الصف وقطية شرقى القنطرة ، ودارت بينها معركة صغيرة انتهت بوقوع قوة خفر السواحل فى الأسر بعد أن قتل منها عدد من الجنود بينهم بعض الانجليز ، كان لهذا أكبر الأثر على سمع المصريين ، فأظهروا الشماتة والفرح ، وارتفعت الأصوات بالدعاية للخلافة العثمانية بالنصر ، وامتلأت المقاهى فى المساء بالأفندية ، وأصبح الكل على يقين من نصرة الألمان وهزيمة الانجليز ٠ وقد أرجع

---

(١) عبد الرحمن فهمى : المرجع السابق ، الملف الاول ، ص ٦ ٠

(٢) Storrs : op. cit, p. 121.

(٣) The Near East Sept. 25, 1914, p. 686, Yaung : op. cit., p. 218.

(٤) الأهرام ١٧ سبتمبر ١٩١٤ ٠

« مسى Massy » هذا الى طبقة الأفندية اذ يقول « ان هبهبتهم كانت حادة وفعالة أكثر من عضهم » (١) وذهب بهم الأمر الى أنهم « راحوا يدورون فى الأندية والأماكن العامة وفى قطارات السكك الحديد وبيدهم خرائط الحرب مؤشرا عليها بمواقع القتال وبما كسب الألمان واندحر الحلفاء » (٢) ٠

وانتشرت الشائعات التى تدل على أمانى المصريين تردد قرب وصول الأتراك ومن هنا حدثت اضطرابات فى بعض أحياء القاهرة أخمدتها السلطة ، وعلى الفور أصدر مكسويل فى ١٧ نوفمبر ١٩١٤ تحذيرا يقول فيه « انه على أثر وقوع عدة حوادث فى الأيام الأخيرة ببعض أحياء القاهرة نشـأت من الأخبار الكاذبة التى أذاعهـا بعض الأشخاص بدون أن يقبض عليهم فى الحال رأت السلطة العسكرية أخذ تحوطات شديدة ، فأرسلت الى رجال السلطة الملكيين والعسكريين تأمرهم بالقبض على كل شخص يذيع أخبارا كاذبة ينشأ عنها وقوع رعب أو خوف فى نفوس السكان ، والموظف الذى يقصر في واجبه من هذا القبيل ينزل به عقاب صارم » (٣) ٠

من هذا يتبين أن الشعب يعطف على ألمانيا ويتمنى أن تنتصر فى الحرب على الانجليز لا لأنه ينتظر خيرا بل لأنه كان يرى فى هزيمة الانجليز هزيمة لأعدائه الذين احتلوا البلاد وسلبوا الحريات وامتصوا الدماء ٠ لكن هذا العطف لم يرتفع الى مستوى الثورة بغير قيادة وبغير تنظيم وبغير وجود قائد ملهم يحرك الملايين للانقضاض على أعدائهم ، اذ حرصت انجلترا منذ أن بدأت الحرب على القضاء على الحزب الوطنى الذى كان يكمن فيه الخطر ، فشلت السلطة عمله وأقفلت نواديه ، وضبطت أوراقه ، وبددت شمل أعضائه ، واعتقلت الكثيرين منهم ورمتهم فى السجون ، كان منهم على كامل وأحمد لطفى وهما وكيلاه ثم عبد اللطيف الصـوفانى وعبد الله طلعت ومصـطفى الشـوربجى وعبد الرحمن الرافعى ، واسماعيل حافظ (صهر محمد فريد) ومحمد زكى على وأحمد وفيق وعبد المقصود متولى وهم من أعضاء اللجنة الادارية وأمين الرافعى ومحمد فؤاد حمدى وابراهيـم رياض والدكتور عبد الحليم متولى ، والدكتـور عبد الفتاح يوسف وأحمد رمضان زيان. واليوزباشى حافظ قبودان واليوزباشى أحمد حمودة وفؤاد عثمان ومحمد الشـافعى ومصطفى حمدى ويعقوب صبرى وأحمد قبودان واسماعيل حسين وابراهيم مرونى وعبد الوهاب البرعى والأخير من أهم العناصر العاملة فى الحزب الوطنى ووكيل جريدة الشعب بالشرقية (٤) ٠ أما من نفى الى مالطة من أعضاء الحزب الوطنى هم الدكتور عبد الغفار متولى وعلى فهمى

(١) Massey : op. cit., p. 2.

(٢) محمد حسين هيكل : تراجم مصرية وغربية ، ص ٢١٦ ٠

(٣) الوطن ٢٦ أكتوبر ١٩١٤ ٠

(٤) نفس المصدر ٤ نوفمبر ١٩١٤ ٠

خليل والأمير العطار وعوض جبريل ومحمد عوض محمد ومحمود ابراهيم الدسوقي وحسن نور الدين وسلامة الخولي (١) • وكان بعض هؤلاء على صلة بالحركة النقابية ، فأحمد لطفي كان عضو شرف جمعية عمال الترام بالقاهرة وأحمد رمضان زيان كان رئيسا لنقابة الصنائع اليدوية بالاسكندرية ، ومحمد عوض جبريل سكرتيرها (٢) •

هذا بالاضافة الى أن أعدادا كبيرة من الأعضاء العاملين بالحزب الوطني كانوا قد خرجوا من مصر هاربين من ضغط انجلترا وقد كان لهروبهم ضرر للحركة الوطنية ، فكيف يخرج في تلك الساعة الحاسمة من مصر أعضاء اللجنة الادارية للحزب الوطني وهي المفروض أن تتولى القيادة الثورية•لقد برروا موقفهم بأن الانجليز سينكلون بهم وربما يكون دورهم خارج مصر أنفع لها من وجودهم على أرضها ، ولكن مما لا شك فيه أن خروجهم رجح كفة الفشل على كفة النجاح وأحدث فراغا ثوريا أثناء الحرب ، ولكنهم كانوا على يقين من نجاح مقاصدهم ، فيقول محمد فريد : « في يوم الأربعاء ١٦ سبتمبر ١٩١٤ وصل الى هنا ــ الآستانة ــ من مصر الأخوان عبد الحميد سعيد وعبد الملك حمزه ومحمد على محمد وأحمد طاهر واسماعيل كامل ومحمد عوض البحراوي وكلهم من أعضاء اللجنة الادارية للحزب الوطني وأكبر العاملين به ، وقالوا انهم هربوا خوفا من بطش الحكومة بهم لأنها مشددة المراقبة عليهم وتنوى الايقاع بهم وبغيرهم من الأعضاء العاملين اذا حصل أقل حادث بمصر أو لو هاجم الأتراك مصر مساعدة لهم على خروج الانجليز منها ، ومما قالوه ان الأمة كلها متحفزة للوثوب على المحتلين بمجرد تحرك الجيش العثماني وأن الحماس بلغ غايته ، وأن الانجليز يخشون النتيجة ويبذلون الجهد في غاية التقرب من الأهالي فيسافر المفتشون ومستشار الداخلية الى عواصم المديريات ويخطبون في العمد والأعيان الذين يجمعهم المديرون لهذه الغاية ولكن كل هذه المساعي لم تأت بنتيجة وبالاختصار فالحالة في مصر تشجعنا. فبما نحن ساعون اليه هنا وهو ارسال جيش عثماني لمحاربة الانجليز » (٣) •

وحقيقة فان جراهام مستشار الداخلية كان يقوم بدوريات في مصر يتنقل من الوجه القبلي الى البحري من أسوان الى دمنهور والمنصورة وطنطا وهذه المدن كان واضح فيها الشعور الألماني فما كان عليه الا أن يجتمع بالفلاحين فيها ويشرح لهم عمل الحكومة لمساعدتهم محاولا بذلك ضمهم اليها (٤) ، وقد كانت مدينة

---

(١) عبد الرحمن الرافعي : المرجع السابق ، ص ٢٤ •

(٢) أمين عز الدين : المرجع السابق ، ص ١٣٦ •

(٣) محمد فريد : السابق ، الكراسة الثالثة ، ص ص ٨٨ ، ٨٩ •

(٤) The Near East, September 25, 1914, p. 677.

طنطا مركزا لتجمع الوطنيين المعادين للانجليز وكان مراسل صحيفة Egyptian Gazette يمدهم بتحركاتهم وأقوالهم (١) ٠

ورغم انتشار رجال جيوش الامبراطورية فى أنحاء القطر لقمع أى تنظيم أو قيادة لثورة ، فالجماهير المغلوب على أمرها خرجت فجأة متجمهرة بالاسكندرية فى ٣١ أغسطس ١٩١٤ تطلب القوت والعمل وكان عددهم حوالى ١٥٠٠ شخص وسرت العدوى للقاهرة ، ففى ٣ سبتمبر ١٩١٤ اجتاحت القاهرة موجة عارمة من المظاهرات قام بها العمال العاطلين وساندهم جماهير الشعب يطالبون بالخبز ويهتفون بسقوط الحكومة « جعانين ٠٠ جعانين ٠٠ تسقط الحكومة ٠٠ يسقط الظلم ٠٠ يسقط الانجليز » ، وهاجموا مجلس الوزراء ولكن هذه الحركة لم تكن منظمة ومدروسة أو ذات قيادة ، لهذا أمكن سحقها بسرعة فتصدى البوليس لهم وقبض على ١٥٠ شخصا واشترك رجال المطافى بمساعدة قوات البوليس ، وأعطيت الأوامر للبطارية الخامسة من المشاة بمراقبة الأمن والنظام فى المدينة خوفا من حدوث ردود فعل لهذه الحركة (٢) ٠

ومما ساعد على سحقها أن مدرسة الحقوق التى هي دائما الطليعة الثورية فى مصر وجميع المدارس كانت فى الاجازة الصيفية ٠ وقسمت النيابة المتهمين الى ثلاث قضايا ، قضية مظاهرة الدرب الأحمر والخليفة وقضية مظاهرة بولاق وقضية مظاهرة الجمالية وباب الشعرية ، وأطلقت الصحف على هذه المظاهرة اسم « مظاهرة الرعاع » ، وقد حكم فيها بالأشغال الشاقة والجلد ٠ وحشد الانجليز جيشا من العيون والجواسيس أكثرهم من حرافيش اليونان ونصارى الشرق وذلك للكشف عن أى عمل يمكن أن يقوم به الشعب (٣) ٠

ومضت السياسة الانجليزية تتوسع فى حركة اعتقال الأفراد ، وانقسم المعتلقون الى ثلاثة أقسام الأول يشمل اعتقال رعايا الألمان والنمساويين وابحارهم الى مالطة ثم اعتقال الأتراك الموجودين بمصر وابحارهم أيضا للخارج ثم اعتقال المصريين المشتبه فيهم (٤) ، كذلك خضع للمراقبة أعداد كبيرة من الأتراك الذين لم يرحلوا (٥) ٠ لقد ظنت انجلترا أن هذا الاعتقال يخيف المصريين ويخمد نار وطنيتهم فعمدوا الى كل من آنسوا فيه اخلاصا لعباس أو لتركيا وقبضوا عليه وأودعوه غيابات السجون ، فكانوا يتتبعون الأفراد وما أسهل عليهم من أن يسلطوا جواسيسهم يترسمون خطا الناس ، فتم القبض على كل من تحدثه

---

(١) The Egyptian Gazette, August 22, 1914, Les Pyramides 23 Août, 1914.

(٢) The Egyptian Gazette, September 5, 1914.

(٣) العالم الاسلامى ، ١٧ ١٩١٦ ٠

(٤) Lloyd : op. cit., p. 191.

(٥) ادارة السواحل الشرقية ، دفتر كوبيا سرى، بدون رقم ، ١٠ ديسمبر ١٩١٤ ٠

نفسه بالتكلم فى السياسة ، وكان قد أنشىء عقب مقتل بطرس غالى ما يسمى (بالمكتب السياسى) و رئيسه « جورج فليبدس » وهو مكتب لاستقاء أخبار الناس يقوم بالعمل له البوليس السرى ، ولعب هذا المكتب دورا رئيسيا أثناء الحرب ، فكانت له السلطة المطلقة وأصبح له رأى مسموع فى مختلف المسائل السياسية (١) •

وكانت الاعتقالات تجرى وفقا لتقارير سرية وملئت السجون بالمعتقلين السياسيين وبمئات المشبوهين ، سواء أكان ذلك بسبب أو من غير سبب • وفى يوم اعلان الأحكام العرفية قبض على كثيرين من الجالسين فى القهاوى ـ اسبلندر بار ، النيوبار ـ لوقوع الشبهة عليهم فى ترويج السياسة الألمانية ، وضبطت حكمدارية الاسكندرية طبيبا برتبة بكباشى ، ففتش منزله فى نصف الليل وأخذت أوراق وجدت عنده ، ثم أودع فى السجن على ذمة التحقيق لاشتغاله بأمور سياسية لم ترض رجال السلطة العسكرية (٢) ، وقبض على آخر وحكم عليه بالأشغال الشاقة لمدة سنة لأنه كان راكبا الترام ويتكلم فيها ضد الانجليز (٣) •

وراح البوليس يفتش المنازل ، ففتش منزل يوسف سلامة ببلدة مجاورة فى الزقازيق ووجد عنده أوراقا تدل على علاقته بعبد العزيز جاويش فاعتقل وأرسل للسجن ، وقبض أيضا البوليس على تلميذين أحدهما فى مديرية المنيا والثانى فى الغربية (٤) •

وفى ٤ نوفمبر ١٩١٤ قبضت السلطة بسبب اتهامات سياسية أيضا على كل من نور الدين باشا والقائمقام صفوت بك والبكباشى حسن بك والبكباشى نورك بك واليوزباشى أحمد بك صبرى واليوزباشى اصلان بك والبمباشى شعبان أفندى والملازم فريد بك والملازم صلاح الدين بك وحافظ بك اسماعيل ومراد بك عبد الله ومحمد على بك وكرم الدين ورحمى بك وبصرى بك وكاظم بك وغالب الرسام واحسان ماركو وجميل بك وجعفر ابراهيم ، وقبض من الشرقية على الشيخ هاشم بدران ومهدى محمد بدران وأبو حميده من العربان والشيخ مصطفى نوح (٥) •

وبين مكسويل أن الذين قبض عليهم فريقان الأول فريق يثبت عليه أمور

---

(١) محمود طاهر العربى : المرجع السابق ، ص ٣٥ •
(٢) الشعب ٣ نوفمبر ١٩١٤ •
(٣) نفس المصدر ٤ نوفمبر ١٩١٤ •
(٤) الوطن ٥ أغسطس ١٩١٤ •
(٥) نفس المصدر ٤ نوفمبر ١٩١٤ •

توجب القبض عليه ، والثانى فريق ثبت عليه أنه يضمر مثل تلك الأمور وفى امكانه تحقيقها ، فقبض عليه لاتقاء شره (١) .

ودعت السلطة بعض المصريين الذين اشتبهت فيهم الى محافظة العاصمة لمقابلة الحكمدار والبعض الى وزارة الحربية لمقابلة قومندان المخابرات ، وحجزت المحافظة أغلب الذين ذهبوا اليها ومن بينهم حامد بك العلايلى التشريفاتى الخديوى ونبهت ادارة المخابرات على الذين ذهبوا اليها بالاستعداد للتوجه الى الجهات التى تعينها لهم ، وهى بين اما أن يقيموا فى بلادهم على شرط أن يذهبوا الى أملاكهم فى الأرياف أو أن يذهبوا الى ايطاليا أو مالطة أو قبرص ويقول مندوب صحيفة الأهالى « علمت أن قومندان المخابرات فى نظارة الحربية وهو ضابط انجليزى برتبة ميرالاى يستقبل الذين ينبه عليهم بالاستعداد بالاستبعاد السياسى برقة ويقابلهم بلطف ويعطيهم مع الأمر المكلف بتبليغه سيجارة وفنجان قهوة ، وبلغ الذين استعدوا للحجز ونبه بالاستعداد للاستبعاد نحو مائتين أو يزيد عن ذلك وقد حجزوا فى القلعة والمحافظة وطره» (٢) .وحددت اقامة بعض أعضاء الجمعية التشريعية مثل اسماعيل أباظة وحمد الباسل ، وبلغ الأمر الى أنه شوهد غلاما يمزق اعلانا ملصقا على جدار به نص الحكم العرفى فاقتاد على الفور الى مركز البوليس حيث بقى هناك معتقلا الى أن صدر عليه الحكم بالجلد (٣) .

وخول للموظفين الانجليز فى الداخلية بأمر من اللواء هيكنسن قائد البوليس المصرى سلطة تكاد تكون مطلقة لقمع أى حركة تقوم بداخل البلاد وايقاف كل الأشخاص المشكوك فيهم (٤) وطلب رسميا من البرنس محمد على شقيق الخديوى عباس واثنين آخرين فى الأسرة الخديوية مغادرة القطر فرحلوا الى ايطاليا .

لقد أبعدت انجلترا كل من استشعرت فيه بالولاء للعهد السابق أو من شكت فى أمره ، أو من تكلم مع مسئوليها بشأن وضع مصر السياسى ومستقبلها وكان الشاعر أحمد شوقى ممن وقع عليهم عقوبة النفى فهو معروف بعدائه للانجليز ، فوضعت العين عليه خاصة بعد تلك القصائد التى نظمها وبين فيها أن الانسان أعجز من أن يتغلب على ما جرت به المقادير أو يحول مجراها وتمنى أن يتحطم سيف البغى والعدوان وأن ينصر الله الحق على الباطل ، وأنهى كلماته فى احدى قصائده :

---

(١) نفس المصدر ١٣ نوفمبر ١٩١٤ .

(٢) الأهالى ٨ نوفمبر ١٩١٤ .

(٣) الأفكار ٨ نوفمبر ١٩١٤ .

(٤) Les Nouvelles, 12 Oct. 1914.

ومضت بنا منية الحوادث وانقضت   الا نتـــائج بعـــدها وفصـــولا
وانفض ملعبهـــا وشـــاهده على   أن الرواية لــم تتم فصـــولا

فعقب نشر هذه القصـــيدة وفي أوائل يناير ١٩١٥ دعته النيابة العامة للتحقيق معه لما جاء في هذه القصيدة فقالت صحيفة الوطن في ١١ يناير ١٩١٥ تحت عنوان « التحقيق مع أحد كبـــار الشعراء » ما يأتي : « الذي نقل الينا ولم تشر اليه الجرائد أن بعض السلطات حقق في هذين اليومين مع واحد من كبار الشعرآء لنشره قصيدة فيها بعض المغامز السياسية والاشارات الى بعض الحوادث التاريخية مما لا يصح نشره في الوقت الحاضر » (١) . وأمر بنفيه فاختار أسبانيا مقاما له .

وعندما وكل قائد جيش الاحتلال مســـتشـــار الداخلية « جراهام » ادارة الأحكام العرفية في مصر اتسعت حركة الاعتقالات « فاعتقل الكثير من أبناء مصر بعد أن هجم على بيوتهم وأدخل الرعب في قلوب أهليهم ونفي الكثير منهم » (٢) . لدرجة أن صحيفة الأهالي علقت على هذا بأنه رجوع الى عهد المظالم (٣) .

بالاضافة الى الضغط على الشعب والنفي والاعتقال والجلد رأى الانجليز ضرورة تجنيد رجال الدين من العلماء للمناداة باتباع الهدوء والكف عن اظهار الشعور المعادي للانجليز لعلمهم ما للدين من قوة لدى النفوس المصرية،وأن سبب تشيعهم للألمان وللأتراك هو ذلك الرباط الروحي الذي يربطهم بخليفة المسلمين . وفي حقيقة الأمر فانه عقب اعلان الحرب ظهرت حركة بين العلماء ضد الانجليز وتفطن حسين رشدي لخطورة هذا الأمر فاوفد رسولا الى الشيخ سليم البشري شيخ الجامع الأزهر مبينا « أن الحركة لا تفيد لأن المصريين لا يملكون ســـلاحا ولا ذخائر للمدافعة عن أنفســـهم وعن بلادهم والأفضـــل أن يكون الهـــدوء رائدهم » (٤) . وأمام الضغوط بدأ الموقف يتغير فأصدر كبار علماء الأزهر منشورا يطلبون فيه الالتزام بالهدوء والسكينة واجتناب المجالس التي يكثر فيها القيل والقال . وبذلك نجح الانجليز في الحد من تيـــار الأزهر الذي كانـــوا يخشونه حيث أن ميوله تجاه الدولة صاحبة الخلافة الاســـلامية قوي هذا من ناحية ، وله تأثير كبير على المصريين من ناحية أخرى .

وفي أول الأمر طلبت تعطيل الدراســـة فيه ، لكن رجال الأزهر أفهموا مستشار الداخلية أن الأزهر أكبر جامع تؤدى فيه الشعائر الدينية ولا يمكن بأي حال من الأحوال اغلاقه . وفي ٢٥ أغسطس ١٩١٤ جمع رشدي الشـــيخ

---

(١) الوطن ١١ يناير ١٩١٥ .
(٢) سعد زغلول : المرجع السابق ، كراسة ٣١ ، ٣ أكتوبر ١٩١٧ ، ص ١٧١٨ .
(٣) الأهالي ٣١ ديسمبر ١٩١٤ .
(٤) أحمد شفيق : مذكراتي ، جـ ٣ ، ص ١٣٦ .

سليم البشرى شيخ الأزهر والشيخ محمد حسين مخلوف والشيخ أبو الفضل الجيزاوى ، ودار الحديث حول تأخير افتتاح الأزهر والمعاهد الدينية « خوفا من حصول هياج بين الطلبة خصوصا اذا أعلنت تركيا الحرب على انجلترا ، وبعد المداولة تقرر افتتاح الدراسة على أنه اذا حدثت أية مشاغبة تأمر الحكومة بتأجيل الدراسة » (١) ٠

وقد فكر الانجليز فى تقليل عدد الطلبة بالأزهر ــ وكان عددهم فى ذلك الوقت حوالى ٨٢٢٢ طالبا ــ بفصل من هو معروف بعدائه للانجليز من مصريين وأتراك فتم فصل ٣٠٠٦ من الطلاب فصلا تاما بحيث يصبحون لا صلة لهم به (٢) ، بحجة عدم انتظامهم فى الدراسة واشتغالهم بغير طلب العلم ثم استصدروا من مشيخة الأزهر منشورا الى الطلاب سواء فى الأزهر أو فى المعاهد العلمية الدينية فى القاهرة والأقاليم ، يفرض عليهم التفرغ للدراسة وعدم الخوض فى المسائل السياسية وأن يلزموا بيوتهم عقب الغروب وألا يتكلموا فى الأحوال السائدة (٣) ٠

بهذا أحست انجلترا أنها قضت على الخطر من جانب الأزهر الذى كانت متوجسة خيفة منه ثم سعت بعد ذلك لتجنيد بعض الصحف المصرية ، فصدرت هذه الصحف تنادى بضرورة التزام الهدوء والسكينة ومساعدة الانجليز ومد يد المعونة لهم ٠

وراح المسئولون فى مصر ينادون بذلك ويدلون فى تصريحاتهم ما يؤيد ضرورة التعاون مع الانجليز ، فقد صرح رشدى الى مراسل الجورنال دى ايطاليا : « أشاعوا عن مصر أنها على أبواب ثورة داخلية ٠٠ ان الشعب المصرى يعلم أن مصلحته فى خلوده الى الهدوء والسكينة وأن همه الوحيد فى هذه الظروف يجب أن يكون موجها لجنى قطنه والتفكير فى أمر تصريفه » (٤) ٠

وحاول الانجليز أن ينفروا المصريين من الألمان والأتراك ليحدوا من مشاعرهم فقامت الدعاية البريطانية على أساس اقناع الشعب بفضائل الانجليز ومناقبهم وعدلهم فى الوقت الذى وصفوا فيه الألمان بالتوحش والهمجية والتعطش لسفك الدماء لدرجة أنهم جعلوا طيارتهم ترمى احدى عشرة قنبلة على أحياء القاهرة المدنية على أنها طائرة ألمانية وذلك حتى يبعدوا الشعب عن الألمان ويبين سعد فى مذكراته تفاصيل ذلك ويعلق بقوله : « ويستدل الذين يقولون بأن تلك الطيارة انجليزية بالأدلة الآتية : أولا أنها اجتازت الحدود ووصلت الى

---

(١) نفس المرجع ، جـ ٢ ، ص ٤٤٤ ٠
(٢) الأفكار ٢٠ أكتوبر ١٩١٤ ٠
(٣) نفس المصدر ، ٢٥ نوفمبر ١٩١٤ ٠
(٤) الحرية ٣١ أكتوبر ١٩١٤ ٠

عاصمة البلاد صباحا وحلقت من الساعة العاشرة ، وقد وقعت الحادثة الساعة الحادية عشر والنصف ولم يطاردها مطارد ولا يدافعها مدافع ، ثانيا أنه كان فى الامكان مقابلتها عند العودة واقتناصهـا فى السـويس أو القنال ، ثالثا أنها لم تلق القنابل الا فى الشوارع والخرائب ، رابعا أن الألمان لا يستفيدون منها الا النفور منهم أما الانجليز فبسعون على اثبات كون هؤلاء من الهمج المتوحشين وأنهم لا يعطفون على ضعيف ولكن الناس أيقنوا أنها من غير الترك والألمان (١) .

كذلك جندت بعض الشعراء لأجل الدعاية البريطانية وتوعية المصريين بالتزام الهدوء وترك نزعة الشباب ومهاجمة الألمان والاشادة بأعمال الانجليز(٢) .

وفهم المصريـون الأمر ولم تخدعهم تلك الدعايات ولم تقض على ابـداء الشـعور المعارض فعلت الأصـوات بالدعاء بالنصر والتمنيات بالفوز لتركيـا وحلفائها لدرجة أن تجار الاسكندرية اكتتبوا لأجل شراء طيارة واهدائها للجيش العثمانى ، وبلغ الاكتتاب ٨٠٠ جنيه ، ولكن السلطة أوقفت هذا الأمر (٣) .

ثم لجأ الانجليز الى محاولة غريبة ، لقد تصوروا أنهم يستطيعون الاستعانة بأغاخان الزعيم الاسلامى الاسماعيلى لحمل الناس على حبهم ، فهو زعيم اسلامى فلذا اعتقدت أنه سيكون له شعبية بين المسلمين فى مصر هذا من ناحية ، ومن ناحيـة أخرى انه يمـكن له أن يهدىء من روح المصريين المتذمرة ، فيقول فى مذكراته : « كان كتشنر متيقظا لكل طارىء فى الشرق ــ وبالذات مصـر ــ فقد أرسل الى كتشنر لمهمة دبلوماسـية أو شـبه دبلوماسية كانت الوزارة تؤيدها ، وكان الملك جورج الخامس موافقا عليها ومهتما بهـا ، كانت تلك المهمـة تتعلق بمصر حيث كان الوضع السياسى مضطربا ودقيقا » (٤) لكن محاولة انجلترا هذه لم تنجح ، وبذلك فشلت الرحلة التى كانت تبنى عليها آمالا واسعة فى تهدئة المصريين .

لقد عملت انجلترا كل احتياطاتها خوفا من الثورة ضدها فهى تعلم جيدا شعور المصريين تجاهها فاعدت للأمر عدته بعد دراسة دقيقة ، فلم يكن الأمر سهلا ، انه تغيير جوهرى فى حياة مصر السياسية . ويقول ستورس فى مذكراته يصف القلق والوهم الذى سيطر على الانجليز : « عندما مرت سيارة السلطان فى حفل تنصيبه بالمنصة الكبرى للعمد والأعيان التى أقيمت فى ميدان عابدين كان تصفيقهم فاترا لا حرارة فيه ، وكان كل منهم ينظر الى جانبه ليرى ماذا يفعل جاره ، وركبت مع شيتهام العربة لكى تقدم العرش للسلطان الجديد وكان

---

(١) سعد زغلول : السابق ، كراسة ٢٩ ، ١٣ نوفمبر ١٩١٦ ، ص ص ١٦٠٦ ، ١٦٠٧ .
(٢) المؤيد ٩ نوفمبر ١٩١٤ .
(٣) الاكسبريس ٧ مارس ١٩١٥ .
(٤) أغاخان : المرجع السابق ، ص ص ١٩٩ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

السلطان فى حالة عصبية بالغة متأثرا الى حد عميق بأهمية المناسبة ، وكانت سيارة شيتهام تسير خلفى سيارة السلطان وكان الموكب فى حراسة جنود الجيش البريطانى ، وكان الجنود يصطفون على جوانب الشوارع ، وعندما وصل السلطان حسين الى قصر عابدين استقبل مستر شيتهام واعترف اننى تنفست الصعداء عندما انتهى التتويج ، وكنا نقدر لأنفسنا أن احتمال القاء قنبلة أو اطلاق النار علينا خلال الموكب الى قصر عابدين يتراوح بين ٢٠ ، ٣٠٪ ، فقد اكتشفت فى الليلة السابقة للتتويج عصابة تضم خمسة من الأتراك أحضرت مسدسات براونج فى أوائل الأسبوع وأخذت تتدرب على استخدامها منذ ذلك الحين بفكرة اطلاق النار على الحكام بصفة عامة٠٠٠فى طريقى من قصر عابدين بعد الانتهاء من تتويج السلطان حسين حذرت خادمى المصرى اسماعيل وقلت له أن أى محاولة منه أو من زملائه لقطع رقبتى أو حتى لقطع رقبة مستر شيتهام فان أجورهم سوف تخفض بمقدار النصف ، وأن فصلهم من الخدمة سيكون جزاء محاولة الاغتيال الثانية » (١) ٠

وقابل الشعب الموكب السلطانى بالوجوم وكان الحزن مرتسما على الوجوه فلم يسمع هتافا ولا تصفيقا ، « وأن الأهالى لم يرفعوا العلم الجديد وحتى العلماء امتنعوا عن اعطاء فتوى بعزل الخديوى عباس ، وأصبح الأهالى ينتظرون قدوم الجيش العثمانى » (٢) ٠

لقد توقع الانجليز أن تقوم الثورة فى ٢٠ ديسمبر ١٩١٤ ، وكانت المخابرات السرية التى تدور بين شيتهام وبين جراى أنه يتوقع هذا الانفجار ٠ وفى بداية عام ١٩١٩ أكد المعتمد البريطانى فى برقياته السرية لوزارة الخارجية بأن الانفجار لن يحدث وأن الموقف أهدأ كثيرا مما كان فى ٢٠ ديسمبر ١٩١٤ لكن ماكسويل أمكنه النجاح فى السيطرة التامة على المصريين دون أى اعتبار للشعور الوطنى ٠

وظهر ذلك فى السلبية التى انتابت المصريين بناء على اجراءات انجلترا ، ولسوء حظ مصر كانت الحركة الوطنية تعيش بدون تنظيم أو ادارة ، فخروج محمد فريد قبل الحرب ترك فراغا فى القيادة وترك أعضاء الحزب الوطنى لمصر ونفى الكثير وقف حائلا دون قيام تنظيم واسع فاذا قبض على خلية حلت محلها على الفور أخرى ٠ امتلأت قلوب المصريين كرها وحقدا لمن قبل أن يحكم فى ظل الحراب الانجليزية وكان حرسه من قوات الجيش البريطانى ، فيقول ستورس : « فى مساجد القاهرة كان دعاء الامام لخليفة المسلمين يتكرر ثلاث مرات على التوالى ، وفى كل مرة كان المصلون يرددون الدعاء بصوت عال يشترك فيه

---

(١) Storrs : op. cit., p. 141.

(٢) محمد فريد : السابق ، كراسة الرابعة ، ص ١١٤ ٠

الجميع ، وعندما دعا الامام لسلطان مصر الجديد جاء رد المصلين ضعيفا وغير مسموع وكثير منهم كانوا لا يؤمنون على الدعاء » (١) • وظهر طلبـة الحقوق يرتدون جميعا أربطة عنق سوداء وبدا على وجوهم تعبيرات الحزن الشـديد ، وحتى طالبات المدارس الثانوية الحكومية للبنات علقن في صـدورهن أزهارا سوداء (٢) •

لقـد ساء الشعب ما حدث وقابله بالسخط والألم اذ رأى فى تنصيب حسين على عرش مصر بخطاب موجه من المعتمد البريطانى مظهرا لضياع استقلال مصر ، وأيقن أن انجلترا أصبحت الحاكمة الحقيقية وما هذا السلطان الا تابع جديد ، وأصبح واضحا أن من يحكم هو الذى أجلس السلطان على عرش مصر • ويبين سعد فى مذكراته أثر ذلك على الشعب يقول : « والناس جميعا انقبضت صدورهم وعم الخوف جميع الطبقات حتى ما كان من الناس أشد بغضا لدولة عباس وحكمه » (٣) •

ولم يكن ذلك حبـا فى عبـاس الحـاكم السـابق والذى أذاق المصريين الأمرين فى عهده لكنه اعتبر رمزا لاضطهاد الانجليز ومن هنا كان العطف عليه اذ يقول محمد على علوبة : « ورغـم أن الخديـوى عبـاس لم يكن محبوبا من المصريين ، فانهم نظروا الى مسألة عزله نظرة وطنية أكثر منها شـخصية ، واعتبروا تنصيب أى رجل محله طعنة فى حقوق مصر وأجمعوا على عرقلة كل مسعى يقضى بتنصيب رجل آخر تحت الحماية البريطانية اذ الواجب فى نظرهم أن ينصب حاكم مصر بفرمان عثمانى من السلطان الذى هو خليفة المسلمين » (٤) •

ومضى تيار التوتر الـذى اجتاح مصر ضـد الحماية الى أن قامت ثورة ١٩١٩ ، فقد كانت خطابات ونجت الى لورد هاردنج والى رونالد جراهـام أثناء سـنتى ١٩١٧ ، ١٩١٨ تـدل على ذلك (٥) ، ولكن المصـريين اضـطروا تحت الضغط والارهاب وهذه الظروف القاسية الى تضييق النطاق لنشـاطهم وكبت الافصاح عما كان فى قلوبهم من ثورة متأججة على هـذه الأوضـاع تلك الثورة التى لم تستطع أن تجد لها متنفسا الا بعد اعلان الهدنة •

---

(١) Storrs : op. cit., p. 140.

(٢) Symons : op. cit., p. 42.

(٣) سعد زغلول : السابق ، كراسة ٥٣ ، غير مرقمة ، ص ١ •

(٤) محمد على علوبة : السابق ، ص ٦٨ •

(٥) Wingate : op. cit., pp. 214, 215, 220.

الترجمة العملية :

كان لفشل الدولة العثمانية وهزيمتها أمام الانجليز فى قناة السويس فى ٢/٣ يناير ١٩١٥ أثر كبير فى نفوس المصريين الذين كانت تتحرك بذور الثورة فى نفوسهم والذين كانوا يتشيعون للخليفة وحليفته ألمانيا ، والذين كانوا يرون فى الانجليز مجرد مغتصبين لحقوق الخَليفة ، وفى السلطان حسين مغتصبا لحقوق ابن أخيه ٠

ولما أيقن الشـــعب أنه لاخلاص له على يد جيش الأتراك رأى أن يبذل نشاطه هو لعله يستطيع اثارة القلاقل والانتقام سواء من الانجليز أو من الخونة الذين حكموا البلاد تحت حمايتهم ٠

لم تكن فكرة الاغتيالات السياسية بجديدة على الشـــعب المصرى ، فلها سابقة اذ قتل بطرس غالى عام ١٩١٠ بفضل مجهودات الحزب الوطنى وبتأسيس الجمعية السرية التى كانت لها اليد الكبرى فى حوادث محاولات الاغتيال التى وقعت أثناء الحرب ٠

كانت أولى هذه الحوادث هى محاولة قتل « مستر دنلوب » مستشار المعـــارف وذلك قبل اعلان الحمـــاية على البـــلاد ، اذ قصد أحد موظفى مدرسة طنطا الأميرية ويدعى « حسن خليفة » وزارة المعارف فى ٢٢ ســـبتمبر ١٩١٤ وطلب الاذن بالدخول « لمستر دنلوب » ولكنه منع فحاول الدخول بالقوة ، فألقوا القبض عليه وفتشوه فوجودوا معه مسدسين ، وبالتحقيق معه اتضح أنه يريد قتل دنلوب ، وثبت أنه هدده قبل ذلك على مسمع من الموظفين (١) ٠

وهذا فى حد ذاته يعتبر نقمة على الانجليز ورجالهم فى مصر ٠ ووزعت مجهودات الشعب فى هذه الفترة على عدة ميادين ، فالبعض رأى الانتقام من السلطان والوزراء الذين هم أصل البلاء ٠ والبعض راح يثير الناس ويتفوه ويصيح ويؤلب المصريين على الحكم ، والبعض اتجه الى مضايقة الانجليز بجملة أفعال مثل حوادث سرقات الجيش البريطانى وحـوادث التخريب للســـكك الحديدية ٠ ومن هنا زادت حركة الاعتقالات أثناء هذه الفترة ، ففى ٢٠ ديسمبر ١٩١٤ ألقت السلطة القبض على كاتب المحكمة المختلطة ويدعى «عبد الله كبش» لأنه نفوه بألفاظ فيها تهديد للسلطان الجديد وأنه ارتدى هو وزملاؤه ملابس الحداد يوم اعلان الحماية وبتفتيشه وجد معه مسدس وفتش منزله ومنازل أقربائه (٢) ٠

---

(١) السفير ٢٣ سبتمبر ١٩١٤ ، الأفكار ٢٤ سبتمبر ١٩١٤ ٠

(٢) وادى النيل ١٦ يناير ١٩١٥ ٠

أحست السلطة أن الشعب غير راض عن نعيين خلف لعباس لهذا استعدت لحسم أى موقف يمكن أن يخلق انتقاما من السلطان الجديد فأوقفت أمام غرفة نوم السلطان حراسا من الانجليز بالمسدسات خشية أن يطلق عليه بعض خدم الخديوى الرصاص • ثم أمرت بطرد جميع الطباخين من القصر خشية أن يدس لهواحد منهم السم فى الطعام ، وأحكمت الرقابة على السلطان ولازمته الحراسة فى كل مكان ، فقد كانت أول جمعة صلاها السلطان الجديد بمسجد السيدة زينب مع أنه كان ينوى الصلاة فى مسجد الحسين ، ولكن فى اللحظة الأخيرة بلغهوجود مؤامرة ضده ، فحول قصده للسيدة زينب ، وبقى رجال البوليس فى طريق الحسين حتى يتوهم الناس أن السلطان سيصلى بالحسين (١) •

وحدث حينما توجه السلطان الى المسجد الحسينى لصلاة جمعة ١٥ يناير ١٩١٥ أن جاء رجل واخترق النطاق الموضـــوع من رجال الشرطة والحرس والحاشية وجلس فى صف الوزراء خلف السلطان ، فأبعدته الشرطة السرية وساقوه الى مقر الشرطة وحققوا معه • وبينما كان الركب السلطانى مخترقا شارعأبى الدرداء بالاسكندرية صاح شخص قائلا يا معين بصـــوت دوى فى الفضاء ، فقبض عليه فى الحال وسيق الى التحقيق (٢) •

وانعقدت محكمة الجنح بالعطارين لمحاكمة الشيخ « مصطفى الترمذى » صاحب مطبعة وشريكه « محمد صلاح » المطبعجى وذلك لطبعهما منشـورات ثورية ضد الانجليز وضد السلطان ، وضبطت هذه المنشورات معهما فى نهاية ديسمبر ١٩١٤ وعندما سألت المحكمة محمد صلاح عن التهمة فقال انه طبع المنشورات هذه بناء على أنه مأمور من صاحب المطبعة ، فهو يطبع كل ما يطلبه منه الشيخ الترمذى • وقد استدعت المحكمة مستر انجرام كشاهد أول فقال : « فى يوم ٢٩ نوفمبر ١٩١٤ الساعة الحادية عشرة ونصف طلبنى ســعادة الحكمدار وأخبرنى أن فى الاسكندرية جمعية سرية وهى تتبع جمعية تحرير مصر ، قد نشرت منشورات ثورية ومن ضمن أعضائها شخص يدعى عبد الوهاب على ومحمود حسنى العرابى ومحمد فهمى رشيد وأعطانى صورة المنشور وأمرنى أن أفتش منازل الأشخاص الثلاثة المذكورين فى الحال وفى وقت واحـــد ، فعينت ضابطا لتفتيش مكتب عبد الوهاب على ومنزله وسفرت موظفا الى المحلة الكبرى لتفتيش منزل محمود العـــرابى وذهبت بنفسى لمنــزل محمــد فهمى رشيد فلم نجـــد شيئا ، وعلمت أن المبلغ فى هــذه المســألة الشــيخ الترمذى فأحضرته وطلبت منه أن يوضح لى بلاغه فبلغنى بأنه على علم بأن جمعية سرية اسمها جمعية تحرير مصر تصدر منشورات سرية ثورية وأنه ضبط المنشور الذى كان أعطاه لى جناب الحكمدار من عبد الوهاب على ، فقلت له اننى فتشت

---

(١) أحمد شفيق : المرجع السابق ، جـ ٣ ، ص ٢٨ •

(٢) وادى النيل ، نفس العدد ، ٦ يونيو ١٩١٦ •

منزل ومكتب عبد الوهاب ولم أجد شـــيئا ، فقال لى وهل فتشـــتم مكتب عبد الوهاب فقلت له فتشنا ولم نجد شيئا ، فاســتغرب من ذلك وقال لى ، وهل بحثتم فوق الدولاب فرجعنا وفتشنا فوجدنا ثلاثة عشر منشورا ملفوفة فوق الدولاب ثم قام الشك فى نفسى من جهة الشيخ مصطفى . فأمرت أحد الضباط بقفل مطبعته ، وفتشت المطبعة فوجدت بها بقايا المنشور محروقا ، وقطع أخرى صغيرة من مسودة وهذا يعنى أن الشيخ مصطفى هو الذى طبع المنشورات واتهم عبد الوهاب فيها ، وقد أثبت بالتحقيق أن الكل مشترك فى الجريمة » (١) .

عم السخط وازداد على الأوضاع عامة وعلى السلطان حسين خاصة ، فقد كان حسين ضعيف الشخصية ومن هنا بدأ يحابى الانجليز فهم الذين أجلسوه حاكما ، اذن فلابد من استمرار الموالاة . ووصل الأمر الى أن ستورس يذكر أن السلطان حسين كان يقول للانجليز الذين يصافحهم « اننى أصافحك مصافحة حقيقية مصافحة جنتلمان لا مصافحة ابن البلد » (٢) ، أى أن السلطان يعتبر أن المصريين يصافحون مصافحة الغدر والخيانة ، وأما هو الذى ليس بابن مصر فهو جنتلمان يصافح الانجليز مصافحة الصدق والوفاء . وكانت شخصيته مهزوزة أمام ذلك العرش الذى أجلس عليه ، ويدل على ضعفه أن سعدا يقول فى مذكراته : « كثيرا ما كان يحلف على مصحف ويخرجه من جيبه ويضعه على عينيه ، ولما تكرر ذلك منه استخف الناس بشأنه وسخروا منه ، وأخذوا يهزأون بما يبدو منه » (٣) .

أحس شيتهام بهذا الضعف ولاحظ أن المصريين يكرهونه وبالذات المثقفين . لذا اقترح عليه أن يقوم بزيارة المدارس والمعاهد العليا حتى يتقرب منهم ، وبذلك يمكن له أن يكسر الثلج بينه وبين الشباب المصرى ، فأعجب السلطان بالفكرة فورا وقرر أن يبدأ زياراته بمدرسة الحقوق . وكـــان ذلـك فى ١٨ فبراير ١٩١٥ .

بدأ الموكب السلطانى الزيارة فاصطفت الجنود على الصـــفين من قصر عابدين الى مدرسة الحقوق وفرش فناء المدرسة بالرمـــل وغطيت طرقـاتها بالسجاجيد الحمراء ، ورفعت الأعلام وعلقت الزينات على جدران المدرسة ووقف على أبوابها الوزراء وكبار المسئولين مرتدين الردنجوت الأسود(٤) ، ودخل السلطان واذا بمفاجأة تقع تذهل الجميع « ان أغلب الطلبة وبالذات طلبـــة

---

(١) الاكسبريس ١٧ يناير ١٩١٥ .

(٢) Storrs : op. cit., p. 146.

(٣) سعد زغلول : السابق ، كراسة ٢٥ ، ٩ مارس ١٩١٥ ، ص ١٣١٧ .

(٤) المحروسة ١٩ فبراير ١٩١٥ .

الليسانس قد تغيبوا عن الحضور لمقابلة عظمة السلطان وتحرج الموقف وتعقد . واحتار عدلى وزير المعارف ورشدى رئيس الوزراء وحاولوا التخفيف من وقع الصدمة على السلطان الذى أحس بأنهم يحتقرونه وهو سلطان البلاد ومليك كل شيء .. كان هذا خدشا لكرامته ، وعلى الفور ظهر غضبه ورجع لقصره واتصل بمكماهون وأبلغه ما حدث وطلب منه نفى جميع الطلبة الذين رفضوا مقابلته الى مالطة ، وتدخل رشدى وعدلى واقترحا الاكتفاء برفت التلاميذ من مدرسة الحقوق وحرمانهم من الامتحانات بل ومن دخول أى مدرســـة عالية فى مصر والبحث عما اذا كان زعماؤهم هم سبب هذه الحركة ومعاقبتهم بالقائهم فى السجن ، وقد حاولا اقناع السلطان بذلك فوافق » (١) .

كان هذا الاضراب شبه مظاهرة صامتة ضد الحماية وضد السلطـــان . وحاول الطلبة تبرير موقفهم فاعتذروا وأبانوا أنهم اضطـــروا للغياب نـظرا لتشييعهم جنـازة أحد زملائهم وتبين فى التحقيق أن عنـوان هـذا الشخص المتوفى ما هو الا عنوان محل جروبى (٢) . وأثبت أنهم اصطنعوا هذا السبب عذرا حتى لا يقابلوا السلطان . فهو خائن فى نظرهم فمن أقوالهم « انه من المستحيل أن ندرس القانون في بلد كل القوانين فيها متهكم عليها » (٣)·وانتهى التحقيق الى فصل ٥٤ طالبا منهم أحمد مرسى بدر الذى أصبح فيما بعد وزيرا للمعارف ثم العدل ، ومحمد صبرى أبو علم الذى أصبح هو الآخر وزيرا للعدل، ويوسف أحمد الجندى الذى أصبح زعيما للمعارضة فى مجلس الشيوخ وكان عضوا فى الجهاز السرى لثورة ١٩١٩ ، وعبد العظيم محمد الهادى الذى أصبح نائبا فى البرلمان ، وحسن يس الذى لعب دورا مهما فى الثورة وطالب بخلع السلطان فؤاد ، والباقى محامون مشهورون·كما تم حرمان ١٣ طالبا من الحضور للدراسة حتى آخر العام ، ١٨ طالبا وقع عليهم عقاب عدم حضور امتحانات آخر العام وكان منهم محمود عزمى الذى أصبح نائبا عاما ومحمد عبد الله عنان الذى أصبح كاتبا ومؤرخا ، ومحمد محمود الذى أصبح رئيس محكمة الإستئناف وسليمان نجيب الممثل وأصبح الباقون محامين بارزين (٤) .

وبعد أن باشر المجلس التحقيق مع الطلبة رفع الى وزارة الحقانية تقريرا أثبت فيه أن ما وقع هو مظاهرة اتفقوا عليها فيما بينهم ، وعلى الفور طلبت السلطة الاطلاع على التحقيق لأن الحكم العرفى المبسوط عـــلى مصر يتطلب ذلك (٥) .

وانتشر خبر الحادث فى أنحاء البلاد وفرح الشعب بأن تلاميذ مدرســة

---

(١) مصر ٢٦ فبراير ١٩١٥ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) The Near East March 26, 1915, p. 567.

(٤) الأهرام ٢٦ فبراير ١٩١٥ .

(٥) نفس المصدر ١ مارس ١٩١٥ .

الحقوق صفعوا السلطان على وجهه وأحسوا أنهم بعملهم هذا تحدوا الحمايه ، وعندما علم الشعب برفت الطلبة تضايقوا لهذا القرار ، وتلقت الحكومة تقارير من المدارس والأزهر بأن هذا القرار قد يؤدى الى حدوث اضطرابات فى جميع المدارس · وأنه ليس من مصلحة السلطان ولا الوزراء أن يصدر مثل هذا القرار فاقترح عدلى ـ وزير المعارف ـ أن يصدر القرار من مجلس ادارة مدرسة الحقوق حتى لا يعرف الناس أنه صادر عن السلطان أو عن وزراء الحماية وبذلك يمكن تهدئة الرأى العام والحد من حدوث أى ضجة أو قلاقل · ويقول محمد فريد ازاء ذلك : « كل هذه الأمور تفيد أن الحكومة متوجسة خيفة من الأمة مع أنها للآن لم تبدأ أقل حركة عدوانية ضدها وأن حسين كامل غير آمن على مركزه(١) ·

أحدث قرار الرفت هذا والحرمان من الامتحان أثر سيىء فى الطلبة ثم فى الأهالى معنى هذا القضاء على مستقبلهم · ومن المعروف أن مدرسة الحقوق فى ذلك الوقت كانت تخرج كبار رجال الدولــة ، وذهب الأهـــالى الى الــوزراء يوسطونهم · فيذكر سعد : « حضر عندى محمود أبو النصر عقب حادثة مدرسة الحقوق ، ورجانى فى أن أسعى لدى ولاة الأمور فى الاستعطاف بهم فلم أعده بشىء نظرا لما أعلمه من عجز ولاة أمورنا فى هذه الحالة ، ولكن مع ذلك تكلمت مع رشدى باشا فى شأنهم وقلت انهم أخطأوا ، ولكن الحكم جاء غاية فى القسوة واللازم أن يكون التأديب مناسبا للذنب ، وان الأمم تعامل التلاميذ فى جميع الأحـوال معاملة أبوية ، وتغتفر لهم ما تعاقب عليه ســواهم ، والحرمان من التعليم لا يصح أن يكون عقوبة لأن فيه ضررا كبيرا بالأمة ، فرأيت منه عطفا عليهم ووعدنى بأنه سيبذل جهده فى العفو عنهم الا بضعة عشر منهم فقلت ان العفو الشامل خير وأبقى ، والذين يراد التشديد عليهم منهم هم أذكاهم وأوسعهم كفاءة فوعدنى خيرا ، ولكنى سمعت هذا الرأى ، أى رأى رشــدى باشا من السلطان نفسه ففهمت أن هذا هو رأى السلطة الانجليزية » (٢) ·

من هذا نرى أن المسئولين بدأوا يفكرون فى تخفيف العقوبة والحد من العدد الذى تقرر رفته حتى يأمنوا جانب الناس فقد كانوا يتوجسون خيفة منهم ومن احتجاجهم ضد هذا الاجراء ولكن السلطان فى الوقت نفسه كان متمسكا كل التمسك بضرورة الانتقام منهم والضرب على أيديهم أليس هم الذين صفعوه وقد أفضى بذلك لسعد زغلول فى مقابلة تمت بينهما فى ٤ مارس ١٩١٥ اذ يقول سعد : « ثم تأوه ـ السلطان ـ من الأحوال عموما ، ومن أحوال تلامذة الحقوق الخديوية وقال انه يئس من اصلاحهم ، وأنهم تجاوزوا كل حد فى

---

(١) محمد فريد : السابق ، ٢٣ مارس ١٩١٥ ·

(٢) سعد زغلول : السابق ، ٨ مارس ١٩١٥ ، ص ١٣١٥ ·

الوقاحة وقلة الأدب ، وان قلبه أصبح كسيرا من آلامه وشدة جهالتهم وسوء أخلاقهم وأنه عزم ألا يهتم بأمرهم وأن يتركهم وشأنهم تعبث الحوادث بهم » (١) .

أخيرا رأى المسئولون أنه لو تم الاجراء ضد الطلبة فان هـــذا سيكون الثقاب الذى سيشعل الثورة لذا استصدر من السلطان أمر عفو عن هـــؤلاء الطلبة ، ولكنه استثنى من المحكوم عليهم سبعة عشر تلميذا لم يعف عنهم قيل لأنهم هم الذين حرضوا زملاءهم على ذلك الامتناع . « وهم أذكى المحكوم عليهم وأوسعهم كفاءة وأكملهم استعدادا ، ان حرمان سبعة عشر من أنبه التلامذة وأكفئهم خسارة كبيرة وقد يترتب عليه فساد عظيم الا اذا استدرك ذلك بالعفو عنهم أيضا » (٢) .

وفكر عدد من الطلبة المفصولين فى الاتصال بسعد زغلول ، وقال لهم سعد انه سيحاول أن يتشفع لهم لدى السلطان ولكنه لن يدافع عنهم لأنه يعرف السلطان جيدا ، فقال الطالب أحمد مرسى بدر اننا نفضل أن نموت ولا نكتب اعتذارا ، فقال له سعد أنا لا أطلب منكم اعتذارا ولكنى مضطر أن أعتذر بالنيابة عنكم حتى أنال براءتكم وأنتم طلبة حقوق ، وتعرفون أن من حق المحامى أن يتخذ ما يراه من الوسائل لمصلحة موكله ، ويقول سعد فى مذكراته : « وقد رجوت رشدى باشا عندما أخبرنى بعزمه القبض بألا يفعل فلم يرد الاصغاء فرجوته بعد ذلك فى واحد منهم وهو من يدعى اسماعيل محمود حمدى أخو امرأة مصطفى بك الباجورى الذى أوصى على أولاده ، فوعدنى خيرا بأنه سيفرج عن جميعهم قرب افتتاح المدارس فقلت له اذا لم يكن عليهم شىء ، فالأولى الافراج عنهم قبل ذلك التاريخ فقال سأنظر فى ذلك » (٣) . وهكذا لعب سعد دورا فى التشفع لدى الجهات المسئولة لطلبة الحقوق حتى أنه أخيرا تقرر قبول السبعة عشر تلميذا المطرودين ما عدا اثنين .

وأراد السلطان ألا يرى وجه طلبة الحقوق فأمر بنقلهم من جوار القصر حيث كانت مدرســـة الحقوق تقع بين شارع عبد العزيز وحسن الأكبر الى الجيزة ونفذ هذا القرار اعتبارا من العام الدراسى ١٩١٦/١٥ .

وتكررت الحادثة ولكن بشكل مصغر عندما زار السلطان الأزهر ، فقد صرخ فيه الطلبة قائلين « أخرج يا خائن » فقبض على بعضـــهم ومن ثم وضع جميع الأزهرين تحت المراقبة الشديدة ، وقرر قائد الجيوش الانجليزية أن تكون محاكمتهم على أقل أمر يقع منهم أمام السلطة العسكرية (٤) .

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٣١٢ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٣٢٠ .

(٣) نفس المصدر ، كراسة ٢٤ ، ٥ سبتمبر ١٩١٥ ، ص ص ١٢٣٨ ، ١٢٣٩ .

(٤) محمد فريد : السابق ، كراسة ٤ ، ص ١٢٦ .

ومضت الرقابة تشتد على الطلبة ، فقبض البوليس على عشرة طلاب من جامعة الأزهر ينتمون الى قسم الدراسات التركية ، وذلك لكثرة ارسال تهديدات منهم الى شيخهم والى بعض المسئولين (١) ٠

وأمر السلطان بالقبض على طالبين من مدرسة الطب بسبب أنهما لم يقابلاه في الطريق بالتعظيم اللائق (٢) ، ولكن على الرغم من الضعف والارهاب فان اشتغال الطلبة بالشئون السياسية لم ينقطع ، ففي ١٧ نوفمبر ١٩١٥ قررت وزارة المعارف فصل طالبين بمدرسة المعلمين العليا وهما محمد صبرى منصور ومحمد عوض محمد وحرمانهما من دخول المدارس الأخرى والمصالح الأميرية والامتحانات العمومية ، وجاء في قرار الفصل بأنهما يشتغلان بالمسائل السياسية بكيفية يخشى منها على الأمن العام ، وقد ارتكبا بذلك ذنبا خطيرا استوجب هذه العقوبة ، ووزعت الوزارة نشرة بهذا القرار على جميع الوزارات والمصالح الحكومية والمدارس والمعاهد العليا (٣) ٠

لم يكن الطلبة وحدهم الذين خافهم الانجليز وأقلقوهم ، فقد توجه مكسويل للفيوم وقابل هناك مشايخ العرب لمحاولة ضمهم اليه وذلك لتخوفه من انضمامهم للسنوسى تحت شعار الاسلام ، وطلب منهم أن يحلفوا له يمين الطاعة والولاء ، فلم يقبلوا أن يؤدوه الا للحكومة المصرية فاستاء منهم وأمر بحبسهم ولكنه أرجع عن ذلك عندما أفهمه المسئولون أن لكل شيخ اتباع يتجاوزون بين المائة والمائتين ، فاذا علموا بحبسهم حدث شغب فاضطر أن يأمر باخلاء سبيلهم (٤) ٠

وحدث أن انضم كثير من المصريين الى الجيش التركى الزاحف ، والتحقت قبائل على بالسنوسى وأيضا كتائب من الجنود المصرية (٥) ٠ وأعلنت الصحافة عن حدوث عدة مهاجرات بين الهجانة من رجال خفر السواحل المصرية ، انضموا علنا بأسلحتهم لقوات السنوسى (٦) ٠

كره المصريون السلطان حسين ، لدرجة أنه عندما كان يزور بعض الأماكن كان الكثيرون يقاطعون هذه الزيارة فلا يجد من يستقبله غير الموظفين والأشخاص الرسميين (٧) وبذلك فقد احترام الناس له بارتدائه رداء الملك ،

---

(١) La phare d'Alexandrie, 16 Mai, 1915.

(٢) سعد زغلول : السابق ، كراسة ٢٦ ، أول يناير ١٩١٦ ، ص ١٣٨٩ ٠

(٣) الأهرام ١٧ نوفمبر ١٩١٥ ، وادى النيل ١٨ نوفمبر ١٩١٥ ٠

(٤) أحمد شفيق : المرجع السابق ، ص ٢٩ ٠

(٥) الحكومة المصرية : قلم السكرتارية ، سرى ، السواحل الغربية ، ٥ ، ٦ مارس ١٩١٧ ص ص ١٧٤ ، ١٧٥ ٠

(٦) العدل ١٠ يوليو ١٩١٦ ٠

(٧) محمد حسين هيكل : المرجع السابق ، ص ٣٧ ٠

وحدث أن أقام دعوة للمحامين وكان من بين المدعوين المحامى أحمد عبد اللطيف وهو صديق لرشدى ، فرفض الدعوة وقال انه لا يعترف بسلطانه ، فغضب السلطان وعلى الفور وكالعادة أبلغ الأمر الى السلطة العسكرية اذ اعتبره اهانة لكرامته ورأت السلطة ضرورة نفيه الى مالطة ففي ذلك الوقت كان يكفى جدا أى اشارة على أى انسان وبدون تحقيق يصدر الأمر بالنفى لمالطة اذ أصبحت أثناء الحرب وبعدها ملجأ للمضطهدين السياسيين ٠

وجسم الأمر لدى السلطة محمد سعيد وشيعته حيث كان يطمع فى تولى الوزارة بدلا من رشدى لأنه اذا حدث ونفت السلطـــة أحمد عبد اللطيف ثم يتشفع له رشدى ومن هنا لن ترضى عنه ــ رشدى ــ السلطة ، ولكن غرض محمد سعيد لم يف اذ تدخل رشدى فعلا فى المسألة واحتج وهدد بالاستقالة اذا تم هذا النفى « لأن البك المذكور صديقه الوحيد فى مصر ونفيه يسقط نفوذه فى عين أهله ، فعدل الانجليز عن ذلك » (١) ٠

وكان السلطان حسين كثير الشكوى فنراه يقول لسعد ازاء هذه الحادثة : « ان الكبار سفهاء وأجلابهم طائشة انظر كيف فعل أحمد بك عبد اللطيف المحامى ، فانى دعوته ضمن من عرفته من المحامين عندى فحضر قبل اليوم المعين الى هنا وقال لسعيد باشا ذو الفقار كبير الأمناء انه لا يمكن اجابة هذه الدعوة لأنه لا يعترف بسلطنة البرنس حسين ولا ينبغى له أن يعرفه كسلطـــان كما لا ينبغى أن يعترف بالحماية الانجليزية ولا أن يتردد عليها » (٢) ٠

من هذا يتبين أنه كان اعتلاء السلطان حسين العرش ايذانا بتحول الأفكار للانتقام منه ، فقد حدث حريق فى غرفة الاستقبال الكبرى فى عابدين ، أحدثه أحد الفراشين القدماء بقصد احراق السراى كلها ٠ وفى داخل القصر ألصقت اعلانات تهديدية للسلطان ٠ وضبطت القصائد الهجومية المعادية للحكم (٣) ولكن كل ذلك لم يؤثر ولم يهز السلطان ولا السلطة الى أن وقعت حادثة كتب لصاحبها أن يخلد اسمه بين الوطنيين فى تاريخ مصر الحديث ألا وهى حادثة خرجت منها أول رصاصة فى ذلك العهد احتجاجا على الحماية وعلى الذى قبل الحكم فى ظلها ، خرجت هذه الرصاصة مصوبة على حسين كامل ، وصـــاحب الفكرة الأساسية لمحاولة الاغتيال هذه هو محمد شكرى الكرداوى طالب بكلية الطب الشاهانية ومن أتباع الحزب الوطنى كان قد رجع الى بلدته المنصورة فى صيف عام ١٩١٤ لتمضية الأجازة وبعدها يعود للآستانة لتكملة دراسته ولكن وقوع الحرب حال بينه وبين العودة وبدأت مصر تتعرض لأحداث سياسية كان لها رد فعل عليه اذ يقول فى مذكراته : « أثار هذا الحادث ــ الحماية وتولية

---

(١) سعد زغلول : السابق ، كراسة ٢٥ ، ١٧ ، ٢٠ مارس ١٩١٥ ، ص ص ١٣٢٣ ، ١٣٢٥
(٢) نفس المصدر ، ٨ مارس ١٩١٥ ، ص ١٣١٢ ٠
(٣) نفس المصدر ، ٢٠ مارس ١٩١٥ ، ص ١٣٢٤ ، أحمد شفيق : المرجع السابق ، ص٣٠ ٠

حسين – فى نفسى كل مقت وقابلته بعقد نيتى على أن أكون أول فداء فى سبيل الاحتجاج الفعلى ضد الحماية الباطلة ، وأقدمت على تنفيذ النية ، واحتاج الأمر الى شراء مسدسات والتمرن على ضرب النار ، فتجولت فى الريف أبحث عن ضالتى وساعدنى فى ذلك ابن خالتى حضرة عبد الحميد افندى اسماعيل واشترى لى عددا من المسدسات لا بأس بها ولكنها من الطراز القديم ، وترددت على بلدة بيلا الغربية وأطلقت كثيرا من الطلقات من المسدسات والبندقيات »(١) ٠

وصمم على ضرب السلطان حسين بالرصاص ، فسافر الى القاهرة قبيل تتويجه حتى يستطيع أن يقتله فى اليوم المناسب وهو يوم التتويج ، ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل وكان السبب كما يذكر « وأقمت بطرف أحد الاخوان وتركت المسدسات بمنزله ، فارسل الى أهلى خطابا ينبئهم فيه بالخبر ، فحضر أخى على الفور ومعه بعض الأقارب وأكثروا من التهديد باخطار البوليس اذا لم أعد معهم فى الحال ، فعدت مع أقاربى الى المنصورة وأجلت التنفيذ الى فرصة أخرى أنتهزها على حين غرة منهم »(٢) ٠

كان لشكرى الكرداوى ابن عمه يدعى محمد خليـــل وكان من المؤمنين والمتشيعين للحزب الوطنى ، وللكرداوى تأثير عليه أولا بحكم المعيشة الواحدة التى كانوا يحيونها ، ثانيا لأنه لم ينل قسطا وافرا من التعليم ، لذا اعتبر الكرداوى معلما له ، ومن هنا تشبع بأفكاره وميوله وبمقته وكراهيته لما حدث لمصر عقب اعلان الحرب ، وكان لمحمد خليل هذا الاستعداد الكافى للتضحية من أجل مصر ، ويصف الكرداوى غرفته – محمد خليل – يقول : « وكان الذى يزور غرفته الخاصة يرى على الحائط اطارا بديعا يجمع فى زواياه الأربع صور مصطفى كامل باشا وعلى فهمى بك ومحمد فريد بك وصورتى »(٣) ٠

ومن هنا نعرف ميول محمد خليل السياسية ٠ ودار الحديث بينهما ، وعلم محمد خليل بما كان الكرداوى ينويه ، فأيده فى العمل بل وعرض نفسه للقيام به وبأن يكون هو فداء لهذا الواجب ٠ وفعلا بدأ يتمرن على ضرب النار واستطاع الكرداوى الحصول على مسدسات من طراز برونتج من شخص يدعى عبد اللطيف لطفى تاجر حدايد بالمنصورة وقد تبرع بها هذا الأخير عندما علم بالغرض الذى طلبت من أجله ٠

بدأ محمد خليل يتمرن على ضرب الرصاص بهذه المسدســـات بعيدا عن المنصورة فى الحقول والمقابر حتى حذق الرماية واتفقا على السفـــر للقاهرة ، وتحجج الكرداوى بأنه مريض وسيتردد على العلاج بالقاهرة ، وسافر كل منهما عن طريق ، محمد خليل عن طريق الزقازيق القاهرة والكرداوى عن طريق طنطا القاهرة ، وعندما وصل الكرداوى أقام بمنزل ابن عم له وأعلمه أنه حضر

(١،٢،٣) محمد شكرى الكرداوى : خمسة وخمسين شهرا فى المخبأ ، ص‌ص ط – ى ٠

للعلاج ، أما محمد خليل فأقام بفندق بكلوت بك وبدأ فى الاستعداد لضرب السلطان والانتقام منه .

تحرك الموكب السلطانى من قصر عابدين فى يوم ٩ أبريل ١٩١٥ فى الساعة الثالثة والنصف قاصدا زيارة السيد عمـــر مكـــرم نقيب الأشراف والسيد عبد الحميد البكرى شيخ الطرق الصوفية ، وتقدم الموكب الفرسان فوق الخيول بملابسهم الموشاة بالذهب وهم يشهرون السيوف والسلطان جالس فى عربته الفخمة تجرها الخيول . وعند تقاطع شارع عابدين مع شارع حسن الأكبر لجهة باب الخلق تقدم شاب يحمل باقة من الورد الأحمر نحو عربة السلطان ـ كان بداخل الورد مسدس ولكنه لم يظهر اذ كان محوطا بالأزهار والورد على شكل طاقة وكل ذلك تقليدا للحالة التى كان عليها مسدس برنزيب الصربى الذى قتل ولى عهد النمسا فى سيراجيفو ـ وهش السلطان وبش وضحك .. لقد بدأ الشعب يقدره وها هو يستقبله بالزهور والورود ، لكن سعيد ذو الفقار كبير الأمناء الذى كان يجلس بجوار السلطان لاحظ فى عينى الشاب الذى يحمل باقة الورد شيئا لا يدل على الحب والاعجاب والتقدير بالسلطان فأشار على الفور الى ضابط الحرس ابراهيم خيرى بأن يمنع الشاب من الاقتراب ، وتقدم الضابط نحو الشاب وهو شاهر سيفه بيده وراح يلوح بالسيف فى وجه الشاب حامل الورد الأحمر حتى مس سيف الضابط رأس الشاب فشطر طربوشه وجرحه فى رأسه ، ولكن الأخير لم يتراجع بل اندفع نحو السلطان وبسرعة البرق خرجت من باقة الورد رصاصة أصابت الحديد الملنف على طرف كبوت العربة ، وأسرع ضابط الحرس مرة أخرى ضرب الشاب الذى حاول أن يطلق الرصاصة الثانية على السلطان ولكنه لم يستطع لاحاطة البوليس به(١) ، وهوى السلطان وهو يصيح امسكوه ، أمسكوه لا تقتلوه(٢) ، فلقد خاف السلطان من أن يطلق عليه الحراس الرصاص كمـا فعل الأتراك فى محمود مظهر الذى اعتدى على حياة الخديوى عباس بالآستانة لقد أراد حسين أن يعرف شركاءه وعصابته التى هدفها الانتقام منه .

قبض الحراس على الشاب وسيق الى قسم عابدين وهو يهتف : يسقط الاحتلال ! يسقط السلطان الخائن ! يسقط الانجليز ! ويقول ستورس انه لو كان السلطان جالسا فى وضع منتصب لكان قد قتل بكل تأكيـــد ولكن السلطان كان متعبا قليلا فاستند الى الوراء ، ومن ثم مرت الرصاصة على مسافة ٣ بوصات من جسمه (٣) . وأكد ذلك الطبيب الشرعى فقال ان الرصاصة لو لم

---

(١) سعد زغلول : السابق ، ٢٣ ابريل ١٩١٥ ، ص ١٣٣٤ ، الأهرام ٩ ابريل ١٩١٥ .
(٢) الأهرام ٢٠ ابريل ١٩١٥ .
(٣) Storrs : op. cit., p. 140.

تنحرف سنتيمترا واحدا لقتلت السلطان ، وذهل الانجايز لهذا الحادث ، انها أول رصاصة تنطلق بعد اعلان الحماية وبعد تعيين السلطان الجديد وذلك رغم أن السلطة جمعت كل السلاح الموجود في مصر ، حتى العصى الغليظة ، ونبهت على تجار الأسلحة والآلات القاطعة بالتوقف عن البيع مطلقا (١) ، وذلك كله خشية أن يضرب الوطنيون أحد الانجليز أو الوزراء أو السلطان منتقما منهم ولكن رغم ذلك خرج هذا الشاب وأطلق الرصاص على السلطان .

وعقب الحادث ذهب الكل من انجليز ووزراء وأعضاء جمعية تشريعية الى تهنئة السلطان وأظهر الأخير امتعاضه لسعد فقال : « لقد حفت الجنة بالمكاره ولا يسلم المكان الرفيع من أذى يلحقه ولا بد من مقابلة عظام الحوادث بالتجلد والصبر ، وكلما علت منزلة المرء كثر حاسدوه والمؤمن مصابا وانى من يوم جلوسى على هذه الأريكة ما أتيت شرا ، وما فعلت الا خيرا ، وانى أتأسف أن الأمة لم تقدرنى قدرى حتى أن الأجانب قابلونى وأنا عائد بالهتاف أما الوطنيون فبالانصراف » (٢) .

هذا يثبت أن الشعب كان راضيا عن الاغتيال وفرح بالحادث لكن ساءه عدم اتمامه واستكمل السلطان مشواره بعد وقوع الحادث وعند رجوعه كما تبين من مذكرات سعد لم يقابله الشعب ولم يهتف بنجاته انما الذى فعل ذلك هم الأجانب أصحاب المصلحة الحقيقية فى البلاد ، وأوعزت الحكومة الى حكام ومديرى الأقاليم بأن يدعوا الناس للحضور الى تقديم التهانى للسلطان على نجاته وكلم رشدى سعدا للمخابرة مع مظلوم باشا رئيس الجمعية التشريعية بشأن استدعاء أعضاء الجمعية لنفس الغرض (٣) .

وتولى مأمور قسم عابدين محمد شكيب أخذ أقوال الجانى قبل وصول رئيس النيابة والنائب العام ، وفتشه المأمور فوجد معه أربع رصاصات من عيار أكبر من عيار المسدس الذى أطلقه ووجد معه قرصين اعترف أنه اشتراهما ليقتل بهما نفسه بعد ارتكاب فعلته ولكنه عدل حتى لا يتهم بالجبن ، أما الرصاصات الأربع فقال انه اشتراها من المنصورة وهو يظن أنها توافق المسدس الذى معه ، أما المسدس فقال انه وصل لديه هدية من حمادة بك أحد أصدقائه فى بيروت عند زيارته لهذه المدينة ١٩١٢ ، ووجد فى جيبه أربعة جنيهات ومفتاحا عليه رقم ٥ فسئل عن هذا المفتاح فقال انه مفتاح الغرفة التى نزل فيها بفندق المؤيد .

وارسل على القور اليوزباشى « كاريته » رئيس البوليس السرى الى الفندق

---

(١) الاهرام ٢٠ أغسطس ١٩١٤ ، الشعب ٢٥ نوفمبر ١٩١٤ .
(٢) سعد زغلول : السابق ، ١٣ ابريل ١٩١٥ ، ص ١٣٣٥ .
(٣) نفس المصدر .

لتفنيشه ، فوجد به حقيبة للجانى مقفلة ومحزمة بسيور جلدية • فلما فتحت وجد بها خطابان فيهما استنهاض المسلمين والمصريين لقلب الحكومة الحالية وكتب أيضا « أنا الآن أعطى حياتى لأمحو ذلك العار العظيم الذى سجله علينا التاريخ » وعبارات أخرى نقول احداها : « ألتمس اليكم وأرجوكم أن تحافظوا على شرف اسلامكم »(١) ، كذلك وجدت أوراق تتضمن طعنا فى الانجليز ودعوة الى الثورة عليهم •

شاع أولا بين الناس أن الجانى قبطى ، ثم انه تلميذ فى مدرسة الحقوق حاول أن ينتقم من السلطان مرة أخرى ، فطلبة الحقوق قبض على بعضهم بعد حادث الزيارة ، ووضعوا سجن طرة ثم أطلق سراحهم وحددت اقامة كل واحد منهم فى بلده لكن التحقيق يكشف أن الشاب ليس قبطيا وليس طالبا بالحقوق ولا حتى طالبا فى أى مدرسة على الاطلاق ، وليس من سكان القاهرة أيضا ، بل هو تاجر خردوات بالمنصورة وعمره سبعة وعشرون سنة ، وعلى خلق كريم ومعروف بالأدب الجم وقوة الأعصاب •

على أثر هذه الحادثة أحست الحركة الوطنية أنها استطاعت أن تفعل شيئا انتقاما من هذه الاجراءات التعسفية حتى أن محمد فريد قال : « لقد سررت جدا من هذا الحادث الذى أثبت للعالم أن الأمة غير راضية عن الحماية الانجليزية ، وأنها مستعدة لمجازاة كل من يقبلها ، ولكن ساءنى عدم اصابة المرمى لأن هذا الشاب سيعدم طبعا بدون أن يكون أتم مأموريته »(٢) ، وسارعت الحكومة فى بلاغاتها الرسمية تلوث سمعة محمد خليل وتصفه بأنه سيىء الأخلاق ، واختلقت أحكاما صادرة عليه ولفقت لها قصة ونشرت فى الصحف •

وامتلأ قسم عابدين بالوزراء حيث أسرع اليه كل من حسين رشدى وعبد الخالق ثروت وعدلى يكن وأحمد حلمى وعلى ذو الفقار محافظ القاهرة وهارفى حكمدار بوليس القاهرة ورسل مساعد الحكمدار وفليبدس مأمور الضبط ومحمود محمد وكيل الضبط وعلى توفيق رئيس نيابة مصر •

وفى الوقت نفسه ألقت الشرطة القبض على بعض أقرباء المتهم ومعارفه فى المنصورة ، وفتشت منازلهم كما قبض على الكثير من الطلبة وقبض أيضا على محرك محمد خليل وهو شكرى الكرداوى الذى يقول فى مذكراته : « وبعد أن سألت النيابة العمومية الدكتور حامد شاكر بك وتلقت منه ردا بأننى كنت أتردد على عيادته بالعتبة الخضراء كل يوم للمعالجة لم تجد وجها لاستمرار حبسى » (٣) •

---

(١) الأهرام ٢٠ ابريل ١٩١٥ •

(٢) محمد فريد : السابق ، الكراسة الرابعة ، ص ١٢٠ •

(٣) محمد شكرى الكرداوى : المرجع السابق ، ص ل •

انعقدت المحكمة العسكرية لمعاقبته في دار محكمة الاستئناف بباب الخلق وسط مظاهرة عسكرية انجليزية قصد بها ارهاب الشعب حتى لا يقوم بأى مظاهرة أو ماشابه ذلك ، وخضعت الجلسات لمراقبة شديدة فكان هارفى باشا حكمدار القاهرة وجورج فليبدس مأمور الضبط وبعض ضباط البوليس ورجاله يسهرون على النظام • وكان رسل بك مساعد الحكمدار فى داخل القاعة يفحص تذاكر الداخلين ، ووقف ثلاثة من جنود رماة لانكشير على باب القاعة وثمانية داخلها ببنادقهم وفى أفواهها الحراب ، ورغم أن المتهم ملكى والمحاكمة المدنية المصرية لا تزال قائمة بأعمالها فقد كان لها الحق فى محاكمته فان اعلان منشور الأحكام العرفية والمنشور الذى لحقه فى نفس اليوم يعطيا المحـــاكم المدنية الاستمرار فى عملها الا أن السلطة أصرت على محاكمته أمام محكمة عسكرية وذلك « أولا للسرعة فى الحكم وثانيا للحكم بالاعدام الذى لا تحكم به المحاكم الاعتيادية فى مثل هذه الجريمة ويجوز أن ينضم لهذين الغرضين غرض البعد عن ضجة المحاماة وعلانية الجلسات » (*) •

ومن المعروف أن السلطة كانت تنوجس خيفة اعلان الحكم خوفا من اثارة شعور الشعب ولكنها رأت تضييق الأحكام العرفية على عنق الشعب ، فجعلت الرقابة تكمم لسانه وملئت السجون بالأبرياء ورهبت الناس بسيف السلطة حتى أنه ما جرى أثناء المحاكمة حذفته السلطة البريطانية وخاصة أقوال محمد خليل التى لو نشرت فى تلك الأيام لألف الشعب الأغانى والأزجال ونظم القصائد مثلما حدث مع الوردانى •• لقد تأسف الشعب لعدم تمام الفعل •

انعقد المجلس العسكرى الانجليزى وحضر حسين رشـــدى وطلعت بك والمستر هلتون رئيس محكمة مصر المختلطة والسير جراهام مستشار الداخلية والمسيو جيرو القاضى الفرنسى فى المحاكم المختلطة ، والمستر كرابيتس القاضى الأمريكى فيها وشيتهام وستورس ، وقد حاول عدد من الشباب المصريين دخول المحكمة فمنعوا وحتى الصحفيين فلم يسمح بالدخـــول الا لثلاثة تطمئن لهم السلطة •

نودى على الجانى من سجن الاستئناف ، فأخرج من غرفة السجن بين جنديين انجليزيين شاهرين السلاح ويتقدم جندى ويتلو الجميع ضابط صف ، فساروا به حتى قفص السجن فوقف فى القفص جندى على يمينه وآخر على يساره ثالث وراءه ، وبذلك أحكمت الرقابة عليه حتى لا يمكن من القيام بأى عمل أو أى انتقام ، وكان فى أثناء الاستراحة يطلب أن يؤتى اليه بطعام وكان يغنى بصوت منخفض ويضحك وحتى أثناء الجلسات وأمام أقوال المدعى العام والنيابة والدفاع كان يضحك ويحك جبهته ، ولم يعترف أنه مجرم أو آسف لهذا

(*) سعد زغلول : السابق : ص ١٣٣٤ •

العمل بل آسف لأنه لم يتم كما أراد ، ورفع صوته وأبان أن حسين خان مصر لأنه قبل العرش من الانجليز ووافق على اعلان الحماية وباع مصر لانجلترا ، وردد أنه سيعود الى ما أراده ويقتل السلطان(١) ٠

وكان رشدى قد ذهب الى محمد خليل فى سجنه ليغريه بالاعتراف على شركائه على أن يستصدر أمر عفو عنه ويعينه وزيرا ، فضحك محمد خليل من هذا العرض وقال وبعد ذلك ساضرب بالرصاص اننى أفضل أن أموت وأنا وطنى على أن أعيش وأنا وزير خائن ٠

وحاول أيضا فليبدس اذ كان مشهورا بالذكاء والخبث أن يؤثر عليه بكل وسائل الاغراء والتعذيب ولكن محمد خليل صمد أمام كل هذه الضغوط ولم يعترف بشىء يدل على أن له شركاء ٠ وفى ٢٦ أبريل ١٩١٥ نشر قلم المطبوعات المصرى هذا البلاغ : « حكم المجلس العسكرى بالاعدام شنقا على محمد خليل الذى حاول اغتيال عظمة السلطان وقد أقر على هذا الحكم اللفتنت الجنرال السير جون مكسويل قائد جيوش جلالة ملـك بريطـانيا العظمى فى القطر المصرى » (٢) ٠ ونفذ فيه الحكم بعد خمسة أيام ، ولم يحدث فى تاريخ مصر أن نفذ حكم الاعدام فى محكوم عليه بعد صدور الحكم بهذه الأيام القليلة ٠

وفى يوم تنفيذ الاعدام سأل مأمور السجن محمد خليل : ما هى طلباتك ؟ فرد عليه بأن طلباته لا يستطيع اجابتها : اننى أطلب رأس السلطان ٠ وعندما جاء عشماوى ليعصب عينيه رفض ذلك ، ووقف على منصـة الاعدام وهتف قائلا : يسقط السلطان وتحيا مصر ثم أدار وجهه للحاضرين وتبسم ورفع يده الى جبهته وقال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته (٣) ٠ وتصور الانجليز والسلطان والوزراء أنهم بعد اعدام محمد خليل السريع سيخيفون المصريين ٠

ونشطت حركة التجسس ، فصدرت الأوامر بغلق جميع المقاهى والأماكن العامة فى المنصورة(٤) ، ورووقب شبابها جميعا وتتابع تفتيش منزل الكرداوى ونبه عليه بعدم مغادرة المنصورة ثم رأت أن تعتقله وأرسلته الى سجن الاستئناف بالقاهرة ثم الى سجن الحدرة بالاسكندرية ثم أفرج عنه وبعد أسبوع قبض عليه وأرسل الى سجن الاستئناف ثم نقل الى معتقل درب الجماميز ثم الى معتقـل

---

(١) الأهرام ، نفس العدد ٠
(٢) نفس المصدر ، ٢٧ ابريل ١٩١٥ ٠
(٣) محمد شكرى الكرداوى : المرجع السابق ، ص ق ٠
(٤) La phare d'Alexandrie, 13 Avril, 1915.

طرة ثم معتقل الجيزة ، وكان معه أفراد كثيرون من المنصورة يجمعهم الأسنياء ضد الانجليز والحماية والسلطان (١) ·

وقبض أيضا على أحد مستخدمى المحاكم المختلطة لمجرد أنه تـكلم في السياسة ضد الحلفاء لأحد زملائه ، فاعتبرت السلطة ذلك تدخلا فى المسائل السياسية محرم على الأهالى (٢) ،وامتدت أيدى السلطة الى النساء فقبض على من تدعى نعمة هانم لأنها تكلمت ضد الحلفاء وفى صالح تركيا والألمان ، ولكن افرج عنها لتشفع رشدى لها ، ثم اتهمت سيدة أخرى لنفس التهمة فنفتهـا السلطة العسكرية ، ويقول سعد : « فأكبرت الأمر ونددت به وقلت ان هذه سياسة خرقاء فلم نسمع من قبل هذا بأن الحكومة تهتز أركانها لما يتحدثه النساء فى مجالسهن خصوصا المسلمات منهن لأنهن لا يجتمعن بالرجال ولا يمكن أن يحدث ما يبدو منهن أقل تأثير فى الرأى العام » (٣) ·

هكذا كان يخيف السلطة حتى اجتماعات النساء وحديثهن ، فكان لسان سيدة مصرية يكفى لارهاب السلطة ولتخويف السلطان ولافزاع الوزراء فلا يرون حيلة لاسكاتها سوى مغادرتها للبلاد ·

وقد عثرت السلطة بعد تفتيشها فى خزانة ادارة صحيفة المؤيد بالاسكندرية ـ ميدان محمد على ـ على كتب ثورية ومنشورات ضد الحماية وعلى الفور قبض على وكيلها للتحقيق معه ، وأقفلت الصحيفة فى الحال (٤) وأصبح من المألوف أن نجد الشوارع يسير فيها رجال البوليس مثنى مثنى وفى يد كل جندى عصا طويلة للقضاء على أى عصيان اذا اقتضى الحال (٥) ، وبعد حادثة محمد خليل أيقن الانجليز أن الأهالى ما زالوا على شعورهم وولائهم لدولة الخلافة ولمبادىء الحزب الوطنى ، ومن هنا رأوا أيضا التشديد والرقابـة على أعضاء البطارية المصرية المشتركة فى القتال على القناة وذلك لتوقع هجوم الأتراك مرة ثانية ، وفعلا اكتشفت خطابات كان يحملها وكيل أومباشى يدعى محمد سيد أحمد العبد رقم ٧٢٦٠ من البطارية الخامسة المصرية بالاسماعيلية اذ كان يأتى يوميا من بور سعيد فى قطر الخامسة صباحا ويقابل بعض الشبان (الأفندية) بالقرب من محطة سكة حديد القاهرة فيعطيهم خطابات ويأخذ منهم خطابات(٦)·

واستاء الانجليز وأصبحوا لا يأمنون جانب الجنود المصرية ، رغم أن تلك

---

(١) محمد شكرى الكرداوى : المرجع السابق ، ص س ·
(٢) الاكسبريس ٩ مايو ١٩١٥ ·
(٣) سعد زغلول : السابق ، ٩ مارس ١٩١٥ ، ص ١٣٨ ·
(٤) الأخبار ١٨ مايو ١٩١٥ ·
(٥) وادى النيل ٦ أبريل ١٩١٥ ·
(٦) Egyptian Gvt, Cairo city police, Vol. IV, No. 94, March 13, 1915, p. 171.

الجنـود اشتركت معهم فى الحرب ضد الأتراك والألمان وكانت صاحبة الفضل فى الانتصار أثناء الهجوم الأول للأتراك على القناة ، لكن رغم ذلك فقد أخضعهم الانجليز لرقابة صارمة ٠

واضطربت نفسية الشعب وازداد كرهه للانجليز ، وبالرغم من قيود الأحكام العرفية عليه الا أنه وقف أمامهم كلما استطاع الى ذلك سبيلا ، لقد ساءه انتشار جنود الامبراطورية فى كل مكان يسيئون للأهالى وينقضون على الحرمات ومن هنا أراد الشعب الانتقام ، وكانت الاسكندرية مقرا للحملة المصرية للبحر المتوسط منتشرا فيها هؤلاء الجنود ، فقام أحمد المغربى بطعن جندى انجليزى عدة طعنات فى ظهره وزيادة فى الانتقام جزر عنقه بالسكين فمات فى الحال وحاول الجانى أن يهرب ويرمى السكين فى البحر ولكنه ضبط وسيق الى المحافظة (١) ٠

ويقول اقبال شاه الذى كان معاصرا لهذه الحوادث : « حدث أن رأيت جنديا استراليا فى لباس المستشفى الأزرق واقفا عند أحد المنعطفات دون غرض ، فاقتربت منه ثم اقترحت عليه وهو لا يحمل سلاحا وفى موقف لا يستطيع معه أن يحمى نفسه اذا ما هوجم بأنه خير له لو لجأ الى مكان آخر أقل خطر ، فضحك فى مرح ثم قال : ان معى زميلين خلف المنعطف يحملان عصايتين أما أنا فأقف للاغراء » (٢) ٠ وكثيرا ما نجح المصريون فى اقتناص هؤلاء الجنود والتنكيل بهم ٠ وراح البعض ينتقم بالاستحواذ على أدوات الجيش البريطانى وأحيانا كان يتم القبض عليهم وعلى الفور تشكل لهم محاكم عسكرية (٣) ٠

ولم يفت ذلك فى عضد المصريين بل مضوا يوسعون دعاياتهم ويوزعون حقدهم على الانجليز فيقول ستورس : « لا تزال دوائر الطلبة والصحفيين تبدى فتورا بالغا حيالنا لا تزال تبدى عداء مليئا بالحقد انهم لن يقتنعوا أبدا ٠٠ ان نيتهم سيئة ٠٠ ان عقولهم مضللة ، اذا أعلن البلاغ الحربى الرسمى بوقوع أسرى فى أيدى الانجليز ، قالوا اذن الانجليز خسروا من رجالهم أكثر من هذا العدد بكثير ، ثم يتساءلون أين هؤلاء الأسرى ؟ فاذا مشت فى الشوارع مواكب الأسرى قالوا اذن فهم ليسوا الا هنودا متنكرين فى صورة أسرى أتراك أو اذا أظهروا ملابس الأسرى رثة وأقدامهم عارية قال المصريون ان الانجليز هم الذين مزقوا ثيابهم وخلعوا نعالهم ، واذا ذهبنا الى الاسكندرية لتمضية ثلاثة أيام قال

---

(١) السفير ٦ أبريل ١٩١٥ ٠

(٢) Shah, Ikbal Aly : Fouad king of Egypt, p. 99.

(٣) Egyptian Vvt. Cairo City Police, vol IV, No. 97, Oct. 16, 1915. p. 10, No. 102, August 23, 1916, p. 101.

المصريون أننا نفعل ذلك حتى نكون على مقربة من الميناء ومستعدين للهرب فورا بطريق البحر ، لا تكاد تسقط اشاعة حتى تقوم اشاعة أخرى » (١) ٠

وصمم الانجليز على مواصلة التنكيل بالشعب بعد أن أيقنوا أن تصرفاتهم لم تؤثر عليه ، وأن اعدام محمد خليل لم يخفه ، ولكن لقد استهان المصريون بالتهديد والارهاب والوعيد وعمليات النفي والاعتقال وصمموا على استمرار الكفاح ، فكانت المحاولة الثانية لاغتيال الحاكم ، ولم يكن قد مضى على الأولى الا وقت قصير ٠

وبالاسكندرية ، وفي يوم ٩ يوليو ١٩١٥ خرج موكب السلطان الفخم من قصر رأس التين الى سيدى عبد الرحمن بن هرمز لتأدية صلاة الجمعة وكان على يساره في مركبته ابراهيم فتحي وزير الأوقاف ، وفجأة ألقيت من أحد المنازل بشارع رأس التين المطلة على موكبه قنبلة أثناء سير الموكب ، ولكنها لم تصب عربة السلطان ولم تنفجر بل سقطت بين أرجل الخيول التى تجر العربة ، ولم يعرف السائق الذى يسوق العربة ولا الحراس أنها قنبلة بل ظنوها كرة قذف بها سهوا أحد الأولاد ، ولم يعرف السلطان أن قنبلة ألقيت عليه ، فقد وصل الى المسجد وأدى الصلاة ثم عاد للقصر وتناول غداءه ، ولكن عرف من بعض من كانوا معه أن هذه قنبلة وتوجهت أنظارهم الى المنزل الذى سقطت منه فعرفوه ، وأخفوا عن السلطان الخبر حتى لا يزعجوه ، ولكنه تلقى عقب رجوعه الى القصر من دار الحماية عبارات التهنئة بسلامته بالتليفون فاستغرب وسأل موظفى القصر عن جلية الخبر فقصوه عليه ٠ وهنا كانت طامته وانزعج أكثر عندما علم أن الذى ألقى عليه القنبلة فر وهرب وعجز البوليس عن القبض عليه (٢) ٠

سعد المصريون بهذا الحادث وكانوا يتمنون نجاحه ، وامتنعوا عن التبليغ عنه ، فيوم الحادث يوم جمعة والناس في بيوتهم والشوارع غاصة بالمارة ، وهذه منطقة آهلة بالسكان ، ومع ذلك فان الجاني قذف الى سطح منزل مجاور ونزل من السلم بهدوء وخرج الى حارة واقعة خلف شارع رأس التين فشاهدته بعض النسوة نازلا وكان ثابت الخطى وقد حياهن بأدب جم واختفى ، وكانت السلطة واثقة من أن الجيران رأوه وهو يلقى القنبلة وأن المطلين من النوافذ شاهدوه وهو يقوم بالحادث ورغم ذلك فلم يتقدم أحد بالشهادة حتى تلك السيدة التى تقدمت وشهدت أنها رأت الجاني ينزل من البيت المجاور أعطت معلومات كاذبة فوصفته بأنه أبيض اللون رغم أنه ظهر أنه قمحي اللون ، لكنها أرادت تضليل البوليس حتى لا يعثر على الجاني ٠

---

(١) Storrs : op. cit., pp. 146, 147.

(٢) سعد زغلول : السابق ، كراسة ٢٤ ، ١١ يوليو ١٩١٥ ، ص ١٢٠٥ ، الأهرام ١٠ يوليو ١٩١٥ ٠

بدأ الانجليز يشعرون بأن هناك مؤامرة واسعة لقلب نظام الحكم وقتل السلطان والوزراء وربما الانجليز ذلك أن ثمة تيار موجه ضد الحماية وأحست أن الساعة قد حانت للانتقام من كل الاجراءات والضغوط التى مارستها انجلترا على مصر منذ أن بدأت الحرب ٠

وفتش المنزل الذى ألقيت منه القنبلة فوجد البوليس قنبلتين من نفس النوع ، وانزعج السلطان عندما علم ذلك ، ففى المرة الأولى لاغتياله كانت رصاصة ثم فى المرة الثانية قنبلة ٠ اذن فهناك احتمال كبير فى أن تكون المرة الثالثة قنبلتان ثم يهاجم السلطان بالمدافع لهذا ثارت ثائرتـه وطالب بالانتقام من المصريين جميعا ٠ ووصـف سعد شعوره يقول « سـافرت الى الاسكندرية للتهنئـة بنجاة السلطان واستقبلنى وحدى وجلست فى حضرته مدة أربعين دقيقة ورأيته متأثرا جدا ، وكان يختنق أحيانا بالبكاء وكنت ألاطفه وأسهل عليه وقع الحادث ٠ وكان يؤلمه ان الشعب لا يحبـه ويستخف به رغم ما يسـديه من الميرات وما يبـذله من جهد والذى يقلقه أن هـذه الخيانة لا ترتكب الا باشتراك الكثيرين »(١) ٠

وانزعجت السلطة من وقوع الحادث ومن الطريقة التى دبر بها ثم من فرار الجانى والتستر والتكتم عليه ، فقد ترك الأهالى الجانى يهرب دون أن يمسكوه أو يطاردوه ، وأخذ رجال الشرطة يلقون القبض على الناس جـزافا ويسوقونهم الى التحقيق وانتشر البوليس السرى فى جميع جهات مصر يبحث عن الجانى ، وبلغ الذين قبض عليهم من سكان المنازل المجاورة للمنزل نحو عشرين شخصا على أمل أن يكون لواحد منهم معرفة بالجانى ٠

وتم اعتقال أعداد من طلبة مدرسة الحقوق ومدرسة المعلمين السلطانية والمدارس الثانوية لتشككهم فى أن الذى قام بالمحاولة من الطلبة الحاقدة على السلطان الذى قبل العرش فى ظل الحماية ، وأعلنت السلطة العسكرية أنها ستدفع خمسمائة جنيه مكافأة لمن يدلى بمعلومات صحيحة تؤدى الى القبض على الشخص الذى استأجر المنزل رقم ٣٧ شارع رأس التين ملك التمساح يوم ٢٣ يونيه ١٩١٥ ، وقد ألصقت ادارة الضبط هذه النشرة على الجدران (٢) ٠

وفورا أصدر قائد قوات جلالته هـذا المنشـور : « كل من يعلم بوجود مؤامرة ضد نظام الحكم سواء نتج عن هذه المؤامرة فعل أولا وعلى كل شخص يعلم أن فردا من الأفراد مشتركون فى مؤامرة أو متهمون بأية جريمة موجهة ضد نظام الحكم أن يبلغ بلا أدنى تأخير الى أقرب سلطة سواء ملكية أو عسكرية كل المعلومات التى يكون حاصلا عليها ، وكل من لم يقم بالتبليغ عن ذلك مع

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٢٠٦ ٠

(٢) نفس المصدر ، ص ١٢٠٥ ٠

علمه به يعرض نفسه للمحاكمة بالطريقة العرفية ، وكذلك من يتستر على أشخاص مشتركين فى مؤامرة أو جريمة أو يساعدهم فى الهرب من يد القضاء » (١) .

وانتشر الرعب والفزع بين الناس من جراء حركة الاعتقالات الواسعه والقبض على الكثيرين ، وفتشت المنازل وفقدت السلطة العسكرية أعصابها وأسرعت تجيب السلطات الى طلباتها سواء كان بالنفى أو الاعتقال ، ولم يعد السلطان يشتبه فى المشكوك فيهم فقط بل أصبح يشتبه فى كل المصريين بعد أن شعر أنه محدق بالخطر وأن قوات الانجليز أصبحت عاجزة عن حمايته . وبدأ يتصور أن الشعب سيهاجم قصره كما فعل الفرنسيون مع لويس الرابع عشر .

وثبت أن الجانى استأجر المنزل بواسطة حلاق وسمى نفسه فى عقد الايجار محمود حلمى من التجارية بكفر الزيات وانه يحتاج لقضاء فصل الصيف فيه وسيرسل لاستحضار عائلته ودفع شهرين مقدما للايجار (٢) .

وظهر الخيط الذى يوصل الى قاذف القنبلة على السلطان ، فقد أرشد تلميذ فى مدرسة الجمعية الخيرية الاسلامية بالاسكندرية عن أستاذ له يدعى محمد نجيب الهلباوى رآه يوم الخميس السابق لليوم الذى ألقيت فيه القنبلة داخلا المنزل الذى ألقيت منه القنبلة ، وألقى الى أبيه بهذه الشهادة ـ ونظرا للمكافأة الكبيرة المعلن عنها ـ فأخبر على الفور البوليس بها ، وبناء على ذلك قبض على هذا الأستاذ وهو يبلغ من العمر خمسة وعشرين عاما ، ولما فتش منزله وجد فيه أوراق تدل على أنه من الحزب الوطنى ، وفتش منزل والده فى « أبا الوقف » التابعة لمركز مغاغة فوجد من بين أوراقه خطاب من ابنه اليه يقول له فيه ما حاصله انه انتهى من الامتحانات ويريد البقاء فى الاسكندرية ترويجا للنفس من عناء العمل ، وختم خطابه بقوله : « انى أرى المستقبل مظلما ومليئا بالأخطار ولا أدرى هل أكون من الأشقياء أم من السعداء ، من الأموات أم من الأحياء ، وانى أرسل بصورتى اليك فاحترس عليها أشد الاحتراس حتى أعود لأنها البقية الباقية وانى أجثو على ركبتى وأطلب منك الدعوات الصالحة » .

ولما رآه الحلاق الذى كان واسطته فى ايجار المنزل عرفه ، وقال انه حضر اليه وسأله عن المنزل المذكور فدل عليه ، وكان معه مفتاحه ، ووجد فى المنزل المذكور عند تفتيشه عقب سيجارة عليها اسم تاجر تبين أنه تاجر هذا الأستاذ

---

(١) Récueil des doc, relatif de la guerre, 17 Juillet, 1915.

(٢) الأهرام ١٠ سبتمبر ١٩١٥ .

وتبين من أقوال محمد نجيب الهلبـاوى والتاجر أن هـذا يبيع الى ذاك مزيجا خاصا من الدخان لا يبيعه لغيره (١) ٠

وفى بادىء الأمر حاول الهلباوى أن ينفى النهمة عن نفسه فذكر أنه بات ليلة ٩ ، ١٠ يوليو عند من يدعى « عبد الله حسن » فكذبه هـــذا فى ذلك . وبلغ الأمر بالاهتمام بهذه الحادثة للوقوف على الشركاء فيها لأنه كما هو ظاهر أن القاء قنبلة ليست الا نتيجة عمل أيد كبيرة وباشتراك أشخاص متعددين ، وكان رشدى يحضر التحقيق مع عدلى رغم أنهما ليس لهما سلطة التحقيق الا بواسطة الانتداب لا من تلقاء أنفسهم ، « وفى ذلك اسقاط من هيبة الحكومة وابتذال لها ، وأصبح رشدى يتردد بين الاسـكندرية والقاهرة باحثـا ومنقبا مشتغلا مع البوليس للقبض على الأفراد المشتركين مع الهلباوى » (٢) ٠

أثناء ذلك تقدم للتحقيق شاب يدعى « ابراهيم صالح » مرشدا عن أناس يؤلفون جمعية تسمى جمعية الرابطة الاسلامية ٠ فاستدعى ودخل قفص الاتهام كل من شـفيق منصـور المحامى ، وأحمد سابق وهو محام أيضـا والدكتور عبد الفتاح يوسـف ومحمد فريد موظف بالسـكك الحديدية وعبد الله عوض وعلى صادق ومحمد شمس الدين ومحمد نجيب الهلباوى ومحمود عنايت منطلبة الهندسة وكل من عبد الله حسن وعلى صادق وهما عاملان (٣) ، ووجهت اليهم تهمة محـاكاه هذه المؤامرة ، وقد تعرف الحـلاق على أحدهم وهو شـاب من تلامذة مدرسة التجارة يدعى محمد شمس الدين وقال انه هو الذى استأجر ذلك المنزل وكتب العقد بخطه ووافقه على هذا التعرف كل من صـبى الحلاق ومالك البيت وقد أثبت أن خط العقد خطه (٤) ٠

أما عن القنبلتين اللتين وجدتا فى المنزل الذى تمت فيه الجريمة والمطابقتين للقنبلة التى ألقيت على السلطان بعد أن عرضا على خبير المفرقعات وجد أنهما تحتويان على مواد شديدة الانفجار وقطرهما ٥½ بوصة ونقل الواحدة ٣ أرطال. أما عدم انفجار القنبلة فناشىء عن أن قليلا من نشـارة الخشـب حالت بين الكبسولة والمواد المفرقعة فانطفأت قبل أن يصل اللهيب الى المواد المفرقعة وقرر الخبير أن القنبلة لو انفجرت لكان لها تأثير خطر فى دائرة اتساعها عشرون يارده وكانت هذه القنبلة تكفى لقتل خمسين شخصا وهدم أكثر من منزل من المنازل التى وقعت فى جوارها لو انفجرت (٥) ، وكانت التعليمات قد صدرت للهلباوى

---

(١) سعد زغلول : السابق ، ١٧ يوليو ١٩١٥ ، صص ١٢٠٩ ، ١٢١٠

(٢) نفس المصدر ، ص ١٢١١ ٠

(٣) الأهرام ١٧ سبتمبر ١٩١٥ ، La Bourse Egy. 21 Sept. 1915.

(٤) سعد زغلول : السابق ، ١٠ أغسطس ١٩١٥ ، ص ص ١٢١٥ ، ١٢١٦ ٠

(٥) الأهرام ١١ يوليو ١٩١٥ ، ٩ مايو ١٩١٦ ٠

بأن يشعل شريط القنبلة من نار فحم بلدى الا أنه أشعلها بسيجارته التى اعتاد أن يشربها فلم تنفجر ٠

وأخيرا اتضح الأمر وأثبت أن هناك جمعية منظمة للانتقام من الخونة الذين باعوا الوطن للانجليز اذ يقول شفيق منصور فى اعترافاته بقضية مقتل السيرلى ستاك : « لما عدت من أوربا فى عام ١٩١٤ وجدت بعض أعضاء الجمعية قد انفصل عنها بسبب تعيينهم فى وظائف ولم أجد من أعضائها الا الدكتور محمد صالح الملاح والدكتور عبد الفتاح يوسف وانضممت اليهما وكونت جمعية انضم اليها خلاف الشخصين السابق ذكرهما كل من محمد فريد وأحمد سابق المحامى ومحمود عنايت وعبد الحليم البيلى وعبد الرحمن البيلى ومجد الدين حفنى ناصف ، وكان هناك فى ذاك الوقت جمعية رئسية من الحزب الوطنى فيها الدكتور اسماعيل صدقى ومصطفى الشوربجى وأحمد وجدى وعبد الرحمن الرافعى والدكتور عبد الغفار متولى وأخوه عبد المقصود متولى المحامى ومحمد فؤاد حمدى المحامى ٠٠ ونظرا لأنى كنت منتميا للحزب الوطنى اتصلت بهذه الجمعية أيضا ، وفاتنى أن أذكر محمود اسماعيل بأنه كان عضوا فى الجمعية الأولى وكان متصلا بمحمود عنايت ، ولما اتصلت بجمعية أعضاء الحزب الوطنى كانت جمعيتنا تابعة لها ، واعتبرت الجمعية المذكورة جمعية رئيسية وجمعيتنا فرع لها وفاتنى أن أذكر أيضا اسم محمد شمس الدين فقد كان عضوا فى الجمعية الفرعية وكان موجودا بالاسكندرية جمعية أخرى وهى تعتبر أيضا فرع للجمعية الرئيسية التى كان يرأسها فى ذلك الوقت الدكتور اسماعيل صدقى وهذه الجمعية أى جمعية الاسكندرية موجودة من سنة ١٩١٠ وهى فرع من جمعية التضامن الأهلية ، وكانت مكونة من يعقوب صبرى وهو ضابط بالمدارس الأميرية والحاج أحمد رمضان زيان التاجر ومحمد عوض جبريل المراسل بجريدة الاتحاد وسليمان حافظ المحامى وأحمد حسنى نور المحامى ومحمد حسين الفرارجى وعبد الله حسن عوض وعلى أفندى صادق ومحمد نجيب الهلباوى وعبد الرازق الحبشى التاجر ٠٠ وهذه هى الجمعية التى قامت بالقاء القنبلة على السلطان حسين ٠٠ وكانت النية القاء القنبلة بمصر بشارع عابدين واستأجرنا شقة فى الشارع نفسه على اليمين والذى استأجرها شخص اسمه عبد العزيز عمر ، فقد طلبنا من جماعة اسكندرية ارسال مندوب من قبلهم ليستأجر المنزل حتى لا تقع الشبهة على أحد من جمعيتنا ، والمبلغ دفع من اللجنة الرئيسية المكونة من بعض أعضاء الحزب الوطنى وعبد العزيز المذكور هذا نزل فى لوكاندة جوردون هاوس وكتب اسمه فى اللوكاندة مستعارا وكان لابسا برنيطة ونظارة سوداء أى بزى خواجه وتسمى باسم الخواجات فى اللوكاندة وفى عقد الشقة بعابدين ، ولا أعرف المدة التى أقامها فى اللوكاندة لطولها وعبد الرحمن البيلى يعرفه شخصيا وهو ومجد الدين حفنى ناصف وهو مهندس درس الهندسة فى انجلترا وبعد اتمام العقد اشترى شمس الدين بعض الموبيليا

ووضعها بالمنزل ولكن الجريمة لم ترتكب فى مصر ولم أذكر السـبب بالة
وربما يكون لعدم ملاءمة المنزل لارتكاب الحادث فيه أولا لأن السلطان •
قبل الميعاد المحدد وخابرت جمعية الاسكندرية لارسال مندوب من طرفها لنا
فى موضوع هذا الحادثة فأرسلوا لا أذكر اما عبد الله حسن عوض أو محب ع
جبريل لأنى لا أتذكر من منهما حضر . واتفقنا على القاء القنبلة على السـ
بالاسكندرية وأرسلنا من قبلنا محمد شـمس الدين ، وحضر القنبلة مع
عنايت من صوابع ديناميت ووضع فيها مسامير وربطها بالجلد وعمل لها كبس
بشريط » ثم يتابع أقواله : « وقد تطـوع شمس الدين أفنـدى الى السفر
الاسـكندرية لتأجير المنزل وتقابل هنـاك مع محمد عوض جبريل الذى •
بالهلباوى وهناك استلم الهلباوى مفتاح المنزل وزاره وأخذ عقد الايجار و
الى المنزل وقام بالحادث • أما شمس الدين فسافر الى مصر وقبض عليه
ذلك لما ذكرت صفاته من اعلان المكافأة » (١) •

أدخل الأشخاص المتهمون تحت الحـكم العسـكرى كبقية القضايا
لوقوع البلاد تحت الحكم العرفى ، وفى ٣٠ مايو ١٩١٦ صدر الحكم با
كل من الهلباوى ومحمد شمس الدين الا أن السلطان حسين بعث الى ح
رشدى فى ٢ يونيو ١٩١٦ يطلب منه التدخل لدى السلطات البريطانية لتخ
الحكم • ووافق القائد العـام على هذا الطلب وعدل حكم الاعدام الى الأش
الشاقة المؤبدة ، وبقى بعض من الذين قبض عليهم وهم د• عبد الفتاح يو
وأحمد سابق المحامى ومحمود عنايت وشفيق منصور فى سجن الحدرة ثم ء
أمر بنفى كل من شفيق منصور ومحمد عوض جبريل وأحمد سابق وعبد
حسنى وعلى صـادق ويعقوب صبرى وعبد الرحيـم سرور ومصـطفى ح
وعبده البرقوقى ومحمد كمال الى مالطه •

وبذلك ضمنت السلطة أنها أوقفت كل نشاط بالبلاد ، وأحكمت الحر
على السلطان أثناء ذهابه وايابه ، فقد حدث فى يوم ٢٥ أغسطس أن مر السلـ
فى وسط المدينة الى الرمل بالاسكندرية ، فلما وصل الى ميدان محمد على و
أحد الأشخاص على مسافة قصيرة من محل مروره ورفع يديه كمن يريد أن
بحركة ولم يكد يفعل كذلك حتى ألقى القبض عليه فى الحال وسيق الى ا
المنشية ومضى الموكب فى طريقه (٢) •

---

(١) محضر تحقيق النيابة مع شفيق منصور المحرر بتاريخ ٢٣ يولية ١٩٢٥ ، ص ص ٣
٥ ، ٦ ، ١٠ فى قضية مقتل السيرلى ستاك ، التقرير المقدم من شفيق منصور فى يوليو ٢٥
ص ٩ •

(٢) الأهرام ٢٦ سبتمبر ١٩١٥ •

على أثر ذلك أتسعت حركة الاعتقالات وامتلأت السجون بمئات الأفراد لمجرد الاتهام فقط ودون اثبات أى تهمة على من يعتقلونهم ، وكان الكثيرون يهربون ، لكن وزارة الداخلية كانت يقظة ، فهى تعلن فى النشرة الادارية للبحث عن الأشخاص عن مكافآت لمن يبلغ عن أشخاص أحست هى بخطورتهم منل من يدعى محمد فهمى حسين أبو صير وهو يوزباشى بمصلحة خفر السواحل بعد أن علمت أن لديه منشورات يوزعها ، وفريد فهمى الذى يحرض على الثورة ضد الحكام وقد ضبط مختفيا فى أحد الأديرة القبطية (١) ٠

لهذا الغرض أنشىء بأمن وزارة الداخلية مكتب خاص لمراقبة الأشخاص المشكوك والمشتبه فيهم وأصبحت قرارات هذا المكتب نافذة بعد تصديق مجلس الوزراء عليها (٢) ، ومحاضر البوليس مملوءة بأسماء الأشخاص الذين اعتقلوا وأدخلوا السجون لبواعث سياسية ممن لم ترض عنهم السلطة عقب حادثة السلطان الأخيرة ٠ ومعظمهم من محامين ونظار مدارس وطلبة من الطب البيطرى والمهندسخانة والحقوق والأزهر والمدرسة السعيدية ، كما كان من بينهم بعض العمال (٣) ٠

ونفذت الأحكام العسكرية فى الأقاليم ، وكانت مديرية الفيوم أولى المديريات التى شكل فيها مجلس عسكرى برئاسة مدير الاقليم للحكم على من يشتغلون بالسياسة ، وضبطت أوراق تختص بالسياسة فى منازل خمسة أشخاص وشكل لهم مجلس عسكرى عرفى تحت رئاسة مدير المديرية وبعضوية مفتش الداخلية وقومندان خفر المديرية لمحاكمتهم وحكم عليهم وصدق على هذا الحكم قائد القوات البريطانية ، وقد أمر مديرها باجتماع العمد والأعيان ومشايخ البلد وعموم المراقبين والمشبوهين ، ونصبت فى وسط الدائرة آلة لربط المحكوم عليهم وخطب فيهم بأن المحكوم عليهم لم يطيعوا الأوامر واشتغلوا بالسياسة ووجدت عندهم أوراق تثبت عليهم الاشتغال بها فحكم عليهم المجلس العسكرى ، ثم استرسل فى انذار الأشقياء وارهابهم ووعيدهم بالعقاب الصارم وبأن السلطة العسكرية قد خولته الحكم بالضرب بالرصاص (٤) ٠

وأمام هذا الضغط والارهاب اهتزت القيادة البريطانية واهتزت الحكومة واهتز السلطان ، فان المخابرات البريطانية الحربية حصلت على معلومات بأن هناك مؤامرة تدبر لاندلاع الثورة ضد الحماية وضد السلطان أعضاؤها بالمنصورة ، انها ستعلن الثورة ، ستحطم الكبارى ، ستقطع السكك

---

(١) الأخبار ٧ أغسطس ١٩١٥ ٠

(٢) La Réforme, 26 Août, 1915.

(٣) Egyptian Gvt. Cairo City Police, No. 95, July 3, 1915, p. 450, No. 88, August 11, 1915, p. 366.

(٤) الحرية ١٤ يوليو ١٩١٥ ٠

الحديدية ، ستسهل دخول الجيش العثمانى فى هجومه الثانى على مصر ، ان المخابرات البريطانية دست اثنين من ضباطها على المتآمرين تظاهرا بأنهما من الضباط الألمان وحضرا الاجتماعات ، وبذلك استطاعا أن يعرفا نفاصيل المؤامرة اذن فلم نعد المسألة مسألة قتل السلطان الذى قبل الحماية انما أصبحت أكبر من هذا وأخطر انها أصبحت تمس مستقبل الحرب ومستقبل الجيوش البريطانية فى مصر لأنه بنجاحها يدخل الجيش العثمانى الألمانى مصر ويقضى على الانجليز فبها ونسقط كفة الحلفاء .

ومذكرات سعد زغلول تعطى الأضواء على هذه الحادثة « قال لنا رشدى ان الحكومة دست ضابطين ، انجليزى وروسى بين الأسرى الأتراك فى مصر وأوهم الضابطان الأسرى الأتراك بأنهما ألمانيان ، ولكن قصدهما أن يثبتا للحكومة أنهما روسيان حتى تحسن الحكومة معاملتهما وتخلى سبيلهما ، وقال الضابطان للأسرى الأتراك انهما توصلا الى هذا الاثبات وان الحكومة اقتنعت بروسيتهما ، وقال رشدى باشا ان الحكومة البريطانية اتفقت هنا على ذلك ، فهذان الضابطان زارا بعض أسرى الأتراك الذين هم من أصل مصرى ولهم أقارب ومعارف بالمنصورة وأخذا يوصلان رسائل بين الفريقين . ويتضح من هذه المراسلة أن جماعة من المنصورة عقدوا النية على أن يساعدوا الأتراك عند دخولهم مصر باحداث الشغب فيها بأن يتوجه منهم جماعة الى كل مديرية ليبثوا الهياج فيها ويكسروا الكبارى ويقطعوا طرق المواصلات ، فانهم مستعدون للقيام بهذه الأعمال متى حضرت اليهم الأسلحة التى كانوا يعبرون عنها بأنها كتب فى رسائلهم وكانوا قد صمموا على أن يعقدوا اجتماعا هائلا فى الاسكندرية يضم اليهم كل المتآمرين أو أغلبهم ليقروا الخطة التى يجرون عليها فى تنفيذ قصدهم، ولكن بوليس المنصورة الذى لم يكن له علم بصفة هذين الضابطين الرسميين ارتاب فى حركاتهما الظاهرية وألقى القبض على أحدهما وترتب على ذلك أن امتنع هذا الاجتماع وقد قال الضابطان انهما على علم من جماعة المنصورة أن وراءهم اناس من الأعيان الكبار وذكروا لهما اسم عبد اللطيف المكباتى بك وغيره من الأعيان .. وكان رشدى يلقى هذه العبارة وهو يبدى السرور من تعرف الحكومة عليهم ويعجب بنشاط بوليس الدقهلية لتسرعه فى القبض على أحد الضابطين وببوليس مصر لأنه لم يخبر ادارة المنصورة بمهمة هؤلاء الجواسيس » (*) .

وازداد غضب المصريين من اتساع حركة الاعتقالات فيقول سعد : « رأيت الناس ساخطين على الحكومة ازاء خطة الازعاج والارهاب التى سلكتها أخيرا وقيل لى انها ألقت القبض على كثيرين ، ويظهر لى أن كل واحد ظن أنه ان لم يقبض عليه فعلا فلابد أن يقبض عليه بعد ذلك . وهكذا اضطربت القلوب

(*) سعد زغلول : السابق ، ١٠ اغسطس ١٩١٥ ، ص ص ١٢١٧ ، ١٢١٨ .

وانكسرت النفوس أيما اضطراب وأيما انكسار ، وقد لمت رشدى على ما أبدى من الشدة فى القبض على الناس ، اذ كان يؤيد القبض على تلامذة الحقوق الذين سبق الحكم بالطرد عليهم من مدرسة الحقوق ورجال الحزب الوطنى بقوله انه يلزم ابعادهم احتراسا من شرهم » ٠ (١)

وكان من بين المقبوض عليهم عبد اللطيف المكباتى الذى حاول سعد أن يبرئه بحكم الزمالة فى الجمعية التشريعية ، فرجا سعد المستشار محمد صدقى أن يكلم رشــدى فى الاسراع بانهاء مسألة عبــد اللطيف المكباتى ومحرم رستم المقبوض عليهما ان لم يكن هنــاك ما يوجب ادانتهما ولكن رشــدى أجاب أن المسألة أصبحت فى يد النيابة ولا عمل له فيها ، وأحدث طلب سعد مضايقة السلطان (٢) ٠

وخرجت المحاولة الثالثة للاغتيال فى فترة الحرب ولكنها لم تكن للسلطان هذه المرة بل كانت لأحد الوزراء الخائنين الذين قبلوا الوزارة فى ظل الحماية هذا من ناحية ، ولتملقهم للانجليز سواء فى تصريحاتهم أم فى مصاحبتهم لهم فى غدواتهم وروحاتهم من ناحيــة أخرى ٠ وكانت العين على ثلاثة وزراء هما حسين رشدى رئيس وزراء الحماية الذى لعب دورا خطيرا فى سياسة البــلاد ابان هذه الفترة والذى صدق على اضطهاد الناس ، وعبد الخالق ثروت وزير الحقانية ثم ابراهيم فتحى وزير الأوقاف اذ اعتبر كل من رشدى وثروت وفتحى أضروا بالبلد وأوقعوها فى التهلكة ٠

وفى يوم ٤ سبتمبر ١٩١٥ امتلأت محطة مصر بالبوليس العلنى والبوليس السرى لسفر الوزير ابراهيم فتحى فى قطار الصعيد الى مديريات الوجه القبلى للتفتيش على مأموريات الأوقاف وفى الساعة الرابعة والنصف جاء محطة مصر واجتازها الى رصيف الوجــه القبلى على أن يبرحها باكسبريس الساعة الثامنة واتفق أنه نظر بقرب (الديوان) المعدله خصيصا فى ذلك الاكسبريس جماعة من معارفه الأولين فى الجيش المصرى ومن جملتهم الميرلاى محمد شفيق بك والصاغ جلال منير وغيرهما فسلم عليهم ووقف معهم يحادثهم ، ولم يكن الا خمس دقائق أو ثمان حتى اقتحم شاب أسمر طويل القامة الحراسة الضخمة ، وماسك بيده اليمنى جريدتى وادى النيل والأفكار وفى طياتهما ســكين ذات حدين طولها نحو ٣٠ سم كتب على يدها (هذا جزاء الخائنين) وانقض فى لمح البصر على الوزير وطعنه ثلاث طعنات الأولى فى كتفه اليسرى والثانية فى خده الأيسر والثالثة فى خده الأيمن ، وعند الطعنة الأولى مد الوزير يده الى جيبه من الخلف وأخرج مسدسا ورمى به الجانى برصاصة منه فأخطأته ولم تصبه

---

(١) نفس المصدر ، ص ص ١٢٢٠ ـ ١٢٢٦ ٠

(٢) نفس المصدر ، ص ١٢٢٣ ٠

أحدا وسقط الوزير على الأرض مضرجا فى دمه ، ثم جرى الشاب نحو قطار الاسكندرية ولكن الباشجاويش عبد العليم على الملحق ببوليس محطة مصر سمع صياح الراكضين خلفه فأمسكه وأسرع الصول سليمان الملحق بالبوليس القضائى فى قسم مصر فعاونه على ذلك وكانت السكين باقية فى يمين الجانى ، وقد مسح الدم على الصفحة الأخرى وكان يصيح ويقول لهم : اتركونى ان القطار القادم من الاسكندرية عليه رئيس الوزراء ووزير الحقانية وأريد أن أقتلهما أولا ثم بعد ذلك امسكونى ٠

نقل الجانى الى قسم الأزبكية تحت حراسة مشددة من الجنود مكبلا بالحديد واعترف أثناء وجوده فى مكتب البوليس القضائى بالمحطة بارتكابه الحادث متعمدا قتل الوزير وأنه كان مصمما على أن ينبعه ويقتله فى الطريق اذا لم يتمكن من قتله فى المحطة ، وأنه ابتاع تذكرة فى الدرجة الثالثة لهذا الغرض وأعد مع السكين مسدسا من طراز براوننج به ست رصاصات ، ووجد هذا المسدس فى جيبه محشوا بالرصاصات الست ووجدت معه ستة أخرى ، وقال ان رصاصة منها مخصصة للسلطان ورصاصة لرئيس الوزراء ورصاصة لنائب الملك وثلاث رصاصات للوزراء الخونة ٠

وفى قسم الأزبكية قال الشاب بهدوء عجيب : اسمى صالح عبد اللطيف موظف بوزارة المالية وعمرى خمس وثلاثون سنة ، أقطن فى حارة جمعة الشيخ بشارع محمد على ٠٠ نعم أردت قتل وزير الأوقاف ٠٠ ان البقية تأتى ٠٠ سيكون الموت مصير السلطان الخائن ورئيس الوزراء المجرم وجميع الوزراء الذين يحكمون مصر فى ظل الحماية البريطانية (*) ٠

وتولى عبد الخالق ثروت وزير الحقانية التحقيق بنفسه وحضر التحقيق حسين رشدى ومحمود شكرى رئيس الديوان السلطانى ورونالد جراهام المستشار الداخلى وعدلى يكن وزير المعارف وجعفر والى محافظ مصر وهارفى باشا وجورج فليبدس ٠

أصر الجانى على أقواله وزاد عليها بأنه علم أن الوزير المجنى عليه يحضر عادة من الاسكندرية فى صباح السبت من كل أسبوع وانتظره فى محطة مصر فى ذلك الميعاد لينفذ فيه فكرته فلم يتيسر له ذلك طوال النهار مترقبا حركاته الى أن علم أنه مسافر الى بنى سويف باكسبريس المساء فتبعه الى محطة مصر وجرى له معه ما جرى ، وأثناء التحقيق قال المتهم لعبد الخالق ثروت أنه لابد من قتلك ، وأنك لن تتم هذا التحقيق قبل أن تقتل ، وقال له اننا نعلم أنك ستقضى الليلة فى مصر ، ولم يرد أن يدلى على مصدر علمه ، وقال انه لا يجيبه

(*) الأهرام ٥ سبتمبر ١٩١٥ ٠

على مثل هذا السؤال • وقال ان رشدى استحق القتل للقبض على الناس واعانته للسلطان حسين الخائن وقوله اننا سنضرب الأمة فى شبابها •

وفى ٢٧ سبتمبر ١٩١٥ حولت أوراقه الى المجلس العسكرى البريطانى ، وألفت المحكمة العسكرية من رئيس وأربعة أعضاء ومستشار ومدع عمومى ، وكان يدافع عن المتهم مستر باروت • وكان المتهم تحيط به طائفة من الجند شاهرى السلاح ، وكان يحافظ على النظام بعض الجند من داخل القاعة بقيادة الضباط وتولى الحكمدار ومعه بعض مأمورى الأقسام ضبط النظام ، وأوقف بلوك من الخفر لمنع الزحام (*) •

اتهمته المحكمة بتهمتين أولا تعمد قتل ابراهيم فتحى وزير الأوقاف ، ثانيا التصميم على قتل حسين رشدى وعبد الخالق ثروت ، « وقد سئل فى المحضر عن الوقت الذى فكر فيه لقتل ابراهيم فتحى ، فكان رده : من زمان وكل الناس تعرف مبادئى » ثم سئل ومتى فكرت فى القتل ؟ فقال : « بعد القبض على كثيرين من أعيان القطر وشبابه ومعرفتى بالمكيدة التى دبرها لهم أعداؤهم » فسئل ومتى عرفت ذلك ؟ « منذ خمسة وعشرين يوما فكرت فى القتل ولكنى صممت على قتل فتحى أولا » وأخيرا سئل عن معرفته عن حركات الباشا وكان رده : « أنا أعرف دائما أنه يجىء يوم السبت بعد صلاة يوم الجمعة فى الاسكندرية فذهبت الى المحطة ووقفت فى ميدان باب الحديد فحضر بمركبته امامى وكان وحده ولكنى تركته لأنى لم أجد الفرصة المناسبة ، ولو تمكنت من قتله فى بنى سويف لكنت بت فيها وسافرت الى الاسكندرية فى اليوم التالى ، وقد ذهبت الى المحطة ورأيت حسين رشدى ولكن الفرصة لم تكن مناسبة » •

ثم قال أيضا فى المحضر ان من حسن حظ ثروت باشا أنه قبض عليه • وفى كلامه أمام المجلس العسكرى يقول : « كنت أرمى أن أكون نافعا لبلادى ، فقد وجدت حركة كبيرة فى القبض على الناس والحجز على آخرين وسمعت الناس يهمسون أن فلانا باشا وفلانا بك قبض عليهم • وسمعت أن كثيرين من الشبان الذين قبض عليهم بسبب الحادثة الأخيرة ـ قنبلة رأس التين ـ فقراء وعائلاتهم فى حاجة اليهم ، ولما سألت عن الأسباب وجدت أنها مكيدة دبرت بواسطة ابراهيم فتحى وشخص آخر لا أخلاق له ـ ابراهيم صالح ـ وهذا الشخص كان تلميذا فى الأستانة ورفت لسوء أخلاقه ، فلما كان سائرا فى الأزبكية عثر به ابراهيم فتحى باشا وكان قد عرفه فى الآستانه فسأله هل تعرف من المسلمين من يهتم بالحالة فى مصر ، ولما كان الولد طامعا فى المكافأة بشرط أن يؤمنه على حياته فأعطاه ساعة وكتينة من الذهب عربونا لذلك ،

(*) نفس المصدر ٢٨ سبتمبر ١٩١٥ •

والخلاصة أن فتحى كان ساعيا بضرر البلد ، وهو يشغل مركزاً كبيرا يمكنه من أن يضر البـلد » ، وأثناء ذلك كان ينظر الى رشدى ويقول له : « ان مكنش النهارده فتأكد أن دورك جاى بكره » كذلك قال « ان كل الوزراء خونه ويجب اعدامهم اننى عندما طعنت ابراهيم فتحى جريت لأقتل رشدى باشا السافل وعبد الخالق ثروت الخائن وأقتل أيضا مكماهون نائب الملك » • (١)

ويؤكد شفيق منصور فى تقريره أن السبب فى بدايـة اغتيال الوزراء بابراهيم فتحى « هو أن صالح ابراهيم الذى بلغ عنا كان له صـلة به ، وأن فتحى باشا هو الذى شجعه على التبليغ ضدنا لذا أراد فرع من فروع الجمعية فى ذلك الوقت أن يقوم بالانتقام من فتحى باشا لهذا العمل ، فتطوع صالح أفنـدى عبد اللطيف الذى كان صرفا فى المالية بالقيـام بذلك فأخذ سـكينا وذهب الى محطة مصر ومعه أيضا مسدس ولكنه استعمل السكين ولم يتمكن من الوصول الى غرضه » • (٢)

ويتبين من هذا أن صالح عبد اللطيف من أتباع الحزب الوطنى أراد أن ينتقم ممن أوقعوا بالحركة الوطنية هذا بالاضافة الى أن ابراهيم فتحى كان متقربا من رجال الحماية اذ يقول سـعد عقب رفض لندن سحب الوزارة منه « حدث فى أثناء هذه المدة أن وصل جواب لوندرة عن التغيير الوزارى وخلاصة ما فهمت من عدلى ورشدى أن الحكومة الانجليزية لا ترى محلا للتغيير فى الوزارة ولا فى السـياسـة أثنـاء الحرب ، وأن فتحى حايز لثقة مكماهون وكتشنر » • (٣)

قابل كل من رشدى وعدلى المتهم فى السجن وكان الغرض من ذلك امكان اغرائه لمعرفة من يكون له من الشركاء من الغير فربما يبوح بشىء فأبى كل الاباء رغم ما بذلوه من الوعود الخلابة له •

وأخيرا وفى ٣٠ سبتمبر ١٩١٥ حكم المجلس العسكرى البريطانى على صالح عبد اللطيف بالاعدام شنقا ونفذ الحكم فى ٤ أكتوبر ١٩١٥ ، وقد تملكه الذهول وقت انفاذ الحكم فحيا المجتمعين حوله بصوت خافت قائلا (السـلام عليكم) ورجا هارفى باشا والحبل مشدود على عنقه أن يسلم صورته الى أخيه لتكون تذكرة ، وبعد انفاذ الحكم شرحت جثته وسلمت الى أهله على أن يدفن بدون احتفال (٤) ، لقـد خافوا من أن يودعه الناس بمظـاهرة واحتجاج على اعدام وطنى ضحى بنفسه فى سبيل مصر •

(١) الأهرام ٢٨ سبتمبر ١٩١٥ ، سعد زغلول : السابق ، ٥ سبتمبر ١٩١٥ ، ص ١٢٣٣ •
(٢) التقرير المقدم من شفيق منصور ، ١٨ يونيو ١٩٢٥ ، ص ١٤ •
(٣) سعد زغلول : السابق ، كراسة ٢٨ ، ١٧ ، ١٨ ديسمبر ١٩١٧ ، ص ١٥٠٨ •
(٤) الأهرام ٤ أكتوبر ١٩١٥ •

والقانون المصرى فى هذه القضية لا يحكم على المتهم بالاعدام الذى يحكم به القانون الانجليزى ولكن هنا اعتبرت البلاد تحت الحكم العسكرى فيجب أن تحاكم وفقا للقانون الانجليزى ، وعلل رشدى اقدام هؤلاء الشباب على هـذه الحركات لأن عقولهم وألبابهم خبلت بهوى الألمان والأتراك وأبان أن الألمان اذا انتصروا فلن يسلموا مصر لأبنائها (١) ، هكذا عللها رشدى ٠٠ أنه لم يعللها بتصرفاته التى غالى فيها ، ولا بتلك الاجراءات التى فرضها الانجليز على شعب مصر ٠

استمرارية سياسية العنف :

على أثر هـذه الحـادثة مضى الانجليز والسـلطان والوزراء فى التمسك بسياسة الشـدة والعنف والارهاب والتعسـف بل لقد زادوا فيها لدرجة أنهم مضوا يفتشون البيوت جميعها ، ففتش بيت كامل البنداراى المحامى وقبض عليه وزج به فى السـجن لأنه تكلم فى حق السـلطان وهزأ من الانجليز فى المحكمة التى حاكمت صالح عبد اللطيف (٢) ، وساروا يقبضـون على الأبرياء ويطاردون الوطنيين متصورين أن الارهاب قادر على أن يقضى على حركة المقاومة بين المصريين ، حتى لقد سلكت الحكومة مسلك المستخف كل الاستخفاف بأمن الناس وبحريتهم الشخصية وسوء الظن فيهم ، فألقت القبض على كثير من منهم لأقل شبهة ، وأزعجت عائلاتهم ازعاجا شديدا ، واغفال الكثير منهم عن تهمته الا بعد أن يمضى الكثير من الوقت فى السـجون وبعضهم لم يوجه المحقق لهم سؤالا بتهمة معينة ، ثم اطالة السجن عليهم قبل سؤالهم ، وقد منعت الصحف من نشر أخبار القبض عليهم والافراج عنهم ، وتركت بذلك سـبيلا واسـعا للشائعات تدار على الألسنة ، وتم القبض على السبعة عشر تلميذا الذين سبق الحكم عليهم بالطرد من مدرسة الحقوق ، فقد كانوا معقدين من الطلبة ومن اتباع الحزب الوطنى لذا انصب كل الاهتمام عليهم ، فساء وقع ذلك عند النـاس ، يقول سعد : « وقد رجوت رشدى ألا يفعل ذلك فلم يرد الاصغاء ثم رجوته بعد ذلك فى واحد منهم وهو اسماعيل صبرى أخو امرأة مصطفى الباجورى فوعدنى خيرا بأنه سيفرج عن جميعهم عند قرب افتتاح المدارس فقلت له اذا لم يكن عليهم شىء فالأولى الافراج عنهم ٠ ورجوته فى شخص يدعى حسين أفندى فهمى بهجت فقد كان من الذين سعوا فى انتخابى لقسم السيدة زينب فقال رشدى باشا ان هذا الشاب اتهم أولا بأنه وشخص آخر عندهما منشورات محرضة على الثورة » (٣) ٠

(١) الحرية ٢١ سبتمبر ١٩١٥ ٠

(٢) سعد زغلول : السابق ، كراسة ٢٤ ، ١١ سبتمبر ١٩١٥ ، ص ص ١٢٤٥ ، ١٢٥٨ ٠

(٣) نفس المصدر ، ٥ سبتمبر ١٩١٥ ، ص ص ١٢٣٧ ــ ١٢٤٠ ٠

وكان من رأى مكماهون أن يعتقل مع كل مشبوه المخالطين له من الأقارب والأصدقاء وبأن هذه الطريقة نجحت فى الهند نجاحا كبيرا ، ولكن رشدى عده ظلما فهو راض على اعتقال المشبوه فيهم فقط ، فتلك هى العدالة ، فراح يشدد على الطلبة ويلقى القبض عليهم بدون أدنى سبب ، اذ يقول مدير المنوفية انه جاءه أمر بتفتيش تلميـذ والقبض عليه مع العلم أنه كان من أكرم التلامذة خلقا ، فكان يكفى جـدا أن يكـون الاتهام لكون الشـخص المقبوض عليه تلميذا • (١)

وفى حقيقة الأمر كان الطلبـة ثائرين على الحكـام والانجليز ومؤيدين لحركات الاغتيال ، فقد عثر على خطاب من طالب أرسله عقب محاولات القتل يطعن فيه على الحكومة أقبح طعن ويرى أنه لابد من اراقة الدماء وتوالى مثل هذه الحوادث • (٢)

وخرج الى التنفيذ رأى مكماهون فكان يعتقل الأب وأبناءه كلهم اذ يقول سعد : « لقد حضرت حرم خليل شاهين باكية تستغيث بى لأنهم اعتقلوا زوجها وأولادها الأربعة ، وأنهم لا يعلمون سببا لسجنه وأنهم لم يجدوا عند تفتيشه شيئا سوى صورة للخديوى السابق وكتاب لمصطفى كامل » (٣) ، فعلى الفور اتهمت العائلة بأنها من اتباع الحزب الوطنى الذى اعتبروه المسئول عن حركة عدم الرضا والاغتيالات لتسميمه لأفكار الناس •

وكانت السراى التى يعيش فيها السلطان دائما وأبدا معرضة للتفتيش والتغيير فى الخدم ، فهم ينفوا البعض ويعينوا الآخر ثم تدور الدائرة لأنهم خافوا أن يأتى الخدم بعمل ضد السلطان بأن يوضع له السـم فى الأكل أو يطلقون عليه رصاصة ، أو غير ذلك مما يهدد حياته بعد أن رأوا تحفز الشعب واستعداده لانتهاز أية فرصة لينكل فيها بالحاكم ، وازداد عدد المسجونين لدرجة أن قائد البوليس المصرى يرسل الى الداخلية يقول : « ان سجن طره الخاص للمعتقلين السياسيين أصبح كامل العدد وسـجن الاسـكندرية أرسـل اليوم مسجونين سياسيين كثيرى العدد لاعتقالهم هنا ، وأنه لا يوجد مكان لهم وأنا أطالب بتعليمات تعطى لبوليس الاسكندرية والقنال والمديريات بأن يكفوا عن ارسال مثل هؤلاء المسجونين والا فاعملوا على بناء سجن آخر كسجن طره » (٤)

وازاء هذا بدأ التفتيش العام للسجون ببناء سجون جديدة فى المديريات وبدأها فى المنصورة لأجل هذا الغرض ، وتوسعت حركة الاعتقالات ، ففى ٢٠ نوفمبر ١٩١٥ قبض على أعداد كبيرة من العمال لخوضهم فى المسـائل

---

(١) الحكومة المصرية : التماسات محفوظة ، ٣٠ يونيو ١٩١٦ •

(٢) سعد زغلول : السابق ، ١٣ ، ١٦ ، ١٩ سبتمبر ١٩١٥ ، ص ص ١٢٥٤ ، ١٢٥٧ ، ١٢٦٤ •

(٣) نفس المصدر ، كراسة ٢٦ ، ٥ أكتوبر ١٩١٥ ، ص ص ١٣٦٥ ، ١٣٦٦ •

(٤) Egyptian Gvt. Cairo city Police, No. 129, Oct. 18, 1915, p. 96.

السياسية ، وبلغ الأمر أن دائرة البوليس فى الاسكندرية ارتأت أن تقسم البوليس الى قسمين قسم لمراقبة الحوادث الجنائية وقسم لمراقبة الحوادث السياسية (١) ٠

واستعمل التعذيب مع المتهمين الذين تكون الادانة توفرت ضدهم سواء عن اعترافهم أو كتاباتهم أو ضبط ما يشير الى ثوريتهم ، وكانت الطريقة لحمل المتهمين على الاقرار بمن يكون اشترك فى الجريمة معهم هى العمل على ما يضعف الارادة فيهم من الاكثار من سؤالهم والاطالة فى التحقيق معهم ومضايقتهم بنقلهم من مكان الى مكان (٢) ٠

وكثرت شكوى المعتقلين بعد أن أثبت أنهم أبرياء فمثلا لمجرد القبض على شخص وتفتيشه ولوجود بطاقة زيارة فى جيبه باسم شخص آخر ، فالبوليس على الفور يستقصى عن الأخير ويعتقله ويبقى فى السجن الى مالا نهاية رغم أن المتهم الأول الذى كان يحمل البطاقة قد أفرج عنه ورغم أن الأخير كان يكثر من شكواه ويرسل مظالمه الى السلطان ومن يهمهم الأمر يبين فيها أنه العائل الوحيد لأسرته (٣) ، الا أنه يبقى فى السجن دون أن يسمع اليه أحد ٠

وساءت حالة المعتقلين فى السجون بانتشار الأمراض بينهم واهمال معالجتهم ، وعذبوا بوضعهم فى خيام على البلاط ويقول سعد بصدد هذا : « أمس حضرت عندى حرم باجور بك وأخبرتنى بأن أخاها المسجون بمرض حمى الملاريا أبوا أن ينقلوه الى احدى المستشفيات أو أن يمكنوا أخاه الحكيم الدكتور صالح من مداواته ، وقد أخبرنى أحد الحكماء بأن بين المسجونين من يدعى الشوربجى الأفوكاتو بطنطا كان عنده مرض وكان يعالج منه ثم دخل السجن فأوقف العلاج » ٠ (٤)

هذابالاضافة الى فرض الرقابة الصارمة على المعتقلين داخل السجون ، فقد كتب محمود طاهر العربى بالمعتقل أثناء الحرب يصف الحالة : « فى ليلة الأربعاء ٣٠ أبريل ١٩١٨ فتحت الأودة فجأة الساعة العاشرة مساء ، وأخذنى ثلاثة من السجانين الأشداء وألقونى فى زنزانة فى عنبر التأديب بغير فرش ولا غطاء وطوال الليلة وأنا راقد على الأسفلت ، وفى صباح اليوم الثانى حضر الى السجن سعادة وكيل التفتيش ومعه كاتب خاص واستدعانى وفتح محضرا

---

(١) Ibid, Nov. 20, 1915, p. 239. ، الأهرام ٢٩ ديسمبر ١٩١٥ ٠
La Bourse Egy. 10 Août, 1916.

(٢) سعد زغلول : السابق ، ٢٧ سبتمبر ١٩١٥ ، ص ١٣٥٨ ٠

(٣) الديوان العالى السلطانى : المحفوظات العربية للوارد الرسمى وغير الرسمى ، ٢٤ يوليو سنة ١٩١٦ ٠

(٤) سعد زغلول : السابق ، كراسة ٢٤ ، ١١ سبتمبر ١٩١٥ ، ص ص ١٢٤٦ ، ١٢٤٧ ٠

اتهمنى بأنى وضابط تركى أسير وثالث من طلبة الأزهر نحرض المسجونين على بغض الانجليز ، وأن الأزهرى يتنبأ للمسجونين بأن ألمانيا ستكون الغالبة وأنه فى ذلك تحريض على قلب نظام السجن وتسميم لعقـــول البسطاء من المجرمين الحشاشين الذين هم كالبارود لا ينقصه الا النار لينفجر ، قلت لا حول ولا قوة الا بالله ، واستمر العقاب خمسا وعشرين يوما فى عنبر التأديب لم أر فيها وجه الشمس ولم أحرك قدمى خارج الزنزانة » (١) • من هذا نرى أن الرقابة وصلت الى داخل السجن حتى لا يقوم السجناء بثورة ضد الظلم والاضطهاد وتتحول مثلا الى ضرب الحراس وتحطيم النوافذ والخروج والانتقام من الخونة •

وفقد الانجليز الثقة حتى من المقربين اليهم من المصريين أمثال سعـــد زغلول الذى كان على صلة برجال الحماية وخاصة مكماهون والذى سعى لتولى الوزارة ، وكان فى الوقت نفسه على علاقة طيبة سواء بالسلطان حسين أو فؤاد خاصة بعد أن وقعت العين عليه فى بداية الحرب عندما أرسل اليـــه الخديوى عباس برقية بمناسبة وفاة حماه مصطفى باشا فهمى ، فأثيرت ضجة حولها فآخرها يترجم ب « وأنك لمحتاج فى مثل هذه الأوقات العصيبة الى حفظ كل همتك لتخدم بها أميرك وبلادك زمنا طويلا » (٢) • ونشرت هذه البرقية فى الصحف فكانت موضعا للتعليق فالعامة يذهبون على أن هذا اعتراف بفضل سعد ورضا عنه ونشجيع لخطته ، أما الخاصة فيذهبون مذاهب ويختلفون فى تعليقهم • ففى رأى البعض دليل على أن الخديوى ممنوع من الحضور الى بلاده وأنه فى ضيق ولذلك يريد من سعد أن يستمر فى خطته ضد الحكومة لينتقم بذلك لنفسه ، ورأى آخرون أن الخديوى أخذ تحت جناحه ضرب المعارضـــة التى كان سعد زعيمها فى دور انعقاد الجمعية التشريعية ، وتضايق شيتهام من هذه البرقية واعتبرها ليس فقط تشجيعا على معارضة الســـياسة الحالية ولكنها تحرص فى حد ذاته (٣) ، وقد كان كتشنر يتهم سعدا بأن له ميولا ألمانية ويستدل على ذلك بأنه زار ألمانيا عدة مرات لدرجة أنه أحضر معه وصيفة ألمانية « فريدا كابس » وكان كتشنر فى ذلك الوقت الحاكم بأمره فى انجلترا ، ولا يبت فى مصر أمرا الا برأيه وباستئذانه ، وهو يعتبر سعدا خطرا ويراه عدوا مستترا لبريطانيا ومتآمرا ضد الاحتلال ، وصدرت من كتشنر الأوامر بتعقب سعد فى القاهرة ومسجد وصيف والاسكندرية وكلما اقترحت وكالة الحماية بالقـــاهرة تعيينه وزيرا ووافق نائب الملك والسلطان لكن كتشنر يرفض •

---

(١) محمود طاهر العربى : المرجع السابق ، ص ص ٣٢١ ، ٣٢٢ •

(٢) فخرى عبد النور : السابق ، الفصل الاول ، ص ٨ •

(٣) St. Antony's Papers : op. cit., p. 142.

كان سعد حريصا طول فترة الحرب على حسن هذه العلاقة لخوفه من الاعتقال أو النفى كما حدث مع أعيان البــلاد ، فأكثر من الزيـــارات لهم والاجتماعات بهم لينفى عن نفسه أى شبهة أو تهمة أو شك لكن هذا لم يمنع أنه كان ساخطا على تصرفات السلطة والوزراء والأوضاع الموجودة فى مصر ، فقد عاش فى مشكلة طلبة الحقوق وطلب التخفيف عنهم ، وكان على صلــة بأمين الرافعى وطلب التخفيف عنه وبأعضــاء الجمعيـــة التشريعيــة أمثال عبد اللطيف المكباتى الذى توسط له لدى رشدى وكذلك رجاه فى على فهمى وصالح صقر وإسماعيل صبرى وبعض طلبة المهندسخانة ، وكان رشدى بدوره يبلغ السلطان طلبات سعد الذى كان يطلب مقابلته وقلما يقتنـــع بأسباب الشفاعة (١) ٠ من هذا نرى أن سعدا استطاع أن يضرب عصفورين بحجر واحد فيظهر أمام الوطنين أنه معهم ويتوسط للافراج عنهم فى الوقت الذى يوطد علاقاته مع المسئولين لينال وظيفة وزير أو حتى محافظ ٠ اذ يقول : ومن ضمن ما قلته لهنس ــ مستشار الداخلية ــ أن أتعين محافظا للاسكندرية وأتعهد أن لا أفعل شيئا سوى مباشرة أمور زراعتى فقال ومن يضمن أن تفى بذلك العهــد » (٢) ٠

وحدث أن سمع سعد أن السلطان حسين يطــلق عليه اسم « شيخ العصبة » فانزعج لهذه التسمية واحتج كيف يطلق عليه السلطان هذا اللقب وخشى أن يبلغ ذلك الانجليز اذ يقول : « عدت الآن من زيارة السلطان فى عابدين حيث جلست بحضرته من الساعة الثانية الى الساعة الثالثة والنصف وقد دار الكلام فى موضوعات شتى أهمها أنه اعتذر عن تسميتى بشيخ العصبة بأن هذه التسمية مزح ومباسطة » (٣) ٠

ورغم ذلك فقد كانت العين على سعد زغلول ، وفجأة تلقى مدير الأمن العام بلاغا بأن سعد زغلول يدبر مؤامرة لقتل حسين رشدى يقول هو بصدد هذه التهمة : « علمت من بعض الصحف أن رشدى حضر أمس الى العاصمة فأردت الاستفهام منه عما فعل مع السلطان فى خصوص ما وعد به من تلطيف خاطره ، فتكلمت معه بالتليفون رغبة فى مقابلته فقال انه سيحضر عندى ما بين الساعة الثالثة والرابعة وأن انتظره فى هذا الميدان ، ثم قال انه كان يريد أن يتكلم معى لأن بلاغا ورد اليه بأنى أتآمر على قتله مع آخرين » (٤) ٠ وهذه التهمة لم تثبت عليه لكن كونه وضع فى اطار الاتهام وحامت حولــه البلاغات والاتهامات أقلقه للغاية ، وما كاد يسعى فى النفى عن هذا البلاغ حتى يفاجأ باتهام آخر ٠

(١،٢،٣،٤) سعد زغلول : السابق ، كراسة ٢٦ ، ٢٥ سبتمبر ١٩١٥ ، ص ١٣٥١ ، كراسة ٢٨ ، ٢٦ ديسمبر ١٩١٧ ، ص ١٥١٩ ، كراسة ٢٥ ، ٢٠ ابريل ١٩١٥ ، ص ١٣٤٢ ، كراسة ٢٦ ، ٧ أكتوبر ١٩١٥ ، ص ١٣٦٦ ٠

وبدأ السلطان يتوجس خيفة من سعد ، هـــذا فى الوقت الذى حضر للسلطان محمود أبو النصر نقيب المحامين وبلغه بأن سعدا يسعى ليل نهار فى تخليص رجال الحزب الوطنى ليحل محل عبد العزيز جاويش ومحمد فريد وأنه يتوسط فى الافراج عنهم بعد أن اعتقلتهم الحكومة فى حوادث الاعتداء الأخيرة وأن السبب فى ذلك أن سعدا يمهد بهذه الوساطات لهؤلاء الشبان ليتولى زعامة الثورة ضد السلطان وضد الانجليز وأنه ينشر بين الشبان روح السخط والانقضاض على الانجليز ، وما كاد السلطان يعلم بهذه المعلومات حتى أبلغها الى رئيس الوزراء والى نائب الملك والى القائد العام للجيوش البريطانية وأراد نفيه لمالطة ٠

ولما سمع سعد ذلك أراد أن يقابل السلطان ليزيل من ذهنه هذا الانهام ويثبت تبرئة نفسه يقول : « توجهت الى الاسكندرية لمقابلة السلطان احباطا لعمل أولئك ، فذهبت الى سراى رأس التين وطلبت المقابلة فـــلم أحظ بها وفهمت من جواب التشريفاتى أن فى الأمر شيئا فعدت الى مصر ، وفى النفس أثر من هذا ورجوت محمود فخرى الأمين الأول أن يطلب تحديد جلسة ويعلمنى بها عند التفضل بها ، ولكنه الى اليوم ــ ١٦ سبتمبر ١٩١٥ ــ لم يعلمنى بشىء وقد كان رشدى باشا قد حضر عندى يوم الخميس الماضى فحكيت له فقال انى سأجتهد مع عدلى فى أن يكون لك جلسة فلم أقل له شيئا بل سكت سكوت المرتاح لهذا المسعى ولكى يخفف عنى قال دولته ان السلطان سريع الانفعال ولكنه طيب القلب ولكنه مشمئز ، قلت وما علة الاشمئزاز ؟ وما السبب فى هذا الخفض بعد الرفع ؟ على أنه ان كان ذنبى لديه أنى تكلمت معك فى بعض المعتقلين فلست الا صديقى أناجيك كما أناجى نفسى ، واذا نبهتك الى أمر ولم تر فيه رأى تركت الأمر وعدلت ، وقد أخذت أفكر فى الأمر طويلا وكنت بين السكوت التام عن كل سعى للاستعطاف والاسترضاء والسعى فيه بحسن الأول وأنه يصعب على أن أعتذر من غير ذنب وأن أهين النفس وأذلها طمعا فى رضاء لا أقدر على استدامته ولا أستطيع التمتع بدوام نعمته لأن ذلك يتطلب منى تجنب أمور أجهلها ومباشرة أمور لا أعلمها ولو علمتها ربما لا أتقنها ثم انى آنست من نفسى ضعفا عن الجهاد والعراك وقناعة عن الجاه العريض والمنصب الرفيع ، ويحسن الثانى أننا فى زمن فتنة وحرب ويجب على العاقل فيه أن يتقى شره بكل وسيلة لا ضرر منها بالغير ومن جهة أخرى فان عظمة السلطان سريع الرضاء وغيظه كالبرق اللامع ، قد يلومنى لائم بأنى لم أعدل عن الشفاعة فى بعض المعتقلين بعد حادثة المكباتى مع أنها كانت درسا عظيمـــا ينبغى الاعتبار به والارتداع عن مثل السعى الذى أوجبه ولكن لا يمكننى أن أسكت عن نصرة الحق والأخذ بيد الضعيف ولو كان لى عدوا خصوصا اذا التجأ الى فى الدفاع عنه وانى أرى من نعمة الله على أن يلتجىء الى الأعداء فى الشدائد لأنقذهم منها ويكون أكبر سرورى أن ينجيهم الله على يدى كما وقع لى مـع

الكثيرين ولهذا لا يمكنني بأى حال أن أوافق على ظلم يصدر من الحكومة خطأ أو عمدا مهما كان بيني وبين رجالها من الصداقة والمودة . نعم انى لاقيت من جراء ذلك صعوبات جمة وحرمت كثيرا من المنافع ولكن نفسى لا يصفو لها عين مع الباطل ولا تخلص لها لذة فى غير الحق . فاذا كان السبب فى غضب عظمة السلطان على أنى تشفعت فى بعض من حبسوا لاعتقـادى ببرآتهم أو لأن أهلهم استغاثوا بى فلا ينبغى لى أن أطمع فى رضائه لأنى فعلت ذلك وأفعله ولا يمكننى الاقلاع عنه ما دام فعله ممكنا والنفع منه متوهما ، وفضلا عما فى طبيعتى من الفتور عن الباطل والتأذى عن الظلم فانى قد عاهدت أمتى أيام الانتخابات أن أكون مدافعا عنها ساعيا فى رفعة شأنها ما استطعت الى ذلك سبيلا وقلت فى الجمعية التشريعية دائما أنا رجل وضعت فكرى وبيانى تحت تصرف أمتى ، فلا يمكننى أن أخالف هذا العهد أبدا سواء رضيت الحكومة عنى أو غضبت ، لقد عقدت النية على اعتزال السراى اذا لم يفد مسعى رشدى الذى وعدنى به من تلقاء نفسه فى القريب العاجل لا انتقاما من عظمته لأنه أكبر من أن يتأثر بهذا وأنا أضعف من أن أحاوله ولكن لا أربأ بنفسى عن الذلة والانكسـار وأرتفع بهـا عن أن ننال ارتفـاعا بانخفاض صحيح أن فى ذلك ما يشمت الأعداء ويؤذى بعض الأقارب فى مصالحهم ولكن لا يصح أن أكبد الأعداء بخفض جناح الذل وأن أنفع أقاربى بضعة النفس والحط من قدرى ثم انى أرى فى التقرب بعد ذلك الابعاد خفضا من شأن الأمة التى أنا أمثلها بصفة كونى وكيل الجمعية التشريعية وقد يكون من وراء هذا الاعتزال الاعتقال لانه أصبح سهلا لا يطلب له سبب الا ارادة ولى الأمر ، فاللهم ان السجن أحب الى من الاستخفاف بأمسى وعدم الاحتفاظ بكرامتى ، وقد عرفت من عدلى أن سبب غضب السلطان منى لابد وأن يكون أمرا آخر غير الرجا فى مسـألة المكباتى قلت لا أعلم شيئا غيره قال انه سمع من أحد أصدقائك فى الجمعية التشريعية أنه يريد انعقادها حتى يسأل الحكومة عن سياستها فربما توهم أنك تقاسم صاحب هذا الرأى رأيه فقلت ان هذه فكرة لم تدر بخلدى وليس فى موضوع هذه المسألة من خصائص الجمعية ، وعلى فرض أن يكون هذا الرأى رأيى فليس فيه ما يغضب السلطان » (*) .

ورغم التصريحات الثورية هذه ، تلك التى تنم عن استعداد سعد لقيادته للحركة الوطنية الا أنه عقب تصريحه بها ذهب والتقى بالسلطان وأصلح الموقف ووضح له أن الأمر ليس بهذه الدرجة من الأهمية وأن الرواية التى تقول بسعيه للشبان ليخلف فريد وجاويش لا أساس لها من الصحة .

ونجا سعد فى هذه المرة أيضا من تلك التهمة فلم يعتقل ولم ينف الى

(*) نفس المصـدر ، كراسة ٢٦ ، ٢٥ سبتمبر ١٩١٥ ، ص ص ١٣٥٣ ، ١٣٥٤ ، ١٣٥٥ ، ١٣٥٦ ، ١٣٥٧ ، ١٣٦٠ ، ١٣٦١ .

مالطة كما كان متوقعا بل روقب مراقبة شديدة الى نهاية الحرب الى أن خول اليه أن يتصدر الجبهة الثورية ويقود الحركة الوطنية ويصبح زعيم الشعب ٠

ومضى الشعب فى طريق الانتقام بأى شىء يمكن أن يضايق الانجليز ورجال الحكومة ، فكثرت حوادث الاعتداء على السكك الحديدية وذلك بفك القضبان وازالة الفلنكات وبوضع أحجار ضخمة على القضبان والهجوم على القطارات والاستحواذ على البضائع ، فمثلا حدث عند مركز أبى قرقاص أن قطعت السكك الحديدية وكسرت القضبان لمسافة أربعة وعشرين مترا (١) ٠ وفى ٤ مايو ١٩١٥ ضبط أحد الأهالى ويدعى عبد الرحمن المنشاوى وجمع معه شركاء له ومعه مفاتيح السكة الحديد وهم يفكون القضبان (٢) ، كذلك قبض على رجلين كانا يفسدان الخط الحديدى بالدلتا (٣) ومضى الناس يطلقون النيران على القطارات أثناء سيرها بين محطة وأخرى وذلك رغم التحركات الشديدة للداخلية التى منذ أن بدأت الحرب أصدرت الأوامر لكل العمد بمراقبة وحماية الطرق الحديدية والجسور والكبارى وذلك حتى لا تمتد اليها يد الغضب (٤) ، وقد عبرت هذه الأعمال عن سخط الأهالى على الانجليز ، اذ كانت القطارات تنقل الجنود بين أنحاء مصر ، وكان الشعب على غيظ كبير لذا أراد الانتقام بأى طريقة تقلق الانجليز وتهدد أمنهم فى حيطة وحذر دائما ٠

وردد الناس الكلمات فى الشوارع بعد أن فشل الرصاص والقنابل والخناجر ، فأثرت فى النفوس تأثيرا عميقا ٠٠ « ياونجت ياونجت ٠٠ بلادنا خربت ٠٠ نهبتم قمحنا ٠٠ نهبتم مواشينا ٠٠ نهبتم جمالنا ٠٠ أخذتم أولادنا ٠٠ لم تتركوا لنا الا أجسامنا ٠٠ اتركونا وشأننا » كانت على كل لسان يتغنى بها التلاميذ والموظفون والفلاحون ، وبالرغم من أنها لم تنشر فى صحيفة ، ولم تطبع على اسطوانة ومع ذلك فقد انتشرت من الاسكندرية لأسوان ، انها عبرت عن مأساة شعب يعيش فى كبت وظلام مقيد بالسلاسل والأغلال حياته موحشة فى ظل الأحكام العرفية وفى تلك الاجراءات والقرارات الظالمة المجحفة التى تتلخص فى نهب كل شىء والاستيلاء بالقوة على كل ما تمتد اليه يد السلطة لصالح جيوش الحلفاء المحاربة على أرض مصر ، والكاتب الانجليزى جورج يانج تكلم عنها وعن أثرها فى الشعب المصرى واعتبرها وثيقة تاريخية هامة فى مرحلة النضال ضد الانجليز ، وكان يونج ضابطا فى المخابرات البريطانية فى ذلك الوقت ومنتدبا للعمل فى مصر (٥) ٠

---

(١) La Bourse Egyptienne, 3 Juillet, 1915.

(٢) المؤيد ١٠ ، ٢٦ يوليو ١٩١٥ ٠

(٣) Weigall : A history of events in Egypt from 1798-to 1914, p. 278.

(٤) The Egyptian Gazette, Nov. 7, 1917.

(٥) Young : op. cit., pp. 227, 228.

وراح الشعور بالثورة يتأجج بين الصدور مع سطو الانجليز على الرجال والأموال والمحصولات والدواب وسوء الأوضاع الاقتصادية وانهيار الحالة الاجتماعية ، وكان لموقف الحلفاء السيء أمام الدردنيل عاجزين أمام أعدائهم الذين والوا انتصاراتهم أثر من الضغط على مصر ، فان هذا الأمر جعل الانجليز فى حيرة شديدة وعلى درجة كبيرة من الخوف ليقينهم بنفسية وبشعور الشعب المصرى اذا انتصر الألمان والأتراك ، فنكلوا بالمصريين وازدادوا فى القبض عليهم بسبب وبدون سبب رغم سوء حالة المعتقلين وتلك الشكايات المتعددة التى كان يرسلها أهاليهم والتى ضرب بها عرض الحائط ، كما جرى اعتقال أعداد كبيرة من قبائل أولاد على لخوفهم من الانضمام لأعداء انجلترا ورغم ظهور براءة البعض الا أن السلطة أبقت عليهم (١) ٠

وأعطيت الأوامر من قائد بوليس مصر بالقاهرة ـ هارفى باشا ـ لجميع أقسام البوليس فى العاصمة بأن يقبضوا على الأشخاص العاطلين ، وذلك خوفا من أن تفرغهم يتيح لهم فرصة العمل ضد الحكومة والانجليز ولكنه رغم ذلك فقد تسلم اسماعيل سرى وزير الأشغال العامة خطابا من مجهول يهدده فيه بالموت لقبوله العمل مع الانجليز (٢) ٠

وكان المعتقلون وطنيين جريئين فكثيرا ما كانوا يهتفون أثناء ترحيلهم بهتافات « فلتحى مصر حرة » يقولها أحدهم ثم يرد عليه زملاؤه ثلاث مرات بأعلى صوتهم ثم يردد « فلتحى السلطنة العثمانية » فيرد زملاؤه على ذلك ثلاث مرات وقد كثر الحراس البريطانيون حولهم وأقفلت القطارات التى ترحلهم حتى لا يعطوهم فرصة الهرب من النوافذ أو الأبواب (٣) ٠ لقد كان الأهالى بعواطفهم وصلواتهم وبكل ما يملكون من امكانيات مع تركيا المسلمة احساسا منهم بالرابطة الدينية من ناحية وبغضا لانجلترا التى تحتل أرضهم من ناحية أخرى ٠

وأصدرت السلطة قانون منع حمل السلاح (٤) معتقدة أنها بذلك تكسر شوكة الانتقام ، وحذر حمله واحرازه بدون ترخيص ، واستبيح حق تفتيش البيوت ومصادرته اذا وجد ، وغير الحكم العرفى من القانون المصرى بشأن ذلك حيث أوجد عقوبة الاعدام بدلا من الحبس لمدة أشهر ٠ وعانى الفلاحون من هذا الأمر ، وأصبحوا عرضة لتآمر العمد لعلاقات شخصية ، ومضت سياسة التعذيب والقسوة من أجل نزع السلاح ٠

---

(١) الحكومة المصرية : التماسات محفوظة ، ٦ ، ٢٠ ، ٣٠ يونيو ١٩١٦ ٠

(٢) La Réforme, 7 Juillet 1916, La Verité, 28 Mai, 1917.

(٣) Egyptian Gvt. Cairo city Police, No. 105, October, 1, 1916, p. 446.

(٤) Récueil des doc. relatif de la guerre, 21 Mai 1917.

وبذلك أرادت انجلترا تكميم الأفواه وشل الحركة لكل من سولت له نفسه مقاومة النظام القائم ، لكنها لم تستطع فاستمرت مناوءة الحكم ، ففى ١٧ أكتوبر ١٩١٨ حدثت مظاهرة بالاسكندرية ثائرة على الوضع ، اذ « اجتمع لفيف من العامة حاملين علما وساروا من جهة مسجد أبى العباس الى ميدان محمد على وحولهم جماعة يصيحون ، فشتتهم البوليس فى ميدان محمد على ولكنهم اجتمعوا ثانيا وذهبوا الى الميدان وهو شارع تجارى مزدحم فهاج الشارع كله واشتبك البوليس معهم وقبض على زعماء الثائرين وأودعوا بالسجن تحت قانون منع التجمهر » (١) .

وأعلنت الهدنة وانتهت الحرب لتضع حدا للظروف الصعبة التى مرت بها البلاد ، وبدأ أبناء مصر يضعون النقط على الحروف ، وبعد أن طفح بهم الكيل تتفجر ثورة ١٩١٩ ، ويسجل التاريخ أن المصريين شاركوا فيها بكل قواهم وامكانياتهم بعد الأنين والعذاب الذى قاسوه طوال فترة الحرب .

الحركة الوطنية خارج مصر :

لقد استطاع محمد فريد أن يقوم بمجهوداته اذ كان على يقين من أنه اذا تعاون كل من الأتراك والخديوى والطلبة المصريين المعتنقين لمبادىء الحزب الوطنى والمصريون الذين نفتهم السلطة العسكرية البريطانية من مصر بالاضافة الى مساعدة الألمان الذين كانوا على ثقة كبيرة من انتصارهم يمكن لمصر أن تجبر انجلترا بالتخلى عنها ، لقد كان فريد عدوا لانجلترا ولهذا فهو يرحب بكل دولة تحاربها .

وفى ٢٢ أغسطس ١٩١٤ رأى أنه أصبح لزاما عليه أن يبدأ برنامجه الكفاحى ، فأراد أن يتقرب من الخديوى ويحسن العلاقة معه فكتب اليه لانتهاز فرصة قيام الحرب والعمل على تخليص مصر من أيدى الانجليز واعطائها الدستور وأن ذلك لن يتأتى الا بمجهودات الحزب الوطنى داخل مصر وخارجها (٢) ، وبدأ فريد يبرهن على أنه مستعد للتحالف حتى مع الشيطان من أجل مصر وانتقل على الفور الى الآستانة مقر وجود عباس الذى راح يفكر هو الآخر فى مدى الاستفادة التى ستعود عليه من انضمامه الى زعيم الحزب الوطنى وخاصة بعد أن ساءت العلاقة بينه وبين رجال الدولة العثمانية .

وبدأ الاعداد للحملة التركية على مصر التى كان هدفها دخول مصر فى الوقت الذى تعلن فيه ثورتها على الانجليز ، واشترك فيها عدد من الطلبة

---

(١) الاكسبريس ١٩ أكتوبر ١٩١٨ .
(٢) محمد فريد : السابق ، الكراسة الثالثة ، ٢٤ نوفمبر ١٩١٤ ، ص ٨٤ .

المصريين الذين حضروا خصيصا من لندن لهذا الغرض (١) وأراد عباس أن يكون قائد الحملة ليعود بهذا الجيش الفاتح الى عرش مصر ، وأراد الأتراك أن يكون القائد جنرالا تركيا ، وأراد فريد أن يهزم الانجليز على أيدى هذه الحملة ٠

جاء الشق الثانى من الخطة وهو تشعيل الثورة فى الوقت المحدد وتعددت الاجتماعات بين أعضاء الحزب الوطنى وعباس ورجاله ، ووضع المنشور الذى وقعه عباس ليوزع على المصريين وتقرر تعيين مصطفى ماهر باشا قائمقاما للخديوى لحين عودته وعزل حسين رشدى ٠

وشرع فى تنظيم المخابرات مع مصر واشترك « أوبنهايم » الألمانى فيها الذى رأى انتخاب مندوبين فى روما ونابولى وأثينا لجمع المعلومات عن أحوال مصر ، وتشكيل قلمين للمخابرة فى نابولى وبيروت وطرابلس للاتصال بمصر وتثويرها فى الوقت المحدد ، وأن يكون للاسكندرية والآستانة وفينا شفرة للمخابرات ، واتفق أعضاء الحزب الوطنى على أن يكون عبد اللطيف المكباتى مندوب الاسكندرية ، وطرقت جميع الوسائل التى تنتهى بتوصيل الرسائل الى مصر ، ولكن انتهى الأمر بفشل المشروع حيث لم يكن عباس راضيا عنه فهو لم يأمن جانب الأتراك أبدا (٢) ، وانتهى به الأمر بأن غادر الآستانة الى فينا فى ١٥ ديسمبر ١٩١٤ ٠

وراح أعضاء الحزب الوطنى يعملون ، فأكثروا من الاجتماعات مع رجال الدولة العثمانية ولكنهم أيقنوا أن الاتراك لم تكن نيتهم خالصة فى جعل مصر للمصريين ، كما تخوف فريد من أعمال جمال باشا فى الشام اذ يقول « كل هذه الأعمال تنفر المصريين من الأتراك وتجعلنا نخشى أن يكون نصيبنا الشنق لو دخل جمال باشا مصر » (٣) ٠

وقرر فريد وحزبه كتابة انذار الى عباس يطالبونه بضرورة العودة الى الآستانة لاستكمال البرنامج الذى بدأوه والسعى لتخليص مصر مما هى عليه ، ومما شجعهم على ذلك وصول الأخبار المتتالية من مصر والتى تفيد بامكانية تحقيق الآمال التى تطلع اليها الحزب الوطنى (٤) ٠

وسعى فريد لارسال الأسلحة والذخائر للمصريين ، ولكن مخابرات الحلفاء كانت تعرف دقائق ما يفعله المصريون فى الخارج ، ومرة أخرى وبعد

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٠٢ ٠
(٢) أحمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن ، جـ ٣ صص ٥٣ ـ ٥٧ ٠
(٣) محمد فريد : السابق ، ص ٢١٠ ٠
(٤) نفس المصدر ، الكراسة التاسعة ، ص ٢٥٧ ٠

فشل الحملة التركية الثانية حاول فريد مع الأتراك من أجل مصر ولكن بدون نتيجـة (١) ٠

وضاع ما يتمناه فريد وحزبه من مساعدة الدولة العثمانية لهم أو حتى عون الخديوى اذ أثبتت الأحداث أن كليهما يسعى لمصلحته الخاصة ، وكانت امكانيات الحركة الوطنية خارج مصر ضيقة عاجزة عن القيام بمفردها بترجمة عملية لثوريتها ٠

وخارج الآستانة كان فريد يحضر المؤتمرات ويحاول أن يرفع اسم مصر فيها مثلما حدث فى « مؤتمر الأجناس » بلوزان فى يونيو ١٩١٥ حيث خطب فيه كما قدم على الشمسى تقريرا مطولا بشأن المسألة المصرية (٢) ٠

وكانت جمعية الشبيبة المصرية بجنيف قد عقدت اجتماعا فى ١٤ سبتمبر ١٩١٤ وهو ذكرى يوم دخول الانجليز القاهرة وأرسلت برقية الى رئيس وزراء انجلترا تطالبه بتحقيق وعود الحكومة الانجليزية التى كررتهـــا برد الحرية لمصر (٣) ٠

ونشر رجال الحزب الوطنى الدعاية المعادية للانجليز فى أوربا ، وخاطبوا انجلترا ، فنرى محمد فهمى رئيس اللجنة الدائمة للشباب المصرى فى أوربا يرسل خطابا مفتوحا الى رئيس وزرائها يطالب فيه باعطاء مصر حقها ٠ وفى ١١ ديسمبر ١٩١٥ اجتمع الطلبة المصريون فى جنيف وحضر بعضهم من لوزان وبرن وتناقشوا فى المسألة المصرية وقرروا انشاء صحيفة أسبوعيـــة لتهيئة الرأى العام الأوربى واستمالته نحو مصر ٠ وعلى أرض ألمانيا نظم الطلبة الذين يتلقون تعليمهم فيها لجنة وطنية أعلنت احتجاجها على تصرفـــات انجلترا على الأرض المصرية (٤) ٠

وبذلك يمكن القول ان الحركة الوطنية لم تكن منحصرة داخل مصر ، واكتفت بتلك الجبهة القوية التى حاربت بكل قواها الانجليز ، وانما خارج حدود مصر ارتفعت الأصوات وعلت الصيحات من أجل تحرير مصر ٠

---

(١) نفس المصدر ، الكراسة الرابعة ، ص ١٢٦ ، الكراسة التاسعة ، ص ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ ٠

(٢) نفس المصدر ، الكراسة السابعة ، ص ٢١٢ ٠

(٣) الوطن ٧ أكتوبر ١٩١٤ ٠

(٤) محمد فريد ، الكراسة السادسة ، ص ص ١٧٦ ، ١٧٧ ، احمد شفيق : المرجع السابق ص ص ٨٣ ، ٨٤ ، Landau : op. cit., pp. 129-131.

ختـام :

وضح من كل ما تقدم أن مصر فى الحرب العالمية الأولى تعرضت لظروف صبغتها بصبغة خاصة أثرت فى تاريخها ، فباعلان الحرب ودخول انجلترا فيها كان عليها أن توجه سياستها وفقا لمصالحها على الأرض المصرية ، فسيطرت عليها وأصبحت كل الاجراءات التى اتخذتها مصر بناء على رغبة الدولة المحتلة ، فأدخلتها الحرب بجانبها بدون مقابل ، وأصبح قائد الجيوش البريطانية فى مصر له السلطة المطلقة على مصر والمصريين ، فأصدر قانون التجمهـــر وأعلن الأحكام العرفية وفرض الرقابة على الصحافة • ورأت انجلترا أن الفرصة التى تنتهزها قد حانت بتغيير وضع مصر السياسى الـذى أقرته معـــاهدة لندن وفرمانات السلطان العثمانى ، فأنهت السيادة العثمانية نهائيا وأعلنت حمايتها عليها بدون أن يكون لذلك سند قانونى ، وعزلت الخديوى عباس الذى كانت لا ترتاح اليه ، وعينت الأمير حسين كامل بدلا منه ، فكان أول حاكم لمصر فى ظل الحماية ، وتبعه الأمير أحمد فؤاد فى المنصب ، وعانت مصر فى عهدهما أشد المعاناة وتحكم المندوب السامى فيها خاصة بعد أن ظهرت أهميتها الحربية بالنسبة للحلفاء •

وانتهت الحرب ورددت الشعوب المغلوبـة على أمرهـــا مبادىء ولسن الأربعة عشر فى حق الأمم لتقرير مصيرها ، والتى أيدتها انجلترا وفرنسا فى تصريحهما المشترك ، وأحست مصر أن الوقت قد حان لتنال ما تريد ولتكافأ عما قدمته لانجلترا وحلفائها طوال فترة الحرب ، وخرجت فكرة تأليف الوفد لعرض القضية المصرية على مؤتمر الصلح أو على الأقل للتفاهم مع لندن فى مستقبل مصر حيث جاء الوقت الذى يجب أن يعطى لها بعد كل ما ضحت به ، ولكن جاء الاعتراف الدولى بالحماية البريطانية على مصر ليحطم الأمل فى الحصول على العدالة •

وغيرت الحرب مجرى الحياة الاقتصادية فى مصر ، فاستصدر النقــد الورقى ـ بعد أن انخفضت قيمة الذهب وقل استيراده ـ وازدادت كميته تبعا للظروف التى مرت بها البلاد ، فالجيوش البريطانية مرابطة ، وسعر القطن غير ثابت ، فانخفضت قيمته ونشأ التضخم المالى ، كما أصبح اصدار هذا النقــد مضمونا بأذونات الخزينة البريطانية ، وبذلك انتمت العملة المصرية الى الاسترلينى ، وظهر العجز فى مجالات متعددة •

وامتنعت البنوك عن التسليف على القطن ، وأغلقت بورصة مينا البصل ، وتوالت الحجوزات على الأهالى وانتزعت ملكياتهم لتحصل ضرائب الحكومة ، التى خفضت المساحة المنزرعة قطنا وأحلت الحبوب محلها لتموين الجيوش البريطانية ، واحتكرت انجلترا محصول القطن وحددت سعره بنصف السعر المتداول ، ونقص محصول الحبوب بالرغم من ذلك نظرا للحاجة الملحة اليه • وبالنسبة للانتاج الحيوانى فتعرضت مصر لأزمته لانقطـــاع الوارد ولتموين الجيوش البريطانية وللأمراض التى هاجمته •

وفيما يختص بالصناعة فقد توقفت الواردات فى حين أن مصر ومن عليها فى احتياج الى الغذاء والكساء ، فتهيأت الظروف للرأسمالية المصرية وألفت لجنة التجارة والصناعة ونهضت بعض الصناعات •

أما التجارة ، فالداخلية ارتفعت أسعارها لعدم الاستيراد من الخــارج وضرورة سد احتياجات الجيوش البريطانية ، ولعب التجار دورا فى هذا المجال ومعظمهم أجــانب ، وبالرغم من التســعيرة التى وضــعتها الحكومة الا انه لم يعمل بها ، وكان لذلك انعكاساته على الشعب •

وعن التجارة الخارجية ، فقد عاقت الحرب فى بادىء الأمر ورود السلع المستوردة ، كما أوقفت الحكومة حركة التصدير وخاصة المــواد الغذائية ، ومنعت مصر من التعامل مع أعداء انجلترا وكان لهذا أثره على اقتصـــادها ، ومالبث الأمر أن سمحت الحكومة بالتصدير فارتبكت السوق التجارية •

وأثرت الأوضاع السياسية والاقتصاديـــة على فئات الشعب ، وتفاوت الأمر بين الطبقات ، فهناك من استفاد من الحرب وكانوا قلة معظمها من غير المصريين ، أما السواد الأعظم من المصريين فقد قاسى الأمرين وخاصة المثقفون والعمال والفلاحون ، واتسم المجتمع المصرى فى هذه الفترة بأمراض اجتماعية أثرت عليه كالبطالة والفقر والجرائم •

أما عن المظــاهر الثقافية فشملت التعليم الذى كان لانجلترا موقفا تجاهه فعملت على التغيير من وضعه رغبة منها فى شغل المصريين عن السياسة لكن ذلك لم يشفع لها عندهم • وأقام الانجليز المذابح للصحافة وهى التى تصل الى القلب وتغذى الروح ، فأوقفت الأقلام المناهضة لها ، وتحكمت فى كل كلمة

تكتب فيهـــا ، وبالرغم من ذلك فهنـــاك من تحايل وصمد أمام التيـــار ٠ وظهرت الاتجاهات الفكرية ، فسادت النزعة الاشتراكية التى دعمتها ظروف الحرب العصيبة ، وبرزت قضية تحرير المرأة ، وارتفعت أصوات دعاة السفور كذلك كان للمسرح دور فعال وايجابى فى نقد المجتمع فى هذه الفترة ٠

وكان على مصر بعد أن أصبحت طرفا فى الحرب دخول ميدانها ، فعلى أرضها عسكرت جيوش الحلفاء ، وأصبحت قاعدة أساسية فى الشرق الأوسط دارت عليها معظم العمليات الحربية ، وخرجت منها الحملات العسكرية ، وكان للجيش المصرى مجهوداته فى رجحان كفة الحلفاء ، وليس الجيش فقط وانما الرديف وتلك الفرق التى كونتها انجلترا من العمال والجمالة المصريين للخدمة فى الشرق الأوسط وفرنسا والدردنيل ٠ ولم تكتف بذلك بل أجبرت مصر على تلك المساعدات الاقتصادية من جمع الأموال والدواب والحبوب والمحاصيل والاستيلاء على المبانى والأراضى لأجل السلطة العسكرية ٠

وأمام ذلك كله كان لابد للحركة الوطنيـــة أن تقاوم ، ومنذ اللحظة الأولى لقيام الحرب مارست انجلترا الرقابة الصارمة على المصريين الذين ساءهم دخول مصر الحرب وتلك الاجراءات التعسفية التى تبعت ذلك ، وبذل الانجليز مع المسئولين من المصريين الذين ساروا فى ركابهم وعلى هديهم كل ما فى وسعهم للقضاء على أى نشاط تقوم به الدولة العثمانية وألمانيا ، ومضت أيديهم تبطش بالمصريين وخاصة اتباع الحزب الوطنى ، وازدادت حركة الاعتقالات والنفى ، وبالرغم من ذلك كثرت المنشورات الثورية ، وأضرب طلبة الحقوق عن حضور زيارة السلطان لهم اذ اعتبر خائنا لقبوله العمل تحت الحماية البريطانية ، وحدثت المحاولة الأولى لاغتياله ثم الثانية لكن ساعده الحـــظ فنجـــا من المحاولتين ، كذلك جاءت محاولة اغتيال وزير الأوقاف الموالى للانجليز لكنها أيضا لم يصبها النجاح ٠ وخرجت محاولات الانتقام من الانجليز اما بالاستيلاء على أدواتهم أو بقطع طرق مواصلاتهم أو بالاعتداء على عساكرهم ٠ كان ذلك رغبة أكيدة للتنفيس عما يجيش بصدورهم ٠ ولم تقتصر الحركة الوطنية داخل مصر بل وجدت جبهة وطنية خارجها تزعمها محمد فريد ولكن لم يكتب لها التوفيق ٠

وبقيت مصر متحفزة ومستعدة تنتظر اللقاء الثورى الذى سرعان ما التهب وقامت ثورة ١٩١٩ والتى أقر جميع المعاصرين لها بل والمشتركين فيها بأن ما تعرضت له مصر أثناء فترة الحرب هو الذى أشعلها ٠



المصادر والدوريات والمراجع الخاصة بالدراسة

أولا : الوثائق غير المنشورة :

● وثائق وزارة الخارجية المصرية
Ministère des Affaires Etrangers, Registre des lettres reçues, 1914-1918.

● وثائق وزارة الداخلية :
Egyptian Government, Cairo city police, 1914-1918.

× مجالس المديريات ، قسم الادارة .
× أوامر عمومية وتقارير عن الأمن العام .
× ملفات أذونات المعاشات لكبار رجال الدولة ولعمال السلطة .
× محفوظات ادارة المطبوعات ١٩١٤ ـ ١٩١٨ .
× جلسات مجلس الوزراء ١٩١٤ ـ ١٩١٨ . Conseil des Ministres

● وثائق وزارة الاشغال العمومية
Ministry of public works, Central Office of Registration and Archives, Inspection general of Irrigation, 1914-1918.

● وثائق حرس الحدود .
مصلحة أقسام الحدود ، كوبيا السواحل ١٩١٤ ـ ١٩١٨ .

● ديوان معية سنية ، صادر عربى ١٩١٤ ـ ١٩١٧ .

● ديوان رئيس الجمهورية ، وارد ١٩١٤ ـ ١٩١٦ .

● الديوان العالى السلطانى ، المحفوظات العربية للوارد الرسمى وغير الرسمى ١٩١٥ ـ ١٩١٧ .

● الحكومة المصرية ، التماسات محفوظة ١٩١٦ ، ١٩١٧ .

- عمليات أورط رديف الجيش المصرى ١٩١٧ ــ ١٩١٩ ، دفاتر وارد ، جزء أول وثالث ٠
- وثائق وزارة المالية
  - × ادارة عموم الحسابات ١٩١٧ ، ١٩١٨ ٠
  - × كوبيا عموم المصلحة ١٩١٥ ، ١٩١٦ ٠
- وثائق وزارة المعارف ، قلم السجلات ١٩١٦ ــ ١٩١٨ ٠
- سكرتارية القناة ٠

Gouvernment Egyptien, Canal Secretariat, Correspondance Reçues, 1915-1918.

- وثائق وزارة الخارجية البريطانية ٠ Foreign Office, 1914-1919.
- تقرير شفيق منصور فى قضية السير لى ستاك عام ١٩٢٥ المحفوظ فى ملف القضية ٠

ثانيا : المذكرات الشخصية المخطوطة :

- مذكرات سعد زغلول ٠
- مذكرات محمد فريد ٠
- مذكرات ابراهيم الهلباوى ٠
- مذكرات عبد الرحمن فهمى ٠
- مذكرات محمد بهى الدين بركات ٠
- مذكرات محمد على علوبة ٠
- مذكرات فخرى عبد النور ٠
- مذكرات فتح الله بركات ٠
- مذكرات الخديوى عباس الثاني (وهى منشورة في صحيفة المصرى ابتداء من ٣١ مارس ١٩٥١ الى ١٩ يوليو من نفس العام) ٠
- أوراق محفوظة لدى محمود سليمان غنام وابراهيم فرج ٠

ثالثا : الوثائق المنشورة :

- Ministère des Finances Egyptienne :

— Récueil des documents relatif de la guerre, 1914-1918.

— Récueil des documents officiels 1915-1919.

● الكتاب الأبيض ونشرته صحيفة الشعب نوفمبر ١٩١٤ .

● Hansard's Parlimentary Debates :

— House of Commons, 1914-1920.

— House of Lords, 1914-1920.

● National Bank of Egypt, Assemble generale, 1915-1918.

● Ministry of Foreign Affairs, Report by her Majesty's Agent and Consul general on the Finances, Administration and Condition of Egypt and the Sudan, 1903-1920, Allenby report, Milner report.

● Ministère d'Agriculture, Report d'Allegation Commerciaux et Agriculture.

● تقرير لجنة التجارة والصناعة .

● تقرير يبين حالة التعليم فى مصر قدمه محمد توفيق رفعت .

رابعا : الدوريات :

(أ) العربية :

آخر ساعة المصورة ـ الأخبار ـ الاصلاح ـ الاكسبريس ـ الأفكار ـ الأمة ـ الأهالى ـ الأهرام ـ البلاغ ـ البيان ـ التجارة ـ الجريدة ـ الجنس اللطيف ـ الحال ـ الحرية ـ الدليل ـ السفور ـ السفير ـ السيف ـ الصاعقة ـ الشباب ـ الشعب ـ العالم الاسلامى ـ العدل ـ العفاف ـ العمران ـ عكاظ ـ الغرفة التجارية المصرية ـ فتاة الشرق ـ الكوكب ـ المحروسة ـ المستقبل ـ مصر ـ المقتطف ـ المقطم ـ المنار ـ المنبر ـ المؤيد ـ الهلال ـ وادى النيل ـ الوطن ـ الوقائع المصرية .

(ب) الأجنبية :

The Egyptian Gazette — The Egyptian Mail — The Egyptian Morning News — The Times — The Near East — La Bourse Egyptienne — Le Progrès Egyptien — Le Journal du Caire — La Reform — La phare d'Alexandrie — Les Nouvelles — les Pyramides — l'Indisponsable — La Verité — L'Egypte Contemporaine — Bulletin Commercial.

خامسا : المراجع :

(أ) العربية :

- د. ابراهيم عبده : جريدة الأهرام تاريخ وفن ١٨٧٥ ـ ١٩٦٤ ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٥١ .
- أحمد شفيق : ـ حوليات مصر السياسية ، الحولية الأولى ، القاهرة ١٩٢٤ .

  ـ مذكراتى فى نصف قرن ، الجزء الثانى والثالث ، مصر ١٩٣٦ .
- أحمد لطفى السيد : قصة حياتى ، الهلال ١٩٥٩ .
- أحمد محمد غنيم ، أحمد أبو كف : اليهود والحركة الصهيونية فى مصر ١٨٩٧ ـ ١٩٤٧ ، الهلال ١٩٦٩ .
- ادوارد كوك : تلخيص أسباب انقطاع العلاقات الودية بين بريطانيا العظمى والدولة العثمانية المدونة بالمكاتبات الرسمية المنشورة من وزارة الخارجية البريطانية بلندن ، لندن ١٩١٥ ، مترجم .
- أمين عز الدين : تاريخ الطبقة العاملة ، القاهرة ١٩٦٧ .
- أمين مصطفى عفيفى : تاريخ مصر الاقتصادى والمالى فى العصر الحديث ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٥٤ .
- جاد لبيب : بناء الاقتصاد المصرى والعلاقات الاقتصادية والمالية بين مصر وانجلترا ، القاهرة .
- جورج طنوس : سلامة حجازى ، مصر ١٩١٧ .
- جولييت آدم : انجلترا فى مصر ، تعريب على فهمى كامل ، الطبعة الأولى .
- حسين على الرفاعى : الصناعة فى مصر ، القاهرة ١٩٣٥ .
- د. راشد البراوى ، محمد حمزة عليش : التطور الاقتصادى فى العصر الحديث ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ١٩٤٩ .
- سلامة موسى : تربية سلامة موسى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٨ .
- شهدى عطية : تطور الحركة الوطنية ١٨٨٢ ـ ١٩٥٦ ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٥٧ .
- صبرى أبو المجد : زكريا أحمد ، القاهرة ١٩٦٣ .

- عباس محمود العقاد : سعد زغلول ، القاهرة ١٩٣٦ ٠
- عبد الرحمن الرافعي : ثورة ١٩١٩ ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٤٦ ٠
- عبد العزيز فهمي : قصة حياتي ، الهلال ١٩٦٣ ٠
- عمر طوسون : مذكرة بما صدر عنا منذ فجر الحركة الوطنية ، الطبعة الثالثة ، الاسكندرية ١٩٤٢ ٠
- القضية المصرية ١٨٨٢ ـ ١٩٥٤ ومن مشتملاتها تقرير اللجنة الخصوصية لمصر ، القاهرة ١٩٥٥ ٠
- لورنس : الثورة في الصحراء ، ترجمة رشيد كرم ٠
- محمد أغا خان : مذكرات نقله الى العربية دار العلم للملايين ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٥٩ ٠
- محمد حسين هيكل : ـ شخصيات مصرية وغربية ، القاهرة ١٩٥٤ ٠
  ـ مذكرات في السياسة المصرية ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥٨ ٠
- محمد خيرى حربى : تطور التربية والتعليم ، القاهرة ١٩٥٨ ٠
- محمد شكرى الكرداوى : خمسة وخمسين شهرا في المخبأ ، القاهرة ١٩٣٦ ٠
- د٠ محمد عبد العزيز عجمية : دراسات في التطور الاقتصادى ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٦٣ ٠
- د٠ محمد فهمى لهيطة : تاريخ فؤاد الأول الاقتصادى ، القاهرة ١٩٤٥ ٠
- د٠ محمد مندور : المسرح ، القاهرة ١٩٦٣ ٠
- محمود أحمد الحفنى : سيد درويش ، القاهرة ١٩٦٢ ٠
- محمود بيرم التونسى : ديوان ، الجزء الثانى ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٤٨ ٠
- محمود طاهر العربى : اثنى عشر عاما في السجون ، القاهرة ١٩٢٤ ٠
- ملكية عريان : مركز مصر الاقتصادى ، القاهرة ١٩٢٣ ٠
- ويفل المارشال : اللنبى في مصر ، ترجمة ابراهيم الأقطش ٠
- يوسف نحاس : جهود النقابة الزراعية المصرية العامة ، القاهرة ١٩٥٢ ٠

(ب) الأجنبية :

— Allenby, Edmund : A Brief Record of the advance of the Egyptian Expedionary force, Cairo 1919.

— Arthur, George : Kitchener et la guerre 1914-1916, Paris, 1921.

— Badcock, G. E. A history or the transports services of the Egyptian expedionary force 1916-1918, London 1925.

— Beaman, Arden Hulme : The dethronement of the Khedive, London, 1929.

— Bourgeois, Albert : La formation de l'Egypte moderne, Paris 1939.

— Chafik, Hassan : Statut juridique international de l'Egypt, Paris 1922.

— Chirol, Valentine : The Egyptian problem, first edition London 1921.

— Cromer, Earl of : Abbas II, London, 1915.

— Crouchley, A.E. : The economic development of modern Egypt, first published, London, 1938. The investment of foreign capital in Egyptian companies and public debt, Cairo 1936.

— Elgood, P.G. : Egypt and the army, London 1924. The transit of Egypt, London, 1928.

— Fahmy M. : The legal principles governing the international status of Egypt, London, 1928.

— Fargeon, M. : les Juifs en Egypt, Le Caire, 1938.

— Galatoli,A. : Egypt in mid passage, Cairo, 1950.

— Hallberg, Charles : The Suez Canal, its history diplomatic importance, New York 1931.

— Hurewitz, J. C. : Diplomacy in the near and middle east, 2 vols, London 1957.

— Issawi, Charles : Egypte an economic and social analysis, London, 1947. Egypt in revolution, London, 1963.

— Kearsy : The operation in Egypt and Palestine 1914 to June 1917, London.

— Laqueur : Communism and Nationalisme in the Middle East, London 1956.

— Lambelin, R. : L'Egypte et L'Amgleterre vers l'independance de Mohamed Aly au roi Fouad, Paris 1922.

— Landau, Jacol : Parliaments and parties in Egypt, New York, 1954.

— Laurance : Seven pillar.s of wisdom a Triumph, London, 1950.

— Le Groupe d'Etude d'Islam : L'Egypte independente, Paris 1938.

— Lloyd, George : Egypt since Cromer, 2 Vols, London, 1933.

— Macmunn, G. : Military operation, Egypt and Palestine, London, 1928.

— Major R.A.M.C. : with R.A.M.C. in Egypt, London, 1918.

— Manifold : An out line of the Egyptian and Palestine compaigns 1914-1918, Eighth edition, 1932.

— Marlowe, Jhon : Anglo Egyptian relation 1800-1953, first published. London 1954.

— Massey, W. T. : The desert compaigns, London 1918.

— National Bank of Egypt 1898 — 1948, Cairo, 1948.

— O'Rourke, A. : The juristic status of Egypt and Sudan, London 1935.

— Roux, ch. : L'Egypte et l'Occupation Anglaise à l'Independance Egpytien, Paris, 1929.

— Sabry, M. : La question de l'Egypt depuis Bonapart jusqu'à la revolution de 1919, cinquieme edition, Paris 1920 .

— St. Antony's papers. Number II, Middle eastern affairs studied by Albert Hourani, London, 1961. Kedourie Elie : SA,AD Zaghlul and the british.

— Shah, Ikbal Aly : Fouad King of Egypt, first published, London 1930.

— Symons, Travers : Britain and Egypt, first edition, London 1925.

— Wavell, Archibald : Allenby in Egypt, London, 1943, The Palestine Compaigns, Third edition, London 1941.

— Weigall, E. P. Brome : A history of events in Egypt from 1798 to 1914, London, 1915.

— Wingate, Ronal : Wingate of the Sudan, first published, London, 1955.

— Young, George : Egypt, first published, London, 1927.

الفهرست



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٣٥٨٣/ ١٩٨٤

ISBN — ٩٧٧ — ٠١ — ٠٣٨٩ — ٦





تناولت هذه الدراسة فترة تاريخية حية من تاريخ مصر الحديث ، ورغم قصرها إلا أنها ضمت بين جنباتها الكثير من الأحداث المتلاحقة التى أثرت فى نضال الشعب المصرى ، حيث أن الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية التى أخضعت مصر لها شكلت قوة دفعت بها فى نهاية الحرب العالمية الأولى إلى إندلاع الحركة الوطنية وتفجير ثورة ١٩١٩ ، وعليه فإن هذا المؤلف يعطى الصورة الدقيقة الصادقة والحية للواقع الذى عاشته مصر فى أثناء تلك الحقبة ، وينقلنا لتتبع الحقائق التاريخية ، ويعرض لنا المعاناة الكاملة والتضحيات الجسيمة التى قدمتها مصر من أجل أن تنال المقابل لما دفعته .

٢٨٥ قرشـاً

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب